أديب إسحق

الكتابات السياسية والاجتماعية

جمعها وقدم لها
ناجي علوش

دار الطليعة - بيروت

أديب اسحق

الكتابات السياسية والاجتماعية

أديب إسحق

الكتابات السياسية والاجتماعية

جمعها وقدّم لها
ناجي علّوش

دار الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٨

تقديم

اديب اسحق
سيرته وافكاره

اديب اسحق احد رواد النهضة الادبية السياسية في القرن التاسع عشر . وهو من ابرز هؤلاء الرواد . ولكنه أهمل ، كما اهمل كثير من هؤلاء . فلم تعطهم المؤسسات الثقافية العربية ما يستحقون من اهتمام . ولم تنشر مؤلفاتهم ، الا استثناء . ولذلك فكرنا منذ سنة ١٩٦٦ بالتصدي لهذه المهمة . وتبنت دار الطليعة للطباعة والنشر هذا المشروع الجليل . ولكن التنفيذ تعطل سنوات .

وسرّنا ان يقوم الاخ محمد عمارة بمبادراته في هذا المجال ، اذ اصدر المؤلفات الكاملة للافغاني والكواكبي عن دار الكاتب العربي في القاهرة ، ومحمد عبده والطهطاوي عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت .

ولكن ما نقوم به نحن مختلف عما قام به الاخ محمد عمارة ، وربما كان اكثر شمولا . اننا اولا ، لا ننوي ان ننشر المؤلفات الكاملة لهؤلاء الرواد الان . ذلك ان نشر المؤلفات الكاملة لكل هؤلاء عبء كبير ، يحتاج الى الكثير من الجهد والمال والوقت . ثم انه قد لا يكون منسجما ، على اهميته ، مع الهدف الذي اردناه ، وهو تقديم هؤلاء الى أوسع قطاع من القراء العرب . ولذلك فاننا نهدف الى جمع

تراث هؤلاء الرواد ودراسته ، واختيار مختارات منه ، تمثل فكر كل منهم وأسلوبه . ثم نقدم لهذه المختارات بدراسات عن الرجل وعصره ، وأثره وتأثره، ما يكفل معرفة دورهم الثقافي والسياسي ومصادر فكرهم وآثاره .

على ان ذلك لا يعني اننا نقلل من أهمية نشر المجموعات الكاملة ، فنحن نعتبر نشر هذه المجموعات ضروريا وهاما ومفيدا . ولسوف تكون هذه الخطوة التي نخطوها اولى خطواتنا . وسنعمل على اصدار المجموعات الكاملة بعد ذلك .

وسنبدأ هذه السلسلة بأديب اسحق ، لا لسبب محدد ، ولكن لان المواد اللازمة لدراسته توافرت قبل ان تتوافر المواد اللازمة لدراسة غيره من رواد هذه النهضة الذين نسعى الى إحياء تراثهم دون استثناء . ولسوف نسمي هذه السلسلة «إحياء التراث العربي المعاصر» .

ولسوف يتناول تقديمنا هذه المختارات :

١ ــ شيء عن عصر اديب اسحق .
٢ ــ سيرته الذاتية : ميلاده ، دراسته ، عمله ، نشاطه الصحفي ، وفاته .
٣ ــ فكره ونضاله .
٤ ــ أسلوبه الادبي .

١ ــ شيء عن عصر اديب اسحق .

كانت الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر «الرجل المريض» فعلا . وكانت لذلك تتفسخ وتتحلل تحت ضغط العوامل التالية :

اولا : الصراع الاستعماري على ارث «الرجل المريض» . وكانت روسيا وبريطانيا وفرنسا تحلم باقتسام التركة ، بينما اختارت المانيا خط التسلل من الداخل بالتفاهم مع السلاطين . وكانت الامبراطورية العثمانية هي الاكثر تخلفا في هذا الصراع ، بينما كانت الدول الاوروبية تزداد قوة بتطور التكنولوجيا فيها ، وبزيادة قوتها العسكرية والاقتصادية . وعلى الرغم من اختلاف الدول الاستعمارية الاربع المذكورة حول كيفية اقتسام هذه التركة ، فقد كان هدفها جميعا تفتيت الامبراطورية العثمانية . ولقد اختارت فرنسا وبريطانيا ان تحدا من الخطر الروسي على الامبراطورية العثمانية ، لتتمكن كل منهما من انتزاع حصة الاسد في الصراع القائم . وبينما كانت الامبراطورية العثمانية منهمكة في مواجهة الخطر الروسي وحل بعض المشاكل الداخلية ، هاجمت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨ ، واحتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ ، كما احتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٩ ومصر سنة ١٨٨٢ . كما ان هذه الدول زادت من تدخلها في الشؤون الداخلية للامبراطورية العثمانية ، وخاصة بعد حوادث سنة ١٨٦٠ في لبنان .

ولقد شهد هذا القرن الحروب النابليونية ، كما شهد الصراع البريطاني ــ الفرنسي والفرنسي ــ الالماني ، والحروب الروسية ــ العثمانية . وساعدت هذه الحروب بعض الشعوب على النضال في سبيل الاستقلال ، كما سحقت

شعوبا أخرى .

ثانيا : انتشار افكار الثورة والتحرر والتقدم . وكان لهذه الافكار مصدران :

أولهما : الثورة الفرنسية وانتشار افكارها وأخبارها بين المتعلمين في تركية والبلاد العربية واقاليم الامبراطورية العثمانية الاخرى . وقد انتشرت عن طريق البعوث والبعثات التبشيرية والكتب والتجار والسياح .

ثانيهما : الثورات التي حدثت في اليونان والبلقان ، ولقد استطاعت اليونان ان تستقل .

كما ان ايطاليا كانت تخوض معركة وحدتها وتقدمها منذ أوائل هذا القرن . وشهدت فرنسا انتفاضات هامة سنة ١٨٣٠ و١٨٤٨ و١٨٧١ . وكان لذلك كله مجاريه ومساربه الى بلادنا .

ثالثا : الحركة الداخلية في بلادنا . وكانت هذه الحركة متعددة الاتجاهات. انها حركة الاكثرية ضد الاستعمار الاوروبي اولا . ولقد كان هذا الصراع من عوامل التمسك بالرابطة الاسلامية وبالامبراطورية العثمانية . وهي حركة الصراع ضد طغيان الخلافة العثمانية وتخلفها ثانيا . وكان هذا الصراع يعبر عن نفسه بالدعوة للاصلاح من جهة ، وبقيام حركة التمرد من جهة اخرى . وكانت حركات التمرد نوعين : أولهما تمرد الاقطاعيين والولاة والقبائل ، وثانيهما : الحركات الشعبية الفلاحية ، مثل عاميات لبنان وخاصة (١٨٤٢ و١٨٦٠) وانتفاضات الفلاحين في سورية وأهمها عامية جبل الدروز ما بين ١٨٨٥ و١٨٩٠ .

وكان تمرد محمد علي والي مصر أهم هذه الحركات من حيث أثره على الامبراطورية والروح الاستقلالية فيها . اذ انه جعل من مصر قاعدة لمطامحه الكبيرة ، فبنى جيشا كبيرا وقاعدة علمية واقتصادية لدولة متقدمة ، وحارب العثمانيين وهزمهم . كما انه اخضع اقساما واسعة من البلاد العربية . واقام علاقات تعاون مع فرنسا . ولكن بريطانيا وفرنسا وضعتا حدا لمطامحه قبل ان يترسخ نظامه ويتوطد (١٨٣١ ــ ١٨٤١) .

ولكن سياسة محمد علي تركت آثارا هامة ، سياسية واقتصادية واجتماعية. فهي من جهة ادخلت العلوم وأنشأت العلاقات الثقافية مع فرنسا تخصيصا ، وهي من جهة اخرى ضربت الاقطاع ، وفرضت المساواة بين المذاهب المختلفة، وادخلت اصلاحات على الادارة ، وفرضت الامن . ومع ان الجماهير لم تتقبلها، ودخلت في صراع مع السلطة الجديدة ، الا ان آثار محمد علي ستبقى في مجرى التطورات اللاحقة .

وصاحب ذلك كله توجه نحو العلم والثقافة ، فأنشئت المدارس والمعاهد والجمعيات والمطابع والصحف ، وأخذت الحركة العلمية والثقافية تتقدم . واتخذ خط التقدم الثقافي وجهتين : الاولى تقوم على تجديد الفكر الاسلامي ، بما يجعله قادرا على مواجهة العصر الحديث والثانية ، تقوم على تعلم العلوم الاوروبية وتمثلها ، وكان الاتجاهان يلتقيان ويبتعدان ، ولكنهما ظلا رافدين من روافد الفكر العربي الحديث . وقد أثر كل منهما بالآخر وتأثر به .

وحاولت السلطة العثمانية ان تواجه الوضع الجديد ، المتمثل بالتهديد الخارجي والصراعات الداخلية ، فلجأت الى مجموعة من الاصلاحات سنة ١٨٣٩ و١٨٥٦ و١٩٧٤ ، لتنظيم شؤون الادارة والقضاء والعلاقات الاجتماعية ، وتحديد الحقوق السياسية للمواطنين . وكان ان ظهر مصلحون احرار أمثال مدحت باشا وخير الدين التونسي وغيرهم . ودارت رحى الصراع بين السلاطين والمصلحين، فقامت الانقلابات ، وكان ينتصر السلاطين حينا والمصلحون حينا ، ولكن حركة التقدم كانت مستمرة .

ولد أديب اسحق ومات وسط هذه الحركة المعقدة ، وشهد تداخل السياسات وصراعها ، وتداخل الثقافات وصراعها . ولما كان سورياً عاش في لبنان ومصر ، وهاجر الى فرنسا ، وعمل موظفا في الادارة العثمانية ، والمصرية ، ثم عمل في الصحافة ، وعاش في ظل الاحتلال العثماني والبريطاني ، فقد عاش تجربة الصراع كله . ولا غرابة اذا انعكس هذا كله في فكره وفي ادبه .

٢ ـ اديب اسحق : سيرة ذاتية :
في دمشق ١٨٥٦ ـ ١٨٧١

تؤكد جميع المصادر التي ارخت لاديب اسحق انه ولد سنة ١٨٥٦ ، ويشير بعضها الى انه ولد يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني (١) . وكان ميلاده في دمشق . وهناك درس في مدرسة الآباء العازريين مبادىء العربية والفرنسية . وكان بادي الذكاء منذ حداثته ، متفوقا على زملائه . ويبدو ان ولعه بالشعر كان ظاهرا ، وان روحه الادبية كانت بادية حتى ان استاذه في مادة اللغة الربية كان يقول لوالده : «ان ابنك سيكون قوالا» اي شاعرا . وما لبث أديب ان نظم الشعر وهو لم يتجاوز العاشرة ، ولم يكن قد تعلم العروض بعد .

واصيبت عائلته بحادث أجبره على مغادرة المدرسة وهو في الحادية عشرة، فاضطر للعمل كاتبا في الجمارك بمبلغ مائتي غرش في الشهر . وكان خلال ذلك يدرس اللغة التركية ، حتى اصبح قادرا على القراءة والكتابة ، في مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة اشهر .

وما لبث ان اجاد التركية الى درجة انه ترجم قصيدة للشاعر كمال باشا في مقتل السلطان عبد العزيز ، ملتزما فيها عين الوزن والقافية . وسرعان ما تمت ترقيته في عمله بسبب معرفته بالتركية واجادته الكتابة . ومع ذلك فلم يكن العمل ليصرفه عن القراءة والكتابة ومكاتبة المجلات .

وما كاد يبلغ الثانية عشرة حتى كان له اكثر من الف بيت من الشعر في ابوابه المختلفة .

---

١ ـ جورجي زيدان : «اشهر مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» ، ١٩٢٢ ، ص ٦٩ ـ ٧٣) وعوني اسحق ، مقدمة «الدرر» طبعة ١٩٠٥ ص٠ع .

في بيروت ١٨٧١ – ١٨٧٦

انتقل أديب من دمشق الى بيروت . كان والده يعمل في البريد ، وقد طلبه لمساعدته . وكانت بيروت في هذا الوقت تعيش مخاض نهضة سياسية وأدبية، فانغمس اديب في جوها الادبي ، وتعرف الى عدد من الادباء والشعراء الذين احبوه واحبهم ، لانه كان لطيف المعشر ودودا ، وتبادل معهم الآراء في الشعر والنثر ، وناقشهم وناقشوه .

وما لبث ان استقال من عمله في البريد ، وعمل في الجمرك مرة ثانية ، وهو في السابعة عشرة . الا انه كان قد اصبح يطمح الى عمل آخر تصبو اليه نفسه ، وهذا العمل هو الكتابة . ووجد ضالته في العمل بتحرير جريدة التقدم.

أكسبه عمله في التقدم شهرة واسعة ، فبدأ الناس يتحدثون عن طلاوة أسلوبه وقوة عبارته . وانكب في هذه الفترة على الكتابة والترجمة ، فترجم قسما من معجم «المعاصرين» الفرنسي ، ولكن هذا القسم لم يطبع . وألف كتابا اسماه «نزهة الاحداق» طبعه وقدمه الى أحد وجهاء بيروت ، كما انه ترجم لصاحب التقدم كتابين احدهما في العادات والاخلاق ، وثانيهما في الصحة [٢] ، وقد طبعا دون ذكر اسمه .

وانضم في هذه المرحلة الى جمعية زهرة الآداب عضوا ، ثم تولى رئاستها، وكان يلقي فيها الخطب والمحاضرات والقصائد .

ومن المؤكد ان مشاركته في جمعية زهرة الآداب ، قد ساعدت على تنمية مواهبه الخطابية وقدرته على الحوار .

وطلب منه سليم شحاده سنة ١٨٧٥ ان يشاركه في تأليف آثار الادهار [٣] ، فعمل معه عاما وبعض عام في القسم التاريخي . كما انه عرّب في هذه الفترة مسرحية اندروماك للشاعر الفرنسي راسين بطلب من قنصل فرنسا . وقد عرّب المسرحية «ونظم أشعارها ورتب الحانها وعلم أدوارها في مدى ثلاثين ليلة» كما يقول جورجي زيدان .

وشارك صديقه سليم النقاش في تأليف بعض الروايات وتعريب بعضها الآخر . وكأنه كان يعد نفسه للانصراف للعمل في المسرح .

---

٢ ـ لم نهتد الى هذه الكتب الثلاثة بعد .

٣ ـ لم نهتد الى هذا الكتاب ايضا .

في مصر :

جاء أديب مصر سنة ١٨٧٦ (٤) ، دفعه الى ذلك رغبته في ان يشارك صديقه سليم النقاش في تقديم برامج مسرحية . وكان قد اشترك مع سليم من قبل في «تأليف وتعريب بعض الروايات التي مثلت في القطرين المصري والسوري» (٥) . «واستدعى سليم النقاش الى الاسكندرية صديقه اديب اسحق لمعاونته في التمثيل والتأليف والادارة» . (نقولا زيادة . اعلام من الاسكندرية ، ص ٤٥٨) . غادر اديب بيروت ، وما ان وصل الاسكندرية ، حتى اجرى تعديلات اساسية على مسرحية راسين المعنونة « اندروماك » . وكان في القاهرة آنذاك جمال الدين الافغاني الذي سمع به اديب . وهو في بيروت (٦) . وكان الافغاني ملتقى الباحثين عن نور الفكر والحرية ، ولم يلبث ان سافر الى القاهرة سنة ١٨٧٧ (٧) ، وانخرط الشاب الطامح في حلقته في قهوة «متاتيا» (٨) . كيف تعرف بالافغاني ؟ ليس هناك معلومات دقيقة . يقول سليم عنجوري ان رجلا يدعى حنين الخوري هو الذي ارسل أديبا الى جمال الدين «فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة» ، أما أديب فقد «... لزمه (أي الافغاني) ثمت ملازمة اللام للالف ، واقبل عليه اقبال الهائم العاني الكلف ...» (٩) . ويقول شبلي الشميل انه هو الذي عرّف اديب اسحق بجمال الدين الافغاني في بيت حنا عيد قنصل البلجيك . كما ورد في كتاب : الشرق في فجر اليقظة لانور الجندي ص ٢٦ . وكان جمال الدين يشجع «... بعض الموهوبين على احتراف الصحافة وتكريس الجهود لها» (١٠) ، وذلك لمساعدته على نشر أفكاره ، وعلى التعبئة ضد التخلف والظلم والعدوان .

ولما رأى الافغاني استعداد اديب وقدرته ، اشار عليه باصدار صحيفة . وكان أديب لا يملك شيئا من المال الا عشرين فرنكا ، فساعده جمال الدين على

---

٤ — موت اديب اسحق Elie Kedourie : Arabic Political Memoirs and other studies ص ٨١ — ١٠٠ .

٥ — عوني اسحق : «الدرر» طبعة ١٩٠٥ — مصر — المقدمة ص هـ .

٦ — فتحي الرملي : «البركان الثائر جمال الدين الافغاني» ، الناشر العربي ، نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٤٦ .

٧ — ايلي خدوري ، المرجع السابق ص ٨٢ .

٨ — فتحي الرملي ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

٩ — محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الاول ، ص ٤٥ نقلا عن ديوان العنجوري «سحر هاروت» .

١٠ — د. سامي عزيز : «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزي» : دار الكاتب العربي ١٩٦٨ ، ص ٢١ .

استصدار الامتياز . وهبّ الشاب المتحمس ليصدر الصحيفة فورا . ويقول اخوه عوني في ذلك : «فتولى امتيازها ، وهيأ موادها في يوم واحد ، ولم يكن في يده اكثر من عشرين فرنكا ، وفي اليوم الثاني برزت تتجلى في ابهى مطرف من مطارف البلاغة ..» (١١) .

صدرت «مصر» في أوائل تموز سنة ١٨٧٧ ، في مدينة القاهرة . وكانت القاهرة آنذاك تعيش صراعا شديدا بين جهات متعددة . فمن جهة كان هناك الصراع بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي على مصر ، وكان هناك صراع السلطنة العثمانية مع الاستعمارين المذكورين ، ومع خديوي مصر اسماعيل ، ممثل اسرة محمد علي التي استقلت في بداية القرن ، ثم ما لبثت ان عادت الى الصراع من اجل الاستقلال ضد البريطانيين والفرنسيين والسلطنة . وكان اسماعيل طموحا يحاول الاستفادة من هذا الصراع لتقوية مركزه . ولما كانت الحركة الشعبية قد اخذت تتمخض عن تحرك سياسي زاده حضور الافغاني عمقا واتساعا وتأججا ، حاول اسماعيل ان يستفيد من هذا التحرك لتقوية مركزه (١٢).

ثم ما لبث اديب ان نقل الصحيفة الى الاسكندرية ، حيث عمل وسليم سوية . لماذا نقلت ؟ هناك من قال بأن الافغاني اشار عليه بذلك لسهولة وصول الاخبار الى الاسكندرية ، وهي ثغر (ميناء) . ومع اننا لا نريد ان ننفي ذلك ، الا اننا نعتقد ان الافغاني هدف من ذلك الى التالي :

أ ــ خلق حركة سياسية في الاسكندرية ، وهي المدينة الثانية في القطر المصري .

ب ــ سهولة وصول الاخبار الى الثغر من الخارج .

ج ــ سهولة ارسال الصحيفة الى الخارج .

وراجت صحيفة «مصر» التي وضع الافغاني خطتها ، ورسم خطها ، وشارك فيها بما يوحيه وما يمليه وما يكتبه (١٣) ويكتبه تلامذته أمثال محمد عبده (١٤) والنديم . وكان اديب اسحق يعززها ببلاغته وقدراته الكتابية وبثقافته ومعرفته وامانيه السياسية .

وبعد ان راجت «مصر» ، وهي اسبوعية ، أصدر اديب وسليم صحيفة يومية أسمياها «التجارة» سنة ١٨٧٨ ، ومن المرجح ان الافغاني هو الذي اشار عليهما بذلك ، كما تجمع المصادر المختلفة . وأخذت التجارة تتم رسالة مصر ،

---

١١ ــ عوني اسحق : المرجع السابق ، ص هـ ــ و من المقدمة .

١٢ ــ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

١٣ ــ «مصر» ، السنة الثانية ، العدد ٣٣ تاريخ ١٤ شباط ١٨٧٩ ــ مقال بعنوان الحكومة الاستبدادية لحضرة استاذنا الفيلسوف الشهير آية الحكمة جمال الدين الافغاني .

١٤ ــ «مصر» ، السنة الثانية ٥ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ ، مقالتان للاستاذ الامام محمد عبده عن التربية والصناعة .

في مخاطبة القراء يوميا . ولقد «لقيت الجريدتان رواجا كبيرا ولفتتا اليهمـا الانظار بروحهما الجديدة» (١٥) .

ساهمت جريدتا مصر والتجارة في الحركة الثقافية والسياسية ، وعبرتا عن خط الافغاني ، فأيدتا الشورى ضد الاستبداد ، وهاجمتا السياسة البريطانية ، ونقلتا أفكار الثورة الفرنسية (١٦) ، و «ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والاجتماعية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية ...» (١٧) .

وحين عزل اسماعيل (غادر يوم الاثنين ٣٠-٦-٧٩) خلفه ابنه توفيق الذي كان على صلة بالافغاني وكان جمال الدين من مؤيديه (١٨) . ولقد شارك الافغاني والحزب الوطني في ترتيب عملية العزل على أمل ان يتيح لهم توفيق ما لم يتحه اسماعيل في تأرجحه وسط خضم الصراع . وقد وفد على توفيق وفد من المحفل الماسوني في مصر ، وخطب احدهم بين يديه قائلا : «ان من هم الماسونية مع تجردها من المسائل السياسية ، ان تعين على تقدم النجاح والتمدن بتعليم الناس حقوقهم وواجباتهم ، وان هذه الصفة المميزة لها على سائر الجمعيات السياسية ، قد جلبت لهم حماية الملوك الذين كانوا في كل زمان وحال يعدون الانتماء اليها شرفا» .. واضاف : «وقد اتينا نصرح بين أيديكم انه يمكن لسموكم ان تعتمدوا على مساعدة الماسونية في كل ما يتعلق بتوفير اسباب التمدن والنجاح في الديار المصرية» . وقد اجابهم توفيق على ذلك ، انه : «مسرور مما اظهروا له من العواطف وعالم بنبالة المقصد الماسوني ، وانه يعتمد على اعانتهم فيما يوفر اسباب التمدن والتقدم» ووعدهم برعاية محفلهم (سليم النقاش : مصر للمصريين ، الجزء الرابع ص ١) . الا ان توفيق عطل الحياة الدستورية ، وجمع مجلس الوزراء برئاسته ليتخذ قرارا بابعاد جمال الدين عن مصر في ٢٤-٨-١٨٧٩ . وقد اجبرت الصحف على نشر خبر ابعاده فامتثلت جميعا ما عدا مرآة الشرق (١٩) .

واستدعى الخديوي توفيق رياض باشا لرئاسة الوزارة في ٢١-٩-٧٩ ، فجاء لينفذ السياسة الجديدة ، وهي سياسة القمع الداخلي ، والخضوع للاجانب ، فدافعت صحيفتا مصر والتجارة عن شريف باشا، ولم يكن هذا مفاجئا،

---

١٥ ـ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

١٦ ـ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٢٢ ـ ٢٦ .

١٧ ـ طاهر الطناحي (تقديم وتعليق) : «مذكرات الامام محمد عبده» ، ص ٤٧ .

١٨ ـ محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

١٩ ـ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

اولا بسبب غياب الافغاني ، كما ينقل عن عبد الله النديم [٢٠] ، وهاجمتاه ، لان شريف باشا كان مع الشورى آنذاك ، وقد أيدته الصحافة من قبل عندما قدم لائحته الدستورية (التجارة ٩ ، ٢٧ ، ٣٠ ابريل ١٨٧٩) [٢١] .

ولقد استمرت صحيفتا مصر والتجارة في حملتهما على الاجانب ، والرقيبين الانجليزي والفرنسي والحكومة فأنذرتا : وهذا هو نص الانذار الذي نشرتـــه التجارة في العدد ١٢٣ بتاريخ ١٥-١١-٧٩ :

«اخطار رسمي من ادارة المطبوعات الى حضرة صاحب امتياز جريدتي مصر والتجارة» .

«قد تكرر الانذار لاصحاب امتياز الصحف عموما ، ومن الجملة لحضرتكم بأن تسلكوا في نشرياتكم المنهج المعتدل الموافق لقانون المطبوعات ، مع ملاحظة ظروف الزمان والمكان . ومع هذا فلا يزال يرى مع الاسف خروجكم عن هذا الموضوع ، واستمراركم على طريقة غير معتدلة ، في نشرياتكم متواليا ، لا يتأتـى منها الا تخديش أذهان العامة . ولهذا لزم اصدار هذا الاعلان لكم اولا ، لاعلامكم بأن هذه الخطة ليس مرخصا لكم فيها هذه الحرية التي تستعملونها في نشرياتكم . ثانيا لاعلامكم ايضا ان لم تتركوا هذا المسلك فهذا آخر انذار لكم والا فيصير الغـــاء جريدتيكم مصر والتجارة بالكلية» [٢٢] .

وعلقت التجارة على ذلك قائلة :

«لقد رأينا ان نثبت هذا الاخطار غير مشفوع بأي ملاحظات ، مراعاة لظروف الزمان والمكان ، ولكن كان بودنا لو اظهرت ادارة المطبوعات شيئا ممـــا يوجب اصداره ، فانه لا يؤخذ من انذارها غير الاشارة الى كوننا نستعمل الحرية فـي نشرياتنا . ولا شك ان ذلك لا يصح سببا للقصاص في عهد أمير طيب ... الخ وفي عهد وزارة معروفة بحرية اعضائها الكرام ... اما التجارة فان المسلك الذي تختاره لادراك غايتها النبيلة ، انما هو المدافعة عن حقوق الوطن وحكاية الامور الواقعة ، والقيام بأمر الحق والتشبث بأهداب الاعتدال ، ولا ريب ان هـــذا المسلك يضمن لها رضى أولي الامر وسائر ذوي الالباب ، فضلا عن ان يوجب لها العقاب » .

وكان رد فعل السلطة ان الغت الصحيفتين «مؤبدا» بالقرار التالي :

«سبق صدور الانذارات مرارا عديدة ، وتنبيهات شفاهية الى اصحـــاب الجرائد الاهلية عموما ، والى اصحاب امتياز جريدتي مصر والتجارة خصوصا ، بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ، ولا ينشرون مـا يوجب تشويش الافكار ،

---

٢٠ ـ عبد العليم القباني : «نشأة الصحافة العربية بالاسكندرية» ، الهيئة المصرية العامـــة للكتاب ، ص ٧٣ .

٢١ ـ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

٢٢ ـ جريدة «التجارة» ، العدد ١٢٣ ، ١٥-١١-٧٩ .

وصدر له آخر انذار بأنه اذا رجع لمثل ذلك ، فتلغى جريدتاه بالكلية ، وحيث انه بعد هذا الانذار ، لم يترك مسلكه الاول ، لما نشره في جريدته التجـــارة نمرة ١٢٣ الصريح في انه لا يرجع عما هو مصر عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره اكثر من نفعه اقتضى الحال صدور الحكم من ادارة المطبوعات بالغائهما مؤبدا» (٢٣) .

واضطر اديب اسحق ان يغادر مصر ، وقيل بأنه نفي (٢٤) ، قبل نهاية ١٨٧٩ ويقول اخوه عوني في تفسير ذلك : «ولما طرأت الحوادث العسكرية وكان مـــن اصحاب الاعتدال عاد الى بيروت في جملة المهاجرين (٢٥) . ولكن متى جاء مصر لم نستطع ان نعرف تاريخ وصوله الاسكندرية ، ومن ثم القاهرة . فهناك حادثة تثبت انه كان في بيروت سنة ١٨٧٦ ، وهذه الحادثة هي انه ارتجل بيتين من الشعر مودعا سليم النقاش» حين مسيره الى مصر في جماعته المشخصين سنة ١٨٧٦ (٢٦) . وهناك حادثة اخرى تثبت انه كان في بيروت سنة ١٨٧٧ ، وهي رسالته الى سليم النقاش التي ارسلها من بيروت (٢٧) . ولكن ليس من السهـل الاعتماد على هذين التاريخين لعدم دقة المرجعين في التأريخ . وهناك من يؤكد انه وصل الاسكندرية سنة ١٨٧٦ والقاهرة سنة ١٨٧٧ (٢٨) . ويبدو انه جاء مصر وعاد الى بيروت خلال هذه المدة ولكنا لم نستطع ان نحصل على مصادر موثوقة في ذلك وما يوجد دليلا لا يعدو ان يكون اشارة عابرة غير مدققة (فتحي الرملـــي : البركان الثائر ، جمال الافغاني ص ٤٦) .

في باريس :

سافر أديب الى باريس ، بعد ان حاول الحصول على رخصتـــي صحيفتين جديدتين ، هما العصر الجديد والمحروسة ، فلم يتم ذلك له بالسرعة المطلوبة ، فكتب الى وزير الاشغال علي مبارك يستحثه بعد ان صار «العصر الجديد قديما بما مر عليه من مؤثرات الانتظار» (٢٩) . ويبدو انه كان شديد العجلة من امره،

---

٢٣ ــ عبد الرحمن الرافعي : «تاريخ الثورة العرابية» ، ص ٦٩ .
٢٤ ــ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٣٧ ــ ٣٨ .
٢٥ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، مقدمة عوني اسحق ص.ح .
٢٦ ــ جرجس نحاس : «الدرر» ، ١٨٨٦ ، ص ٢٦٣ .
٢٧ ــ عوني اسحق : المرجع السابق ص ٥٢ .
٢٨ ــ ايلي خذوري : المرجع السابق ص ٨١ ــ ٨٢ .
٢٩ ــ عوني اسحق : «الدرر» ، طبعة سنة ١٩٠٩ ــ بيروت ص ٧٤ .

لان صحيفتي مصر والتجارة الفيتا في منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٧٩ . ولذلك فان الحديث عن ان الوعد طال واستطال (٣٠) لا مبرر له . ولذلك سافر اديب الى باريس ، وظل سليم النقاش لتدبر أمر الصحيفتين الجديدتين .

وهناك من يؤكد بأن الحزب الوطني (القديم) أوفد اديب اسحق الى باريس «ليقوم بالدعاية للحزب في العاصمة الفرنسية ، وليهاجم «رياض» من هناك»(٣١)، وأوكل الى سليم النقاش امر الصحيفتين الجديدتين ، فصدرت المحروسة في ٥-١-١٨٨٠ والعصر الجديد في ٨-١-١٨٨٠ وهذا يعني ان أديب اسحق غادر مصر الى فرنسا قبل نهاية عام ١٨٧٩ ، وخلال شهر كانون الاول من ذلك العام على الارجح .

ويبدو انه كتب فور وصوله رسالة الى صديقه جبرائيل مخلع جاء فيها : «وقد وصلت باريس بعد سفر اخذ البرد بجانبيه ، وامسك التعب بطرفيه ، وشرعت في تحرير الصحيفة ، بعد ان عثرت على المطبعة الملائمة والمركز الموافق ، وكتبت للصديق ... بتفصيل خبري» (٣٢) .

بدأ اديب حياة جديدة في باريس . أصدر اول عدد من صحيفته مصر ثم مصر (القاهرة) في ٢٤-١٢-١٨٧٩ . وجاء في العدد الاول : محرر الجريدة وصاحبها اديب اسحق . تطبع في باريس تحت سماء الحرية لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية . فمن تفضل بمراسلتنا فليجعل العنوان كما يأتي :

Mr. Adib Isaac, 2 Rue Racine

حرية ، مساواة ، اخاء .

«اللهم ايد بنا أمر الحق وكلمة الصادقين ، وانصرنا على القوم الظالمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين» .

واشار في العدد التاسع الى تغيير العنوان ، حيث اصبح :

(13 Rue Jean Jaques Rousseau)

وجاء في الافتتاحية :

«هذه صحيفة مصر - طواها الاستبداد فماتت شهيدة ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة . حاول رياض باشا المتصدر في مصر اطفاء نوري وأبى الله الا ان يتم نوره وان كره الظالمون» .

ويضيف اديب في الافتتاحية :

«مقصدي : ان أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي ، وارفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، واحيي الغيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه . وليخرجوا من خطة الخسف

---

٣٠ - عبد العليم القباني : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

٣١ - عبد العليم القباني : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

٣٢ - عوني اسحق : «الدرر» ، طبعة ١٩٠٩ ، ص ٨٨ .

وينبذوا عنهم كل مدالس ، ويستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم الى الاجانب ، بما يطمعون في رفعة المقام ، فمن مات دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد . ومن عاش بعد اولئك الشهداء فهو سعيد» (٣٣) .

واصلت الصحيفة حملتها على رياض ، وكانت تسميه «رياضستون» ، وكانت توزع في مصر على يد خصوم رياض ، رغم صدور امر بمنع دخولها (٣٤) .

واستغل اديب اسحق وجوده في باريس ، فأقام علاقات مع بعض رجال الدولة ، وكتب مقالات في الصحف الفرنسية عن الشرق، وحضر جلسات مجلس الامة واستفاد من المكتبة الاهلية ، «فطالع فيها عدة مؤلفات من المخاطيط العربية القديمة ونسخ عنها نتفا كثيرة» (٣٥) .

كان البرد قارسا في باريس ، فبلغت الحرارة ثلاثين تحت الصفر(٣٦) ، وكان اديب مقبلا على العمل ، قراءة وكتابة ، كما انه أطلق العنان لرغبات الشباب ، فأصيب بالسل ، فقرر ان يعود الى بيروت بعد ان قضى في باريس تسعة اشهر.

هل أعاده المرض ؟ أم ان مهمته انتهت ؟ يبدو ان العاملين اجتمعا معا ، اذ لو كانت هناك ضرورة لبقائه لارسل من ينوب عنه .

في بيروت ثانية :

عاد أديب الى بيروت مصدورا ، فزار دمشق كما تشير احدى رسائله الى صديقه اديب نظمي (٣٧) . ثم عاد الى «التقدم» يحررها . وكان ذلك مع بداية عام ١٨٨١ ، ظل يحرر التقدم ، حتى أقيلت وزارة رياض باشا ، بعد مظاهرة عابدين في التاسع من ايلول سنة ١٨٨١ . وحين عاد شريف باشا الى رئاسة الوزارة قرر اديب ان يعود . وقد اشارت التقدم في عددها (٧٥) بتاريخ ٢٩-٩-١٨٨١ عن سفر اديب الى مصر ، ثم ودعته في عددها التالي (٧٦) تاريخ ٢٣-١٠-١٨٨١ .

---

٣٣ ـ انور الجندي : «تطور الصحافة العربية في مصر» ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

٣٤ ـ د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

٣٥ ـ جرجس نحاس : «الدرر» ، ١٨٨٦ ، ص «و» من المقدمة .

٣٦ ـ جرجس نحاس : «الدرر» ، المرجع السابق ، ص «و» من المقدمة .

٣٧ ـ عوني اسحق : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

أديب في مصر ثانية :

عاد اديب الى مصر ، ويقول اخوه في «الدرر» بأن شريف باشا استقدمه (الدرر ص ٣٦٨) ، فعين ناظرا لقلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف (٣٨) الذي انشيء في اكتوبر سنة ١٨٨١ . (الوقائع المصرية ١٣-١٠-١٨٨١) . واثنت صحيفة المفيد بتاريخ ١٢-١٠-١٨٨١ على تعيينه ، كما اختير سكرتيرا ثانيا لمجلس شورى النواب وانعم عليه الخديوي برتبة البكوية ، وسمح له باصدار صحيفته مصر (٣٩) التي صدرت بتاريخ السبت الموافق ٣ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٨١ وقد كتب على صفحتها الاولى مصر : جريدة وطنية سياسية ادبية تصدر مرة في الاسبوع . صاحبها ومحررها اديب اسحق ، ناظر قلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف . وطبعت في مطبعة جريدة المحروسة . ولكن أعباءه كانت كثيرة وصحته عليلة ، فأوكل امر تحرير مصر الى اخيه عوني بعد ان أشير عليه بذلك، وان كان يساهم مساهمة كبيرة في تحريرها الى حين مغادرته مصر مجددا .

وكانت الصحف تساند عرابي ، ومنها مصر ، بينما كان شريف باشا يخشى قوة الجيش ، ولذلك أصدر قانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ ، واستقال شريف باشا في ٢ شباط ١٨٨٢ ، وأصبح محمود سامي البارودي رئيسا للوزراء (٤٠) . واستغلت وزارة البارودي قانون المطبوعات المذكور أعلاه للتضييق على الصحافة ، فكثرت الانذارات ، وتركزت سياسة الحكومة في الحملة ضد صحف السوريين ، «وكان من نتائجها اختفاء جريدة الاحوال ثم جريدة الاهرام وتعطيل جريدة المحروسة ثلاثة اشهر ، وتعطيل جريدة مصر لاديب اسحق مرة ثانية» (٤١) . ويشير محضر استجواب محمود سامي البارودي ان اديب اسحق كان يشارك في عملية التعبئة الثورية ، بعد ازمة ايار (مايو) سنة ١٨٨٢ في مصر التي تبحث عن طلب بريطانيا وفرنسا استقالة وزارة البارودي وابعاد قادة الثورة . كما انه شارك في عملية التعبئة خلال شهر شباط ، كما تشير الوقائع ، اي مع مجيء الوزارة العرابية (٤٢) . ولكن يبدو ان اديب اسحق غادر مصر بعد ذلك ، وليس هناك معلومات حول هذه القضية . ان مقدمة جرجس نحاس لكتاب «الدرر» الصادر سنة ١٨٨٦ ، يورد ما نصه في المقدمة : «ولما طرات الحوادث العسكرية عاد الى بيروت فيمن هاجر الى القطر السوري» . كما يورد في مقدمة لاحدى

---

٣٨ - جرجس نحاس : المرجع السابق ، ص «و» من المقدمة .

٣٩ - عبد العليم القباني : المرجع السابق ، ص ٨١ .

٤٠ - محمد رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

٤١ - د. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

٤٢ - صلاح عيسى : «الثورة العرابية» ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ٤٠٤ و ٤٢٩ .

قصائده : «وقال مادحا فقيد مصر المغفور له محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصري ، وذاكرا هجوم ضباط الجند على منزله خلال الفتنة العرابية ، وبعض هذه القصيدة نظم قبيل السجن والنفي ، وبعضها في سجن المحافظة بالاسكندرية ١٦ ايلول سنة ٨٢» (٤٣) . وهذا يعني ان اديب اسحق غادر مصر بعد ايار (مايو) وعاد اليها بعد واقعة التل الكبير التي حدثت في ١٣-٩-٨٢ بأيام . ويبدو ان اديب اسحق انضم قبل ان يغادر الاسكندرية الى الصحافة المؤيدة للخديوي ، وانه زود صحيفة الاعتدال التي كان يصدرها حمزة فتح الله والتي تشيعت للخديوي بعد انتقاله للاسكندرية بالمقالات والمنشورات . (نجيب توفيق : عبد الله النديم ص ١٥٥) . ويؤيد ذلك الدكتور ابراهيم عبده في كتابه «تطور الصحافة المصرية» ص ١٢٨ من الطبعة الثالثة . وكان شريف باشا رئيسا للوزراء وعلي مبارك وزيرا ، ومحمد سلطان باشا من مؤيدي الخديوي وشريف باشا ضد الثورة . ومع ذلك فان البريطانيين لم يسمحوا له بالعودة . وقد سجنوه في الاسكندرية ثم أبعدوه . وسنعود الى تفسير ذلك كله في فصل لاحق .

في بيروت من جديد :

عاد اديب الى بيروت ، وعاد الى «التقدم» مرة ثالثة . ولكن الداء اشتد عليه ، فأشار عليه الاطباء باعتزال العمل . فكتب في العدد (١١٥) من التقدم بتاريخ ١٩ شباط ١٨٨٤ معتذرا . يقول اديب : «معذرتي الى حضرة المشتركين الكرام ، فاني قد الجئت الى ترك خدمتهم حينا من الدهر لا عن سأم ولا ملل، ولكن لما طرأ على الصحة من الخلل . فاني قد أصبت منذ اشهر بآلام عصبية تحاملت فيها على النفس حتى ما بالنفس احتمال . وغالبتها بالصبر حتى ما للصبر مجال ، ورجعت الى الاطباء فأوجبوا عليّ عزلة الشغل ، والتفرغ للراحة والعلاج الى ان يقضي الله امرا كان مفعولا . فأنا لذلك اودع الجريدة آسفا على علم بأنها لا تعدم من يقوم بارضاء السادة القراء وأسألهمَ بعد التكرم بقبول معذرتي ان يؤازروني بجميل الدعاء» . وتكتب التقدم : «قد أسفنا لاضطرار محررنا الفاضل الى اعتزال الجريدة بما طرأ على صحته من الخلل منذ بضعة اشهر فنحن نودي ذاكرين آثاره المشكورة في الجريدة ، راجين له الشفاء» . ونصح بعد ذلك بالسفر الى مصر للاستفادة من هوائها الملائم . ولما كان مبعدا استنجد بصديقه محمد سلطان باشا ، فأجيب الى طلبه . ولم يقض في مصر الا

---

٤٣ ـ جرجس نحاس : «الدرر» ، ص «و» من المقدمة وص ٢٨ .

فترة قصيرة ، زار خلالها القاهرة والاسكندرية . وبعد ان مكث فترة في محلة الرمل بالاسكندرية أقنعه الاطباء بالعودة الى بيروت فعاد .

الايام الاخيرة في لبنان :

عاد الى بيروت ، وانتقل الى مصيفه في الحدث . كان الداء يثقل عليه ، وما لبث ان مات بعد عودته بثلاثين يوما ، سنة الف وثمانمائة واربع وثمانين في الثاني عشر من حزيران (٤٤) وكان لا يتجاوز التسعة والعشرين عاما . ونشرت المحروسة خبر وفاته في عدد ١١٧٦ ، الصادر يوم ٣ تموز ١٨٨٤ تعليقا على رسالة وردتها من اسكندر عازار ، من جملة الرسائل . ونعته المجلة قائلة : «وآسفاه على من اختطفه من البين ، فغاب ولم يغب خياله عن العين ، ووالهفاه عليه من نابغة اسكت المقدور لسانه ، واسكن القضاء بنانه ، وما ترك لنا مجددا للحسرات الا بيانه» . وأشارت بعد ذلك الى الرسائل التي وردت من بيروت، دون ذكر الاسماء ، ونشرت رسالة اسكندر عازار ، مذكرة بأنه سيخصص كتابا للفقيد، وقد حزن عليه الافغاني ، ورثاه في «العروة الوثقى» قائلا : «غالت نائبة الدهر ، طراز العرب وزهرة الادب ، صفينا اديب اسحق ، وترك لنا قلوبا آسفة وشؤونا فائضة » (٤٥) .

أحداث غريبة :

وقد افتعل الكاهن الذي استدعي لاصطحاب جثمانه الى الكنيسة مشكلة . ذلك انه طلب من والده ان يسجل بخطه وتوقيعه ان ابنه عاش ومات كاثوليكيا . وكادت المشكلة ان تتحول الى فتنة ، كما يقول اخوه عوني في مقدمة «الدرر» ، بين اهله وأصدقائه وأنصار الكاهن .

وهناك تفاصيل لما جرى آنذاك ، ضمها تقرير القنصل الفرنسي في بيروت باتريمونيو المؤرخ ٦ـ٩ـ١٨٨٤ والمحفوظ في ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية. يقول التقرير : ان صحيفة التقدم كانت تتسم بنزعة تحررية حقة في السياسة والدين . ولقد وضع اديب اسحق نتيجة لذلك على القائمة السوداء عند رجال الدين . ويشير التقرير الى ان اديب اسحق كان ماسونيا . وكان ليو الثالث عشر قد إدان الماسونية في ٢٠ ـ ٤ من العام عينه .

---

٤٤ ـ ايلي خدوري : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٤٥ ـ عبد العليم قباني : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

ويضيف التقرير ان اديب اسحق المفكر الحر، رفض على فراش الموت الخدمة الكهنوتية عندما زاره الكاهن . وحين مات ، لم تجد عائلته مانعا من ان تعلن من انه مات كاثوليكيا ، كما طلبت السلطات الكهنوتية . وقد وقع والده على ذلك كتابة .

ولقد اراد اصحابه ان تكون «جنازته مظاهرة ضد الكنيسة الكاثوليكية وجبروتها» فحدثت اشكالات في المقبرة . واراد اهله واصحابه ان يدفن في بيروت ، حيث يمكن ان يحتشد عدد كبير ، فأصرت السلطات الكهنوتية ان يتم القداس على روحه في الحدث ، وأن تمنع الخطب .

ولقد طبّق الكاهن التعليمات بدقة وبخشونة ، واستعان ببعض ابناء الطائفة لمساعدته .

ولم تلبث صحيفة «البشير» لسان حال اليسوعيين ان نشرت بعد ايام من وفاته البيان الذي وقع عليه والده . فأثار ذلك سجالا وقام اصحاب اديب بالدفاع عن انفسهم ضد هجمات الكنيسة الكاثوليكية ، وطلبوا رئيس الرهبنة اليسوعية امام القضاء . ولكن الطلب رفض ، وطلب رئيس الرهبنة الحماية الفرنسية .

اهتمت السلطة بالامر، واخبر الوالي القنصل الفرنسي باتريمونيو انه سيأخذ اجراء ضد البشير وعدوتها المقتطف . وقد وجه الوالي انذارا الى الصحيفتين في أوائل ايلول .

ولم يلبث اصحاب اديب ان نشروا كراسا بالفرنسية يهاجمون فيه تعنت اليسوعيين . والكراس وثيقة هامة (٤٦) .

واستغل بعض المغرضين الجلبة فانسلوا الى البيت وسرقوا ما وجدوه من آثاره التي كان ينوي اعادة النظر فيها وطبعها .

مؤلفاته :

ليس لأديب كتب مؤلفة . ذلك انه صرف حياته صحافيا ومترجما . وقد استنفدت الصحافة عمره القصير . وكتاب الدرر الذي صدرت منه ثلاث طبعات مختلفة ، يضم مختارات من كتاباته ، وهو بالتالي ليس مؤلّفا ، انه مجموعة كتابات مختارة . ومع هذا فأن مؤلفاته تنحصر فيما يلي :

١ ــ مقالاته في الصحف المختلفة ، ومنها الصحف الفرنسية .

---

٤٦ ــ ايلي خدوري : المرجع السابق ، مقتطفات من تقرير باتريمونيو ونص الكراس ص ٨٤ ــ ٨٦ ، و٨٦ ــ ٩٨ . وقد حصلنا على صورة عن التقرير والكراس .

٢ ــ مقالاته في التقدم على ثلاث مراحل (٧٥ ــ ٧٧ و٨١ و٨٣ ــ ٨٤) .
٣ ــ مقالاته في جريدتي مصر والتجارة ومصر ــ القاهرة ومصر الفتاة .
٤ ــ مساهماته في آثار الادهار .
٥ ــ كتابه الضائع : تراجم مصر في هذا العصر .
٦ ــ روايات الفها او شارك في تأليفها (لم نعثر منها على شيء) .
٧ ــ ترجماته وهي قسمان : مقالات وكتب . اما المقالات فنشرت في الصحف ، واما الكتب فهي :
أ ــ «اندروماك» لراسين .
ب ــ شارلمان .
جـ ــ الباريسية الحسناء .
د ــ كتاب في الصحة (لم يذكر عليه اسمه) .
هـ ــ كتاب في العادات (لم يذكر عليه اسمه) .
و ــ له مسرحية مؤلفة بعنوان «غرائب الاتفاق» مثلت سنة ١٨٧٧ على مسرح زيرينيا في الاسكندرية .
٨ ــ شعره . وقد نشر في اماكن متفرقة ، منها انيس الجليس (٤٧) ، وديوان يوسف الشلفون (٤٨) ، والدرر في طبعاته المختلفة .

صعوبات تكتنف الدراسة :

هنالك عدد من الصعوبات التي تكتنف الدراسة ، وأهم هذه الصعوبات :
١ ــ ليس هناك نسخ كاملة من الصحف التي أصدرها .
٢ ــ لم نتمكن من الحصول على الترجمات التي اصدرها ، الا ما نشر في الدرر وفي الصحف التي تمكنا من قراءتها .
٣ ــ لم يوثق المشرفون على اصدار الدرر في المرات الثلاث ما نشروه ، ولذلك :
أ ــ ليس هنالك اشارات محددة للمصادر التي أخذوا عنها المقالات . وعندما يذكر اسم الصحيفة لا يذكر التاريخ .
ب ــ لا يمكن الاعتماد على تواريخ الرسائل .
جـ ــ لم يؤرخوا لحياته تأريخا وافيا ، ولم يذكروا التواريخ الاساسية ، حتى يوم وفاته .
ومع ذلك حاولنا ان نعود الى المراجع الاساسية في بيروت وباريس والقاهرة، وقد استطعنا مراجعة اجزاء اساسية من الصحف التي اصدرها . وهي التي سنعتمد عليها في الدراسة والمختارات .

---

٤٧ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، مقدمة عوني ، طبعة ١٩٠٥ ص «هـ» .
٤٨ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، مقدمة جرجس نحاس ، طبعة ١٨٨٦ ، ص «هـ» .

اما في التأريخ لحياته ، فقد عدنا الى الصحف والكتب التي تؤرخ للمرحلة الواقعة ما بين ١٨٥٦ و١٨٨٥ .

طبعات الدرر الثلاث :

اصدر صديقه جرجس ميخائيل نحاس الطبعة الاولى من الدرر سنة ١٨٨٦ ، وطبعه بمطبعة جريدة المحروسة في الاسكندرية .

ويشير جرجس في المقدمة الى ان الطبعة جاءت «مجردة من كل ما نشأ من المدة التي عرفتها بنزق الشباب» وضمت المواد «... الآخذة بأسباب الاعتدال المتجافية عن مواطن الجفاء» (٤٩) . وقد تضمنت هذه الطبعة ما يلي :

والكتاب مصفوف على عامودين قياس ٧٠ × ١٠٠ .

---

٤٩ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص «ب» .

وكان جرجس نحاس ، قد نشر هذه المختارات تباعا في المحروسة ، بعنوان: «منتخبات صديقنا الطيب الذكر اديب اسحق» . ويضيف بعد ذلك : «هي آثار المحاسن ومحاسن الآثار تركها الاديب عندنا لفضله ذكرا ، وخلفها في عالم الانشاء بكرا ، وغادرها لظماء البلاغة بحرا ، وأبقاها لطلاب الآداب كنزا وذخرا» . ويشير بعد ذلك الى انه كان في نية مؤسس الجريدة سليم النقاش اصدار هذه المنتخبات في كتاب ، كما يشير الى ما نشر في العدد ١١٧٦ من المحروسة حول ذلك عند نعي اديب . ويضيف : «فانفاذا لذلك العزم ، راينا أن نبدأ بنشر تلك المختارات أقساما مطردة في الجريدة ...» وقد نشرها في كتابه ، كما نشرت في المحروسة ، ولم يحدث تعديل الا في المقدمة . وقد اضاف الى مقدمة الكتاب بعض المراثي .

ثم طبع الكتاب مرة ثانية في اربعة اجزاء ، بمطبعة الآداب في الاسكندرية ، وكتب عليه : يباع في مطبعة الآداب بالاسكندرية لصاحبها امين الخوري . وهذه الاجزاء جاءت كما يلي :

الجزء الاول : ويحتوي على مختارات أشعاره الرقيقة .
الجزء الثاني : يشتمل على مقالاته الرنانة في صحف الاخبار .
الجزء الثالث : رسائله البليغة .
الجزء الرابع : خطبه في الجمعيات والمنتديات الخاصة .
وتوجد من هذا الكتاب نسخة في المكتبة الظاهرية .

وهناك طبعة اخرى ، يبدو انها في جزئين ، صدرت سنة ١٩٠٥ في مصر (طبع بمصر سنة ١٩٠٥) . وهذا يعني انها لم تطبع في الاسكندرية . ويضم الجزء الاول من هذه المختارات ، كما جاء في الصفحة الاولى : «أشعاره ورسائله وخطبه ورواية اندروماك الشهيرة» . وهذا يعني ان الجزء الثاني يضم ما تبقى . وقد تمت هذه الطبعة باشراف اخيه عوني الذي قدم له ، ووقع المقدمة بالحرفين: ع . أ .

ثم هناك طبعة سنة ١٩٠٩ التي صدرت في بيروت . وهذه الطبعة الاساسية التي جاء على صفحتها الاولى : «تحتوي على ترجمة حاله واقوال الجرايد فيه ومراثي الشعراء ومنتخبات خطبه ورسائله وقصائده ، ورواياته ومقالاته السياسية والادبية ، مما طبع من قبل ، ومما لم يتيسر طبعه الا بعد اعلان الدستور» .

وقد اتبع عوني اسحق النهج الذي اتبعه جرجس النحاس في طبعة سنة ١٨٨٦ تقريبا ، ورتبها على النحو التالي :

١ ــ مقدمة بقلم عوني اسحق .
٢ ــ ترجمة الفقيد بقلم عوني اسحق .
٣ ــ ترجمة حياة الفقيد عن الطبعة الاولى ، بقلم جرجس نحاس .
٤ ــ اقوال الجرايد ص ٢٣

وعلى الرغم من ان هذه المختارات أشمل مما سبقها ، فانها لا تفي بالغرض الان من ناحيتين :

اولاهما : ان شخصية اديب اسحق وتراثه يستحقان دراسة جديدة ، ومختارات جديدة ، تخضع لاعتبارات التعريف به ودراسته ، بعيدا عن ظروف ذلك الزمان ، التي حددت حرية الاختيار ، وبعيدا عن مزاج صديقه جرجس نحاس واخيه عوني . وقد اشار ايلي خدوري الى ذلك قائلا : «وبما ان المحررين المتعاقبين لآثاره الادبية ، كانا حريصين على استثناء ما اعتبراه متطرفا او مسرفا في كتاباته ، فاننا لا نستطيع ان نقيِّم تقييما كامــلا اسلوب اديب الخاص في السياسة الايديولوجية هذا الاسلوب الذي كان اول من مارسه في الشرق الاوسط» (٥٠) .

ثانيهما : أن المختارات غير موثقة ، ونحن الان بحاجة الى مختارات موثقة . وهذا ما حاولنا عمله .

خطه السياسي :

عندما تحدث اديب اسحق عن «حركة الافكار» (٥١) ، بــــدأ الحديث ببيت الشعر التالي :

ارى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام ، وأنهى مقاله قائلا :

---

٥٠ ــ ايلي خدوري : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

٥١ ــ اديب اسحق : «الدرر» طبعة ١٩٠٩ ، ص ١٠٣ ــ ١٠٦ .

«... ان هذه الفتنة (يشير الى هجوم الشعب على مقر السلطان السابق بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨) هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغير لا محال ، عاجلا او آجلا ، هيئة الكرة الارضية ونظام الجمعية الانسانية» . وهذا يعني انه كان مؤمنا ايمانا لا يتزعزع بأن نظام الجمعية الانسانية في تغيُّر ، وبأن هذه الحركة الفكرية ، التي سمَّاها حركة الافكار ، تظهر بمظاهر متعددة ، ولكنها بالنتيجة ستغير «هيئة الكرة الارضية» .

ولكن كيف تتم عملية التغير هذه وبأية وسيلة ؟

يذكر اديب اسحق في الحديث عن الخط السياسي لجريدته مصر ، عند الانتقال الى الاسكندرية :

«... أن أسير في السياسة سيرة محب لوطنه ، لا تأخذه فيه لومة لائم... وصديق رفيق بأهل دياره ولغته .. ملتزما إحياء الهمم في اهل هذه اللغة ، داعيا الى التعاون والتوازر على خطب الشرف ، واستجلاب العزة ، ودفع المعرة ، ملتمسا تقوية الروابط الوطنية ، مجتهدا في دفع العداوات المبنية على الاوهام ، الموجبة لزوال السعادة ، مقاوما كل عنيد يسعى في ايقاع الفتن وإحداث الشقاق ...» (٥٢) .

ولكن كيف يحقق ذلك ؟

يجيب اديب على ذلك في رسالته الى الامير عبد القادر الجزائري سنة ١٨٧٩ ، حين دعاه الى الانضمام لحزب «مصر الفتاة» : «... فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم والسلم أسلم» (٥٣) .

ولذلك اتجه أديب الى النضال الديمقراطي من خلال وسيلتين : اولاهما : الصحافة ، وثانيهما : الاحزاب .

وليس هذا غريبا فأديب اسحق سليل مدرستين :

الاولى : الفكر الاصلاحي الاسلامي ، وان كان أثر هذه المدرسة اقوى ثقافيا ولغويا منه سياسيا فيه ، والثانية ، المدرسة البرجوازية الفرنسية ، كما تمثلت في أفكار مفكري الثورة الفرنسية والقوانين الفرنسية ، لا كما تمثلت في ثوراتها . ولهذا كان اديب اسحق يدعو الى الحياة الدستورية ، لا الى الثورة ، ويطالب بالحريات الديمقراطية .

ولقد اعتبره الدارسون على انه : «... صاحب الفضل الاكبر في نقل الآراء النظرية والافكار التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، وتقديم خلاصة طيبة منها للقارىء العربي والاديب الشرقي» (٥٤) .

---

٥٢ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

٥٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

٥٤ ـ د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية ، الجزء الاول ، ص ٩ ، ود. سامي عزيز : المرجع السابق ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

ولقد كان كذلك فعلا . وعندما اصدر جريدته مصر ، ثم مصر القاهرة (وكانت هذه الصحيفة تصدر مطبوعة على الحجر ، ومكتوبة بخط منشئها او بخط عبد الله مراشد الحلبي ، «اعلام من الاسكندرية» ص٤٦٢) في باريس رفع في صدر الصفحة الاولى منها شعارات الثورة الفرنسية الثلاثة : «مساواة ، حرية ، اخاء» (٥٥) .

ومن هنا كان اديب دائما مع التطور والتدرج ضد الطفرة والعنف . وهناك مواقف متعددة أكد فيها هذه الحقيقة . فأديب اسحق مثلا يقول حين يتحدث عن بعض وقائع الثورة الفرنسية : «واني لا أطمع الان للمصريين في مثل هذه الحال ، وان خاضوا لها غمار الاخطار واقتحموا اليها الاهوال ، فان الطفرة محال . ولا أحثهم على الفتنة ، وان كانوا كما تصور المتنبي حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن أمانيا

وانما ابين لهم ان النقمة لا تملك من غير تعب ، وان الغاية لا تدرك من غير طلب ، وإن النجاة وقف على سبيل الهمة ، وان النجاح معقود بارادة الامة ، لتظهر عليها علائم القصد ، فتكون طليعة لجيوش العزم» (٥٦) . كما اشار لذلك وهو يتحدث عن الصحافة عموما والصحافة العثمانية خصوصا ، مدافعا عن قانون الصحافة العثماني من خلال «.. وجوب التدرج واستحالة الطفرة..» (٥٧) .

وما يؤكده في هذا المجال من وجوب التدرج، واستحالة الطفرة يبدو واضحا في كل كتاباته . وهو الى جانب ذلك لا يدفع باتجاه العنف . وحين يؤيد مقصد «العدمية» في «... اعنات المستبد وتنبيه الخواطر وتحصيل الحقوق ورفع لواء الحرية وكسر شوكة الاستعباد» ، يضيف الى ذلك «ونعم القصد ، لولا ان وسيلته آخذة بشيء مما يبعث عليه» (٥٨) .

ولهذا السبب يبدو من الضروري والهام مناقشة موقفه من الثورة العرابية. ولكنا سنؤجل ذلك حتى نستكمل بعض ملامح موقفه السياسي .

لقد وصف اديب اسحق الثورة بأنها «... الدواء، بالتي كانت هي الداء» (٥٩) . لكنه مع ذلك يقول «فآليت الا أمسك القلم عن تهيئة الخواطر لثورة الانفس حتى ارى في منبتي ما رأيت في غيره من محاسن آثارها ، وألا اعدل عن مقاومة الظالمين حتى ارى قومي أمة تقول ما تعتقد ، ويؤخذ بما تقول ، والا ابرح متوسلا لبهاء الشرق بحرمة المجد القديم ، ووحدة الذل الجديد ، ان يضرموا في القلوب نار الغيرة والحمية ، حتى ارى الشرق وطنا عزيزا . ولا عز للوطن الا

---

٥٥ ـ عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٤ .

٥٦ ـ اديب اسحق ، «الدرر» ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

٥٧ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

٥٨ ـ د. منير موسى : «الفكر العربي في العصر الحديث» ، دار الحقيقة ، ص ٥٨ .

٥٩ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٧٣ .

بالامة . ولا وجدان للامة الا بالحرية» (٦٠) . والحرية بعد ذلك لا تنفصل عن الثورة ، فالثورة هي «... التي وضعت أحكامها ، ورفعت مقامها ، ونشرت على الناس أعلامها» (٦١) .

ولا نريد الان ان نتحدث عن دوره الصحافي ، لاننا سنبحث ذلك لاحقا . اما حياته الحزبية ، فلا يعرف عنها الا القليل . ومن ذلك انه بدأ نشاطه السياسي مع تتلمذه على جمال الدين الافغاني . ولقد انضم اولا الى المحفل الماسوني ، ثم اشترك مع استاذه جمال الدين في المحفل الماسوني الوطني التابع للشرق الفرنساوي . ولقد انشأ الافغاني هذا المحفل ، بعد ان اختلف مع بعض القائمين على المحفل السابق حول علاقة الماسونية بالسياسة (٦٢) . ولم تكن الماسونية آنذاك قد انفضحت بعد ، ولم يكن يبدو منها الا وجهها التقدمي وشعارات الثورة الفرنسية التي ترفعها (٦٣) .

ثم انضم اديب اسحق الى «الحزب الوطني الحر» الذي انشأه الاستاذ جمال الدين الافغاني ، والذي كشفه في أواخر عهد اسماعيل . وكان هدف هذا الحزب النضال من اجل حياة دستورية وتخليص مصر من السلطة المطلقة ، وانتزاع السلطة للمصريين من الشراكسة والاتراك ودفع التدخل الاجنبي عن البلاد (٦٤) .

وتشير رسالة اديب اسحق الى الامير عبد القادر الجزائري ، التي اشرنا اليها سابقا ، بأنه كان من قادة حزب «مصر الفتاة» الذي وردت اكثر من مرة اشارة الى انه كان يضم عناصر يهودية . ويقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده انه «... لم يكن فيها مصري حقيقي ، بل كان اكثر اعضائها من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب» (٦٥) . ولا يبدو ان هذا الكلام دقيق ، لانه لو كان الامر كذلك لما استطاع اديب اسحق ان يدعو الامير عبد القادر الجزائري للانضمام اليها ✶ .

كما ذكر ان اديب اسحق كان على علاقة «بجمعية حلوان» التي تكونت لمعارضة رياض ، بعد تسلمه رئاسة الوزارة (٦٦) .

---

٦٠ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

٦١ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

٦٢ ــ محمد عمارة : «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني» ، دار الكاتب العربي ، ص ١٤ــ١٥.

٦٣ ــ محمد عمارة : «الاعمال الكاملة للامام محمد عبده» ، الجزء الاول ص ٣٦ .

٦٤ ــ محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

٦٥ ــ محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٤٩٠ .

✶ اشار جان دايه الى ان رسائل هذه الجمعية نشرت في البرق (السنة الاولى) . النهار ٢٦ــ١٠ــ١٩٧٧ .

٦٦ ــ محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ٤١٧ و٥١٨ .

ولقد كانت صحيفتاه : مصر والتجارة لسانا «للحزب الاوطني الحر» (٦٧) .
ولقد كان تفكيره السياسي يقوم على الركنين الآتيين :
١ ـ المحافظة على السلطنة العثمانية .
٢ ـ الاصلاح .
وسنفرد لكل منهما فصلا :

عثمانية أديب اسحق :

كان اديب اسحق عثمانيا ، من حيث انتماؤه السياسي ، فهو مع بقاء الدولة العثمانية متحدة ، ومع درء الاخطار الخارجية عنها . ولقد كان ولاؤه للسلطنة واضحا وقويا ، خلال حياته الصحفية والسياسية كلها . ويتجلى ذلك في مظاهر عدة في كتاباته كلها . فمن ذلك انه كان يدافع عن الوحدة العثمانية ضد المطامع الهادفة الى تقسيمها . وكان اديب يعتقد ان روسية لا يرضيها الا تجزئة الدولة العلية التي يدعوها «دولتنا» (٦٨) .

وهو لا يفتأ ، يشير الى اخلاصه للدولة ، متحدثا بصيغة الجمع :

«انا رعية صادقون لا يداخلنا الريب في حسن مقاصد الدولة ولا يخامرنا الشك في ارتياح نفسها الى الاصلاح اختيارا ...» (٦٩) .

وعندما يضع منهجا لجريدة التقدم ، بعد ان تولى تحريرها في المرة الثالثة يذكر في هذا المنهج ما يؤكد تمسكه بالوحدة العثمانية قائلا : «فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم ، من غير مبالاة باختلاف احوالهم وما يعتقدون» . وهو يرى ان «الوحدة العثمانية واجبة لانه لا بد للامة المختلفة الاصول من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة تؤلف بين القلوب ، ومركز تنتهي اليه خطوط القوى» . والوحدة، فيما يرى ايضا ، «نافعة لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال» لان «الاستقلال حياة الامم » .

ولا ينسى اديب ان هناك إحناً وعداوات داخل اطار الدولة العلية ، ولذلك فانه يرى ان تحصل هذه الوحدة «على الوجه الذي تتصوره من الصفاء والسواء» لتكون «سببا قريبا في زوال الإحَن والعداوات» وتأليف «القلوب والافكار» ، وذلك من اجل ان «يقوى بها جانب الامة ، كما يقوى جانب الدولة ، ولا قوة لهما

---

٦٧ ـ عبد العليم القباني : المرجع السابق ، ص ٥٥ .
٦٨ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٣٦ .
٦٩ ـ ادب اسحق ـ المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

من غير هذا الباب» (٧٠) .

ولان اديب مؤيد لهذه الوحدة كان يدعو الشعوب التي تضمها الدولة العلية «الامة العثمانية» (٧١) .

وكان اديب يشيد بانتصار العساكر المظفرة في الحروب العثمانية ــ الروسية. انه يقول في احدى رسائله : «الا ان أخبار الاستانة تنبىء بانتصار الجنود المظفرة ، ولا مندوحة عن الاعتماد عليها . ومن الاخبار ما يخالف ذلك على خط مستقيم ، ولا ينبغي ان نركن اليه» (٧٢) . ولقد عرف عن اديب اشادته بأبطال العثمانيين (٧٣) .

كما انه كان يعبر عن نفثات صدره ، خلال الحرب ، فهو يسر للنصر ، ويغتم للهزيمة . انه يصف ذلك في احدى مقالاته قائلا : «ثم ما لبثنا ان رأينا تغير الحال ، وانتصار عساكرنا على العدو في جبهتي القتال ، فاستبدلنا اليأس بالامل ، ورجونا ان تكون ادارتنا متيقظة ساهرة مخافة ان يغتالها العدو الساهر» . وعندما حصل ما خاف ان يحصل ، وتقدم العدو واحتل بعض المواقع ، وصف تلك الاخبار بأنها : «نفت السرور ، وضيقت الصدور» (٧٤) .

وكان اديب يعلن الى جانب ذلك ولاءه للسلاطين ، وثقة الامة بهم (٧٥) . وكان يجيء ذلك في معرض الحديث عن الاصلاح والشورى والدفاع عن السلطنة ، ولم يجيء في معرض آخر .

ولقد اشار اديب اكثر من مرة الى تعلق المصريين بالسلطنة وولائهم لها ، اذ ان في قلوبهم حبا قديما وولاء صادقا للدولة العلية ، «التي يعترفون لها بالسيادة المطلقة ، ولا يمتثلون لغيرها أمرا» (٧٦) .

وأديب الحريص على الدولة العلية ، المدافع عن وحدتها ، المؤيد للاصلاح فيها لا يستطيع ان يكتم اسفه احيانا « ... على دولة تأخذ بما يضر وتنبذ ما ينفع ... وينذرها بالهبوط والسقوط ولكن اين من يسمع ...» (٧٧) .

وكان اديب في ذلك ، شأنه شأن استاذه الافغاني ، وكل المثقفين الوطنيين،

---

٧٠ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

٧١ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١١١ .

٧٢ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٧١ ــ ٧٢ .

٧٣ ــ عبد اللطيف حمزة : «ادب المقالة الصحفية» ، الجزء الاول ، ص ٢٩ و«قصة الصحافة العربية» ، ص ٥٩ .

٧٤ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

٧٥ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

٧٦ ــ اديب اسحق : «رأي عثماني في أحوال مصر» ، التقدم ، العدد ٨٩ ، تاريخ ١٥-١١-١٨٨٣ .

٧٧ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٢٠٨ .

مع الوحدة ضد الانقسام . ولقد رأينا الافغاني يذهب الى الاستانة ، ويقبل بالقفص الذهبي ، داعيا الى التمسك بالوحدة العثمانية والسلطات ، خشية ان تتمزق الدولة العلية ، فتفترسها الدول الاجنبية .

ولكنه كان مع الوحدة ، ومع الاصلاح ، لا مع الوحدة فقط . فهل كان حديثه عن الوحدة العثمانية طمسا للمطامح العربية . من الضروري الاجابة على ذلك ، لان هذه القضية لم تدرس من قبل دراسة جدية . ولقد اخطأ الدكتور منير موسى حين قال : «فأديب يعتبر الامة العثمانية أمته ، والوطن العثماني وطنه ، ولم نعثر في «الدرر» له ، ولو على كلمة واحدة عن الامة العربية والوطن العربي والشعب العربي والدفاع عن العرب. بل هو متمسك بعثمانيته وشرقيته. وقد جاءه هذا الاتجاه من استاذه الافغاني» ، ثم يضيف الى ذلك ان احد المؤلفين يذكر «ان اديب اسحق نادى بفكرة الجماعة «العربية» القائمة على وحدة الشعور الى جانب مناداته بفكرة الجماعة «الشرقية» التي يوحدها احتقار اوروبا لها ، ومقاومتها للنفوذ الاوروبي ، وفكرة الجماعة «العثمانية» ، التي تربط بينها شريعة مشتركة وسلطة واحدة ...» (٧٨) .

وقبل ان نبدأ لا بد من ان نقول بأن «الفكرة العربية» لم تكن قد ظهرت بعد، ولا كانت تباشيرها قد برزت . ويبدو ذلك جليا من مراجعة آثار هذه المرحلة ، والسياسية منها خاصة . ان جمال الدين الافغاني استاذ هذه المرحلة بلا منازع كان داعية جامعة اسلامية ورابطة عثمانية ، خلال اقامته في القاهرة ، ولم تبرز عنده بعض التوجيهات العربية ، الا بعد انتقاله الى باريس ثم الى الاستانة (٧٩) ، وكان اديب اسحق قد مات . وكان اديب اسحق مؤهلا ، اكثر من استاذه لتحمل عبء «الدعوة العربية» ، فهو عربي اولا ، وهو نصراني ، وهو من المتشبعين بالثقافة الاوروبية . ومع ذلك فان اديبا لم يلعب هذا الدور ، لا لشيء الا لان الدفاع عن «الدولة العلية» كان شعارا وطنيا في ذلك الحين ، ازاء الهجمات الاستعمارية الاوروبية ، ولان الرأي العام السائد كان اسلاميا .

ومع ذلك ، فاننا نستطيع ان نقول بأن اديب اسحق ترك اشارات واضحة في هذا المجال . ان موضوع العرب والعروبة يرد هنا في اكثر من مجال . ومن هذه المجالات :

١ ــ الحديث عن أمجاد العرب الماضية ، ودولتهم القوية التي أقيمت بالعلم والعدل : «دولة الشرق العظيمة المعروفة بدولة العرب» (٨٠) .

٢ ــ الحديث عن بعض الحوادث التي تقع في البلاد العربية والتعبير عنها باسمها

---

٧٨ ــ د. منير موسى : «الفكر العربي في العصر الحديث» ، دار الحقيقة ، ص ٥٥ .

٧٩ ــ محمد عمارة : «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني» ، ص ٥٨ ــ ٧٩ .

٨٠ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٢٠٠ .

العربي . ان اديب اسحق يتحدث عن شعب الجزائر باسم «عرب الجزائر» مثلا ، وهو يذكر في هذه المقالة ما أسماه «سليقة العرب» ، كما ترد كلمة العرب اكثر من مرة في هذا المقال ، مثلا «أحوال العرب» ، و«كما اوضحه العربي من المحررين» و«من الوهم ان يظن بالعربي التجرد عن كل خلق غير العقيدة» و«الاهتمام بما يسرّ العرب وما يسوؤهم» (٨١) . ويعود اديب الى الحديث مرة اخرى عن «فتنة الجزائر» ليكرر كلمة العرب فيها (٨٢) . ويكثر الحديث في مقالات اخرى عن العرب الكرام ، واللسان العربي وبعض ابناء العرب «والقراء العربيين» (٨٣) . وعندما يتحدث عن الامير عبد القادر الجزائري يقول عنه : «الهمام المقدام العربي الابي ..» و«احد حماة الامة العربية» (٨٤) .

وحين يشير اديب اسحق الى خير الدين باشا التونسي يقول عنه : «وهذا خير الدين العربي صاحب أقوم المسالك ...» (٨٥) .

٣ ـ الحديث عن اللغة . واللغة من العوامل الاساسية في تكوين القومية . ان اديبا لا يني بذكر اللغة فهو يراعي في جريدته : «حقوق الانسانية والوطن واللغة ..» وهو «رفيق بأهل دياره ولغته» ، وهو ملتزم : «احياء الهمم في اهل هذه اللغة» (٨٦) ، و«تقوية الروابط الانسانية بين اهل هاته اللغة على اختلاف مشاربهم» (٨٧) . واللغة التي يتحدث عنها هي اللغة العربية . وبهذا يكون واضحا ان اديب اسحق عرف ما هي اهمية اللغة العربية .

٤ ـ الاشارة الى البلاد العربية باسم : «مصر والشام وسائر الاقطار العربية»(٨٨).

٥ ـ الدعوة الواضحة الصريحة الى اتحاد عربي ما دام «الاتحاد العمومي» بين الشرقيين قد تعذر . وقد جاءت دعوته هذه في مقالة له عن الشرق (٨٩) ، تحدث فيها عن دولة العرب القديمة ، وبعد ان قارن عظمة الماضي ببؤس الحاضر قال مخاطبا ابناء اليوم : «الستم في الارض التي أقلتهم ، وتحت السماء التي أظلتهم ، أوليس ماؤكم هو الذي وردوه ، وهواؤكم هو الذي انتشقوه ، فما بكم تعجزون عما استطاعوه ؟» ... ثم يمضي في التساؤل:

---

٨١ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٤٥ تاريخ ١٢ حزيران ١٨٨١ .

٨٢ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٤٨ تاريخ ٢٣ حزيران ١٨٨١ .

٨٣ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٣٤ تاريخ ٦ اذار ١٨٨١ و٣٩ ، تاريخ ٢٣ ايار ١٨٨١ .

٨٤ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٤٠ تاريخ ٢٨ ايار ١٨٨٢ ؛ و«الدرر» ، ص ٤٢٧ .

٨٥ ـ اديب اسحق : جريدة «مصر» ، العدد ٢٤ ، تاريخ ١٣ كانون الاول سنة ١٨٧٨ .

٨٦ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

٨٧ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٠٨ .

٨٨ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٤٢ .

٨٩ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

«والا فما للحجاز محجوز الانوار ، وما للشام مشؤوم الاحوال ، ومـا لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، وما لحلب متوالية النوب ، وما لليمن فاقد اليمن ، وما لتونس عديمة الانس ، وما للغـرب مهمل الغرب ؟» . ويضيف بعد ذلك ، وهنا بيت القصيد : «ألم يكن فـي كل هذه الاقطار نفر من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية فيتلافون أحوالها قبل التلاف ، متظاهرين متوازرين كالبناء المرصوص او كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلا حصينا لا تؤثر فيـه العواصف ولا تضعضعه الزلازل» . ويدعو بعد ذلك الى مؤتمر لزعماء الامة : «يتذاكرون فيه ويتحاورون» ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد ، كأنها من فم واحد... فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، ولا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب . فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعـة اللسان ، فكلنا وان تعددت الافراد انسان ...» .

ويدرك اديب اسحق خطورة ما يدعو اليه ، فهو اذا جاء : «منزها عـن المقاصد الدينيـة ، منحصرا في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفا مـن اكثر النحل العربية يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وارهابا ، فتعـود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون » .

أعتقد بعد هذا كله ، ان اديب اسحق يساهم هنا بأول طرح سياسي واضح نسبيا حول الوحدة العربية والقومية العربية ، وهو هنا يتجاوز ابراهيم اليازجي في قصيدته : «تنبهوا واستفيقوا ايها العرب» التي جاءت في المرحلة عينها . كما انه يتجاوز البرنامج الذي طرح في بيروت سنة ١٨٨٠ ، والـذي يطالب باستقلال سورية ولبنان والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية وازالة الرقابـة وقضاء الخدمة العسكرية الاجبارية ، كل في ولايته (٩٠) .

وهكذا نرى ان قضية العرب كانت واضحة لدى اديب اسحق ، ولكنها لـم تحتل في آثاره ما احتلته الدعوة للجامعة العثمانية او الرابطة الشرقيـة . واذا كان موضوع الجامعة العثمانية واضحا ومحددا فيما يطرح ، فان موضوع الرابطة الشرقية كان غامضا الى حد . وقد حاول اديب ان يعرف كلمة الشرق ، فأورد عددا من الآراء ، وخلص الى القول : «على ان الاوروبيين ، وان اختلفت آراؤهم في تعريف الشرق وتحديده ، فقد اتفقوا على الاعتقاد بانحطاظ الشرقيين عنهم في رتبة الوجود ، وتألفوا على السعي في اذلال شأنهم ، وخفض مكانهم ، كمـا يدل على ذلك ما نسمع من اقوال خطبائهم ، وما نقرأ من تصانيف علمائهم ، وما نشهد من اعمال زعمائهم ، فهم والحالة هذه عصبة على الشرقي من اي محتد ،

---

90 — George Antonius: «The Arab Awakening», 1945, p.p. 83 - 84.

وعلى اي مشرب كان يصرفون عنايتهم الى استخدامه واستعباده، ومحو استقلاله، وفتح بلاده ، فاذا اختلفوا فعلى تقسيم الغنيمة بين الفاتحين ، لا على وجوب الغارة (التمدنية) على القوم (المتوحشين))» (٩١) . ويرى اديب ان تعريف الشرق عرفي «لا ينطبق على حكم علمي او حد جغرافي» ولكن «... المشهور فيه انه يطلق على بلاد آسيا من دون القسم الروسي وعلى بلاد الروم من اوروبا والقطر المصري من افريقية» (٩٢) .

وكان اديب ينبه الشرقيين الى ان عليهم ان يحذروا ويتحدوا ويستعدوا حتى لا يصبحوا عبيد اعدائهم (٩٣) .

ولهذا نستطيع ان نقول ، بأن اديب اسحق ظل عثمانيا ولكنه عثماني يطالب بالاصلاح ، واقامة علاقات صحيحة بين شعوب الدولة العثمانية وبين الامة والدولة . ولكنه مع ذلك طرح القضية العربية ، كما بينا ، وكما سنبين من خلال طرح قضية الاصلاح . وكان يتابع في صحفه أخبار البلاد العربية من اقصاها الى أقصاها ، ما استطاع الى ذلك سبيلا .

انه مثلا يكتب عن وصول مدحت باشا الى بيروت ويقول عنه ، ان مدحت باشا هو الحبل الذي يروم غرقى هذه الديار ان يتشبثوا به ، وان سورية ترجو ان ترى منه ، وهي بين الفساد والخلل ما رأته من اوغستوس الروماني حين اتاها مقيما اودها مصلحا خللها ...» ثم يضيف «واننا لا نلقي اعمالنا على رجل واحد» (٩٤) . ويكتب في اليوم ذاته عن اللحوم والنظام وبيع البترول في نابلس. ويكتب عن عزل والي بعلبك ، وعن الشكوى من الوالي الجديد (٩٥) . ثم ينشر رسالة من بغداد (٩٦) . ورسائل طرابلس الشام ودمشق ترحب بمدحت باشا (٩٧) . ويكتب عن الجزائر (٩٨) ، وتونس (٩٩) . اما مصر ، فيكتب عنها كثيرا، حتى وهو خارجها .

---

٩١ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٢٠٠ .

٩٢ ـ ادب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

٩٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

٩٤ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٣ تاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ .

٩٥ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٤ تاريخ ١٢ ديسمبر ١٨٧٨ ؛ والعدد ٢٥ تاريخ ٢٠ ديسمبر ١٨٧٨ .

٩٦ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٨ تاريخ ٩ يناير ١٨٧٨ .

٩٧ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٤٣ تاريخ ٢٥ ابريل ١٨٧٩ ؛ والعدد ٤٤ تاريخ ١ مايو ١٨٧٩ .

٩٨ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٤٨ تاريخ ٢٣ـ٦ـ٨١ ؛ و«التقدم» عدد ٤٧ تاريخ ٢١ـ٦ـ١٨٨٣ .

٩٩ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٣٧ تاريخ ١٦ـ٥ـ١٨٨١ .

ولقد جاء تعريف أديب اسحق للامة منسجما مع تمسكه بالدولة العثمانية ، فالامة «هي الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا ، اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف أصولها ولغاتها ، وتتعاون باسم تنتسب اليه ، وتدافع عنه» . ومن هنا اعتبر ان هنالك جنسا عثمانيا وآخر امريكيا . وقد رد على الذين يعتبرون ان اللغة من لوازم وحدة الامة . وجاء تعريف الوطن منسجما ايضا مع تعريف الامة ، فهو يقول : «اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان . وفي عرفهم ، البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها . ولا يشترط فيه مساحة معلومة ، بدرجات معينة ، او اقليم واحد بتخوم معروفة ، وانما تعريفه ما ذكر من توطن معظم الامة به . وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن فيه ، وهي اما ان تكون فتوحا ، ضمت اليه عنوة ، وإما ان تنضم اليه برضا اهلها . فان كان الاول ، فاما ان يكون ضمها قديم العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهله ، فتثبت الملكية . وإما ان لا تكون هذه ولا ذاك ، فلا تثبت، وان كان ، فلا مشاحة في صحة الانضمام» (١٠٠) .

وأديب اسحق يؤكد بهذين التعريفين حول الامة والوطن ما يلي :

١ ـ انه لا يفرق بين الجنسية بمعنى جواز السفر ، والمواطنية ومعناها باعتبارها قومية . فالجنسية بالمعنى الاول يمكن ان يكتسبها اناس من قوميات مختلفة، اذا خضعوا لسلطة واحدة . ولكنها بالمعنى الثاني لا تكتسب بقرار ولا باحتلال. ويمكن ان تختلف القوميات في ظل دولة واحدة ، امبراطورية واحدة مع ان الجنسية واحدة .

٢ ـ انه لا يفرق بين حرصه على الدولة العثمانية وبين فهم قضية القومية . لقد كان ممكنا ان يبقى الحرص على الدولة العثمانية ، دون ان تفصّل التعاريف لخدمة هذا الحرص .

ويجدر بالذكر ان اديب اسحق لم يستشهد الا بالولايات المتحدة الاميركية والدولة العثمانية واستراليا ، مع ان هناك الكثير من الامم التي كانت تستحق ان يستشهد بها مثل : الفرنسيين والالمان والطليان الذين رفعوا في القرن التاسع عشر منار الحركات القومية البرجوازية . ثم ان الولايات المتحدة الاميركية واستراليا تختلفان عن الدولة العثمانية ، اذ تضم الولايات المتحدة واستراليا اخلاطا من المهاجرين ، بينما كانت الدولة العثمانية تضم أمما . ولهذا ازداد انصهار الاخلاط المهاجرين في الدولتين الاوليين ، وقامت على أنقاض الدولة العثمانية دول متعددة . لقد تجاهل اديب اسحق هذا الفرق ، مع انه كان يدرك ان هناك إحناً وعداوات داخل الدولة العثمانية ، وان الوحدة لا تحصل الا بازالتها «واقامة الوحدة على اساس الصفاء والسواء» .

---

١٠٠ ـ د. منير موسى : المرجع السابق ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

أديب أسحق المصلح :

كان أديب اسحق مصلحا . وهذا لا يعني انه لم يتحدث عن الثورة ، ولكن الخط العام لسيرته يجعل منه مصلحا اكثر منه ثوريا . لقد كان يعبىء للاصلاح لا للثورة ، كما سنبين في هذا القسم من دراستنا له .

وقبل ان نناقش خطه الاصلاحي ، سنقدم صورة عن رايه بالثورة .

كان اديب اسحق يؤمن بمجموعة من الحقائق ، في هذا المجال ، ومن اهم هذه الحقائق ما يلي :

اولا : «ان ما لا يغير اختيارا يغير قسرا» (١٠١) ، وهذا يعني ان هناك عوامل فاعلة تدفع باتجاه التغير والتقدم .

ثانيا : ان هناك «سلسلة من الحركات الفكرية» مثل الثورة الفرنسية والحركة الفوضوية وغيرها «ستغير لا محال ، عاجلا او آجلا ، هيئة الكرة الارضية ونظام الجمعية الانسانية» (١٠٢) . ولقد كان يرى في كل هذه الحركات ، سيان اتفق معها او اختلف ، سلسلة من الحركات الدافعة باتجاه التقدم . ولذلك كان يعتقد ان العوامل عينها التي قادت الى تقدم الغرب ، ستقود الى تقدم الشرق .

ثالثا : انه يرى ان ذلك كله لا يحدث عفوا ، ولا بفعل عوامل موضوعية خارجية ، بل بفعل ذاتي . ولذلك عمل في التعبئة والتوعية واشترك في الاحزاب وساهم في نشر الوعي . ومن هنا فقد قال مرة ، وهو يتحدث عن موقف خديوي مصر من المصريين : «أولست الزاعم انهم لا يفهمون خطابا ، ولا يحسنون جوابا ، ولا يعقلون . وان عقلوا ، فلا يقولون وان قالوا فلا يفعلون ؟

أم رأيتهم يعقلون فخفت منهم القول ، ثم سمعتهم قائلين فداخلك الوهن.

اجل ... ولسوف تراهم فاعلين ، فلا تحسبن امهالهم اهمالا . انهم ينظرونك الى غد وان غدا لناظره قريب» (١٠٣) .

ولكنه لم يكن مع «الثورة العنيفة» . انه في مقالته «الثورة» يصف عملية الثورة الشعبية وصفا حميما ودقيقا ، ولكنه يتساءل امام ذلك : «فقلت ما لهؤلاء الناس يهرقون الدماء ، ويقتالون الرؤساء ، ويفسدون في الارض ، قالوا لحجب الدماء ودفع الغلبة ، وجلب الصلاح . قلت وكيف تسمون ما يفعلون ؟ قالوا الثورة . قلت هي الدواء بالتي كانت هي الداء» . اذن فالثورة هي الدواء بالتي كانت هي الداء . العنف بالعنف والقتل بالقتل . وأديب اسحق ، كما ذكرنا

---

١٠١ ــ اديب اسحق ، «جريدة مصر» ، العدد ٢٦ ، تاريخ ٢٦-١٢-١٨٧٨ .

١٠٢ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٠٦ .

١٠٣ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

سابقا ، لم يكن داعية عنف ، وان كان يعتبر ان اصحاب الثورة هم «الذين يوجبونها بما كانوا يظلمون» (١٠٤) . وهو فوق ذلك يرى ان الشرقيين يفعلون ما يفعل الغربيون في ميدان الثورة ، ولكنهم «لا ينالون بعض ما نال اولئك» وسبب ذلك انهم «... لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بينة مما يقصدون». انهم في الثورة «... دعاة زعيم وعصاة زعيم لا ينشطون بها من عقال ، الا ليربطوا بآخر من مثله او اشد . فيكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار» .

ولهذا فان اديب اسحق يعلن تصميمه على الا يتوقف «... عن تهيئة الخواطر لثورة الانفس...» لانه يريد ان يرى في وطنه ما راى في غيره «... من محاسن آثارها ...» (١٠٥) . ويبدو هنا انه يرى ان الوعي وانتشاره هو الذي يجعل الانتفاضات تحقق عندنا في الشرق مثل ما تحققه في الغرب .

وقارىء اديب اسحق يجده يتحدث عن الثورة الفرنسية باجلال واعجاب ، ويقدمها نموذجا لانتقال الشعوب من العبودية الى الحرية . الا انه يضيف بعد ذلك انه لا يحث المصريين على الفتنة ، ولا يطمع لهم «... في مثل هذه الحال ، فان الطفرة محال» (١٠٦) . وهكذا يبدو واضحا ان اديب اسحق لم يكن يرفض التغير والتقدم ، بل كان يدعو اليهما ، ولكنه كان يرى ان الطفرة في بلادنا المتخلفة محال ، وان هناك حاجة للتربية والتعليم وتطوير الممارسات الديمقراطية، كما نرى ، وان ذلك كله هو الذي سيقود الى عملية التغير الشاملة .

ولهذا فقد طرح اديب اسحق افكارا حول اصلاح المجتمع كله . انه الاصلاح الشامل . وقد وصفه اديب بأنه «... مطلق لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهي الى تعريف ، فما نخص به الادارة لاحتياج المالية اليه ، ولا نحصره في المالية لعدم استغناء القضاء عنه ، ولا نحبسه على هذه الاركان الثلاثة لظهور لزومه في سائر ما تقوم به الحركة الحيوية في هيأتنا المدنية والسياسية ، فهو كلي عميم بقدر كلية الخلل ، وعموم الحاجة ، فحيث ترى نقصا او ضعفا او اختلالا او اعتلالا او اعوجاجا او موضعا للكمال ، فهناك محل اصلاح» (١٠٧) .

وهذا الاصلاح المطلق يتشعب الى ثلاثة اوجه ، هي : السياسة والمدنية والاقتصاد الاجتماعي ، وينقسم الوجه الاول الى مالية وادارة وقضاء ، والثاني الى معارف ومساواة وحرية ، والثالث الى أمن ووقاية وتوزيع اشغال (١٠٨) .

---

١٠٤ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
١٠٥ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .
١٠٦ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
١٠٧ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .
١٠٨ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

والاصلاح لا يتم الا بثلاث :
اولها : ان يتم بالتدرج ، وقد اشرنا الى ذلك سابقا (١٠٩) .
ثانيها : ان يكون ضمن حدود الممكن والا يخرج عن ذلك (١١٠) .
ثالثها : ان يجيء الاصلاح منسجما مع حاجات الزمان والمكان والناس ، و«أحسن القوانين ما كان متلائما مع أحوال البلاد» (١١١) .
وهذا الاصلاح بعد ذلك له اساسان لا ثالث لهما ، وهما :
اولا : مشاركة الامة (١١٢) .
ثانيا : العدل والعلم (١١٣) .

وكان اديب اسحق يبشر بالاصلاح دائما ، ويشير الى الاخبار التي تقرب الآمال (١١٤) ، والى الاصلاح القريب (١١٥) ، ولم يكن غريبا ان تحتفل جريدته «مصر» بوصول مدحت باشا واليا على سورية (١١٦) .

وكان الاصلاح الذي ينشده اديب يقوم على اساس اقامة حياة دستورية بديلا عن الانظمة التي كانت قائمة آنذاك . وكان يريد ان يكون الامر شورى . وهذه ليست دعوة جديدة . انها قديمة . وفي (وشاورهم بالامر) نعم الدليل ، كما يقول (١١٧) . وكان اديب اسحق يعتقد ان الامر صار شورى «عند جميع الدول المتمدنة الاوروبية» . وان كان يشك في انه يصح ان تسمى الدولة المستبدة دولة متمدنة (١١٨) .

وتنطلق هذه الدعوة الى الحياة الدستورية من انه لا قوة للحكومة «الا بالامة، ولا ثبات الا بالشورى، ولا سطوة الا بالحرية ، ولا سلطة الا بالمساواة . . .»(١١٩).
ولكن هذه الحياة الدستورية لا بد ان تتحقق بالتدرج ، اي عبر انتخابات

---

١٠٩ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٤٨ تاريخ ٢٥ـ٦ـ١٨٨٣ .
١١٠ ـ اديب اسحق : جريدة مصر ، العدد ٢٣ تاريخ ٢٩ـ١١ـ١٨٧٨ .
١١١ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، مجلس النواب ، العدد ٢٦ تاريخ ٢٦ـ١٢ـ١٨٧٨ .
١١٢ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٥ تاريخ ٢٠ـ١٢ـ١٨٧٨ ؛ والعدد ٤٨ تاريخ ٣٠ـ٥ـ١٨٧٩ .
١١٣ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٥ ، تاريخ ٢٠ـ١٢ـ١٨٧٨ .
١١٤ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٤١ .
١١٥ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٣ ، تاريخ ٢٣ـ١١ـ١٨٧٨ والعدد ٤٣ تاريخ ٢٥ـ٤ـ١٨٧٩ .
١١٦ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٩٤ .
١١٧ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٩٤ .
١١٨ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٥٠ ، قانون النواب ، تاريخ ٣ـ٦ـ١٨٧٩ .
١١٩ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٥١ .

البلدية ، ثم المجالس المحلية ، لتكون هذه الممارسات مفارس للنواب (١٢٠) .

ولم يفت اديب اسحق ان يشير الى الخلل في التجربة النيابية والانتخابية لا في الدولة العثمانية فحسب ، بل في اوروبة ايضا ، ويتمثل هذا الخلل في الدولة العثمانية فيما يلي :

١ ــ رهبة النواب .

٢ ــ خلل الانتخاب (١٢١) .

ولذلك يصف اديب اسحق مجلس المبعوثين على «انه معدوم بصورة موجود ....» واما المجلس المصري فانه «لم يكن مستحقا للاسم الذي أطلق عليه ...» (١٢٢) .

واذا كان اديب ينتقد التجربة في الدولة العثمانية وفي مصر ، فانه لا ينسى عيوبها في الغرب حيث صارت : «... محافل الشورى والندوات مجالس نواب يتصرفون في أمور الامة نقضا وابراما ، فيضعون مع وكلاء الدولة ما شاؤه من القوانين ، ويعدلون منها ما يريدون ، بل ربما قضوا على موكليهم بحرب تنحى على أموالهم بالنهاب وأرواحهم بالذهاب ، او انقادوا لاصحاب القوة الاجرائية ودانوا لهم مستعبدين الامة معهم ، كما جرى في خلال المسألة الشرقية في كثير من الممالك الشوروية» (١٢٣) .

الا ان هذا كله لا يمنع من ان يشيد اديب لمجالسهم «على علاتها» لانها «كثيرة الفوائد جميلة المقاصد» . كما انه لا تمنعه من ان يشير الى تشوق النفوس الى امثالها في البلاد الشرقية (١٢٤) .

وأثار اديب اسحق ، ضمن حملته من اجل الاصلاح ، موضوع الحرية والحريات . والحرية في رايه «.. غاية الحياة السياسية» (١٢٥) . ومعنى الحرية انه «قد حق للانسان ان يكون حرا فيما يقول ، وفيما يفعل ، مما لا يخالف قانون العدل والحق المنصوص عليه في : «ولا تفعلوا بالناس ما لا تريدون ان يكونوا بكم فاعلين» (١٢٦) .

ومع ان هذه الحرية ، حرية الفكر «... ثابتة للمرء لازمة فيه لزوم حريته في تحريك الاعضاء» لانه «موجود ناطق والناطق ذو فكر يعقل ، والفكر هو

---

١٢٠ ــ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٢٦ ، تاريخ ٢٦ــ١٢ــ١٨٧٨ ، مجلس النواب.

١٢١ ــ اديب اسحق : المرجع السابق .

١٢٢ ــ اديب اسحق : المرجع السابق .

١٢٣ ــ اديب اسحق : المرجع السابق .

١٢٤ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٤٦٠ .

١٢٥ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٤٦٠ .

١٢٦ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

الانسان بالذات» (١٢٧) . والحرية عند اديب اسحق حرية راي وقول وانتخاب . وهذه الحريات يدعوها حقوقا ، لكل منها حده «... لو تعداه لكانت الحرية فيه شرا من القيد وأشنع من العبودية ـ فحد حرية الراي ان يكون مبنيا على القياس ، موافقا للحكمة ، مطابقا للصواب ، وحد حرية القول ان يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملايمة . ولا يمس شرفا مصونا ، ولا يضر بريئا امينا ، ولا ينشر عن غير علم يقين ، وهو حرية الانتخاب ان يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس الا» (١٢٨) .

وكما لم يفت اديب اسحق ان يرى قصور التجربة النيابية في الغرب ، فانه استطاع ان يرى حدود الحرية في تجربتهم . ولذلك أطلق مرة صيحته قائلا : «الحرية اسم بلا مسمى عند القوم» . كيف لا «وجرائد اوروبة لا تخجل وهي في بلاد الحرية ان تقول ان الحرب او السلم بيد السياسيين المتقدم ذكرهم ، وان احدهم يغير هيئة الارض بكلمة واحدة ...» ويضيف اديب اسحق : «واذا تدبرت ذلك علمت ان الحرية اسم بلا مسمى عند القوم ، وان تكرار ذكرها في محافلهم ، ورسمها في مجامعهم ، هو من قبيل اللغو الساقط ، والتمويه والتطرئة ، وايقنت ان في حريتهم استبدادا واستعبادا ...» (١٢٩) .

وهكذا نرى ان اديب اسحق المنادي بالحياة الدستورية البرجوازية ، لم يكن مخدوعا ببهارجها ، ولا كان عاجزا عن ان يرى بعض مواطن الضعف فيها .

اما المساواة التي كان اديب يقرنها بالحرية ، فليست «محو الطبقات وازالة الدرجات المترتبة على السعي والجد لزوما ...» لان تلك «... أمنية لا تنال الا ان يكون الناس جميعا اخوانا ، فلا تحصل ما دام الانسان انسانا» . ولذلك فان حقيقة المساواة التي يدعو اليها اديب اسحق : «ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ...» (١٣٠) . وهذا يعني ان يكون الناس متساوين امام القانون ، وأمام القانون فقط . ولما كان الاجانب ، حينذاك ، فوق كل قانون ، فقد طالب اديب باعادة «النظر في امتياز الاجنبي والتعويض عنه بما يكفل استمرار العدد ، ويضمن دوام المساواة» . اما فيما يتعلق بالوضع الداخلي ، والعلاقات بين السلطة والشعب والطبقات فيما بينها ، فان اديب طالب باصلاح الحاكمين في الدولة العثمانية ، لتتحقق المساواة لان أحكامها «مبنية على هذه المساواة الحقة» (١٣١) . واصلاح الحاكمين شرط للاصلاح ، لان اصلاح الاحكام، اي القوانين لا يكفي وحده .

---

١٢٧ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

١٢٨ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

١٢٩ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

١٣٠ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

١٣١ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

اما علاقات الطبقات ، فليست واضحة فيما طرح ، وان كانت هنالك اشارات محددة في هذا المجال . انه يقسم الناس الى فقراء واغنياء فقط ، ويبدو هذا واضحا في مقالته «العصر الجديد» (١٣٢) التي قدم فيها حوارا بين الفقراء والاغنياء ، بعد ان رفع لواء ، ونادى المنادي بأن يأتي اليه «... الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالاشغال النافعة ...» لكي يبدو «العدو الخفي» . وكان ان احتشد الناس وانقسموا قسمين . «وكان السواد الاعظم في جانب اللواء» كما يقول اديب «الا أن عليهم علائم التعب والعناء والفقر والشقاء» . ووقف آخرون في جانب آخر وعليهم «امارات العز والسعة والهناء» ! ودار الحوار التالي بين الطرفين :

- «قالت الكثرة الفقيرة للفئة القليلة الغنية : ما بالكم انفصلتم عنا ، وانتم منا ؟
- فقالوا : نحن لم نوجد لنشتغل ولكن لنعتني بأموركم» .
- «فنادت العامة ، رويدكم ، أنتعب وتنعمون ، ونفرس وتجنون .. تجمعون منا الثروة ، وتسمون ذلك عناية ، فما لكم لا تتألفون امة منفردة لنرى كيف يكون قوامكم ...» .

«فقال النبلاء : الا تذكرون ايادي آبائنا العظام ، وما لهم في بلادكم من الآثار الجسام ... أولا تعترفون بالسطوة الشرعية ، اذ ان ما يرومه الملك تأمر به الشريعة .

«فأجابوا : يا ايها المتميزون المدالسون ، ان الملوك لا تروم الا سلامة الجمهور ، والشريعة لا تأمر الا بالمساواة ، فاستشاط المتميزون من الجند غيظا ، وقالوا : لقد فتنت العامة فلا بد من ارجاعها الى الطاعة عنوة ، فيا ايها الجند قاتلوهم حتى يطيعوا .

«فصاحت الجند : إننا ايضا من الامة ، فأين العدو ؟

«وحينئذ نادت الفئة القليلة ، لقد خاب الامل .

«فقالت العامة : بل لقد تم الرجاء ، وحصل النجاح ، وانتبهنا من رقدة الغفلة ، فلا نروم الفتنة ، ولكننا نلتمس الحرية ، وما الحرية الا العدل .

«ثم قام خطيب الجماعة فقال : يا قوم لا يحسن الاكتفاء بالنجاة من الظالمين ، بل يجب منع ظهور غيرهم . فانا بنو الانسان قد ارتنا التجارب ان كلا منا يحيل الى السلطة ، ويجنح الى الاثرة ، فلا بد لنا من وضع الحدود لافعالنا وحقوقنا . وتلك مهمة تستغرق وقت الانسان بجملته ، فلا نستطيع النهوض بها مع اشتغالنا بغيرها ، فانتخبوا جماعة منكم ينقطعون اليها ، ويقتصرون من الشغل عليها ، وفوّضوا اليهم ان يضعوا لنا حكومة ، ويسنوا لنا قانونا واجعلوهم وكلاء ارادتنا ونواب مصالحنا» .

---

١٣٢ ــ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، ١٩ يوليو (تموز) ١٨٧٩ .

ولقد وافقت الامة على ذلك ، واختارت من «نبهائها جماعة غير قليلة ، ثم قالت لهم : لقد كنا الى الان في جمعية تألفت على حكم الاتفاق ، فلم تعش بها الحدود ، ولم تعرف الحقوق ، حتى ساءت حالنا ، وعظم احتلالنا . وقد نجونا من تلك الحال ، رغبة في الانتظام ، وانتخبناكم لتضعوا لنا أحكاما ، فتدبروا في الامر لتعلموا كيف ينبغي ان تكون مواضعه وشروطه ، وما هي الغاية من الاجتماع الانساني ، وما هي حقوق كل اعضائه وواجباته ، وبعبارة ثانية ضعوا لنا قانونا عادلا وانشئوا فينا حكومة جديدة» .

وقد اجتمع هؤلاء على شكل نصف دائرة واختاروا لنفسهم زعيما «هو الرئيس او الوالي او الامير او الملك ...» . وهنا قالت لهم الامة :

«يا ايها الرؤساء لا تنسوا ان القوة التي خولناكم ، انما هي قوتنا . وانه ينبغي لكم ان تكونوا اول التابعين لما تضعون من القوانين» .

وبعد ان بحث هؤلاء ودققوا وقف زعيمهم وقال :

«اني اتلو عليكم اصل كل عدل وكل حق طبيعي . ان العناية قد منحت جميع الناس اعضاء ومشاعر متساوية ، وجعلت لهم حاجات متماثلة ، فصرحت بذلك انها تمنح لهم جميعا حقوقا متوازية ، يتصرفون بها فيما يملكون ، وان الناس على اختلاف احوالهم ، سواء في حكم الطبيعة ... وكذلك جعلت لكل الناس وسائل كافية لتحصيل حاجاتهم الطبيعية ، فصار من المقرر البديهي انها أوجدتهم مستقلين بعضهم عن بعض ، وأبدعتهم احرارا لا يتعين على احد منهم الخضوع للآخر ، بل كل منهم يملك وجوده الذاتي ملكا مطلقا ... ولما كان كل من الناس مالكا لوجوده الشخصي لزم من ذلك ان تكون الحرية من شروط الملازمة التي لا ينقضها ميثاق ، ولا يحلها عهد ، وكذلك لما كان الانسان مساويا لغيره من بني نوعه ، وجب ان يكون ما يأخذه مساويا لما يعطيه . وبذلك يتبين ان الحرية مشتملة على العدل الموجب للمساواة» .

ووقف بعد ذلك الخطيب قائلا :

«ان هذا التغير وجب الرجوع الى الحالة الطبيعية فهل ترضون بذلك ؟» فما كان من افراد الامة الا ان يضعوا بين «أيدي الرؤساء آثار امتيازاتهم وثرواتهم المغتصبة قائلين : بينوا لنا قوانين المساواة والحرية ، فانا لا نروم ان نملك شيئا الا بحكم العدل ، ولا نطلب الا ان يكون قانوننا وشعارنا المساواة والعدل والحرية» .

ويجسد اديب اسحق في هذه القطعة كل افكاره . انه مع الحياة الدستورية، التي تقيمها الجماهير بوعيها ، وتتنازل فيها الطبقات ذات الامتيازات عن امتيازاتها دون قطرة دم ، وبقوة الامة ذاتها . فالجنود ينضمون الى الامة ، ويخذلون قياداتهم ، وأصحاب الامتيازات ينهارون امام تماسك الامة .

واديب هنا مع مجتمع فيه حرية ومساواة ، تختار فيه الامة بنفسها قوانينها وانظمتها ورؤساءها ، وتقرر ما تريد . والمساواة تأخذ في هذه المقالة بعدا جديدا ، انها المساواة الاجتماعية التي تفرضها الامة .

ويسمي اديب اسحق هذه المقالة «بيان العصر الجديد» ، يطرحه ، كما يقول : «... تفاؤلا بالخير ... وليكون نموذجا لنا فيما نعالجه الان من اصلاح القوانين وتنظيم الاحوال واقامة الامور» . ولا ينسى اديب ان يؤكد ان هذا البيان «مستمد من فيض الحكمة الغربية» .

ومع ان هذا الاثر الكبير ينتمي الى تيار الفكر الطوباوي من افلاطون الى ايامنا ، كما يقول فاروق ابو زيد (١٣٣) ، فانه يأتي في سياق الدعوة العملية الى التغيير السياسي والاجتماعي . وهو يحدد آفاق تفكير اديب اسحق في أجلى صورها . ويلقي اضواء على دعوته للحرية والمساواة والاخاء . ولن نناقش الان اثر افكار الثورة الفرنسية في هذا الاثر الكبير ، لاننا سنبحث ذلك فيما بعد .

خطه الوطني والموقف من الاجانب :

كان اديب اسحق مع الاستقلال ضد التبعية . فهو يرى ان الاستقلال حياة الامم (١٣٤) ، والاستقلال في «الاجتماع النوعي بمنزلة القوة في الوجود تقرب منه النعمة ، وتدرأ عنه النقمة ، فان انحرفت كان عرضة لانواع الشقاء ، وصنوف البلاء ، بل كان ذلك الوجود عين الفناء» .

واذا كان الاستقلال كذلك فان التبعية ، او التابعية ، كما يسميها «... رق للاحرار وفقر للاغنياء وضعف للاقوياء وعار للنزهاء ...» .

هذا هو الاستقلال ، وهذه هي التبعية . نقيضان لا مجال للالتقاء بينهما ، وبينهما ما بين الموت والحياة .

ولقد كان اديب اسحق ضد التدخل الاجنبي والسيطرة الاجنبية . وهو يعجب في مقالته عن الحزب الوطني في مصر ، من «أمة تختلف آراؤها على نفس وجودها الاجتماعي بحيث يكون التعريف بالوطنية مخصوصا ببعضها دون بعض». ويكون هناك وطنيون ، وهناك دعاة تدخل ، او تدخليون . ويدافع اديب عن الفريق الوطني ، ويهاجم دعاة التدخل واصفا اياهم بأنهم : «المتهالكون على تدخل الاجنبي في أمور بلادهم ، يتوسلون بذلك للولاية والرئاسة ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون منه ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام ، وزائل الحطام» (١٣٥) .

---

١٣٣ ـ فاروق ابو زيد : «اول يوتوبيا في الفكر العربي الحديث» ، مجلة «قضايا عربية» ، العدد ٢ ، ايار ١٩٧٤ .

١٣٤ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٧١ .

١٣٥ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

ولذلك كان اديب اسحق يرفع راية الوطنية ضد السيطرة الاجنبية عموما . فهو يحذر الامة من الاجانب لانهم يقفون لها بالمرصاد (١٣٦) . وهو لا يني يشير الى التغلغل الاجنبي (١٣٧) وتدخل الدول الاجنبية (١٣٨) وكيف ابتلع الغرب شمس استقلالنا (١٣٩) .

ويطالب اديب بالعمل من اجل الاصلاح دون الاعتماد على الاجانب (١٤٠) ولكنه يعود فيحض على الاستفادة من التمدن الغربي ، و«الاستنارة بأفكار ذوي الرشد والحكمة وحب الانسانية من رجال الغرب» . وهو يبرر ذلك بأن الغرب «لا يعدم الحكماء الراشدين المحبين للانسانية ، وان كانوا في الارض عددا قليلا» (١٤١) .

ويشدد اديب على مهاجمة الامتيازات التي حصل عليها الاجانب ، فيصفها وصفا مقذعا ذات مرة قائلا : «امنع من كلب الاجنبي» (١٤٢) . ثم يصف المضار الناتجة عن «معاملة سفلة الافرنج بما لا يعامل به وجوه الوطنيين من الاكرام لغير علة ...» (١٤٣) . وهو بالطبع يطالب بالمساواة مع الاجانب . وهذه «... سنّة الانسانية في بنيها والحرية في ذويها» (١٤٤) .

ويرد اديب اسحق على الذين يظنون بأن الاجنبي يفرق بين مواطن آخر، وبين منتم لهذا الدين او منتسب لذاك . انه يحسب الجميع أرقاء . «... لا يفرق بين من وحد ومن ثلّث ومن آمن ومن لا يؤمن بالدين» (١٤٥) .

ولكن كيف كان موقفه من الدول الاجنبية ؟

لقد كان يركز هجماته على بريطانيا ، ذلك ان سائر الدول أقل شرا من بريطانيا (١٤٦) . وهي الاكثر تدخلا في البلاد الشرقية (١٤٧) من هنا ينصب هجومه عليها .

ويهاجم اديب اسحق روسية على سياستها العدائية ازاء الدولة العثمانية وعلى الاستبداد الداخلي فيها . ولكنه يعتقد : «على ان الروسية وان كانت

---

١٣٦ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٥٠ ، تاريخ ١٣ـ٦ـ١٨٧٩ .

١٣٧ ـ اديب اسحق : «الدرر» ص ٢٠٤ .

١٣٨ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٣٧ ، تاريخ ١٤ـ٣ـ١٨٧٩ .

١٣٩ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٤٨ ، تاريخ ٣٠ـ٥ـ١٨٧٩ .

١٤٠ ـ منيب موسى : الفكر العربي الحديث ، ص ٥ .

١٤١ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ .

١٤٢ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

١٤٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

١٤٤ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

١٤٥ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

١٤٦ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

١٤٧ ـ اديب اسحق : «جريدة مصر» ، العدد ٣٧ ، تاريخ ١٤ـ٣ـ١٨٧٩ .

مستبدة الدولة ، مطلقة الاحكام ، منحرفة على سبيل المساواة ، الا انها ادنى الى الرحمة والعدل والرفق والفضل من دولة الانكليز ...» (١٤٨) .

ولقد كانت بريطانيا فعلا هي اكثر خطرا على الدولة العثمانية ، ولذلك ليس غريبا ان تكون كراهيته لسياستها بادية (١٤٩) . اما روسية فكانت تأتي في المرتبة الثانية من حيث خطرها . ولذلك كان اديب يناصبها العداء ، ولكنه يدرك انها أقل خطرا . ومن هنا يكتب اديب عندما يسمع خبر الاتفاق العثماني الروسي الفرنسي : «ولذلك لا ننكر خبر الائتلاف العثماني ـ الروسي ـ الفرنسوي ، ولا نستغرب ان يكون واقعيا ، فالمصلحة ظاهرة فيه من عدة أوجه» (١٥٠) .

واذا كان موقف اديب اسحق من بريطانيا وروسيا واضحا ، فما هو موقفه من فرنسا تحديدا ؟ لقد كانت فرنسا منافسة لبريطانيا على المستعمرات ، وقد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨٠ ، فما كان موقف اديب منها ؟

لقد كان اديب من متبني الثورة الفرنسية وأفكارها ، كما انه كان من المعجبين ، كما تدل كتاباته ، بنظامها الديمقراطي ، في اطار التحفظات التي اشرنا اليها سابقا . وكانت باريس في عهده اهم الواحات التي ينشدها دعاة الحرية والمطاردون من اجلها طلبا لموئل يؤدون منه رسالتهم . وكان اديب احد هؤلاء ، وكانت ثقافة اديب بالاضافة الى ذلك ، فرنسية .

ولهذا كله فقد كان موقفه من فرنسا مختلفا ، فهو مثلا ينتقد احدى الجرائد الالمانية لتحاملها على الفرنسيين ، ثم يتحمس لهم قائلا : «فدون أكل الفرنسيين خرط القتاد بل دونه عرين الآساد» (١٥١) .

الا ان اديب اسحق لا يستطيع السكوت على حركات القمع التي تقوم بها فرنسا في الجزائر ، فكتب عن ذلك مرة بعنوان «عرب الجزائر» ومرة اخرى بعنوان «فتنة الجزائر» . وهو يؤكد في مقالته الاولى ان الجزائريين يصبرون على حكم فرنسا «... صبر العاجز ولا يرضونه رضا الراغب فيه» . ثم يشير الى استبدال الحكم المدني بالعسكري ، وخيبة أمل الجزائريين في الحكم المدني «اذ تبين لهم ان الحكم المدني يصلح في المستعمرة ، ولكن شأن النزلاء ، ويقيم ولكن أمور الفرنسيس ...» (١٥٢) .

وحين يتحدث اديب اسحق عن «فتنة الجزائر» (١٥٣) ، يرى بأم عينه ان

---

١٤٨ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٤٦ .

١٤٩ ـ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٤٨ ، تاريخ ٢٥ـ٦ـ١٨٨٣ .

١٥٠ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٥٢ ، تاريخ ٩ـ٧ـ١٨٨٣ .

١٥١ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٧١ ، تاريخ ١٣ـ٩ـ١٨٨٣ .

١٥٢ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٤٥ ، تاريخ ١٣ـ١ـ١٨٨١ .

١٥٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٤٨ ، تاريخ ٢٣ـ٦ـ١٨٨١ .

هزيمة الجزائريين حتمية في المعركة التي يخوضونها . ذلك ان الجزائريين «... لن يحصل لهم الغلب الاخير في حرب الفرنسيس ما دام في مدفع غروب سر ليس في بندقية الفتيل ، وفي تدبير القائد المدرب حكمة ليست في تصور الزعيم المتهوّر» . ومع ذلك فانه يعود فيؤكد بأن الفرنسيين مهما فعلوا «... فلن تصفو لهم القلوب ، ولن يأمنوا عود الفتن ، ولن يستقيم لهم في الجزائر امر...» ولكنه يعتبر ان شرط اطفاء الفتن يكمن في ان يعامل الفرنسيون الجزائريين «... بما يعهد الناس فيهم من الانصاف والعدل وحب الحرية والمساواة ، وحتى يعدوهم فرقة من انفسهم لهم ما للفرنسيين من الحقوق ، وعليهم ما عليهم من الواجبات ...» . وهكذا يبدو انه مع الحاق الجزائر بفرنسا ، ولكن مع اعطاء الجزائريين حقوقا متساوية مع الفرنسيين . الا ان هذا لا يجعله ينسى ان الفتنة ثورة وطنية .

ولو تابعنا ملاحقة مقالاته لاكتشاف موقفه من فرنسا ، لرأينا انه كشف مثلا موقف جريدة البصير التي صدرت في باريس ، مبينا «... ان صدورها بعيد النازلة التونسية ، وكون جل مطالبها دائرة على محور هاته النازلة من طريق اعلاء الكلمة الفرنسوية ، ودفع الشبهات عن دولة الفرنسيين ، يصرف الفكر في امرها الى غير الوجهة المشار اليها في المقدمة المذكورة» . وكان جاء في المقدمة ان القصد من البصير : «نفع اهل الوطن ، وأن يعلم منها العرب الكرام ما يحدث في الغرب والشرق» (١٥٤) ، ويضع اديب اسحق كلمة كذا بين قوسين، بعد كلمة الوطن . واشار اديب في الكلمة التي كتبها الى ان الجرائد الفرنسية ذكرت ان البصير انشأها بعض العرب «... المقيمين بباريس» «لمقاومة بعض الجرائد العربية فيما تجهر به من العداوة للفرنسيين مجرد مودة لهاته الامة» .

وحين يتحدث اديب اسحق عن جريدة «المستقل» التي صدرت سنة ١٨٧٩ في تشرين الاول بايطاليا ، ولخدمة اهداف الاستعمار الايطالي يقول : «ولقد انحى الزمان على المستقل الذي لم يكن له من اسمه نصيب» (١٥٥) .

وعلى الرغم من «ليونة» موقفه من الفرنسيين ، فانه كان يحرض على الاستقلال ، والاعتماد على النفس دائما . وهو ينبه «... أولي الالباب في تونس وفي سائر الممالك الشرقية ، فلا يغرهم رونق الوعود وبهرج العهود ، ولا يعولوا على احد من غير انفسهم :

فانما رجل الدنيا وواحدها　　　من لا يعوّل في الدنيا على رجل» (١٥٦)

---

١٥٤ _ اديب اسحق : «التقدم» ، العدد ٣٤ ، تاريخ ١٦_٥_١٨٨١ .

١٥٥ _ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٣٩ ، تاريخ ٢٣_٥_١٨٨١ .

١٥٦ _ اديب اسحق : المرجع السابق ، العدد ٣٧ ، تاريخ ١٦_٥_١٨٨١ .

اديب اسحق والثورة العرابية :

كان اديب اسحق مع الشورى ضد الاستبداد ، ومع التقدم ضد التخلف ، ولكنه اخذ موقفا «معاديا» من الثورة العرابية . وتجلى ذلك في مظاهر عدة . أولها : انه وجّه للثورة انتقادات هامة ، منها ان الرئاسة انتهت الى نفر «من القوم لم يسلموا من الجهل ، ولم يتنزهوا عن الطمع الدنيء ، فقصرت افهامهم عن ادراك احكام الزمان وعواقب الامور ، فنفذت فيهم حيـــل الخادعين ، وضاقت صدورهم عن الجلد ، فراموا في الشهر ما لا ينال في الاعوام . ثم راوا تهيب الامة من عواقب التهور ، فأضرموا في القلوب نار البغضاء للاجنبي ، وهاجوا في الصدور عواصف التعصب للدين ، وأماتوا صحف الاعتدال ...» (١٥٧) .

ثم عاد اديب اسحق فعبَّر عن موقفه بقصيدة طويلة ، جاء فيها : (والحديث عن الاسكندرية) :

فأبادهـــا جهـــل خفي مـــا بدا ... مثـــل له مـــن حاضر او بـــاد
جهل الذي رام الاماني وهـــي فـــي ... قمـــم الجبال وكان دون الـــوادي
وسعى الى الشورى ولكن خالهـــا ... لمـــا تهتـــك برقـــع استبداد
وعلـــى المساواة ابتنى هـــرم الهنا ... لمـــا تساوى حزبـــه بفســـاد
وقـــد ادعى فـــي عسفه حريـــة ... يـــا من رأى حريـــة استعبـــاد
والـــى الاخاء دعـــا فنال بفعلـــه ... مـــن قومه مـــا لم ينلـــه العـــادي
شقيت بزلتـــه الجمـــوع وطالمـــا ... اشقت جموعا زلةالافراد الخ... (١٥٨)

فبماذا نبرر ذلك ؟

ان هناك عددا من الاسباب ، واهمها :

اولا : ان اديب اسحق كان مع الاعتدال ، ضد الطفرة ، كما بينا سابقا ، ولقـــد جاءت الثورة العرابية طفرة لم يتوقعهـــا المثقفون ، ولـــم تجيء حسب مقاييسهم ، ولا منسجمة مع نماذج الدولة الدستورية الاوروبية . ثـــم انهم كانوا مقتنعين ببعض الخطوات الدستورية الاوروبية . ويعتقدون ان الجماهير ليست مهيأة لاكثر منها . ويكفي ان نقرأ هنا موقف الاستـــاذ الامام محمد عبده الذي لا يختلف رأيه كثيرا عن رأي اديب اسحق (١٥٩) .

---

١٥٧ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٧٤ .

١٥٨ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٥٠٥ ؛ ومصر للمصريين ، الجزء الخامس ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ ، منشورة باسم «رثاء ورجاء ، منظومة الطيب الذكر اديب أفندي اسحق» .

١٥٩ ـ محمد عمارة : «الاعمال الكاملة للامام محمد عبده» ، المجلد الاول ، ص ٤١ ـ ٦٥ و٣٢١ ـ ٥٧١ .

ثانيا : لقد انشق الحزب الوطني ، بعد ابعاد الافغاني ، سنة ١٨٧٩ . وكان اديب اسحق على علاقة بسلطان باشا (١٦٠) وبشريف باشا وغيرهما ممن انحاز الى جانب الخديوي والانجليز في الصراع ، ضد عرابي والثورة العرابية، لاسباب مختلفة . ويدل على استمرار هذه العلاقة ان اديب ظل يكاتب شريف وسلطان ، حتى عندما ترك مصر ، ولقد اهدى اديب القصيدة التي اشرنا اليها سابقا لشريف باشا ، كما جاء في مقدمة القصيدة المذكورة .

ولقد كتب رسالة لسلطان باشا ، بعد ابعاده لدى وصوله ميناء الاسكندرية في ايلول سنة ١٨٨٢ ، وبعد بدء الاحتلال الانجليزي بأيام (١٦١) ،كما كتب له مهنئا بورود نيشان اليه من دولة الانجليز (١٦٢) ، كما مدحه بقصيدة ذاكرا هجوم ضباط الجند على منزله خلال الفتنة العرابية (١٦٣) .

واذا كان البارودي ومحمود باشا فهمي يذكران في محضري التحقيق معهما ان اديب اسحق كان من الذين يقومون بعملية التحريض ، بعد قيام الوزارة البارودية ، في الجلسات التي كانت تعقد في البيوت ، فان هناك مصادر اخرى تشير الى علاقة اديب بالضباط (١٦٤) ، وانهم هم الذين ارسلوه الى باريس لاصدار صحيفته : مصر ــ القاهرة . ولكنه اختلف معهم ، عندما تحولت حركة عرابي الى حركة جماهيرية ، بعد ان كانت حركة دستورية تقليدية .

وكان اديب قد أيد تحالف شريف ــ العسكريين اثر مجيء وزارة شريف ، سنة ١٨٨١ . ودافع عنهم (١٦٥) ، وما لبث ان سافر الى مصر ، كما بينا في سيرته . ويقول عوني اسحق ان شريف باشا استقدمه الى مصر من بيروت ، بعد تسلمه الوزارة ، «فولاّه وظيفة ناظر الانشاء والترجمة بديوان المعارف» (١٦٦) . وكان شريف من الذين ارسلوه الى باريس سنة ١٨٨٠ لاصدار صحيفة هناك (١٦٧). وكان موقف شريف واضحا من القضية منذ بروز العسكريين باعتبارهم القوة

---

١٦٠ ــ نال سلطان باشا مكافأة على خيانته .انظر : مصر للمصريين ، الجزء السادس ص١٣ .

١٦١ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٨٠ .

١٦٢ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

١٦٣ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

١٦٤ ــ جاكوب لاندو : «الحياة الحزبية في مصر ١٨٦٦ ــ ١٩٥٢» ، ص ٩١ ؛ ومصر للمصريين الجزء السابع ، ص ٧٤ ــ ٧٥ وص ١١٥ .

١٦٥ ــ اديب اسحق : «التقدم» ، عدد ٧٢ ، تاريخ ١٩ــ٩ــ١٨٨١ .

١٦٦ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ .

١٦٧ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ . وجاء على ان ذلك تم سنة ١٨٨٢ ، وليس صحيحا ، لقد ذهب اديب اسحق الى مصر سنة ١٨٨١ كما بينا .

الاساسية . ولقد رفض تأليف الوزارة في ايار (٢٦ مايو) سنة ١٨٨٢ ما دام العسكريون في مصر ، ثم عاد وألف الوزارة ، خلال القتال في ٢٤ــ٨ــ١٨٨٢ ، وبعد ان نزلت القوات البريطانية في مصر (١٦٨) . أما سلطان باشا فقد انضم الى معسكر الخيانة ، وخدع عبد السلام المويلحي (١٦٩) .

وعند قيام الثورة العرابية كان اديب اسحق من دعاة الاعتدال في طلب الحرية فاستبدلت الثورة صحيفته بصحف اخرى . وقد انتقدت جريدة المفيد الصحف «الشامية» الصادرة في مصر على موقفها . كتب المفيد بعنوان «الجرائد الشامية» في ٢٢ــ٦ــ١٨٨٢ :

«وكل من جريدةالاحوال والمحروسة ومصر أتانا اصحابهم وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التي ادعوها ترويجا لمقاصدهم فأنشأوا من أيدينا جرائدهم، ودعوا باسم الوطنية والخدمة الانسانية والحال في سكون . فلما ارتبكت الحال قطعوا السنة جرائدهم ، ورجعوا الى بلادهم بجر الحقائب ، فنعم الاحباب لازمونا في الهناء وفارقونا في الشقاء» .

ولقد واصلت المفيد الهجوم ، وساهمت في خلق الاجواء التي أدت الى هجرة كثير من السوريين . وكان شريف قد طلب من اديب اسحق ، وهو موظف الان، ان يقطع الصلة بصحيفته ففعل ، كما ذكرنا . ويفسر الدكتور ابراهيم عبده ابتعاد اديب اسحق عن صحيفته بأنه جاء بعد حملة المفيد وزميلاتها (تطور الصحافة المصرية ص ١٢٤) ، ثم ما لبث ان غادر فيمن غادروا . ولما لفتت هجرة السوريين الانتباه قامت الطائف مجلة الثورة الاخرى ، فكتبت مقالا بعنوان «المصريون والشاميون» سمّت فيه هجرة السوريين نزوحا . وقالت انهم سيعودون بعدئذ الى مصر (١٧٠) .

وكان قسم من زعماء الشعوب ووجهائه ــ من غير العسكريين لا يميلون الى الثورة العرابية ، وان كانت الثورة نفسها قد جرفتهم على كره منهم ، ومن هؤلاء الزعماء الشيخ محمد عبده واديب اسحق وغيرهما كما يقول د. عبد اللطيف حمزه . وقد استمر بغض الطبقة المستنيرة للثورة ورجالها حتى زمن مصطفى كامل الذي لم يتورع من ان يصف «عرابيا» نفسه بالخيانة (١٧١) .

ولا يخفي اديب اسحق موقفه ، فهو يقول بأنه مع الاعتدال دائما ، ويذكر في تقييم الثورة العرابية انها اوقفت صحف الاعتدال (١٧٢) .

---

١٦٨ ــ صلاح عيسى : الثورة العرابية ، ص ٤٢٢ .

١٦٩ ــ صلاح عيسى : المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

١٧٠ ــ د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء الثاني ، ص ١٩ــ٢٠ .

١٧١ ــ د. عبد اللطيف خمزة : المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٤ .

١٧٢ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٧٤ .

وحاول اديب اسحق ان يحلل الثورة العرابية في «تذكرة اجمالية» (١٧٣) . يقول اديب اسحق : «فالنازلة المصرية قديمة الاصل ، بعيدة السبب ، متعلقة من طرفها الاول بتدخل الطامعين ، ومن الاخير بجهل الفاتنين ، وبين الطرفين حركة فكرية تقارن فيها الطمع والحسد ، فأولدا ما رأينا من الخصام والشقاق واللدد ...» . ويفسر اديب اسحق كل سبب من هذه الاسباب فيقول حول تدخل الطامعين : «فقد ابتدأ منذ انتشر الاجانب في الديار المصرية ، وتضاربت فيه مصالحهم السياسية والتجارية ، ثم امتد بديون اسماعيل باشا ، واشتد بالمجالس المختلطة عام ١٨٧١ ، وزاد على الحد بتوحيد الديون عام ١٨٧٦ ، ثم اعلاه ديوان التفتيش فظهر ، ووسعت له لجنة التصفية فانتشر ، وحفظته المراقبة المالية فاستقر واستمر» .

ويستأنف تفسيره للسبب الثاني المتعلق بالحركة الفكرية فيقول : «وأما الحركة الفكرية فقد سرت ابتداء من جانب الغرب على السنة الذين ارسلوا الى البلاد الاوروبية من اهل مصر ، والذين هبطوا مصر من الاوروبيين ، لم يقصدوها ، بالذات ، ولكنها نشأت عما ظهر من أحوالهم ، واشتهر من اقوالهم ، ثم ذاعت بالخطابة في الجمعيات ، وشاعت بالكتابة في صحف الاخبار ، حتى انتشرت في أذهان العوام كفيرها من الثورات ...» .

ثم يتعرض لجهل الفاتنين مما ذكرناه سابقا .

ويذكر اديب اسحق ان هذه النازلة التي لا يتسع المقام لتفصيل أحداثها مرت بخمسة أدوار :

«الاول : من التدخل الاجنبي الى الحركة الفكرية ، الى وقوع تلك الحركة بأيدي الجهلاء والطامعين ، وهو دور الرجاء .

الثاني : من الحركة العسكرية التي افضت الى استعفاء عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية المصرية ـ يومئذ ـ الى ظهور هذه الحركة بساحة عابدين في طلب تبديل الوزارة ، وتقرير قانون العسكرية وانشاء مجلس النواب ، وهو دور الظهور بعد الخفاء .

الثالث : من وزارة شريف باشا الى يوم التظاهرة العسكرية بالانحراف عنه، وهو دور التقدم والنماء .

الرابع : من استعفاء الوزارة الشريفية الى انقضاء الوزارة البارودية العرابية، وهو دور تهيج الداء .

الخامس : من حصول السلطة الفعلية ، بيد القوة العسكرية ، يوم فتنة الاسكندرية ، وما تلاه من انهدام حصونها بمدافع الانجليز ، وهو دور امتناع الدواء » .

---

١٧٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٧ .

ويأتي بعد هذه العوامل الخمسة كما يقول أديب اسحق «دور التلاشي والفناء الذي كان من مشاكل أحواله وغوامض اسراره وعجائب آثاره ، ان بضعة عشر الفا من الانجليز دكوا حصون التل الكبير ، وانتصروا فيه على ثلاثين الفا من الجند في عشرين دقيقة معدودة ، ثم طارت فرسانهم الى الزقازيق ، الى مصر ، فاستولوا على العاصمة ، وأسروا زعماء العصابة العسكرية ، ثم تفرق عسكر كفر الدوار ، وتمزق جيش المكس ، وانتشرت سطوة الانجليز في سائر انحاء القطر ، وكل ذلك في يومين ...» . ويضيف اديب اسحق متألما : «فيا مصر يا ارض المعجزات ، حتام تجتمع فيك خوارق العادات» .

واديب ينهي هذه «التذكرة الاجمالية» باستغرابه ما حدث ، سيان لديه تصاعد الحركة العرابية وانتصارها او تراجعها ، واندحارها بمثل السرعة التي تم بها الانهيار ، وان كان اديب يحاول ان يفسر كل ذلك . ويلاحظ مما جاء في تفسيره الموجز انه يدرك العوامل الاساسية للثورة ، وعلى رأسها تدخل الطامعين وانتشار الوعي ، وهو ما أسماه انتشار الحركة الفكرية في أذهان العوام كغيرها من الثورات. وأديب بعد ذلك يحاول ان يفسر اسباب الانهيار ، وعلى رأسها:

١ ـ ان الرئاسة انتهت «لنفر من القوم لم يسلموا من الجهل ، ولم يتنزهوا عن الطمع الدنيء ...» .

٢ ـ ان هؤلاء الرؤساء قصرت «... افهامهم عن ادراك أحكام الزمان وعواقب الامور ..» .

٣ ـ ان هؤلاء الرؤساء نفذت فيهم «... حيل الخادعين ، وضاقت صدورهم عن الجلد فراموا في الشهر ما لا ينال في الاعوام» .

٤ ـ ان هؤلاء الرؤساء اضرموا «... في القلوب نار البغضاء للاجنبي ، وهاجوا في الصدور عواصف التعصب للدين ...» .

٥ ـ ان هؤلاء الرؤساء اماتوا «... صحف الاعتدال ، فقامت على مدافنها جرائد الطيش والغلو ...» .

٦ ـ ان الكتابة انحصرت «... في الحث على معاداة الغرباء ، وانحبست الخطابة على الدعوة الى مناواة أرباب الحقوق ، وصارت الجمعيات آلات لنيل اغراض النفوس» (١٧٤) .

وهذا التفسير ينسجم مع «عقلية» اديب اسحق التي حاولنا اعطاء صورة عنها سابقا . اما اتهام قادة الثورة بالجهل والطمع فنابع من موقفه السياسي من الثورة ، واختلافه مع قادتها ، وانضوائه تحت لواء المعسكر المهادن الذي رضي فسخ تحالفه مع معسكر الثورة ، وانضم الى الخديوي . ويبدو ان شريف وسلطان ومشايعيهما من الحزب الوطني ، بما في ذلك اديب اسحق ، كانوا يخافون سيطرة العسكريين اكثر مما كانوا يخافون استبداد الخديوي ، وانهم

---

١٧٤ ـ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ٣٧٤ .

كانوا يريدون المحافظة على الدستور وضمان الحياة النيابية والتقدم خطوة خطوة على طريق الاصلاح . وان البرجوازية المتنورة وحلفاءها كانوا يخافون سلطة الشعب ، كما كانوا يخافون ان يحدث تدخل اجنبي في حال انتقال زمام الامور الى الشعب ، ممثلا بقادته السياسيين والعسكريين . ولكن البرجوازية انضمت الى الخديوي والانجليز ضد الشعب ، عندما هددت الموجة الشعبية كل مواقع البرجوازية . وقد وعد الانجليز والخديوي باستمرار الحياة الدستورية . ولقد استمرت فعلا ولكن في ظل حراب الاحتلال .

ولقد قيَّم عرابي أديب اسحق في مذكراته قائلا : «كان اديب اسحق من مرتزقة الادباء» (١٧٥) . وليس غريبا ان يفعل عرابي ذلك ما دام اديب اسحق قد انضم الى جماعة الخديوي توفيق ، خلال الصراع الذي قام .

وكان للاستاذ الامام محمد عبده موقف من اديب اسحق ، فهو وان لم يتهمه علانية وتحديدا بالارتزاق ، الا ان رايه فيه لم يكن غير ذلك ، فما الذي جعل الاستاذ الامام محمد عبده المتعقل ، البعيد عن المواقف السياسية المتسرعة ، يتخذ مثل هذا الموقف ؟ مع ان الاستاذ الامام مثل اديب اسحق من تلاميذ جمال الدين الافغاني واقربهم اليه .

ان الاستاذ الامام تحدث عن اديب تصريحا اكثر من مرة ، ولكن أهم ما ذكر اديب اسحق به ملاحظتان :

الاولى : ان الجريدة التي انشأها اديب في باريس كان «ينفق عليها الخديوي الاسبق اسماعيل باشا ور. باشا وم.ش. باشا وع.ل. باشا وغيرهم» و«لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه رياض ستون» (١٧٦) .

الثانية : ان اديب اسحق كوفيء على نشاطه في باريس «بتعيينه رئيس قلم ترجمة اولا ، ثم سكرتيرا لمجلس النواب بعد ذلك» .. ويروي الشيخ الامام ان الخديوي صاح عند امضاء الامر بتعيينه من شدة الفرح : «الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه» (١٧٧) .

وهاتان الملاحظتان هامتان ، فهو يتهم اديبا بأنه كان يعمل لمصلحة الخديوي المخلوع اسماعيل ، ولا اضافة فيما يتعلق بأن بعض الباشوات كانوا يمولونه ، فلقد كان يعمل معهم ضمن اطار الحزب الوطني او جناح منه على الاقل . وظل على علاقة بهم ، وعلى راسهم شريف باشا وسلطان باشا ، حتى بعد ان أبعد من مصر سنة ١٨٨٢ ، كما ذكرنا . ثم انه يتهمه بأنه قبض ثمن هجومه على رياض

---

١٧٥ ـ احمد عرابي : المذكرات ، الجزء الاول ، ص ٢٠٩ .

١٧٦ ـ الاستاذ الامام محمد عبده : المؤلفات الكاملة ، المجلد الاول ، ص ٥١٨ .

١٧٧ ـ المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

بتعيينه رئيس قلم الترجمة ثم سكرتيرا في مجلس النواب .

اما ان اديبا كان يعمل مع اسماعيل ، فهو ما تدل الوقائع على انه غير صحيح، لانه كان يعمل مع الافغاني وشريف الخ وهؤلاء ساهموا في خلع اسماعيل . ولكن لا يستبعد ان يكون إديب او نفر منهم قد حاول الاستفادة من اسماعيل بعد ان بطش بهم توفيق الذي جاءوا به . الا ان ذلك لا يعني انهم كانوا يخدمون اسماعيل فقط ، او مخططاته فحسب .

أما عن التعاون مع شريف وباشاوات الحزب الوطني فان اديب لا ينكر تعاونه معهم . ويبدو ان اختلاف الامام مع اديب هنا كامن في ان الاستاذ الامام تعاون مع رياض ، معارض شريف ومنافسه على رئاسة الوزارة . وبينما كان شريف يدافع عن الدستور قبل مايو سنة ١٨٨٢ ، كان رياض يلعب دور القامع للحياة الدستورية وقد التقيا في الوزارة التي تشكلت في ظل الاحتلال . فلقد استصدر رياض عفوا عن الاستاذ الامام سنة ١٨٨٠ ، وعينه محررا ثالثا ، ثم رقاه الى مرتبة محرر اول للصحيفة ورقيب عن المطبوعات (١٧٨) . واتخذ الاستاذ الامام لذلك موقف المدافع عن رياض المشيد بفضائله (١٧٩) . ويبدو ان رياض كان لا يتمتع بثقة الاستاذ الامام فحسب ، بل بثقة استاذه الافغاني . ويشير الافغاني في رسالته الى عبد الله فكري ، بعد نفيه من مصر انه ارسل (العارف) خادمه «... الى صاحب الدولة رياض باشا» ليتسلم أمواله وكتبه التي بقيت في مصر، ويضيف «وأرسلت الى جنابه مكتوبا اظهرت فيه تفصيل ما جرى عليّ في مصر، وما ابتليت به في البلاد الهندية» (١٨٠) .

لقد اتفق محمد عبده وأديب اسحق على كثير من الآراء والافكار المتعلقة بالاصلاح ، وفي ملاحظاتهما على الثورة العرابية (١٨١) وان اختلف موقفهما منها . ذلك ان اديب غادر مصر عندما انفجرت الثورة العرابية ، بينما بقي الاستاذ الامام، ووقف الى جانب الثورة ، وحوكم مع قادتها .

ويقول محمد عبده في تفصيل ذلك : «ولكن لم تكن الثورة من رايي ، وكنت قانعا بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات ، فلم أوافق على عزل رياض في سبتمبر سنة ١٨٨١ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة ايام التقيت بعرابي في دار طلبة عصمت ، وكان قد جاء مع عرابي لطيف بك سليم ، وكان هناك عدد كبير من الزائرين ، فنصحت لعرابي بالاعتدال ، وقلت له : اني ارى ان بلادا اجنبية ستحتل بلادنا ، وان لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب في

---

١٧٨ ـ محمد عبده : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، مقدمة محمد عمارة ؛ ورشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام . مطبعة المنار ١٩٣١ ص ١٣٧ .

١٧٩ ـ محمد عبده : المرجع السابق ، الصفحات ٥٠١ ـ ٥١٢ و٥١٥ ـ ٥١٦ .

١٨٠ ـ محمد عمارة : «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني» ، ص ٥٤٠ .

١٨١ ـ محمد عبده : المرجع السابق ، مقدمة محمد عمارة ، المجلد الاول .

ذلك ..» ويضيف ان عرابي كان «يرجو الا تقع هذه اللعنة عليه» وان سلطان باشا اخبره بأنه سيحضر له عرائض موقعة من جميع الاعيـــان في طلب الدستور . ويفسر الاستاذ الامام ذلك بأن هذا صحيح لان «جميع العمد كانوا مستائين من رياض لانه منعهم من تسخير العمال وقطع هذه العادة ...» .

ويقول محمد عبده بعد ذلك «ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعا الى الثورة لكي نحمي الدستور ...» .

ويوضح محمد عبده في رسالة الى الافغاني أرسلها من بيروت حقيقة العلاقة مع رياض ، وما حدث لتلامذة الاستاذ جمال الدين الافغاني في عهد الثـــورة العرابية . وهو يذكر هنا ما يلي :

١ ـ ان الوشاة «... غيَّروا قلب دولتلو «رياض باشا» عليك ، وعلى تلامذتــك الصادقين اياما معدودة ، كن فيها للعمل بالشدة ، والاخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث ان وصلنا اليه ، وجلوت الامر عليه ، وكشفت له ما اغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس المبطلون ، وبطـل كيدهم وما كانوا يعملـــون ، ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلمـــاء والامراء ورجـــال الحكومة ... » .

٢ ـ انه ظل ساعيا الى المقاصد العالية التي طرحها الافغاني .

٣ ـ انه وحَّد تلامذة الافغاني الصادقين والكاذبين «... حتى اني لم اتأخر عـن مساعدة اولئك الاشقياء الادنياء ... (يوجد هنا فراغ يدل على حـــذف الاسماء) وأمثالهم من اللئام ، تحسينا للظن ، وايثارا لجانب العفـــو ، فأصلحت لهم القلوب ، وأفسحت لهم الصدور ، وفتحت لهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة ، لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا» .

٤ ـ انه واصل العمل في «طلب الانتصارات» ، ولكنه يضيف : «... غلبنا على الامر قطاع طريق الخـــير ، اللابسين ثياب الانبيـــاء ، السالكين مذاهب الجبارين» الذين كما يقول : «... انتحلوا طريقنا في الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحـــق وحماة القانون ، وكانوا في بداية امرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلـــى تلامذتك ، واشتد معهم في التعصب اولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم ، عندما راوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ويمدهم في بعض غيهم ، ولم يدم ذلك الا قليلا حتى محصنا قلوبهم ، وجلونا عن بصائرهم ، فكـادوا يشيمون ضياء الحق ، لولا ان أدركتهم ظلمة الغي والغرور ، ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ، ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، الى ان غلبت عناصر الفساد وعم الاختلال ...» (١٨٢) .

---

١٨٢ ـ محمد عبده : المرجع السابق ، الصفحات ٥٦٤ و٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

والاستاذ الامام يفسر في ذلك كله جوانب من موقفه ، فهو مع الاصلاح والدستور وضد دخول الانكليز الى مصر ، ولكنه يقف مع رياض ضد شريف ، لان رياضا حقق بعض الاصلاحات منها الغاء السخرة ، التي عارضها الاعيان ، ومنهم شريف وسلطان . وهو يطعن ببعض تلامذة جمال الدين الافغاني الكاذبين ، ومن المؤكد انه كان يضع اديب اسحق بينهم . وعلى الرغم من ان الاسماء محذوفة من الرسالة ، فاننا نكاد نلمس ذلك من موقف الاستاذ الامام من أديب .

ولقد كان هنالك اكثر من سبب ، غير ما ذكرنا ، لاختلاف محمد عبده مع اديب اسحق . ومن هذه الاسباب :

١ ــ كان محمد عبده مسلما مؤمنا ، يؤمن بالاصلاح عن طريق الاصلاح الديني والتربوي الاسلامي ، وكان اديب اسحق ينادي بالاصلاح عن طريق افكار الثورة الفرنسية . ومع ان اديبا لم يكن «ملحدا» فقد كان اساس تكوينه الايديولوجي والسياسي مختلفا عن تكوين محمد عبده .

٢ ــ كان محمد عبده ، على الرغم من انفتاحه وعدم تعصبه الديني والسياسي ، حذرا من الاجانب وكان أديب يعيش ضمن بيئة اجنبية عن مصر ، وان كان عربيا عثمانيا بانتمائه السياسي .

وكان اديب اسحق عضوا في مصر الفتاة ، كما تجمع مصادر ، وكان الافغاني عضوا فيها ، ويرى محمد عبده انه «... لم يكن فيها مصري حقيقي ، وانما كان اغلب اعضائها من شبان اليهود» [١٨٣] .

لذلك كله اختلف الاثنان ، وان اتفقا في الكثير من الآراء والافكار .

أديب اسحق والثورة الفرنسية :

يقول رئيف خوري في كتابه : «الفكر العربي الحديث ، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي» ان «... اديب اسحق من أعمق كتابنا صلة بالثورة الفرنسية ومبادىء مفكريها» . وهذا صحيح ما دام الحديث عن مفكري القرن التاسع عشر . ويعود ذلك الى ان رفاعة الطهطاوي الذي اعطى أدل صورة عن فرنسا ، بعد الثورة ، كان يقدم صورة وصفية . أما أديب فكان يتبنى أفكار مفكري الثورة الفرنسية وآراءهم .

ويفيض رئيف خوري في مناقشة تأثر مفكرينا ، ومنهم اديب ، بأفكار الثورة في الكتاب المشار اليه أعلاه ، ولذلك ليس هناك حاجة للعودة الى ذلك الان .

ولكني أود هنا ان اشير الى موضوعتين :

الاولى : ان اديب اسحق اخذ من المجتمع الفرنسي والدولة الفرنسية في

---

١٨٣ ــ رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

عهده مثالا للدولة والمجتمع اللذين يجب ان يحتذيا .

وثانيهما : ان افكاره كانت في معظمها صدى لافكار الثورة الفرنسية ، واذا استثنينا فكرة الامة التي لم ينسجم فيها مع مفكري الثورة الفرنسية ، لانه لم يعتبر اللغة عاملا اساسيا من عوامل تكوين الامة ، بل استحسنه ، فان اديب اسحق ، لا يكاد يخرج عن اطار افكار الثورة الفرنسية . ومن السهل تتبع افكاره وعلاقاتها بالثورة الفرنسية لمن اراد ذلك (١٨٤) .

ونجد في كتابات أديب اقتباسات واستشهادات من روسو ومونتيني ومونيسكو وساي ولابروير وغيرهم (١٨٥) . وكان اديب اسحق يقدم افكار الثورة الفرنسية والمناقشات الدائرة حولها ، كما فعل في مناقشة قضية الحرية (١٨٦) .

أديب اسحق الصحفي :

ان دور اديب اسحق الصحافي ابرز الادوار التي لعبها في حياته . ولقد عاش اهم سنوات حياته في الصحافة (١٨٧٧ — ١٨٨٤) . وترك لنا آثارا كبيرة في صحيفة التقدم ، ومصر والتجارة ومصر — القاهرة ، كما اشرنا الى ذلك آنفا .

وعندما بدأ أديب اسحق ممارسة الصحافة كانت الصحافة في مرحلة نشأتها الاولى . كان عدد الصحف ما زال محدودا في الوطن العربي ، وكانت الصحف تعليمية تهذيبية اكثر منها اخبارية تعبوية .

وكان على رأس المدرسة الصحفية الاولى التي تتلمذ عليها اديب اسحق ، احمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي . فجاء اديب وقفز بالصحافة الى الامام .

وهناك اجماع على تقدير دوره في الصحافة . يقول د. عبد اللطيف حمزة عن جريدتي مصر والتجارة « ... كانتا في الحقيقة من اقوى دعائم النهضتين القومية والادبية ... » (١٨٧) ، ويضعه نجيب توفيق على رأس المدرسة الصحفية الثانية التي كانت « ... الخطوة لتقدم الصحافة الشعبية وتقدم المقال الصحفي » (١٨٨) .

---

١٨٤ — برنار غروتويزن : «فلسفة الثورة الفرنسية» ، ترجمة عيسى عصفور ، وزارة الثقافة ، دمشق .

١٨٥ — رئيف خوري : «الفكر العربي الحديث» — دار المكشوف ، ص ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥١ — ١٥٧ ، ١٦٢ — ١٦٧ .

١٨٦ — د. منير موسى : «الفكر العربي في العصر الحديث» ، ص ٤٨ — ٦٣ .

١٨٧ — د. عبد اللطيف حمزة : «ادب المقالة الصحفية» ، الجزء الثاني ، ص ١٢ .

١٨٨ — عبد الله النديم : «خطيب الثورة العرابية» ، مكتبة الكليات الازهرية ، ص ١٤٦ .

ولقد اعتاد اديب اسحق أن يفتتح عمله في صحيفة من الصحف ، او لدى انتقاله من بلد الى بلد ببيان ، يحدد فيه منهجه . وسوف نعرض هنا بعض ما جاء في هذه البيانات الهامة .

تحدث اديب اسحق عن منهجه السياسي والصحافي بعد انقضاء سنة على صدور جريدة مصر شدد فيها على ما يلي :

أ ــ «حسن الاختيار في النقل ، وهو من اهم واجبات الجرائد ، ومنها تقديم الاهم على المهم ، وانتقاء الاخبار الموجبة لاحياء الهمم والتعاون والتوازر على استجلاب العزة ، ودفع المعرة ، وانتخاب الاقوال المؤيدة للحقائق ، الناقضة للاوهام ، الداعية الى الائتلاف ، المبعدة عن الشقاق والاختلاف ...» .

ب ــ «... تهذيب العبارة وتقريب الاشارة ، وتنقيح الكلام وتقرير المعنى في الافهام ، واطراح ما يتجافى من اللفظ عن مضاجع الرقة ... وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، واطراحنا فاسد التركيب وعاميه» .

جـ ــ «... السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات وقيود القوانين والاعتلاق بأهداب الصدق ، والتشبث بأذيال الاعتدال ، والتنزه عن الغرض الموجب للانحراف ، والميل الباعث على الارجاف مع التثبت في القول المنقول، والتدبر للرأي المعقول ، كراهة ان ننقل من الروايات ما هو مجروح ، ومن الآراء ما هو مرجوح ؛ ملتزمين في جميع ذلك ان لا نتكلم بما لا نعلم ، ولا نماري فيما علمنا» (١٨٩) .

وكتب عندما نقل جريدة مصر من القاهرة الى الاسكندرية ، فأكد ما ذكر سابقا ، وزاد موضحا انه سيقوم بواجبه وواجب الجرائد ، «بنشر المقالات العلمية والادبية تنبها للخواطر وتدميثا للاخلاق» . ويشير بأنه اختص «هذا الباب بمعظم العناية لانه علم يستفيد منه العالم والجاهل والكبير والصغير» (١٩٠) . وكان قد اشار في المقالة السابقة الى اهمية الترجمة «التي يتبارى اليها كتاب هذا العصر ويتسابقون ، ولكن قليلا ما يدركون» .

وحين تولى تحرير التقدم في المرة الثانية ، كتب تقديما للعدد الاول ، بيّن فيه مقاصده ، قائلا بأن الجريدة سوف تشتمل : «... اخبار السياسة ، والراجح من آراء ذوي النقد ، والنافع من شذور الآداب ، والمأثور من خطرات الالباء» . واضاف : «نجمع فيها السياسيات تحصيلا، ونبسط الادبيات تحصيلا، لا نسوّد منها بالرياء وجها ، ولا نملأ لها بسفاسف القول وطابا ...» (١٩١) . واشار اديب اسحق في هذه الافتتاحية الى قانون المطبوعات الذي وضعته

---

١٨٩ ــ اديب اسحق : «الدرر» ، ص ١٠٧ ــ ١٠٩ .

١٩٠ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ــ ١٤٣ .

١٩١ ــ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

الدولة العلية فاعتبره : «... لينا في غير ضعف ووازعا في غير عنف ، يؤمن المستعصم بعروة الحق والصدق» .

وعاد عندما تسلم تحرير التقدم في المرة الثالثة فحدد مقاصده السياسية والادبية والصحافية (١٩٢) . ولما كنا قد تعرضنا للجانب السياسي سابقا ، فاننا سنشير الى الجانبين الادبي والصحافي .

فالمقصد الادبي ، كما يسميه يتجسد في «... تعميم التعليم بتقريب المعاني الادبية والقضايا العلمية لافهام العوام ...» . ويضيف : «واكثر ما يرد في منشوراتنا من قضايا العلم وضروب الفنون والآداب ، يكون للعمل أقرب ، وفي الاحوال المعاشية ألزم ، وبالمبادىء الكلية اخص من نحو علم الاخلاق وأصول التدبير ، واساليب التعلم والتعليم وواجبات الجماعات» .

وأما الجانب الصحافي فهو يلزم نفسه بأمرين ، اولهما : «... نقل الاخبار من مظان الصحة ، ومواضع الرجوح ، والتثبت فيها قبل النشر ما أمكن ذلك في صحف الاخبار ، بحيث لا نخطىء الا معذورين» . وثانيهما ان يختار من الاخبار «... ما كان بمصلحتنا أمس ، ولبلادنا أقرب ، وباهتمامنا أحق ...» .

وهو يؤكد في هذه المقالة انه يحترم الافكار قائلا : «انا نحترم الافكار بلا استثناء ، ولا نروم الا تأييد الحقيقة ، ورد الوهم من حيث جاء» . وعاد ليؤكد في نهاية مقالته ان تحديد مسلك الجريدة لا يعني «ولا يوجب ارتباط محرريها جميعا براي واحد في المواضيع المتنوعة ، فربما اختلفوا في التفاصيل ، بل ربما اختلفت آراؤهم في الاصول ، وكل مأخوذ عليه بما يقول» . وذلك في رأيه «مما تقتضيه حرية الآراء ، وذلك هو المعول عليه في أقلام التحرير بأعظم جرائد الغرب» .

والمباحث التي كتبها اديب اسحق عن الجرائد تعطينا المزيد من الوضوح عن رايه في الصحافة (١٩٣) .

ويقدم اديب اسحق في هذه المباحث فكرة عن كلمة جريدة ومن اين جاءت وكلمة «غزتا» و«جرنال» ومن اين جاءتا ، ومتى نشأت الصحف ، وماذا كانت تقدم . ويذكر ان الوقائع المصرية هي اول صحيفة عربية ويستطرد «ان اكثر بلدانا صحائف أخبار دار السعادة العلية ، ثم بيروت ، ثم الاسكندرية ، والقاهرة ، ثم ازمير» .

ويذكر في البحث الثاني ان الجرائد «نافعة الاثر عظيمة الفائدة ...» ، ثم يشير الى الفساد الذي ينتج عن الصحائف «... التي تهيج الانفس ، وتبث الشحناء في القلوب وتوقظ الفتن والحروب ...» .

ويتعرض في البحث الثالث لحرية الصحافة ، فيذكر ان الانكليز كانوا اسبق

---

١٩٢ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣ .
١٩٣ ـ اديب اسحق : المرجع السابق ، ص ٤١٢ ـ ٤٢٠ .

الناس «الى الحرية على اختلاف مظاهرها وأنواعها» ... «على حين لم تكن الجرائد في سائر الاقطار الا بوقات مدح وامزمير حمد للوجهاء والاقوياء» . ويذكر كيف تغيرت الحال في فرنسا بعد الثورة وانطلقت الجرائد «في مجال الاهواء ذات اليمين وذات الشمال ، وأساء بعض اربابها استعمال الحرية ، فدعوا الى القتل والنهب وانتهاك المحارم ، فكانوا كالمجنون تقلدا سيفا» . وبعد ان يشير الى تحرر صحف اميركا وسويسرا يمر بصحفنا فيقول : «وما نذكر ان صحائف الاخبار لم تبلغ بعد في بلادنا المحروسة ما بلغته من الحرية التامة في بعض الاقطار الغربية ، ولكن من نظر الى أحوالها بعين الانصاف ذاكرا قرب عهدنا من الحرية المدنية ، والمعارف السياسية ، غير ذاهل عن وجوب التدرج ، واستحالة الطفرة في كل الامور رأى قانونها بعيدا من الجور ، قريبا من الرفق ، يماثل قوانين الجرائد في كثير من البلاد الاوروبية ، ويفضل بعضها بسعة الحرية في كثير من الاحوال» .

ويعتقد اديب اسحق ان العيب ليس في قانون المطبوعات بل فينا لاننا «... نستطيع جل ما تقوى عليه الجرائد في معظم البلاد الغربية ، كما يعلم ذلك من وقف على بعض جرائد الاستانة العلية ...» .

وكان أديب اسحق في كل الصحف التي اصدرها او شارك فيها منسجما مع ما أوردنا فهو :

اولا : من الناحية السياسية : وطني مخلص لعثمانيته وللغته ووطنه .

ثانيا : من الناحية الصحافية : ملتزم بالخبر الصادق ، مهتم بأخبار الدولة العثمانية غير مولع بالاثارة .

ثالثا : ومن الناحية الادبية حريص على قوة التعبير الادبي وايجازه ووضوحه في الوقت ذاته .

ولقد امتازت صحافة اديب اسحق بما يلي :

١ ــ انها ليست صحافة خبر فحسب ، انها صحافة تحليل وتعليم وخبر . ولذلك كان يندر ان يخلو عدد من افتتاحية هامة ، او تحليل مكثف للوضع الدولي او الداخلي . ويندر ان يخلو عدد من مقالات مترجمة او موضوعة تتناول موضوعات علمية او اجتماعية او سياسية .

وكان كما اشرنا حريصا على تناول أخبار البلاد العربية الواقعة ضمن اطار الدولة العلية او حتى خارجها .

٢ ــ انها تهتم بالمستوى الادبي للكتابة ، وخاصة الافتتاحيات والتحليلات الاساسية . وكان اديب يميل الى السجع ، في غير تكلف زائد ، ويهتم بالمحسنات البلاغية ، وكان كثيرا ما يورد كلامه مورد الحكمة ، او يستشهد بالقرآن والحديث وأحاديث الاولين من البلغاء . وكثيرا ما يستشهد بالشعر .

وكانت كتابته تميل الى الخطابة ميلا واضحا (١٩٤) .

وكان التحليل او الافتتاحية من أبرز عمله الصحفي . ولقد سلك فيه مسلك الصحافة الاوروبية مع المحافظة على البلاغة العربية .

كما ان صحافته امتازت بالتنوع ، من حيث المواضيع والاخبار . وقد اجتمع له ، كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : «من الاسباب ما لم يجتمع مثله في يد غيره ، ليكون رجلا تشعر حين تقرأه انه اديب يتعالى في لفظه ، وكاتب يباهي بصناعة الكتابة ، ويعرف لها قدرها ، وصحفي ذو قدرة على الاداء ، وفي ادائه تسام الى درجة من الفن والجمال قلما تتهيأ لغيره من الناس» (١٩٥) .

ومما يذكر له في هذا المجال انه كان يناضل من اجل حرية الصحافة ، ويدين تعطيل الصحف . فهو مثلا يستنكر اغلاق صحيفة مرآة الشرق قائلا : «ولقد ساءنا وقوع هذا القصاص على جريدة عرفت بالحمية الوطنية ، وتجردت عن المقاصد والمآرب الذاتية ، فلم تبدُ منها الحدة الا لشدة الغيرة ، ولم يتسع فيها اللسان الا لضيق الصدر ...» (١٩٦) . وحين اغلقت السلطات الاهرام وصدى الاهرام وحاكمت صاحبيهما لم ترضَ «مصر» بذلك ، على الرغم من الخصومة بين الصحيفتين ، ذلك ان صحيفة التجارة مهتمة «بما يترتب على الجرائد من الفوائد ، فانها واحدة ثلاثة هي محور التهذيب ، نريد المدارس والجرائد والتياترات» . ثم تعود التجارة الى معالجة الموضوع في العدد التالي آملة «من حكومتنا السنية الآخذة الان بأسباب الشورى ان تنظر الى الجرائد بعين الرفق ولا تمسها الا بالتؤدة ، فهي واسطة المعاملة بينها وبين الرعية ، فان فنيت وهي لسان الحال ، فان هيئتنا المدنية تكون خرساء لا تحسن النطق فضلا عن البيان» (١٩٧) وطالبت صحيفة مصر بقانون حر للمطبوعات (١٩٨) . ولكن التجارة غيرت موقفها في عهد الوزارة الشريفية ، فلم تعد تواسي الصحف كما كانت من قبل ، واذا ما عطلت صحيفة «... نشرت خبر تعطيلها في مكان ظاهر منها وعلقت على الخبر قائلة : ان ذلك التعطيل أحدث عند الفئة الوطنية سرمدا زائدا» (١٩٩) .

---

١٩٤ ـ د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية الجزء الثاني ، ص ٥٣ ـ ٥٩ .

١٩٥ ـ د. عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

١٩٦ ـ مصر ، العدد ٣ ، تاريخ ١٨-٧-١٨٧٩ .

١٩٧ ـ التجارة ٢ و٣ مايو (ايار) ١٨٧٩ ؛ والدكتور ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، الطبعة الثالثة ص ٩٣ .

١٩٨ ـ د. ابراهيم عبده : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

١٩٩ ـ د. ابراهيم عبده : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

هذه المختارات :

وتضم هذه المختارات كل كتاباته السياسية والاجتماعية التي استطعنا الوصول اليها ، من خلال قراءة ما وجدناه من أعداد الصحف التي شارك فيها ، وقراءة عدد من المجلات والجرائد التي صدرت في زمانه ، والتي عرفنا انه كتب فيها .

ونستطيع لذلك ان نقول بأن هذا المجلد ، يضم القسم الاساسي من كتاباته . وقد نشر منه قسم في الدرر ، في الطبعات المختلفة التي اشرنا اليها .

وقد ذكرنا الى جانب كل مقال ، اين وجدناه ، واذا كان نشر في الدرر سابقا .

وسنفرد جزءا آخر لكتاباته وترجماته الاخرى وهي :

١ ـ مساهمته في آثار الادهار .

٢ ـ شعره .

٣ ـ مسرحياته المترجمة .

٤ ـ رواياته المترجمة .

ولا بد لنا من الاشارة الى ان كثيرا من مقالاته التي اخترناها ، لم تكن موقعة باسمه . وقد دلنا عليها أسلوبه ، وقناعتنا بعد الدراسة انها من كتاباته .

ويضم هذا الجزء كتابات اساسية لم يضمها «الدرر» في اية طبعة من طبعاته.

بيروت في ٤ـ٣ـ١٩٧٥ **ناجي علوش**

الحياة السياسية والاخلاق

الحياة السياسية (١)

ان للوجود الانساني في هذه الدنيا ثلاثة أدوار متوالية يأخذ بعضها بأطراف بعض . الاول دور الفطرة وهو الوجود الطبيعي ، والثاني دور الاجتماع وهو الحالة المدنية ، والثالث دور السياسة وهو موضوع كلامنا في هذا المقام . فالمرء يوجد ساذجا فطريا يلتمس الغذاء والمبيت وسائر الحاجات الطبيعية ، مما تصل يد امكانه اليه ، ثم يدفعه الحرص على الذات الى حفظ النوع ، وتلجئه كثرة الحاجات الى طلب الاعانة ، فيتألف ويجتمع فيصير مدنيا ، ثم يتقدم في هذه المرتبة فينظر في شؤون نفسه ، ويهتم بأحوال جنسه ، فيصير سياسيا وهو الانسان المدني الكامل الحقوق والواجبات .

ولا شك في وصولنا الان الى هذه المرتبة العالية ، وحصولنا في هذا الدور الخطير بما أطلق لنا من الحرية ، وما تقرر لنا من الحقوق السياسية عفوا واختيارا من دون غصب يلزم فيه الرد ، ولا تغرير يحتمل النقض ، ولكنا لا نزال في دور الطفولية من هذه الحياة ، فلا بد من مرب حكيم يأخذ بيدنا فيما نعانيه ، فلا نسقط ونحن في اول الدرجات ، ومن دليل راشد يهدينا الصواب، فلا نضلّ ونحن في أول الطريق .

ولا يتوهمنّ محب الحرية ان الحاجة الى المربي والدليل منافية لما تقتضيه

---

١ ـ «نشرت في الدرر ص ٤٤٥» ويبدو من النص انها نشرت على ثلاث حلقات .

حريته ، او مشعرة ببقاء الاستبداد. فان هذه الحاجة قد عرفت وألفت في أظهر البلاد تمدنا ، وأحرص الامم على الحرية السياسية ، وكانت ولا تزال من لوازم النماء والبقاء في الاجتماع الانساني، ولن تبرح كذلك ما دام في الارض علماء وجهلاء وحكماء وسفهاء وخاصة وعامة ، وما دام الانسان محلّ خطأ ونسيان . ولكن يشترط في المربي او الدليل ان يكون ممن اجتمعت الكلمة عليهم ،، وحصلت الثقة بهم ، والا فهو من ذوي السلطة الناشئة عن القوة في جانبه ، والخوف او الوهم في جانب الرعية ليس الا .

وهذا الشرط حاصل لا ريب في أولي الامر منا فان الجناب الخديوي المعظم أيده الله قد عرف بالرغبة في اصلاح الوطن والميل الى اعلاء شأن الامة والحرص على حريتهم حتى صار يقال وينشر في عهده ما كان يخشى بعضه من قبله فكثرت في ايامه الجرائد وكانت نزرا قليلا وتألفت الجمعيات الخيرية والادبية ولم تكن شيئا مذكورا واطلقت الناس حرية الكلمة وكانوا يتكلمون في ديارهم همسا ولا يأمنون .

اما النظار الكرام فهم الذين اختارتهم الامة بارادة ذلك الامير العلي الشأن ثقة بهم وعلما بأنهم اصحاب الرئاسة الحقة والزعامة المستحقة بين الذين يرومون احياء مصر لاهل مصر ويريدون ان يكون الوطن في مقام الانسان فائزا بحقوقه ناهضا بواجباته مساويا لجاره غير معارض في داره يحصد ما يزرع للعيال لا لاهل الاغتيال ويجني ما يغرس للاولاد لا لاهل الاستبداد وقد اخذ هؤلاء الادلاء الراشدون في تمهيد سبيلنا وازالة العقاب منه متوسلين الى ذلك بالحكمة والاعتدال آخذين بأسباب التؤدة ومراعاة الاحوال حتى وثق بهم الاجنبي فضلا عن الوطني وبدت مقدمات سعيهم وآثار اجتهادهم بمظاهر حسن الادارة واقامة العدل وتقرير المساواة واصلاح الخلل السابق تدريجا فاستحكمت علائق الولاء بينهم وبين المتبوع الكريم وتأيدت صلات الموالاة بين حكومتهم والدول العظام كما تدل عليه أقوال وزرائها على منابر المجالس وكلام وكلائها في دوائر المخابرات .

فالواجب على الوطني الراشد ان لا يعبأ بعد ذلك بما تنشره بعض الجرائد مما لا مكان له من الصحة جهلا منها بحقيقة الحال او ميلا مع الاهواء او اخلالا لافكار ابناء الوطن المصري فان اراجيف تلك الجرائد بديهية الفساد .

وكذلك يجب على الصحف الوطنية التي هي في مقام الارشاد والهداية الا تقلق الخاطر عبثا بايراد هاتيك الاراجيف على علم ببعدها من الصحة وان كان منها ما يلزم نقله بيانا لتفاصيل الاحوال السياسية فلا أقل من التفريق بينه وبين مقاصد الحكومات وآرائها كراهة ان يقع اللبس في الامور فينشأ عنه النفور في محل الائتلاف والوحشة في مكان التقرب والكدر في موضع الصفاء خصوصا وان الحكومة السنية على يقين من ان الدول المحبة لا تقصد بنا الا الخير ، ولا تنوي لنا الا الموالاة ، وانها تتركنا وشأننا نصلح منه ما يحتاج الى الاصلاح ، وننشىء ما يترتب عليه النجاة ، مما لا يمس حقا مرعيا ، ولا يؤثر في العهود

المبرمة شيئا ــ ونحن في اهتمام بهذا الشأن نسأل الله فيه فوزا قريبا .

***

تبين في المطلب السابق ماهية الحياة من طريق الاجمال ، وانها عبارة عن وصول المرء في هيئة الاجتماع الى درجة الاهتمام بأمور نفسه ، والنظر في احوال جنسه ، فبقي ان يعلم كيفية سيره في ذلك السبيل ، وما يترتب عليه وما يحق له ان يكون فيه ، ليكون على بينة من الامر فيأخذ بأسبابه ، ولا يدخله من غير ابوابه .

ان هذه الحياة توجب للوطني ان يكون حرا في رأيه ، متصرفا في شأنه الى حد ان لا يضر بالهيئة المجتمعة ، ولا يمس شأن سواه ــ فهذه الحرية على شرطها المذكور تقتضي العلم بالمصلحة العمومية والحدود الشخصية ، وهو ما يعبر عنه بالادب السياسي . ووجه الضرورة فيمعرفة هذا الادب ان المرء اذا عرف مصلحة قومه سعى فيما يوجب لها البقاء والنماء ، واذا راى حدود اخوانه اقام لنفسه حدا لا يتعداه ، وخطا لا يتخطاه ، بخلاف ما اذا جهل ذلك ، فانه لا يأمن حينئذ ان يظهر بما يخالف تلك المصلحة ، ويفسد هذه الحدود فتكون حريته ضررا بأوطانه ، ووبالا على اخوانه .

وليس هذا الادب مما يؤخذ بالمكاشفة ، ويحصل بالسليقة ، او يعرف بالبداهة ، بل لا بد في تحصيله من الطلب والإجتهاد ، وحسن الاقتداء ، ودقة النظر والتبصر في احوال الناس من قبل وفي الحال . وهيهات مع ذلك ان يحصل بقدر اللازم ، ويتم بحسب المرام ، الا بعد توالي الاجيال وتعاقب الاعوام. يدل على ذلك ان الذين سعوا اليه من قبلنا بمئات من السنين سعي من شمَّر ذيله وادرع ليله ، مجدّين ساهرين بياض النهار وسواد الليل ، لا يزالون على مراحل من غايته الكمالية . يرون ذلك من انفسهم ويعترفون به سرا وجهرا ، ولا تأخذهم عزة الانفس في الاسترشاد بالسابقين منهم ، وبآحاد اهل العلم السياسي ، وافراد ذوي الكمال المدني ، فهم يشربون باسماعهم خطب الوزراء والنواب ، ويأكلون بانظارهم منشورات الجرائد الوضاءة ، فيردون من تلك الخطب سلسبيل الحكمة والاعتدال ، ويتناولون من هذه المنشورات غذاء الحمية والوطنية ، وفيهم بين ذلك علماء تدبير ، ورجال حكمة ، وزعماء سياسيون ، وفضلاء رحّالون يكشفون لهم حجب الاوهام عن أوجه الامور ، ويجلون للافهام صور الحقائق ، فلا تكاد تخفى عنهم خافية الا ما لا يعلمه غير الله .

فاذا حصل هذا الادب للوطني السياسي وكان مع ذلك نبيل النفس ، طاهر الذيل ، صادق النية ، قادرا على ايثار المصلحة العمومية ، فله حينئذ (حينئذ فقط) ، ما لسائر اهل الحياة السياسية وهي حقوق كريمة مقدسة ، لا ينبغي ان يمسها الا المطهرون من دون الدنيئات : حرية راي ، وحرية قول ، وحرية انتخاب .

ولكل من هذه الحقوق الثلاثة حد لو تعداه لكانت الحرية فيه شدا من القيد وأشنع من العبودية ، فحد حرية الرأي ان يكون مبنيا على القياس ، موافقا للحكمة ، مطابقا للصواب ، وحد حرية القول ان يراد به الخير ، ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملايمة ، ولا يمس شرفا مصونا ، ولا يضر بريئا امينا ، ولا ينشد عن غير علم يقين ، وحدّ حرية الانتخاب ان يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس الا.

وقد عنيت حكومتنا السنية بتقرير هذه الحقوق ، وتعيين هذه الحدود ، اخذاً بما يحق لها وما يجب عليها من ذلك ، وصدورا عن الراي العمومي الذي اختارها ، لتكون دليله في هذا السبيل ، فبقي على الجرائد الوطنية ان تقتدي في ذلك بآثارها ، وتهتدي بأنوارها ، فتسلك بالاذهان مسلكا سليما من الآفات، خاليا عن العقبات ، وتشرب القلوب سياسة صافية ، سائغة زلالا ، تفيدها عافية ، ولا تزيدها اعتلالا ، مجتنبة في كل ذلك ما يشيعه المرجفون ، متجافية عما يرجف به اهل الاغراض ، مما لا يصح التعويل عليه ولا يكون له في جانب التصديق مكان ، جاعلة الوطن نصب عينيها في كل حال ، عالمة انها بمنزلة المربي للارواح والعقول ، فلا يحسن بها ان تكون من المفسدين .

وبقي على الوجهاء والنبهاء والرؤساء والعلماء وسائر ذوي الكلمة النافذة ان يحسنوا السيرة ويطهروا السرائر ، وينبذوا الاغراض الذاتية نبذ النواة ، ويطرحوا الاهواء النفسانية طرح القذاة ، ويسيروا بالناس في طرق السلامة ، الى غايات الهناء والكرامة ، فهم في الركب الاجتماعي بمقام الادلاء ، واذا لم يهتد الدليل سواء السبيل فغاية الركب الضلال .

وعليك يا ايها الوطني كائنا من تكون ، ان تحرص على شأن أوطانك حرص البخيل على درهمه ، وتخاف على منفعة قومك خوف الجبان على دمه ، وتعلم انك ان احسنت فلنفسك ، وان اسأت فعليها وعلى ابناء جنسك . اذ ليس ما تتصرف فيه بحريتك مما يعود ذاهبه او يمكن الاعتياض منه بسواه ، وانما هو المصلحة المقدسة الوطنية ، فحذار ان تأخذك فيه الحدة ، ويتولاك النزق اغترارا بما وصلت اليه ، وذهولا عما كنت بالامس عليه .

فأنت في اول درجة من مرقاة السياسة ، وفي اول مرحلة من طريق الحرية ، فلن تبلغ الدرجة العليا الا ان صعدت سائر الدرج ، ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سائر المراحل . فان حاولت غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة التي بلغت ، والرجوع من المرحلة التي وصلت ، بل ربما صرت على مسافة أعوام ، مما كنت ترجو ادراكه بأيام .

هذه نصيحة مخلص في محبتك ، ومشورة حريص على منفعتك ، لا يسألك عليها اجرا ، ولا يلتمس شكرا .

فان لم تكن لمقال النصيح ... سميعا ولا عالما انت به
ينبهك الدهر من رقدة ... الذهول وان قلت لا انتبه

***

الادب السياسي على ما عرّفناه في المقالة السابقة لا يحصل لافراد الامة كلهم اجمعين ، ولا يكون في الذين يحصلونه سواء بمقدار واحد ، لانه من الملكات الصناعية العلية ، والملكة لا تحصل الا بتكرار العمل ، وان حصلت فانها تختلف استحكاما وكمالا ، بحسب اختلاف القابلية والتفرغ في الناس .

على ان الادب السياسي وان لم يتيسر عمومه في الامة ، الا انه قد يحصل لافراد كثيرة منهم على مقادير مختلفة ، فيمكن لمجموعهم ان يسيروا في سبيله آمنين مهتدين اقتداء وتقليدا ، او يتدرجوا به في مراتب الحياة السياسية حتى يتوالى التكرار ، ويطول الاستمرار ، فيصير فيهم من الملكات الذوقية التي تعرف ولا تعرف ، كما كان العرب في الجاهلية ، بالنظر الى اللغة ينطقون بالكلام المركب بالوضع ، ولا يعرفون له من قاعدة غير الذوق .

وانّا اذا تأملنا احوال الامم العريقة في التمدن والسياسة لم نر هذا الادب في احد مجموعها بقدر الحاجة ، ولم نره في الافراد السابقين على حد سوي ، وانما هو في عدد كبير من ذوي رئاستهم ، وأرباب الكتابة والخطابة فيهم ــ يعقدون له الوية مختلفة الالوان فتسير العامة تحت ظلالها فرقا متنوعة المسالك ، مع وحدة الغاية للجميع الا الذين احترقت اذهانهم بنيران الحدة والطيش ، وما هم بكثير وان كثر ما يضجون وما يعجون .

ولكن مهما بلغت الامة من مبالغ السياسة وكثر عدد افرادها المتأدبين بذلك الادب ، فلن يكون لها نماء ولا بقاء في الحياة السياسية ما لم تكن ذات وجهة معلومة ، ووحدة لا تقبل النزاع والخلاف ــ يدل على ذلك تقدم الذين اتحدت وجهتهم ، وتأخر الذين تفرقت كلمتهم من قبلنا وفي هذه الايام .

فان قيل مالنا لا نرى تفرق الامم الاوروبية اقساما واحزابا مانعا من تزايد ثروتهم ، وتعاظم قوتهم ، واستفحال امرهم في الحياة السياسية قلنا : ان اولئك الامم لا يختلفون على غايتهم المقصودة بالذات ، وانما تتنوع الطرق التي يسلكونها الى تلك الغاية ، فان كان الفرنسوي جمهوريا او ملكيا او امبراطوريا فهو فرنسوي على كل حال وقبل كل شيء . وان كان الالماني محافظا او نجاحيا او اجتماعيا فهو الماني من وراء ذلك ، وهكذا الانكليزي والايطالي والنمسوي وسائر اهل المدنية والحياة السياسية .

وما قيّدنا الوحدة اللازمة لهذه الحياة بأن لا تقبل النزاع والخلاف الا احترازا، مما يحسب في الظاهر موضع ائتلاف واتحاد ، ولا يكون كذلك في الواقع ونفس الامر . ومما لا يمكن ان تجتمع كلمة الامة بجملتها عليه لاختلاف الآراء وتنوع العقائد فيه ، فان هذه الجامعات وان كانت جديرة بأن تحفظ وتصان ، الا انها بعيدة من السياسة لتعلقها بالنظر الفكري ، وتجردها في الذهن عن المحسوس، فضلا عن كونها غير واحدة في مجموع الامة . فالجدير بأهل الحياة السياسية من اي الناس كانوا ان يجعلوا الوطن وحدتهم لامتناع الخلاف فيه بين ذويه .

ومعلوم ان قدر الشيء يعلو ويسفل ، ويزيد وينقص بمقدار ما يكون له من الشأن ، وما يتعلق به من المنافع . فاذا كان الوطن هو الوحدة التي تجمع كلمة

الامة ، عظم بذلك شأنه المعنوي ، وتعلقت به المنافع الكلية ، وصار المحور الذي تدور عليه المقاصد والمساعي ، فيرتفع قدره ويعلو مكانه . واذا ارتفع قدر الوطن فذلك يعود بالشرف والعز على ساكنيه ، لانه لا حقيقة له الا بهم وفيهم ، ولا رفعة فيه الا منهم ولهم ، فهم اياه وهو لفظ وجودهم معناه .

فيا ابناء الوطن العزيز لئن فرّق بينكم اختلاف الآراء وتنوع المشارب ، وتلون التصورات ، فقد وجدتم في الجامعة الوطنية ما تأتلفون به ، وتجتمعون عليه ، فيجعلكم عصبة خير متلاحمة الاطراف ، متوازرة متضافرة كالبنيان المرصوص . فهلمّ الى هذه الجامعة ننشر لواءها ، ونرفع منارها ، ونظهر للعيان آثارها بأعمال تثبت التنزه عن المقاصد الدنية ، والتعفف عن المآرب الذاتية ، واقوال تشف عن صحة الابصار والبصائر ، وحسن الاسرار والسرائر ، لعلنا نقطع السنة الذين يرموننا بالجهل والغباوة والبعد عن مراتب الحياة السياسية ، ولعلنا نحقق آمال الذين يتمنون لنا السعادة وحسن الحال ، وبلوغ الاماني وادراك الآمال ، ولعلنا بحول الله نكون من المفلحين .

وسنبين ما هو الوطن وما حقه علينا فموعدنا قريب ، وعلى الله نتوكل وإليه ننيب .

* * *

تقرر فيما سلف ان لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا ، وان الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والنزاع فيه ، ونحن الان مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن ، وبعض ما يجب على ذويه .

الوطن في اللغة محلّ الانسان مطلقا فهو السكن بمعنى ان تقول استوطن القوم هذه الارض وتوطّنوها اي اتخذوها سكنا . وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ، ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن اقوالهم فيه – لا وطن الا مع الحرية – وقال لابروير الحكيم الفرنسوي – لا وطن في حالة الاستبداد . ولكن هناك مصالح خصوصية ، ومفاخر ذاتية ، ومناصب سمية – وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين – المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية .

وهذا الحد الروماني الاخير لا ينقض قولهم لا وطن الا مع الحرية ، بل هما سيان . فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الاوطان التي تفتدي بالاموال والابدان ، وتقدم على الاهل والخلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان .

اما السكن الذي لا حق فيه للساكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا ، فان عظم

فلا يسر وان صغر فلا يساء . قال بروير السابق الذكر : ما الفائدة من ان يكون وطني عظيما كبيرا ، ان كنت فيه حزينا حقيرا ؛ اعيش في الذل والشقاء خائفا اسيرا .

على ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وان كان سيىء الخلق شديدا عليه . ولذلك قيل في هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر ، والفرنسوي على فرنسا ، والانكليزي على انكلترة ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان الامر لا شك سوء فهم او سوء افهام .

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدودا : الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان . والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، او يسفل ويذل ، وهو معنوي محضا .

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئا ، ويشرب مريئا ، ويبيت في الاهل امينا ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عارا ولا يخاف تعييرا ، وهو الان موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما اوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية .

وللحب على اهله شروط محفوظة عند الاذكياء ، مجهولة عند المدعين الاغبياء ، فما تنفع فيه الشكوى ، ولا تقوم لصاحبه دعوى الا ببيان من الواقع ، وشاهد من الفعل ، وما احسن ما قيل :

دلائل الحب لا تخفى على احد ... كحامل المسك لا يخلو من العبق

وله مراتب مناسبة لموضوعه ، موافقة لمنشأه فهو في الكرامة كريم ، وفي النبالة شريف ، وفي المأثرة حميد ، وفي العز والمجد رفيع ، وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات . فان قيل في حب الحسان :

احبكِ حبا لو تحبين مثله ... اصابك من وجد عليّ جنون
لطيفا مع الاحشاء اما نهاره ... فدفع واما ليله فأنين

فقل في حب الاوطان :

احبك حبا لو تحبين مثله ... اصابك منه يا ديار تغير
شديدا مع الاشواق اما نهاره ... فسعي واما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر ، والباسهم جميعا لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث الا ان تثبت لنا وجودا وطنيا ، ورأيا عموميا ولو كره المبطلون . على ان منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفساف القول من مثل انّا تعودنا احتمال الظلم والحيف والفناء والخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية ، كأنما هم لا يعلمون ان اهل الغرب اجمعين تعوّدوا مثل ذلك الحيف اعصارا ، او كانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم بأسره كان فريقين احرارا يظلمون ، وعبيدا يطيعون ، او لم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات ، أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السالفة : لا يزال في بلادنا ستون الفا او سبعون الفا عبيدا للرهبان.

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما ادركوه من رفعة المقام ، وان يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في ابناء الذين كانوا من قبل عبدانا أرقاء .

ولئن كان من فضل هذه المائة ان يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاما .

***

السياسة والاخلاق (٢)

قال احد حكماء الفرنسيس : اتى على الناس الوف من السنين ، وهم يتصورون ويقولون ، فما ترك الاول للآخر وجاء السلف بأحسن ما يمكن ان يقال في ــ الاخلاق والسياسة ــ ففايتنا جمع ما نثروه ، والتقاط ما أسقطوه . ونحن في هذه المطالب مصداق ذلك القول ، فهي شذرات لبعض حكماء العصر ، بلحمة من خطرات الفكر ، تنسج على هذا المنوال ، وتنشر تحت هذا العنوان .

ــ ١ ــ

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها أحق ، وبها أعلم ، وعليها أقدر :

لا يعرف الحكم الا من يزاوله ‏ ‏ ‏ ‏ ولا السياسة الا من يعانيها

---

٢ ــ نشرت في الدرر ص ٤٥٦ .

ونقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحدا او غير واحد من ذوي الاقلام والافهام ، يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة ، وينظرون الى آداب الاخلاق من وراء حُجب الخفاء ... الف الكاتب الفرنسوي (روسو) كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة ، وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فأجاب : يقولون ألنت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة ؟ واقول لا ، ولكني من اجل هذا كتبت ، فاني لو كنت اميرا او حاكما لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان أفعل ، بل كنت أفعله او التزم السكوت .

ولكنه مقال يشف عن حسن الظن بالنفس ، فان قُبل من مثل روسو فلا يقبل من سائر الناس ، ولذلك لسنا نتخذه حجة على حقيقة خوضنا في هذا البحث . ولكن حجتنا في ذلك انه لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين السياسية ان يكون اميرا او حاكما او وزيرا ، كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كل واقعة ، ويحضر كل حادثة يقع نقده عليها ، بل من حقوق الانسان الطبيعية، بل من واجباته ان ينظر فيما يمسه ، وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية . ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ، ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونه لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ، ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها ، فكيف يحظر عليه النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان .

نعم ان وقاية النظام ، وانفاذ الاحكام ، واجراء ما يتعلق بذلك من الامور منوط بأهل الحكم لمقدرتهم عليه ، واستحكام ملكتهم فيه ، واختصاصهم به من دون سائر الناس . الا ان تقرير اصول الاحكام ، وتحديد شروطها، وتبيين انواع الحكومة ، وتعيين الحقوق والواجبات ، كل ذلك من باب العلم لا الحكومة ، فان اهل الحل والعقد مشتغلون بالعمل عن التصور ، ولو راموا الدخول في المباحث الخلافية ، والمسائل الخيالية ، لاهملوا الشؤون ، واضاعوا المصالح التي يجب عليهم حفظها من الضياع . ولكن اهل البصيرة والرشد منهم ينظرون الى ما يقال في ذلك بعين التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منه ، وينبذون ما لا نفع فيه ، كما هي الحال في رجال حكومتنا الحرة وأولي امرنا الراشدين في هذه الايام .

فاذا تبين ذلك مما ذكرناه ثبت وجود علم بأصول تعرف به أحوال السياسة والحكومة ، لا احوال حكومة معلومة مقصودة بالذات ، ولكن الحكومة على الاطلاق بالنظر الى طبائعها وقوانينها واشكالها الاصولية ، وما يجب عليها وما ينشأ عنها من الآثار ، وهو ما سمّاه بعضهم بالفلسفة السياسية .

- ٢ -

على ان السياسة وان كانت ـ من حيث هي ـ علما منفردا بقواعد معلومة

متعلقة بنظام أمور وسمط شؤون ، لا ينبغي ان تختلط بغيرها في حال ما ، الا انه من النافع اللازم ألا تفصل عن العلم الذي تمسه من كل ناحية ، وتتصل به من كل سبيل ، وتبني عليه في كثير من الاحوال ، الا وهو علم الاخلاق المسمى في بعض مظاهره أدبا ، وفي بعضها تربية وحكمة .

ولم يكن الاقدمون في ريب من وجوب هذا الاتصال ، بل بالغوا في تمكينه وتقريبه حتى جعلوا السياسة والاخلاق علما واحدا لم يفصلوا بينهما ، ولم يميزوا احدهما من الآخر بشيء ، تدل على ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة بما بُنيت عليه من وحدة الموضوع ، وان كتّاب السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المربون الباحثون عن آداب الاخلاق كأفلاطون وأرسطو وشيشرون .

غير ان اتساع نطاق المعارف والعلوم في الاعصر الاخيرة بانفساح مجال التصور ، وتوفر مادة الاختبار ، واجتماع اشتات الآثار ، قد اوجب اختصاص كل من هذين العلمين بفريق من الباحثين يقتصر على النظر فيه ، غير مبال بالذي يليه ، كما حصل في كثير من الفنون التي كانت فيما سبق فروعا من اصل واحد معلوم ، ثم صارت الان بمنزلة الاصول يختص كل منها بطائفة من العلماء كالطب الذي كان يشمل الجراحة ، وعلم الطبائع والامراض الباطنية ، وعلل العيون والاسنان ، وسائر ما يتعلق بعلم الابدان ، وهو الان علوم مستقلة على نوع ما بقدر هذه الفروع ، ولكل علم منها رجال يقومون عليه ، فيقال لزيد فسيولوجي ، ولعمرو طبيب اسنان ، ولبكر طبيب عيون ، ولخالد طبيب نساء وهلم جرا .

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرغا له ، واستيفاء لما اقتضاه الاتساع ، واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجردا له ، واستيعابا لفروعه الكثيرة ، غير مانع من تلازم العلمين ، واتصال احدهما بطرف الآخر وجوبا ، كما يتصل طب النساء بالفسيولوجية ، وطب العيون بالامراض الباطنية ، والكل بأصول الطب العمومي . وذلك لان السياسة تتناول حتى التربية والتهذيب والتأديب لغة واصطلاحا ، وفي واقع الامر ، وعلى اتصالها بعلم الاخلاق حجة نظرية وحجة واقعية .

الاولى ان علم الاخلاق والحكمة الادبية هو الذي تعرف به الفلسفة السياسية ، وتعلم غايتها الحقيقية لما انه مبني على العدل الذي هو قسطاس الاعمال ، والفضيلة التي هي حد الكمال كما سيجيء .

والثانية انه لا قيام للامة ، ولا قوام للدولة الا بأدب زاجر للانفس عن السوء، وأخلاق حافلة بحفظ النظام ، وتربية عمومية يتيسر معها نفوذ الاحكام ، والادب وحسن الطباع ، والتربية من فروع علم الاخلاق ، وهي من لوازم السياسة فهو وعلم السياسة متلازمان .

- ٣ -

تفصيل الحجة النظرية والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق

اذا صرف النظر عن التربية ، واحوال الطباع ، والحكمة التي هي البحث عن الحقيقة والعدل ، تاه الفكر في أصول الحكومة ، وعجز عن معرفـة الواجب والجائز ، والمحظور والمكروه ، لامتناع العلم بذلك من التأريخ او الآثار ، ولانه لو حصل هذا العلم الممتنع لما دل على احسن تلك الاصول ، لامكان وقوع الخطأ والظلم وخلاف الحق في الاصل الاول ، كما امكن وقوعه في الكثير مما تفرع عنه ، فلا بد والحالة هذه ان يكون الحكم في ماهية الحكومة الحقة مبنيا علـى المقابلة بينها وبين موجب العدل ، ومقتضى الفضيلة وهو علم الاخلاق . فـان الحكومة ليست بآلة مركبة من أجزاء معلومة تدار على اعمال معينة غير قابلـة التغيير ، وانما هي جسم مؤلف من رجال ذوي طباع واخلاق ، فهي بمنزلـة موجود واحد له غاية ادبية ، وحقوق مدنية ، وعليه واجبات . ففايته حسـن الحال ، وحقوقه اجراء الحق ، وواجباته اقامة العدل ، وكل ذلك لا يحصل الا بالفضيلة في جانبه وفي جانب الامة معا (والفضيلة غاية علم الاخلاق) .

والثانية ان الحرية التي هي غاية الحياة السياسية ، والكمال المدنـي ، لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة . فان المملكة الحرة ان هي الا بلاد تجوز فيهـا أمور كثيرة محظورة على الناس في بلد غير حر من مثل الاجتماع ، والخطابة ، والكتابة ، والغدو ، والرواح ، والادلاج ، واطلاق الارادة في أهـواء الانفس المتعلقة بها بالذات وهلم جرا . فان وجدت هذه الحرية مع فسـاد الطباع ، وسفالة النفوس ، واستحكام الجهل ، وانتشار الرذيلة ، وضيـاع الفضيلة ، كانت مدرجة للخلل والفساد ، وذهاب الحقوق ، وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون ويتقاتلون فيغلب القوي الضعيف ، ولا يبقى من فارق بين الانسان وسائر الحيوان ، اذ تغلب الشهوة على الشهامة ، ويستولي الشره على العفة ، ويستعلي حب الذات على الحق ، فتنقلب الحرية استبدادا بيد الاقوياء ، وتنوب التحزبات عن الراي العمومي ، فينسى الذين تولاهم الفساد واجباتهم الذاتيـة والوطنية والانسانية ، ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها ، وحاجة في النفس يقضونها . والجملة ان السياسة لا تصـح الا اذا بنيت على الحرية ، والحرية لا تحصل الا بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق).

- ٤ -

تبين بالحجة النظرية والشاهد العلمي ، ان علم السياسة متصل بعلـم الاخلاق ، غير انه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصـودة

بالذات من الحكومات . فالحكم لم يكن الا لحفظ الحق اما الفضيلة فهي واجبة على الافراد . وغاية الدولة العدل ولا عدل الا مع حرية الامة ولكن استعمال الحرية لا يخلو عن الضرر ، الا اذا اهتدى الوطني فيه سبيلا مستقيما فعرف شأن اخيه ، واعترف حق دولته ومواطنيه ، ولم ينس واجبات الوطن . فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الاخلاق ، وان لم تكن مبنية على الفضيلة . ارايت لو ذهبت الامانة ، وعدمت الشجاعة ، وزالت الاستقامة ، وضاع حب الوطن ، فكيف تكون احوال الدولة والامة ، أتوجد في اهل القضاء ما يغني عن النزاهة ـ أتحدث للحامية ما يعوض من الاقدام ـ اتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن العفاف ، او تبدع للكافة ما يكون بديلا من المحبة الوطنية ـ فان قلت نقيم على اهل القضاء رقباء ، ونجعل لذوي الادارة رؤساء ـ قلنا اذا لم يكن رقباؤك ورؤساؤك من الفضلاء فما هم بمصلحين . فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كل حال . وان حسبت نظام الجند كافيا في تعويد الشجاعة ، وقانون الاحكام مغنيا عن الادب الوطني ، فاعلم ان النظام والقوانين عوامل غير محركة ، وحواجز غير حصينة لا تجلب حسنة معدومة ، ولا تدفع سيئة في النفوس . وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنية في الأحشاء ، فليصلح القلوب من رام من الجند الحماية ، وليطهر النفوس من رام من الامة حفظ القانون فانه

لا تنهي الانفس عن غيها   ما لم يكن منها لها زاجر

وغاية النظام في الجيش انه يحفظ البسالة الموجودة ، ولا يقوم مقام المفقودة. وأثر القانون في الامة انه يكف عن بعض الاثم الظاهر، ولا يمنع من ارتكاب الباطن الخفي ، فما الجند ولا الامة بأقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء. فانه اذا ضاعت الشجاعة فمصير المملكة الاستعباد ، واذا فقد حب المصلحة العمومية فمآلها الضعف ، واذا عدم الاتحاد والاخاء فغايتها التفرق ، واذا اهمل السعي فخاتمتها الفقر ، واذا نبذ الاقتصاد فمآبها الخراب ، واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم ، وجميع تلك الفضائل داخلة في علم الاخلاق .

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الآراء ، ان يجعلوا البحث في السياسة تابعا للبحث في الاخلاق ، فاقتفينا اثرهم في ذلك ، ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسه ولآل بيته وللحكومة والوطن . فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة ، فانه ينظر حينئذ الى السياسة نظر الراشد البصير والله وليّ التدبير .

الامة والوطن

الامة والوطن (١)

الامة الجيل من كل حي ، ومن الرجل قومه ، وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنسا واحدا ، الخاضعة لقانون واحد . وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك في كثير منها ، ولما طرأ على انساب الناس ، ولاسيما الحضر من المفاسد الكثيرة ، ناشئة عن تخالط الاقوام مختلفة انسابهم ، وتوالي الحروب والغارات، وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم ، وتزوجهم في اهلها ، الى غير ذلك مما جهلت به الانساب ، وخفيت به الاحساب ، الا ما حفظ بمناعة اهله عن ان يدانيهم فاتحغريب وهو قليل لا يقاس عليه . وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد يتوالدون فيه ، ويتسمون به ، كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية ، سواء كانوا انكليزا ، او فرنسويين ، او اسبانيين ، او اميركانيين اصلا ، والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوروبا وآسيا سواء كانوا تركا ، او عربا ، او تترا اصلا ، والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا المانا ، او صقالبة ، او ايطاليين اصلا ، وهلم جرا (٢) .

---

١ ــ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة سنة ١٨٧٧ ، أعيد نشرها في الدرر ص ١٠٠ .

٢ ــ ناقشنا هذه المفاهيم في المقدمة . (المحرر)

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم ، لانه اما ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولا ، فان كان الاول فهو فاسد، لانه قد يولد الانسان بين قوم وينبت فيهم ، فيتكلم بلغتهم ، وهو بعيد عنهم نسبا . ولان ما ذكرنا من تخالط الاقوام ، واغتراب الفاتحين ، قد احدث في لغات كثير من جماعات الناس فسادا ، بحيث صارت مزيجا يعجز ابرع الكيماويين عن تحليله ، كما في لغة اهل مالطة مثلا . فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس ، وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ، ولو اقتصر اهل هذا الراي على استحسان وحدة اللغة في الامة لاحسنوا .

فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا ، اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف أصولها ولغاتها ، وتتعارف باسم تنتسب اليه وتدافع عنه .

اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان ، وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها ، ولا يشترط فيه مساحة معلومة بدرجات معينة، واقليم واحد بتخوم معروفة ، وانما تعريفه ما ذكر من توطن معظم الامة به ، وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه ، وهي اما ان تكون فتوحا ضمت اليه عنوة ، وإما ان تنضم اليه برضا أهلها . فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهله فتثبت الملكية ، وإما ان لا تكون هذه ولا ذاك ، فلا تثبت ، وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام .

وقد اختلف في سبب حب الوطن ، فقيل ان السبب فيه الالفة ، فان الانسان اذا الف شيئا أحبه ، وأجيب بأنه قد يخرج الانسان من وطنه صغيرا ، فينبت في آخر ، ولا ينسى مع ذلك حب وطنه . وقيل ان حب السكان ، يورث حب المكان ، كما قيل :

وما حب الديار يهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

وأجيب بأنه قد ينتقل الانسان عن وطنه ، بمعظم اهله وأصدقائه ، ولا ينفك مؤثرا وطنه بالحب . وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني ، كما ان ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسوي لأمته فتأمله . فلله من ياءين ياء نسبة ، وياء اضافة ، يدعوان الى فضيلتين حب الامة ، وحب الوطن .

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي نقيصة ، فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها ؟ وجوابه ان الفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل ، والفضل ضد النقص . اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على غير قياس . وفي عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيرا ، سواء جنى بذلك على غيره خيرا ام شرا ، وليس في حب الوطن او الامة

شيء من ذلك كما ترى .

اما وجه كونهما فضيلة ، اي درجة رفيعة في الفضل ، فهو لانهما يقضيان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتذي بخيراتها ؛ والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه يعينونه على استحصال حاجاته ، ويدفعون عنه اذى سائر الانواع . ولعلك لا ترضى بهذا تعليلا ، فنقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان ، او في جبهة من ارض ، وانما يجب ان تكون عامة فيهما . والجواب انه لما رأى الانسان من نفسه عجزا عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ، ودفع اذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعا ، وهذا حاصدا ، وذاك طاحنا ، وذاك عاجنا ، والآخر خابزا ، وهلم جرا ، وكل منهم في شأنه ساعٍ . فلما كبرت هذه الجماعة عن ان يسعها قسم واحد من الارض ، تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسبا ، مع تواصلها بالنوعية . وأقبلت كل جماعة منها على العمل في الارض التي اختارتها مقاما ، استحصالا لحاجاتها ، وأخذ كل من اهلها يعمل في ما ارتضاه لنفسه من الصناعات ، ليعين بمصنوعه رفيقه مستعينا بما يصنعه ذلك الرفيق ، ولو حاول الانسان الاهتمام في جميع الارضين ، بجميع المهن والمشاغل ، لفني عمره ولم يأت بفائدة تامة ، بخلاف ما اذا اقتصر على العمل بمهنته ، في جماعته ، اذ تتيسر له اسباب الاعانة والاستعانة ، فتحصل الفائدة التامة في الجماعة ، وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية . وهذا وجه الفضيلة في حب الامة ، وحب الوطن ، فليرسمنّ اسمهما على صفحات كل قلب ، وليلهجن بذكرهما لسان كل انسان ، فانما المرء بأصغريه القلب واللسان .

***

من لم يذد عن حوضه يهضم (٣)

لقد علم الناس ظالمهم ، وعادلهم ، وعالمهم ، وجاهلهم ، اننّا لم نتعمد الحرب ابتداء ، ولم نتقصدها اعتداء ، وما اقبلنا عليها الا لندرأ عنا من ناصبنا الشر ، وندفع من كان يعلن لنا غير ما اسرّ . ولقد كنا عن ذلك في شغل من اصلاح حالنا ، استحصالا لصلاح مالنا ، على اننا لم نستطع الامتناع ، من الدفاع ، ونحن بضعة اولئك القوم الذين بلغوا من المعالي قاصيتها ، وملكوا من المفاخر ناصيتها ، فنفرنا الى لقائه خفافا وثقالا ، وعرضنا للاخطار والفناء أرواحا

---

٣ ــ من مقالاته في جريدة مصر ، التي انشأها بالمحروسة سنة ١٨٧٧ ، وقد كتبها عند اعلان الحرب الروسية العثمانية ، وأعيد نشرها في الدرر ص ١٢٨ .

وأموالا ، وقابلنا سواد ذلك العدو الازرق ببيض خضبناها بالدم الاحمر ، دفاعا عن وطن عزيز علينا ان نراه يُهان ويحقر ، فأبلينا خير بلاء ، قضى لنا بالمدح والثناء ، وقاومنا العدو اشهرا مع كثرة عدده ، وتواصل مَدَده ، ومساعدة اوليائه ، ومعاونة ظهرائه ، حتى عجب العالم بأسره من مقاومة من زعموا انه مريض عيي ، لعدو ذاع عنه انه عظيم قوي ، ذلك مع اهتمامنا باخماد فتن داخلية اضرم العدو نارها ، ومراقبة جماعات متدلسة خالف اعلانها اسرارها ، وانت تعلم ان المرض الباطني ، اشد من الظاهري ، وانه اذا وجب الحذر من العدو الخارجي مرة ، فيجب حذر الداخلي ألف مرة ، لانه اعرف من ذاك بطرق النكاية وأساليب المضرّة .

ولقد ايقن الناس على اختلاف اهوائهم بعد هذه الحرب ان عنصر الحياة منتشر في احيائنا ، وان المروءة لا تزال نزيلة ديارنا ، وانّا وان كثر عدونا ، وقلّ الصديق ، اعز من ان نرضى بالذلة والحرة تموت ولا تأكل بثدييها ، وانّا كما جاء في جرائدهم قد علّمنا العالم كيف يكون الدفاع عن الوطن .

على اننا لم نته حين انتصاراتنا خيلاء ، ولم نفخر كبرياء ، وانما قابلنا النصر مقابلة محب لحبيب تعوّد زيارته ، ولم يخالف عادته ، فاذا خالفها حينا لا يزيل الهمة ، ولا يذهب بثبات هذه الامة . وانّا لقوم لا يشكون المضرة ، ولا يتيهون في المسرة ، وبمثل ذلك قد ذكرنا المؤرخون ، وفي مثله فليتنافس المتنافسون .

ولا ننكر ان عدونا كثير وانا كالكرام قليل ، وان هذه الحرب قد شهرت علينا سيوفها على حين مقاومتنا بُغاة من قومنا جهلاء ، استجاشهم علينا العدو الألد ، لتكون فتنتهم توطئة لحربه ، او رجاء ان تكفيه مؤنة القتال . وان ابناء الدهر اعداء كرامه من ظهرائه ، وان الحق قد مات معظم أوليائه ، وان الحق تابع القوة ولا يعكس ، وان الدنيا مع القوي ويُعكس . ولا نجهل ميل بعض الدول الى عدونا ، ومواطأتها له على الاجحاف بنا ، على انّا لا نجهل ايضا ان في قلب اظلم الظالمين نصيرا للحق . ولذلك لا ريب ان في الدول المصادقات لعدونا الممالئات له على عداوتنا بعضا منهن سينقلبن صفيات لنا بعد ، اذ أبصرننا ونحن قبضة رجال نقاوم منهم الوفا . وها انت تراهن يُكبرن فعلنا ، ويعظمن قدرنا ، ويرددن علينا في افكارهن ماضي مقامنا ، وزادهن ميلا الينا انّا اصبنا النصر فلم نته ثم تأخرنا فلم نجبن .

ولا ينقص عندهن من قدرنا كوننا قد تأخرنا في آسيا تأخرا لا ننكره ، ولم نصب في اوروبا من النجاح ما كنا ننتظره ، لما ان عدونا مع تأهبه لهذه الحرب منذ اعوام ، قد استفز كثيرا من قومنا علينا ، واستنصر حكومة الصرب اولا ، ثم حكومة رومانيا ، فحكومة الصرب ثانيا ، فحكومة اليونان ، والتجأ الى دولة المانيا فايطاليا فأوستريا دون المجر . فان قيل ان الصرب واليونان لم تحاربا ، وان المانيا وايطاليا لم تتظاهرا بالعدوان ، قلنا ان تأهب تينك الحكومتين للحرب

وتعبئتهما الجيوش قد أوجبا علينا اقامة جانب من عساكرنا على تخومهما مع حاجتنا اليه في مدافعة عدونا . اما دولتا المانيا وايطاليا ، فانهما وان لم تجاهرا بعداوتنا ، فقد اظهرتا مظاهرتهما المعنوية للروسية . وان سفير احداهما في الاستانة يغتنم كل فرصة لازعاج الباب العالي باقتراحاته ، ذلك ما خلا اصطناع قائدها المشهور دي مولتك (٤) رسم حرب للروس يحاصرون بموجبه بلفنا ، ووجود كثير من رجالهم في معسكرات الروسية قوادا ورؤساء ، أفليس ذلك من ظاهر المظاهرة وجلي المساعدة ، وهل علينا بعد ذلك في التأخر من عار . وهب ان جميع ما ذكر من صنوف المساعدة موهوم مع كونه عين اليقين ، فهل تُعيَّر أمة لا يحارب منها سوى خمسة عشر مليونا اذا تأخرت في حرب أمة يربو عددها على ثمانين مليونا . وهب ان في العدد تكافؤا ، فان لنا اسوة بفرنسا فكيف وكثرة عدد العدو ظاهرة ، ومساعدة ظهرائه واضحة .

اما والعدل ، حلفة حريص عليه ، ان شانئنا هو الابتر ، وان الواقع فينا لفي ضلال مبين ، ولا أقسم بالانسانية انها غريبة في اعدائنا ، وانهم لم يتعودوا اكرام الغريب ، على اننا وساعد الثبات مساعدنا ، لا نعدم في الدهر خليلا او مصافيا ، وان كانت مصافاته لعلة ، وسترى الدول المتهورة في موادة الروسية انها كباحث على حتفه بظلفه ، وجادع بكفه مارن انفه ، وستعلم كيف تكون عاقبة مساعدتها لدولة الشمال ، اذا تم لها — لا بلّغته — انضمام الصقالبة والمتصقلبين اليها ، وبات سوادهم الاعظم مع ما عرف من خشونته يتهدد العالم بغارة «ويزيفوتية» جديدة .

فما للدول المتمدنة لا تنشط لدفع هذا الخطر الملم بها ، فهل هي غافلة عنه ام تراه ولا تذكر (تجنبك الخطر قبل وقوعه اهون من دفعه بعد الوقوع) ام تترقب لذلك فرصة لم تسنح لها بعد .

اما الفرصة فسانحة ، والزمان مساعد ، فتلك الدولة العلية تخدم التمدن بمقاتلة عدوه ، وجماعة النهيليست (٥) اعداء الدولة في الروسية ينقمون عليها ظلمها واستبدادها ، والمجر يتشوقون الى الايقاع بمن أذلهم اذلالا ، وأهل اواسط آسيا يترقبون من الزمان فرصة للتخلص من ربقة العاتي عليهم بغيا وجورا ، والانكليز يمهدون سبيلا الى انقاذ بلادهم في آسيا ممن يتهددهم بابتلاعها وفي مقدمة هؤلاء المتفقين في القصد ، المختلفين في الوسائط ، ملك التمدن بلباس النور ، تحت أعلام الانسانية طالبا صد ملك الخشونة عن ارض يرى من حسن طبيعتها ، ما يؤهلها لان تكون له مقاما .

ولا نقول ان ملك التمدن مستقر في ارضنا ، وانما نقول انها صالحة لان تكون له مستقرا ، وكيف ندعي بمثل ذلك والتعصب وهو ابن الخشونة متسلط

---

٤ — يوجد له تعريف في هامش تال .

٥ — العدميون .

على كثير منا ، وحب الوطن وهو ابن الانسانية ام التمدن بعيد عن الكثير ، وأين حب الوطن ممن لا يغار عليه غيرة المحب على حبيبه ، وأين الانسانية ممن لا يحزنه شقاء الانسان ، أليس منا من يسر بما يسوء الوطن من انتصار عدوه ، حتى يسكر بخمر أخباره ، فتبلغ الخمر ، موضع السر منه فيسطو عليه شعاعها، فيظهر ندمانه على سره الخفي ثم يفتخر بسكره افتخارا ، بل يتجاوز فيه الحد ، غير مبال بما يترتب عليه من الحد ، وان منا من ابتلي بعداوة قومه وهي معصية فلم يكتمها وليته يذكر (واذا ابتليتم بالمعصية فاستتروا) ومن انتهك حرمتهم بأقوال لم يكن لها من الحسن نصيب ، ونشرها مع كونها مما لا يطيب له نشر ، ومنا من ازعج الخواطر بأقواله ، وكدّر معين الالفة وهو ممن يجب عليهم الدعوة اليها ، والحلف لها ، وان منا من يلوم على أمثالنا من القائمين بخدمة الامة والوطن دفاعنا عنهما والقيام بأمرهما ، على ان هذا الملام لا يسوءنا بل نراه طيبا فنترنم بقول سلطان المحبين :

أعد ذكر من اهوى ولو بملام   فان أحاديث الحبيب مدامي

على اننا لم نعدم من قومنا جماعة غير قليلة طبعوا على حب الوطن ، ولم تأخذهم فيه لومة لائم ، ولم يفتنا التفات أولي الامر والنبهاء من وجوهنا الى اقبالنا على خدمة الوطن نابذين ملام اعدائه الاغبياء ظهريا ، وانّا على حكم من قال:

اذا رضيت عني كرام عشيرتي   فلا زال غضبانا عليّ لئامها

***

ولي وطن آليت أن لا أبيعه (٦)

ولي وطن آليت ان لا أبيعه   وان لا ارى غيري له الدهر مالكا (٧)

اي نينوى وبابل وتدمر ومنفيس ما الذي هوى بك من معارج المجد الثابت الاساس الى دركات الدمار ومهاوي الاندراس ؟ وما الذي محا محاسنك التي تزينت بها الاقطار ، وجعلك خاوية خالية على عروشك بعد الزخرف والنضارة والزينة والعمارة ؟ اين بروجك التي

لو استوى الاشلّ في صهوتها   لأطمعته في تناول السهى

---

٦ – نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤٨ ، تاريخ ٣٠ ايار ١٨٧٩ .

٧ – البيت لابي تمام .

وأين أسوارك التي بلغ ارتفاع بعضها مائة ذراع ؟ وأين متانة بنائك التي ادهشت شاعرنا ، فخيّل له ان بنّائيك من الجن فقال :

وجيش الجن ان قد امرت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد (٨)

وأين هياكلك التي راقت لمعبوديك فهبطوا اليها من منازل أقمارهم واتخذوها مقاما ؟ وأين مدارسك التي رفعت للعلم أعلاما وضربت للفضل خياما .

ويا باريس ولوندرة وبرلين ما الذي رفعك الى معارج المجد ، وعقد لك لواء الرفعة ، وزينك ببدائع الصناعة وعجائب العلم وآثار الاجتهاد وزخارف الكمال ، وجعلك بين البلاد كالملوك بين سوقة الناس ؟

فهل دار من حولك يا نينوى وتوابعها كهنة الزمان، ينفخون بأبواق الحوادث، ويضربون بكاسات الصروف ، فهبطت أسوارك ، واندكت بروجك ، واندرست مدارسك وأذلت عروشك .

أم حشد اليك يا باريس واخواتها رجال الارض من الجهات الاربع ، فشادوا فيك بروجا من المجد والثروة والسعادة ، والقوة بلغت بهم سماء الافتخار ولما تقع فيهم البلبلة .

كلا ، فهذا صوت الزمان يردده صدى الدهور والعصور ، فيوحي الينا ما اهبطنا هاتيك الابنية العالية ، وما أزلنا تلك المحاسن الزاهية ، وما محونا آثارها الدهرية وعلائم مجدها الازلية ، الا بما استقر فيها من الجهل ، وما استتب من الظلم ، وما تمكن من الفساد . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وما رفعنا هاته المدن من حضيض الخشونة والهمجية الى بقاع الزينة والمدنية، ومن عالم المحو والخمول الى عالم المجد والظهور، الا بما حصل فيها من العلم ، وما تقرر من العدل ، وما وفّر من أسباب الاصلاح .

وهذه صفحات التاريخ تؤيد وحي الزمان بما رسم فيها من آثار حوادثه واخبار وقائعه فتخاطبنا معنفة : كيف انتصر الرومان على فارس والهند ، ونشروا من فوقهما جناحي نسرهم ، فحجبا عنهما شمس الاستقلال ، وكيف رفع اليونان لواء نصرهم على الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وبم تأيدت دولة العرب في الاندلس مع قلة العدد وانقطاع المدد ، أكان ذلك بالقوة الحيوانية مع رجحان جانب المغلوب ، ام كان بسلاح الخشونة مع ضعفها في الغالب .. كلا.. بل كان انتصار العدد القليل بسلاح العلم وقوة العدل الذي لا يغلبه الجهل والظلم ، وان كان اصحابه بعضهم لبعض ظهيرا .

---

٨ ـ البيت غير مستقل الصدر .

فيا بني الشرق ما بالكم تركتم ذلك الناصر الامين ، واعرضتم عنه مع الحاجة اليه حتى هجركم هجرا وبيلا ، فصرتم الى الضعف بعد القوة ، والهرم بعد الفتوة ، والفقر بعد الثروة ، والخمول بعد السطوة ، ثم علمتم كيف كانت عاقبة المهملين ولم تنتهوا .. والناس اثنان عالم يرى العبرة في غيره فيعتبر ، ومقتد لا يعتبر الا بما يرى في نفسه ، فلا تكن يا ايها الشرق ثالث الرجلين .

أولا ترى ان الغرب قد ابتلع شمس استقلالك ، واستخرج كنوز اموالك ، واستعبد أساطين رجالك ، واستأثر بأمورك في حالك ، ومآلك ، واسترقك بحجة تحريرك ، واتخذ تعليمك وسيلة لتحقيرك ، ثم لم يجدك بمساواته جديرا، فحلل لنفسه ما حظر عليك ، واستحسن الشورى الا لك ، وأوجب مراعاة الحقوق العمومية والاحكام الانسانية الا معك ، وقضى باقامة امر الوطن الا فيك ، وحكم برفع الذلة والعبودية الا عنك . ولا تحسبن يا ابن منفيس والقاهرة ان الذي يمنع الغرب من اقرارك على الاستقلال ، وتأييد حقوقك الوطنية ، انما هو قلة العدد ونزارة المادة وضيق البلاد ، فانه قد أثبت ذلك لمن لم يبلغوا مقدار قومك عددا ، ولم تعدل أوطانهم بلادك سعة وثروة . ولكنه يعتقد فيك نقص الفطرة وضلال الراي وضعف العزم . ويراك بمنزلة القاصر لا بد له من الوصي ، وبمثابة العاجز لا غنى له عن الولي ، فان كنت في ريب من ذلك فإنّا نقص عليك من نبأ مسألتنا المصرية ، ما يزيل ذلك الريب فتأمله بعين الاعتبار .

قد نشر الموسيو ليروا بوليو في جرائد اوروبا المهمة فصلا يتعلق بأحوالنا قرر فيه ان الوزير الفرنسوي والوزير الانكليزي قد افسدا ما انتدبا لاصلاحه . وارتكبا من الخطأ الواضح والغلط الفاضح ما لا يمكن اسراره ولا يستطاع انكاره، وان لائحتهما المالية فاسدة واهية القواعد مختلة النتائج ، بخلاف اللائحة الخديوية ، فانها مع مساواتها لتلك اللائحة ، من حيث الكلف والاثقال ادنى الى الصحة وأقرب الى القواعد العلمية والاصول الاقتصادية . ومع ذلك فلا بد من مساعدة الوزيرين ، وان ظهر خطأهما ، ومن معارضة الحكومة الخديوية ، وان أيدها الحق . بل لا بد من اعادتهما الى منصبيهما عسى ان يحصل على أيديهما النجاح .

فيا للهدى . هل بطل القياس والغي الدليل وتأخر الانسان بتقدمه ، وفسد بصلاحه ، وجهل بعلمه وتوحش بتمدنه ، ام كان ما نسمع من الاقوال وما نرى من الاعمال أحاجي ورموزا لا ترتفع الى مداركها الافهام ولا ينكشف سرها للعقول . والا فما معنى الحرية مع هذا التقييد ، وما حكمة العلم مع هذا التناقض ، وما سر التمدن مع هذا الاعتداء . اليس من المقرر المعلوم ان التمدن هو عبارة عن اقامة امر الحرية الذاتية والتعاونية وصيانة التقدم المعنوي والحسي في الهيئة الاجتماعية ، أوليست الحرية عبارة عن اجراء أحكام العدل في جميع الاعمال الانسانية ؟ وهل العدل الا اتباع حكمة : لا تعاملوا الناس الا بما رمتم ان يعاملوكم : الا يعلم التمدن الاوروبوي ان من حقوق كل من الناس ومن الهيئات الاجتماعية ان يذود عن حوضه ، ويدافع عن وطنه ، فكيف ساغ له ان يكره امةما

على امر لا يرضاه لاي كان من أقوامه ؟

فيا بني الشرق لقد ظهرت لكم عواقب الجهل ونتائج الاستبداد ، وخواتيم الظلم اذ أبعدكم الغربيون عن مقام الانسانية ، وعدوكم في القوم الهمج الذين حقت عليهم الضلالة ، فهم لا يهتدون ، فتركوا مجدكم القديم حديثا تنتسخ أخباره مع اخبار عادٍ وثمود ، وأعانوا عليكم الدهر اثر هبوبه اليكم بغدره وانقلاب المجن لظهره ، فالى م المقام على الجهل ، وانتم بقية الذين بددوا ظلمات الغرب ، بما انبعث من أنوار علومهم الشرقية . وحتى م البقاء على الاستبداد مع العلم بسوء عاقبته وفساد نتيجته ، وان مثل المستبدين كمثل قوم رقوا درجا ثم سقطوا منه فكان أقربهم الى التلف ابعدهم في الارتقاء . ولم التشبث بأسباب الظلم وانتم بضعة القائلين :

انا اذا مالت دواعي الهوى	وانصت السامع للقائل
واعتلجَ الناس بآرائهم	نقضي بحكم عادل فاضل
لا نجعل الباطل حقا ولا	نرضى بدون الحق للباطل

ولا تحسبوا انكم تستطيعون النشوط من عقال الذل ، والنجاة من مهلكة العبودية ، والخلاص من ربقة الفاقة وتأييد الامر الوطني ودفع سطوة الاجنبي بسلاح الخشونة والقوة البدنية ، فقد علمتم ان العلم مع قلة النصراء وضعف الاولياء قد غلب على الجهل على كثرة عدده واتصال مدده . فلا تطمعوا في الانتصار عليه وهو منيع الجوانب كثير الكتائب غزير مادة الدفاع ، متوفر اسباب الامتناع ، بل عالجوا الداء بازالة اسبابه ، وادخلوا الامر من ابوابه ، واتخذوا العدل سلاحا واجعلوا الحرية استحكاما ، وارفعوا العلم لواء ، فان فعلتم انتصرت جيوش حقكم على عساكر الاعتداء ، وبلغتم منتهى السعادة وغاية الهناء.

ويا بني الوطن المصري لقد نهضتم من ورطة الذل بما تم لكم من اقامة الحكومة الوطنية وتأييد الهيئة الشوروية ، فصار الامر منكم وإليكم ، وتبعته لكم وعليكم . فلتخاطبكم الحكمة بما خاطب به قيصر الروس بلفار الروملي لتنظروا الى مستقبلكم نظر الآمن ، وتستعملوا ما حصل لكم من الحقوق وما رد اليكم من الحرية ، فيما يجلب لكم الخير ويدفع عنكم الضير . لا تكونوا كمن وجد كنزا فأدهشه المال فلم يودعه مكانا امينا فأتاه السارق على غرة فأفاق يطلب الكنز فراى الارض قفراء والمزار بعيدا . ولا تجعلوا الحب الوطني مدرجة للتعصب المذهبي ، فانه يشوه وجه الحق ويضعف حجة اهله ، بل هو علة التأخر وداعية البلاء وسبب العناء والشقاء . ما تأخر الشرق الا به ولا تقدم الغرب الا بزواله، فاجعلوه دكا ، واقيموا على رمته بنية المساواة والحرية ثم احرصوا على الشورى حرص البخيل على درهمه والجبان على دمه ، واعلموا انكم قادمون

على (........) (٩) يتعلق بمستقبل بلادكم ، نريد امر انتخاب النواب فخذوا فيه بأسباب الحكمة ، وحسن التدبير ، ولا تجعلوا للاهواء الى انفسكم سبيلا ، ولا تطلبوا في من تنتخبونه الا ان يكون صحيح الراي ، مستقيما في تصرفه ، نزيها لا تستميله الرغبة ، باسلا لا تعلق به الرهبة ، محبا للوطن ينقش على صفحة قلبه :

ولي وطن آليت ان لا أبيعه وأن لا ارى غيري له الدهر مالكا

***

تأمل (١٠)

بلادنا أحسن البقاع تربة وهواء ، وأصفاها سماء وماء ، وأوسعها مرتعا وفناء . كانت فيما سلف تقل الملايين من ذوي النعمة والرفاهية ، يستخرجون منها ما يحتاجون اليه ، ويفضل عنهم ما يتجرون به ، وذلك مع توالي الحروب وتواتر الغارات ، واستمرار المنافسة بين الامراء والدول .

ونحن ذوو ابدان شهدت بقوتها حوادث الايام ، وأهل صبر دل عليه ثباتنا في المتاعب ، وأرباب اقدام أقر به الاعداء ، وحلفاء قناعة أثبتها الجور والفقر . كنا اهل السطوة غير معارضين ، وأرباب الثروة غير منافسين . تزين بضائعنا الامصار ، وتعمر صنائعنا الاقطار ، وتنير معارفنا الافكار .

فما لتلك البلاد التي وسعت ألوف الالوف تضيق عن المئتين ، وكيف صارت قوة اهلها ضعفا ، ومسخ مجدهم ذلة وخسفا .

هل انقلبت الارض ، ام غضبت عليها السماء ، ام فسدت القلوب ، ام عميت الابصار ، ام هذه سنّة الزمان في ابنائه .

كلا .. ولا عتب على الزمان فهو النهار تضيء شمسه ، والليل يطلع بدره ، والربيع يزين الارض بأزهاره ، والشتاء يروي المزارع بأمطاره . ولكن هي البصائر غشيها وهم الكمال في العادات ، ودعوى العصمة في التقليد ، فاحتجبت عنها حركة الخواطر في بلاد الغرب ، فسار الناس ونحن واقفون ، وحركتهم عوامل الغيرة وضمائرنا مبنية على السكون .

فمن لنا بذي غيرة يهتك سجوف الاوهام عن البصائر ، ويجلو حقائق الامور

---

٩ ــ ليس واضحا في الصورة .

١٠ ــ نشرت في «مصر ــ القاهرة» العدد ١١ تاريخ ٧ نيسان ١٨٨٠ ؛ أعيد نشرها في الدرر ص ١٩٦ .

للابصار ، فنرى نفعنا في اعتقاد الكمال ، وخطأنا في ادعاء العصمة ، فننبذ ما جناه علينا السلف ، من اسباب التيه والصلف . ونتقرب للنعمة بوسائل الاجتهاد ، فان قصر العمر عن الوصول الى غاية النعمة ، ودرجة الهناء فلا أقل من ان يموت الشرقي عن سعي يشكر ، وأثر يذكر .

فمن عاش في ذل فذلك ميت ومن مات عن فضل فذلك خالد
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد (١١)

---

١١ ـ المتنبي : الديوان .

حول الحرية والاستقلال

الحريـة (١)

موضوعي الخاصة التي مدحت بما لم تمدح بمثله فضيلة ، وذمّت بما لم تذم بمثله رذيلة ، والتي هي عند بعض الناس هناء ، وعند بعضهم شقاء . وفي اعين فريق عناء . ولدى قوم حياة ولدى قوم فناء . والتي مرت عليها الايام ، وكرّت الاعوام ، في صحبة هذا الموجود الانساني منذ شق عنه حجاب الخفاء . وما برحت موضع اختلاف بين الباحثين والمعرّفين ، موضوعي الحرية .

وأنا على يقين من اني لا اجد في هذه الوجوه الزاهرة انكماشا ، ولا أحدث في هذه النفوس الطاهرة انقباضا من ذكر هاته الخاصة التي انقذتها رجال الانسانية ، من اسار الجهل والعبودية ، وفدتها بدم كريم لا يباع ولا يشرى .

فلم يبق الا ان أعدّ النفس وأهيىء الخاطر ، وأخفض من جناح الخضوع ، وأتردّى لباس الرهبة والخشوع ، لأدخل مقدس هذا الموضوع .

فالحرية ثالوث موحد الذات ، متلازم الصفات ، يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية الطبيعية ، وبمظهر الاجتماع فيعرف بالحرية المدنية ، وبمظهر العلائق الجامعة فيسمى بالحرية السياسية .

وقد حدّها (منتين) بقوله هي المقدرة على فعل كل ما يتعلق بذاتي . وبمثل ذلك حدها الحكيم سنيك من قبل . وعرّف (منتسكيو) الحرية المدنية بأن لا يجبر

---

١ ــ خطبة القاها شفاها في جمعية زهرة الآداب ، ونشرت في الدرر .

المرء على ما لا توجبه القوانين ، وعرّف السياسة بأن يفعل كل مـــا تجيزه القوانين . ومرجع الحدّين الى وهم واحد ، وهو الذهول عن ماهية القوانين . فان الظاهر من قول هذا الحكيم الفرنسوي ان الحرية موجودة في واشنطـــون وجودها في طهران ، حاصلة في لندرا حصولها في بكين . وليس الامر كذلك بل الحرية الحقيقية غريبة في كل مكان ، لسوء حظ الانسان .

وقد اتفق الكثير من الناقدين على تعريف الحرية بكونها مقدرة المرء على فعل ما لا يضر بغيره من الناس . وهو عين الحد المنصوص عليه في القانون الروماني وفيه نقص من وجهين . الاول ان حد الاضرار منوط بالاحكام الموضوعة على ما بها من الخلل . والثاني ان قيد الاضرار بالغير يخرج عنه الاضرار بالذات ، وهو مخالف لمقتضى الناموس الطبيعي الحقيق بالاتباع .

اما حدود المداجين وتعاريف المنافقين للحرية فلا محل لايرادها ، ولا موضع لانتقادها في مثل هذا المقام . فغاية القول فيها ان اهل السلطة الاستبداديـــة حيث كانوا ، ومن حيث كانوا ، يفترون على الحرية كذبا في تعريفها بالطاعـــة العمياء ، والتسليم المطلق لمقال زيد ، مرويا عن حكاية عمرو ، مسندا الى رواية بكر ، مؤيدا بمنام خالد ، فهي بموجب هذا الحد فناء الذهن ، وموت القـــوة الحاكمة ، وخروج الانسان عن مقام الانسان .

الا ان اختلاف المعرّفين ، وخطأ كثير من الناقدين ، واباطيل ذوي الاغراض الذاتية ، ومفاسد الهيئة الاجتماعية ، كل ذلك لم يمنع من ظهور نور الحرية من خلال الفاف الاقوال . فهي فيما ترشد اليه البداهة خاصة طبيعية وجدت لينمي بها الانسان قواه البدنية والعقلية ، متدرجا في مراتب كمالات الوجود . ثم كان من سوء بخته ان مظاهر السلطة اتت على ضدها من كل وجه ، وفي كل زمان، حتى كأنما اول ما سعت فيه الجمعية البشرية الا يكون الانسان انسانا . فقد المت هاته الجمعية بالحرية الطبيعية في كل مكان . او ما ترى كل اناس يرومون ان يكون الولد على شاكلة أبائهم . فالصيني يخنق رجل الطفلة بالنعل الحديد لتشبّ على خلق جدتها ، والاوروبي يضعف يسار الطفل لتكون يمينه اقوى ، والشرقي يخنق الطفل بجملته في اللفافة والقماط .

ثم ان البلهوان يعوّد صغيره الحجل على احدى القائمتين ، ويليّن أعصابـــه بقوة والكل يعارضون قواه الطبيعية ليشبه سائر القوم . فهذه العادات القاضية على الموجود الانساني بأن لا يكون كما وجد ، ولكن كما يريد الناس ان يكون ، ذاهبة بحريته الطبيعية رأسا . فلقد راينا الاقوام يربون الولد كما يضربـــون الدراهم . فهم يرومون ان تكون جميع القطع متماثلة متشاكلة ، ولا يقبلون منها ما كان مختلف النقش عن الجملة . وكذلك الانسان الذي يخالف سائر قومه في الخُلق والخَلق يفقد فيهم نصف قيمته لا أقل . ومن ذلك ينشأ فينا خفـــة الاعجاب ، وبله الاستغراب ، وجنون الدهشة من رؤية كل شـــيء غريب الا الرذيلة ، فانها حيثما تكن تصادف اهلا ، وذلك لان هيئة الاجتماع التي تقتـــل

حريتنا بأحكام التربية لا تعني بفضائل النفوس عنايتها بالصور الخارجية .

وأما الحرية المعنوية فقد كان المام الهيئة الاجتماعية بها أشد وأنكى ، فانه لا يكاد الطفل يخرج الى عالم الوجود حتى يغمس في ماء الكنج ، او يرسم بما لا يعلم ، ثم يوجه فكره الى من يجهل من المعبودات التي لا حقيقة لها ولا إله الا الله . ثم تأخذ الوالدة او الظئر في تعليمه الفاظا لا يفقه لها معنى ، وتخيلات لا يدرك لها سرا ، ثم يلقى بأيدي المربين من اللامات والموبذانات . فيتولون ذهنه الطاهر البسيط ، ويعركونه كالشمع ليرسموا عليه طوابع تعليمهم ، ثم يبعثونه عنوة لا على الخير ولكن على ما يظنونه خيرا ، ويمنعونه لا من الشر ولكن مما يحسبونه شرا ، ملقين به بين الرهبة مما لا يعلم ، والرغبة فيما لا يتوهم ، حتى ترسخ في ذهنه آراؤهم ، وتستحكم في نفسه صبغتهم ، فيعيش من القماط الى الكفن ، كما ارادوه ، لا كما اوجده الله .

قال (جان جاك روسو) : ان عنف الامهات في شد ولدهم باللفائف والاقمطة يضعف منهم الاعصاب فهن على ذلك ملومات . وأين هذا العنف مما يرتكب الذين يشدّون العقول بلفائف الاوهام ، حتى تضعف بل تتلف أعصاب الاذهان والافهام. نعم ومن اجل هذا رسخت عداوة الحكماء في قلوب المتسلطين الاقوياء . وما يبغضون الفلاسفة انفسهم ولا يبالون بسقراط (٢) ولا غليلاوس ولا ابقراط (٣) وأمثالهم ، من حيث كانوا ، وانما يخافون منهم الجراة على الرجوع الى العقل ، واتخاذ الفهم الطبيعي دليلا في سبيل الانسانية . وهذا لا سواه ما كانوا يحاولون قتله بالسيف والحبل والنار .

ثم ان تعليم الانسان يتمم استعباده وقتل الحرية فيه ، فان سادته لا يسعون في توسيع نباهته ، ولكنهم يشربونه فهما جديدا حتى صار التهذيب عبارة عن افساد الذهن ، وتضليل القوة الحاكمة . فالاستاذ لا يعرض تعليمه ليؤخذ اختيارا ، ولكنه يوجبه ليحمل اضطرارا . وبذلك تأيدت الاغلاط ، واستحكمت الاوهام ، واستمرت الجهالة على مرور الاعوام . ثم تعزز التعليم بالقانون ، ثم تأيد بالعادة ، فأثبته الجهلة قضايا مسلمة لا ترد ، فكان الناس الى ما قبيل هذا العهد يمشون القهقرى ، ويهبطون من معالي فصاحة المخترعين ، الى سفساف أقوال المستظهرين ، ومن محاسن اقوال الابداع والتصورات ، الى مساوىء الاوهام والتخريفات وهلم جرا . وكيف لا وقد كان التعليم امتيازا لفرق من الناس معلومين لا يلقون منه في الالباب الا ما لا يخرجها عن دائرة الملائم لاغراضهم ، والموافق لما يضمرون . فكانوا يقتلون اوقات المتعلمين بما تقوى به الحافظة ، ولا تستفيد منه القوة الحاكمة شيئا ، ويضعون لهم على نوع ما ذلك

---

٢ ــ سقراط (٤٦٩ ــ ٣٩٩ ق.م) فيلسوف يوناني . لم يترك اثرا مكتوبا ، سجل افكاره تلميذه أفلاطون .

٣ ــ ابقراط (٤٦٠ ــ ٣٧٠ ق.م) طبيب يوناني يعرف بأبي الطب ، فصل الطب عن الخرافة .

العلم الذي يتلقون ، فكلما خالف وضعهم وخرج عن رأيهم عدوه من آثار الثورة وتجليات الخطأ وان كان صوابا . تشهد بذلك معاملتهم للحكماء وأحرار الافكار، وتنطق به السجون والنطوع في كل زمان ومكان .

وما كان ذلك ليفيد اهل السطوة نفعا فيما يحاولون من تقييد النفوس ، ولكنه يزيد اهل الحرية استمساكا بها حتى يبلغوا حد التعصب فيه . فالتشديد من جانب الدين يضعف الايمان ، والعنف من جهة السلطة يجلب العصيان ، والفلظة من الطرفين لا تزيد على اقتياد الفكر لما يمكن الوصول اليه بدلالة العقل ان كان خيرا . او رده عما يمكن النجاة منه بقوة الرشاد ان كان شرا . ولكن أحكام الهيئة الاجتماعية مباينة لمبدأ السهولة فهي تقضي (بالمغايرة) او (الجنحة) او (الجناية) او (الجريمة) في كل ما يخالفها ، والغرامة والسجن او السيف من وراء تلك الاحكام لتأييدها على رغم المخالفين . فحرية المرء واقعة تحت أحكام استبداد مستمر .

ولا يؤخذ هنا من هذا القول انّا نروم الاطلاق المحض في الحرية ، بمعنى اخراجها عن كل حد وتعريف وقانون ، فذلك فيما نعتقد يردها الى العتيدية بحكم ان الطرفين يتلاقيان . وانما المراد اظهار آثار القوانين الموضوعة ، والعادات المألوفة ، في حرية الانسان . فالقانون الحق لا ينقص من الحرية ولا يزيل الاستقلال . ولكنه يقيم لهما حدودا تقيهما الضعف والاضمحلال . وشرط الحقيقة في القانون ان يكون موضوعه الحرص على حقوق الكل ، والحفظ لحق الفرد ، ما لم يمس تلك الحقوق . فالحكم يكون قانونيا لا من حيث انه يذهب بحرية فرد من القوم ، ولكن من وجه انه يحفظ حرية الكل . فلا ينبغي للقوانين ان تمس غير الذين ألموا بحقوق غيرهم من الناس . ولا يسوغ ان تؤثر في شأن الوطن الا بمقدار ما يصيب من حق الجميع ، فهي من هذا القبيل معدلة للحرية لا ناسخة ولا مبدلة .

ولا شك ان هذا الضرب من القوانين قد عدّل وأصلح في اكثر البقاع حتى كاد يبلغ في بعض الاقطار حد الكمال . وحتى صار في المأمول وصوله الى ذلك الحد في سائر الامصار . فقد نسخت آيات العدالة أحكام الامتياز الفاضح القاضي لبعض الناس بالراحة كل الراحة . وعلى بعضهم بالعناء كل العناء . وابطلت أحكام التبعة مراسيم الاستبداد الرافعة لبعض الناس الى مقام الالوهية، والهابطة بسائرهم الى منزلة العجماوات . فلا يؤخذ اليوم ألوف من الناس لمخالفتهم رأي واحد ممن يساكنون ، ولا يسجن الافراد ويقتلون صبرا بلا محاكمة ولا قانون الا عند الذين لا تزال شمس الحقائق محجوبة عنهم بغيوم الاوهام فهم لا يبصرون .

وليس الامر كذلك في القوانين السياسية ، فهي عند الاكثرين استبدادية اصلا وفرعا ، تحتجب فيها الحرية بألوان الحكومات ، وتضعف بشهوات الامراء، وتعوّه او تشوه بثورات الشعوب . فمقتضى ماهية الحكومة ان لا حرية الا فيما

بُنيت أحكامها عليه ، وموجب شهوة الحاكم ان الحرية قائمة بما مالت نفسه اليه، وغلطة الشعب في ثورته محسنة لذلك الفساد من وجهيه .

ولقد رأينا دعاة الحرية يحاولون الوصول الى غايتها الموهومة ، واهل الاستبداد من ورائهم يزاولون اعدام جرثومتها الطبيعية ، وما يفلح الفريقان فيما يعالجان . ربما اخطأ اولئك من حيث يتوهمون الصواب ، وضعف هؤلاء من حيث يلتمسون القوة . فقد بالغ (جان جاك روسو) (٤) في مقاومة الاستبداد ، وتأييد حرية الافراد ، ولكنه قيَّد هذه الحرية بارادة الجمع ، فوقع فيما حاذر من العبودية . وظن غيره من الباحثين ان الوطني يبادل ما يفقد من حريته الذاتية بما يحصل له من الامن بالاحكام المدنية . وهي نزعة مستنكفة تنحصر بها القوة في الحكم ، فيملك ما يريد اخذه من الحرية ، وما يروم اعطاءه من الامن ، فيفضي به الامر الى ترك الحرية بلا ضمانة ، والوطن بلا استقلال ، لا يصح بالنظر الى الحق ان يخرج الوطني عن ان يكون حرا . فانه لا يعد الهيئة بوثيقة الاجتماع الا باعانة مماثليه ، وحفظ الوطن الذي نبذ أحكامه فيه ، فهو في ضمانة جمعية متساوية في الجانبين ، فاذا ساعد فيها الكل لم يخسر من استقلاله شيئا الا عوّض منه ، ولم يحصل له من الكسب شيء الا كان مضمونا.

وكما انَ الحكام يريدون تأييد الحرية بما يتصورون من الاحكام . كذلك حاول بعض الناس اعدام الحكم والحكومة بما يتخيلون من الاوهام . فالسلطة والحرية متماثلتان في الحدة يفضي بهما الخلاف الى الغضب ، وتؤدي فيهما الصعوبة الى العداوة . ومن اجل ذلك رأينا ذوي الامر ميالين الى الاستبداد . والشعوب الى الاطلاق . ومن اجله كان أرباب الخطط الذين هم مظاهر السلطة بغضاء عند سائر القوم ، ومن اجله كانت الرعية بمنزلة الاعداء عند المستبدين .

ومن المقرر المتفق عليه بين النقدة الاحرار ان الحرية والمساواة متلازمتان ، فلا حرية مع الامتياز ولكن هنالك درجات عبودية من الامير الى أحقر الرعية ، تتصل دنياها بالرق ولا تصل علياها الى الحرية . ولا خفاء في ذلك فحد الامتياز ان يعمل احد الناس ما لا يجوز لسائرهم ، وان يحظر على الجميع لبعض الافراد بحيث لا يتمتع الممتاز بمزيته ، ما لم يمس حرية سائر القوم ، ولا ينال هؤلاء حريتهم الا بانعدام تلك المزية فالامتياز والحرية متخالفان .

على ان الامتياز مناف للقوة الحاكمة ايضا بما فيه من اخراج بعض الناس عن دائرة الحكم الكلي ، وتخويلهم من ذلك حقا غير طبيعي يكون حكما على الحكم ، فهو عدو الحرية والحكومة معا ، يظاهر المستبدين على الشعوب ، وهؤلاء على

---

٤ ــ روسو : جان جاك : (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) فيلسوف فرنسي ، ولد بجنيف ، تعرف على ديدرو في باريس ، وكتب الجزء الخاص بالموسيقى في موسوعته . رأيه ان الانسان خيِّرا افسدته الحضارة . من اهم كتبه : «العقد الاجتماعي» ١٧٦٢ و«اميل» ١٧٦٢ ، وكتب اعترافاته في انجلترا. كان له اثر كبير في الفكر السياسي والادبي والتربوي .

المستبدين ، ثم لا يتحد بأحد الفريقين في حال .

ولكن ليست المساواة مبدأ الحرية ، وانما هي نتيجتها الطبيعية ، فان لم توجد فلا تكون تلك حقيقة ، بل اذا ظهرت الحرية بمظهرها الحق بين الذين تولاهم الامتياز خالوا انها بدعة منكرة ، وما هي في شيء من ذلك ، ولكن بدعة الامتياز اخفت عنهم الحق وهم لا يشعرون .

فمما تقدم يعلم ان الحرية السياسية بعيدة المنال ، عسيرة الكمال ، بل يكاد يمتنع تكاملها في فريق من الناس بما تؤثر فيها عوامل العادات والقوانين والاحوال والاخلاق الاجتماعية ، وانما تحصل منها ضروب متنوعة تشبه ان تكون ضروبا من الامتياز ، ثم تكثر وتمتد حتى يحصل منها لكل واحد من القوم نصيب ، فتعمهم انواع الامتياز كأنهم جميعا نبلاء ، ولو حصلت لهم الحرية الحقيقية لكانوا جميعا متساوين .

اقول هذا ولست أجهل ان الشرط او القليل او التمني لا يفيد شيئا ، فقد مرت ألوف الاعوام ، على جماهير الانام ، والحرية عند اكثرهم مجهولة المكان ، فما أبعدك من الكمال ايها الانسان .

***

الاستبداد في الحرية (٥)

أقل ما في عصرنا من الغرائب الخارقة للعادات ، والعجائب البعيدة من المعهودات ، اجتماع النقيضين ، والتقاء المتعاكسين ، فإنا نرى فيه الرياء في الاخلاص ، والعسف في الاستقامة ، والجور في العدل ، وأشد من جميع هذا علينا انـّا نرى الاستبداد في الشورى ، والرق في الحرية ، ومن انكر ذلك ، وزعم انـّا نفتري على عصر النور وأهله بما ندعي ، فلينظر الى عالم السياسة نظرة محقق مستكنه ، ليعلم ان استبداد الملوك من السلف في ازمنة الجهل والخشونة، ليس أعظم من استبداد غرتشاكوف ، ودربي (٦) ، وبسمارك (٧) ، واندراسي (٨)،

---

٥ ـ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة ، سنة ١٨٧٧ ، أعيد نشرها في الدرر ، ص ١٣٢ .

٦ ـ تجد له تعريفا في مكان آخر .

٧ ـ تجد له تعريفا في مكان آخر .

٨ ـ اندراسي : سياسي من امبراطورية النمسا ـ المجر عقد اتفاقا سريا مع بسمارك ، ضد روسيا سنة ١٨٧٩ .

في بلاد المعرفة تحت سماء التمدن في القرن التاسع عشر ، ولا فرق بين الفئتين في ذلك، الا ان السلف قد استبدوا بالبطش والصولة ، وهؤلاء بالدهاء والخلابة، وكلتا الطريقين تؤديان الى غاية واحدة ، وهي الاستبداد ، اي تصرف واحد من الجماعة بدمائهم ، واموالهم ، ومذاهبهم ، بما يوجبه هواه ، وما يقضي بـه رأيه ، سواء كان ما يجريه مخالفا لمصلحتهم او موافقا لها .

ولقد سوّأ المؤرخون السلف من الملوك المستبدين ، واسرفوا في لومهم ، وافاضوا في مؤاخذتهم ، حتى ان بعضا منهم فضّل زعيم لصوص يقال لـه (كرتوش) على الاسكندر ، وقال انه أفظ منه قلبا ، وأعظم جورا وعسفا ، فانه قد سار بمائة الف وعشرين الفا من قومه ، واهلك منهم عددا كثيرا بعد ان خرب الديار ، وقلب الامصار ، وأفسد في الارض طولا وعرضا ، فما بالهم لا يسوّئون الان المستبدين الذين يتصرفون في دماء مئتين من الملايين لا الالوف ، ويحكمون فيهم حكم المستبد المطلق ، يمنعونهم مما يشتهون ، ويحملونهم على ما يكرهون ؛ فان قيل ان أولي الامر ، في هذا العصر ، لا يبرمون امرا الا بموافقة اهل الندوة والشورى بخلاف السلف ، فانهم كانوا يقضون بما يظهر لهم اول العين ، ولـم يكن لوزرائهم الا حق المشورة والنصيحة ، قلنا انه قد ظهر لنا بدلائل التجارب، وشواهد الحوادث ، ان رئيس الحكومة اذا اراد امرا حمل اهل الندوة علـى الموافقة عليه ، ولاسيما اذا كان ضلع العامة معه ، وانت تعلم ان العامة تنظر الى ظاهر السياسة لا الى باطنها ، وانه لا يصعب على رئيس حكومتها ان يجمع قلوبها على ولائه ، وفي تاريخ نابوليون الثالث ، وقيام العامة بأمره ما يؤيـد ذلك . وناهيك ان نابوليون الاول كان يتصرف في دم الفرنساويين وأموالهم ، ويبذل منها ما شاء بغير حساب ، ولم يكن منهم من يسخط لعمله او يرد له امرا . ولا حاجة الى الاستدلال بالتواريخ والاخبار ، فان في الاعمال الجاريـة ما يثبت قولنا . وحسبنا ان جرائد اوروبا لا تخجل وهي في بلاد الحرية ، ان تقول ان الحرب او السلم بيد السياسيين المتقدم ذكرهم ، وان احدهم يغير هيئة الارض بكلمة واحدة . فاذا تدبرت ذلك علمت ان الحرية اسم بلا مسمى عنـد القوم ، وان تكرار ذكرها في محافلهم ، ورسمها في مجامعهم ، هو من قبيل اللغـو الساقط ، والتمويه والتطرئة ، وايقنت ان في حريتهم استبدادا واستعبادا . وحيث قد تبين لنا ان امر بني الانسان في يد من ذكرنا منهم ، فلا مندوحة لنا عن النظر في اعمالهم ، رجاء معرفة مقاصدهم ، وعسى ان لا يكون في ذلك ما يسوءهم ويخرج عن أحكام استبدادهم . وانّا لنبرأ اليهم ، كما شاءت العبودية، من ان يكون في كلامنا رد لامرهم ، او مخالفة لحكمهم ، او خروج عن حسـن الرجاء فيهم ، والظن بهم .

ان محامد هؤلاء السياسيين حماة الانسانية ، وأولياء الحرية وانصـار التمدن ، اكثر من ان تحصر . ولا نذكر الا واحدة منها ، وهي انهم لما رأوا تكاثر بني الانسان خافوا ان تضيق بهم الارض ، او ان لا يصيبوا منها رزقهم ، فجعلوا الحروب متعاقبة متواصلة ، واهلكوا منهم (حبا بالانسانية) فـي أقل من ثلاثين

عاما ، اكثر من مليونين ، وفرقوا اشلاءهم في جهات الارض ، فجعلوا جانبا منها في خنادق مليكوف ، وقسما في سادوا ، وجانبا في سيدان وباريس ، ومقدارا في الاناضول والروملي ، ولا نذكر ما اودعوا من ذلك بطون ارض الحبشة ، وخيوي ، وخوقند ، وبخارى ، وداغستان ، واتشين ، ولا نراهم قانعين بجميع ذلك ، فانهم لا يزالون يجمعون الذخائر ، ويجهزون العساكر ، ويتجاولون في ميادين السياسة ، فمنهم من يجيء ثانيا عنانه ، ومنهم من يعود ضاربا اصدريه . وقد ظهر لنا اخيرا ان اصوات هذه الخلائق الصغيرة ، والموجودات الحقيرة ، ارتفعت الى مقاماتهم العالية ، وبلغت مسامعهم ، فتفضلوا علينا بوعد نسأل الله ان يوفقهم الى انجازه ، وهو ان يأتمروا للنظر في امورنا ليمنعونا من تخديش مسامعهم الشريفة بالشكوى . وعساهم ان يروا ان الدنيا لم تضق بنا ، فيعدلوا عن تعريضنا للمخاطر والمهالك . وان يعلموا ان الجندي القادر على خدمة الطبيعة مستحق لخيراتها ، جدير باصابة الرزق منها ، لا المتمول ، الكسل ، الجبان ، المنغمس بالترف والنعيم ، وان عليهم تبعة ما يفعلون ، وانهم يُجزون بمثل ما يَجزون، فان اساءوا وظلموا فلهم جزاء الظالمين، وان احسنوا فلهم عاقبة المحسنين .

***

الملك والرعية (٩)

الملك اما استبدادي او شوروي ، والشورى اما جمهورية او ملكية ، وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ووجب حفظه ، وخرج عن هذه المراتب ، الحكومة الفوضى ، ان صحت تسمية الفوضى بحكومة .

وما كل ملك بملائم لكل قطر . وما كل قطر بصالح لكل ملك . فالجمهورية لا تصلح للصين كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لانكلترة فان تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكون في قوم تولاهم الجهل ، وهذه هي حكومة الشعب بواحد منه لا تصلح ان تكون في قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة ، وان كانت فلا تلبث ان تنقلب شر منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر ، وشارل العاشر ، ونابوليون الثالث في فرنسا ، فان حكومات هؤلاء الملوك وان وسمت بالشوروية ظاهرا ، فقد كانت استبدادية باطنا ، وذلك ما دعا الى نقضها وثل عروشها .

---

٩ ـ كتبها في جريدة مصرالتي انشأها في المحروسة سنة ١٨٧٧ ، خلال الحرب التي شبت نارها بين العثمانيين والروس ، ونشرت في الدرر ص ٩٣ .

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة ، فلا بد للملك الحريص على مصلحة نفسه ان يحرص على مصلحة بلاده ، لان عمرانها يقضي برفعة شأنه وتوطيد ملكه ، والعكس بالعكس . وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها ، والعدل في انفاذه ، وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهي التي اذا ارادت عمران بلادها ، جعلت لها قانونا يلائمها ، وأقامت على انفاذه قوما لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، ومن الحكومات من تراعي ذلك فتجريه ايثارا لمصلحة بلادها ، وحرصا عليها ، ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه ومثال هذه حكومة انكلترة وفرنسا واسبانيا ، ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية ، فانهما أيدهما الله قد جعلتا حكومتهما شوروية ولا حامل لهما على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد ، واحياء العباد ، شأن الحكومة الحكيمة من قبلهما ومن بعدهما . وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل ، مؤيدة بدلائل العقل ، تثبت قدمها . فمن ذلك التواريخ على علائها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم ، وكتب الشرائع ، وأقوال الشارعين العظام ، وفي (وشاورهم بالامر) نعم الدليل .

ولقد عرف الناس الان شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضى به ، وصار الامر شورى عند جميع الدول المتمدنة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقا بدولة متمدنة .

ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحوّل سائر الدول الى الشورى، حتى كانت سببا في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل . فانها قد منعت الدولة العثمانية حينا عن انجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخليتها ، وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التي دعا اليها الغرور . على ان الدولة العثمانية لم تكن ليمنعها من ذلك مانع ، فانها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ، ولم تغفل ساعة مع انهماكها في نازلتها المهمة . وحسبنا على ذلك دليلا ما رأيناه في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر المحافظة التي عرضت عليه حيث قال (لقد ملأ قلبي سرورا ما رأيته من اهتمامكم وانتظامكم ، وأرجو ان يكون لكم مثل ذلك بعد الحرب حين اجراء الاصلاح) . وأصرح من هذا ما حكاه مكاتب (للدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظه الله فلاطفه بكلام شف عن حسن النية ودل على نبالة القصد . وقد رأينا ان نعرّب كلام هذا المكاتب مشرفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق اثره . قال المكاتب ما مفاده :

تمكنت من اجتياز خطوط الروس الى صوفيا ، ومنها قصدت الاستانة فبلغتها واستأذنت في الدخول على السلطان الاعظم ، فأذن لي فرفعت اليه ما عاينته من شجاعة العساكر العثمانية ورئيسهم في بليفنا فسر بذلك وانسني كثيرا ولاطفني بالمحادثة ثلاث ساعات متواليات فأذهلني ما رأيته من الدعة في سلطان امة عظيمة منتصرة وادهشني قوله كلما ادى الكلام الى ذكر الانتصار «ما النصر الا من عند الله وما توفيقي الا بالله» وقد خلا كلامه بجملته عن كل ما يشف عن الكبرياء او ما يدل على الحقد . واني ناقل منه ما يأتي قال مولانا :

جاءني اللورد سالسبوري قبل الحرب بلائحة تتضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فأجبته انك يا عزيزي لم تجعل لله مقاما في لائحتك ولم تفتكر في انتقامه للعثمانيين على حين بؤسهم ولقد كان لساني حينئذ يترجم عن قلبي فاني كنت على يقين من حسن ظني بالله وتوكلي عليه .

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة على اني مع التوكل على الله كثير العناية بأمري شديد الاهتمام به ولا اغفل عنه ساعة .

وأول ما في نيتي اجراؤه بعد ابرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوه ان ارى حكومة الدولة العثمانية حكيمة شوروية والله اسأل ان يؤهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي قلوبهم ويعينني على ان اقيم في بلادي بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها مستقبلا حسنا .

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائه ، ولا ينتظمون تحت لوائه ، وهو يعدهم بما لا تعدهم به الاماني من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المهملة ، وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من افساد المعتدين ، وجلب الصناعات ونشر العلوم، وكيف لا تحب سلطانها امة كالعثمانيين رات في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبرا وانفرادا . حين ترى فيه من الدعة ولين الجانب ما ادهش الاوروبيين فضلا الشرقيين ودعاهم الى الثناء عليه .

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ، ونبالة القصد ، أيدت ثقة الامة بسلطانها ، وجددت قديم همتها ، وسابق فتوتها ، وأحيت في قلوبها حب الوطن بعد موته فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتدرأ عنه من رامه بشر . ولقد وهم من حسب هذه الغيرة محض تعصب للدين ، فان العثمانيين جميعا على اختلاف مذاهبهم ومآربهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم . ولو صح ما قيل من انهم فعلوا ذلك تعصبا للدين وحده لما قام به غير فيئة منهم فان قيل ان الجائدين بالارواح مكرهون على ذلك بالقرعة العسكرية ، والجائدين بالاموال مكرهون عليه بالفرض المحتوم ، قلنا وأين المتطوعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين من جهات شتى ؟ وأين الاعانات المرسلة من كل ناحية ليستعان بها على نفقات الحرب ؟ بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمن الهلال الاحمر التي انشئت في ازمير لجمع المتطوعة والاعانات ، فجمع فيها من اولئك عدد غفير ، ومن هذه شيء كثير ، بل اين متطوعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين أكان تطوعهم في الجندية العثمانية تعصبا للدين ام اكرهوا عليه ، لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمتعصبين ، وانما هي غيرة وطنية تجددت فيهم بما رأوه من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما هاجته هذه الحرب من عواصف التعصب في افكار بعض الناس ، ولاسيما الجاهلين . غير ان جاهلنا قد تعوّد الانقياد للعاقل بخلاف جاهل بعض الاجيال ، فانه مع جهله شديد التمسك برأيه ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا ان يزيلوا آثار التعصب من

افكار الجاهلين ، فنكون جميعا امة واحدة لا تتعصب الا لوطنها ، ولا تطلب الا صيانته وتنقش على صفحات قلوبها :

(فلتحي الامة) (فليحي الوطن) .

***

الاستقلال والتابعية (١٠)

أ

او الفرق بين الراحة والعناء ، والحاجة والفناء ، والنعمة والشقاء ، والظلمة والضياء ، فلو رآني الغربي محاولا بيانه لقال مستهزئا ما أعجب هؤلاء القوم نقدة وكتّابا ، انهم لم يقطعوا سلاسل الاوهام ، ولم يعدلوا عن تعبير الاحلام ، الا ليأخذوا بأسباب الهذر في بيان البيّن ، وتحصيل الحاصل ، وايضاح المعلوم . ولكن ... مهلا أخا الغرب لعل لنا عذرا وانت تلوم .

حصلت لقومك نعمة الاستقلال ، مشفوعة بفضيلة المساواة والحرية ، فكبرت نفوسهم عن الذل ، فلو أنزل لهم من السماء ماء ، لما وردوه وان كانوا ظماء ، ورأيتهم على اتفاق في حفظ الوطنية والاستقلال ، فاذا تغايرت آراؤهم ، فانما يختلفون على كيفية حفظ البهاء ، ووسيلة حصول النماء ، فأيقنت ان الوطنية حقيقة طبيعية لا تحتمل وجهين ، ولا يختلف فيها اختلاف اثنين .

فلو رأيتنا ومنا من يقول : الاجنبي أعلى وأعلم ، وحكمه اقوى واقوم ، والتسليم بالوطنية أسلم ، يتفق رؤساؤنا ولكن ... على نبذ الوطنية ، ويختلفون ولكن .. على كيفية التابعية ، فأما الهلال معروفا بالضياء عند فئة موصوفا بالنقص عند آخرين ، وأما الاسد او الصليب مختلفا رأيهم في لونه او المثلثة الالوان . قلت لو رأيت ذلك لما رميتنا بسهام الملام ان جرت أقلامنا بايضاح مساوىء التابعية ، ومحاسن الاستقلال ، لا نبيّن ذلك تعصبا على الاجنبي او اغراء به ، ولا نستنفر القلوب منه ، الا مخافة ان تشرب اعتقاد الانحطاط الجنسي عنه ، فتصير الى الخادمية او العبودية ، وساءت مصيرا .

فقل لمن سدل عليه التعصب حجاب الخمول ، فستر عنه مساوىء التابعية ، أرأيت لو تسنى لك الاستيلاء على ارض اخيك ، وهو رفيق عمرك ، ومحل سرك ، وموضع انسك وملهى نفسك أترضى من الملكية بالوسم ، وتقنع بالخيال والوهم ، ام تجمع الريع ولا تألو في الحصد جهدا ، ثم تجعل بين اخيك وأرضه سدا .. بل هبك ممن تأخذهم الشفقة وقليل ما هم ، فهل تزيد على ان تجعله في ارضه

---

١٠ ــ نشرت في مصر القاهرة العدد الثالث ٣٠ـ١ـ١٨٨٠ وأعيد نشرها في الدرر ص ١٤٧ .

اجيرا . فما ظنك بمن يأخذ ارضك اغتصابا ، ويملك مالك انتهابا ، وليس بينكما صلة يرعاها ، او رحم يصلها ، او نصير يخافه ، او شفيع يشفعه ، الا يسخرك في بناء السد ، وحصد الزرع ، وقطف الثمر ، ثم يجعل لك من الشعير غذاء، ويوردك من الاجمة ماء ، ويلبسك من الليف كساء ، ثم يتخذ صفارك غلمانا لبأبأة الاطفال ، او لمسح النعال ، ثم يجعل اهلك ملهى مباحا ، فالطيبات للخباثث والمحجبات للربائث ، وكل ذلك بما يمن عليكم من البقاء في الارض التي بنيتم على آثار آبائكم ، والغذاء من الزرع الذي سقيتم بدمائكم .

فان قلت ان الاجنبي خير منك حالا ، واوفر مالا ، واثبت عزما ، وأرسخ علما ، فلا نكر في ان تتخذه وليا ، وتجله على مالك وصيا ، قلنا ان جارك ذو ألف فلمَ لا تهبه المائة التي تملك ، واخاك واسع الملك فلم لا تعطيه الدار التي تسكن ، بل ما لنا نراك ساعيا في اصلاح شأنك وتوفير مالك وتثبيت عزمك ، وتنظيم حالك .. ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره، وتولع بشكره ، لما لبثت ان ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعا ، ومن يدرك سعيه وان كان سريعا .

ولكنك لا تروم الا خفض منارهم بما اشرب قلبك من عبادة عجل التعصب ، يدعو الى موالاة من سجد وان كان سجوده استهزاء ، فهل تحسب ان الاجنبي الفاتح يميز بين عجلك الاحمر ، وعجل اخيك الاصفر ، أولا تراه في بلادك لا يفرق بين من وحَّد ومن ثلَّث ، ومن آمن ومن لا يؤمن بالدين . وانما يحسبهم جميعا ارقاء فيأخذ بقول شاعرنا الجدير بالمحو ، الحقيق بأن ينبذ في ظلمات السهو :

لا تشترِ العبد الا والعصا معه ان العبيد لأنجاس مناكيد (١١)

فكيف تنكر بعد ذلك مساوىء التابعية وهي رق للاحرار ، وفقر للاغنياء ، وضعف للاقوياء ، وعار للنزهاء ، أم كيف لا تعترف بمزية الاستقلال وهو في الاجتماع النوعي بمنزلة القوة في الوجود تقرب منه النعمة ، وتدرأ عنه النقمة ، فان انحرفت كان عرضة لانواع الشقاء ، وصنوف البلاء ، بل كان ذلك الوجود عين الفناء .

***

بعض البلاء ينتهي الى بعض (١٢)

هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الارض عناء ، فلا تجد على سطحها

١١ ـ المتنبي : الديوان .

١٢ ـ نشرت في مصر القاهرة ، العدد ١١ ، تاريخ ٧ نيسان ١٨٨٠ .

الا جسوما ضاوية في ديار خاوية ، وقلوبا تحترق في بلاد تحت رق .

وهو الجهل حتى تضيع الاخطار ، وتفنى الاقدار ، وتبطل الهمم وتزول القيم ، ويعفو العلم ويدرس الفهم ويستعلي الخامل ، ويستولي الجاهل ، وتنخفض الأرؤس وتنقبض الانفس وحتى ترى :

بكل ارضٍ في شرقنا أمماً ترعى بعيدا كأنها غنمُ
يستحسن الخزحين يلمسه وكاد يبري بظفره القلمُ

فقف بالربوع الدارسة المعاهد ، العافية الآثار . وانشد هناك عزما اضاعه الاهمال ، ومجدا اخفاه الخمول ، الا بقية آثار في المعالم ، كبقايا الوشم في المعاصم . وابكِ العز وبنيه والفضل وذويه ، حتى ينبت الآس على القبور ، وحتى تسمع اصواتهم من وراء حجب العصور ، بل دع النشد والبكاء في هاته الخطوب الفادحة ، فلا ندح للثكلى بنوح النائحة . واقصد بنا مرابع النعمة ومصانع الرحمة تسأل فيها الاعانة والاحسان لاسد عقها كلب الجوع ، وارام وقعت في حبائل الفاقة ، والاطفال يتلقون دموع المراضع يحسبونه البانا (غير واضح) واثل على كرامة ما جاءنا من خبر المجاعة في حلب ، وما بين النهرين ، فقد بلغت الحاجة من اهل الشهباء ان النساء هتكن الستور ، وخرجن من وراء الخدور ، وطفن بالقارعة صائحات معولات مولولات يلتمسن القوت لرجال اضواهم الجوع ، فلزموا البيوت . فخرج الوالي اليهن بوعود لا تغني عن الجائع ، ولا تدفع آلامه ، فرجعن عنه يآسات ، وطفن بالاسواق يبعثن الرجال على الفتنة قنوطا من زوال المحنة . فانقض هؤلاء على الافران يلتهمون الخبز لا ينتهبونه ،

اما ديار بكر وماردين وسائر ما بين النهرين من المدن القديمة الشأن ، فلم تقف بها الشدة عند هذا الحد ، بل اتصل الموات بأطرافها على مثل ما سمعناه منذ عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند وأميركا ، حتى اكلت اطراف الغصون وأصول الاشجار .

فعسى ان يكون لصوتنا الضعيف صدى تردده الصحف الوضاء في هاته العاصمة الزاهرة ، فيقبل اهلها على مساعدة المصابين ، ولا يضيع الله أجر المحسنين .

«ترجم هذا الفصل ليثبت في بعض جرائد باريس ،
«على رجاء ان تفتح باب الاكتتاب للاعانة على ما تعودته في مثل هذه الحال» .

***

صيحة العذاب (١٣)

ابت الحسرة الا ان يكون البيان خطابا ترمى به سهام الشكاية عن قسي الحدّة ، فتشق الصدور وتدمي القلوب .

فلا جرى القلم الا بما يفعل في أنفس الصادقين فعل المدام ، وفي قلوب المنافقين فعل السموم ، ولا نطق اللسان الا بما يصدر من الفؤاد الى الافئدة سهاما مريشة يقول المرمي بها : سمعت بأذني رنة السهم في قلبي ...

وكيف العدول عن الخطابة وهي العاصف نشيدها على جمر القلوب ، تذري الرماد ، وتضرم اللهيب ، وهي الرثاء نرتله تأبينا للوطن ، وحثا على الثأر به : الله أكبر يا ثارات أوطاني .

فلأرسلنّها تباعا ملتهبة الاحشاء بسعير الغيرة ، ولأعلقنّها عرضا على ابواب الاوطان ، ترتفع لها رؤوس وتنخفض رؤوس ، وتنقبض بها نفوس وتنبسط نفوس ، حتى يقول الظالمون يا ويلتنا مما قدمت أيدينا ، وحتى يتنبه الغافلون .

فدعني جُعلت فداكَ من خبر تذكره ، وأثر تؤثره ، ومما ينزل بالقلب ضعيفا ، ويقع في السمع سخيفا . اني مُلقٍ عليك قولا ثقيلا يدك أطوار الظلم ، وينسف معاقل الجور على اهل الفجور ، فتسمعهم يصدون صديد يوم النشور ، يقولون ما رأينا مثل هذا عذابا فيا ليتنا كنا ترابا .

فيا ايها المنافقون صيحة منقضٍ عليكم بسيف الكشف وسنان البيان ، تقتلون الوطن بتقييد الحرية وتبديد العصبية ، وتشريد الناطقين بالحق ، ثم ترومون قطع النحيب ومنع التأبين ، وليس البكاء ما تخافون ، ولا الرثاء ما تحذرون ، وانما تخشون الثأر يطالبكم به ابناء القتيل منادين :

هو الثأر حتى يحجب الشمس عثير
تساوى به العين الصحيحة والرمدا
قالوا وقفت أقدامنا عن طلابه
اذا لم تحل أشلاؤكم دونها سدا

ولكن لا خوف عليكم فيما تعلمون ... وانما تتوجسون خيفة من النور ان يبدد الظلمات ، فلو تجدوا للسيئات حجابا ، ولو تروا للنجاة بابا ، فلنرينكم به شعلا وقبسات تصليكم سعيرا ، وتجعلكم في الناس مثلا مذكورا .

ويا ايها الاحياء الصادقون دعوة محب لم يألكم خدمة ونصحا ، تقتلون الزمان صبرا واهمالا ، متعلقين بأهداب الرجاء ، فاذا انصرف اليوم رجوتم في غده نجاز موعده وهو :

---

١٣ ــ نشرت في مصر القاهرة ، العدد ١٧ ، تاريخ ١٩ ايار سنة ١٨٨٠ .

رجاء دون أقربه السحاب،
وظن مثلما لمع السراب،

فما الذي تنتظرون بعد انحسار النعمة ، واستقرار النقمة ، وضياع الشأن وذهاب الاوطان . أتصبرون الى ان تأخذكم صيحة الفاتحين يطئون الارض التي جبلت بدمائكم دوسا على قبور آبائكم .
وقبيح بكم وان قدم العهد هوان الآباء والاجداد ام ترومون ان يبلغ المصاب نهاية الشدة ، ليكون العقاب في منتهى الحدة . فأي مصاب بعد الخسف ، وأي بلاء بعد الذل ؟
وان كان الزمان زمان خسف وذل فالسلام على الزمان .
زمان صار فيه الصدر عجزا وصار الزج قدام السنان فان كنتم لا تبالون بأنفسكم ، فاذكروا الآباء فقد سلموكم الارض أمانة تسألون عنها .. فكيف تجيبون . واذكروا الابناء تلقونهم على ارض لا تملكون بها الا العناء والمسكنة ، فيصيحون ساخطين عليكم ، يوم ولدوا ويوم يموتون ويوم يعودون أحياء .
ولا ندعوكم للفتنة ، وان كان الدم مذهبا للرجس ، مطهرا للنفس في كثير من الاحوال ، ولا نستشيركم على الظلمة الخائنين، تأخذونهم بثأر الوطن القتيل، وانما نحثكم الحقوق الوطنية تجتمعون من حولها عصابة متحدة الاطراف تنادون انذارا للمنافقين .

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها
مراغمة ما دام السيف قائم

ثم تقولون خطابا للاجنبي لا نريد بك شرا ، ولا ننكد لك حقا ، ولكن بيننا للانسانية عهود ، وللوطنية حدود ، فارعَ ذلك العهد كما نرعاه ، والتزم هذا الحد كما التزمناه ، انما الناس لدى العدل سواسية واحدة بواحدة جزاء .
ولقد زعمت لكم بالنجاح والزعيم غارم . ولكن لا بد من العزيمة ، فالكرائم على قدر العزائم ، فان فعلتم أصبتم المراد ، على رغم الاعداء فانه .

متى تجمع القلب الذكي وهمة
وانفا حميا تجتنبك المظالم

***

فذلكة

الاتحاد يمحو الاستبداد (١٤)

الطامة الكبرى وما أدراكم ما الطامة الكبرى . ان يؤتى بهم كقطاع الطريق الى سجون القتل وأنتم تبصرون ، أريد الذين يطلبون دينهم وديونكم ، ويدافعون عن انفسهم وعنكم ، ويقولون الحق يعرضونه لمجلس اعلن لكم استعداده لسماع ما تدّعون ، فتقتلعهم الايدي الظالمة من بينكم ، وأنتم ـ شركاؤهم في المنفعة لو حصلت ، وفي ما هو حاصل من المضار . ثم لا يأتي الليل الا وقد صارت حادثتهم سمَرًا تضيعون بها الوقت غير مبالين بما تؤول اليه حالكم بعد ذلك من استفحال الظلم واشتداد الجور الذي تربونه بالطاعة العمياء والاستكانة والذل فيفترسكم بالانياب التي غذيتم بالتهاون والضعف فيخرب ما بنى آباؤكم بأيدي ابنائهم .

فيا قوم ان سكتم عن هذا الحق الظاهر ، فأي حق بعده تطلبون ، وان رضيتم بهذا الظلم الواضح ، فبأي ظلم بعده تغضبون ؟ يشكو بعضكم لبعض فيما بينكم شأن المخدرات وأنتم الظالمون لانفسكم بما تهنون .

ويا اخواني : المصاب الا تروا انّا نلقي على حكامنا دروسا من الظلم بما نهن لهم وما نطيع في غير الحق ، أولا نعلم ان النفس أمّارة بالسوء ، وان للظلم بهرجة تستميل ذوي القلوب الضعيفة والنفوس الدنيئة ، فان وجدوا امامهم من يطيع طاعة النعل قويت فيهم تلك الملكة الوحشية ، وان رأوا لديهم ذوي أنفس ابية الضيم وهمة شريفة تردهم عن الغي اخذوا بالعدل اضطرارا ، او تركوا الامر للمقسطين . فالعدل والظلم في نفس الامر منسوبان لضعف الرعية وهمتها فلو ملك الواهنين كسرى العادل لعلّموه الظلم ، اذ يقول فلا يجد الا الامتثال ويأمر فلا يرى الا الطاعة .

ولقد فتح النبهاء لنا باب الحمية فانقض الظالمون عليهم يضربونهم ويسجنون. فان لم ندخل ذلك الباب أفواجا متسابقين الى الكرة ، فكأنما اشترينا بأموالنا السلاسل والاغلال ، وجعلناها في أعناقنا ، ثم تقدمنا الى سدة الظالم نلتمس منه ان يأخذ بأطرافها ، فيقودنا الى حيث شاءت نفسه الدنيئة .

ويا سادتي لأنتم اعظم قدرا ، وانبه خاطرا من ان تضرب لكم الامثال ، فيما طال بيانه وظهر برهانه . على اني أروم فيه الذكرى ولكثر ما نفعت : احتضر أحد الحكماء ، فقال لولده ائتوني بحزمة عيدان ففعلوا . فقال اكسروها فحاولوا ذلك واحدا بعد واحد فلم يستطيعوا ، ففرق الحزمة وكسرها على ما به من الضعف عودا عودا . ثم قال مثل هذه مثلكم ، ان اتحدتم وتوازرتم فلا تقوى عليكم الايدي الشديدة ، وان اختلفتم وتخاذلتم هان كسركم على أضعف الناس .

---

١٤ ـ نشرت في مصر القاهرة ، العدد ٢٠ ، بتاريخ ١٨ حزيران ١٨٨٠ .

فكيف تخذلون اخوانكم الذين دعتهم الحمية والغيرة للذود عن حقهم وعنكم مما يروم بكم الخائنون . تالله لئن خذلتموهم ينتظمن أفراد وجهائكم ونبهائكم وضباطكم وفتيانكم في السلك الذي نظم فيه اولئك الشجعان ، فيقول كل منكم وقد ذهبت الفرصة وجاء الندم : اكلت يوم اكل الثور الابيض ـ وهو من حكمة علي تمثل به بعد فتنة عثمان (رضي الله عنهما) فقال ان اسدا كان في أجمة ومعه ثلاثة أثوار ابيض واسود واحمر . فقال يوما للثور الاحمر ان هذا الثور الابيض يدل علينا في الليل فلو سمحت لي بافتراسه امنًا . فقال له الثور قد اصبت فافترسه الاسد . ثم قال بعد ايام مضت ان الثور الاسود مخالف للوننا ، وهو كثير الخوار فلو افترسته وبقينا نحن على لون واحد فصدق على ما رآه الاسد فافترس الثور الاسود . ولم يمض غير قليل حتى التفت الى الثالث الباقي وقال له اني مفترسك لا محالة فقال اكلت يوم أكل الثور الابيض ..

هذه عاقبة التخاذل وآفة التساهل .

على انه لا محل للقنوط من غيرتكم ولا موجب لليأس من همتكم فقد سلكتم في هذه الايام سبيلا جديدا ، فعسى ان لا تهولكم العقبات ، ولا تروعكم المشقة وطول الشقة فانه لا راحة الا بعد تعب وعفا الله عن شاعرنا حيث قال :

ترومين ادراك المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل (١٥)

---

١٥ ـ المتنبي : الديوان .

اماني وطنية

اماني وطنية (١)

اذا دهمت الفتن قوما فاما ان تكون قد اخذتهم على غرة ، وفجأتهم على حين غفلة عن الاستعداد لمقاومة الحوادث فلم يتمكنوا من دفعها ، ولم يقووا على ردعها ، حتى بلغت منهم مبلغا . واما ان تكون قد اخذتهم على يقظة واستعداد لما يتوقع من الملمات ، فصادموها ما استطاعوا ولكنها علت عليهم فأودت بقوتهم وذهبت باستعدادهم .

فهاتان حالتان تساويتا غاية واختلفتا مبدأ . اما الحالة الاولى فالمفتونون بها فريقان فريق يستولي عليه الهم والغم مما حل به وبقومه ، وفريق يشارك الفريق الاول في همه وغمه من وجه ، وينفرد عنه بما يعتريه من الفرح بنزول تلك الحوادث علما منه بأن الحوادث من شأنها انها اذا دهمت عاقلا نبهته ، او نائما ايقظته ، او آمنا أخافته ، او مطمئنا أقلقته ، او ساكنا حركته ، او خليا شغلته . فهي الباعث على الخير كله ، والداعي الى سبيل الاستقامة بالحكمة والموعظة . وذلك انها اذا نزلت بقوم اعوزتهم الى حوائج شتى ، والحاجة من شأنها ان تقود المحتاج طبعا الى الحصول على ما مست اليه ، كما نرى في اصل الفطرة وكيف قيد كل نوع الى التماس ما فطر محتاجا اليه في قوامه وكماله

---

١ ـ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة سنة ١٨٧٧ ، واعيد نشرها في الدرر ص ١١٠ .

النوعي . وهذا الفريق وان امتاز عن الاول بما تقدم من عروض فرحه في عرض آلامه ، ولكن قد يعرض له ما يزيده كدرا وحزنا بما يراه بمرآة خاطره من نوازل الاستقبال ، وموانع الاصلاح . فان الانسان وان نبهته الحوادث وكشفت لـــه الحجاب عن اسباب نزولها ودعته الحاجة بعد ذلك الى لمّ شعثه ، ورفع ثوبه ، الا انه قد يفقد الاستعداد ويحرم الاسباب والوسائل ، فلا يستطيع الى الاصلاح سبيلا . ولاسيما اذا خيف من اضمحلال العصبية والوقوع في العبودية ، كمـا جرى على كثير من الامم التي اخذت في احدى تينك الحالتين ، فصارت اثـــرا بعد عين .

وعلى هذا فنقول ان الامة العثمانية ممن اخذ على غرة ، واغتيل على غفلة ، اذ نبذ بعض أوليائها الشرائع والقوانين ظهريا بل اتخذوها لعبة لاعب ، وآلـــة عامل ، وصنعة مقامر . فما يمكن تأويله منها أوّلوه ، وما لا يمكن تأويله نبذوه، وانتهكوا فيه حرمة الحق ، حتى ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على بصرهم غشاوة فلا يفقهون الحق ، ولا يسمعون الصدق ، ولا يبصرون الخير، ولا يخافون الشر . حتى اذا قيض الله لنا من يهدينا سواء السبيل خذلوه ونفوه، وعوضونا منه مضلا يتزلف اليهم بالتمليق والنفاق . فخامرت قلوبنا الامراض ، وبلغت منا الآلام ، فالتمسنا الدواء ، بعد الاحساس بالداء . وعالجنا انفسنـــا بالاجتهاد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، فلم نقوَ على ذلك لضعف النفوس وقلة الاستعداد . فعمدنا الى التقليد شأن المعترف بعجزه وقصوره ولكن لـــم نتخذ فيه الطريق القصد ، بل اعتسفنا وضللنا السبيل ونحن نحسب لجهلنا انّا على صراط مستقيم ، نترقى في درجات الكمال الى اعلى عليين . ولم نشعـــر بهبوطنا الى اسفل السافلين الا بعد الوصول الى غيابة الهاوية . فكان مثلنا كمثل معتوه القى بنفسه من عل فلم يشعر بألم السقوط الا بعد ان صادم ارضا رضت عظامه رضا ، فتشخص لنا الداء وعلمنا انا جنينا على انفسنا بما كان من سوء سيرتنا وفساد سريرتنا ، وتفرّق كلمتنا ، وتمزق عصبيتنا ، واستبداد خاصتنا، ناشئا عن الطمع والشره . وضعف نفوس عامتنا صادرا عن الجهل والغفلة . وان بقاءنا على هذه الحال لا يجدي نفعا فضلا عن كونه يدلي الى الفناء والاضمحلال.

فهذا شرح حال تلك الامة الراهنة التـــــي انقبضت بها النفوس ، وانكسرت الخواطر . وقد انبسطت لنا اسبابها وعللها . وذقنا نتائجهـــا وعواقبها ، فتعين علينا مداركتها بالوسائل الحاسمة لاسبابها ، القاطعة لعلائقها . ولكـــن بقي ان ننظر ما هي هذه الوسائل ؟ وهل يمكن الوصول اليها ، والحصول عليها قبـــل تمكن الغصة ، وفوات الفرصة ، فنقول لا هادي اهدى من الاحتياج ، وارشد من الافتقار . فالظمآن يدعوه ظمأه الى التماس الماء . والمريض يبعثه الالم علـــى طلب الدواء . وحالتنا هي التي تهدينا الى الوسيلة التي ينبغي أن نعتصم بهـــا وما هي الا الطبيب النبيه ، والحكيم النزيه ، يداوي علل نفوسنا ، ويعالج مرض قلوبنا ويصلح منا ما فسد ، ويروج ما كسد . نريد رجالا على قدم صدق في الحكمة ، بصيرين بأساليب السياسة ، يقومون بين الرفق والعدل فلا يرهقون

ضعيفا ، ولا يطمعون قويا . ويستوي لديهم الناس في الحقوق ، فيقربون اصحاب المزية ، ويخذلون ذوي النفوس الدنية . لا يخشون الحق في الناس اولئك هم الذين تمنينا بهم النفوس ، وتمثلهم لنا مرآة الاماني فنحيا على امل بعثتهم فينا . وان يكونوا من انفسنا حريصين علينا رحماء بنا يجددون من آثارنا ما اندرس ، لا اجانب يسرهم ما يسوءنا حرصا على ضعفنا وطمعا في حقوقنا حتى ترسخ قدمهم في أوطاننا ، وتنفذ كلمتهم فينا ، فيكونوا علينا أضر منا على انفسنا . ولكن اين منا هؤلاء ، وقد اصبحنا اليهم فقراء . فالعثمانيون والحالة هذه بين امرين احلاهما أمرّ من المر . إمّا الصبر على مضاضة القهر ، وغضاضة الضعف ، حتى يقيض لهم الله من يقوم بأمرهم ، ويقيم اودهم . وأما الالتجاء الى اجانب يسلمون اليهم زمامهم ، ليديروا أمورهم ، ويدبروا مصالحهم، ويقولوا فيفعلوا ، ويأمروا فيمتثلوا ويا حبذا الاول على مرارته فان الثاني متوقف على وجود رجال أشرب في قلوبهم حب الانسانية ، فكل الناس عندهم سواسية لا يفرق بين شرقي وغربي ، ولا يؤثرون قريبا على غريب ، بل اذا ولوا امر قوم من اي جنس ومشرب كان ، حسبوا انفسهم من ذلك الجنس ، ومشربهم ذلك المشرب ، وعملوا بصدق نية ، وحسن طية ، على جلب المنافع ، او درء المضار . ولكن اين الرجال الذين اذا الجأت الضرورة اليهم فتولوا الامور راعوا الانسانية فيها وسلكوا بالناس منهجا قويا ، وصراطا سويا ، واذ لا سبيل الى الامر الاول فان الصبر على الضعف زمنا يتهيأ فيه من يرجى من الامة لمداواة دائها ربما قضى عليها قبل ظهوره فيها فلا بد لها من الاخذ بالامر الثاني طوعا او كرها :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدوا له ما من صداقته بد (٢)

ولكن بعض الشر أهون من بعض على انه لا شر لو شئنا وكان في اولئك القوم غيرة انسانية ، وحمية وطنية ، ولهم قلوب تشعر بآلام النقص ، وأرواح تدرك معنى الكمال ، ونفوس تؤثر النار على العار ، وترى المنية اهون من الدنية . فان لهم مندوحة عما أكرهوا عليه اذ لم يعدموا رجالا وان كان قليلا عديدهم كفؤا للم شعثهم ، وسد خللهم ، وأهلا للقيام بمصالحهم لو أطلق لهم التصرف قولا وفعلا .

***

---

٢ ـ المتنبي : الديوان ، دار احياء التراث ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

أماني (٣)

من رآنا نذكر الافرنج تارة باللوم ، وطورا بالتظلم ، ونطلق اللسان في بيان سوء معاملتهم لنا وانهم في بلادهم خراف ترعى الرفق ، وتألف العدل ، وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة ، وفي بلادنا اسود تقضم لحم الحيوان ، وتأوي الى غاب القسوة ، والجفاء ، والزهو ، والامتياز ، يحسب اننا ممن ينكرون فضلهم ، ويبخسونهم اشياءهم . ولا والله لسنا من ذلك في شيء فانا نعترف لهم بالمزية والفضل . ولا نجحد سبقهم في مجال العلوم والفنون ، واجتهادهم الجدير بأن يقتدى به ، وان قدومهم بلادنا عاد علينا بالفائدة المعنوية عارضة في خلال اعمالهم المبنية على آمالهم . وذلك يقضي بالشكر لهم وان كنا على يقين من انهم لم يجلبوا لنا الفائدة التماسا لمصلحتنا ، بل توسلوا بها الى ادراك الغايات الدينية ، والمقاصد السياسية . وكيف لا نشكر لهم وقد كنا منغمسين في الضلالة ، تائهين في مفاوز الجهالة ، حتى صارت مدارسنا دارسة ، لا دارس بها ولا دارسة ، وأرض افكارنا بالحا لا تنبت شيئا . فلما ان وردوا علينا ، واقاموا بين أظهرنا ، صار فينا جماعة كثيرة يحسنون ما لم يحسنه نزر من السلف ، ونفر سبقوا الى الغايات وبلغوا من المعرفة مبلغا لم تخم عليه افكار آبائهم وانشئت عندنا صحف الاخبار ، فاستنارت بها الافكار . واقيمت الملاعب التياترية الموجبة لانتظام الاحوال الاجتماعية . وتليت في مدارسنا الدروس، بعد العفاء والدروس . غير ان ذلك لا يمنعنا من امتياز الافرنج عنا في الحقوق المدنية والسياسية ولا يردعنا عن التماس المساواة التي يسكنون اليها ، ويحرصون عليها . فان قيل انهم حقيقون بالامتياز لتفضلهم علينا بما علمونا وفي الكلام المأثور من علمني حرفا كنت له عبدا ، قلنا انهم لم يبادئونا بالاحسان ، ولكن ادوا الامانة ، ووفوا الدين وهم به معترفون . ثم طلبوا مكافأة على ذلك امتيازا في الحقوق ، وعفوا عن الواجبات ، فأذعن لهم أولياء امرنا رهبة من مقاواتهم ، ورغبة في موالاتهم ، فلما استنارت بصائرنا ، وانفضّ الختم عن قلوبنا ، رأينا ان لا تكافؤ بين الحالين ، ولا تعادل بين الجارين ، فرفعنا اصواتنا المنخفضة الى مقامات الرؤساء نطلب مالنا المنهوب ، وحقنا المسلوب . وقد آن والله للامة ان تطلب ، وللدولة ان تجيب . بل آن للاوروبويين ان ينكفئوا عن الطمع في الاثرة، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز ، فقد أبطلت الحجة التي اثبتوا بها لانفسهم ذلك الحق . وما كانت حجتهم الا الاحكام مسلمة الى من يخافون منه الخيانة ، ولا يعتقدون فيه الامانة . والادارة منوطة بمن لا يرونه اهلا لانزال الامور منازلها،

---

٣ ـ من مقالاته التي نشرها في مصر سنة ١٨٧٨ حول الافرنج في مصر ، وأعيد نشرها في الدرر ، ص ١٢٠ .

وترتيبها في مراتبها . وقد أبطل الوجه الاول بما كان من تأليف المجالس الحقانية من اعضاء لا ينكر الافرنج استقامتهم ، ولا يجحدون اهليتهم ، فان منهم الاوروبوي البحت ، والوطني الذي ارسل الى بلادهم فنبت في مدارسها وربي على عاداتهم ، ثم عاد الينا وهو افرنجي المعرفة ، شرقي الاخلاق ، فلم يبق لهم الا الاحتجاج على الادارة وقولهم ان نسبة القضاء للحكم الاجرائي كنسبة القوة للفعل فان لم يكن بينهما تقارب وتناسب بقي الامر في عالم القوة زمنا يمحو رونقه ، ويذهب بفائدته . فصبرنا على ذلك مكرهين ، غير مشكورين ولا مأجورين ، وظلت اعناقنا خاضعة لهم ولو الى حين .

ثم حصل ما كانوا يطلبون ، وتم التناسب بين القضاء والاجراء . اذ تألفت النظارة او الوزارة من اجانب ووطنيين يثقون بهم جميعا ، ويعتقدون فيهم العدل والاستقامة وعلو الهمة والشهامة . فتوجه الحق على حجتهم فدمغها فاذا هي زاهقة ولكنهم في ما نرى يستكبرون عن معادلة من كانوا يفضلون ، ومساواة من كانوا يمتهنون . ولا تثريب عليهم في ذلك لما فيه من المصلحة لهم . ولكن يؤخذ عليهم بكون استحصال النفع بمضرة الناس مكروها بالاجماع .

ولا ريب في ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسا ومعنى . ووجه الضرر الاول ان معاملة سفلة الافرنج بما لا يعامل به وجوه الوطنيين من الاكرام لغير علة ، والعفو عن الذنب الواضح، قد بعثتهم على التمرد فاعتسفوا وأفسدوا ما شاؤا ، بحيث لم يمض علينا يوم ولم نسمع فيه بأن فلانا الايطالي او المالطي ضرب وطنيا بخنجر فحمل الجريح الى المستشفى ، والجارح الى دار قنصله ، فأودع فيها غرفة رفيعة يأكل بها عيشه رغدا هنيئا . ثم لم يلبث فيها ان اطلق فازداد بما أكل شرها ونهما وعاد الى مثل حاله السابقة فكانت الثانية شرا من الاولى ، فاذا تكرر صدور ذلك عنه قذف به الى اطراف بلاده فسار اليها ثم عاد مبدلا اسمه مغيرا شارته ورسمه ، كأن يكون بلحية ثم يحفوها ، ويختار له شكلا هندسيا لم يكن لها وما يخفى ما ترتب وما يترتب على ذلك من الاضرار ، بهذه الاقطار .

واما وجه الضرر المعنوي فهو ان انحطاط منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلهم بالنسبة الى الاجانب ، يولد فيهم الحسد والكسل ، ويشرب قلوبهم التهيب والخوف ، فلا يحتملون الرعائب ، في طلب الرغائب ، بل ربما كان الرجل منهم ذا مروءة تبعثه على التماس الرفعة والمجد ، ثم لا يجد من يشد ازره فيبقى خافض الذكر ، خامل المنزلة . ولو راى من الدهر انصافا لركب العظيم ، وطلب الجسيم ، ومات موت الكريم .

ولقد حان لهذه البلاد ان تنتعش من عثرتها ، وتفلت من ربقتها ، بعد ان ضربت عليها الذلة وتطأ من اهلها للرق صاغرين ، مئات بل الوفا من السنين . حتى ضربت الامثال بطاعتهم العمياء ، للامراء والرؤساء . وكيف لا وهم الذين احتملوا ظلم الفراعنة ، وقسوة الرعاة ، وعسف اليونان ، وجور الحاكم بأمره الذي لعب بهم لعبه بالكرة والصولجان ، فكان ينهاهم اليوم عما أمرهم به امس ،

وتصرف بأمورهم الروحية والبدنية فتارة يلبسهم الابيض ، ومرة يرسم بالاسود، وحينا يحملهم على التشيع ، وآونة يأمرهم بالسنّة ، وفي جميع ذلك لا يسأل عما يفعل . ثم صبروا بعد ذلك على عتو المماليك وجندهم وناهيك به صبرا لا تحمله الجمال ، بل لا تقلّه الجبال ، ولا نحمدهم على ذلك :

ففاية المفرط في سلمه كفاية المفرط في حربه (٤)

وانّا لنجلهم عن ان يكونوا قد الفوا الذل فرضوا به ، او خافوا ان يكون الاكداء مع الكد ، والخيبة مع الطلب . فقالوا ان رزقنا سوف يأتينا ، نسعى له فيجهدنا ثم نسكن فيأتي ولا يعنينا . مع انه لا يجوز في الوهم ، ولا يصح في القياس ، ان تجنى الثمرة بغير غرس ، ويثمر المال بغير طلب . وقد :

بصرت بالحالة العليا فلم أرها تنال الا على جسر من التعب

بل ليس في الامر عناء او تعب ، فانّا لا نلتمس العزيز الذي لا يملك ، او الغاية التي لا تدرك . ولكن قصارى مرامنا ان تحصل لنا المساواة فيكون علينا ما على الاجانب ، ولنا ما لهم سنّة الانسانية في بنيها ، والحرية في ذويها .

***

أماني (٥)

زماننا

يرانا وقد أحيا الرجاء نفوسنا فيجذبنا هزلا ويدفعنا جدّا

فيا الله

من مصاب اصاب قومي فاضوى منهم كل اروع غطريف
فجناهم من كان يرجو رضاهم وعلاهم من كان دون العسيف
وتبينت حالهم وهم في ربقة الذل بعد عز منيف

---

٤ ــ المتنبي : الديوان ،دار احياء التراث العربي ص ٥٧ .

٥ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٤ ، تاريخ ١٣ كانون الاول سنة ١٨٧٨ .

فحسدت البهائم العجم ترعى	كلأ الارض في ظلال الكهوف
يا لقومي جار الزمان علينا	فلقينا منه صنوف الصروف
وشربنا الغسلين بعد زلال	ولبسنا المسوح بعد الشفوف

بل صرنا كأن لم نغن بالامس ولم نكن شيئا مذكورا . فما أحوجنا الى حكيم يحفظ على الدولة ماءها، وعلى الامة دماءها وعلى الشأن سموه وعلى المال نموه. وما أجدرنا بنعمة نجعلها بيننا وبين البلاء حجازا، ونصحبها الى الهناء جهازا، ونتخذها للوصول الى الحقيقة مجازا . وما اولانا بأن يكون الوعد بالاصلاح مشفوعا بالوفاء فتسرنا النعماء بعد اساءة البأساء .

وهذا خير الدين العربي (٦) صاحب المسالك متبوئا صدارة الدولة لينفذ أحكام الاصلاح . وهذا صاحب القانون الاساسي في ولاية سورية مأمورا باجراء تلك الاحكام فيها امتحانا يتقدم اجراءها في سائر بلاد الدولة . وهو نور أمل آنسناه في خلال ظلمات اليأس ، فلا غرو ان نقيم له منارا ونوقد من حوله نارا .

ولكن لا بد لنا قبل ذلك من النظر في تلك الاحكام المتدرجة في صبيحة رابع يونيو تابعين سير المخابرة التي جرت عليها بين الباب العالي وانكلترة ، وما أدت اليه وما سيترتب عليها من الآثار فنقول : ان هذه العهدة تقدمت عهدة برلين وانكشف عنها الغطاء بعد انفضاض المؤتمر ، فاهتز لها الناس عجبا واندهاشا . وما ابرمتها الدولة الا اذعانا لاحكام الضرورة ، فانها لم تكن تحسب ان الروسية تدين لاوروبا ، ولا ان المؤتمر يفضي الى السلم . فالتمست حليفا يشتد به الازر ويحصل النصر ولو علمت بما سيكون لما هانت عليها قبرص ، ولما جعلت لانكلترة حق المداخلة في أمورها ، بدليل ترددها في القيام بالوعد بعد استقرار السلم. وقد كان من حكم ذلك الميثاق ان يتفق الباب العالي وانكلترة على اصلاح شأن آسيا الصغرى وسورية والعراق تدريجا ، وبناء على ذلك نظمت انكلترة في اول اغستوس (آب) لائحة الاصلاح منطوية على الشروط الآتية ، وهي :

(١) ان تنظم في البلاد العثمانية شرطة من المسلمين والنصارى ويكون عليها رؤساء من الانكليز . (٢) ان تشكل في قواعد الولايات والمدن المهمة مجالس استئناف ، ويكون في كل منها قاض من الانكليز مستكمل لحقوق القضاء ، وله علاوة على ذلك حق ابطال الحكم المشوب بالغرض او الظلم . (٣) ان يستقر الولاة في ولاياتهم خمسة أعوام متوالية . (٤) ان ينشأ ديوان لمراقبة أمور المالية ويكون

---

٦ — خير الدين التونسي : ١٨١٠ — ١٨٧٩ : مملوك شركسي الاصل من اسرة اباظة اشتراه باي تونس . تربى في قصر الباي أحمد . التحق بالجيش وصار أمير لواء خيالة . انغمس في السياسة . عين وزيرا للحربية . له كتاب «اوضح المسالك لمعرفة أحوال الممالك» . اصبح الصدر الاعظم في الاستانة . (المحرر)

صيارفة الاماكن المهمة من الانكليز . (٥) ان يبدل رسم الاعشار بضريبة معينة .

فنبذ الباب العالي هذه الشروط ظهريا ، وعدّها شيئا فريا ، واستوحش من انكلترة حتى اضطر بكونسفلد ان يستقدم الى لوندرة سفير الانكليز ليفاوضه في هذا الامر مشافهة ، ويرسم له بما ينبغي ان يجريه . ولكن عرض في خلال ذلك للباب العالي ما بعثه على التطامن لانكلترة والرضا بما قضت ، ذلك ان الروسية اقترحت عليه شروطا جديدة ، ووقفت عساكرها في بلاده عن السير ، فخاف سوء المغبة وفساد الامر عليه ، وأجاب انكلترة الى ما طلبت بعد تغيير صورة الشروط ، وتحويلها الى نحو ما يأتي : وهو انه يرضى بتنظيم شرطة مختلفة في الولايات التي يكون بها كثير من النصارى ، ولكنه لا يجعل رئاستها للانكليز ، وغاية ما ينيلهم من ذلك ان يتخذ لها نفرا منهم للمشورة ويستخدم في نظارتها بالآستانة بعض ضباطهم اما تعيين قضاة منهم في المجالس الاستئنافية فينكره راسا ولكنه يرضى بأن يعين منهم مفتشين من اهل القضاء يتجولون في الولايات لمراجعة الاحكام وسبر غوامضها وتمييز الحق من الباطل . واما تقرير الولاة في الولايات خمسة اعوام فانه يرضى به الا اذا كان بقاء الوالي مفارزا لمصلحة الدولة . وأما تشكيل ديوان المالية فلا حاجة اليه مع وجود اللجنة المرسوم بتشكيلها في مؤتمر برلين ، فان لم يكن عنه مندوحة فلا اقل من تأجيله الى ما بعد انفضاضها . وأما ابدال العشور بالرسم المعين فانه يجريه ولكن بعد ان يختبره في ولاية واحدة ويتحقق ملايمته لمصلحته .

فرضيت بذلك انكلترة رضى من يقنع بالموجود ويصبر على المفقود ايثارا للشروع في الامر قبل فوات الفرصة وتلاحم مادة الوحشة . وما قنعت بذلك الا وفي خلدها ان تستدرك ما فاتها بعد انقضاء الفتنة الافغانية . فانها كما تدل عليه سياستها تجري على مهل . ولكن لا تتحول عن الغاية . ولا نرى لها من قصد انساني في ذلك ، ولكن قصارى ما تروم تأمين تخومها الهندية وتقوية امرها في تلك الجهات وصيانة طرق الهند في البلاد العثمانية ، وحفظ ما بقي من قوة دولتها لتجعلنا عقبة في طريق الصقالبة . ولكن من دون ذلك مصاعب واهوال ايسرها على الطالب اقتلها . وكيف لا ومنها مخالفة الباطن للظاهر في من لا يحصل الامر الا به ، ولا يصدر الا عنه ولا يصير الا اليه ولا يكون الا فيه ...

الا ان انكلترة لا تعدم لذلك حيلة ولا تفقد وسيلة، فهي الدولة او الامة التي قالت على لسان وزيرها الاول انها وجدت لانشاء الممالك لا لفقدانها . بل هي الامة التي تنقذ اسباب مصلحتها الذاتية من ناب النوائب ومخلاب المصاعب . وقد ارتنا بوادر فوزها بانقلاب الوزارة العثمانية السابقة وقيام وزارة جديدة مكلفة بارضائها وتعيين مدحت باشا واليا لسورية مأمورا باجراء احكام الاصلاح .

اما نحن فغاية ما نرومه ان يحصل لنا ما يزيل عنا النقمة ويديل منها النعمة وان نزلنا بذلك الى موافقة القائلين بأن القصد يبري الواسطة .

ومأمولنا ان خير الدين باشا ومدحت باشا يحققان الآمال ، ويصلحان الاحوال، فان الآمال بهما منوطة والاماني اليهما مبسوطة . ولا شك انهما اذا صرفا الى

شأننا العناية ، ولحظاه بعين الرعاية يفرز الحق عن الباطل ويتميز الحالي من العاطل وتنقذ الثورة من اسر الفقر وينجو الفضل من يد الجهل فيشتد بهما الازر ويحصل لدولة النجاح النصر وانما الظفر بأسبابه والحكيم من اتى الامر من بابه .

***

أماني وطنية (٧)

لقد ذهبت الخشونة برجالها والبداوة بأبطالها واقبل الاختراع بقوته والعلم بسطوته فدع احاديث من كان يخترق بسيفه الصفوف ويبدد برمحه الالوف ويرغم بأقدامه الانوف انه لو وجد في هذا العصر لهزمه هنري مرتين ببندقته و .... بكرته فلا يطمعن الشرقي في مقاومة الغربي بالفارس المقدام والبطل القزام فتلك امة قد خلت وانما نحن في عصر تغلب فيه من كثر اختراعه وطال في الخلابة باعه فبطل ما قرره المتقدمون من الحكماء اذ ادعوا ان الامم الوحشية أقدر على التغلب من سواها بما فيها من الشجاعة والاقدام وبما في اهل المدنية من الضعف الناشيء عن الترف والنعيم وسعة المعاش واعتبروا ذلك في الحيوانات بالدواجن منها والوحشية وفاتهم ان قياسهم مع الفارق بما في هذا الحيوان الناطق من قوة الاختراع وشدة الاحتيال ولو صح هذا القول لامتنعت عليه مقاومة الوحوش الضارية فان أشده قوة ليضعف عن مقاواة ادناها الى الضعف وانما تغلب عليها بقوة الراي وسعة التصور بل لو صح لما امكن لنفر من الانكليز وفريق من الروس وشرذمة من الفرنسيس وطائفة من الهولنديين ان يتغلبوا على الوف الالوف من الذين لم يألفوا عوائد الخصب وغضارة النعيم .

فليدع الشرقيون ذكر اخبار الخشونة وليمحوا بقية آثار البداوة ويلتمسوا صيانة انفسهم بما سهل للغربيين التغلب عليها ويعلموا ان الفساد لم يسرع الى اوطانهم الا بما تأصل فيها من الخشونة والجهل فلا سبيل الى ازالته الا بازالة السبب فان المسببات موقوفة على اسبابها وما احسن ما قال في ذلك فيلسوف مؤرخيهم غير منازع وهو ان الطبيعة الوحشية منافية للعمران ومناقضة له فانها تبعث على انتهاب ما في أيدي الناس واذا تم اقتدار اهلها على ذلك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وفضلا عن ذلك فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد وانما همهم ما يأخذونه من اموال الناس نهبا

---

٧ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٦ ، تاريخ آب سنة ١٨٧٩ .

او مغرما فاذا حصلوا على الملك اعرضوا عما بعده من تسويد احوالهم والنظر في مصالحهم وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصا على تفصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها ولذلك ليس بمغن في دفع المفاسد بل يكون رائدا فيها لاستسهال العزم في جانب حصول الفرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران .

وبناء على ذلك فلا نجاة لنا مما نرهب ولا نجاح بما نرغب الا باصلاح الامور وتسديد الاحوال والخروج من محطة الخشونة والجهل الى مقام المدنية والعلم .

فأما الاول فقد كان من عوائق حصوله النازلة السياسية وقد انجلت بما علمناه من صدور الفرمان وليتها لو سلمت من تداخل الاجنبي بما جعل له علينا منة وفضلا وقوى حجته على اعناقنا ومراقبتنا فعفا الله عمن دعاه الميل الذاتي الى تأخير الزمان . فلم يبق الا النظر في الامور المالية والاحوال الادارية فأما المالية فلا مندوحة عن تقريرها على حال يمكن معها تخفيف الودائع وتقليل الضرائب فانه اذا قلت على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فتكثر العمارة وتحصل الراحة والهناء واذا كثر الاعتماد زاد عدد الضرائب وعظمت الجباية فتصلح احوال المالية وتنتقل الدولة من الفقر الى الثروة ولكن اذا كثرت الرسوم والضرائب على اهل المغارم من ذوي الصناعة والزراعة فان الامل يذهب من نفوسهم بقلة النفع ويقابلون بين قلة الثمرة وكثرة المغارم فتقبض ايديهم عن الاعتمار فتنقص بذلك الجباية وتزداد الدولة فاقة فتكون زيادة المغارم نقصا ونقصانها زيادة . واما الادارة فلا بد لها من كمال التغيير وتمام التحوير لتمكن الخيانة وتأصل الفساد في الكثير من فروعها بما كان من اهمال القوانين واضاعة الحقوق وترك العقاب لمستحقه والمكافأة لمستوجبها حتى زاد المسيء جراءة ووقاحة فتفنن في اساليب النكاية وانواع المضرة وصنوف الظلم ورأى خلو الجو من المعارضين فنفر ما شاء ان ينفر وضعفت همة المحسن بما يزيد من انحطاط امره وخمول ذكره وضعة شأنه وانخفاض مكانه يؤاخذ على أقل الهفوات ولا يكافأ على اعظم الحسنات في حال كون غيره يسامح على الكبائر وتختلق له المحاسن والمآثر فله العذر وعلى المحسن الوزر .

وأما الخروج من خطة الخشونة فلا يتأتى الا بأسبابه من العلم وتهذيب الاخلاق ولا يحصل الاول الا بالمدارس الحرة الصحيحة المشارب السليمة المقاصد يتولاها الذين سلمت انفسهم من شوائب التعصب وعلموا ان الدين هو غير الحقائق الطبيعية وان كان بذاته حقيقة واجبة التسليم وقانونا لازم الوجود ولاسيما تحت سماء الشرق فلم يجعلوه من موانع التعليم وحجب الحق في حال كونه موجبا للاول ومظهرا للثاني أوليس هو الداعي الى طلب الحكمة والبحث عن الحقيقة وفي خذوا الحكمة ولو من السنة المشركين والحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في اي وعاء خرجت دليل لقوم يتفهمون . غير ان هذه الوسيلة لا تتم الا بالنفقات الواسعة فلا بد والحالة هذه من زيادة خرج نظارة المعارف بحيث تكون قادرة على تكثير المدارس وتنظيم احوالها وتوفير اسباب العلم

بطبع ما اهمل من تآليف علمائنا الكرام وترجمة التصانيف الجديدة عسى ان نخرج ببركتها من مهواة التقليد فلا يقتصر علماؤنا منَ بعدها على الزام العائد بالصلة فانه لا بد لمبتدأ التمدن من نقل خبر التفنن فاذا توفقت تلك النظارة الى النهوض بما يجبّ عليها من ذلك انتشرت بعنايتها أنوار المعارف فخرجنا بها من ظلمات الضلالة والغواية الى مقامات الرشد والهداية .

وأما تهذيب الاخلاق فان وسيلته الجرائد الحرة الصادقة تبين المعائب لتجتنب وتظهر المحاسن لتجتلب فهي كالمرآة يرى فيها الناظر وجهه فان رأى فيه لوثة ازالها بماء الاجتهاد الا ان يكون من الجهلاء المكابرين فيحسب القبح فانيا في المرآة فينبذها عنه ولا عتب على الجاهلين . الا ان فائدة الجرائد لا تتم في البلاد الثابتة على الطاعة لرؤساء الدين الا بأن يمهد هؤلاء الرؤساء سبل سعيها بما يبقون في الخواطر من الحكمة الصحيحة الموجبة للاقلاع عما يشوه الحقائق الدينية من الخرافات والشعوذات والداعية الى النفرة عن المنكرات التي الفها الجهلاء حتى حسبوها من لوازم صحة العقيدة وذلك مفروض على العلماء فقد امروا بازالة المنكر بالفعل فان لم يستطيعوا فباللسان او بالقلب ولا شك انهم قادرون على الاول فضلا عن الثاني والثالث فان الحكومة لا تتأخر عن ازالة الظاهر من تلك المنكرات الا مراعاة لجانبهم فلو اتفقوا على التقدم اليها في ذلك لجعلت قولهم حجة على ما تروم تقريره من المنع والحظر وصرفت همتها الى تطهير العقائد السليمة من تلك البدع السقيمة فترتفع بذلك حجبها الكثيفة عن قلوب العامة وتستنير بصائرهم بأنوار السنّة الحقة والشرائع الظاهرة والقوانين العادلة فيعلمون ان تلويث الوجه بالاقذار النجسة ليس من اسباب الزلفى الى الله وان التهتك وانتهاك حرمة الادب ليس من موجب رضاه .

هذه أماني القلب الشرقي نبثها على أمل القبول ورجاء الحصول وكيف لا نأمل ذلك وقد اتانا الله التوفيق وخصنا به اميرا ذكي النفس طاهر الخلق بعيدا من الميل الى الخشونة حريصا على اسباب التمدن عالما بأن لا قوة الا بالعلم ولا نجاح الا بالاصلاح .

***

أماني (٨)

سنة الزمان في اهله ان يكونوا بين ماض يشكرونه ، وحاضر ينكرونه ، ومستقبل يرجونه ، تولاهم خطأ التاريخ وفساد التقليد ، فأوهم كل امة فيهم

---

٨ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٠ ، تاريخ ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٧٨ .

انها اصل الامم «.........» (٩) زمانا طلع فيه بدر سعدها ، وانتشر لـــواء مجدها ، واشتد فيهم الطمع فلم يرضوا بالموجود ، ولم يصبروا على المفقود . وانقبضت نفوسهم مما هم عليه ، فأنكروا ما صاروا اليه . وقوي فيهم الامــل فقالوا لا بد من الراحة بعد العناء ، والسعادة بعد الشقاء . وتجسم في أذهانهم هذا الخيال ، فأيقنوا بحسن المآل .

فدع يا ابن عصر النور ظلمات ماضيك . وذر هوميروس في افق تصوره يقيم في السماء حربا عوانا (....) لها الارض فتزلزل زلزالها ، ويرمي بسهم عطارده كبد القمر فيهبط (.........) آلهة وانصاف آلهة ، وتركب شمسه عربتهــا الداوية فتخترق بها حجاب السحاب . ودع اهل تلك العصور على ارضهـــم المستقـــرة . والشمس واقفـــة في كبـــد السماء ، والبحر متجمـــد المـاء يجتازونه ثـــم يتوهون أعواما فـــي ارض تجاب بأيام . او ذرهـــم يطمعوا في النجوم يحسبونها مصابيح ، فيجتمعوا لبناء بيت رفيع يستوون منه اليها ، فتنزل بهم البلبلة فلا يفقه بعضهم لبعض قولا ، ولا تجسم في ذهنك خيالا يورثه خبالا ، بل انظر الى ما بين يديك ، فهي حقائـــق سخرت لك الطبيعة ، فنقلت على الكهرباء أخبارك ، وحملتك على البخار في البحار والقفار ، وعلـى النار في الافق الاعلى ، فأطمعتك في وصل السهى . ان هذا هو المقام الاسنى . لا تخاف فيه دركا ولا تخشى . ولعلك لا ترضى بها نعما فتقول مالي بما ذكرت من حاجة فحسبي من ثمر الارض غذاء ، ومن ماء السماء شرابا ، وفي ظـــل الاشجار مبيتا ، ومن الشعر والظفر وقاء . ولكني أندب حرية كانت لروحـــي غذاء ، ولبدني قواما ، فأقول ما أسرع ما تنقض ابرامك وتبطل أحكامك . فأين الحرية من عهدك القديم ، وقد كنت فيه عبدا لعبد سيدك ، يسخرك أعواما في بناء ضريح له او أثر لمجده او قصر تقف ببابه وتنعم بلثم أعتابه . او يرسلـــك مأمورا ليخالفك الى منزل تخاف عليه من خطرات النسيم ولحظات العيون ، وأنت بين الامل في نعمته ، والخوف من نقمته ، فكيف لا تضرب على تلك العصـــور ستور الكتم ، وتلقيها في ظلمات الاغفال ، لتصرف الذهن والتصور والخيال ، الى حاضر أمكن لك فيه ان تفتكر ثم تقول ، والى مستقبل عقدت به الرجـــاء وانطت بحوادثه الاماني .

ولا تتعد الشرق فهو مهد طفولتك ، ومربع صبوتـــك ، ومفرس أمنيتك ، أو ما تراه ناشطا للحركة ، يتلمس وسيلة لتحسين حاله ، واظهار جمالــــه وتسديد خلله واقامة ميله ، وذريعة لرفع ضعته وجلب متعته بعد نتائج الـــذل ولباس العناء وجهد اليأس واطباق البلاء . ام لا تراه قادرا على النهوض مـــن اليقظة ، قابلا للانتعاش من العثرة . ام انت قانط من الرحمة ، ولا يقنط منها الا القوم الجاهلون . ان تحسب ان الاصلاح الـــذي أعدته معدات الحركـــة

---

٩ ـ كلمات غير واضحة في الاصل .

اللانهائية في عالم القوة يكون بعد وجوده في عالم الفعل ، قاصرا على جانب من بلاد قومك دون سائرها ، فيحرم منه الحجاز وفيه ام القرى ، والعراقان بلاد الرافدين واليمن والغرب . ام تزعم ان الاصلاح الذي بدت طلائع صبحه في افق مصر : تنكسف شمسه قبل الشروق ، ويحق بدره قبل التمام ، فيموت قبل تكامل الحياة ، وان ما نراه منه سراب نحسبه ماء ، فاذا اتيناه فلا نجده شيئا . ام تخال ان مدحت (١٠) لا يستقر في الشام الا قليلا ، حتى يأتيه ان قد فسد في العاصمة أمره ، فثارت عليه نافرة القلوب وطارت اليه طائرة الاهواء ، واوجسوا منه اصفاء الافئدة اليه ، واجتماع الكلمة له ، وقدوم الوفود عليه . ام تظن ان خبر تعيينه واليا للشام من هذر التلغراف وارجافه ، وتلك طيرة ظاهرة الشؤم .... (١١) فأما حسبانك ان الاصلاح العثماني ينحصر في البلاد التي ساقته اليها يد القوة وقسرا فهو يأس خائف وقول آيس . أفما تعلم ان الراي العمومي (اقوى) فعلا واعظم قدرة من تلك القوة التي ساقت الاصلاح الى آسيا الصغرى ، وانه سيسوقه لامحالة الى سائر بلاد الدولة . وان الدولة أوسع رأيا ، وأبلغ فطنة من ان تحرم من سجية الحلم ومعدلة النظر قوما طلبوا حقا ، وسألوا انصافا وهم طائفة من رعيتها ، يقرون بمهلكتها ، ويذعنون لطاعتها ، ولا يخرجون انفسهم عن قدرتها ، فتملكهم من انفسهم ما لا يملكون ، وتحملهم من اليأس على ما يكرهون .

وأما زعمك ان الاصلاح في مصر لا يظهر حقه ، ولا ينفذ حكمه ، فمصدره الوهم او تقصير الفهم . وكيف نخاف ذلك ، وقد جابت البرد بأسراره ، وانطوت الصحف على أخباره ، وايد القصد والارادة ، وتولاه العزم والرغبة ، فليس وراءه مذهب لمبدل، ولا دونه معلّق لمأوّل. بل سيتلاحم حاله ، ويحسن على الايام مآله ، ويكون من آثاره الحرية بنت العدل والمساواة ، فترانا من بعدها نقول ما نفتكر ، فنبطل ما نراه مبدعا من الرأي ، وما يكون مستنكرا من النظر ، فيتلاحم امر النجاح ، وتتلاحق مادة العمارة ، ويستقيم أمر الراحة باستحكام العادة واستمرار ......

.... فمدفوع بما قلنا في زعمك الاول ، وذلك انه لا بد للدولة من استكمال اسباب الاصلاح في ولاياتها ، ان تقلد أمورها لولاة يأخذون الحجة ، ويسعون بالعفو ، فاذا ولع القضاء اللازم والحق الواجب ، فليس عندهم اغضاء ولا مداهنة ، قياما بالعدل ، وآخذا بالحزم . فان قلت لا نعدم للدولة واليا غيره يلزمه الحزم ، ولا يخالفه الرأي ، فلا تداخله دخلة مكروهة ، ولا تخامره بدعة محذورة قلنا :

---

١٠ ــ المقصود مدحت باشا والي سورية آنذاك .

١١ ــ كلام غير واضح .

بفاث الطير اكثرها فراخـــا وأم البـــاز مقلال نـــزور

بل الناس كأبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة . ولقد بلونا الزمان وخبرنا الايام، وحسبك بالمجرب من حكيم ، فساءنا ما نالنا من فضله المنصف بالجودة وعدلـه المتسم بالكمال ، بل هالنا هوله ، وبهرنا ضياؤه فصح فيه قول القائل :

ما اكثر الناس لا بل ما أقلهم واللـــه يعلم انـــي لم اقل (...)
ان لأغلق عيني ثم أفتحهـــا على كثير ولكن لا ارى احدا

***

أماني (١٢)

بحقك دعني من فلسفة تتبرأ نتائجها من المقدمات . ودعني من أرسطـــوك وسقراطك بل ذرهما يبخسان الدنيا عناصرها والارض والسماء طباقهما والانسان ماهيته :

وذر معارج هوج اليعملات على عوج الاباطح بين السهل والجبلِ
فكل عصر لـــه من قومه دول واليوما الرجل العبسي بالرجلِ

بل نبه طرف الفكرة واستوقد مصباح الحكمة ، واستجل من أحوالنا ما ضرب عليه الزمان حجابا مستورا لتعلم أتحصل الامنية فنأتي على ما في النيـــة ، ام نكون من (.......) الباب العالي اذعن لما طلبته انكلترة من (.....) (١٣)، وأمر باقامة الامور على مثل ما عينت من الحدود ، وما بينت من الاقدار تزلفا اليها ، ورجاء ان يكون لها في ذلك منجاة من المخاطر المحدقة به ، فانه قد علم ان لسير الامم حركة لا تغلب الا بالاقتياد ، ولا تقاد الا الى حيث تقصد . وانبئنا انه طلب قرضا جديدا للقيام بنفقات الاصلاح ، وأعدّ ما ينبغي لذلك فتكاملت معداته في عالم القوة ، ولم يبق الا اخراجه الى عالم الفعل وليس ذلك بالشيء اليسير.. وجاءنا بالتلغراف واردا من باريس ولوندرة مساء امس ان الدولة العثمانية قـد غيرت وزارتها ، وشكلت الوزارة الجديدة على الوجه المبين في التلغراف المثبت في صدر هاته الصحيفة ، وأهم ما في هذا الخبر ان رئاسة الوزراء او الصـــدارة

---

١٢ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٣ تاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٧٨ .

١٣ ـ عدم وضوح في الاصل .

العظمى قد وجهت الى القائد الهمام خير الدين باشا التونسي .

وعلمنا ان الحكومة الخديوية قد استبدلت الحكم الاستبدادي بالشوروي ، وشكلت نظارة جديدة تدير الامور على محور العدل والاستقامة ، وعزمت على تعديل الضرائب ورفع المظالم واقامة امر العدل والمساواة .

وانبئنا ان مدحت باشا رئيس التركية الفتاة وصل الشام ليصلح من شؤونها ما فسد ، ويروج من أمورها ما كسد ، فيكون ما يجريه بها من الاصلاح سنّة يتبعها سائر الولاة العثمانيين .

فاعتلقنا بأهداب الاماني ، وتشبثنا بأذيال الآمال ، ورجونا حصول النجاح للدولة والرعية في الاصل والفرع المنفصل والفروع المتصلة . ثم تجسم ذلك الرجاء ، اذ نظرنا اليه بعين الميل والرضا ، فعددناه يقينا ، وقلنا لقد عاودتنا الحسنى وصار النجاح منا كقاب قوسين او ادنى . ولكن من المقرر الذي لا مشاحة فيه ، انه لا يحصل في عالم الوجود امر ولا يخرج الى حيز الفعل شيء الا بفاعل وقابل . وهي حقيقة يضارعها مما نحن بصدده انه لا يمكن لاية حكومة، وان حوت اقدام انيبال (١٤) وسعة رأي بونابارت ، وجمعت دهاء بالمرستون (١٥) وكافور (١٦) وبسمارك وغرتشاكوف ان تستكمل لرعيتها اسباب التقدم والعمارة والمعرفة ان لم تكن الرعية ناشطة لالتماس تلك الاماني ، قادرة على ازالة موانعها، فان الدولة الا جزء من الكل الذي هو الامة ولي حفظ قانونها ، وانفاذ أحكامه لاقامة الامور وانزالها منازلها ، فان أحسن النهوض بما فوض اليه كان حقيقا بجزاء الصادقين ، والا فلا أقل من شأن يخاطب بما قيل للخطيب العربي الاسلامي اذ قال يا قوم ان رأيتم فيّ عوجا فنبهوني اليه فقالوا لو رأينا فيك عوجا لقومناه بحد السيوف . فان تقرر ذلك علم ان مادة النجاح لا تتلاحم الا بوجود الفاعل والقابل . وبعبارة ثانية ان البلاد لا تنتعش من عثرتها ، ولا تتوفر اسباب ثروتها ، الا بتوازر الامة والدولة على ذلك ، وان تكون الاولى قابلة لوقوع الفعل قادرة على استكمال اسبابه .

فأما القابلية فليس من ينكرها على قومنا ، وأما القوة فهي نتيجة الاتحاد ، ودونه تعصبهم للمذاهب وتشيعهم للاجناس والمشارب ، وجهل غنيهم الموجب

---

١٤ ـ يقصد هانيبال القائد القرطجني المشهور .

١٥ ـ بالمرستون (لورد) : هنري جون تمبل (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥) . اصبح عضو برلمان عن المحافظين سنة ١٨٠٧ . ظل نائبا ٥٩ سنة وان كان قد انتقل الى حزب «الويج» . كان وزير الدفاع ١٨٠٩ ـ ١٨٢٨ . اصبح وزير خارجية . اصبح رئيس الوزراء خلال حرب القرم .

١٦ ـ كافور ، كاميليو (١٨١٠ ـ ١٨٦١) سياسي ايطالي . أسس جريدة سنة ١٨٤٧ اسمها (Il Risorgimento) للعمل من اجل ايطاليا حرة ملكية . دخل الوزارة . كان رئيس وزراء بيدمونت منذ ١٨٥٢ حتى وفاته .

للزهو والخيلاء ، وذل فقيرهم الموجب لانكسار القلب وضعف النفس ، وتضارب آرائهم الباعث على التحاسد وتنافر القلوب ، فمن تدبر هذه العوارض وعلم انها راسخة في الابدان والاذهان ، لا يرى الاصلاح شيئا يسيرا ، بل ربما اشتد عليه الوهم وعظم الخوف ، فحسبه رجاء دونه السحاب ، وامنية كما لمع السراب .

ولكن خير الامور الوسط ، ولاسيما ان أمر الاصلاح لا يخرج عن حد الممكن امكانا خاصا ، الا انه لا بد لمن يسلك سبيله من ازالة عوارضه وقطع عقباته الكثيرة . وجملة الامر انّا لا نجزم بحصول الامنية ، اذ ليس من الحقيقة الثابتة ما يمكن ان لا يكون ، ولكننا نراها في جانب الامكان ؛ فان اردنا التعلل جاوزناه الى الممكن القريب .

***

امنية (١٧)

متى وعسى يثني الزمان عنانه	بعثرة حـــال والزمـــان عثور
فتدرك آمـــال وتقضى مآرب	وتحدث من بعـــد الامور أمور

أم قضي علينا بالخسف قضاء محتوما ، ام غشي الجهل البصائر فلم نهتد الى النجاة سبيلا ، ام شاب الشرق فأدبرت عنه دنيانا ، ام رد الى أرذل العمر فلم يعلم بعد علمه شيئا .. والا فما بالنا لا نرى منا لداعي النجاح مجيبا ، ولا نجد لداء الفساد طبيبا . واذا ذكر الذين رفعوا منار المجد الباسق ، على رمة ذلهم السابق ، عدنا الى الاجداث نفتخر بأحجارها ، والى الاطلال ننافس في آثارها..

فيا بقية أطلال تدمر ونينوى وبعلبك ومنفيس الا ما تبعت آثار كليوبطرة تقذف بك الامواج سيئة عرض البحار ، الى حيث تخفيك عن الابصار ، وتحجبك عن الافكار . فان ألم فراقك لا يسر من الاجتزاء بوجودك شرفا ، والاكتفاء ببقائك نعيما ، ولأنت في ديار الذين يتخذون رسومك واعظا ونقوشك خطيبا ، خير منك في أقطار الذين ينيطون بك المعجزات فيعدّون رسمك سحرا ونقشك طلسما .

فان فعلت اجزنا للمقلة ان تذرف عليك دمعة الوداع ، وللقلب ان يشيعك خفقة الالتياع ، وللفم ان يسمعك حلجة الارتياع ، فعساك ان تذكري أطلالنا البالية بين القصور العالية ، ولعلك تنبئين اهل تلك الاقطار ، بأنهم قد سبقوا في حلبة كان قومك معجزيها ، وتقدموا الى غاية كان اهلك محرزيها .

ويا قومنا ــ نداء مستجير تولاه اليأس الا قليلا ، ودعوة بصير يقول بل يفعل

---

١٧ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٠ ، تاريخ ١٤ تشرين الثاني ، سنة ١٨٧٩ .

ان استطاع الى ذلك سبيلا ـ لقد رأيتم من الزمان وبالا ، ولقيتم من الايـــام أشكالا ، وعلمتم ان الحياة بالخسف فناء ، وان الفناء بالمجد بقاء ، وتبينتم ان علة خسفكم الإحن والعداوات ، ناشئة عن التعصب في أمور الدين ، والطاعة العمياء للمستبدين ، وفقهتم انكم لن تنالوا المفقود على قربه ولن تحفظوا الموجود على قلته الا بالتوازر والاتحاد ، وحسم اسباب التنافر والفساد ، وان تدفعـوا غارة التمدن بالخشونة وجملة العلم بالجهل وغزوة الحكمة بالتهور وسلطة الحرية بالتعصب ، او يعود الانسان الى حال تقوى بها اليد على الفكر ، فيوقف الباخرة بجواده ، ويحطم المدفع بسهمه ، ويباري المنجنيق بمقلاعه .

ويا اهل الشرق ـ صراخ آمل في الاجابة عياذ معتقد بالاصابة ـ لقد علمتم ولا نزيدكم علما ، فطنتم ولا نعيد لكم ذكرا ، ولكنا نأخذ بقول القائل :

(....)(١٨) لا اني رأيتك غافلا عن الامر لكني اردت تقاضيا
واني رأيت السيف من بعد سلوه الى الهز محتاجا وان كان ماضيا

وشهدتم الامم القوية بذاتها ، الغنية عن الاولياء ، تعقد الوثـــوق ، وتبرم العهود ، محالفة ومظاهرة على جلب المنافع ودرء المفاسد ، ولتزيد ثروتها ببقية كنوز الشرق ، وتقسم أفكاره المتفرقة ، فينال فيها الصعلوك من قومها مقـــام الملك ، فهي الان عصبة يجمعها الطمع في الشرق ، فان اختلفت فلا يكون اختلافها على سلب حقوقكم وانفاق ثروتكم ومحو آثار قوتكم ، فتلك مسألة قضي فيهـا الامر ، وجف القلم عند دول الغرب ، وانما تختلف على أسلـــوب التقسيم ، ومكيدة التجزئة ، فما بالكم لا تلتمسون الى مثل هذا الاتحاد سبيـــلا ، فتنبث دعاتكم من أقاصي آسيا الى أقاصي افريقية تجمع الكلمة ، وتلم الشمل ، وتؤيد العصبة الشرقية من الهند الى العجم الى الترك الى العراق والحجاز والشـــام ومصر ، الى كل ارض يطلق عليها اسم الشرق ، تحت كل سماء تراها هي بهذا الاسم ، لتودعوا القرن التاسع عشر ، بما يغير هيئة الارض ، فينقضي مفتخرا بأن قد ختم بقيام الدولة الشرقية :

ولكن لا تطمعوا في نوال ذلك بالدعوة للدين ، فقد اختلفتم فيه ، ولستم في المصلحة مختلفين ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكنـــه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ذلك تقدير العزيز العليم . وما الدين ان تبينتموه الا الهادي الى الحق ، الناهي عن الباطل ، وانما اختلفت المسالك مع وحدة الغاية ، فـلا تجعلوا ذلك الاختلاف مدرجة الخلاف .

وتقولوا انّا نلتمس رابع انواع المستحيل ، فقد كان اي اتحاد في اي الدول قبل حصوله من هذا القبيل ، واذكروا الصين مشتملة على أربعمائـــة مليون ،

---

١٨ ـ كلمة غير واضحة .

والهند على مائتين ، واذكروا ايطاليا والمانيا وغيرهما ، اذ كانت فرقا متباينة الاغراض ، ودولا متغايرة المقاصد ، ولكن لا تفرطوا في الامل ، فتحسبوه واقعيا فتلقوا بأيديكم الى التهلكة بل اسمعوا داعي الحكمة ينشدكم :

ركوبك الهول ما لم تلق فرصته ... جهل رمى بك بالاقحام تغرير
فازرع صوابا وخذ بالحزم حيطته ... فلن يذم لاهل الحزم تدبير
فان ظفرت مصيبا او هلكت به ... فأنت عند ذوي الالباب معذور
وان ظفرت على جهل ففزت به ... قالوا جهول اعانته المقادير

الاصلاح والثورة

العصر الجديد (١)

«ألوفا من الناس ينادون بأصوات مرتفعة : واعجباه : اننا امة عظيمة ، ولا قوة لنا ، وأرضنا مخصبة ولا نجد القوت .. نشتغل ولا نجني ثمـــرة الاجتهاد .. ونؤدي الضرائب الباهظة فلا تعد كافية .. ونحن في سلم خارجي وحـــرب داخلية ، فمن هو ذاك العدو الخفي الذي يسلب أموالنا ويفسد أحوالنا .. وثم رقي احدهم مرتفعا في ذلك المحفل ، وقام فيهم خطيبا فقال : ارفعوا في هـذا المقام لواء ، وادعوا اليه الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالاشغال النافعة يظهر لكم العدو الخفي ... فانتشر ذلك اللواء ودار من حوله اهل الاشتغال فانقسم الجمع قسمين ... وكان السواد الاعظم في جانب اللواء . الا ان عليهم علائـم التعب والعناء والفقر والشقاء . وعلى اولئك ــ الذين مـــن غير جانب اللواء ــ امارات العز والسعة والهناء .. ولما تقابل الفريقان قالت الكثرة ــ الفقيرة ــ للفئة القليلة ــ الغنية ــ ما بالكم انفصلتم عنا ، وأنتم منا ؟ فقالوا نحن لم نوجد لنشتغل ولكن لنعتني بأموركم .. فنادت العامة : رويدكم أنتعب وتنعمون ونغرس وتجنون .. تجمعون منا الثروة ، وتسمون ذلك عناية ، فمالكم لا تتألفون أمة

١ ــ نشرت في جريدة مصر ، ١٩ تموز (يوليو) ١٨٧٩ ، مقتطفات من مقال لم نجد اصله في أعداد مصر التي راجعناها ، ولم نجده في الدرر . وقد نشره فاروق ابو زيد في مجلة «قضايـــا عربية» ، العدد ٢ ايار ١٩٧٤ .

منفردة لنرى كيف يكون قوامكم .. فقال النبلاء : الا تذكرون أيادي آبائنا العظام وما لهم في بلادكم من الآثار الجسام .. أولا تعترفون بالسطوة الشرعية اذ ان ما يرومه الملك تأمر به الشريعة . فأجابوا : يا ايها المتميزون المدالسون ان الملوك لا تروم الا سلامة الجمهور ، والشريعة لا تأمر الا بالمساواة . فاستشاط المتميزون من الجند غيظا وقالوا : لقد عصت العامة فلا بد من ارجاعها الى الطاعة عنوة ، فيا ايها الجند قاتلوهم حتى يطيعوا .. فصاحت الجند : انـّا من الامة فأين العدو؟ وحينئذ نادت الفئة القليلة ، لقد خاب الامل . فقالت العامة : بل لقد تم الرجاء، وحصل النجاح ، وانتبهنا من رقدة الغفلة ، فلا نروم الفتنة ، ولكننا نلتمس الحرية وما الحرية الا العدل .. ثم قام خطيب الجماعة فقال : يا قوم لا يحسن الاكتفاء بالنجاة من الظالمين ، بل يجب علينا منع وجود غيرهم ، فانـّا بنو الانسان، قد أرتنا التجارب ان كلا منا يميل الى السلطة ، ويجنح الى اثرة ، فلا بد لنا من وضع الحدود لافعالنا وحقوقنا ، وتلك مهمة تستغرق وقت الانسان بجملته ، فلا نستطيع النهوض بها مع اشتغالنا بغيرها ، فانتخبوا جماعة منكم ينقطعون اليها، ويقتصرون من الشغل عليها ، وفوضوا اليهم ان يصنعوا لنا حكومة ، ويسنوا قانونا ، واجعلوهم وكلاء ارادتنا ونواب مصالحنا .

لقد كنا الى الان في جمعية تألفت على حكم الاتفاق ، فلم تعش بها الحدود ، ولم تعرف الحقوق ، حتى ساءت حالنا ، وعظم اختلالنا ، وقد نجونا من تلك الحال رغبة في الانتظام ، وانتخبناكم لتضعوا لنا أحكاما فتدبروا في الامر لتعلموا كيف ينبغي ان تكون مواضيعه وشروطه ، وما هي الغاية من الاجتماع الانساني، وما هي حقوق كل اعضائه وواجباته ، وبعبارة ثانية ضعوا لنا قانونا عادلا وانشئوا فينا حكومة جديدة .

«يا ايها الرؤساء لا تنسوا ان القوة التي خولناكم انما هي قوتنا ، وانه ينبغي لكم ان تكونوا اول التابعين لما تضعون من القوانين . وللحال اخذ أولئك الرؤساء في القيام بما انتدبتهم الامة اليه . وبعد البحث والتدقيق ظهر لهم مبدأ الحق الكلي ، فقام زعيمهم في الجماعة وقال : اني أتلو عليكم اصل كل حق طبيعي وكل عدل : ان العناية قد منحت جميع الناس اعضاء ومشاعر متساوية، وجعلت لهم حاجات متماثلة ، فصرحت بذلك انها تمنح لهم جميعا حقوقا متوازية ، يتصرفون بها فيما يملكون . ا ان الناس على اختلاف احوالهم سواء في حكم الطبيعة .. وكذلك جعلت لكل الناس وسائل كافية لتحصيل حاجاتهم الطبيعية، فصار من المقرر البديهي انها أوجدتهم مستقلين بعضهم عن بعض ، وأبدعتهم احرارا لا يتعين على احد منهم الخضوع للآخر ، بل كل منهم يملك وجوده الذاتي ملكا مطلقا .. فتعين من ذلك ان المساواة والحرية من لوازم الوجود الانساني ونواميس الحكمة الالهية .. ولما كان كل من الناس مالكا لوجوده الشخصي ، لزم من ذلك ان تكون الحرية من شروط الملازمة التي لا ينقصها ميثاق ، ولا يحلها عهد . وكذلك لما كان الانسان مساويا لغيره من بني نوعه ، وجب ان يكون ما

يأخذه مساويا لما يعطيه ، وبذلك يتبين ان الحرية مشتملة على العدل الموجب للمساواة » .

«وبناء عليه فالمساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل اجتماع انساني .. فهما لذلك المبدأ الضروري الاصلي لكل قانون .. ولكل حكومة نظامية » .

«ثم قال الخطيب الرئيسي : ان هذا التغير يوجب الرجوع الى الحالة الطبيعية ، فهل ترضون بذلك ؟ فتقدم افراد الامة أفواجا وطرحوا بين ايدي الرؤساء آثار امتيازاتهم وثرواتهم المغتصبة قائلين : بينوا لنا قوانين المساواة والحرية ، فاننا لا نروم ان نملك شيئا الا بحكم العدل ، ولا نطلب الا ان يكون قانوننا وشعارنا المساواة والعدل والحرية» .

«ذلك هو بيان العصر الجديد .. مستمد من فيض الحكمة الغربية .. بسطناه تفاؤلا بالخير .. وليكون نموذجا لنا فيما نعالجه الان من اصلاح القوانين وتنظيم الاحوال واقامة الامور» .

***

الاصلاح (٢)

من سابق الدهر كبا كبوة	لم يستقلها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر اذا ما خطا	واجر مع الدهر كما يجري

ان اختلاف مصادر النوائب وتنوع بواعث المصائب يوجب تلون اسباب الدفاع . وقد يدفع المرء البلا بما يعده قبل حلوله مصابا ، فهو كالمريض يتناول من العلاج ما بيح ، وما لو تناول على حين صحته لاوجب له السقم . وهذا شأن الدولة العثمانية في ما قضي به عليها من التطامن لحكم الزمان ، وانفاذ الاحكام المنصوص عليها في عهدة برلين (٣) . ولا عتب على الزمان فانه لا يهلك البلاد وأهلها مصلحون . وقد ظهر وجوب ذلك للجناب السلطاني المعظم فصرح للكونت زيخي وللموسيو لايار وغيرهما من سفراء الدول ، بأنه قد وطن النفس

---

٢ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٥ ، تاريخ ٢٠ كانون الاول ، سنة ١٨٧٨ .

٣ ـ مؤتمر برلين : سنة ١٨٧٨ ، حدثت فيه اعادة نظر لاتفاقية سان استيفانو ووضع ميزان قوى جديد في شرق اوروبة ترضى عنه القوى العظمى . خرجت بموجبه بلغاريا امارة ذات حكم ذاتي وتم تأكيد استقلال رومانيا . (المحرر)

على انفاذ أحكام المؤتمر ، واجراء الاصلاح في بلاده . ورأينا في الجرائد الاخيرة ان الهمام خير الدين باشا يروم ان تكون الوزارة بمسئولة عما تفعل شأن الوزارات في اوروبا ، وان يصدر الامر السلطاني باجراء الاصلاح مبنيا على حكم الحرية المنصوص عليها في عهدة برلين ، وان الوزراء وفيهم المعزولون والمعتزلون قد اجتمعوا في المجلس السلطاني للمفاوضة في هذا الامر ، واتفقوا على وجوبه بناء على كونه غير مخالف للاحكام المعقولة والنصوص المنقولة .

وهذه أخبار تقرب الآمال وتزين وجه الاستقبال . الا ان حوادث الزمان وتطورات الاحوال ، قد جذبتنا الى الشك ، حتى كاد الريب يداخلنا في صحة هذا الامر . لولا ان يكون من أحكام الضرورة ، ولولا العلم بأن الوعد لا يغني عن الدولة شيئا ، ولو اثبت في الفرامين المرقشة والاوامر المنمقة . فقد مر على الناس من وعودنا الخلبية ، وأقوالنا الجهامية ، ما منعهم تصديقنا الا اذا شهد الفعل بما نقول . وقصارى الامر انه لا مندوحة للدولة عن انفاذ عهدة برلين صيانة لوجودها الخارجي ، وعن اجراء أحكام الاصلاح وقاية لوجودها الداخلي . غير انه لا يمكن صدور الفعل عن الفاعل الا بوجود القابل .

وبناء على ذلك فان حصول الاصلاح ، وترتب الاثر الحميد على سعي الدولة، لا يتم بغير موازرة الامة وتضافرها على ازالة المفاسد وصيانة المصالح ومحو الضغائن التي اذا خفيت أوبقت ، واذا ظهرت اوثقت ، واعانة الدولة على ذلك بالتزام الطاعة في ما لا يخالف القانون والاجتهاد ، المشفوع بالثبات ونبذ العادات الداعية الى الخشونة والكسل مما اورثتنا الجاهلية والفرس .

فانه ليس من صحة الراي ان تكل الامة امرها بجملته الى فئة منها ، فتعود بنفسها الى الازمنة الغارقة في ظلمات الجهل والعبودية ، وتنبذ عنها اسباب العدل والحرية ، في حال كون الامم القريبة العهد من الفضل والمجد تحاول الطفرة في ما تطلب من المساواة والمشاركة .

ولا نريد بذلك اغراءها على مجاراة اولئك المسرفين ، ولكن قصارى المرام ان تستعمل ما اودعته من القوى في ما وضعت له، فتجلب برغبتها الخيرات وتدفع بغضبها المضرات ، وتحرص على الحق وتنقبض عن الباطل ، وتنبسط في العدل، وتألف المحامد ، وتستوحش من المفاسد ، وتخاف الرذائل وتقدم في طلب الفضائل ، الى غير ذلك مما حصلت عليه من القوى الطبيعية . فان فعلت حصلت لنا العمارة وقوي بها الملك وامتنع جانبه ، وتوفرت فيه اسباب السعادة والهناء، والا فتكون ثالثة الرجال ، فانهم ثلاثة رجل كالغذاء لا يستغنى عنه ، ورجل كالدواء يحتاج اليه حينا بعد حين ، ورجل كالداء لا يحتاج اليه ابدا .

وقد كان من موجبات تأخرنا او سكون حركتنا الذي هو بمنزلة التأخر بالنظر الى تقدم سائر الامم ، انه قد رسخ في أذهان العامة ، خصوصا اهل الاسلام ، ان تغيير النظام مجاراة للاحوال مخالف لاحكام الشريعة . وزادهم تشبثا بهذا الامر سكوت العلماء وموافقة المتعالمين مع كثرة الادلة المثبتة لوجوبه ، فضلا عن عدم مخالفته للنصوص .

وانا لنقتصر منها على أقوال الأيمة والعلماء الاعلام من المتقدمين والمتأخرين . قال الامام ابن العربي ان وجوب الاستشارة هو اساس الشريعة وقاعدتها التي لا تقبل الالغاء ، من غير تمييز في ذلك بين الناس ولا استثناء . وقال في شرح العقائد ان الشريعة لا تجيز وجود سلطتين مستقلتين في آن واحد ، على انها لا تمنع تصرف عدة اشخاص بسلطة واحدة . وقال ابن نجيم في الاشباه لا بد ان يكون القصد من اعمال الامام المصلحة العمومية ، ولا يلزم اجراؤها الا اذا وافقت هاتـه القاعدة موافقة ظاهرة . وان خالفتها فـلا تعتبر شرعا . وقـال الشيـخ الاستاذ محمد بيرم لو صـح ما تدعيه العامة والجهـلاء المتعالمين من مخالفة التنظيمات والحرية والمساواة وكل ما دار على العـدل والانصاف للشريعة لكنـا نقنط مـن اصلاح الحال ، ولكن خبر مقاصد الشريعـه وجدهـا بمعزل عما يقولون ، وحاشاها ان لا تكون وافية بما تستدعيـه الاحوال . وقد قال احد علمائها الاعلام ، من الوهم ان يظن ان الحكومة لا يسوغ لها توسيع مجال النظر السياسي في ما ليس منصوصا . وعن بعضهم انه قال حيثما وجدت طريق مؤدية الى كشف الحق ، واقامة العدل ، فهناك حكم اللـه كيف ما كان بنبوعه من الشريعة نفسها او من المعارف الانسانية ، اذ لو لم يكن الامر كذلك لكان مخالفا للارادة الالهية ، حيث انه تعالى أرشدنا الى الطريـق الانجح ، ونهانا عن سلوك غير سبيل الاصلح . وقال الفرافي قد اخطأ من يدعـي انه يجري العمل بمقتضى القواعد المؤسسة على العوائد القديمة التي تجدد مـا يستوجب تغير أحكامها وأمثال ذلك كثيرة في اقوالهم المؤيدة بأعمالهم .

***

الاصلاح في الشرق (٤)

انما الناس اثنان رجل يرى العبرة في غيره فيعتبر ، ورجل لا يعتبر حتـى يرى العبرة في نفسه . وقد مر الشرقي بالحالتين ، فوجب عليه الاعتبار ان لم يكن ثالث الرجلين . رأي الغربي في حالتي ذله وعزه ، وفقره وغناه ، وضعفه ، وقوته وانحطاطه ورفعته . وعلم ان الجهل منشأ ضعفه وشقائه ، وان العلم علة قوته وارتقائه ، فكان عليه ان يستفيد من ذلك ما يغنيه عن رؤية الامر بنفسه ، ولكنه لم يلتمس تلك الفائدة حتى رأى العبرة فـي ذاته ، فنزلت به المصائب ، واكتنفته النوائب ، فقيل عساه ان يطلب الدواء بعد الشعور بألم الداء ، وعساه ان ينتبه من رقدة الغفلة ، ويصحو من سكر الحيرة ، فهل شعر وانتبه ، ام لا

---

٤ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ١٣ ، تاريخ ٧ ايلول ١٨٧٩ .

يزال من الغافلين .

لا ريب انه غير ذاهل عن وجوب الانتقال من هذه الحال ، وغير غافل عن الحاجة الى الاصلاح ، او يكون منحطا عن درجة الانسانية ، اذ كيف لا يشعر الجائع بالحاجة الى الغذاء ، ام كيف لا يعلم المقرور بضرورة الكساء ، ام كيف لا يدري الظمآن بلزوم الماء ؟ بل كيف يغفل من كان في الاجتماع الانساني عن وجوب المدنية ، وكيف يذهل من تقيد بسلاسل الرق عن افتقاره الى الحرية ؟

ولكن العلم بالشيء لا يغني عن العمل به، فلا بد للشرق من التماس ما هو محتاج اليه ، بل لا بد له من الحصول عليه ، وهذا ما فطنت اليه بقايا دوله ، بعد ان أدركها الفساد ، وبلغ منها السكين العظم او كاد .

ونقول بقايا دوله اخراجا للبلاد التي عفت آثار ملكها ، وامحت رسوم استقلالها ، وضربت عليها الذلة والمسكنة فصار أمرها بيد الاجنبي رأسا كالهند وخوقند وخيوى وسمرقند وأرمينية وداغستان وبخارى وسيجستان وغيرها من البلاد التي اخنى الزمان عليها ، فمحا محاسنها ، وذهب بقوتها ، فصارت كالقاصر لا يطالب بما عليه ، وانما يطلب ذلك من وصيه . ولعل هاته البلاد غير منحطة عن درجة اخواتها الحافظات لبقايا الدول وآثار الاول . ولعلها أقرب منهن الى العمارة ، وأدنى الى حسن الحال ، فان الضعف عمومي في البلاد الشرقية ، مستقلة كانت او غير مستقلة ، فلا امتياز بينها ولا رجحان ، الا ان يكون المرجح متعلقا بقوة الولي وحول الوصي . وهذا منتهى دركات السقوط ، لما فيه من تفضيل بعد الاستقلال الذي هو في الامم بمنزلة الارواح في الاشباح ، ولله در شاعرنا الحكمي حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنّ أمانيا (٥)

الا ان ذلك يدعو الى اليأس من النجاح ، ويبعث على القنوط من النجاة ، والنفس بعيدة منهما ، عزوفة عنهما ، تمثل الاماني في المخيلة ، وتعد لها الاسباب والعلل . فاذا تجسم لها ذلك ، ايقنت بامكان الحصول عليها وقرب الوصول اليها .

وهذه الدولة العلية تمثل انفس رعيتها تلك الاماني ، مبنية على الوعود المتوالية ، وتفرض لها اسباب الوجوب وعلل الضرورة ، فتراها قريبة من الامكان، فلا خوف عليها من اليأس ، الا اذا طال المطال وعز الوفاء .

وهذه الحكومة المصرية قد رأت رعيتها طلائع صبح الاصلاح ، فأيقنوا بالنجاة والنجاح . ثم غشيهم ضباب من فوقه سحاب يمطر بالمصاب ، وينذر بالعذاب،

---

٥ ـ المتنبي: الديوان ، دار احياء التراث .

فأيقنوا بالبلاء ، وسلموا لاحكام القضاء . ثم اتاهم الله التوفيق فسلّ سيف الصبح من غمدة الظلام ، وصرف بناظر الصحو حاجب الغمام ، فعادوا الى الرجاء بعد وشك الفناء .

وأما الدولة الاولى فأبرحت غافلة عن الحاجة الى الاصلاح الحقيقي ، منغمسة في نعيم الترف الجسماني ، حتى رأت من نفسها الضعف عن مقاواة من كان يخافها ، والعجز عن مباراة من كان دونها ، فشعرت بالحاجة الى التغيير ، ولكنها وقفت بين الفساد الجاذب الى السكون ، والحاجة الدافعة الى الحركة ، تصدر الفرامين منمقة بالوعود الكريمة ، وتنظم القوانين مزينة بالاحكام السليمة ، ولا تخرج شيئا من ذلك الى عالم الفعل ، حتى كاد يضرب بوعودها المثل وحتى كادت رعيتها تعدم الامل فتغيرت عليها القلوب وفسدت السرائر وصار بعض ابنائها من الد اعدائها فتذرع الاجنبي بذلك الى التداخل في احوالها والمراقبة على أعمالها فصارت بين اجنبي تخونه وأمة لا تأمن جانبها .

نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان نكون لها ضرام

فلما هبت عاصفة النكبة ذرت الرماد ، فبدت النار ذات الوقود ، وسرت الى زعمائها وهم قعود ، نحسبهم ايقاظا وهم رقود ، فتعلقت بأطراف البلاد تبتلع الاموال وتفتك بالرجال ، حتى اختلت امور الدولة ، وتلاشت أحوال الامة ، فلما صار الامر الى حضرة السلطان عبد الحميد ، أيقنت الامة العثمانية بالدخول في عصر جديد ، فرام تحقيق آمالها (٦) بتنظيم احوالها ، فأمر بالاصلاح يخرج من جانب الوعد (٧) والقوة الى عالم الوفاء والفعل ، فرامت انكلترة ان (.....) (٨) ذلك في آسيا الصغرى ، وجعلت أجرتها عليه جزيرة قبرص ، ولكنها استولت على الاجرة قبل العمل ، ولم تر لسعيها نفعا يشكر او اثرا يذكر ، وانما تحيا على الرجاء به ، وما أضيق العيش لولا فسحة الامل . وأما سائر أقطار الدولة فقد كان من موانع اصلاحها ان أولي الامور لم يهتدوا تلك الطريق المؤدية الى ذلك فراموا (.....) (٩) منها يكون الاصلاح فيه نموذجا ومثالا . فلما جاء مدحت باشا زعيم التركية الفتاة الى سورية ، مأمورا باقامة الامور واصلاح شؤون الجمهور ، فقضي عليه بداءة ذي بدء ان يقاوم الموانع العارضة من قبل آمريه ، حتى كدنا نخاف عليه الاخفاق ، لولا ان ساعدته العناية على دفع تلك الموانع ، فصرف الهمة عنها الى معاركة المصاعب الداخلية ومقاومة العوارض الطبيعية .

---

٦ ـ ليست واضحة في الاصل ، قدرناها تقديرا .

٧ ـ ليست واضحة في الاصل قدرناها تقديرا .

٨ ـ ليس الكلام واضحا هنا ولم نستطيع تقديره .

٩ ـ ليس الكلام واضحا هنا .

وهو الى الان يصادم الصعوبات ويقطع العقبات . وجملة الامر ان الدولة العلية قد ادركت من الاصلاح احدى مقدمتيه وهي الارادة ، فاذا لم تلتمس القوة كان مثلها كمثل مقعد تحت شجرة دانية القطوف ، يروم اجتناء الثمر ولا يقوى على الوقوف ، وهذه القوة لا تحصل الا بالاتحاد ، ولا اتحاد الا بالمساواة ، ولا مساواة الا بالعدل ، ولا عدل الا بالعلم ، ولا علم الا بالحرية .

واما الحكومة المصرية فقد كانت في اوائل العصر بين فساد داخلي منشأه ولاية الموالي وملك المماليك ، وغارة اجنبية مصدرها طمع القوي في الضعيف ، وازدراء العالم بالجاهل . فلما وليها المصلح الشهير محمد علي الكبير ، تذكر ما كان لها من سابق المجد وقديم العز ، وانها كانت فيما سلف مهد العلوم ومربع الفنون ، سرت من أديار كهنتها شعلة العلم فأنارت بلاد اليونان ، وهذبت أمة الرومان ، وبددت ظلمات الخشونة، ورفعت منار التمدن، كما نطقت له بذلك أخبارها، وأيدته آثارها . فرام ان يجدد منها ما اندرس ، ويصلح ما فسد ، فأنشأ فيها المدارس العسكرية والملكية والمكاتب الابتدائية والتجهيزية ، واستقدم من اوروبا جماعة من نبهاء المعلمين ومهرة المدرسين ، واستعان بهم على تنظيم تلك المكاتب ، فبلغت على عهده غاية الانتظام . ثم انشأ المعامل الصناعية ، وجلب الآلات الزراعية ، ذلك مع اهتمامه بالفتوح واشتغاله بالحروب واستكثاره من الجند ، حتى بلغ عدد عسكره فيما يقول صاحب جغرافية مصر ١٤٨٠٠٠ من رجال النظام ومائة الف من الرديف .

ثم استأثر به الله فذهب فقيدا حميدا . وتقلبت على مصر من بعده الاحوال، وتبدلت فيها الاشكال ، حتى كاد ينقلب موضوعها وينعكس مطبوعها ، وتستبدل فيها المعامل بالمعاول والمزارع بالمصارع والمعارف بالمعازف ، فامتدت اليها يد الاجنبي ، شأنه في كل ثغرة يراها وفرصة يلقاها . وأفاض عليها المال قرضا فادح الربا حتى بلغ السيل الزبى ، وتهاوت القيعان والربى ، فضربت على اهلها الضرائب وزادت المغارم ، فلم تزد بذلك الا فقرا واختلالا وضعفا واعتلالا . اذ رأى الزارع انه لا ينال من جهده ما يسد الرمق ، ولا يجني من الارض مقدار ما يصب فيها من العرق ، فانقبضت يده عن العمل يأسا وملالا ، ورأى الصانع ان ما يصيبه من الرزق لا يكاد يفي بما عليه من المغارم ، فكره الظاهر الطاهر من الاعمال ، ولجأ الى الاحتيال يصيب منه السحت من المال ، حتى فسدت الاخلاق وكاد يشل عرش المدنية ، ويتقوض صرح الهيئة الاجتماعية ، لولا ان منّ الله على هذه الديار بالحضرة التوفيقية .

الا ان هذا الامير الصافي النية ، الحسن الطوية ، البريء من ذنوب السلف، البعيد مما يخدش الشرف ، قد حصل بحكم الارث بين المصاعب المتلونة والمشاكل المتنوعة . فهو بين مالية ظاهرة الخلل ، وادارة واضحة الفساد ، وسياسة عبثت بها الاهواء والمقاصد وتناوشتها الآراب والمطامع ، فلا يستطيع الاصلاح دفعة ولا يقوى على مسابقة الزمن .

ولكن حسبنا منه الارادة الصحيحة والعزمة الاكيدة ، فان وجودهما مع القوة الحاصلة من ميل الانفس اليه ، واتفاق الكلمة عليه ، يضمن لنا النجاة مما نكره، والوصول الى ما نحب ، بل قد رأينا مقدمات ذلك بالوزارة الجديدة وما صرح به في رقيم تشكيلها :

واذا رايت من الهلال نموه   ايقنت ان سيصير بدرا كاملا (١٠)

***

الاصلاح (١١)

- ١ -

تبلغ الحاجة من المرء حد التعامي عن سائر الموجود ، فلا يلتمس الاها ، ولا يرى الا قضاها ، فهي مدار مقاله ، ومحور افعاله ، وغاية تمــلأ منه جانب التصور ، وتغشى دائرة الخيال ، كما ملأت شهوة الراح مخيلة الشارب الثمل .

فكل شيء رآه ظنّه قدحا   وكل شخص رآه قال ذا الساقي

ولا خفاء في حاجتنا الى الاصلاح وانه حديث نهارنا ، وسمر ليلنا ، ودليل سير الاماني ، ونجم سري الآمال ، فلا غرو ان نعيد ذكره اعادة المحب لذكــر الحبيب ، ولا بدع ان نلتمس قربه التماس المريض لقرب الطبيب .

ان اصلاح الاحوال ، واقامة الامور ، وازالة المفاسد ، واستجلاب المنافع في البلاد المحروسة ، وان كان مما أوجبه عهد مؤتمر برلين فاننّا نعوذ بالله ان نلتمسه من عناية دولتنا المؤيدة العلية من هذا الوجه وبهذا الايجاب . اننّا رعية صادقون لا يداخلنا الريب في حسن مقاصد الدولة ، ولا يخامرنا الشك في ارتياح نفسها الى الاصلاح اختيارا ، فاذا التمسناه فما نطلب الا ما نوت ، ولا نطمع الا فيمــا ارادت ، ولا نذكر الا ما وعدت ، وما تعلم انه من لوازم البقاء وأسباب النماء .

والاصلاح فيما نحن بصدده مطلق لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهي الى تعريف،

---

١٠ ـ المتنبي : الديوان ، المرجع السابق .

١١ ـ مقالة نشرها في التقدم ،العدد ٦٤ ، بتاريخ ١٨ آب ١٨٨١ ؛ والعدد ٦٥ بتاريخ ٢٢ آب ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٣١ .

فما نخص به الادارة لاحتياج المالية اليه ، ولا نحصره في المالية لعدم استغناء القضاء عنه ، ولا نحبسه على هذه الاركان الثلاثة لظهور لزومه في سائر ما تقوم به الحركة الحيوية في هيأتنا المدنية والسياسية ، فهو كلي عميم بقدر كلية الخلل وعموم الحاجة ، فحيث ترى نقصا ، او ضعفا ، او اختلالا ، او اعتلالا ، او اعوجاجا ، او موضعا للكمال ، فهناك محلّ اصلاح .

ولا بد في الاصلاح من شروط تكون فيه بمنزلة القوة المبقية للموجودات ، وهي اخذ من الاصل ، وتمكين ، وتدريج . وآفة الشرط الاول الرضى بالظاهر المموه في الباطن المشوه . وبلاء الشرط الثاني أنصاف الوسائل . وداء الشرط الثالث التهور فيما لا تلائمه أحوال المكان ، ولا يناسبه استعداد السكان . فاذا حصل موفورة فيه هذه الشروط ، فهو المورد السائغ ، والفضل السابغ، والنعمة الكاملة ، والمنفعة الشاملة ، والا فهو مجلبة للبلاء ، ومدعاة للشقاء .

وما نجهل ان الدولة العلية أيدها الله لم ترجىء الاصلاح المنوي اختيارا ، ولم تؤجل الاخذ فيه استنفارا منه ، او رغبة في العدول عنه ، فانها تعلم علم اليقين انه اذا حصل لها موفور الاسباب ، مستكمل الشروط ، فلا يمتنع ان يعود بنا الى المجد الذي أضعناه ، والسؤدد الذي فقدناه ، والقوة التي استبدلناها بالضعف ، والعزة التي رضينا من بعدها بالخسف . وانما صبرت عنه اضطرارا الى ان يخلو لها الجو من الموانع . فقد كانت ولا خفاء في ذلك بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ، في موقف ضنك المقام . تدافع الاعداء ، وتجاري الاحباء ، وترعى للضرورة أحكامها . متقلبة بين اللين والشدة ، والبسط والقبض ، والجود والامساك ، على حسب ما تقتضيه الاحوال ، لتنجو من العوادي ، وتخلو من العوارض فتنعكف على شأنها الداخلي ، انعكاف المتفرغ الخلي ، حكمة لا تخفى عن ذوي الالباب .

وقد نجت من تلك العاديات ، وأزالت تلك العوارض الا قليلا لا يعجز ولا يردّ ارادة . فقضت مسألة الجبل الاسود ، وحسمت نازلة اليونان بعد ان فضّت مشكلة الهرسك وبشناق ، وقررت أمر البلغار والروملي ، وأزالت خلاف خوتور، فصار امر الاصلاح في جانب الامكان فجاز لنا النظر فيه بما توجبه الوطنية، وحب الدولة العلية . وما جادت به علينا أعزها الله من حرية الرأي فيما لا يخرج عن حد القانون . على اننا لا نطلق النظر فيه من الوجه العمومي الا لمحة تكون بمقام التمهيد لما سنحاول من بيان طرق الاصلاح فينا اختصاصا ، فان لذلك التعميم رجالا ظهرت لهم منه الحقائق ، ولم تخف عنهم الدقائق . وبعد فالذي يقال في جزء من البلاد المحروسة يصح في الكل الا في فروع وتفاصيل لا تمنع من هذا الاطلاق .

ينظر الى الاصلاح المطلق من ثلاثة أوجه . السياسة ، والمدنية ، والاقتصاد الاجتماعي ، وفي الاول مالية ، وادارة ، وقضاء . وفي الثاني معارف ، ومساواة ، وحرية . وفي الثالث أمن ، ووقاية اعمال ، وتوزيع اشغال. وتحت هذه الابواب فصول تجيء في عرض الكلام عليها .

فالمالية وهي قوام الملك ، وأيد الدولة ، ومفتاح الاصلاح ، وعماد الاعمال ، منوطة بأطراف جميع ما يتبعها من مواضع الاصلاح . فما تنتظم أمورها ، ولا تتسع مواردها ، ولا يزول اختلالها ، الا بحسن الادارة ، واستقامة القضاء ، وعموم المعارف ، وحصول المساواة ، وظهور الحرية ، وثبوت الامن ، وتفرق الاشغال بالعدل . فالنظر في هذه الابواب عائد اليها لزوما .

اما القضاء فأول الحاجة فيه انتساق القوانين . وكفاء الحكام . فأما القوانين فهي عندنا وافرة كثيرة الفروع ، تكاد لا تحصى ، ولا تحصر . فمنها القديم ، ومنها الجديد ، ومنها الموقت ، ومنها المشروع ، ومنها الموضوع ، ومنها الاوامر والملحقات ، وهي بالجملة مبنية على العدل والحكمة ، مأخوذة عن احكام السابقين الى غايات الكمال السياسي فيما لا ينقض النص الشرعي ، فما يلزم فيها غير الجمع والحصر ، لدفع اللبس ، ومنع الاحتيال ، وتنسيق ما يبنى عليها من الاحكام فان ذلك التعدد فيما لا بد من الوحدة فيه ، موجب للخلل ، وضياع الحقوق ، والجهل بمواضع الحكم . واذا لم يعلم المحظور فكل مفعول جائز ، واذا لم يعرف الجائز فكل مفعول محظور . وأما كفاء الحكام فهو لا شك أعسر من ذلك منالا . فان الكفاء فيهم يقتضي العلم بالاحكام ، واستقلال الخاطر، وعفة النفس ، وهي شروط قلما تجتمع في عدد كثير ممن لم يدخلوا باب مدرسة قانونية ، ولم يألفوا مظاهر الحرية ، ولم يروا للعفة من مزية . والعلم لا يحصل الا بتعليم ، والاستقلال لا يكمل الا بعادة ، والنزاهة لا تستحكم الا بمكافأة . فلا بد لحصول الكفاء في حكامنا من انشاء المدارس لعلم القوانين ، وتعويد الحكام حرية الرأي ، وتقديم ذوي العفة والنزاهة منهم . ثم لا غنى مع ذلك عن تأييد تلك الحرية بصيانة أربابها عن الحيف ، وتمكين هذه العفة بوقاية اصحابها من الفاقة ، بمعنى ان يؤمن القضاة الاحرار من النكبة ، ويضمن للنزهاء سداد من الرزق .

وأما الادارة فلا شك في صعوبة اصلاحها لتعسر الوقوف على موجب الخلل، وعلة الفساد في كل فرع من فروعها الكثيرة ، ولان العمال والحكام والآمرين والمأمورين على اختلاف درجاتهم ، لا يتبعون في اعمالهم قانونا مخصوصا بها مرعيا ، فلا يعلم مقدار حقهم ، ولا يعرف حد واجبهم ، ولا تلزمهم تبعة الا فيما يروم الرئيس . وذلك موجب لتأخر الاعمال ، وضياع الحقوق ، وتبدد أموال

الدولة واختلال السلسلة الادارية ، وضعف سطوة الرؤساء من كبار المأمورين الى الوزراء . وما يفيد فيه تغيير العمال ، وتبديل المأمورين . فطالما جرى ذلك فما ازال خللا ، ولا أظهر نفعا . وانما يجب تبديل الهيئات ، مع تغيير الذوات ، وتعيين المسئولية ، وتحديد الواجبات في الفروع ، والاصـــل ، والاطراف ، والمركز ، بحيث يكون كل عامل مسئولا عما يعمل مـن طرف السلسلة الاخيرة الى طرفها الاول . فتحصل بذلك وحدة الحكم مع حسن التوزيع وهي الغاية التـي ينتهي اليها انتظام الادارات . ثم لا بد مع ذلك مما اشترطناه في كفاء القضاة من التأمين ، وكفاءة الحاجة فيما يجري على المأمورين من الارزاق . فقد افادنا الاختبار ان تقليل راتب المأمور الى حد ان لا يفي بالضروري من حاجاته ليس في شيء من الاقتصاد وانما هو داعية الفساد ، وموجب الدناءة والخيانة . او مـا نرى رأي العين أحوال ذوي الرواتب القليلة ، وان الرجل منهم ينفق على الخادم والفرس ، أضعاف ما يجري عليه من ظاهر الرزق ، فضلا عما ينفق في داره ، وعلى حظية جاره ، وفي مجلس قماره مما يعجز عنه ذو الالوف المؤلفة ، والقناطير المقنطرة . فهل ينزل عليه هذا المال من السماء كما انزل المن على آل اسرائيل ، ام تنبته له السجادة كما تنبته لذوي الكرامات .. كلا وانما هو مال الدولة يؤخذ جزافا ، وينفق بلا كيل .

ومن اخذ البــلاد بغير حرب   يهون عليــــه تسليم البلاد
لا تنتهي الانفس عن غيهـــا   ما لـم يكن منها لها زاجر

- ٣ -

ان الصلاح المدني القائم بعموم المعارف ، وحصول المساواة والحرية من وجه العدل والاعتدال ، وان لزم في بعض احواله الاصلاح السياسي بما تمس بهـــا الحاجة الى المال ، وما تؤثر فيها أحوال الادارة والقضاء . الا انه في الواقــع ونفس الامر علة هذا الاصلاح من وجه ترتب الثروة على المعارف وتعين انتظام الادارة ، واستقامة الاحكام على الحرية والمساواة . فهو أجدر من الاصـــلاح السياسي بالتقديم . فان قضت الحوادث بمثل ما نراه في دولتنا العلية مــن وجوب الابتداء السياسي ، فلا أقل من جعل الاصلاح على وتيرة واحدة بمعنى ان يشرع فيهما معا . فانه اذا لم يصلح الباطن ، فلا بقاء لصلاح الظاهر ، واذا لم يكن للنفس زاجر منها فلا يفيدها زاجر .

والمعارف جمع يراد به مجمل ما تمس الحاجة الى معرفته وما تقتضيه أحوال العصر مما يهتدي به المرء سبيل السابقين الى غايات الهناء والكمال . فهي وان أمكن تقييدها بهذا الحد فلا حد لها ولا قيد ، لوجوب اتصالها بحركة العلم التي

ليس لها نهاية ، ولزوم التحاقها بحاجات الايام التي لا تقف عند غاية . فما يفيد فيها الالتزام حال ، ولا تنفع رعاية ماض بل الحرص على الاثر المهجور مما كان في المعارف الخالية مذكورا ظاهر الضرر بما فيه من التأخر في مجال التقدم . فقد كانت غاية الزارع ، والصانع ، والكاتب ، والعالم ، فيما سلف ان يعرف الاول أوقات الفراغ والامتلاء في القمر ، ويحسن الثاني تقليد استاذه في ادارة الآلة ، ويحفظ الثالث ما تيسر من منظوم الشعراء ، ومنثور البلغاء ، ويعلم الاخير من المنقول ما لا ينقل ، ومن المعقول ما لا يعقل . ولو اقتصر الزارع الان على معرفة امتلاء القمر لما برح فارغ الدار والجيب ، ولو رضي الصانع بتقليد الاستاذ في تدوير الآلة ما دارت الدوائر الا عليه ، ولو اجتزأ الكاتب بحفظ ما سئمته الطباع ، وملته الاسماع ، من ابيات خاويات واسجاع ، لما وجد قراء الا بين القبور . ولو اكتفى العالم بمضغ ما تلمظ به الناس من عهد آدم الى ما قبل ايامه بأعوام ، ما استفاد من نخالة علمه الدقيق رغيفا .. وما نعجز عن بلوغ القصد من المعارف ، ولا تنالنا الحيرة في طريقة الوصول اليه ، ففي السبيل أدلاء راشدون ، وفيه ألف ركب سابقون . فما علينا الا اتباع اولئك فيما يدلون عليه وتأثر هؤلاء لما انتهوا اليه ، سالكين فيه مسلكهم ، راغبين في الاسلوب الذي عولوا عليه من تقسيم الدروس ، وتنظيم المدارس ، مجردة جميعا مما يقيد الاذهان ، ويؤيد سلطة الاوهام ، فالتقليد في هذا المقام عين الاجتهاد .

أما المساواة فليس المراد بها ما يروم الغلاة من محو الطبقات ، وازالة الدرجات المترتبة على السعي والجد لزوما ، فتلك امنية لا تنال الا ان يكون الناس جميعا اخوانا ، فلا تحصل ما دام الانسان انسانا . وليس المقصود منها ما يغالطنا به أولياء الامتياز من كوننا شرعا فيما تجري به الاحكام فذلك لا يمنع من وجود التفريق ، ووقوع التمييز في نفس تلك الاحكام . وانما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، بمعنى ان تجرد النصوص الحكمية عن كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون الآخرين ، وتطهر من كل ما يشف عن شيء من ذلك ان يؤدي اليه ، فتكون أمن الخائف ، وملاذ الفازع ، ونصفة المظلوم ، وسدا سديدا في وجه الجريء . وأحكام دولتنا العلية أيدها الله مبنية على هذه المساواة الحقة ، فما يلزم فيها غير اصلاح الحاكمين . ثم لا بد من النظر في امتياز الاجنبي والتعويض منه بما يكفل استمرار العدل ، ويضمن دوام المساواة.

وقد وصلنا موضع تنازع الاهواء ، وتدافع الاغراض . فمهلا سيدي القوي اننا لا نخرج فيه عن حد الحق ولا نجاوز ما رسم به قانون دولتنا المؤيدة . وأنت وان كنت تعادي من لا ذنب له غير مخالفة رأيك ، وتناوىء من لم يجن من الإثم غير اعتقاد ما لا تذهب اليه ، وتناصب الشر من لم يرتكب من النكر غير الذهاب الى ما لست تعتقد ، فانك لا تستطيع انكار حرية الانسان ولكنك تحسبها قائمة فيما تريد ، مبنية على ما تتخيل ، منوطة بما يلائم اغراضك الذاتية . فأنت في ما لا تنكره صادق ، وفيما تتوهمه عن الهوى ناطق ، فحرية

المرء لا تنحصر في كونه يحرك اعضاءه كيف شاء ، فانه موجود ناطق والناطق ذو فكر يعقل ، والفكر هو الانسان بالذات . فحرية الفكر ثابتة للمرء لازمة فيه لزوم حريته في تحريك الاعضاء . فان منع من اظهار ما يراه فهي العبودية ، وان أكره على القول بخلاف ما يعتقد فهو قتل الحقيقة .

الا ان للحرية عندنا معاشر المعتدلين شروطا وأحكاما تخرج بها عن حد التفريط ، ولا تبلغ جانب الافراط ، فنحن من الطالبين لحرية المطابع ، الراغبين في حرية المجامع لما يترتب عليهما من تنبه النفوس ، وارتفاع الهمم على شرط ان لا يراد بهما الضرر ، ولا ينشأ عنهما الخلل ، ولا ينتج منهما فساد الاخلاق . وهو الحد الذي لا شك في مروره بخاطر المصلحين من رجال دولتنا العلية أيدها الله ، ولا ريب في تشرفه بالقبول من لدن مولانا المعظم جعل الله النصر رفيق لواه .

* * *

الاصلاح (١٢)

ليس ما نورده تحت هذا العنوان تابعا للمطلب السابق ، وانما هو استطراد اجنبي منه ، وان لم يكن بعيدا عنه ، فقد رأينا في الجريدة الرسمية بداءة فصل في أدب المأمورين فحسن لدينا ايراد مؤداه ، وما يحتمل مقتضاه ، في عرض أبحاثنا الاصلاحية تأيدا لرأينا الضعيف بالكلمة الرسمية .

قالت الصحيفة المومأ اليها ان الذين يرتكبون القبائح والجنايات يرتبونها على صورة يحسبونها خافية على كل انسان ، ولذلك لا يبالون بما يرتكبون .

صدقت وبالحق نطقت او ما نراهم يبنون القصور على الديار التي خربوا ، في جوار البيوت التي نكبوا ، بريع الاملاك التي سلبوا ، ودخل الارزاق التي غصبوا ، ثم يمشون مرحا على أعناق الرجال ، بين عويل النساء ونوح الاطفال ، ثم تطمع نفوسهم في المراتب العالية ، والمقامات السامية ، ثم يدور بهم المنافقون دورة القيود بأرجل السارقين ، فبعدا للخونة وبعدا للمنافقين .

ثم قالت على انه ثبت بالوقائع والتواريخ الكثيرة انه لا يوجد بين الافعال البشرية ما يبقى في عالم الخفاء بدون جزاء .

فيا حقق الله ظنها بكشف الستور ، عن اهل الفجور ، وان كان في الامر نظر من نحو قول الشاعر :

---

١٢ ـ نشرها في التقدم ، العدد ٦٦ ، بتاريخ ٢٧ آب ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٦٤ .

معللتي بالقرب والموت دونه　　　اذا مت عطشانا فلا نزل القطر

فحبذا الكشف العاجل ، وحبذا الجلاء القريب ، يوم تسود وجوه الظالمين بما قدمت أيديهم ، وتغل أيدي لصوص الحقوق بما كانوا معتدين ، فويل يومئذ للكاذبين ، وويل للظالمين .

وأوردت بعد ذلك ما شاء الله من الترغيب والترهيب ، والانذار بعذاب يوم رهيب ، وهو كلام روحاني يؤثر ولا شك في بعض القلوب فيهتدي به من ضل اغترارا ، ويتوب من انقاد للشر اضطرارا ، الا ان الذين يتزلفون الى اهل الصلاح رياء . واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انّا بهم مستهزئون ، والذين استحكمت صبغة الخيانة في قلوبهم فهي فيها من الملكات ، والذين غرّهم الاغضاء عما يجترمون فقالوا العدل فات ، والحق مات ، كل هؤلاء لهم آذان عن النذر الروحاني صماء ، فلا بد في أمرهم من عاجل العقاب ، وسريع العذاب ، ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب .

ثم قالت ما نورده بنصه : اننا نرى الذين يطلبون الانتظام في سلك المأموريات والكتابات كثيرين على اننا لا نرى عددا كثيرا ممن هم اهل للمأموريات يراعون الاستقامة والامانة ، ويحافظون على خير الامة والوطن ، ويعلمون ان ذلك خير ثروة يحصلون او فخر يقصدون ، الا ترى كثيرا من الذين يعينون لاحدى المأموريات ، وربما لكتابة لا اهمية لها يحسبون انفسهم مكلفين لوضع خادم ، وامتلاك دابة ، وفعل عظمة ، يساوون فيها العظماء والاغنياء ، فيتهافتون على الارتكاب تهافت الذباب على الطعام فيصيبون قسما مما يأملون ولكن ذلك يعود عليهم بالوبال .

وهي حقيقة رهيبة كلما بعد منها الريب دنا بها اليأس من قلوب احباء الوطن . فان الكثير ممن يترشحون للمناصب والخدم ، لا يدخلون مجال الامتحان بسابق من العلم والاستحقاق ، وانما يتسورون خطة المنصب على حبال الاحتيال، وهم الا النذر القليل ممن ينطبق عليهم قول حكيم الشعراء :

اني لأغمض عيني ثم افتحها　　　على كثير ولكن لا ارى احدا

وان كثيرا من أولي الخطط على اختلاف مقاديرها ، لا يرضون بالعظماء والاغنياء اندادا فيما يستكملون من اسباب الابهة والاجلال ، فما تبع تحت السوابغ في حمير ، ولا دارا ولا كسرى ولا قيصر ، بأطمع نفسا في المعالي ، واشد ميلا الى التعالي ، من كويتب منهم يجري على خادمه من الرزق مقدار راتبه الصحيح وهناك رتب منيفة ، والقاب شريفة .

القاب مملكة في غير موضعها　　　كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

وما يؤثر في هؤلاء الذئاب ، تمثيلهم بالذباب في التهافت على الطعام ، الا ان يدس فيه سم العقاب ، فيضرمه في بطون الآكلين نارا . وما يخيفهم التهويل بعود الوبال عليهم الا ان يكون الفعل تلو الوعيد .

فجزى الله صحيفتنا الرسمية خيرا ، ان بحثها في أدب المأمورين على ما لكلامها من القوة قد أحيا ميت الرجاء ، وحفظ بقية الامل ، فهي صادرة عن رأي من اذا قال فعل ، ولا زالت مؤيدة بالصواب فيما تظهر من مقاصد ملجأ الولاية الهمام ، التي هي غرة في جبين الايام بظل ولي النعمة سلطان هذه الامة أعزه الله، ووفقه لما يرضاه .

***

الثورة (١٣)

تصورتهم فرقا واوزاعا بأسمال تشف عن الجلود ، يتدافعون في المسالك صائحين ، يتلقون سيوف الجند بما قطعوا من الاشجار ، ويقابلون كرات البنادق، بما اقتلعوا من الاحجار ، زاحفين مكشوفة رؤوسهم للسائفين ، مفتوحة صدورهم للرماة . يبتسمون للموت سآمة من الحياة ، فلا ينثنون عن القصد حتى يقف آخرهم على رأس اخيه ، من ربوة أشلاء ذويه ، فيرفع بيده اللواء صائحا : ليفن الظلم ، او ينزع من صدره النصل مناديا : لتحي الحرية : فقلت ما لهؤلاء الناس يهرقون الدماء ، ويقتالون الرؤساء ، ويفسدون في الارض ، قالوا لحجب الدماء، ودفع الغلبة ، وجلب الصلاح ، قلت وكيف تسمون ما يفعلون ، قالوا الثورة ، قلت هي الدواء ، بالتي كانت هي الداء .

وتخيلتهم من قبل ينسلون جموعا وأحاد تهش عليهم الذئاب بعصي الرعاة سوقا الى مجازر الجور ، ومسالخ الفجور ، ويحجلون بقيود ألرق في سجون ذوي الرئاستين ، فتارة يقتادهم ذو الرداء الاسود لارض يزرعونها ، وزرع يحصدون . مشتغلين في ذلك بياض نهارهم ، وسواد الليل ، يجلبون واسع الرزق لقوم عطل لا يشتغلون ، وحينا يتلهم ذو الطيلسان الاحمر لطائفة يغزونها، وثأر يدركون له فيستميتون في ذلك متناسين شيوخا واسوهم اطفالا ، ونساء علقوهم فتيانا ، وولدا اعانوهم كهولا ، مستقرين على رغمهم تحت ظلال قلاع تحجب الشمس والهواء عنهم لا يحمدون فيها البقاء ، ولا يستطيعون الجلاء ، وانما أمرهم لسادة ملكوا رقابهم بحجة مثبتة في سجل الوهم . فهم على الحالين ، عبيد السطوتين، يموتون في سبيل الطاعة غير مأجورين وتسلب أموالهم

---

١٣ ــ من مقالاته . أعيد نشره في الدرر ص ١٧٢ .

غير مشكورين ، فما حياتهم بسالمة ، ولا المال بباق ، ولا العـــرض بمصون ، فقلت لا تثريب عليكم فيما ارتكبتم بعد ذلك فمن لم يذد عن حوضه يهدم :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه ان يكدرا

وبعد فما انتم بأصحاب الثورة ، وانما اصحابها الذين يوجبونها بما يظلمون .

ثم رأيتهم عصبة احرارا كما وجدوا ، وخيرا من ذلك وأبقى ، تجمعهـــم الوطنية ، ووحدة الحقوق كما تجتمع الذرات حجرا صلدا . فلا يخافون الرئيس الا فيما وضعوا له من الاحكام ، ولا يتبعون الزعيم الى غير القصد الذي يطلبون ولا يؤتون عن مالهم ، الا ما يعينون لتدبير احوالهم ، فهم الآكلون اذا زرعوا ، والمالكون اذا صنعوا ، والقاصدون اذا تداعوا للقتال ، تبسط أيديهم فيمـــا يعالجون من الاعمال شأن العاملين لانفسهم من قبلهم ومن بعد . فلا تجد في قطرهم أرضا مواتا ، او قرية خرابا ، بل نما في ارضهم الزرع ، ودرّ لهـــم الضرع ، وجاوزت العمارة ما يمكن تمثيله في المخيلة ، حتى صارت ديارهـــم مدنا ، ومدنهم امصارا ، ومصرهم أم الدنيا ، وهم هم الانسان .

فتأملت بعد ذلك في حالة الشرق فرايت فيه بقرات سمانا تأكل البقـــرات العجاف ، فقلت تلك رؤيا فرعون الا العدد فقد غيره الزمان ، فمن لنا بذي فطنة يوسفية يعبر الرؤيا لاصحابها ، ويتدارك النازلة بما تقتضيه لا بما يلهم ، فنحن في فترة غضبت بها السماء على الارض ، فحبست عن الناس الهامها ، فقيـــل كلنا ذلك الرجل . فقلت صدقتم من وجه تعبير الاحلام ، لا من حيث العنايـة والاهتمام .

وعدت الى شأنه القديم ، اسأل ماضيه ، عن آتيه ، فرايت في تأريخه الفتن ، والثورات ، والحروب ، والغارات ، ملئت بذكرها الاسفار ودلت عليها الآثار ، تتسابق الاقوام اليها زحفا زحفا ، ويتبارون فيها ضربا ضربا ، حتى كأنما غضبت رؤوسهم على الاجسام ، او اشتاقت نفوسهم الى الحمام .

فقلت ما لهؤلاء الناس يفعلون ما فعل الغربيون وفوق ذلك ، ولا ينالون بعض ما نال اولئك ، فقالوا لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بينة مما يقصدون . وانما يقتادهم الطامعون بسلاسل الوهم فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم لا ينشطون بها من عقال ، الا ليربطوا بآخر من مثله او اشد . فيكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

فآليت الا امسك القلم عن تهيئة الخواطر لثورة الانفس حتى ارى في منبتي ما رايت في غيره من محاسن آثارها ، والا أعدل عن مقاومة الظالمين حتى ارى قومي امة تقول ما تعتقد ، ويؤخذ بما تقول ، والا ابرح متوسلا لنبهاء الشرق بحرمـة المجد القديم ، ووحدة الذل الجديد ، ان يضرموا في القلوب نار الغيرة والحمية ، حتى ارى الشرق وطنا عزيزا .

ولا عز للوطن الا بالامة ولا وجدان للامة الا بالحرية .

حركة الافكار

حركة الافكار (١)

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

بل هي شعلة اصلاح كانت في كمون الدهر ، في عالم الضياء والنور ، فساقتها يد الحكمة ، بمعدات الحركة الى عالم الظهور ، وسرت في اوروبا من جانب الغرب الاقصى ، وكمنت في ما وراء المانش اياما وأعواما ، متنقلة من صورة الى صورة ، ومن كيفية الى كيفية ، حتى أعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء ، وانبعثت منها جراثيم الضياء، فغيرت هيئة الارض ، وحالة الناس ، وطهرت ذلك الجانب من الارجاس : تلك ثورة الفرنسيس : برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فآنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية ، واجتمعت على ولائها ، وتألبت تحت لوائها ، لتدفع عنها من رام اطفاء نورها ، وافساد أمورها ، فتصدى لها أعوان الرق وانصار العبودية ، وما آلوا في قتالها جهدا ، فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتا ، فلم يبلغوا منها قصدا ،

---

١ ــ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة سنة ١٨٧٧ ، أعيد نشرها بالدرر ص ١٠٣ .

ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وكثر الملأ من حولها ، وادهشت الدنيا بشدة حولها ، ثم مرت عليها الشهور والاحوال ، وتقلبت الامور والاحـوال ، ورأى العدو منها غفلة فدهم ، واغتنم من الزمان فرصة فهجم ، وغلب امره وتأيد ، واستقام ملكه وتوطد الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ما جر اليه واليها البلاء الاليم ، فتسنى لها ان تدفع عنها شره ورب شر يجيء بالخير العظيم ، ثم عادت الى سابق عزها والعود أحمد ، فانفتحت في بلادها : نعني فرنسا : كنوز الثروة، وتوفرت اسباب القوة والسطوة وصفت موارد السعادة والهناء، وانتفت اسباب المتاعب والشقاء ، وهي الان على ما نرى من العز والمناعة والتقدم في الزراعة والتجارة والصناعة . ثم سرت تلك الشعلة من جانب الغربي الى الشمالي وهي فيه كامنة تحت رماد الاستعداد . وانّا :

نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام

فان النهلست في الروسية ، والسوسيالست في المانيا ، طائفتان قـد استفحل امرهما وعظم شأنهما ، وحسبك ان فتاة مـن النهلست يقال لهـا «ساسولتش» قد تجاسرت وهي في ارض السلطة تحت سماء السطوة ، ان ترمي والي الشرطة بالرصاص عمدا . وانه قام لها بين قومها نصراء ومحامون وشفعاء ومدافعون، وان فتى من الطائفة الثانية يسمى «لهمان» قد تجرأ وهو في ارض القوة، تحت سماء العظمة، ان يرمي الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثا، وان هاته الطائفة قد اصابت من الفوز والسطوة ، والتقدم والقوة ، ما أوقع في قلب الدولة هيبتها، وحملها على الامر باستئصال شأفتها ، وتعطيل جرائدها ، واعنـات الداعين اليها ، والقائمين بأمرها . ولا لوم عليها في ذلك فان تلك الشعلـة قد سرت نارها ، وارتفع منارها ، وصار لها من الخاصة نصراء ، وفي الدولة ظهراء ، غير انها لن تستطيع اخماد تلك النار ، وان منعتها من السير حينا ما ، فـان الاسباب اذا اعدتها الحركة اللانهائية ، وتسنت لها المسببات القابلة ، حصـل الوجود وجوبا .

ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحنت اليه ولا غـرو ان يحنّ الغريب الى وطنه «نعني الشرق» مقر جراثيم الحركات الدينية والسياسية التي غـيرت هيئة الارض ، واحوال الانسان ، فسرت اليه تنبه غافله ، وتفقه جاهله ، وظهرت في بلاد «اهورا مازدا» بين ابناء «زرادشت» تحت سماء التقاليد «نريد بـلاد الفرس» فان مذهب البابيين نسبة الى السيد علي محمد الملقب «باب المهدي» قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو من ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس فتمذهب بـه جمع كثير منهم ، واثاروا الفتنة على الحكومة ، وأبرزوا من الجسارة والاقدام ما لم يسمع بمثله . وبعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص ، ولم يصب. وقد كان من أعمالهم الاخيرة ان جماعة منهم تشبهوا بالجند ، وقصدوا الشاه وهو

سائر الى مدفن شاه زاده عبد العظيم للزيارة ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ ، وقالوا له انّا من جندك ، وقد طال علينا زمن الخدمة ونروم الانصراف الى منازلنا، فوعدهم ان ينظر في امرهم بعد الرجوع الى القصر . ثم انهم هجموا على عربته ورموه بالحجارة الكبيرة ، وجرحوا جماعة من رجال حرسه ، وكان على مقربة من مكان الحادثة طائفة من الجند ، فطير الشاه اليهم الخبر ، فجاءوا مسرعين، وقبضوا على جماعة من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من البابيين . هذا ملخص تلك الحادثة ، وسنورد تفصيلها في غير هذا المقام ، مع بيان حال تلك الطائفة ومذهبها ، وكيفية سيره وتقدمه ، وانقسام امامته بين يحيى صبح ازل وأخيه البهاء المقيم الان بعكاء منفيا ، مستمدين جميع ذلك من بحر معارف استاذنا الكبير ، الفيلسوف الشهير ، درّة تاج الحكماء ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيد جمال الدين الافغاني نزيل المحروسة .

وما افضنا في الكلام على آثار تلك الحركات الفكرية التي سرت من اوروبا من جانب غربها الاقصى ، الا لاننا نحسب الحركة التي ظهرت اخيرا في الاستانة ، حلقة من سلسلتها وهي الحركة التي ظهر أثرها الاول في عزل محمود نديم باشا اثر فتنة البلغار ، وخلع السلطان عبد العزيز ، وتنصيب السلطان مراد . وقد كثر عدد الداعين اليها في الاستانة ، واجتهدت الدولة في خفض منارها ، واهماد نارها ، بابعاد زعمائها ، ونفي رؤسائها مع كثرة الشواغل ، وتواتر النوازل . وقد جاءنا بالتلغراف واردا من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ان جماعة من العامة قد هجموا على سراي جراغان مقر حضرة السلطان السابق ، فحاول رجال الحرس صدهم ، وأعياهم ذلك ، فأطلقوا عليهم الرصاص ، وقتلوا منهم نفرا ، وجرجوا طائفة ، فأوجسنا من ذلك الخبر شرا ، وخفنا ان يكون نتيجة ما سبق من المقدمات في عهد ساكن الجنة عبد العزيز . ثم جاءنا في غد ذلك اليوم ببيان ازال ذلك الخوف ، وأبعد الايجاس . وهو ان الذين هجموا على السراي كانوا من المهاجرين . فترددنا بين تصديق الاول والثاني ورجّحنا جانب الثاني بدليل ما جاء بعده من ان جماعة من اولئك المهاجرين قد ساروا الى الباب العالي يطلبون الاعانة ، وحملنا فتنتهم على الحاجة والفاقة . ثم ما لبثنا ان جاءنا بالتلغراف ما افسد الظن ، وأعاد الايجاس من ان علي سعاوي أفندي احد زعماء تركية الجديدة كان في مقدمة الهاجمين على السراي ، وان رجال الحرس قد قتلوه ، فأيقنا ان هذه الفتنة هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغير لا محال عاجلا او آجلا هيئة الكرة الارضية ، ونظام الجمعية الانسانية .

***

حركة الخواطر في الروسية [٢]

لقد سرت شعلة الحرية في رؤوس الروس ، فنبهت الاذهان من رقبتها ، واثارت الافكار من ربضتها ، الا انها بهرت عيونهم فتاهوا في مفاوز الضلال ، وخفيت عنهم طريق الاعتدال ، ونهضوا من التفريط الى الافراط دفعة او راموا الطفرة الى الكمال ، فالتمسوا المحال ، فان الكمال لا يحصل الا تدريجا ، ومن رام وراء ذلك فأولئك هم الخاسرون . وقد كان من عاقبة هذا الافراط ان الحكومة خرجت عن طور الرفق والتساهل ، واخذت بأسباب التقييد والتشديد لتبيح الجديد بالحديد ، فصدر امرها على لسان الجنرال كوركوبما محصله : يقام على كل دار من ديار العاصمة خفير يلزمها سواد الليل وبياض النهار ، محترزا من ان يلصق على الجدران اي اعلان بدون امر الحكومة ، ومن ان يلقى على الارض اي شيء يوجب انزعاج الابدان او الخواطر . فاذا رأى من يحاول شيئا من ذلك فليقبض عليه ، ومن اهمل هذا الامر من الخفراء اول مرة ضربت عليه غرامة مقدارها ٢٥ ريالا روسيا ، او سجن سبعة ايام . فان عاد الى ذلك ، فانه ينفى من العاصمة راسا ، ومن لم يكن على بابه خفير فانه يغرّم بخمسمائة ريال.

وينبغي لباعة السلاح في جميع ارجاء المملكة ان يرفعوا الى قائد حامية بلدهم لائحة منطوية على بيان ما عندهم من السلاح ، والا يبيعوا منه شيئا الا باذن القائد المومأ اليه ، فمن خالف ذلك غرّم اولا بخمسمائة ريال ، فان عاد الى المخالفة حجر على سلاحه وحرم عليه متجره .

ويجب على من كان عنده سلاح من غير الباعة ان يُشعر بذلك قائد الحامية، ومن وجد لديه شيء من السلاح بغير رخصة من القائد فانه يغرم بخمسمائة ريال او بحبس خمسة اشهر .

ولا يُخفى عن البصير بالعواقب ان هذا التقييد لا يغني عن حكومة الروس شيئا في ما تحاوله من اخماد الفتنة ، بل هو بين ان يكون كالرماد يستر تلك النار الموقدة ولا يطفئها ، او ان يكون كالعاصفة يثير ما بقي عليها من الرماد فيمتد لهيبها ، ويشتد ضرامها ، وما احسن ما قال في ذلك مكاتب جريدة التيمس وهو :

ان رؤساء الشرطة السرية قد سئموا الخدمة ، وخافوا التبعة ، فعزموا على الاستعفاء من مناصبهم ، اذ رأوا ان ثلاثة ارباع رجالهم شيعة للنهلست . ويقال ان مأمور ضبطية اودسا سيتولى ادارة الشرطة المومأ اليها ، الا ان ذلك لا يغير من حالها شيئا . على اني لا احسب النهلست كثيرا عددهم ، ولا عظيما مددهم ، ولكنهم اهل بسالة وإقدام وسعي واهتمام ودهاء وخلابة . ومما يزيدهم قوة

---

٢ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤٤ ، ١ ايار سنة ١٨٧٩ .

ونشاطا ميل اوساط الناس اليهم ، لا تشنيعا لهم ، ولكن تنفرا من السلطة الاستبدادية ، فان المأمورين والتجار والكثير من ضباط العساكر وقادتهم من حلفاء الحرية الراغبين في الحكومة الشوروية والدستور النيابي ، وهم فئة كثيرة ، ولاسيما في المدن الكبيرة . وقد ساءهم ان يروا النظام الشوروي في بلاد لم تكن من قبل الحرب الاخيرة شيئا مذكورا كالجبل الاسود والبلغار ، وان تكون الروسية على رفعة شأنها وكثرة سكانها وسعة مواردها مقيدة الاحكام منحطة عن سائر الممالك الاوروبوية من حيث الشورى والحرية . فهم لذلك لا يعارضون النهلست ، بل ربما راوهم يحاولون منكرا ففضوا عنهم الطرف ، او يقولون كفرا فقابلوهم بالصمت . وان في بعض السكوت لجوابا ، فاذا اعترضوا على ذلك قالوا ان هذا امر لسنا منه في شيء . وهي احوال سيئة العاقبة ، وأسوأ منها ان بعض نصحاء القيصر يغرونه بالتجافي عن اطلاق الحرية ، وتقييد الحكومة بالنظام الشوروي ، اعتقاد ان الملك الذي يؤيد الحرية يسقط بيده شأن نفسه ، ويكون كالباحث بظلفه عن رمسه ، ولو اهتدوا الى الصواب لحثوه على مجاراة حركة الخواطر .

هي السيف ان لاينته لأن متنه وحداه خاشنته خشنان

***

نفثة مصدور (٣)

وانّا تحت سماء الانصاف ، على ارض الراحة ، بين اهل الحرية ، اسمع الحانا في مجالس العدل ، فأذكر انين قومي في مجالس الظلمة ، وتحت سياط الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وارى علائم النعمة ، في معاهد المساواة ، فأذكر شقاء سربي في ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع ممتزجا بسواد القلب ، فأكتب به اليهم .

يا قوم . ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلا ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حليا ، وتخفضون للظالمين جناح الذل

---

٣ ـ نشرت في مصر القاهرة ، العدد السادس ، ٢٧-٢-١٨٨٠ وأعيد نشرها في الدرر ص١٥٥ وكانت معنونة : «نفثة مصدور» كتابي الاول الى الامة المصرية .

حتى يقول من يراكم ما هؤلاء بشر ان هم الا آلة سخرت للناس يفلحون بها الارض ويزرعون .

يقلب الجائرون عليكم انواع المكائد ، واصناف الحيل ، وألوان الخداع ، فيما يختلسون كما تقلب المشعوذة لدى الاطفال أوجه الودعات في استخراج ما يضمرون . فتارة يضربون المغارم ، لتمهيد المسالك ، وانشاء المنافع ، ومرة يفرضون الاتاوات ، لاصلاح الشؤون ، واعزاز الدولة ، وحينا يرسمون بالضرائب لصيانة الحقوق ، وتأييد الاستقلال ، وآونة يجلبون المال قرضا يحفظونه لكم على سبيل الامانة حتى اذا ملئت بأموالكم الخزائن ، ولم يبق على ابدانكم ما يباع ، فتخيلتكم بين السواقي والانهار ، تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فتات الشعير ، وتنكبوا على الترعة فتشربون الماء الكدر ، ثم تعودون الى الارض المريعة تزرعونها ، والغلة الوفيرة تحصدونها ، لتنصرفوا الى أكواخ بالية تشبه قبورا توالت عليها السنون ، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف أبدانهم الوقاء ونساء تعوضن الاقذار عن الكساء ، ثم يأتيكم المأمور سالبا ، والشيخ غاصبا ، والمدير ناهيا ، فأنتم في بلاء مستقر ، وعناء مستمر ، تحصدون البر ولا تأكلون ، وتملكون الارض ولا تسكنون ، فقلت ما علة هذا الفرق بين الطائفتين :

والناس من جهة التمثال أكفاء والاصل فيما يقال الطين والماء

فأجابني لسان الحال دع الطين والماء ، في صحف القدماء فهو العلم يعز طلابه ، ويذل اربابه ، والاقدام ترتفع به النفوس ، والوهن تنخفض معه الرؤوس :

ورأيت دولتهم تكافىء بالمال ورفع الشأن من أنقذ المستهلك ، وأجار الخائف، وردّ المغتال ، فتصورتكم على ضفة النهر تبصرون الغريق في اللجة ثم تصرفون عنه وجوها لا تجهل الحياء ، وتعصون فيه قلوبا لا تنكر الرحمة ، مخافة ان تنقذوه فيأتيكم المأمور سائلا من الرجل ، وفيم غرق ، وكيف لم تخرجوه حيا، ثم لا يسمع من المنقذ جوابا ، ولا يطلق له سبيلا ، حتى يقرع باب مسمعه برنة الدينار ، ويحل عقدة ظلمه برقية الرشوة ، او تشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيده بوتد السجن . فقلت ما لقومنا يظلمون أحياء ، ولا يأمنون العسف أمواتا ، فأجابني لسان الحال : هو الذل أمات انفسكم فصرتم اشباحا بغير أرواح ، تنطقون ، ولكن بحكم العادة ، وتسعون ، ولكن بحركة الاستمرار، ذلك بأن رضيتم بموت الذل حرصا على البقاء ، ولم تعلموا ان وجود الذليل عين الفناء . فعدت الى الدمع أذرفه واللهفة أرددها ، والزمان أعاتبه ، ثم نظرت الى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة ان يقول اي قضاء ظالم قدر علينا هذا الخسف ، وأي حكم قاسط انزل بنا ذلك البلاء ، فغشيني نور الرجاء ، وخاطبني لسان الامل من وراء حجاب الاخلاص ، بما سأبديه في كتابي الثاني ان شاء الله.

***

الكتاب الثاني (٤)

وانّا بين قوم خشان الاصول ، حسان الفروع ، دفعتهم سوء الحاجات ، وضيق المعايش ، من وعور جرمانية وما وراء نهر الرين الى هذه الارض المريعة فانقضوا عليها غزاة ناهبين ، لا يأخذون بشرع ، ولا يدينون بدين ، وانما يقضون بما تدعو اليه الحاجة الحيوانية ويحكمون بما تبعث عليه خشونة الطباع ، متقاتلين على السلب ، متسابقين الى الشرة ، متنافسين في الموبقات ، يتقاضون الى زعيم يجلونه منتصرا ويذلونه مغلوبا، ويطيعونه خشنا ، ويعصونه ان كانمن الراحمين.

ثم تغلبت عليهم حوادث الايام فجعلت حدتهم غيرة ، وتهورهم شجاعة ، وخشونتهم حرية ، فانتقلوا من السذاجة ، الى التأمل ، ومن المبادهة ، الى التعقل ، فنبت فيهم العلماء ، ونبغ الكتاب والخطباء ، فضربوا بسيوف الاقلام، حجاب ظلام الجهل ، فانشق عن ضياء صبح العلم ، فرأى الناس فظاعة التقليد فنبذوه ، وشناعة الاستبداد فنشطوا من عقاله بالثورة التي رمت كبد الظلم ، بسهام نور الحق ، وخطت بدمه على صفحات الصدور : الحرية والمساواة والاخاء.

اراهم الان في معاهد الصفاء ، ومرابع الهناء ، ينطقون عن علم ، ويصدعون بما يقضي به القول ، فلا يعتدي رئيسهم على مرؤوسه ، ولا غنيهم على الفقير ، وانما هم في الحقوق شرع . جمعتهم الوطنية فكان كلهم للواحد ، ورفعت بعضهم المزية فكان واحدهم للكل ، فهم القوم لا يخاف ضعيفهم ، ولا يطغى قويهم ، ولا يغصب اميرهم حقوق الفقراء ، ولا ينهب سوقيهم أموال الامراء .

اراهم في مراتع النعمة ، بعد مضائق النقمة ، وفي مسارح الثروة ، بعد مرازح الفاقة ، فأذكر قوما في الشرق دعاهم اليه بهاء السماء ، وصفاء الماء ، وحسن الرقعة ، وطيب البقعة ، فاتوه مستعمرين ، فأحيوا الارض بالزرع ، وزانوا القطر ، بالابنية والعمارات ، من كل مدينة واسعة المبنى ، معشوقة السكنى ، كأنها بالربيع قد فرشت وبألوان ازهاره نقشت ، ومن كل اثر حالفته الايام ، وعاهدته الحوادث ، فهو باق على مرورها ، غير مبال بكرورها . ثم باتوا في ظلال النصر ، منغمسين في ماء اللذاذات ، غافلين عن الحقوق والواجبات ، حتى اذا نضبت موارد الرغد ، وغارت عيون الثروة ، ايقظهم الم الحاجة ، ونبهتهم صيحة الفاقة ، فهبوا يحسبون تلك النعمة احلاما ، ويعدون سوابق المجد أوهاما .

أذكرهم على هذه الحال ، من الخسف والاضمحلال ، فأقابل بين حاضرهم وماضي من ارى من الامم الرفيعة الشأن ، فأقول ان الحوادث التي أعدت لهؤلاء القوم اسباب النجاح ، فانتقلوا من الخشونة ، الى التمدن ، ومن الجهل الى

---

٤ ـ نشرت في العدد السابع من مصر القاهرة ، ٥ مارث (اذار) ١٨٨٠ وفي الاصل : «كتابي الثاني الى الامة المصرية» .

العلم ، ومن الفاقة ، الى الثروة ، لا تلبث ان تفتح للامة الشرقية من مسالك الفلاح ما يؤدي الى مثل هذه الغاية . فلا وجه لليأس من بعثة الغيرة في هاته الامة وان كانت :

بالذل في عشواء مدلهمه وظلمة ما مثلها من ظلمه

ولكن لا بد من اخذ الامر بأسبابه ، ودخول البيت من بابه ، بايضاح وسائل النجاة ، ومذاهب النجاح ، على ما أبينه في الرسالة الثالثة وما بعدها مما يتضمن ان شاء الله خلاصة كافية من تاريخ ثورة الفرنسيس ، فهي التي انارت هذا العصر بلهيب نارها ، وهدت انسانه بضياء منارها ، فرأى المنية في الدنية ، والمزية ، في الحرية ، فأنشد :

آليت لا أموت الا حرا وان وجدت الموت طعما مرا

***

الحرية (٥)

ابدأ مقالي بالثناء على جراثيم الضياء التي بعثتها يد العزمة ، من أفق الحكمة، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال كللها الحسن بتاج الكمال ، فجرت على هام الاوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام . ورآها نبهاء الناس نورا على نور فرفعوا لها بينهم منارا ، وأوقدوا من حولها نارا ، تهدي قوما وتحرق آخرين . وما يحترق بها الا المكابرون الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون .

ثم أسرّح طرف المقلة ، في روضة تلك الطلعة ، وأجعل تلو استهلالي ، في رقعة اهلالي ، غزلا أرق من الصبا ، وأحن من عود الصبا ، في قد لا يحاكيه الغصن ، وطرف لا يماثله النرجس ، وخد لا يعادله الورد ، وثغر لا يقارنه البرق، وفرق لا يباريه الصبح ، وفرع لا يماريه الليل . من صورة من تعشقها النفس ، ولا يدركها الحس . فهي مفردة بصفاتها ، لا تشبّه الا بذاتها . يموت في حبها العشاق غيرة عليها ، ثم لا يمنعونها عن المشتاق اليها . فهي المورد يراه الظمآن ، والمأمن يجده الخائف ، والسبيل يلقاه التائه ، بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس ، وكلمة العفو يسمعها من كان على النطع . بل هي فوق ما يصف

---

٥ ـ أعيد نشرها في الدرر ، بعنوان كتابي الثالث ، الحرية ص ١٨٧ .

الواصفون ، وينعت العارفون . بل هي : الحرية وكفى بذلك وصفا لقوم يعقلون.

ثم أشفع ذلك بخبر ما أيدها بعد ما ضعفت ، وجدد ربوع مجدهـــا بعد ان عفت . اريد الثورة التي وضعت احكامها ، ورفعت مقامها ، ونشرت على الناس أعلامها .

راسلكم به يا اهل ودي على حين لا استطيع مشافهتكم بما حال بيننا مـــن عقبات الظلم ، على انني أجمع التأساء من متفرق الحكمة فأنشدكم :

اذا غاب وجهي عن حماكم لعلـــة
فقلبي لديكـــم كـل يوم يسلـّـم
ومــــا عاقني الا عدوّ مسلـّـط
يـــذل ويقصي مـــن يشاء ويرغم
ولم يستطـل الا بكـم وبحولكـم
ولا ينبغـي ان يمنـــح العز مجـرم
فمكنتمـــــوه فاستطـال عليكـم
وكـادت بنـــا نيرانــــه تتضرم
وجمّع خوّانـــا لصوصا اسافـلا
ومنّاهم ان يقتلوكـم ويغنمـــوا
فصار لـــه في كـل يوم جبايـــة
جبايـــة آلاف تعـــد وتختـــم
وصار لأهل الشر روح وراحـــة
بـــه ولاهل الخير صاب وعلقـــم
وانتم عليـــه صابرون لتؤجـروا
ولكـــنّ صدم الشر بالشر احـــزم

ولقد بدئت هذه الثورة في بلاد الفرنسيس سنة تسع وثمانين بعد السبعمائة والالف من التاريخ الميلادي على عهد لويس السادس عشر ، اذ اختلت أمور المالية بما كان الرؤساء ينفقونه من غير حساب ، على حين كانت خواطر الناس منتبهة من رقدة الغفلة بما سمعوا من نداء الخطباء ، وأقوال النبهاء وتقاريـر العلماء . فكان ذلك الاختلال ، كاشفا عن احوال الظالمين ما بقي عليها من سجوف الخداع والتمويه ، فهاجت به بحار الافكار ، وخاف اهل الدولة الفرق ، فـــرأوا ان يجمعوا مجلس الولايات للنظر في أمور بيت المال . وكان ذلك المجلس ضعيـــف الكلمة ، مغلوب الامر ، الا فيما يلائم الرؤساء لكثرة عددهم ، وغلبة رأيهم فيه . فقد كان الثلث الاول منه للشرفاء اي الذين تقربوا من الملوك فيما سلـــف ، او اغتالوا بعض الناس ، واغتصبوا شيئا من الارض ، فامتازوا بذلك عن سائـــر القوم . والثلث الثاني لاهل الكهنوت ، اي لرؤساء الدين الذين خالفوا أحكامه ، بما تداخلوا فيه من أمور الدنيا حتى انشأوا مملكة ، في وسط المملكة . والثلث

الباقي لسائر الامة اي لاهل التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، ممن تقوم الدولة باموالهم ، ويتأيد الملك بابدانهم ، ويعمر القطر بما يشتغلون . فكانت لذلك غالبية الآراء ، في جانب أعوان الدولة من النبلاء والرؤساء . فدار بين الناس قول يتناقلونه همسا لا نرضى بالمجلس الا ان تحصل فيه المساواة بالعدد بين وكلاء الامة ، فخافوا عاقبة المخالفة شأن الخائن المريب ، فأمروا ان يكون الانتخاب على ما تروم الامة ، فانتخب من النبلاء مائتان وسبعون ، ومن اهل الكهنوت ٢٩١ ومن الرعية ٥٨٧ . واحتشد جميع هؤلاء الوكلاء في مدينة فرسايل خامس شهر ايار (مايو) من العام السابق الذكر . وفي اليوم الثاني وقع بينهم خلاف على الحدود والحقوق ، اذ رام وكلاء الامة المساواة ، وأبى النبلاء الا حفظ ما كان لهم من الامتياز ، ثم انفصل هؤلاء عن الجمع فتألف اولئك وقالوا لا حاجة لنا بهؤلاء الاغرار انّا جماعة كافية بقوة الحق . الا ان الملك عارضهم في ذلك ، واقفل عنهم باب المجلس ، فاجتمعوا في ملعب المدينة واقسموا يمينا غموسا : انهم لا يفترقون قبل ان يضعوا لبلادهم دستورا : ولذلك سُمِّي مجلسهم بالجمعية الدستورية . وإني لأسميه ـ مبعث الحرية ـ فانه قد احياها بعد وشك الفناء .

***

نفثة مصدور
الكتاب الرابع (٦)

قد رأيتهم شهداء طاعة عمياء ، ينحرهم خبثاء النفوس على مذابح الجور ، تزلفا لطواغيت الفجور . فوقفت بربع العدل مناديا بأهل الانسانية ، يا لثارات الضعفاء .

فأجابني هاتف العصور ، من اغوار القبور ، لقد انتجعت بورا ، واتبعت غرورا ، فانّا ملأنا من قبلك الارض نداء وزفيرا ، فلم نجد من الناس نصيرا ، فعلمنا انهم لا يسخون بالنجدة لمن ضنّ بنفسه ، وتوكل على بني جنسه ، فاقتحمنا الاوجال ، في طلب الآمال ، فلم تكن الا جولة ولّت الحرب اولادها ، وصولة سلبت السيوف أغمادها ، حتى سقينا غروس الاماني بالدم المهراق ، فنمت باسقة الفروع ، مخضرة العود ، يانعة الثمار ، فقلنا في ظلالها آمنين ، تحسبنا أمواتا ، وتخالنا رفاتا ، ونحن في نعيم جنتها خالدون ، فاقتدوا بنا ان رمتم النجاح ، وانشطوا للسعي بالغدو والرواح .

فانما رجل الدنيا وواحدها　　　من لا يعول في الدنيا على رجل

---

٦ ـ نشرت في العدد العاشر من مصر القاهرة ، ٢٤ مارث (آذار) ١٨٨٠ .

فعدت الى بقايا الضحايا أحرك في عروقهم دم الغيرة ، وابث في صدورهم روح العزم ، وأنشر من همتهم ما طوت الايام ، في قبور الاوهام ، بما أذكر من اخبار الامم ، وما اظهر من آثار ذوي الهمم ، لعلهم يستنجزون موعود الحق بمراغمة اعدائه الذين تمردوا وسعوا في الارض مفسدين ولعلهم يفلحون .

ولقد جعلت خبر الثورة ثورة الفرنسيس تمهيدا للخطاب ، وتعيينا للقدوة ، فأظهرت كيف تسنى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضائق الظلم ، ومآزق العبودية، اذ انفصل نوابهم عن المتسفين من النبلاء ، واهل الكهنوت ، وجهروا بما كان يخفيه السكوت ، حتى انقطع الجور بحبله المبتوت ، وكيف توافقوا على الاتحاد في خدمة الحق ليفوزوا فيشكروا ، او يبيدوا فيذكروا ، واقسموا : انّا لا نفترق وفينا رمق حتى نؤيد في بلادنا امر الحرية : فأغلق الملك باب مجلسهم فاجتمعوا في ملعب القرية متوازرين ، متألفة قلوبهم يرومون القسم بالسوية والعدل في الرعية ويدعون الى الحق والى طريق مستقيم .

فكبر ذلك على عبيد الطمع ، وحلفاء الجزع ، فأغروا الامير بفض مجلس النواب ، فأصدر الامر بذلك في الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة تسع وثمانين فتلقاه النبلاء ، ورؤساء الكهنوت ، بالطاعة والقبول ، اما وكلاء الامة فقالوا لا نطيع الامراء بما نعصي به الحق والعدل وانما :

نطيعهم ما اصبح العدل فيهم   ولا طاعة للمرء والمرء ظالم

فأتاهم وزير الملك يذكرهم امره ، ويدعوهم لطاعته ، ويحذرهم عاقبة الفتنة ، فأجابه خطيبهم ميرابو : عد الى مولاك وقل انّا مجتمعون في هذا المقام بأمر الامة فلا نتفرق الا بقوة النصال .

فعاد الوزير بالخيبة والفشل يغالب عامل الغيظ ، ويقاوم فاعل الوجل ، فعظم هذا الامر ، على رجال القصر وصنائع النبلاء ، وأنصار الامتياز ، فحملوا الامير على مقاومة النواب ، وأخذهم بالعنف والشدة فعزل من كان مستوزرا من وسط الناس اي من غير الشرفاء ، وبث الجند في أرجاء العاصمة ، فاهتز لذلك اهلها اضطرابا ، وخرجوا على الدولة ثائرين يرومون وقاية النواب ، ويلتمسون الحرية والمساواة ، واندفعوا كالسيل على قلعة المدينة فاقتلعوها من أيدي الجند منشدين :

الا هيّا بني الاوطان هيّا   فوقت فخاركم لكم تهيا
اقيموا الراية العليا سويا   وشنوا غارة الهيجا مليا
عليكم بالصوارم يا اهالي   ونظم صفوفكم مثل اللآلي
فاما مات كهل في النزال   فان الارض تنبته صبيا
منيتم بالمقيم من العناء   فكان وجودكم عين الفناء
فموتوا ان طمعتم في البقاء   فمن أودى شهيدا اعاد حيا

فانخلع بذلك قلب الامير جزعا ، ورام الفرار التماس النجاة ، فقبض عليه في قرين وأعيد الى العاصمة اسيرا ، ثم كان من امر محاكمته واهدار دمه ما يخرج بيانه عن حد مطلبنا فانَّا لم نجعله تأريخا لثورة الفرنسيس وانما اتينا بذكرها مثلا وعبرة لقوم يدّكرون . وليعلم الصابرون على العنف ، الطامعون في النجاة من الخسف ، كيف ادرك الناس من قبلهم هذه الغاية ، فانتقلوا من الضعف الى القوة ، ومن الذل الى العز ، ومن الرق الى الحرية ، فارتفعت رؤوسهم ، وانبسطت نفوسهم ، وصارت اوطانهم بغية المرتجي ، وعقوة الملتجي ، لا يخاف نزيلها ضيما ، ولا يخشى دركا ، اذ الشرقيون عموما والمصريون خصوصا بين أنياب الطامعين ومخالب الظالمين .

واني لا اطمع الان للمصريين في مثل هذه الحال وان خاضوا لها غمار الاخطار واقتحموا اليها الاهوال ، فان الطفرة محال . ولا أحثهم على الفتنة ، وان كانوا كما تصور المتنبي حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا　　　وحسب المنايا ان يكن أمانيا

وانما أبين لهم ان النعمة لا تملك من غير تعب ، وان الغاية لا تدرك من غير طلب ، وان النجاة وقف على سبيل الهمة وان النجاح معقود بارادة الامة ، لتظهر عليهم علائم القصد ، فتكون طليعة لجيوش العزم فيعلم المستخفون بهم انهم لا يزالون أحياء ، وان كانوا من ظلمهم في ظلمات القبور ، فيقبضوا عنهم أيدي الظلم ، ولا يطمعوا في بيع اولادهم من الاجنبي عبيدا يحفرون المعدن ، ويفلحون الارض ، ويطوون الشراع ، ولا يطعمون كراعا ، ولا يطمعون في باع .

اقول قولي هذا وأسأل الله ان يرفع من شأن اوطاننا ما وضع السفهاء وأن يحفظ من حقوق اهلها ما ضيع الخائنون .

***

الروسية والعدمية (٧)

اخذ قتلة القيصر بما كسبت أيديهم ، وتعاقب الليل والنهار على قلوب ذويه ومحبيه من قومه ، ومن سائر الناس ، فهمدت سورة الغيظ او كادت ، وانطفأت جمرة الحزن الا قليلا ، فآن للناقد ان ينظر في امر العدمية ، ومصير الروسية ،

---

٧ ـ نشرها في التقدم ، العدد ٣٥ ، بتاريخ ١٩ ايار سنة ١٨٨١ وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٤٨ .

بعين زال عنها الغشاء ، وارتفع الحجاب ، فهي تبصر المرئي كما وجد لا تلهو عن حقيقته بوهم ولا تلتمس عنها مجازا .

ولا خلاف ولا ريب في شرية العدمية فهي على طرف التناهي من الاطلاق ، والتناهي من حيث كان يخرج بالخلق والطبع والخاصة من جانب الفضيلة ، الى حد الرذيلة ، فالخلق المسمى شجاعة معدود في الكمالات ، فان تعدى الوسط العدل الى جانب الزيادة فصار تهورا ، او الى جهة النقص فصار جبنا ، فهو من المعائب . والطبع المسمى غضبا ان بلغ حد الافراط ، فصار شراسة ، او حد التفريط فصار نذالة ، فهو من المفاسد . والخاصة المسماة عفة تكون على وجه من التناهي شرها ، وعلى الوجه الآخر بلادة ، وهما من القبائح والعدمية بعيدة من الوسط العدل الذي هو الحرية .

ولكن لا يكون في عالم الوجود كائن ، ولا يتحرك متحرك ، الا بمعدات الكون والحركة ، واسباب الوجود والنماء ، فان الاتفاق ممتنع الا في مخيلات ذوي الاوهام .

فلا بد للعدمية من سبب اوجب وجودها ، ومن سبب يوجب بقاءها ، فانه لا يصح في قياس عالم ، ولا يدخل في وهم جاهل ، ان الوفا من الناس معظمهم من ارباب المعارف ، وذوي المقامات ، ومن الذين لا يزالون في نضرة الشباب يتهالكون على الموت اعتباطا . ولا يتصور عاقل ، ولا يتوهم غبي ان جماعة من الناس فيهم كثير من الذين لم يتعودوا الشقاء ، ومن اللواتي يجرح النسيم حدودهن ، يذوقون من العذاب ألوانا ، يسجنون وينفون ويقتلون صبرا ، ولا يعدلون عمّا في ضمائرهم ، ولا يفوهون بكلمة مما في سرائرهم اخذا برأي غير ذي موجب ، وقياما بأمر غير ذي علة .

يقول بعض الناقدين ما وجدت العدمية الا بما نفث الكافرون المضلون في قلوبهم ، وما وسوس غلاة الحرية في صدورهم ، فقد زينوا لهم الضلال ، وسلكوا بهم طرق الغيّ .

ومن كان الغراب له دليلا ....

ولا ننكر فساد ما يقول الغلاة من جانب التفريط في امر الدين ، والافراط من جهة الحرية ، ولكننا لا نقطع بترتب الاثر العدمي على ذلك القول مجردا من سائر الاسباب . فانه غير منحصر الشيوع في بلاد الروسية بل هو فيها اقل منه انتشارا في سائر البلاد الاوروبية ، فلو صح انه علة العدمية للزم ان يكون مركز دائرتها في اميركا ، او انكلترة ، او سويسرة ، او فرنسا ، او بلجيكا ، او غيرها من سائر البلاد التي لا قيد فيها للاقلام ، ولا حرج على الكلام .

فلا بد للعدمية من سبب غير اقوال المضلين .

اجل فانه ما انفعل الذهن بصورة مما تسمع الاذن ، او ترى العين ، الى حد ان يخرج به ذاك الانفعال عن طوره العادي الا ان تكون تلك الصورة منطبقة على واقعة حال . فليست من هذا الوجه علة الخروج عن الطور وانما هي منبهة لتلك العلة فلو لم تبد للذهن لاختلق التصور غيرها مما يماثلها كما هو معلوم عند الاطباء

في كثير من الاحوال .. فصورة الميت تهيج حزن الثاكل ، وصوت المطرب يثير وجد الولهان ، وليست الصورة علة الحزن ، ولا الصوت سبب الوله ، بل لو لم تر الثاكلة ميتا لأبكاها ذبول الغصن ، وغياب الشمس ، كما قالت الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخرا   فأبكيه بكل غروب شمس

ولو لم يسمع الولهان غناء مطرب ، لاشجاه حفيف الاشجار ، وصوت الحمام كما قيل :

كيف السلو وما سمعت حمائما   يندبن الا كنت اول باك

فأقوال اهل الضلال لا تفعل في الالباب، الا بمقدار ما تجد محلا من واقع الحال.

وكيف كان السبب في وجود العدمية فلا شك ولا ريب ان الذي ظهر من آثارها ، منكر تتبرأ الانسانية منه ، ويتجافى العدل عنه ، خصوصا وان شرها قد نزل بالقيصر الذي ما رات له الروسية مثيلا منذ بدت في عالم المدنية ــ بالذي مهد فيها سبل المعارف ، وفتح ابواب العوارف ، وانقذ الوف الالوف من ربقة الذل والعبودية .

الا ان فساد مشرب العدمية وقبح آثارها ، وضلال سبيلها ، وثبوت شرها ، كل ذلك غير مانع من كونها فرقة راسخة القدم ، قوية الشوكة ، جديرة بالاهتمام . بل كل ذلك مما يوجب على دولة الروس ان تتبصر في امرها لتعلم حقيقة الداء ، فتلتمس له ما يلائمه من الدواء ، وهو الشأن الذي وسد الى الاسكندر الثالث مع تاج الملك .

ولقد اخذ القيصر الجديد نفرا من العدمية بدم ابيه وما خرج بذلك عن حد واجب الولد ولا تجاوز حق الامير . فبقي ان ينظر في الامر بغير العين التي راى بها والده قتيلا فيأخذ فيه بما يقتضيه حفظ الملك ، وصيانة الراحة ، وضرورة الاحوال . ولا نرى له في ذلك غير وسيلتين اثنتين ــ العنف واللطف ــ اي اخذ العدمية بقوة ، واقتيادها باحسان .

اما العنف في مثل هذه الاحوال فهو وان اقتضاه العدل ، ومالت اليه النفس الابية ، الا ان العقل والاختبار على ضده . واقل ما فيه انه ينقل العدميين من وجه كونهم ظلاما الى كونهم مظلومين ، فتزداد قلوبهم فظاظة ، وتميل اليهم نفوس اهل الشكوك ، فما يهلك منهم واحد الا حل مكانه غير واحد حتى يكثر عددهم، ويشتد عضدهم ، فتكون حجتهم هي الغالبة ولنا في سير الاولين الف دليل على هذا الامر .

وأما اللطف بالعدمية بمعنى اقتيادها باحسان الى الوسط العدل فيمكن الاعتراض عليه من وجهين : الاول انه يبعث على توهم الضعف والعجز في جانب الدولة . والثاني انه يطمع اهل الفتنة ويزيدهم شرها :

والنفس كالطفل ان تمهله شبّ على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ان الطعام يقوي شهوة النهم

فأما توهم العجز فلا يحصل في مثل هذا الامر الا عند قصار النظر ، وعلى فرض حصوله عند غيرهم فلا معرة في كون المرء يعجز الا عما يكون به مصلحة لنفسه ولسائر الناس . واما طمع اهل الفتنة بما يرون من التسامح فلا يحسن ان يكون مانعا منه لبعد امكانه في هذا الامر بل على تقدير ان يكون قريب الامكان، فلا اقل من انه يقطع المدد ، ويحبس العون عن العدمية . يرى الناس شناعة ظلمهم ، في جنب محاسن العدل ، فيخذلهم كل نبيه ، ويجتنبهم كل عاقل ، ويزدري بهم كل من لم تزل من قلبه شعائر الانسانية . واذا بقيت العدمية مقصورة على عدد من الجهلاء الاغبياء ذوي النفوس الدنيئة ، والاذهان السقيمة، والهمم السافلة ، والقيم الضائعة ، فلا خوف منهم على الروسية ولا غيرها من الممالك انهم يموتون حتف انوفهم متساقطين كما تساقط اوراق الشجر فصل الخريف .

***

مؤتمر فوضوي (٨)

عقد هذا المؤتمر في لندرة مؤلفا من وكلاء اهل الثورة وغلاة شيعة الاحرار على اختلاف الامم والاوطان . وكان له في الثامن عشر من الشهر الحالي حفلة علنية، وسع فيها مجال القول ، فتنافس فيه الزعماء بالخطب الطوال ، وخلا لهم الجو فطلبوا الحرب والنزال ، وهذا ما حكته (بل مل غازيت) من واقعة تلك الحال .

كان الحفل معقودا برئاسة (ادوم دون) الانكليزي نائبا عن الفوضويين من قومه ، فخطب هذا الرئيس في راس المال وفي الحكومة ، وجهر بانكارهما جميعا. ان راس المال واجب الابطال وان الحكومة لا فائدة منها على كل هيئة وفي كل حال . ثم دعا الناس على اختلاف الاجناس ان يتحدوا للتعاون على ازالة هذين العدوين العادين على الديمقراطية ، اي الاوساط والعامة من الخلق .

وتلته (مس لكونت) وكيلة الفلاة الاميركيين فاقترحت على المؤتمرين اثبات مجيء الساعة التي لا بد من ان ينوب فيها الفعل الفاصل عن الانتظار والامل . فان راس المال هو الداء الملم بأميركا وأوروبا معا ، الا وان الولايات المتحدة لم

---

٨ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٦٠ ، تاريخ ٤ آب ١٨٨١ .

تنل شيئا من النعمة في هذه الاعوام الاخيرة الا بالعنف والقوة . فالعنف هو السلاح الذي ينبغي استعماله الان .

ثم وقفت (مدام لويز ميشيل) الفرنسوية المشهورة بالاقدام والاغراق في الاباحية ، فذكرت شأنها واذكرت بما تسعى اليه وانها تتخيل منذ عشر سنين هبوب العاصفة التي تهدم آخر سدة وآخر هيكل .

وتلاها خطيب باريسي فأعلن ان المؤتمر الفوضوي قد اوجب استبدال القول بالفعل وحكم بنقض الهيئة الاجتماعية الحاضرة . قال : وما الجمهورية في فرنسا الا صورة جديدة من صور الظلم فلا بد من ابادة جميع الحكومات .

ومن بعد ذلك عرض المسيو (سكوب) توجيه الملام على الذين حكموا بالعقاب على (مست) محرر جريدة (فريهت) الالمانية الاجتماعية التي كانت تطبع في لندرة. وقال الموسيو (كتس) من بعده انه يأمل ان الاغنياء والنبلاء من الانكليز يلتمسون العفو والرحمة من الفعلة والفقراء قبل مضي ستة اشهر من هذا التاريخ .

ثم وقف (البرنس كرابنكين) الروسي الموكل عن الاجتماعيين والفوضويين المقيمين في جنيف بسويسرة فشكر سعي الذين قتلوا القادة (الجنرالية) الروسيين وقال لم يبق للفلاح الروسي الا ان يتمثل بالفلاحين الفرنسيس الذين ثلوا عروش الامتياز عام ١٧٨٩ وأذاقوا الظالمين كؤوس الفناء .

وقد انتظم لهذا المؤتمر الغريب عدة جلسات غير التي مر بيانها، ولكنها كانت سرية محجوبة الوقائع . ولو اعلنت لما زادت السواد الاعظم من الناس الا ازدراء بأهل الغلو ، فان الفاعل والصانع والتاجر والزارع الذين هم أركان الهيئة الاجتماعية ينفرون عن هاتيك الوساوس ، علما منهم بأن الطرفين يلتقيان فالاطلاق بلا قياس يفضي الى الاستعباد والفوضى بلا قسطاس تؤدي الى الاستبداد والافراط في اي امر يماثل التفريط فيه والتناهي غلط وخير الأمور الوسط فهم يلتمسون الحرية الحقة التي هي حفظ الحقوق وأداء الواجبات والتزام الحدود وان لا ينيل المرء الا باستحقاق ولا يسفل الا بذنب ولا يرأس الا برضى ولا يحكم الا بقانون ولا يحكم عليه الا بحق ولا يكتف الا ما ينبغي ولا يخاف في حقه احدا من سائر الناس ولا يعارضه احد منهم في حرية الضمير .

على ان احد نواب الانكليز عازم على استخبار وزير الداخلية عن سبب اغضائه عن انعقاد هذا المؤتمر في لندرة . فاذا عثرنا على الجواب أوردناه في وقته . بيد اننا نحدس ان الوزير يجيب ان ليس في قانون الدولة ما يوجب حظر مثل هذا الاجتماع ، وانه ساقط عن نفسه فلا موضع للخوف منه .

***

في العدمية (٩)

زعم البعض ان العدمية قد استجمعوا للموبقات ، وانفردوا بالمنكرات ، فمن مذهبهم ، المثبت لفساد مشربهم ، انهم لا يؤمنون بالله .

نعوذ بالله من هذا الكفر المبين . ولكنا لا نحسب العدمية شيعة دينية فان كان اولياؤها على الجحود فلا يكون ذلك من لوازم مشربهم وانما هو فيهم كالنفور من خدمة الدين في احزاب الجمهورية .

ومن ذلك المذهب انهم يقولون بالاشتراك في العرض والاموال ، وهي بدعة جديدة لم يسبقهم اليها احد من الناس .

عفوا ان العدمية لا يحسبون العرض مشاعا ، بل العرض لا يحتمل الشيوع فهو النفس ، او النسب ، او الشأن ، ولا نعلم له من معنى يصح فيه الاشتراك. فان كان الزاعم يكني به عن النساء على وجه جديد من المجاز فالقول منقوض عليه من وجهين الاول ان العدمية لا يجيزون الاشتراك في الزوجات والثاني ان هذه البدعة غير جديدة بين الناس . فالمرمون في اميركا يشتركون في نسائهم ، والكومون في فرنسا يوجبون تقاسم الاموال .

اما العدمية فهي الطرف المقابل للاستبداد في الهيئة السياسية . قاله وكتور هيكو (١٠) ولعله أعرف بالحقيقة ممن ذهبوا ذلك المذهب .

ومشربها مقاومة الشر بمثله . فالعنف بالشدة ، والعسف بالفيلة ، والشنق بالطعن ، والنفي الى سيبريا بالحبس بين جدران القصور .

ومقصدها اعنات المستبد ، وتنبيه الخواطر ، وتحصيل الحقوق ، ورفع لواء الحرية ، وكسر شوكة الاستعباد . ونعم القصد لولا ان وسيلته آخذة بشيء مما يبعث عليه .

---

٩ ـ من مقالاته . أعيد نشره في الدرر ص ١٩٠ .

١٠ ـ واضح انه يعني فيكتور هيجو Victor Hugo .

حول الحقوق والواجبات

الحقوق والواجبات.(1)

تمهيد

اقدمت على البحث في هذا المطلب والساذج الفطري مقدام .

أعلم من نفسي العجز ، ومن ذهني الضعف ، ولا أجهل صعوبة المبحث ، واختلاف الطرق ، وتنوع المذاهب فيه الا انني اجد من النفس ارتياحا اليه، ومن الفكر انبعاثا عليه ، وأخال ولعلني من المصيبين ان على كل من الناس واجبا من النظر والبحث في كل ما يتعلق بذاتية الانسان ، والهيئة الاجتماعية بما يأمل منه حصول النفع لهما جميعا . وان وجوب هذا الامر مستلزم لحق القيام به .

فأنا فيما أحاول اخطأت فيه او كنت مصيبا ذو واجب ينهض بما وجب عليه ، وذو حق يأخذ بما حق له .

ولا التمس لنفسي عذرا فيما عساه ان يؤخذ عليّ من ضعف حجة ، او فساد بيان ، او ضيق معرفة ، او التواء معنى ، اني أعرض لاخواني في الانسانية ما علمت وما علّمت وليس الذي علمت وعلّمت كثيرا ، فان اصابوا بين السقط

---

1 ـ مقالات نشرها في التقدم ، الاعداد 1 و2 و3 و4 و5 و9 و17 و23 كما هو مبين في بداية كل قسم ، وأعيد نشره في الدرر الصفحات 274 ـ 290 .

الذي يلفظ ، شيئا يحفظ ، فلا أسف على الجهد والا فلست اول مخطىء في الناس ، ان اولهم اول ناس .

***

المبحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات (٢)

البقاء من لوازم الوجود . فالانسان من حيث انه موجود مكلف بحفظ ذاته ترشده البداهة الى معرفة نواميس الطبيعة الضامنة لذلك الحفظ . والحيوان الناطق داجن مؤالف بالطبع . فالانسان من وجه انه مدني مكلف بحفظ نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ .

فذلك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي ، وهما طبيعيان لازم وجودهما في الناس لزوم العلة المبقية ، للعلة الموجدة .

فاذا تبين ذلك علم انه لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذينك الواجبين ، فثبت له بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليه .

فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الآخر ، فمن استلب ذلك الحق نريد الحرية الطبيعية ، فقد منع الانسان من قضاء الواجبات واهان النوع البشري ، وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانه وتعالى ، اذ كيف يستطيع المرء حفظ ذاته اذا منع مما لا بد منه للبقاء . وكيف يحفظ نوعه اذا قطع عما لا ندحة عنه في الاستبقاء .

وهذا الحكم وان كان ظاهره مقصورا على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ الوجود الانساني ذاتا ونوعا ، الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة المدنية ، فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع ، قد اوجب عليه صيانتها بقانون ادبي على مثال الناموس الطبيعي ، فكانت أحكام ذلك القانون كما قال منتسكيو حكيم الفرنسيس بيانا للصلات الضرورية الناتجة من طبائع الاشياء ، فلزم من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته واجب يقضيه بحق يعينه على القضاء .

فاتضح من هذا الذي بسطناه ان الواجب غاية واسطتها الحق ، فمن اوجب الاول ، لزمه اعطاء الثاني . ان الله تبارك وتعالى لم يمنح الانسان حقا الا من

---

٢ ـ العدد ١ ، تاريخ ١٠ كانون الثاني ١٨٨١ .

حيث انه فرض عليه واجبا .
فالحق ملزم بالواجب ، والواجب مستلزم للحق .

***

المبحث الثاني

في أقسام الواجب والحق (٣)

تبين مما سلف ان الحق والواجب متلازمان لا يكون احدهما بدون الآخر في حال من الاحوال ، فكل ما نعينه من واجب يتناول حقا وكل ما نبينه من حق يحتمل واجبا .

ومعلوم ان كل موجود عاقل كلف بذاته ، حريص على حفظها ، فان اول ما يظهر من عواطف النفس الشاعرة بالوجود ، انما هو حب الذات ومن أحب شيئا حرص عليه .

وان حفظ النوع من أحكام الطبيعة . فطر الانسان على الرغبة فيه كما هدت البداهة سائر الحيوان اليه . فهذا الحكم الطبيعي منتج بالضرورة للحالة الزوجية التي ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ، ثم يراها من حيث انه عاقل فرضا واجب القضاء ، فتبث في قلبه ميلا جديدا يتحد بحب الذات فينشأ عنه في النفس لذة لا تنال ، ولا تدرك في العزلة نريد الحب الجامع بين الجنسين ، الواصل بين الزوجين ، الذي تنوعت مظاهره في عالم الوجود ، والمّ على اختلاف تجلياته بكل موجود . فهو في الزوج عشق ، وفي الوالد حنو ، وفي الولد بر ، وفي الاخ وداد ، وهو هو في كل حال يفعل في النفس الطاهرة ، ويؤثر في القلب السليم الى حد ان يلتبس امره على الانسان فلا يدري أكان قائما بواجب من الطبيعة ، ومتوليا من ذلك الواجب حقا ، ام كان مائلا مع الشهوة ، ساكنا الى اللذة ، آخذا بما يجلب له الرضى والسعادة .

فهذا الحفظ النوعي وذلك الحفظ الذاتي يتعلقان بالانسان من حيث هو اي من حيث انه من النوع البشري . فهما منشأ الحق والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاول من الحقوق والواجبات .

وظاهر ان للانسان في الحالة الاجتماعية شأنا جديدا ينتقل فيه من الزواج الى الاسرة وهي العائلة ، ومن الاسرة الى الامة ، ومن الامة الى الانسانية ، فله من هذه الوجوه حقوق معينة وعليه منها واجبات معلومة . فما يختص بالعائلة

---

٣ ــ التقدم ــ العدد ٢ ، كانون الثاني ١٨٨١ .

من هذه الحقوق والواجبات من وجه المعاملة الشخصية . والحدود الملكية . وما يمس الامة من حيث اقامة الامور ، وصيانة الاستقلال ، ووجود المساواة . ومـا يتعلق منها بالانسانية من حيث تقريب الصلات ، وتأمين الوفود ، وتيسـير التجارات ، وتمكين السلم ، وحفظ المصالح العمومية. كل ذلك يعرف بالواجبات والحقوق السياسية .

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقا بالمعاملة بين الافراد من وجه كف الظلم ، ومنع الاعتداء ، وحفظ الحق ، وصيانة الضعيف من القوي ، ووقاية الفقير من الغني ، ورد المال المسلوب ، ومعاقبة الظالم ، وارضاء المظلوم ، واجراء سائر انواع المعاملة على محور الاستقامة والعدل . كل هذا يسمى بالحقـوق والواجبات المدنية .

ولهذه الاقسام الكلية فروع كثيرة نذكرها في عرض ما يجـيء تفصيلا او تحصيلا .

***

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية (٤)

وهي أحكام الشرائع الطبيعية النافذة في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية ، وكل سياسة مدنية .

وقد وجد لهذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القـوة الحسية ، والقوة المعنوية ممن يتسلطون بأيديهم على الابدان ، وممن يستولون بألسنتهم على الاذهان . اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم أربابها ، وهؤلاء لم يأخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها . وما بين الفريقين معظم النـوع الانساني حاشية يتبعون ، او عبيد يطيعون ، حتى استنارت الافهام ، ونشطت من ربق الاوهام ، فصار او كاد يصير لكل من الناس حـد لا يتعداه ، وخط لا يتخطاه .

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم ، القادر العليم ، منزه عما يخالف الحكمة ، ويغاير القدرة ، ويناقض العلم الحق . فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايتـه الازلية ، ان هي الا كلمته الحق المعروفة من ازل ، الباقية الى ما لا يزال الكافلة لحفظ الوجود ، بوقاية كل موجود . ولذلك عرفت في كل زمان ومكان . وما اختلف فيها اثنان . فقد بدت لارسطو ، كما ظهرت لبسكال ، ورآها افلاطون ،

---

٤ ـ التقدم ، العدد ٣ ، ١٧ كانون الثاني ١٨٨١ .

كما شهدها نيوتن ، وتبينت لشيشرون ، كما علمها فولني ، وانجلت لسائر المتبصرين فائقة على القدرة الانسانية ، غير متغيرة في حال من الاحوال ، حية في قلب كل انسان ، منقوشة على الواح الصدور ، واحدة في كل الازمنة والامكنة والاشخاص ، بقدرة الذي أوجد الازمنة والامكنة والاشخاص .

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي ، فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات . وتصل بين جنسيه فينشأ عن هاته الصلة واجب الجنس ، فتصدر منه العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حبا ، وان كان موضوعها المولود سميت حنوا او حبا والديا ، وان كان موضوعها الوالدين سميت برا او حبا ولديًا . وتصل بينه وبين ابناء نوعه فينشأ عن هذه الصلة واجب حفظ النوع ، فتحصل منه العاطفة المسماة حب الانسانية .

فما اعظم حكم خالقه وما أعم العناية الرحمانية . ان الله سبحانه وتعالى ما فرض علينا الواجب الا من حيث تميل النفس ، وتنعطف الارادة ، ويسكن الطبع ، فقد كانت شرائعه الطبيعية عواطف نفوس ، وشهوات قلوب ، قبل ان تكون أحكام فكر وعقل ، فهي الحب الجاذب الواصل الحافظ الذي ذكره الشارع الثاني في «وليحب بعضكم بعضا فهذه هي الشريعة وهذه هي النبوءات» ولا ريب انه جدد النواميس القديمة جملة بهذه الكلمات .

وأيضا فقد وصلت الاحكام الطبيعية بين الانسان والاشياء ، فكان المرء حرا في استعمال ما يحتاج اليه في واجبات الحفظ فهو في حالة الطبيعة مالك للعالم بأسره ، الا ان هذا الحق غير مخصوص بواحد من النوع وانما الناس فيه سواء ، لكل منهم ما للآخر بلا فرق ولا استثناء . فالعالم من حيث انه للكل لا يكون لواحد منهم بالذات وانما يتمتعون به على حد سوي . ولكن لما كان موضوع هذا التمتع الحفظ ، كان من حق الانسان استعمال كل شيء فيه ولم يكن من حقه الافراط في شيء .

هذه أصول الاحكام الطبيعية متضمنة لما يختص بها من الحقوق والواجبات اوردناها مجملة كما رأيت ، وسنفصلها في المباحث الآتية كما سترى .

***

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية (٥)

فصل

تبين في البحث السابق ان حفظ الذات ، رأس الحقوق والواجبات الطبيعية

---

٥ ـ التقدم ، العدد ٤ ، ٢٠ كانون الثاني ١٨٨١ .

فثبت بذلك ان الانتحار اي قتل المرء لنفسه مخالف للحكم الاول من القانون الطبيعي . الا ان هذه القضية وان كانت مسلمة لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدمة الصحيحة ، فلم تسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين . فقد رأينا منهم جماعة يجيزون الانتحار ويبرئون مرتكبيه بأدلة مما يلائم ضعف الفطرة البشرية ، فتألف الاذهان ما يقولون وان كان مخالفا للحق . فلولا ان تكون هذه المباحث مقصورة على المبادىء الاولية ، والاصول الكلية من الحقوق والواجبات ، لاوردنا الكثير من أدلتهم مشفوعة بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين . على اننا نذكر من ذلك ما لا يخرج بنا عن حد الاجمال والاختصار ، مستوعبين فيه أهم ما استدل به على جواز الانتحار .

يقول نصراء هذه الجريمة ان الحق الطبيعي قائم بالتماس الخير ، ودفع الشر ، فيما لا يضر بأحد من الناس . فاذا صار الانسان الى الحال التي تكون فيها الحياة شرا عليه، ولا تكون خيرا لسواه ، حق له الانتحار بل كان واجبا عليه.

ونقول ان في هذا الدليل فرض محال لامتناع تجريد الانسان من خيرية الوجود ، في حال من الاحوال . على ان هذا المستحيل بتقدير امكانه لا يجيز الانتحار للواقع فيما يحسبه شرا مطلقا بما كان فيه من ضعف النفس ، وما طرأ عليه من اليأس . فان الشقاء حادث عارض على المرء بما كسبت يداه لا جناح ولا تبعة فيه على وجوده الطبيعي ، فليس من الحق ان يؤخذ ذلك الوجود بما لم يصدر عنه وان تكون الطبيعة مسئولة عما ليست منه في شيء .

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرأة على خطر العار ، والرجل على خوف الاهانة ، والوطني على اليأس من سلامة الوطن ، وكيف يخطأ من مات جليلا كراهة ان يعيش ذليلا ، او ليس ان كاتون الروماني العظيم الشأن قد انتحر فرارا من الذل وحرصا على الشرف الذاتي ، فهل منع ذلك من ان يعد من عظماء الرجال ؟

قلنا ليس الشرف الطبيعي الا كرامة الذات فهو من هذا الوجه فرع من الحفظ الذاتي لا يمسه شيء من العوارض المعنوية ، ولا يحق التصرف فيه لغير الارادة الطبيعية ، فاذا نصبت للمرء حبائل من الحوادث ، او طرات عليه عاديات من الظلم ، او ألمت به عوارض من الفساد المدني فانتحر بسبب من هاته الاسباب ، فاما ان يكون ذلك منه عن خوف من المصاب والضعف عن احتمال الالم، فهو جبان يخرج من ساحة الحرب قبل انحسام القتال ، وإما ان يكون عن قوة الفساد الحادث فيه فهو ضحية للشرف المدني ، والراي العمومي فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشأن ، عليّ المكان ، الا مجرما مذكورا ، ومخطئا مشهورا. ولا نراه وان عد شديد الوطنية ، عظيم الهمة الا محبا للسطوة ، حريصا على السلطة ، لم يمت كراهة للحياة بعد حرية رومة وانما مات اسفا على زوال السطوة عن مجلس الشيوخ .

وجملة القول ان استبقاء الذات من الواجبات الطبيعية ترشد اليه البداهة ،

وتبعث عليه العواطف النفسية ، مما يخالفه الانسان الا اذا طرأ عليه من الفساد ما ينسيه كل حق ، ويشغله عن كل واجب .

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبة على كل موجود من الانسان ، كذلك يجب عليه صيانة تلك الذات عن كل ما يجلب لها الالم ، او الضعف ، او النقص ، او الشوه كائنا ما كان وفي اي سبيل كان ، مما يخرج عن حد افتداء الكل بالجزء كما سنبينه في الفصل الآتي .

***

فصل (٦)

تقرر فيما سلف وجوب حفظ الذات ، وحرمة قتل النفس . ومن المعلوم ان ذلك الوجوب قاض بصيانة الذات عن كل ما يجلب اليها الضعف ، والحطة ، والفساد ، وان هاته الحرمة ملزمة بوقاية النفس من كل ما يعود عليها بالضرر والهلاك . فان حفظ الوجود يتناول لا شك معنى استبقائه صحيحا كاملا سليما كما وجد ، وحرمة القتل تشمل لا ريب حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود ، من وجه انهما متلفتان للموجود .

فكل ما يؤلم البدن او يضعفه ، او ينقص منه شيئا لازما فهو مخالف لحكم الطبيعة ، مباين لحكمة الخالق . لان الهيكل الجسماني الناهض بالواجبات الطبيعية ، اما ان يكون (على رأي اهل المادة) قائما بذاته ، حيا بتركيبه ، غنيا عن كل مدد روحاني فإضعافه او ايلامه او اذلاله مغاير لمبدأ الحفظ الواجب طبعا ، وإما ان يكون (على رأي الروحانيين) بمنزلة الآلة لقوة روحانية تحار فيها الافكار، ولا تدركها الابصار . فافساده على هذا الوجه مضر بالنفس مناقض لحالتها الكمالية ، مباين لمبدأ الحفظ المفروض شرعا . وهذا الهيكل الحيوي على الوجهين سواء كان قائما بذاته او بما فيه لا يكون انسانا ما لم يقم بالواجبات الطبيعية الانسانية ، ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل له الحرية فكل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييدا او إضعافا او محوا كليا ، فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود، لان العبودية اما ان تكون اجبارية فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود ، وإما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل ، وعمى قلب، يخرج بهما عن ان يكون انسانا .

فمن عرّض نفسه لعاديات الطبيعة من الحر ، والبرد ، والجوع ، بما

---

٦ ــ التقدم ، العدد ٥ ، ٢٤ كانون الثاني ١٨٨١ .

يوسوس فيه الجهل مختارا في ذلك غير مضطر له ولا ملتمس منه نفعا قريبا معلوما ، ومن عدا على البدن بما يؤلمه من ضرب ، وجلد ، وتمزيق ، واهمال ، بما يزين له الوهم راضيا في ذلك غير مكره عليه ، ولا مستفيد منه له شيئا ، ومن شوه الجسم ، او اسقط منه عضوا لازما سعيدا كائنا ما كان ذلك العضو بما يموه له الطمع او الخيال الفاسد عامدا في ذلك ، غير مجبر ولا مفتد سائر البدن بذلك الجزء ، كمن يقطع اليد المتغنغرة وقاية لبقية الجسم ، ومن انتزأ على حريته الذاتية بالمحو ، او الانقاص ، او الاضعاف ، بما يبعث عليه الكسل، او الغباوة ، او دناءة النفس ، راغبا في ذلك غير مقسور عليه . كل هؤلاء مخالفون لاحكام الطبيعة ، مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عين الجمال ، ومظهر الكمال ، ومصدر الوجود ، وعلة البقاء . فسبحانك اللهم ما خلقت فينا شيئا عبثا ولكن نحن بأنفسنا عابثون . ولا رضيت لنا شوهـا ، ولا عذابا ، ولا امساكا عما لا يضر ، ولا قيدا ، ولا ذلا ، ولا عنتا ، ولكن اكثرنا لا يعلمون .

ـ عود على بدء ـ أما الافراط الذي هو استعمال الشيء من وجه الزيادة فيه ، والتفريط الذي هو استعماله من جانب الانقاص منه . فهما تابعان لحرمة قتل النفس بما يجلبان عليها من اسباب التلف . فكل ما يضر بالوجود الانساني من الاطلاق ، والامساك ، والبسط ، والقبض ، والاباحة ، والمنع ، والافعام، والافراغ ، مماثل لقتل الذات حرمة ونكرا . فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليه للبقاء والنماء ، وأخذ منه بجانب الزيادة والنقص ، فلا فرق بينه وبين المنتحر الا ان هذا يهلك النفس دفعة ، وذلك يقتلها تدريجا .

***

المبحث الخامس
في الحقوق والواجبات النوعية (٧)

فصل

تبين في المبحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانساني من وجه ملازمته لبقاء الذات . فهذا الواجب ملزم بالتئام الجنسين على صورة يحصل منها البيت او العائلة . وله في ذلك مظهران اثنان مظهر الزواج وفيه

---

٧ ـ التقدم ، العدد ٩ ، ٧ شباط سنة ١٨٨١ .

الواجبات والحقوق الزوجية ، ومظهر النتاج وله حالتان ، الحالة الوالدية ، والحالة الولدية ، وفي كل منهما حقوق وواجبات .

فالعائلة والمراد بها في هذ المقام جماعة الزوجين وما يلدان ، هي الاساس الاول والركن الفرد في بقاء النوع ، ونماء الانسان ، وهناء الحياة ، وكمال الوجود بل هي في العالم البشري بمنزلة مركز نور تنبعث منه أشعة الحياة فتنير القلوب ، وتسر النفوس ، وتحيي الابدان ، وترشد المرء الى المقام الرفيع المعد له في عالم الحيوان .

فهي من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعية ، وارومة المحاسن المدنية ، ومعدن الفضائل الاهلية ، لا تحصل بدونها في النفس عزة ، ولا تنشأ غيرة ، ولا توجد رحمة ، ولا يكون اجتهاد ، ولا يكمل شيء من السجايا انسانية والمزايا الاجتماعية . بل لا يكاد الانسان يلتمس من خبايا الارض ، وكنوز الطبيعة ، وثمرات العمل ، ما يفضل عن حاجته الذاتية الا ان يكون ذا عيال من ضعيفات محبات صابرات ، وصبية صغار عاجزين آملين جميعا فيه ، متوكلين عليه ، يخاف عليهم ان يمسهم ضيم ويسره ان يراهم راضين عنه معجبين به ، داعين له بالبركات .

نعم ان حب الانسانية على وجه الاطلاق او المجد الخيالي على حكم التصور قد يكون هو الباعث الاول لبعض الانفس الزكية ، والعقول السمية على اقتحام المصاعب ، واحتمال المتاعب ، في القيام بما يترتب عليه الاثر النافع العميم .

الا ان ذلك فضلا عن كونه حادثا طارئا على الجمعية الانسانية ، غير أصيل في الخلق الطبيعي ، فهو مقصور على دون القليل من الناس . اما السواد الاعظم فلا يعانون متاعب المعاش ، ولا يصبرون على شقاء الحياة ، الا بباعث ادنى الى الحس وأقرب من الطبيعة ، وأظهر لعين الفطرة الساذجة . وبعبارة أوضح لا بد للانسان في الحالة المعاشية من عيال يشعر بحبهم له ، وحاجتهم اليه ، واعتمادهم عليه من دون سائر الناس ، فيخرج باجتهاده في تحصيل المنفعة ، ودرء المضرة عن حد ما يحتاج اليه مع ذلك الاجتهاد ، منحصرا على نوع ما في الحاجة الذاتية من وجه ان الولد قطعة من ذات الوالد ، بل هو عين تلك الذات تقمصت رونق الشباب ، وأعيدت خلقا جديدا ، فهي تقوى به ما دام لها البقاء، وتحيا فيه بعد اذ يدركها الفناء .

فاتضح مما تقدم ان الزواج واجب طبيعي لازم في بقاء النوع ، مبلازم لحفظ الوجود . ولعل هذا هو الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتل وطول العزبة ، من وجه ان الذين هم على حالة من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع ، فتنمو فيهم العواطف الانوية التي لا تخرج عن حد قولنا «انَا» فينشأ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشية ، المعروف بحب الذات .

فاذا تقرر ذلك لزمنا بيان حد الزواج ، وماهية ما يجب فيه ، وما يحق

للزوجين وايضاح ما يترتب عليه من الحالة الوالدية والولدية وما يلزم في الحالتين من الواجبات والحقوق .

***

فصل (٨)

ظهر مما سلف ان حفظ النوع ملزم بالتئام الجنسين على الصورة المسماة زواجا ، فذلك الالتئام لا يكون الا بالارادة ، ولا يتم الا بالاتحاد . فاذا حصل كاملا تعين فيه على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعا . فان اتحادهما بالارادة يشبه ان يكون ميثاقاً على الاشتراك في اللذة والالم ، والصفو والكدر ، والسراء والضراء .

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعية فلا يلزم الا حيثما لا يضر بالذوات شيئا ، ولذلك وضعت للزواج حدود مبينة ، وأوقات معينة في بعض القوانين . وكان في الحالم الصغير ، والعاجز الكبير ، مكروها على الاطلاق .

ولما كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعية في التئام الجنس لزم ان يكون هو المقصود بالذات فيه ، فاذا جرد القران عنه عمدا كان بمقتضى الناموس الطبيعي جرما ، ولذلك جاءت الشرائع الدينية بالنهي عن الزناء ، واقامت على مرتكبيه حدا من عقاب هذه الحياة علاوة على ما توعدهم من عقاب الآخرة . اما القوانين المدنية فقد اتت بمثل ذلك على حين كانت قريبة العهد من الطبيعة . فلما ان تقدم الناس فيما نسميه الفة وتمدنا ، رفع ذلك الحد من قوانينهم فناب الادب عنه في ذوي النفوس الزكية ، والاخلاق الكريمة والعلم الصادق .

فاتضح من هذا الذي قدمناه ان الزواج ميثاق اشتراك واتحاد مبرم بين الجنسين قضاء لواجب حفظ النوع فهو من هذا الوجه، وعلى هذه الصورة واجب لازم بالذات كما يؤخذ من مآل الحديث الشريف «زوجوهم فان لا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد عريض» .

فاذا تقرر ان الزواج ميثاق مبرم بالارادة لزم من ذلك ان تعد مخالفة شرطه من قبيل الخيانة . فهذه الخيانة تكون في جانب المرأة افظع منها في جانب الرجل من حيث انها (٩) تقضي عليه بأن يعول الولد (١٠) في حالة كونه ليس منهم في شيء ، فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كل شريعة مأثورة . الا ان

---

٨ ـ التقدم ، العدد ١٧ ، ٧ اذار ١٨٨١ .

٩ ـ اي المرأة .

١٠ ـ غير الشرعي .

ذلك النقض يكون في بعض الشرائع طلاقا ، وفي البعض فصلا وابعادا ليس غير.

فالطلاق حكم يعيد لكل من الزوجين حريته الذاتية بحيث يحق له مواثقة من شاء بمثل الميثاق الاول . والفصل قضاء يفرق بين الزوجين حسا مع بقاء الصلة المعنوية بحيث يكون الزواج محظورا عليهما جميعا .

وليس من شأننا بيان حدود الطلاق وشروط الفصل على ما وضعت في الشرائع والقوانين المرعية فذلك يخرج بنا عما التزمناه من الايجاز في هاته المباحث ولكنّا ننظر الى ميثاق الزواج من وجه الحقوق والواجبات الطبيعية مجردا عن كل عقيدة دينية تحيزا في موضوع البحث وحدود المطلب .

فالزواج من هذه الحيثية عقد معلوم الشرط ، والعقد المشروط فيه لا يلزم الا ما دام شرطه محفوظا فان ضيعه احد المتعاقدين ، او أبطله او أهمله عمدا ، كان الآخر في حل من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعه تجيزه بعض القوانين المدنية بعد ظهور موجبه ووضوح وجه الضرورة فيه ، وتأمين الولد من سوء عقباه . وتحلله بعض الشرائع المطهرة صادرا من جانب الرجل لعيب معين ، ومصلحة ظاهرة بعد وفاء النقد على انه ابغض الحلال الى الله . وتقف به بعض سائر الشرائع والقوانين عند حد الفصل على ما ذكرناه اعتقاد انه مما عقد الله على لسان رجال الله ، ولن يحل لانسان حل ما عقد الله ، او مخافة ان يتقوض به ركن البيت ، ويفسد الولد بافتراق الوالدين ، ولكل أدلة من النقل والعقل فيما يختلفون عليه .

***

فصل (١١)

بالزواج يحصل النتاج فتنشأ عنه السلطة والواجبات الوالدية وهي وسيلة استمرار النوع . فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية ، واستبقاء المولود متعين على الولادة فهو واجب تفرضه طبيعة الاشياء فلا مفر للوالد منه ، ولا عذر له في القعود عنه .

ولقد وضع الحد في بعض القوانين على الذين ينبذون ولدهم . ولا شك ان اهمال شأن الولد بعد الولادة يكون من ذلك القبيل ، فان دعوة الموجود في عالم القوة ، الى الوجود في عالم الفعل ، لهي الميثاق على حفظه بتيسير ما يحتاج اليه ، وانماء قواه البدنية والعقلية الى ان يشتد ساعده فيصير كفوءاً لذاته ، فمن أهمل ذلك بلا موجب من الطبيعة ، ومن أقدم على تلك الدعوة مع تحقق

---

١١ ـ التقدم ـ العدد ٢٣ ، ٢٨ اذار ١٨٨١ .

العجز عن المترتب عليها ، فقد ارتكب ذنبا يشبه في بعض احواله القتل .

فاذا تبين استبقاء الولد من أحكام الضرورة الطبيعية ، ثبت انه لا يوجب السلطة في جانب الولد الا بمقدار وجود تلك الضرورة ، ولذلك فالواجبات الوالدية تنتهي من الوجه الطبيعي ببلوغ الولد سن القوة والرشد ، فلا يبقى بينهما من بعد ذلك الا رابط الهيئة الاجتماعية ، والالفة البيتية كما سنبينه في مكانه .

ومما تقدم يعلم ان استبقاء الولد بانماء قواه البدنية والعقلية من الاحكام اللازمة في حفظه ، فالوالد كائنا من يكون ، وفي اية حالة يكون ، مأمورا من قبل طبيعة الوجود بحفظ مولوده ، وتوجيه العناية اليه ، وسد حاجته الطبيعية بالغذاء والوقاء ، وانماء قوته العقلية بما يلزم من العلم ، والجائه الى قبول ذلك منه ان أباه ولذلك وضع الحد على مسقط الجنين عمدا ، وفرض العقاب على قاتل مولوده وحكم بالقصاص على النابذ ، وتقررت في الكثير من هيئات الاجتماع الزامية التعليم .

على ان هاته الواجبات وان كانت كثيرة الفروع ، ثقيلة المحمل ، عظيمة التبعة، فلا ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج . فانه لم يفرض على كل والد ان يجعل مولوده من ذوي المقامات السامية ، وأرباب الثراء الوافر ، وأهل العلم الواسع . وانما يلزمه القيام بالضروري من حاجاته الحيوية ، واصلاح شأنه ، واعداد حسن المآل له بما تصل اليه يد الامكان . قال منتسكيو حكيم الفرنسيس : على الوالد ان يطعم الولد ويحميه ويحسن تربيته وليس عليه ان يجعله ذا ميراث .

ولرب ماهن فقير ، وفاعل لا يملك شروى نقير ، يبث في قلب ولده روح الشهامة والاستقامة ، ويعنى به ما استطاع انماء واصلاحا ، فيكون في ذلك افضل وأحسن سعيا من غني يهتم بالميراث ولا يهتم بالوارث .

وقد مر بنا ان الواجبات الوالدية لا تقف عند حد الغذاء ، وسد الحاجة البدنية ولكنها شاملة لتهذيب الفكر ، وانماء العقل ـ وبعبارة أوضح ـ ان للانسان من حيث انه حيوان وجودا بدنيا ومن حيث انه ناطق وجودا عقليا فمن دعاه الى حيز الوجود بالفعل فقد وجب عليه حفظه في الحالتين .

وبناء على ذلك فالتعليم فرض واجب على الوالدين بلا استثناء الى حد ما يستطيعون . ومن المعلوم ان الحالة المدنية قد وسعت نطاق الضروري من العلم بما نشأ عنها من تفرع الحاجات ، وتنوع الحالات ، حتى عز على كثير من الناس ان يبلغوا بولدهم حد اللازم من المعرفة ، والضروري من العلم ، فصار من الواجب على هيئة الاجتماع ان تعينهم على ذلك بانشاء المدارس المجانية . فقامت الدول المتمدنة بهذا الواجب فلم يبق فيها للوالدين من عذر في التثاقل عن تهذيب اولادهم ، فان فعلوا عنادا او عمى قلب ، تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية بالدعوة ، والحث ، والاغراء ، والالزام . يجب

عليها ذلك من وجه ان المولود ليس ملكا للوالد يتصرف فيه كيف شاء وانما هو لله علة الوجود ، ثم لنفسه ، ثم لهيئة الاجتماع . وهذا هو الاصل في قوانين التعليم الالزامي .

ومن الناس من لا يجد للسلطة حدا ، فيحسب الوالد حرا فيما يجب عليه للمولود ، يفعل من ذلك ما يشاء ، ويهمل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . ومنهم من يقول ان الولد ثمن الولادة ، فمن ملك الشجرة فقد ملك الثمر يريد تقرير استعباد المرأة ، واستبداد الوالد . ومنهم من يعد سلطة الوالد قبلا من استبقائه للمولود فهؤلاء جميعا يرومون تأخير هيئة الاجتماع ، وارجاعها الى ما وراء قرون الظلمات الى العصر الذي كان فيه الولد ملك الوالد يبيعه ويتصرف في وجوده استعبادا ، وقتلا ، وكيف شاء . الى عصر الخشونة والجهل ، الى زمن الاستبداد والظلم ، الى عهد الحيف والفساد ، فقل يا اهل الظلمات حذار . فقد جاء ملك الانوار .

***

حقوق المرأة (١٢)

(الجريء مقدام لا يخاف السيوف وان كنّ عيونا ولا يخشى النبال وان كن جفونا) .

مهلا سيدي الشيخ . لا تنظرنّ اليّ شزرا فلست زير نساء يروم المطارحة ، او المفاكهة او الاغراء ، او الاطراء ، التماس الزلفى اليهن بما يرضيهن ولا يرضيك ويا صديقي خدن الغانيات لا يبرقن بصرك ارتياعا فاني لم اكن مقطعا متبتلا فلا اريد المزاحمة ، ولا المداحمة ، ولا المحاشرة ، ولا المناظرة . ويا مولاتي العجوز المبجلة ما نسيت فيما اقول جمال ماضيك ، ولا ذهلت عن جلال حالك . ويا اميرتي الفتاة الزهراء ما اهملت موجود حاضرك ، ولا اغفلت موعود مآلك .

ويا ايها الاحزاب جميعا اني غير هازل وان هزل الزمان ، وغير هاذر وان افاد فيه الهذيان .

وبعد فلا يحسبني الفاضلان اللذان تناظرا في النساء ـ بالكلام مجرد الكلام ـ في منتدى المدرسة الكلية متعرضا لشيء مما ذكراه . ولكن لا يداخلنهما الظن بأني انقبضت عن ذلك بما اصاب تقرير النبيه البر أفندي المدور على تلك المناظرة فاني معترف لهما بالمزية من قبل ذلك التقرير ولمن بعد عالم علم

---

١٢ ـ مقالة نشرها في التقدم ، العدد ١١ بتاريخ ١٤ شباط ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٢٦٥ .

اليقين ان كاتبه اراد خيرا وانه بريء مما اخذ عليه . ولست في ذلك راجمـا بالغيب ، ولا مستخرجا من القول ما لم يرد قائله . ولكن صاحب التقرير كتب الى هاته الصحيفة يقول «نشرت في لسان الحال تقريرا وجيزا على المباحثة التي جرت بين الاديبين الفاضلين يعقوب افندي صروّف وابراهيم افندي الكفروني في الرجل والمراة ثم رايت في تلك الصحيفة ردا اتى فيه صاحبه من التثريب عليّ ما لم استوجب منه شيئا وما لم اكن اتوقع من ادبه. ومهما يكن من الامر فليس من قصدي المناقشة وتحمير الوجوه ، ولكن اقول ان صاحب هذا الرد قد اخطأ مرادي فيما قررت فاني لم اقصد الوضع من شأن احد المتباحثين كما ظن ، ولا التعرض لتفضيل احدهما على الآخر . وانما اوردت حكمي في نفس البحث الذي كان كلام السالب فيه اقوى وبرهانه أوجه لما ان الوجه نفسه اقـوى وأصح . ولذلك جاءت براهين الموجب ضعيفة في الغالب من جانب ضعف الوجه لا مـن حيث انه قصير الحجة ، او قاصر المعرفة . وأما قوله ان لا بد في الترجيح بين الطرفين من كون المرجح أعلم منهما جميعا فمع اقراري فيه بأني لست مـن اقرانهما ، ولا إدعي في العلم مبلغ صاحب الرد أذكره ان المسألة التي كان فيها البحث ليست من المسائل العلمية التعليمية ، وانما هي من المطالب الادبيـة العمومية التي يتأتى الحكم فيها لكل احد بعد سماع براهينهـا من الطرفين . واقتصر من البيان على هذا القدر امتثالا لما نصحني الاستاذ في آخر الرد ووقوفا عند الحد الذي رسم متبرئا مما نسب اليّ من سوء القصد» .

رحماكنّ سيداتي فقد خرجت عن موضوعكن الرفيع الى غير المقصود منه . ولكن لا جناح عليّ ولا تثريب فانه لا بد لمن يتجرأ على مس الكاغد لتزيينه باسمكن الشريف ان يطهر قبل ذلك من كل شبهة وريبة . فان لم تقبلن هذا القول عذرا قلت موضوعكنّ شامل عميم اراه في كل شيء وارى كل شيء فيه فالخروج عنه من جانب دخول اليه من الف جانب . والشغل عنه من جهة شغل به مـن سائر الجهات .

فاذا تمهد بذلك سبيل المغفرة قلت اروم بيان حقوق المراة ايّما ، وزوجا ، وأمًا لم يدعني الى ذلك داع من جانب القلب ، ولم يهدني سبيله دليل من قبـل الفكر . ولكن رايت فيه فصلا شافيا جديد الوضع ، ظاهر النفع ، للفاضـل (ليكوفه) الفرنسوي فعرّبته ما استطعت وما شاء المقام ، خدمة للآباء ، ونصيحة للازواج وهدية لسيداتي النساء جميعا .

قال الفاضل المشار اليه ، ان مسألة النساء موضوعة في هذه الايام موضع البحث في (التياتر) الملاعب ، والكتب ، والجرائد ، والمنابر . وان كثيرا من اهل النظر والنقد في كل مكان يطلبون او يعرضون اسبابا لاصلاح شأن النساء حتى ان جمعية العلماء فرضت خمسة آلاف فرنك جائزة لمن تحصل له الاجادة فـي هذا البحث . ولذلك رايت ان أجرد المسألة عن الابحاث المتنوعة ملتمسا وجـه الحق والامكان في موضوعها الاصلي وهو المساواة فأقول .

اول ما يعرض في هذا البحث تعريف «ما هي المراة» ، وهو سؤال مهم دقيق من حيث ان بقية المسألة متعلقة به ، مترتبة عليه . فلنعد الى الماضي عساه ان يعيننا على هذا التعريف .

كان في معلوم قديم ان المراة «ملحق» لرجل «حاوي خير» ونراها عند القبائل المتوحشة تحمل الاثقال ، وتعتقل السلاح ، وتنهض بفادح الاعمال . فهي فيهم بمنزلة «خادم الرجل» . وقد سأل سائل في مجمع من الرؤساء في القرون المتوسطة «هل للمراة من نفس» واذا رجعنا الى الفلاسفة والشعراء الاقدمين راينا بعضهم يقولون المراة ملك كريم ، وبعضا شيطان رجيم . ولعلهم جميعا مصيبون ولكن ذلك لا يحصل به الحد المطلوب .

وقال منتسكيو في القرن الثامن عشر ان الطبيعة ميزت الرجل بالقوة والعقل فليس لسطوته من حد سوى تلك القوة ، وذلك العقل . وخصت المراة بالبهجة فسطوتها تزول بزوالها . وهو راي عجيب صدوره عن مثل هذا الحكيم فان المراة تقضي ثلاثة أرباع الحياة قبل حصول تلك البهجة او بعد فقدانها فكأنما هي موجودة «لانتظار موعود وبكاء مفقود» ليس غير .

وزاد في ذلك روسو على كونه من القائلين بالنفس المجردة فقال : المرأة وجدت لترضي الرجل فاذا لزمه ارضاؤها فهذا دون ذاك وجوبا . ان الرجل يرضى بمجرد كونه قويا . وأقول «ما الذي يفعل الضعفاء ..» .

ثم بدت الثورة الفرنسوية فانتصر للنساء رجلان من كبرائها فعارضهما في ذلك خطيب رهيب . عارضهما (روبسبيار) رسول المساواة الكبير الذي لم ينس من رسالته غير نصف النوع الانساني . ثم جاء حكم الرجعة الملكية فقال حكيمها (بونال) «الرجل والمراة غير متساويين ولن يتساويا ابدا» .

وخلاصة هذه الاقوال ان في السماء كواكب ثانوية توابع ليس لها من شأن سوى الدوران حول الكواكب السامية على سبيل الخفارة كما هو شأن القمر حول الارض ، فالمراة على رأي القدماء قمر الرجل ولقد يكون للكوكب الواحد من مثل المشتري بضعة أقمار . وبعبارة أوضح ان القدماء يعرفون المراة بأنها كائن عاقل منخفض الرتبة موجود بالنسبة .

ولكن هذا التعريف لا يليق بالقرن التاسع عشر . بل نقول جهارا ولا نخاف انكارا . ان المراة مساوية للرجل ولكنها غير الرجل فرفعها الى المقام الذي تستحق لا يكون بمماثلتها للرجل فان ذلك مفسد لطبيعتها ، مغاير لخلقها . وانما يحصل بانمائها وتقديمها استمرارا من جهة انها امراة بحيث توجد المساواة مع الفارق .

هذا مذهبنا في المسألة وسنبحث عن وجه الحق والامكان فيه ناظرين الى الانثى من وجه كونها فتاة ايما ، ثم زوجة ، ثم أما ، ثم امراة على وجه الاطلاق .

***

البنت (١٣)

اما ترى في الحجرة مقعدا خشنا عاريا ، وقابلة او طبيبا متأملاً مراقبا ، ورجلا مغبر الوجه يدعو الله فثم امراة على وشك الولادة . او ما تسمع من تلك الحجرة صوتا غريبا يليه من جانب الحضور اهتمام وارتباك فهناك مولود جديد يتساءلون عنه . فيقول قائلهم بنت ولطالما اسودّت الوجوه بمثل هذا القول في العصور الخالية . بل سل اليوم عنه فلاحا ما ، يجبك بما اجابني . مزارع بريتوني سألته كم ولدك فقال «آه يا سيدي لا ولد لي وليس عندي غير بنات» .

وما احسب هاته العاطفة ناشئة مجرد احتقار واستخفاف . ولكن الابن في بيت الشرف والامارة هو الذي يصل النسب ، ويبقي الاسم . بل نحن الاوساط على اختلاف الدرجات لا نكاد نرى من سد لحاجة الحب الوالدي الا في مولد الابن . فان كنا من اهل الصناعات ، رجونا ان يكون متمما لما شرعنا فيه ، او كنا من اهل التجارة ، راينا بعين الامل متجرنا ناميا متسع النطاق باسم فلان وابنه ، او كنا من الفعلة ، علمنا الابن مهنتنا واحيينا به الاسم . ولا يحسبنّ الحرص على الاسم مقصورا على الشرفاء فان للاوساط ايضا نسبا عاليا من الاستقامة . اما مولد البنت فلا يوجد شيئا من هذه الاماني ، بل المخاوف كثيرة فيه . فان كل اب بعيد النظر يتساءل يومئذ ما مصير هاته المولودة . فان كان فقيرا خاف عليها الشقاء ، وان كان غنيا خشي الالم المعنوي ، وان لم يكن لها من باب رزق سوى الشغل الذاتي فكيف تصيب الكفاف في هيئة اجتماع لا تكاد النساء يرتزقن فيها ما يقيهن الموت جوعا . وان لم يكن عندها نقد (معكوس الوضع) فكيف يتيسر لها الزواج في هيئة قضت على النساء بشراء الازواج . وان لم تتزوج فكيف توقى العثار ، فان عثرت فكيف تنعش في مجتمع تعد فيه سقطاتها وتسجل . واذا شاخت ايما بتولا فذلك موضع الوحدة والحرمان والشقاء من جانبها ، ومحل الاستهزاء والانكار وسوء الظن من جانب سائر الناس . فانهم يلتمسون لعزبتها على الغالب سببا غير الفقر . فيرمونها بالنزق وينسون موجبه . ويرشقونها بتكلف العفة ويذهلون عن انهم بطهارتها عابثون . على انها تكفر هاته السيئات الناشئة عن طبيعة حالتها بألف مظهر من الاختصاص والشفقة . فان وجدت في اهلها كانت بمنزلة الجدة الخادمة المدبرة ، وان كانت مقطوعة الرحم انهمكت على فقرها بانماء الزهور ، وتربية الداجن من الحيوان ، ومساعدة صغار الفقراء تعلمهم ، والايتام تلبسهم ، وتكون بمنزلة الام لهم جميعا.

---

١٣ ـ مقالة نشرها في التقدم ، العدد ١٢ ، بتاريخ ١٧ شباط ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٢٩٩ .

وانّا لنرى في حياة البنت ثلاث مسائل اولية الشأن «الميراث» و«التربية» و«التصبّي» فأما الميراث فلم يبق فيه محل للخلاف عندنا (الافرنج) بما حصل من السواء بين اناثنا والذكور فيما يرثون .

وأما التربية فالعلم موضع الخلاف عليها . ولقد كادت حجة الانثويين تكون هي الغالبة فيها عند الغربيين . على اننا لا نزال نلتمس للنساء تقديما ، ولا نعدم من انفسنا جماعة من المعارضين يقولون اذا علّمت الانثى زال عنها رونق البهجة . فانها لا تأخذ بمجامع القلب الا لكونها لا تحتج ولانها طائر يغرد ، وطفل يعبث ، وقلب يحب فكيف يحصل فيها الحب اذا لهت عنه بشواغل العلم . فنذكر لهم مدام دي سوينيه الكاتبة المشهورة مثلا في اجتماع الامرين فيقولون دعوها وشأنها فمذهبكم ان لم يكن مفسدا لخلق الانثى فهو ناقض للهيئة العائلية لامحالة فانه كيف يصلح شأن الصغار ومن يعتني بأمورهم اذا كانت الام ترصد الكواكب. فالبنات على رأيكم قد يكنّ عالمات ، ولكنهن لن يصرن ازواجا ولا أمهات . فكأنما هم يحسبون شأن الزوجة والام مقصورا على الطباخة ، او نظارة الطاهي والخدمة ، او مراقبة الخادمين والاهتمام بالمصلحة الحسيّة وأمزجة اهل البيت . بل لا يبلغون هذا الحد فيما يرون وانما يحسبون ذلك الشأن محصورا في الحب والرضاعة ، والتعزية ، وما يعلمون ان للزوجة والام فوق ذلك شأنا اعظم من ذلك الا وهو الارشاد والتربية المستلزمان للمعرفة . وانه لا ام الا حيث يكون علم ، ولا زوجة الا حيث يكون عرفان . على انه ليس المراد من كشف أسرار الطبيعة لافهام النساء ان تكون بناتنا جميعا من علماء الفلك والطبيعة ، ولكن المقصود به اضاءة البابهن بأنوار العلم اعدادا لهن للمشاركة في آراء الرجال وتعليم الاولاد . ويذكر هؤلاء المعارضون مفاسد تعليم النساء ، وينسون مخاطر الجهل . وما تبتئس المرأة ضجرا الا انها جاهلة ، ولا تنفق لزوجها رزق شهر في شراء حلي ، ولا تقوده عند المساء الى الملهى مريضا او مجهودا الا بذلك السبب اي لانه حجب عنها العلم ، وأغلق دونها باب النباهة فلم يبق لها الا سبيل البهرج والزيغ . فرب رجل هزأ بالعلم على كونه لو حصل لزوجته لكان منجاة له من العار .

وزاد الكاتب الفرنسوي على ذلك ان لو فرض ان العلم لا يفيدنا من النساء شيئا فهو من حقوقهن الواجبة علينا . أوليست الانثى من الخلق من عباد الله من ذوي النفس الباقية ، وان الحالة الزوجية والحالة الوالدية حادثتان طارئتان عليها يبطلهما الموت ، وتقطعهما الغيبة ، وتكونان في بعض النساء دون بعض . وان لها فوق هاتين الحالتين صفة مقدمة عليهما جميعا وهي الانسانية . فبهذه الصفة ومن هذا الوجه يحق لها لامحالة تهذيب فكرها وفؤادها . فان حال بينها وبين ذلك عارض من احكامنا اليومية ، فهي تطالبنا بنور العلم باسم الابدية .

وأما تصبي البنات فلا نرى من حاجة لتعريب ما قال فيه ذلك الفاضل للفرق الذي بين حالتنا وحالة قومه في هذا الامر الخطير ، فهو عند الفرنسيس موضع نظر واهتمام من وجه ان قانونهم لا يوجب على مرتكبه حدا ، ولا يلزمه احصان

البكر التي جرها الى الفاحشة وان تصبَّاها بوعد الزواج ، خلافا لما نص عليه عندنا في الشرع والقانون ولذلك نرى الفحشاء في بناتهم اكثر منها في بنات أوطاننا ، بل هي فوق الكثير عندهم ، ودون القليل في هذه الديار .

***

الزوجة (١٤)

قال الفاضل (ليكوفه) نقول ان الزوجة ونريد الزواج فهي اياه وهذا الموضوع اوسع من ان نحيط به في مثل هذا المقام ، فلا نمس منه الا ما يتعلق بسلطة الزوج .

ونعلم ان الباحث في اصلاح شأن البنات يستميل اليه الآباء جميعا . فاذا حاول الزيادة في حقوق النساء فقد استنفر منه جميع الازواج . ومع ذلك فاني أسوق الحديث الى هؤلاء راجيا هدايتهم الى اصلاح قانون الزواج بما فيهم من العدل والانصاف .

ان سلطة الزوج تكون على الذات وعلى المال . فأما سلطته على الذات فقد كان موضوعها التأديب . ذكر لنا (بومنوار) قانونا من العصور المتوسطة من حكمه «يحق للرجل ان يضرب زوجته على شرط الرفق» وقد ابطلت آداب الاخلاق هذا الحكم في الدرجات العالية من الناس الا انه لا يزال مرعيا في العامة يأخذون به وقد لا يحفظون الشرط . ولكن لحسن البخت صار الرجل اذا ضرب زوجته فهي ترد اليه واحدة بواحدة جزاء وهذا من علائم النجاح . ومع ذلك ما برحت أذكر اني سمعت سائق مركبة يقول مشيرا الى السوط «هذا كفيل السلم في اهل بيتي» فقلت له أتضرب زوجتك ؟ قال لا شك ولا ريب . قلت وفيم ؟ قال هذا فرسي أسوطه اذا لم يجر . قلت: ان زوجتك لا تقاس بالفرس . قال وذمتي صدقت فانها أشد عنادا منه . قلت ذر العناد أليس من النذالة ان تثور غضبا على امرأة ؟ قال تمهل يا سيدي اني اضربها ولا يمسني غضب .

فمن ذا يصدق ان الفيلسوف (سنيك) اجاب بمثل ذلك صديقا كان يأخذ عليه شدة غيظه من العبيد بل لا غرابة في ذلك فان الاستبداد يرمي بسهمين فيصيب العبد بالظلم ، والمالك بالفساد .

ثم أبان فاضلنا المشار اليه وجه سلطة الزوج على المال فلم ينكر ان لا بد لادارة البيت من رئيس فرد يكون فيه بمنزلة الملك في الامة ، ولم ينزع هاته الرئاسة

---

١٤ ـ مقالة نشرها في التقدم ، العدد ١٤ ، بتاريخ ٢٤ شباط ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٠٣ .

عن الرجل ولكنه اوجب فيها التقييد وأنكر الاطلاق . فاعترض على قانونهم الناطق بأن للرجل حق التصرف في مال زوجته ادارة ، وبيعا ، وهبة بلا اجازة ولا استئذان . وان المراة لا تستطيع ادخارا ولا قرضا كائنا ما كان ذلك القرض، ولا هبة ، ولا قبول هبة بلا رخصة سابقة من الزوج في حالة كونه يأخذ من شاء ويعطي ما شاء بلا حساب ــ قلت اعترض على هذه الاحكام ــ بما ينشأ عنها من المضار والمفاسد من حيث ان الرجل قد يكون دنيء النفس ، ضعيف الهمة ، ذا ملكة مفسدة من مثل القمار ، والسكر ، والفحشاء . فيبدد متاع البيت ، ويضيع مال الزوجة ويجعلها والولد في اسوأ حال ، وما ذلك نادر الوجود في الرجال . ثم تصور لهذا الداء دواء يحسبه شافيا فقال اذا رات المراة من زوجها مثل ذلك الفساد فليكن لها حق رفعه الى مجلس من اهل البيت يكون نافذ الحكم. ولتكن ادارة البيت على مثل ما قال بلوترخوس لصديقه بوليتانيوس اذ التمس بعيد زواجه رايه في معاملة العروس فقال : يا صاح ان اخترت الحكمة فاجعل حجرة الزواج مكان رياضة ، وشرف ، وعرفان . فزين عقلك بكل نوع من المعارف الضرورية لزوجتك من كل جانب كما تفعل النحل واجلب اليها كل ما تحسبه مفيدا فانك الان بمنزلة ابيها وأمها . وما قول المراة الفتاة لزوجها انت ناظري وأستاذي في كل شيء حسن بأقل نبالة من قولها له انت الحبيب الاول . وقد يوجد من جهلة الفرسان من اذا ملك جوادا كريما راضه بداءة بدء على الركوع وهذا مثل الازواج الذين يقترنون بنساء كرائم من بيوت نبالة فلا يعنون بجعلهن اكثر احتشاما وأوفر علما من ذي قبل . بل يؤثرون على ذلك تذليلهن من حيث يجب اعلاء الهمة ، ورفع النفس كما يرتفع رأس الجواد الكريم .

قال فاضلنا : واني أعرض هاته الحكمة لجميع الرجال فانها متضمنة لكل ما يجب عليهم . فاذا تزوجت بنتا فتاة فاعلم انك زوجها وأستاذها معا . ومهد لها سبيل الادارة والحكم في الامور العمومية . فانه من مستشنع الامور ان تكون المراة قاصرة في الرابعة عشرة من السنين وتكون كذلك في الثامنة عشرة . فعلى زوجها ان يبلغ بها حد البلوغ بما يعلمها من القوانين والاحكام . ولا يخافن من ذلك الميل والحنو ، فان الحب يوجب التساهل حتى في القانون .

وبعد فلا بد للرجل من تصور زوجته ايما ارملة . فانه قد يفاجئه الموت فتصير اليها ادارة الامور . فان لم تكن معدة لذلك بعلم سابق ، واختبار سالف، فلا تستطيع النهوض بهذه المهمة بخلاف ما لو كانت من العارفات الخبيرات . ولنا في ذلك مثال لا ننساه ان وطنينا الخالد الذكر المنقذ الوطن ــ بريدتيارس ــ قد مات بلا عقب يحفظ له اسمه ، ويحيي مجده . ولكن مات عن زوجة كريمة فكان بها الفناء فانها تولت ادارة ثروته الوافرة ، وحفظ مجده العظيم . فنظمت بنفسها مشهدا وطنيا لميت لا يموت له ذكر ثم رفع تمثاله في (ننسي) فرأست في الحفلة بمهابة الملكات . وأقيم له تمثال آخر في سين جرمين فسارت اليه فألمّ بها داءها القاتل . ثم جمعت أشتات رسائله وخواطره فألفت منها سفرا

جليلا حتى اذا فرغت منه واصلحت الصفحة الاخيرة ماتت مبقية عندنا ذكرا وعبرة لا تموت . ورأينا منها عظمة الارملة فعلمنا كيف ينبغي ان تكون النساء .

***

الواجبات بقدر الحقوق (١٥)

آية الحكمة في عالم الوجود ، وسنّة العدل في هيأة الاجتماع ، ان يكون الحق والواجب متعاقبين متلازمين ، يتبع احدهما الآخر وينشأ عنه وجوبا . فاما ترى حقا بلا واجب يعادله فلا ترج هناك عدلا ، وإما تجد واجبا بلا حق يماثله فلا تطلب ثم انصافا .

فواجبات الامم تختلف بحسب اختلاف احوالها ، ولا تكون على اي حال الا بمقدار ما لها من الحقوق . مثلها في هذا الشأن كمثل الفرد من الانسان له او عليه كهلا كامل الرجولة ، موفور قوة البدن والعقل ، ما ليس له ولا عليه يافعا او صبيا ، او طفلا لا يعي شيئا .

فكلما نقصت حقوق الامة بالحجر ، والقهر ، والاذلال ، رفعت كلفة الواجبات عنها بمقدار ذلك النقص ، وكلما وفرت حقوقها في الحرية والسواء من طريق العدل ، كثرت واجباتها فيما يحفظ تلك الحقوق ، ويمنع من انقلاب نفعها ضرا ، وتحول خيرها شرا .

فان كان القوم عبيدا ارقاء يصدعون بما يؤمرون ، ويكرهون على ما يكرهون ، ويمحون الارادة من مجموعهم باثباتها لواحد منهم اطلاقا ـ

وان كانوا عمي النواظر ، موتى البصائر ، لا يرون الا ما ينعكس عليهم بضياء نار ، ولا الوهم يتعقّلون الا ما كان منحصرا في دائرة التقليد ـ

وان كانوا آلات صماء يدارون فيما لا يعلمون ، لما لا يستفيدون منه نفعا ، ولا يعلمون له قصدا ـ

فهؤلاء ليس عليهم من حرج ولا تثريب فيما يبدو من ضعف عزائمهم ، والتواء قلوبهم ، وقعودهم عن واجبات ذوي الحقوق الموفورة الا بقدر ما يؤاخذ الطفل على كسر الاناء ، والصبي على ايثار اللهو . فقد قيل ان ضعف الهمة ، والنفاق ، والاهمال ، صفات ملازمة للرق ، والخوف ، والذل . فان مررت بقوم يظهرون غير ما يضمرون ، ويقولون غير ما يعتقدون ، ويتغاضون ، عما يجب عليهم ـ فاعلم وقيت السوء انهم في موضع استبداد ، ومكان استعباد . وان رأيتهم على

---

١٥ ـ نشرت في الدرر ص ٤٣٩ .

خلاف ذلك ينطقون بالحق ، ويجهرون بالصدق ، ولا تبعد الحرية فيهم من رزق ولا تقرب اجلا — فأنت ولك الهناء في جنة عدل وفردوس انصاف .

وان كان القوم احرارا مختارين فيما يقولون ويفعلون ، مما لا يخالف حكم العدل ، ولا يخرج عن حد السواء —

وان كان الامر شورى بينهم ، ينفذ الحكم فيهم بهم ، ويكون الاثر منهم لهم ، فهم الآمرون فيما يأتمرون ، وهم الحاكمون فيما يطيعون —

وان كان اميرهم الذي عقدت عليه القلوب ، ورئيسهم الذي اجتمعت له الآراء، وسراتهم الذين اعلاهم الفضل —

فهؤلاء لا عذر لهم في ضعف الهمم ، وفساد النفوس ، واهمال الفروض ، فان حق الحرية ملزم بواجب العدل ، وحق الاختيار بواجب النزاهة ، وحق الامر والحكم بواجب التدقيق والانصاف ، وجملة هذه الحقوق المدنية والسياسية بواجب افتداء المصلحة العمومية بالمصلحة الذاتية .

ولقد كنتم اهل مصر في الزمن السالف على عهد الجور والاستبداد عبيدا ارقاء مستضعفين ، تسلب نعمتكم ، وتهتك حرمتكم ، ويستحل فيكم سائر ما حرّم الله فلا تعرفون لانفسكم حقا ، ولا تجدون للنجاة من الضيم سبيلا ، فلم يكن عليكم من حرج في اهمال واجبات الوطن من دفع الاذى عنه ، وجلب النفع اليه ، وبذل النفائس والنفوس فيه ، لان هذه الواجبات لا تلزم الا عن حقوق معلومة من مثلها فاذا سلب الحق سقط الواجب اللازم عنه .

اما وقد بدا لكم طالع التوفيق في المظهر الشريف ، فنجوتم من اسار العبودية، وحصلت لكم البعثة الوطنية ، فنلتم الحق الذي كان مسلوبا او مضيعا من قبل — فقد لزمكم الواجب المتعين على سائر ابناء الاوطان الحرة في العالم الانساني لا ندحة لكم عنه ، ولا بد لكم منه ، او ينعكس الامر ، ويلتوي القصد ، وتختل الاحوال ، ويسوء المنقلب والعياذ بالله .

أجل وليس الذي نلتم او كدتم تنالون من الحق يسيرا لتسامحوا في اغفال الواجب اللازم عنه ، فقد أهرق الانكليز من اجله دما عزيزا ، واهلكوا مالا كريما، ولم ينالوه الا بمرور الايام ، وكرور الاعوام — وتلاهم الفرنسيس في طلبه أواخر المئة الماضية فتهالكوا عليه، واستماتوا فيه ، وتبعهم سائر الاقوام من بعد الى هذا العهد . فمنهم من فاز به جملة كالاميركان والهولنديين والبلجيكيين وغيرهم ، ومنهم من اخذ منه بنصيب كالنمساويين والايطاليين والالمان والعثمانيين والاسبانيين ، ومنهم من لا يزال في سبيل السعي اليه كالروس والكثير من الامم الشرقية ألا وهو الحكومة العادلة الحقة الشوروية .

نلتم هذه الحكومة بلا قتال ولا جدال من مكارم امير صادق النية ، بعناية وزير صحيح الوطنية ، بسعي رجال أصفياء الطية ، رأوا في قلوبكم جذوة غيرة فأضرموها ، وآنسوا من انفسكم شعلة همة فأوقدوها ، واضرموا الغيرة بالاقدام، واوقدوا الهمة بحسن الاهتمام ، فاهتديتم بمنارهم ، وسرتم على آثارهم ، فألفيتم لدى الامير جانب رضى واشتمال ، وعند الوزير مكان قبول واقبال ،

فانتقلتم بسرعة توشك ان تنفي ان الطفرة محال . فأنتم اليوم على مراحل مما كنتم فيه بالامس ، احيا الله ميت وطنيتكم من الرمس ، وصرتم في عداد السعداء تحت مطلع الشمس ، فأعيذكم بالفضل ان تذهلوا عن واجبات هاته السعادة وتلك الحياة .

ان الوطني الحر – وقد صرتم وطنيين أحرارا – مرعي الحق الذاتي والحق المدني والحق السياسي ، آمن على الروح والعرض والمال ، من السلب والهتك والاغتيال ، فلا بد له من حفظ الاحكام القاضية بتلك الرعاية ، والتزام الحدود المعينة في تلك الاحكام .

والوطني الحر – متأهل بقدر المستطاع للخدم والمناصب العمومية على وجه الاطلاق ، جدير بحسب الاستحقاق للرتب والكمالات المدنية بلا استثناء ، فلا بد له من بذل الهمة ، وصرف الاجتهاد فيما يجعله حريا بالشرف ، قويا على خدمة الوطن ، عارفا بحقائق احواله ، واقفا على آثار ماضيه ، ودلائل آتيه ، مهذب الفكر ، مطهر القلب ، مثقف الطباع .

والوطني الحر – مساو لجميع اخوانه في الوطنية والحرية ، معادل لهم في الحقوق المدنية والسياسية ، فلا بد له من رعاية حق السواء ، الى حد الاخاء، بحيث لا يتولاه العجب والتيه في الرفعة والنجاح ، ولا يناله الحسد والبغضاء في الحطة والاخفاق ، بل يكون على حد ما قيل :

وما انا فيما سرّني متطاول ولا انا فيما ساءني متقاصر

فيسعى ما وصل اليه امكانه في سبيل خدمة الوطن لعلمه بأن الامة الحرة كآل البيت الواحد ، يسعون في طلب الرزق على اختلاف الطرق والمقادير ، ويأوي كل احد منهم الى المنزل مساء بما رزقه الله ، فيكون سعي واحدهم للكل وكلهم للواحد .

والوطني الحر – متأهل لانتخاب نواب الامة المنتدبين لتقرير الاحكام ، وجلب المنافع ، ودرء المفاسد ، وتنظيم الاحوال ، وصيانة الحقوق ، واعانة الحكومة على القيام بالامر العمومي – فالواجب عليه ان يكون بصيرا خبيرا على بينة مما يترتب عليه النفع ، ومعرفة بمن يصلح لهذا الامر ، ونزاهة عن الفرض الذاتي وبعد من التقليد بلا رشد ، لا يقع اختياره الا على النبهاء النزهاء ، ولا يصدر في رأيه الا عن الرشاد والسداد ، ليأمن على وطنه ان تكون النيابة فيه لفاسد يسلك طريق الشر ، او جاهل لا يهتدي سبيل الخير .

والوطني الحر – جدير بالنيابة على شروط لا تتعدى كثيرا من القوم فلا بد له من استكمال صفاتها ، ونيل معداتها ، من العلم بشؤون الامة ، واحوال الوطن ، ومجاري الاعمال ، ومواضع الصلاح ، ومظانّ المنفعة ، مع التنزه عن ميل النفس ، وشهوة القلب، والتعفف عن غرض الذات ، وأرب الاثرة، والاخلاص في حب الامة ، والاختصاص بخدمة الوطن ، فان فاته ذلك او بعض ذلك فهو

نائب نفسه ، على ضد ابناء جنسه .

وجملة القول ان الوطني المرعي الحقوق ، الفائز بالسواء ، المؤهل للانتخاب صادرا منه وموسودا اليه ــ هو المأمور والآمر والمحكوم والحاكم والمسوس والسائس والمسود والسائد وهو القائم بنفسه على نفسه ، والعامل بذاته لذاته ، فالكل به منه فيه اليه ــ وهي اعلى مراتب الوجود الانساني وارفع درجات الاجتماعي المدني ، فلا بد للمرتقي اليها من اداء حقها ، واقامة واجبها سعيا واجتهادا ، وجودا بالمال والروح ، وطلبا للمعارف والعلوم ، والتماسا للفضائل والكمالات ، بحيث يصادف فيها محلا ، ويكون لها اهلا .

وقد يسر الله للامة المصرية ارتقاء هذه الدرجة او قرب الوصول اليها بما قيّض لها من مكارم الامير ، ومظاهر الأجتهاد والغيرة والوحدة الوطنية ، فلزمها القيام بالواجبات المترتبة عليها ، والتأهل لها بما تقدم بيانه من المزايا الوطنية ، والفضائل المدنية . ولا شك ان ذلك لا يحصل الا بعموم المعرفة ، وانتشار العلم، وهو ما نأمله فيالحكومة السنية ، وما نرجوه من اهل الثروة والوجاهة والحمية.

نأمل في الحكومة توسيع نطاق المعارف بتكثير عدد المدارس ، وتمهيد سبل الطلب ، واعلاء شأن العلم ، وانشاء المكاتب الابتدائية في المدن والقرى ، وفتح باب المجانيّة في التحصيل ، وتمهيد سبيل الالزام بالتعليم ، ولا أسف على النفقة في هذا السبيل فانها كنفقة الزارع في شراء البذر يثمر خيرا ، وتنبت الحبة منه مئة حبة .

ونرجو من ذوي الوجاهة والحمية الاقبال على مفارس المعارف بالنجدة المعنوية ، والمساعدة المالية تمثلا بنظرائهم في الاقطار الغربية فهم أولى الناس بهذه المحمدة المشكورة يحيون بها آثار آبائهم ، ويسعدون احوال ابنائهم ، فيثبت لهم التاريخ ذكرا لا تمحوه الاعصار ، ما تعاقب الليل والنهار .

حول الشرق

الهند (١)

(الهند تهذب العالم بلغتها وعاداتها وشرائعها وأساطيرها)

ان الشاخص من اوروبا الى الهند حاملا تذكار التمدن من بلاده ، ينذهل من اول وهلة ويخال انه يحمل الى هذا الشعب انقى معرفة ، واطهر ادب فيتكلف ذكر كلمات تنبىء بما رآه من تعصب وخشونة حيث لا يرى سوى بعض عـــادات ومواسم لا يدرك كنهها ، وتماثيل اصنام تروعه ، فيعود الى وطنه هازا كتفيه وقد قلّ من رغب من السياح البحث في شأن الهند ، وندر من تنازل منهم الـــى النظر في ما فيها . وانهم لم يروا سوى الظاهر منها ، فهم لذلك لا يعلمون من بعده شيئا . وزادوا على ذلك زعمهم انه ليس بها غير ما علموا ، وايدوا ذلـــك ببرهان غير مستقيم مخافة ان يحكم عليهم بالجهل . قال جاكمون : ماذا ينفع السنسكريت (لغة الهند المقدسة): وافتخر بهذا الوهم فأنشأ تأريخا جديدا للشرق تناقله الناس من بعده ، واستقبلته خزائن الكتب وهو اليوم ينبوع الخلل الذي يؤلف ثلاثة الارباع مما يعلم اهل اوروبا عن هذه البلاد ولا يزال ثمة كنوز مخفية من فصاحة وتأريخ وآداب وحكمة . على انه يكاد يكون مستحيلا ادراك الغاية من معرفة حال هذه البلاد بدون اتخاذها مقاما . والتمكن من معرفة السنسكريت لغة البلاد القديمة ، والتامول اللغة العلمية فانهما الواسطة الوحيدة لمعرفـــة

---

١ ـ كتبها سنة ١٨٧٥ ، ونشرت في الدرر ص ٢٦٨ .

حقيقة الحال . ولا بد لي من ملامة بعض المترجمين والكتاب على ثقة بوفرة علمهم حيث كانوا لا يبحثون في معنى الاشعار والمقالات الدينية الهندية على ما يقتضيه التحري فهم لذلك يخطئون بقصد الاصابة . ولا ينكر ان في تعلم السنسكريت صعوبة وانه يقتضي لادراك معانيها استجلاءها من التوجيهات والاستطرادات والتصورات الشعرية المعترضة في صدر تلك الكتابة . وزد على ذلك ان للسنسكريت اصطلاحات وتصاريف ليس ما يقابلها في اللغات الحديثة ولا يدرك كنهها الا بالاستلماح والتقريب ، وذلك يقتضي الدرس الطويل الذي لا يتيسر اجراؤه الا في تلك العادات والشرائع والتقاليد وكل ما وصل اليه الاوروبيون من معرفة حال الهند ليس من العلم بشيء ، والوصول الى الغاية من ذلك تقتضي استئناف الاستطلاع واعادته من أوله فاذا تم ذلك نرى ان الهند أم الجنس البشري ومهد تقاليده . وانه لا يكاد العمر يكفي لتلاوة ما ابقته لنا الهند القديمة من كتب في الآداب ، والشعر ، والفلسفة ، والمذهب ، والشتّى من العلوم والطب . على ان ذلك سيتم بالصبر فان جماعة من العلماء تألفوا في بنغال ابتغاء جمع كتب الويدا وترجمتها «الى ان قال تعريبا» :

سلام يا ارض الهند الازلية يا مهد الانسان . سلام ايتها الام التي لم يستطع كرور الدهور وغارات الايام ان تلقيك في حيز النسيان . سلام يا وطن الايمان، والمحبة ، والشعر ، والعلم . لله كم أتمنى ان يكون ماضيك مستقبلا ، لقد عشت في غور غاباتك العجيبة معالجا ادراك اسرارك ، فأوحى اليّ نسيم الليل وهو يزف عليها هذه الكلمات الرمزية الثلاث : زيوس . جيوفا . برهما . فسألت البرهميين والكهان تحت الهياكل والآثار شرح ذلك ، فكان جوابهم الحياة هي الفكر ، والفكر هو معرفة الله انه كل شيء ، وفي كل شيء . واستنطقت طائفة العلماء فقالوا الحيوة هي المعرفة ، والمعرفة هي استطلاع صفات الحال الحسنى. فقصدت حكماءك قائلا مالي اراكم منتصبين هنا من ستة آلاف سنة وما هو هذا الكتاب الذي تقلبون صحفه فتبسّموا وقالوا الحيوة هي نفع النفس والناس ، وحيوة المرء حسناته ونحن نتعلم ما يجعلنا ذوي نفع وحسنات من هذا الكتاب كتاب ويدا وهو كلمة الحكمة الازلية علة كل علة ، المنزل على آبائنا . وسمعت الشعراء ينشدون ، والحب والزهور والحسن تحمل اليهم وحيا إلهيا . رايت الفقراء يبسمون في الالم على فراش من ضرام ، وكأن الالم يروي الله عن الله. ثم صعدت الى ينابيع الكنج وهناك الوف من الهنود يجثون للشمس المنتشرة على ضفتي النهر المقدس وقد حمل اليّ النسيم هذه الكلمات «الارز قد اخضرت وريقاته في المرج والنارجيل اثقلته أثماره فلنشكر لمن وهب» . على اني مع صدق هذه الامانة وسمو تعليم علمائك ، وحكمائك ، وبرهمييك ، وشعرائك ، قد رأيت بنيك ايتها الام المسكينة ضعفاء ، خاملين منغمسين بالجهل ، مستسلمين بلا شكوى لما يسلب دمك ، وثروتك ، وافكارك ، وحريتك . فكم سمعت انينا محزنا في الليل في زوايا الغابات ، وضفات الانهار والاجام . فهل كان ذلك صوت ازمنة غابرة ترجع النواح على التمدن المنقوض، والعظمة الفقيدة،

ام هو أنين جنودك السباهيين السيبائيين ، وهم في المعترك مع نسائهم واولادهم غداة الفتنة ، يلومون أنفسهم على ما تولاهم من الجزع ام هو صوت الرضعاء يشتكون الجوع وقد سلبهم الموت وألداتهم . فلله من قوم يبسمون واليد بالحديد تعلو رؤوسهم ويتكلمون بالزهو والمجاعة تبتلعهم ليموتوا بغتة كأبطال الرومان . ويجتفرون بأيديهم أجداث مجدهم القديم وآثارهم واستقلالهم . فماذا عساه ان يكون سبب هذا الانقلاب . فهل هو فعل القرن فقط ، وهل قدر على الشعوب ما قدر على الآحاد من الفناء كيف هذا ولا ازال اسمع البرهمي ، والعالم ، والحكيم ، والشاعر ، يذكرون فضائل الاجتماع ، وخلود النفس ، والايمان بالله . وأرى الشعب شاكرا لمن وهبه ارضا كثيرة الخصب ، وسماء كثيرة النور . الا اني ادركت غاية ما يفهم ، فرأيت ان الشعب قد عرض طهارة ايمانه للتعصب الوخيم ، وحريته واستقلاله للرق الاليم . فأردت ان اكشف الستر عن الماضي باحثا في اصل هذا الشعب الذي بات بلا قوة في الموادعة ، والمباغضة ، غير مائل الى الفضيلة ، ولا الى الرذيلة كمن يمثل تتمة دوره لدى أشباح وهكذا استنطقت التقليد في الهياكل ، والآثار في الخرائب . وتصفحت كتب الويدا التي كتبت من ألوف من السنين قبل ان تخطط ثيبة ذات المئة باب وبابل العظمى ، فسمعت شكوى الاشعار القديمة التي كانت تنشد تحت أقدام برهما قبل وجود رعاة مصر العليا واليهودية . فبرزت لي الهند حينئذ بسطوتها الاصلية ، فتأثرت تقدمها مستنيرا بما ألقته من الاضواء على العالم . فرأيتها وقد علمت آدابها ، وعاداتها ، وشرائعها ، ودينها . لمصر وفارس ، واليونان ، والرومان . ثم شهدت سقوطها حين اوهنت الشيخوخة شعبها الذي ارسل أشعة نوره الى العالم ، ووسم الامم بسمة لا تمحى حتى ان الدهر الذي محا ذكر بابل ونينوى وأثينا ، ورومية ، لم يستطع ان يمحو ذكرها .

***

أحوالنا (٢)

رأينا في صحيفة الديار الصادرة في الثامن عشر الشهر «......» (٣) بأحوال مصر ، تقلبت فيه بين الحصر والاطلاق ، والتعميم والتخصيص ، فقالت ما محصلته ان ما حصل في مصر وفي الاستانة من قبلها ، يؤيد حجة القائلين ، بأن

---

٢ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤٣ ، تاريخ ٢٥ نيسان ١٨٧٩ .

٣ ـ غير واضح في الصورة .

الدول الشرقية عموما ، والاسلامية خصوصا ، لا تدخل (....) (٤) النجاح ، ولا تسلك مسالك الدنيا ، فان أمراءها قد «....» (٥) الاستبداد فرسخت فيه أصولهم ، ونمت عليه فروعهم ، فلا يستطيعون الصبر على سيطرة المراقبين وتجنب المحاسبين . فاذا وعدوا بذلك فهم مخلفون ، واذا عاهدوا عليه فهم ناكثون . ولذلك لم يثق الاوروبويون بما صرح به الجناب الخديوي من عزمه على التقيد برأي نواب الامة ، والاخذ بأسباب الشورى ... ولكن اذا كانت طبائع الدول الاسلامية مفارزة للاحوال المدنية ، فهل يقتضي ذلك محو اسمها من سجل الوجود ؟ وهل ينبغي ذلك بل هل يمكن وعلى فرض هذا فهل تجيز أحكام الحرية ان يكره عليها من لا يريدها .. وماذا على اوروبا ان لم تستقر الشورى في الاستانة او المحروسة او كابل ، وان لم يحصل اهلها على الراحة بعد العناء والسعادة بعد الشقاء ... لاجرم ان بث أنوار النجاح من فروض ذوي الانسانية، واخراج العالم الشرقي من دركات الرق والاستبداد الى درجات الحرية والشورى من واجبات العالم المتمدن . الا ان هذه المقاصد الجليلة ذات نتائج وبيلة تعود بالضرر على اوروبا فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه . ومما تقدم يظهر ان التداخل الكلي في أحكام البلاد الشرقية ، على مثل ما حصل اخيرا في وادي النيل ، لا يجلب خيرا ولا يدفع ضيرا . فهلاّ رجعت اوروبا الى مبدأ الحماية تشد ازر قناصلها ، فيقوى بذلك عضدهم ، وتضعف دول الشرق . ولا ننكر ان هؤلاء القناصل يتجاوزون احيانا حدودهم . الا ان عواقب تلك المجاوزة لأسلم من نتائج التداخل . وقد ثبت ذلك بما فعل الجناب الخديوي في هذه الايام ، من عزل الوزيرين الاوروبوين ، كأنما هما من وزراء الترك الذين ينصبون اليوم ليعزلوا في غده . فما عسى ان تفعل انكلترة وفرنسا بعد ذلك .. لا ريب ان أشد ما تستطيعان معاقبة الخديوي به هو ان تتركاه وشأنه ، يجول في دائرته الضيقة، ولا يستطيع الخروج ، حتى تحمله الحاجة على الالتجاء اليهما ، فهو لامحالة معلق أمله باعانة مالية جديدة . ولكنه لن يجد في انكلترة ولا في فرنسا من يحقق حلمه او يلبي دعوته . فليفعل الان ما اراد ، فانا سنرى كيف تكون العاقبة وكل آت قريب .

ان العاقبة للمستقيمين الآخذين بأسباب العدل ، القائمين بأمر الحق ، الذائدين عن الوطن ، المعتصمين بعروة الاتحاد ، الذين لا تزدهيهم النعمة ، ولا تضعف انفسهم النقمة . ذلك ما تجيب به صحيفة الديار عما توعدتنا في ختام مقالتها . اما قولها ان الدول الشرقية عموما والاسلامية خصوصا لا تألف المدنية، ولا تستطيع دخول ابواب النجاح ، ولا تقوى على جعل امرها شورى ، فإننا لا نكاد نراه جديرا بالرد . فهلاّ رجعت هذه الصحيفة الى التاريخ تراجعه قبل الحكم

---

٤ ــ غير واضح وربما كانت «ابواب» .

٥ ــ غير واضح في الصورة .

الفاسد المبني على الوهم او هوى النفس ، لتعلم ان المدنية قد رفعت «....»(٦) اعلامها ، وضربت فيه خيامها ، على حين كان «.....»(٧) غالية وحوشا يسكنون القفار ، ويغتذون بثمر «.....»(٨) انسان الغرب على جلالة قدره ورفعة شأنه «.....»(٩) حجاب الجهالة عن بصيرته الا بيد التمدن العربي ولم يهتدِ الى الخروج من ظلمات الضلالة ، الا بما اقتبس من أنوار العلم الشرقي . فان أنكرت ذلك فهذه شروح ابن رشد ترشدها الى الصواب ، وهذا شفاء ابن سينا يشفيها من مرض الغرض ، وهذا حي ابن يقظان يوقظها من رقدة التعصب . وان زعمت انّا وان اصبنا من العلم نصيبا فلم نصب من الشورى والحرية شيئا ، فهذه آية (وشاورهم في الامر) وكلمة القائل للحجاج (لو رأينا فيك عوجا لقومناه بحد السيوف) ، تشهدان في محكمة العدل بأن من يتهمنا بالنفرة عن التمدن لفي ضلال مبين . اذ كيف يعدم الانسان الشرقي ما كان من غرائزه منذ حين ، أفليست هذه ارضه ، وهذا هواؤه ، وذلك ماؤه وتلك سماؤه ؟ لقد والله اساء الافرنج حمل النعمة ، ولم يشكروا حق المنعم . على ان الشرق وان كان مجده الان :

تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الانفس

فانه لقائل بلسان حاله :

لي في ضمير الدهر سر كامن لا بد ان تستله الاقدار

فيا بني الشرق نبهوا طرف الفكرة من رقدة الفناء ، وانشطوا من عقال الخمول ، وأثبتوا للغرب انكم بضعة القوم الذين وطئوه بمناسم خيلهم ، وأناروه بجذوة فضلهم . ويا اهل مصر لقد ترامى بكم الاقدام الى حيث لا يبلغ الامل ، ولا يقطع الاجل ، فأنتم بين ان تتخاذلوا وتدينوا للسطوة ترهبونها وللمنفعة الذاتية تطلبونها ، فتحمل عليكم الايام بأسنة صروفها على اختلاف صنوفها وتجلبون اليكم الاجنبي ترسخ في بلادكم قدمه وتقوى عليكم حجته ، و(بين) ان تثبتوا للواجبات تقضونها وللحقوق تحفظونها ، فتستقيم احوالكم وتحصل آمالكم . وان بلغ المرء آماله فليس له بعدها مقترح . نقول ذلك ونحن على علم بأنكم لا تجهلونه ولكن :

---

٦ ــ غير واضح .

٧ ــ غير واضح .

٨ ــ غير واضح .

٩ ــ غير واضح .

الراي يصدأ كالحسام لعارضٍ يطرأ عليه وصقله التذكيرُ

***

الاعتدال (١٠)

انلتمس من الزمان سلما ، ونرجو من الايام راحة ، اذا لقد غفلنا وما كنا من الراشدين . أولسنا في الكون الذي وجدت عناصره وقامت عوالمه بين جــذب ودفع وصد وردّ وسلب وايجاب لحكمة تاهت بها العقول ، وحارت الالباب . فلا حياة فيه الا بالموت ، ولا موت الا بالحياة ، ولا سبيل الى السكون في عالم هزت يد القدرة سلسلة حركته ، فهو في حركة من أزل الازال الى ما لا يزال .

ام نطلب من الدهر هناء ، ونسأل الانسان عدلا واعتدالا ، اذا لقد جهلنا وما كنا من المهتدين أوليس هو الذي في رأي اهل المعتقد وجـد كامل الخلق عــادل النفس طاهر البشرة مرتفعا بكماله الروحاني عن النقص الحيواني ، فاختار التمرغ في أوحال الخطية ، ومال الى التهور في الاحوال الدنية فحداه ذلك من الكمال الى النقص ومن الغنى الى الفقر ومن الخلد الى الفناء ومن الحياة الى المنية . وفي رأي اهل الطبيعة كان ساذج الخلق صحيح الخلق حر التصرف مطلق التصور يجد في الثمر غذاء وفي الشجر وقاء ومن السماء ماء فقيَّد نفســه بالعادة ، وتصوره بالعلم ومكره بالشرائع ويده بالتمدن فانتقل من العتق الى الرق ، ومن الحرية الى الاستبداد ، ومن سذاجة الخلق الى التركيب المستلزم للفساد .

أوَلا نراه في صدر تاريخه يتخذ من كان مثله اميرا ، بل يجعل من كان دونه معبودا يجهد في الارض حرثا ، ويفتك بالحيوان صيدا ، ويغتال النبات قطعا ، ليجعل من ذلك لاميره طعاما يتنعم به على بساط الراحة والكسل ولمعبوده ضحية لا يحيط بها علما ولا يفقه لها سرا ، متقيدا بوهمه جاهلا بعلمه مهتديا بالضــلال ناقصا بمحاولة الكمال .

أولم نره بعد ذلك طافرا الى نقطة مسيرة يروم السذاجة مع تركيبه التمدني ، ويلتمس الاطلاق مع تقيده العلمي، ويطلب العتق مع رقه الشرعي ، فيحاول الفتك بمن اقامه على ذاته اميرا ، وانكار من جعله لنفسه معبودا .

فهل نسي الاباحي والنهلستي والاجتماعي ان قد اتى على الانسان حين مــن الدهر لم ير فيه للحرية رسما ، ولم يعلم لها اسما ، بل قويت فيه العواطــف الدنية فأماتت قوته الغضبية ودعته الى الذلة والعبودية . ثم تأصلت فيه وتنقلت في بنيه فضربت على حرية نفسه حجابا مستورا ، وجعلته آلة بيد غيره يستعملها

١٠ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤٦ ؛ تاريخ ١٦ ايار ١٨٧٩ .

كما يريد في ما يريد .

وهل فاتهم ان مفسدة الرق امتزجت بدمه واتحدت بروحه فاستقرت قواه النظرية والعملية على نقطة التفريط ، فلم يطلب عنها انتقالا ، ولم يعلم لها كمالا، حتى صارت حكمته بلادة وعلمه جهلا وشجاعته جبنا وإقدامه خوفا وعفته خمودا، فانحط من درجة الانسانية الى دركة الحيوانية ، بل انحط ذلك عن الحيوان اذ فقد ما هو من صفاته المختصة بذاته .

فما بالهم لا يذكرون العادة المتمكنة والتقليد المتأصل والميل الغالب والطبع الجاذب ، ولا يراعون ما سنوا من القوانين ، وما وضعوا من الشرائع ، وما الفوا من العادات ، وما اعتقدوا من العقائد ؟ اذا لقد غدروا وكانوا من الفاتنين، وما مثلهم الا كمثل من بنى لاهله دارا ثم لم تحسن في عينه فأضرم من حولها نارا واحرقها بمن ضمت ظلما منه واعتسافا .

وما بالهم يرومون الانتقال من التفريط الى الافراط لتكون حكمتهم جربذة وعلمهم وسوسة وشجاعتهم تهورا . وإقدامهم جنونا وشهوتهم شرها فيفسدوا كل قانون وشريعة ويزيلوا كل دستور ونظام ويذهبوا بالراحة والهناء ويجلبوا البلية والشقاء . الم يروا بين الطرفين وسطا تكون به القوى الانسانية في الحالة التي وضعت لاجلها ، ام انبهرت ابصارهم بالانتقال من الظلمات الكثيفة الى النور الساطع ، فضلوا السبيل وسلكوا بثبات الطريق . وكانت مساويهم البينة حجة لاهل الاستبداد يحاولون بها ارجاعهم الى ما كانوا عليه كما نرى الان في الروسية والمانيا اذ وضعت الاحكام.الاستبدادية وارتفع شأن القوة الجبرية فامتلأت السجون بالمتهمين وعمرت المنافي بالمدنيين فالتقى بذلك الطرفان وبئست الحالتان .

يتمنى المرء في الصيف الشتا فاذا جاء الشتا انكره
ليس يرضي المرء حال واحد قتل الانسان ما اكفره

بل يرضيه من حاله ما بين طرفيها اي الوسط المعبر عنه بالاعتدال الا وهو الكمال الانساني الجالب لكل سعادة ومحمدة ومنفعة والدافع لكل شقاء ومنقصة ومضرة .

فيا بني الشرق :

اجلكم عن ان تنسوا انكم ابناء الخاضعين لاحكامهم القائمين بأمر حكامهم المطيعين لامرائهم طاعة عمياء المعتقدين لاقوال رؤسائهم عقيدة صماء السائرين الى الحرب تحت الوية قائد يأمرهم بالموت فيأتمرون ، وينهاهم عن الورود فلا يردون.

كما أعيذكم من ان يفوتكم انكم بقية الذين اخرجوا الانسان من مهاوي الجهل والخمول الى مراقي العلم والشهامة ، وبضعة الذين بنوا في الارض طلائع جيوشهم تمهد فيها سبل التمدن وتذلل صعاب الخشونة وتفتح ابواب الرفاهة ، وارسلوا كتب حكمائهم تخرج الخواطر من غيابة الجهل الى مقام العلم ، ومن

ظلمات البلادة الى انوار الحكمة ، ومن مفاوز الضلال الى مسالك الرشد ، وان من سلفكم الكرام ابن باجة والفارابي والغزالي وابن جبرول وابن سينا وابن رشد .
فلا تجعلوا تلكم الذكرى مدرجة للذل وذريعة للعبودية ووسيلة للرضى بالموجود على قلته والصبر على المفقود مع كثرته . ولا تتخذوا الثانية مسببا الى الطيش والخفة والجهل والرعن فتكونوا كمن يتحرك حيثما يجب السكون ، ويقدم حيثما يجب الوقوف بل تدرجوا في مراتب الكمال لتبلغوا نقطة الاعتدال ، فتنتعشوا بعد السقوط ، ويرتفع شأنكم بعد الهبوط ويعلم الغرب ان سادته الذين يعدّهم الان عبيدا لم يفقدوا فضالة المجد العظيم ، وبقية الدم القديم ، فان تناسى ذلك العهد الثابت الاخبار الظاهر الآثار فان :

دار ابن شمعون على حالها   والقيد باق والطواشي صيح

فاذا فعلتم واتخذتم الاعتدال سبيلا والكمال غاية فلا ترهبكم حوادث الزمان ، فانها لم تحدث الا لتكون ممهدة لسبيلكم متممة لعلة وصولكم ، ولا تخافوا العقبات فان وجودها في المسالك دليل على وجوب التدريج فاقطعوها بالصبر والثبات ولا تهنوا ان لقيتم جهدا وعنتا وصادفتم حربا وحرا فانه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق على جوانبه الدم

بل اطلبوا الحرية ولو كانت في جهة الاسد او في قبة الفلك ، فان وجدتم من حولها الاهوال فلا ترجعوا عنها خائفين فهي قصارى الامنية ومنتهى الغاية الانسانية .
نقول هذا وفي الخلد ان للشرق من تاريخه مرشدا بصيرا ، ومن تقليده دليلا خبيرا ، ومن طبيعته قائدا مقداما ، وفي العلم ان هيئته الاجتماعية آخذة في الحركة بعد ان كاد يتولاها السكون وان انواره العلية شارعة في الجلاء والظهور بعد الخفاء والكمون . وفي اليقين ان حكوماته قد عرفت من واجباتها ما كانت تجهله وحفظت من حقوقها ما كانت تهمله فلم يبق الا توازر أفراده على الاتحاد وتضافر آحاده على الاجتهاد وان يبددوا عن سماء الخواطر غيوم التعصب للجنس والمذهب والاصل والمشرب ويتخذوا الشرق موطنا والعدل ديدنا والحق مذهبا والحرية مشربا ليحصل لهم اتحاد الكلمة واجتماع القوة فلا يغتالهم الخصم المداجي ولا العدو المناجي ولا يقوى عليهم الطامعون في أموالهم ينهبونها وحقوقهم يسلبونها وديارهم يتخذونها مرابط للخيل وحقولهم يجعلونها مسارح للانعام وآثارهم ينقلونها زينة لمتاحفهم وأيديهم يستعملونها سلاحا لمقاتلة اعدائهم ومظاهرة أوليائهم ولا يستظهر عليهم الظالمون وان كثر عددهم ووفر مددهم فان القوة المجتمعة اقوى من العدد الكثير .

***

آثار الاستبداد في الدول
الشرقية عموما والدولة العثمانية خصوصا (١١)

زعموا ان للدول اعمارا طبيعية كالاشخاص . فاذا جاء أجلها لا تستأخر ساعة ولا تستقدم . وبينوا لذلك أسبابا منها الترف الذي تقتضيه طبيعة الملك ، اذ تكثر عوائد الامة ، وتزيد نفقاتهم ، ولا يفي دخلهم بخرجهم . فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة ، الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده ، وتمسّهم الحاجة ، فتطالبهم الملوك بحصر نفقاتهم ، فلا يجدون وليجة عنها ، فينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم ، او يؤثرون به ابناءهم وصنائع دولتهم ، فيضعفون لذلك عن اقامة احوالهم ، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم . ثم يعظم الترف ، وتكثر مقادير الاعطيات لذلك ، فينقص عدد الحامية وتضعف بذلك الحماية ، فتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول ، او من هو تحت يديها من القبائل والعصائب وأيضا . فالترف مفسد للخلق ، بما يحصل في النفس من الوان الشر والسفسفة وعوائدها ، فتذهب منهم خلال الخير ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر ، فيكون ذلك علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته ، وتأخذ الدولة مبادىء العطب وتتضعضع أحوالها ، وتنزل بها امراض مزمنة من الهرم ، الى ان يقضي عليها . كذا قرره ابن خلدون في مقدمته ، وما أصحه من قول وادناه الى الانطباق على أحوال الدول الشرقية عموما والدولة العلية خصوصا ، لولا ان يكون قد ذهل عن العلة الحقيقية والسبب الاصلي في الترف والضعف ، وهو استئثار الواحد بأمور الكل يتصرف في اموالهم بما يقتضيه هواه ، حتى تتوفر له اسباب الملاذ فيزداد بها نهمة وشرها . فاذا عظمت العوائد واتسعت النفقات على الرسوم ، طلب المزيد غير مبال بما يترتب على ذلك من فقر الامة الموجب لضعفها ، المستلزم لسقوط قوة الدولة ينفق جميع ذلك فيما ينبغي وما لا ينبغي :

ومن اخذ البلاد بغير حرب ... يهون عليه تسليم البلادِ

حتى تضعف الرعية عن القيام بما يطلب منها ، وما يضرب عليها من الرسوم والأتاوات ، فتصير الى الفاقة الموجبة لذل الانفس وخمول الاذهان وضعف الابدان ، فتضعف الدولة بذلك وتنزل بها أمراض الهرم. وكذلك يتصرف المستبد في أحكامها بما تقتضيه ارادته لا يردعه عن ذلك قانون ، ولا يرجعه نظام ، بل الشريعة ما يخرج من بين شفتيه ، والقانون ما تتوجه رغبته اليه . يغيّر أحوال

---

١١ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٥ ، تاريخ ٣١ تموز ١٨٧٩ .

الدولة واحكامها ، ويبدل اشكالها ونظامها ، ويجعل لكل هيئة رجالا يكون من همهم اذا ولاهم الامر ان يسترضوه بالسعاية في من تقدمهم ، وان ينقضوا ما ابرم السلف ، ويحلوا ما عقدوه ، رجاء ان يكون ذلك مثبتا لفضلهم مبينا لمزيتهم. فاذا اهبطوا من جنة المنصب عاملهم الخلف بما عاملوا به السلف ، حتى تفسد احوال الدولة وتختل امورها ، وتضعف شوكتها وتختلف اهواء رجالها ، فيطمع فيها الاعداء ، ويخذلها الاولياء ، وتتوالى عليها الحروب فتسقط بها القوة «....» (١٢) الحامية ، وتزداد الامة فقرا والدولة هرما . كل ذلك اقتضته طبيعة الاستبداد من فناء الكل في الواحد .

فاذا تبين ذلك علم ان استبداد ملوك الشرق واستئثارهم بالمنافع ، هو العلة الحقيقية في سقوط دولهم واختلال امورها وتلاشي احوالها ، لولاه لما دانت فارس للروس ، ولما كانت الهند من توابع جزيرة بريتوس ، ولما صارت دولة بني عثمان آلة بيد الدول تتحرك بارادتهم فتفعل ما يقولون وتصدع بما يأمرون.

أولم نر فيها من آثار ذلك الاستبداد ، ما قطع مذاهب الاصلاح ، وأغلق ابواب النجاح ، من تبديل الوزراء وتغيير القهارمة ، ونكبة الرؤساء حتى ضعفت ثقتهم بدولتهم . فاذا تولوا المناصب كان من همهم ان يجمعوا من المال ما ينفقونه في ايام النكبة ، حتى صار ارتقاء احدهم دليل هبوطه ، وولايته علامة دوله ، وارتفاع شأنه اشارة نكبته ونفيه . فكيف يُرجّى الاصلاح على يد من يبيت خائفا من العزل ، ويصبح راهبا من النفي ، ولا يعلم أيصل الامر الذي يصدره الى مكانه وهو على المنصب ، ام يكون قبل ذلك في المنزل معزولا او في السفينة مبعدا منفيا .

وقد كان من عواقب هذه الحال ، ما نراه بأعين الاسف من فساد الامور وتلاشي الاحوال ، وتبدد الشؤون وتفرق الكلمة ، وتغير القلوب على الدولة ، فترتب على ذلك ما شهدناه من تجزؤ المملكة وانفصال بعض الولايات عنها ، حتى ضعفت بعد القوة وهرمت بعد الفتوة .

وكأن لم يكفِ رجال الدولة ما ألمّ بها من الضعف والاختلال ، حتى راموا تجريدها عن الاولياء والنصراء ، بما يتخذون من وسائل تنفير النفوس وأسباب افساد القلوب . فمن ذلك ما روته بعض الجرائد من محاولتهم ازالة الاستقلال الاداري عن تونس ، وارسالهم الى فرنسا من يستميلها الى ذلك القصد . فان هذا الامر - ان صح خبره - يوجب لا محالة انقباض الحكومة التونسية، ويبعثها على الالتجاء الى الدول الاجنبية ، تلتمس منهم المساعدة وترجوهم الحماية ، فيسومونها بذلك ما يرومون ، فلا تعصي لهم امرا ، ولا تخالف لهم رايا . ومن ذلك ما بدا منهم في المسألة المصرية ، ما اوجب اسف المصريين عموما ،

---

١٢ - غير واضح في الاصل .

وحكومتهم خصوصا ، فانهم قد راموا في بادىء الامر ان يبطلوا ما تقرر لها من الحقوق ، وبما ثبت من الامتيازات ، غير ذاكرين ما تقدم لها من الخدمة وما سبق من المساعدة والنجدة ، فدعتهم الدول الى العدول عن ذلك ، فلجأوا الى المماطلة والمدافعة ، شأنهم في غالب الامور والاوقات ، على علمهم بما ينشأ عن ذلك من تعطيل المصالح وتأخير الاصلاح المالي والاداري ، وما يترتب عليه من تداخل الاجانب فيما لا ينبغي لهم التداخل فيه من أمورنا الخصوصية وأحوالنا الداخلية ، حتى وقع ذلك بالفعل ، اذ تداخلت الدول في الامر بالصورة الرسمية ، وألجأت الباب العالي الى اصدار الفرمان ، مثبتا لما تقرر في الفرامين السالفة من حقوق مصر وامتيازاتها . أفلم يكن الاجمل بالدولة ان تفعل اختيارا لما ألجئت الى فعله اضطرارا ، فتستبقي بذلك ولاء قوم فدوها بالاموال، وأهرقوا في مساعدتها دم الرجال .

على ان المصريين لا يعدلون عن ذلك الولاء ، ولا يطلبون به بديلا ، علما منهم بأن تلك المعارضة لم تقع من الجناب السلطاني ، وانما صدر بها عن رأي الصدر السابق ، فان هذا الوزير على سعة علمه وحسن نظره وذكاء نفسه ، لم يستطع مقاومة ميله الذاتي في هذا الامر ، بل اخذته فيه المودة الخصوصية لمن اصطنعه، وكان علة رفعه الى ذلك المقام الاسنى ، فبذل المجهود في القيام بأمره والانتصار له ، على علمه بأن ذلك لا يغني عنه شيئا لوجود القوة فيما يخالفه ، فان القوة لا تقاوم مع الحق فكيف ترجى مقاومتها بغير حق .

ولقد استعفى الوزير المشار اليه من منصبه ، كما انبأنا التلغراف . وكتب الفرمان السلطاني مثبتا لفرمان سنة ١٨٧٢ ، فلم يبقَ لنا في هذا الامر ما يدعو الى النظر فيه . ولكننا نرجو ان يكون من آثاره انتظام أحوال الدولة العلية ، وترقب شؤون الحكومة المصرية .

فأما الاول فلا يكون الا بالاصلاح المستمر ، مبنيا على قانون يُحفظ نظامه وتُرعى أحكامه ، ليستقيم به امر العدل الموجب للنجاح ، وتنحسم اسباب الظلم المؤذن بخراب العمران . ولا يحصل ذلك الا بالحرية الذاتية والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس ، فلا ينقبضون عن السعي في الاكتساب والمصالح ، فانه لا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا العمارة ، ولا تحصل العمارة الا بالعدل ، وما العدل الا الحرية والمساواة .

قال احد الحكماء : كل من اخذ ملك احد ، او غصبه في عمله ، او طالبه بغير حق ، او فرض عليه حقا لم يفرضه القانون ، فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والناهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران ، الذي هو علة قوتها ، بل مادة وجودها ، فان سَلِمت الدولة من هذه المعائب أمنت المصائب والمعاطب، ولا سبيل الى ذلك، الا برفع الاستبداد وتقرير أمر الشورى.

وأما اقامة أمور الحكومة المصرية ، فهي الان في عالم القوة ، تعدها معدات حسن القصد وصفاء النية . وسنراها بعناية اميرنا الجديد ووزرائه الكرام بارزة

الى عالم الفعل ، يتقدمها نظام الشورى ، معيّنا للامة حقوقها ، مبينا لهـــا واجباتها ، فتنتظم بذلك الاحوال المالية والامور الادارية ، وننجو به من ربقـــة التداخل الاجنبي الذي جعل في كل مملكة شرقية دولا مستقلة وحكومات مختلفة، والجأ أهلها الناطقين بلغتها ، المستظلين بحمايتهـــا ، القابعين في ارضها ، المسترزقين من خيرها ، الى الانحراف عنها والانتماء الى غيرها ، يتفاخرون بذلك ولا يحسبونه عارا ، بل يعدون البقاء على ولاء الحكومة المالكة عجزا وضعفا ، لما هو ظاهر من امتياز اهل العقوق بالسطوة والقوة والمنعة ، وان دولـــة المطيعين صارت لهم كبتا وعارا وذلا وصغارا ، وللاجنبي عزا ورفعة وسعة ومنعة .

وكيف لا نرجو ذلك وقد علمنا علم اليقين ، ان اميرنا الفتى منزه النفس عما يوجب هرم الدولة من الترف والاستبداد ، بدليل تعففه عن معظم الراتب المعين له ، واثباته لقانون شورى النواب الحاسم لاسباب الاستبداد (١٣) .

***

مستقبل الشرق (١٤)

- ١ -

ارجما بالغيب وقد محا العلم أشكال الرمل وعلما بالمستقبل وقد حال الريب دون المكاشفة وحكما على المجهول وقد أوجب القياس اليقين اذن لقد عدت بنا الى الاعصر الداجية او كنت من الغافلين . ام تلك أحكام الطبيعة تحسبها واجبـــة النفوذ كأن لم ترها مسخرة بأمر الانسان كيف شاء يستخدم منها النار والمـــاء والهواء . كلا وانما هي الحوادث نطلب من مقدماتها النتائج فما رملها الا التاريخ وما مكاشفتها سوى النظر وما الهامها غير القياس .

تقف بنا على أطلال بابل ونينوى وتدمر نستنطق آثارها بأخبارها ونســـأل منازلها عن أقمارها كيف دجت ايامهم المشرقة وكيف ذوت غصونهم المورقة فربما نطقت الآثار بغير لسان وربما انصحت الاطلال بغير بيان .

ونمثل بأبواب عواصم الغرب نرفع اصواتنا المنخفضة الى اعالي قصورهـــا نسأل ما الذي اقام بها سوق المجد على ساقها ومن أبدع في انتظام مجالسهـــا واتساقها ومن ظفر بها من الضعف الى القوة ومن الفقر الى الثروة ومن الـــذل

---

١٣ ـ هنا سطران مضطربان في الاصل لم نر حاجة لاعادة صياغتهما .

١٤ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ١٧ ، تاريخ ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٧٩ .

الى المجد ومن الوحدة الى النجد .

فاذا لبتك الاطلال البالية واجابتك القصور العالية فاستنجد الحرية في بث ما تلقيت وايضاح ما وعيت فان انجدتك علمت انه لا يبعد من رزق ولا يقرب من اجل ان يقول المرء صدقا .

- ٢ -

لقد رسمت يد الزمان بأحرف الحدثان على تلكم الاطلال : هذا فناء الكل في الواحد ، وخطت بنان العصور بأقلام النور على هاتيكم القصور وجد الوجـــود الواحد في الكل :

فعلمنا ان علة ذلك الخسف الامتياز وان آية هذا الفوز المساواة فعدنا الـى تاريخ الاول نطلب منه تفصيل هذا الاجمال ونظرنا الى احوال الثاني نلتمس ايضاح هذا المقال فراينا في صدر الاول ملوكا ليس لاهوائهم حدود ورعية ليس لانفسهم وجود تجافت ارضهم عن تأييد الظلم فأناطوا اسبابه بالسماء واختبلت ارواحهم فصارت الابدان كالآلة الصماء يحسبونها للامير ملكا موروثا يتصرف فيه كيفمـا شاء فان قال سمعوا وان أمر خضعوا وان سار تبعوا يقولون هو الحسام فان حلم فهو معمد وان غضب فهو مجرد بل هو البحر فمن يخوضه والأسد فمن يروضه فيقودهم الى منازع شهواته يمهدون السبيل الى مرابع لذاته حتى فني كلهـــم بوجوده فصار من دونهم تقدما . وشهدنا من تلك الاحوال قوما كشف العلم عن ابصارهم فراوا حقهم فطلبوه ورؤساء نهجت لهم الحكمة سبيل العدل فسلكوه وجماعة علموا ان واخدهم محتاج الى الكل وكلهم مفتقر الى الواحد فأيدوا أمر المساواة . وراوا ان الاذهان لا تنتج البدائع ما لم يطلق اللسان للقول وان الابدان لا تجلب المنافع ما لم تطلق اليد للفعل فرفعوا منار الحرية . وايقنوا ان لا راحة الا بقوة تحفظ النظام وتنفذ الاحكام وان لا قوة الا بالاتحاد فنشروا لواء الاخاء . فعلمنا سر هذا الوجود وعلة ذلك الفناء .

- ٣ -

ثم عدنا عن التصور طالبين الى الحقيقة مجازا فراينا الغرب بين المشاكـــل والنوازل يتوعد الارض التي عمرها بعلومه وزينها بفنونه ان سيوقد فيها من نـار الحرب ما يجعل عامرها خرابا وزينها شينا وجمالها قبحا وقوتها ضعفا او ما ترى دواء على قدم الحرب تجند العساكر وتحضر الذخائر فهل تستمر على هذه الحالة وهي السلم بغير راحة او الحرب بغير قتال متحملة من النفقات ما لا تقوى عليه ام تطلب النجاة من هذه الحال وترفع أمورها الى محكمة القتال ليحكم فيهـــا

السيف حكما قاطعا .. فان اختارت الاول فقد جلبت لامهما الفقر الموجب للضعف وكان مصيرها الاضمحلال وان جنحت الى الحرب فهي البلية الصماء تندفع بها على الامصار ملايين العساكر وألوف المدافع ومئات البوارج الدوارع فتنثر بنيانها وتنقض عمرانها فلا نلبث ان نرى بابل في باريس او نينوى في ويانا او تدمر في برلين .

- ٤ -

ورأينا الشرق بين الظلم يبعثه على التماس النجاة والعلم يدعـــوه الى طلب الحرية واليأس يحمله على الاقدام وعلمته سلطة الاجنبي ان يبكي على استقلاله ودعته راحة الغربي الى الاقتداء بحاله فهو بين اقدام يدفعه اليه أول اليـــأس وآخر الرجاء و(بين) احجام يجذبه اليه ما تعوّد من الذل وما رسخ في قلبه من الخوف ناشئا عن تواني الظلم واستمرار العسف وتمكن الجور فاذا تجلت لـــه الحرية على طور المعرفة كشفت عن بصيرته حجاب التعصب الناشىء عن الجهل ليهتدي سبل الاتحاد فتحصل له القوة فيطلب حقه المسلوب وماله المنهوب .

- ٥ -

فاما ان يبدد الشرق بأنوار الحرية ظلمات التعصب ويقطع بسيوف العـــزم علائق الاستبداد ويهدم بأيدي العلم سجون الاستعباد فيعود الى شأنه السابـق ومجده الباسق واما ان يستمر على حاله راضيا بوجود يشبه العدم وبقاء يحاكي الفناء فيمحو الغرب ما لم يفن من آثار قوته ويهدم ما لم يعف من أركان سطوته فلا يبقى للشرق من ذاكر :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفاء ... ولم يسمر بمكة سامر

***

اوروبا والشرق (١٥)

قضى على المشرق جهل عامته ، واستبداد خاصته ، وخيانـــــة زعمائه ،

---

١٥ ـ نشرت في مصر القاهرة ، العدد الاول ، ٢٤-١٢-١٨٧٩ ، وأعيـــد نشرها فـــي الدرر ، ص ١٤٤ .

وتعصب رؤسائه ، ان يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدي الاجانب من كل جانب ، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ومنهم من يتطرق اليه بدعوى اقامة أمر المدنية ، ولم نر منهم من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه .

فقد استولت انكلترة على الهند ، والافغان ، وجنوبي افريقية ، وقبرص وتدخلت في شؤون تركية اوروبا ، ومصر ، وسورية ، ومراكش ، وزنجبار ، والبرمان ، بحجة الانسانية ودعوى المدنية ، ولم تؤيد في جميع تلك البلاد غير الخشونة والاستبداد ، استبقاء لاهلها على حال يسهل معها اخذ أوطانهم ، واستخدام أبدانهم ، بما فطرت عليه من الاثرة تحملها على كراهية الفضل الا لبنيها ، وبغض السعادة الا لذويها ، بل بما تقرر في أذهان اهلها من ان الخارج عن جزائرها الثلاث ، منحط عن درجة الانسانية ، لم يوجد الا لخدمة الذين ألقتهم الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة ، محرومة من الطيبات محجوبة الشمس والنجوم ، مستمرة الضباب والغيوم .

وفتحت الروسية القريم ، وداغستان ، وارمينية ، وسجستان ، وخيوي ، وخوقند ، وتركستان ، وسمرقند ، وأغارت على الدولة العثمانية فانتزعت منها معظم بلادها الآسيوية ، وفصلت عنها الصرب ، والمملكتين ، والجبل الاسود ، والبلغار ، وجعلت الروملي شركا لفتنة تثيرها ، وارب تناله ثم القت على جميع ذلك حجاب حسن النية ، وموهته بالغيرة الدينية والقيام بأمر الضعيف ، ورفع منار المدنية . ولو صدقت في شيء مما تدعيه ، لرأينا بوادر هذه المآثر في بلادها ، ولما رأينا ولي عهد دولتها يطلب من ابيه الاصلاح ، وأهل ندوتها يسألونه فتح ابواب النجاح ، وقادة الجند ، يدعون لحكومته الشوروية ، وعامة الرعية ، يرومون رفع لواء الحرية ، وأهل الثورة يخرجون عن الطاعة ، ويشقون عصا الجماعة ، والقيصر غير مبال بجميع ذلك ، ينفر من الشورى حرصا على الاستبداد ، وينبذ الحرية صيانة للاستعباد ، حتى قيل انه الى التنازل عن الملك اقرب منه الى الرضى برأي ولي العهد . بل جاء بالتلغراف انه قد استشاط غيظا من تجرؤ ابنه على التماس الشورى فأمر به ان يسجن ولولا ان شفعت فيه والدته لكان في جملة اهل الحبوس .

على ان الروسية وان كانت مستبدة الدولة ، مطلقة الاحكام ، منحرفة عن سبيل المساواة ، الا انها ادنى الى الرحمة والعدل ، والرفق والفضل ، من دولة الانكليز التي لا تبقي على حياة الخاضعين لها الا للانتفاع بخدمتهم فهي كالجزار لا يطعم الضائن الا ليذبحه سمينا ، ثم يجعل من جلده سوطا يسوق به الانعام . على مثل ذلك طبعت حكومة الانكليز وعلى مثله نراها في الهند فقد جعلت امراءها غلمانا ، واتخذت نبهاءها عبدانا ، واستخدمت عامتها فيلة وبعرانا . وعلى مثل هذا سيراها المصريون ان رضوا **بالمستبد** .. وزيرا يقول ليس في هذا القطر من يفقه الخطاب ، ويحسن الجواب ، او يميز بين الخطأ والصواب ، ويستقدم

الاجانب ، لإعظم المناصب ، وينظم الاوامر ، ناطقة بانقضاء الصولة ، وامحاء الدولة ، ويشعوذ على الامير ، ويشد على الوطنيين النكير ، ويلفي الجرائد الناطقة بالصدق ، الذائدة عن الحق ، ويقرب اهل الرياء والمراء ، ويقصي ذوي الاستقامة ، والشهامة .

اما سائر الدول فانها أقل من تلك الدولة شرا ، وأكثر منها رفقا وبرا ، تعامل الخاضعين لها بالتي هي أحسن حتى يكادون يحمدون وفادتها ، ويشكرون ولايتها لولا العلم بأن الاستقلال حياة الامم ، فاذا فقدته فقد صار وجودها المعنوي في جانب العدم .

فاذا لم ينتبه الشرقيون من غفلتهم ، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق كلمتهم ، ولم يغذوا ألباب صغارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على الواح صدورهم رسم الوطنية ، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين ، ولم يقوموا بأمر السراة الصادقين ، ولم يغضبوا لوطنهم ان يُغصب ، ولمالهم ان ينهب ، ولحقهم ان يسلب ، ولمجدهم ان يذهب ، فما يلبثون ان يصيروا عبيد أعدائهم ، واسراء نزلائهم ، لا نرى فيهم بعد حين غير البواب يرفع الستارة ، ويسدل الحجاب ، والفرّاش ، يضع الوسادة ، ويمهد الفراش ، والكنّاس ، يزيل الغبار والارجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة بالدمع السائل ، اما الامراء فيحقرون ، وأما الاغنياء فيفتقرون ، وأما النبهاء فيهجرون .

أفليس الموت ، خيرا من هذا الفوت ؟ أيليق بذي الدم الشرقي ان يصبر على هذا العسف ؟ ام يحسن بذي النفس الذكية ان يرضى بهذا الخسف ؟ ام لا يعلم قومنا انه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

***

الشرق والغرب (١٦)

وقال من فصل مطول في أحوال مصر :

ان كثرة المخترعات ، وسعة المعاملات ، ووفرة حاجات المدنية ، وتماثل اغراض النفوس ، وانفراد كل أمة بمزية وكل ارض بخاصة مع رغبة الانسان في استكمال تلك المزايا ، وافتقاره الى هاته الخواص جميعا ـ كل ذلك قد أوجب استحكام العلاقات ، وتقارب الصلات بين الامم والدول ، ومنع من تفارزهم

---

١٦ ـ نشرت في الدرر ص ٤٧٢ .

وتقاطعهم وراء أسوار منيعة مثل سور الصين . بل لو أمكن هذا التقاطع وكانت هاتيك الاسوار جبالا تنطح بأوراقها النجوم ، لما وقفت بها حركة البخار ، ولا امتنع سير الكهرباء ، ولا تعذر اتصال انسان بانسان .

ولهذا كان من شأن الناقد البصير ان ينظر الى الاحوال المدنية والسياسية باعتبار واقع الامر فيقر هاتيك الصلات رضى بها واختيارا ، أو يحتملها كرها واضطرارا ، ثم يلتمس منها وجه المنفعة ، وطريق المصلحة ، وباب السلامة لأقرب الناس اليه ، وأدنى البلاد منه ، ثم للانسانية على الاطلاق .

والشرق لا أزيده تعريفا مغرس الكلمة ، ومنبت الجامعة ، ومركز الوحدة لكل نابت في ارضه الذهبية ، تحت سمائه الزمردية ، وهو شقيق الغرب الاكبر حنا عليه طفلا ، وعاله يافعا ، وأيده فتى ، ثم احتاج اليه كهلا . فبينهما في الاصل علاقة الاخاء ، ثم نسبة الوفاء ، ثم صلة الاحتياج . ومصر ولا أحاول لها وصفا شجرة الآمال ، ودوحة الاماني لدى كل من أقلته تربتها العسجدية ، وأظلته سماؤها النقية ، وهي بمنزلة خط الرابطة ، وهمزة الوصل بين الغرب والشرق ـ بين المجد القديم والجد الحديث ، بين الاثر التاريخي والحادث الواقعي ، بين العظمة الراقدة تحت ظلال الكفاف ، والهمة السائرة تحت لواء الطمع . فللامم فيها مصالح ، وللدول علاقات ، وللمدنية مداخل لا يتيسر لاي كان من الناس محو شيء منها الا في مستقبل غير محدود . فلم يبق الا حفظ هذه العلاقات وردها بالتي هي أحسن الى حيث لا تزيد من جانب التداخل ، ولا تكون مانعة من تأيد استقلالنا الاداري وأن يحصل الانتفاع من نتائجها بكل ما يمكن استفادته من التمدن الغربي .

وأعوذ بالله ان اريد بهذا الانتفاع استعمال جالية الغرب على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم برواتب الامراء تارة للقيام بما يعلمون ولا يعملون ، وحينا لما يعملون ولا يعلمون ، وطورا لما لا يعلمون ولا يعملون ، فذلك تأباه الحكمة ، ولا يرضاه أولوا الامر بنا ولا يميل اليه اهل الحق حتى من الغربيين انفسهم ، وانما المراد اصلاح مواثيقنا التجارية ، وأحوالنا الزراعية ، وأحكامنا الداخلية مع الاستنارة بأفكار ذوي الرشد والحكمة وحب الانسانية من رجال الغرب . فالغرب لا يعدم الحكماء الراشدين المحبين للانسانية وان كانوا في الارض عددا قليلا .

***

خاطر ملاحظ (١٧)

اذا هبت عواصف الفتنة فذرت رماد المداجاة عن جمر ضغائن الدول ، وصار

---

١٧ ـ من مقالاته ، اعيد نشره في الدرر ص ٢١٣ .

الشرق من أطراف الروم الى البحر الاحمر محشرا للعساكر يتنازلـــون فيه ، ويتجاولون على ارض يملكونها ، وغنيمة يصيبونها ، وسطوة يؤيدونها ، وقـــوم يستعبدون ..

واذا انقضت صقالبة الشمال على بقايا الاناضول ، واندفعت المان الوسط على فضالات البلقان ووقعت حيتان بريتانيا على سواحل مصر ، وجزائر بحر الروم ، وترامت نسور الفرنسيس على فينيقية ، وبـلاد السوريين ، وتداعـــى ابناء الرومان على تونس الغرب ومـــا يليها ، ورجعت عساكر الاسبانيين الى الغرب الاقصى ..

فماذا يحل بالشرقيين وكيف يتقون البلاء وهم على ما نرى من ضعف القلوب، وقوة الخلاف ، وتفرق الكلمة ، واختلال الاحوال ، ضئلت نفوسهـــم وانقطعت اسبابهم ، واحتجبت عنهم سبل النجاح فهم في غفلة الساذج ، وخدر السكران ، وكسل المهوم ، لا ينتفعون بما يعلمون ، ولا يسألون عما يجهلون .

بل اذا جادت سماء الحكمة بماء السلم ، فأهمدت ذلك الجمر ، وعاد الشرق من جهاته الاربع مجتمعا للتجار ، والصناع ، من جالية الغرب يتجرون فيه ، ويتسابقون الى بقعة يزرعونها ، وثروة يجمعونها ، وسلطة يوطدونها ورجـــال يستخدمون .

واذا انتشرت جالية الالمان ، في شبه جزيرة البلقان ، تحيي الموات ، وتنتحل الصناعات ، وانبث تجار الانكليز ، والفرنسيس ، والايطاليين ، وسائر الامـــم الغربية في بلاد الشرق يتصلون بمن تقدمهم من طلائع جيوش العز ، ويجمعون الثروة بما يتجرون وما يستخرجون من كنوز الارض ، وما يخترعون من الصناعة ، وما يجلبون من المخترعات ، وما يتولون من الامور والادارات .

فأي مكان واي شأن يكون للشرقيين في عالم الوجود وهم على ما نشهد من وهن العزم ، وشدة الشهوة ، وضعف الهمة ، وقوة النهمة ، واهمال القادر ، وطمع المهمل ، يتسابقون الى اللهو ، ويصرفون الزمان بين دخان يقتلون بـــه الوقت ، وشراب يميتون به الافكار ، وطعام يهلكون به الابدان .

وهي مسألة نرفعها الى نبهاء الشرق التماس الجواب فانها ــ فيما نظن ــ أحق بالبحث والنظر من مكان ظرف وظرف مكان ، وأجدر بالاهتمام من جناس قلب وقلب جناس ، وأولى بالعناية من ديوان تقريظ وتقريظ ديوان ، وأحرى بالاجتهاد من تعجيل لقطة ومن لقطة عجلان .

***

الشرق (١٨)

قد التزمت لهذا المطلب أسلوب التقرير ، وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية لاعتقادي بأن الاسلوب الخطابي وان كان أسرع تأثيرا في القلوب، وأحسن وقعا في الاذهان ، الا انه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي ، في مكان التقرير العلمي ، فيرتفع بيانه عن المدارك التي سبقت اليها الملكات الصناعية الخسية فلم نبق بها من محل لملكة الخيال المسماة شعرا ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام ، من اقرب وجوه الكلام . وجعلته أقساما متناسبة ، وفصولا متوالية ، ارسل فيها الكلام ارسال مقرر مبين ، ولا أتكلفه تكلف منمق مزين . فان أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعا . وانما يؤخذ به عند رسم التخيلات عسى ان يكون مغنيا عن محاسن الحقيقة بل ربما جاء التخيل في غنى عنه بما يزينه من المعاني فكان وقوعه فيه كالصبغة في الوجنة الحمراء ، والخضاب في اللمة السوداء يبعثان على الظنون ، ولا يزيدان الوجه حسنا .

القسم الاول

فصل
ما هو الشرق

ليس من شأني البحث اللغوي لاعرف الشرق بكونه المشرق ، ولا البحث الفلكي لاقول هو الجهة التي نخالها مطلعا للشمس ، وانما أنظر في هذا المطلب الى التاريخ السياسي في البلاد المسماة شرقا . فشأني في تعريفه ان أبين وحدها الطبيعي والجغرافي وكيف عمها اسم الشرق مع اختلاف مواقعها، وتباين جهاتها، وتباعد اقاليمها ، فأقول :

لم أر في شيء مما قرأت من كتب السلف الكرام ، ما يشعر بورود هذا اللفظ في كلام العرب بمعناه المعروف في هذه الايام ، وانما أطلقوه بعد الاسلام ـ بصيغة ظرف المكان ـ على جانب من فتوحهم تمييزا له عن بلاد البربر والاندلس التي دعيت مغربا . الا ان سكان الجانب الغربي من اوروبا قد اطلقوه على البلاد الواقعة في جهة الشرق بالنظر اليهم فعم الصين ، واليابان ، والمغول ، والهند ، والعربية ، وايران وفينيقية ، وغيرها من أقطار آسيا . بل اتصل ببعض البلاد

١٨ ــ نشرت في مصر القاهرة ، العدد الاول ، ٢٤-١٢-١٨٧٩ ، وأعيد نشرها في الدرر ص١٩٧ .

الاوروبية كالروم ، والبلغار ، والصرب ، ثم توسع فيه من تعالم منهم باللغات الشرقية ، ومن بحث في الآثار القديمة ، فعم جزائر المحيط ، وافريقية ، ولكنهم لم يتفقوا فيه على حد معين او تعريف معلوم . قال لاروس اللغوي الفرنساوي في مطلب الشرق من قاموسه الكبير ما معناه : لم أر من كلمة أضيق سبيلا ، وأوسع غاية ، واضعف تحديدا ، من هذا الذي يسمونه شرقا . وقال اصحاب الانسكلوبيديا اي جامعة العلوم في هذا المطلب ما مفاده : قد اختلفت مذاهب الكتّاب في تعريف الشرق ، وتنوعت فيه أقوالهم بين التخصيص والتعميم ، حتى تعذر تعيين حده وتعسر تحديد معناه . فمن موارد هذا اللفظ في اقوالهم على وجه التخصيص انهم يسمون دولة الرومان بالقسطنطينية دولة الشرق ــ كما كانوا يسمون دولة الالمان بدولة الغرب ــ ويكنون عن مذهب الروم في تلك العاصمة بكنيسة الشرق ــ كما يسمون بيعة رومية كنيسة الغرب ــ ويعبرون عن اميركا بالهند الغربية كما يصفون الهند بالشرقية ــ . ومن موارده على وجه التعميم انهم يطلقونه على افريقية ، وبلاد الاوقيانوس ، وغيرهما مما ليس بشرق بالنسبة اليهم .

وجملة الامر ان تعريف هذا اللفظ عرفي لا ينطبق على حكم علمي ، او حد جغرافي . والمشهور فيه انه يطلق على بلاد آسيا من دون القسم الروسي ، وعلى بلاد الروم من اوروبا والقطر المصري من افريقية . وربما اناط به الغربيون معنى الخشونة جريا على سنن القدماء من الرومانيين في حسبان كل من خرج مسكنه عن حدود مقاطعتهم بربريا . بل هم في ذلك أشد كبرا وازدراء بالناس من أبطال رومية فان هؤلاء لم يزيدوا على ان وصفوا الاجنبي بالبربرية اما اولئك فيحسبون لفظ الشرق متضمنا معناها مع اعتقاد كثير من علمائهم بأن أصولهم ، ولغاتهم ، ومذاهبهم ، وعلومهم ، انما هي مستمدة من الشرق .

على ان الاوروبيين وان اختلفت آراؤهم في تعريف الشرق وتحديده ، فقد اتفقوا على الاعتقاد بانحطاط الشرقيين عنهم في رتبة الوجود وتألفوا على السعي في اذلال شأنهم ، وخفض مكانهم ، كما يدل على ذلك ما نسمع من اقوال خطبائهم ، وما نقرأ من تصانيف علمائهم ، وما نشهد من اعمال زعمائهم ، فهم والحالة هذه ، عصبة على الشرقي من اي محتد وعلى اي مشرب كان يصرفون عنايتهم الى استخدامه واستعباده ، ومحو استقلاله ، وفتح بلاده ، فاذا اختلفوا فعلى تقسيم الغنيمة بين الفاتحين ، لا على وجوب الغارة (التمدنية) على القوم (المتوحشين) فان كره الشرقي ان يكون مصدقا لما يزعمون ، ومقربا لما يلتمسون تعينت عليه المدافعة عن استقلاله تحت لواء الاتحاد ولا يكون الاستقلال جديرا بالصيانة الا ان يكون مقترنا بالحرية ولا حرية الا بالحظ المعين ، والواجب المبين ، ولا حد للحقوق والواجبات ، الا بالعلم ، ولا علم ، الا بالحقائق ، ولا حقيقة ، الا في البحث المطلق ، ولا اطلاق للمقيدين بسلاسل الاوهام . فان تعذر الاتحاد العمومي بين الشرقين ، فلا أقل من حصوله بين الشاعرين بقرب الخطر من بقايا دولة الشرق العظيمة المعروفة بدولة العرب وما أدراك ما دولة العرب .

دولة العرب (١٩)

شعلة سرت من الحجاز فأنـــارت الشام ، والعراقين ، ومصر ، والمغرب ، والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نورا ونارا ، فهي بنورها تستضيء ، ومن نارها تقتبس . ثم هبت عليها عاصفة الفتنة ، ونكباء المحنة ، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصور ، في افق التذكر : ـ بل آية رسمتها يد القدرة في كتاب الايام ، فتلتها السن العزيمة على محفل الاقدام ، فدفعت جاهلية العرب الى الغارة على من اترفتهم النعمة من متمدنة الارض ، فسارت اسود رجالها ، على طيور خيولها ، تطوي الصحاري ، وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بروقـــي عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت علـــى مصر أعلامها ، وضربت في الاندلس خيامها ، فلما عظمت دولتها ، واتسعت ثروتها ، تناوحت فيها رياح الخرافات فطفأت نور علمها فصار ضياؤها ظلاما ، وانغمست بماء النعيم فخمدت نار عرفها ولكن لم تكن بردا وسلاما : ـ فمن رأى العرب مئات من الرجال يفتحون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وبلاد القساطلة ، وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم اذ يراهم الوف الوف يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت . ومن سمعهم يقولون لاميرهم ان رأينا فيك عوجا قومناه بحد السيوف ، يعجب من رضاهم بفساد الاحكام ، وصبرهم على التواء الحكام ، ومن وقف علـــى شروح ابن رشد ، ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبر ، وتقارير الغزالي . وسمع المعري ينشد :

رويدك قـــد غررت وأنت غر	بصاحب حيلة يعظ النســـاء
يحرم فيكم الصهبا صباحا	ويشربهـــــا على عمد مساء
يقول لكم غدوت بـــلا كساء	وفـــــي حاناتها رهن الكساء
وان فعل الفتى ما عنه ينهى	فمن جهتين لا جهـــــة أساء

يندهش اذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما يجلب خيرا ، ولا يدفع ضيرا ، يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام ، او بأضغاث الاحلام ، او ينيطون اسبابها بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لا يعلمون ويندهل اذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين ، والجهلة المتجاذبين ، يقبلون منهم أكفـــاً لا تعرف الطهارة ، ويستحلبون منهم أبدانا انفت منها الستارة ، حتى صار الكسل عندهم من المعايش ، والخمول من المفاخر ، والجهل من الملاجيء ، والذهول من الكرامات ، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدد الاوهام ، ويبدي الحقيقـــــة للافهام ، وكأن لم يكن بينهم من عابد فاضل يدفع البدع الشنيعة ، ويجلو حقيقة

---

١٩ ـ نشرت في مصر القاهرة ، العدد الثاني ، ٢٢ـ١ـ١٨٨٠ ، وأعيد نشرها في الدرر .

الشريعة ، وكأن لم يقم فيهم من شجاع نبيه يسعى فيضم العصبة ولم الشمل، وجمع الكلمة ، على اقامة امر العدل : ـ

كلا والله ثم كلا : انهم لا يعدمون عالما ناصحا ، ولا نزيها صادقا ، ولا نبيها هماما ، وانما اولئك نفر يمنعهم الخوف من الاقدام ، ويردعهم اليأس من الاهتمام : ـ

ولكن لا خوف يا قوم ولا بأس : ـ وكيف تخافون ومنكم القائل لا يبعد من رزق ولا يقرب من أجل ان يقول المرء حقا وكيف تيأسون وتاريخ آبائكم يقرب الآمال .. السنم في الارض التي أقلتهم ، وتحت السماء التي أظلتهم ، أوليس ماؤكم هو الذي وردوه ، وهواؤكم هو الذي انتشقوه ، فما بالكم تعجزون عما استطاعوه ؟ أشاخت الارض فصار ما تنبت ضئيلا ، ولا يستطيع الى النمو سبيلا ... والا فما للحجاز محجوز الانوار ، وما للشام مشؤوم الاحوال ، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، وما لحلب متوالية النوب ، وما لليمن فاقد اليمن ، وما لتونس عديمة الانس ، وما للغرب منهمل الغرب : ـ

الم يكن في كل هذه الاقطار نفر من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون أحوالها قبل التلاف متظاهرين ، متوازرين كالبناء المرصوص او كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلا حصينا لا تؤثر فيه العواصف ، ولا تضعضعه الزلازل .

بل ما ضر زعماء هذه الامة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد : قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منشورا ، وألمّت بنا القارعة ، ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغن بالامس ولم نكن شيئا مذكورا . فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب . فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وان تعددت الافراد انسان ..

أيحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى ، ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزها عن المقاصد الدينية ، منحصرا في العصبة الجنسية ، والوطنية ، مؤلفا من اكثر النحل العربية يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وارهابا ، فتعود للعرب الضالّة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

حول مصر

مصر الفتاة (١)

خطب يزيد بن الوليد فقال ايها الناس ان لكم عليّ ان وليت أموركم ان لا اضع لبنة على لبنة ، ولا حجرا على حجر ، ولا انقل مالا من بلد الى بلد ، حتى اسد ثغره واقيم مصالحه مما تحتاجون اليه وتقوون به . فان فضل شيء رددته الى البلد الذي عليه وهو من أحوج البلدان اليه حتى تستقيم المعيشة بين الناس وتكونوا فيه سواء ، ولا احد يعوزكم فتفتتنوا وتفتتن اهاليكم ، فان اردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به ، وان ملت فلا بيعة لي عليكم ، وان رأيتم احدا اقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا اول من يبايعه ويدخل في طاعته اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . وخطب ابو بكر (رضه) فقال ايها الناس انـي قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتموني على حق فأعينوني ، وان رأيتموني على باطل فسدّدوني . اطيعوني ما اطعت الله فيكم، الا ان اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. (الى ان قال) واعتصموا بالطاعة وليكن ابرام الامر بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر .

وفي هاتين الخطبتين مفاد ما اجراه او ما عزم على اجرائه حضرة ولي النعم المعظم ، فان الاولى تشف عن الرغبة في اقامة مصالح الناس بردّ ما يفضل من دخل البلاد اليها لتستقيم المعيشة ولتحصل التسوية . وفي ذلك يندرج ما اجراه

---

١ ـ جريدة مصر ، ٥ ايلول ١٨٧٨ .

الجناب الخديوي من تكرمه على خزينة البلاد بطارف أملاكه وتالدها ، رغبة في اصلاح أودها وتسديد خطاها واقامة أمورها . والثانية تدل على ايثار الحكم بالشورى وهو عين ما جاء في كتاب ولي النعم الى دولتلو نوبار باشا حيث قال اني عازم على استبدال السلطة الشخصية في الحكومة المصرية بسلطة دائرة على محور شورى الوزراء وبعبارة ثانية اني اريد ان احكم مع شورى الوزراء وبها .

ولنعم الاقتداء بقوم اقاموا امر العدل ورفعوا مناره ، ونشروا أعلامه واظهروا آثاره . فانتشرت سلطتهم ونفذت كلمتهم في مشرق الارض ومغربها بسرعة لا نظير لها في تواريخ الامم وتأيد امرهم بالعدل والاستقامة حتى رضي عنهم الاعداء فضلا عن الاولياء ، وهذه آثارهم في مصر والشام والهند وفارس والصين وسائر البلاد الشرقية . بل هذه بقاياها في الروم وصقلية والمغرب الاقصى بما كان لهم من عظم الشأن وعلو المكان ولا حاجة لذكر الاندلس فهي مطلع أقمارهم ومظهر انوارهم ومجمع آثارهم وموضع أشعارهم وما احسن ما قال في ذلك احد بلغاء الشام من قصيدة كلها حسن وجلّها كمال وهو قوله :

وفوق الاندلوس لنا بنود   لهامات النجوم بها اعتمام

ولنعم التوفيق بين الطارف والتليد وتجديد محاسن العصر القديم بالعصر الجديد

فلا جرم قد حق للخديوي المعظم ان نثني عليه ونحمد الله اليه فقد حصلت له فضيلة الاقتداء ولم تفته مزية الاجتهاد ، بل تعين على سكان هذا القطر عامة وأهله خاصة ان يشكروا له مساعيه وينيطوا بها الآمال ويرجوا صلاح الحال وحسن المآل.

وهذا تعريب أمره الكريم الصادر الى حضرة دولتلو نوبار باشا مشفوعا بترجمة رقيمين لحضرة الباشا المشار اليه رفع احدهما الى الجناب الخديوي المعظم وبعث بالثاني الى قناصل الدول الكرام .

***

أحوال مصر (٢)

لقد بسطنا في العدد السالف العلة الحقيقية لتداخل الافرنج في البلاد الشرقية ، فاتضح مما ذكرناه ان ما تم لهم من الفتوح في تلك البلاد ، قد جعل لدولهم في ممالكها المستقلة مصالح سياسية قيمة تبعثها على التداخل في أمورها،

---

٢ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٣٧ ، تاريخ ١٤ اذار سنة ١٨٧٩ .

فتحتج على ذلك بما ينطبق على أحوالها من اختلال الاحكـــام وفساد النظام ، فتكون الحجة صحيحة بدافع ذاتها مع مخالفتها لحقيقة القصد . وما بسطنا ذلك الا تمهيدا لما نروم بيانه من اسباب تداخلهم في القطر المصري بدعوى اقامة اموره واصلاح شؤونه فنقول :

ان الدول الاوروبية على اختلاف انواعها ومقاديرها تحرص على التداخل في البلاد الشرقية ، ولكن :

ما كل مـن نظم الكلام بشاعر   هيهات يطعن كل من نقل القنا

فان هذا التداخل يقتضي مالا جزيلا وباعا طويلا . ولذلك نرى ان حكومـة انكلترة هي الان اكثر الدول تداخلا في البلاد الشرقية . اما القطر المصري فان حكومته أعز الله جانبها لم تعدم شيئا من اسباب الاستقلال الإداري الممنوح لها بالمواثيق والعهود المرعية ، ولكنها تسامحت في استخـدام بعض الاوروبويين ، اعتقاد انهم احسن منا درية وادق نظرا وأعرف بأساليب النظام . وما القصد الا ان تستقيم بهم الامور وتنتظم أحوال البلاد . فكان من عاقبة ذلك ان ازداد تداخل دولهم في أمورنا ، وكان أشدها حرصا على ذلك انكلترة وفرنسا . فنحن لذلك نختصهما بالنظر ، فنبين اسباب تداخلهما في أمورنا ، والعلة التـــي أوجبت اتحادهما في ذلك مع تضارب المصالح وتفارز المقاصد ، ثم نكشف الحجاب عن الحال لاستكشاف حقيقة المآل .

لم تقدم انكلترة على المداخلة الفعلية في أمورنا الا في اواخر سنة ١٨٧٥ ، اي حين اشترت من الجناب الخديوي المعظم ١٧٦٦٠٢ من أسهم خليج السويس بأربعة ملايين من الجنيهات . بل ان شراؤها لتلك الاسهم وسيلة للتداخل فـــي القطر المصري ، تأييدا لامرها في الخليج الذي هو مرسى آمالها . فانها ما لبثت بعد ذلك ان اخذت في توسيع سطوتها وادخال رجالهـــا في الادارات المتنوعة ، فكثر منهم الخذمة والمأمورون ، وتولوا الخدم المهمة والمناصب الرفيعة ، حتى ان السائح الافرنجي ليخرج من البحر المتوسط وينتهي الى الحبشة ، ولا يـــرى بينهما غير الانكليز . فانه يصل الثغر فيجد على المنارة والمرفأ خدمة من الانكليز، ثم يخرج الى الجمرك ورؤساؤه من ابناء جون بول : فاذا رام ان يرسل تلغرافا او رسالة على البريد فأمره الى الانكليز ، وكذلك في سكة الحديد حتى ينتهي الى غوردون باشا حكمدار السودان ، وبعد شراء الاسهم صار لانكلترة قبل الحكومة دين لا قبل لها بوفائه ، فأرسلت الينا الموسيو كاف مأمورا بالتفتيش والنظر في الاحوال الادارية والامور المالية . ثم رغب اليها الجناب الخديوي ان تعين له من يساعد ناظر ماليته على نظم برنامج الحكومة ، فعرضت ذلك على المحترم الموسيو ولسون ، فأبى . وفي سنة ١٨٧٦ اجتمع اصحاب الديون المصرية للمفاوضة في شؤونهم ، فاستقر رأيهم على ارسال من يخابر الحكومة في هذا الشأن وانتخبوا

لهذه المهمة الموسيو جوشن والموسيو جوبار فقدما مصر وغرّهما الظاهر المموه ، فلم يبصرا الباطن المشوه ، وزعما ان البلاد تحتمل أضعاف ما عليها من الديون ، فضلا عن كونها لا تعجز عن وفاء المستحقات ، فاطمأنت على ذلك خواطر الدائنين. ثم اخذت المجالس الجديدة في اصدار احكامها على الحكومة وعلى الجناب الخديوي بمقادير وافرة ، فأوجس اصحاب الديون من ذلك خيفة وترتب على خوفهم تشكيل ديوان التحقيق العالي تحت رئاسة الموسيو ولسون فكان ذلك متمما لعلل التداخل .

اما فرنسا فان لها في مصر مصالح مالية وتقليدية تبعثها على التداخل وتدعوها الى معارضة من يحاوله من دونها . الا انها قد شغلت عن ذلك بالحرب الالمانية وما طرأ عليها بعد انحسام الحرب من النوازل. فلما تم شراء الاسهم ، وامتدت فروع المداخلة الانكليزية في القطر المصري ، ذكرت فرنسا دم رجالها المسفوك هدرا في وادي النيل ، وان لقومها نحو نصف الدَين المصري فكرهت ان ترى الانكليز يغنمون ثروة هذا القطر غنيمة باردة ، فأقدمت على منافستهم في ذلك ، الا انها لم تتجاوز حد المداخلة المعنوية ، الا بعد استيلاء انكلترة على قبرص ونفوذ كلمتها في آسيا الصغرى . علما بأن ذلك مما يحول الاحوال في جهات البحر المتوسط . وبناء على ذلك فان انكلترة قد أعدت امر تداخلها في عالم القوة ، فلما تكامل وضعه انتهزت له فرصة المدافعة في الديون فأخرجته الى عالم الفعل اختيارا . واما فرنسا فقد الجئت الى ذلك مخافة ان تضعف سطوتها وتفسد مصلحتها ، فجهرت بالتداخل اضطرارا .

واما اتحادهما مع اختلاف القصد والمصلحة فقد حصل بعد تعيين مأموريهما في الوزارة المصرية . اذ رأت فرنسا انها لا تستطيع منع انكلترة من التداخل ، وان لا بد لها منه لصيانة مصالحها السياسية والمالية فآثرت الوفاق على المعارضة ووافقتها انكلترة على ذلك خشية ان يكون تناقضهما موجبا لضعف السطوتين وسقوط الكلمتين جميعا .

وأما ديوان التحقيق فانه قد اثبت ما ظهر له من أحوال البلاد في سجل محرر النقد ، ورفعه الى الجناب الخديوي مع لائحة مفادها ان البلاد لا تعدم وسيلة للانتعاش من العثرة . ولكن لا بد لها من ادارة محكمة النظام منظمة الاحكام تنزل الامور منازلها ، وان يتنازل الجناب الخديوي عن بعض حقوقه المالية والادارية، فتفضل بالموافقة على ذلك رحمة بقومه وشفقة عليهم شأن الامير البصير بعواقب الامور فوهب للحكومة أملاكه واملاك آله الكرام واجتزأ عن ذلك براتب لا يبلغ المليون فرنكا . وأقام وزارة مسئولة وابطل الحكم الاستبدادي فصار الامر في البلاد شورى . الا ان ذلك لم يكن ليدفع الضيم عن قطرنا المبتلى باختلال الاحوال الساقط تحت أثقال الديون ، فانه مفتقر الى الاصلاح الموجب لزيادة النفقات ، فضلا عن ان المأمورين الاجنبيين قد زادوا في طينه بلة بكثرة رواتبهم وسعة ارزاقهم . وقد قال الموسيو ساملسون ان دخل الحكومة المصرية في سنة ١٨٧٧ لم يبلغ سوى ٨٢٩٧٠٠٠ جنيه وهو أقل منها في سنة ١٨٧٨ . فاذا اسقطنا من

هذا المقدار فائدة ديونها لم يبق لنفقات ادارتها سوى ١٥٠٠٠٠ جنيه وهي اقل من القليل .

فلزم من ذلك ان تتوسل الحكومة الى اقامة أمور البلاد بوسيلتين قويمتين : احداهما تسوية أمر الديون ، والاخرى تسليم الادارة لمن يحفظها حفظ الثقة ، ويرعاها رعاية الامن ، وينظر فيها بعين البصير ، وينهض بأعبائها نهوض من عرف لنفسه حقها وواجباتها واتحدت مصلحته الذاتية بمصلحة الوطن العمومية .

فأما الاولى فقد وضعت في هذه الايام موضع البحث وفاضت فيها الجرائد الاوروبوية فتضاربت في امرها الآراء على مثل ما اختلفت الاهواء ، فزعمت التمس ان لا بد من خفض فائدة الدَين الموحد المصري الى نصف مقدارها ، اي الى ثلاثة ونصف في المائة . وعارضتها في ذلك الدالينيوز وغيرها من الصحف الانكليزية الحرة وزعمت بعض الجرائد الفرنسوية ان حكومة فرنسا تنكر راي تنزيل الفائدة راسا ، وقصارى ما اتصل بها من حقيقة الامر ان انكلترة وفرنسا لا تنكران راي النزيل ، ولكنهما ترومان الوقوف على حقيقة أحوال البلاد لتكون الفائدة ملائمة لتلك الاحوال ولا تحمل نفس الا وسعها ، وان الموسيو ريفرس ولسون ناظر المالية المحترم سيصدر عما قريب لائحة رسمية يبين بها أحوال المالية ويعرض طريقتين لتنزيل فائدة الدَين الموحد مآل احداهما ان الفائدة تنزل اولا الى خمسة في المائة مع استهلاك نصف في المائة من اصل الدَين ثم يرجع الى ستة في المائة عام ١٨٩٠ مع استهلاك واحد في المائة والثانية ان الفائدة تنزل الى اربعة في المائة مع استهلاك واحد في المائة ثم يعاد الى سبعة في المائة عام ١٨٨٦ فعسى ان تصادف هذه اللائحة قبولا فتصلح من بعدها شؤون المالية .

وأما الثانية فقد كان من أمرها ان القابضين على ازمة الادارة قد صرفوا الهمة الى جمع الفائدة المستحقة في شهر مايو اذعانا للدول التي بالغت في حثهم واعناتهم ، فترتب على ذلك اهمال امرين خطيرين الاول تطهير الترع ومداركة الطغيان قبل حصوله ، والثاني رواتب الخدمة وأرزاق الجند . فأما الاول فقد كان من عاقبته ان النيل طغى على الوهاد والربى فأغرق البلاد وأتلف الحرث وجعل اهل الفلاحة في اسوأ حال لا يجدون ما يقيمون به الاود ، فضلا عن ان يؤدوا أموال الحكومة . وأما الثاني فقد انقبضت منه نفوس الخدمة فأهملوا شؤون الخدمة ، ومالت انفس بعضهم الى التماس الرزق بالوسائل الدنيئة كالسرقة والرشوة ، وضاقت صدور الجند فانطلقت السنتهم بالشكوى واجتمع نبهاؤهم للمفاوضة في امرهم فكانت الحادثة التي بسطناها في الاعداد السالفة ، وترتب عليها استعفاء دولتلو نوبار باشا من رئاسة مجلس النظار فلزم من ذلك ان تبذل الحكومة عنايتها في نقل الادارة الى من يشعر بألم البلاد ويعلم حقيقةالداء فيجلب أصح الدواء . ولذلك وجه الجناب الخديوي رئاسة مجلس النظار الكرام الى حضرة دولتلو الامير وليّ العهد فخاطبته مصر بلسان الحال وهو ادل من لسان المقال :

لا زال مجدل للسماك رسيلا وعلو جدّك بالخلود كفيلا

ولقد أودى بي الزمان وتناوشتني أيدي الحدثان فضعفت بعد القوة ، وهرمت بعد الفتوة ، ولولا امل البعثة ورجاء النهضة لآثرت الفناء على البقاء . وهئنذا بين شفاء يخشى ونعيم يرجى تولاني نواجد من الرجاء وجذبات من الخـــوف فتجردت عن هيولى الظنون وترفعت الى عالم الاتكال رافعة امري اليك معتمدة فيه عليك فعساك ان تدفع البلاء وتزيل اللأواء ، وترفع المابات وتكشف المعضلات. فقد لقيت من ذلك ما لا اطيق وأظلم عليّ يومي حتى رايت الكواكب ظهرا . واذا تداركني احسانك ونالني اهتمامك جعلت شكري ترجمان النية ولسان الطوية ، وأقمت على ذلك شاهد الاخلاص ودليل الاختصاص .

وتلتها صحيفتها التي وردت من الامل موارد صافية سائغة ولبست من المسرة حللا ضافية سابغة فهنأت به الرئاسة وانشد لسان حالها :

اتته الرئاسة منقـــادة اليه تجرر أذيالهـــا
فلم تـــك تصلح الا لــه ولم يك يصلـح الا لها
ولو احد غـيره رامهـــا لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لمــا قبــل الله أعمالها

***

أحوالنا (٣)

اما والهدي لقد جعلنا الزمان بين بلاء نشيم بارقته ، ونخاف طراقه ، ورجاء ننتجع بحمايته ونستدر جلوبته فاعتصمنا بالتردد اعتصام الجريح برمح طاعنه :

فشربنا منـــه شرابا حميما وشهدنـــا بـــه عذابـــا اليما
حال حال الدنيا فعاد وخيما فحسبنا شرق البلاد جحيما
وتلونا يا نار زيدي شرارا

فمن لنا بحكيم يوقظنا من سنة الغفلة ، وينقذنا من سكر الحيرة ، وبث فينا روح العزم والثبات والرشد والهدي فنحيا من موت الجهالة ، ونخرج من ليــل الضلالة ، ونكون على بينة من أمرنا ، لا نخاف من مكائد الزمان عقربا يدب ،

---

٣ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤١ ، تاريخ ١١ نيسان سنة ١٨٧٩ .

ومن مواقد الحدثان نارا تشب" فنحل دقائق الاشكال ونزيل معترض الاشكال .

ولقد بسطنا في هذا العدد حادثة مصر الاخيرة التي اجلت عن انقلاب الوزارة الاجنبية وقيام وزارة وطنية مطلقة في الحقوق ، مقيدة بالواجبات ، مسئولة لدى مجلس النواب ، يراس فيها دولتلو شريف باشا الموصوف بالشهامة والمعروف بالاستقامة . وما تقدم ذلك من الاجتماع والمخابرة والسعي والمذاكرة ، فبقي ان ننظر في ما يترتب عليه من الآثار نافعة كانت او ضارة ومحزنة او سارة ، ايضاحا لما يمكن بيانه من امر تنوعت فيه الاقوال واختلفت الآراء على حسب اختلاف المقاصد والاهواء فنقول : ان اهم ما في الامر مسألتين ، وهما هل توافق الدول الاوروبوية على هذا الحادث ، وأي اثر يكون له في الديار المصرية ؟

فأما الاولى فلا بد فيها من النظر الى حقوق الدول من جهة وحقوق الجناب الخديوي من جهة ثانية ، ليعلم هل يحق لتلك ان تعترضه في اعماله الداخلية ، وهل يسوغ الملك الجناب ان يتصرف في أموره بما يراه ملائما لاحوال بلاده . فأما الجهة الاولى فهي علة الخوف وسبب الايجاس من تلك الحادثة ، والناس فيها بين موجب وسالب ، ومحقق ومرتاب . وحجة الموجبين القائلين بتلك الحقوق ان للدول بل لانكلترة وفرنسا من صونهن مصالح مالية وسياسية في القطر المصري ، دعاهما الحرص عليها والرغبة في صيانتها الى التداخل في امور الحكومة ، للنظر في أحوال البلاد وتنظيم أمورها على الوجه الموجب لصيانة تلك المصلحة فأفضى بهما ذلك الى ارسال رجلين من نبهاء بلادهما ليتوليا في الحكومة المصرية اهم مناصبها اي المالية والاشغال العمومية . وكان ذلك مبنيا على حق لم تنكره الحكومة المصرية ، بدليل قبولها للوزيرين المشار اليهما ، فلا جرم ان انكارها اليوم لما اعترفته بالامس محل للاعتراض . هذا جل ما يستدل به الموجبون في المسألة على ما يدعونه للدول الاجنبية من حق المعارضة في الحادثة الاخيرة . اما السالبون الذين ينكرون على الدول ذلك الحق ، فدليلهم ان انكلترة وفرنسا لم تجهرا بكونهما قد ارسلتا الوزيرين المشار اليهما للسيطرة والمراقبة ، او جعلتاهما طليعة لجيوش التداخل او الاستيلاء ، بل كان ارسالهما مبنيا على طلب الحكومة الخديوية امل ان يأتيا البلاد بما تحتاج اليه من النفع . فلما لم تجد منهما ما يحقق الامل اعادتهما من حيث اتيا ، ولا لوم عليها في ذلك ولا تثريب ثم على فرض ان يكون ارسالهما مبنيا على الطلب ، فقد صرح السر ستافورد نرثكوت بأنه يحق للجناب الخديوي ان يعزلهما في اي وقت شاء . وهذا ملخص ما قاله في ذلك خطابا في مجلس النواب : ان الموسيو ولسون استأذن الوزارة الانكليزية في التوجه الى مصر ليتولى بها نظارة المالية عامين اثنين بناء على طلب نوبار باشا والحكومة المصرية ، فأذنت له في ذلك رجاء ان يترتب على خدمته اثر نافع يخرج من البلاد الانكليزية بصفة كونه وزيرا للجناب الخديوي ، يحق لمستوزره ان يعزله متى شاء . ثم قال اما تداخلنا الممتاز (كذا) في الامور المصرية فموجبه ان لحكومتنا في القطر المصري حقوقا مالية ومصالح

سياسية ، فأما الحقوق المالية فهي ناشئة عن كون القرض العثماني المبرم في سنة ١٨٥٥ بضمانة انكلترة مبنيا على خراج مصر ، وعن المرتب السنوي الذي الزمت الحكومة المصرية على نفسها ان تدفعه الينا في مقابلة ما اشترينا منها من أسهم الخليج. وأما المصالح السياسية فتوجب علينا الاهتمام بأمور مصر ووقايتها من ان يفضي بها الافلاس المالي الى الفوضى حرصا على راحتنا وعلى السلم العمومي . بمعناه ولا نرى بعد قواه : يحق للجناب الخديوي ان يعزله اي الموسيو ولسون : من حجة للموجبين الا اذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع ولا نرى من سبل للاعتراض الا لمن يحتج بالقوة فانئا في العصر الذي رسم على لوائه : الحق للقوة ولا يعكس : وأما الجهة الثانية اي حقوق الجناب الخديوي فلا بد فيها من الرجوع الى مصدرها نريد الباب العالي ومراجعة اوامره وفرامينه الصادرة بهذا الشأن . فانها تظهر الامر بأجلى بيان وهذا ملخص فرمانه الصادر في التاسع من شهر يونيو (حزيران) ١٨٧٧ ، وهو اولا : ان الادارة المدنية والمالية في القطر المصري وما يتعلق به من المصالح المادية في جميع الاحوال منوط بالحكومة الخديوية . ثانيا ان خديوي مصر مأذون في وضع القوانين والتراتيب الداخلية كلما احتاجت البلاد اليها . ثالثا يحق له ان يبرم او يجدد العهود الجمركية والمواثيق التجارية مع دول اوروبا ، على شرط ان لا ..... العهود السابق ابرامها مع الباب العالي . رابعا ان للخديوي حق التصرف المطلق في أمور مصر المالية وله ان يعقد باسم الحكومة المصرية ما شاء من السلف والقروض . ولا نرى بعد هذا من سبيل للاعتراض على حكومته في ما اختارته لنفسها من الادارة مع انحصار ذلك في الامور المدنية والمالية . ثم على فرض ان لا يكون مأذونا في ذلك (للتسليم الجدلي) أفليس في ابرامه للعهود والمواثيق السالفة ووضعه للقوانين والتراتيب السابقة ما يثبت له الحق في اجراء ما يماثلها الان . فان لم يعترف له هذا الحق لزم من ذلك افساد تلك العهود فان القضية لا تكون سالبة وموجبة في وقت واحد . هذا ما يتأيد به دليل الحق من النقل والعقل . وأما القوة فلا حاجة لها بالدليل تنتحل لها برهانا .

وأما المسألة الثانية ، اي الحادثة الاخيرة في البلاد المصرية ، فالناس فيها بين المخافة والرجاء ، منهم من يراها موجبة للرجوع الى الحال الاستبدادية والسلطة المطلقة ، ويحسب ان السم في الدسم وان وراء الاكمة ما وراءها ، فنراه شاكيا في مقام الشكر حزينا في موضع الفرح خائفا في محل الامن تجاذبته المخاوف والظنون ، فتوقع ما كان وما لا يكون ، فهو بين أمرين أسهلهما وعر وأحلاهما مر . فاما ان يرضى بخطة الخسف والاستعباد ، وإما ان يؤثر العسف والاستبداد . وقد اخذ منه الوهم مأخذه ، وبلغ الخوف مبلغه ، فلم يجد بين الخطتين حالة تكون بين بين ، ومنهم من يحسب الحادثة عقوة النجاح ذروة الفلاح وديباجة النصر وفذلكة اليسر ، يترتب عليها تأييد أمر الشورى وصيانة حقوق الوطن ، فتصلح أحواله وتحصل آماله وتنجح أعماله ، بدليل ما نطق به الجناب الخديوي مخاطبا وفد العلماء والوجهاء والنواب حيث قال : اني

واحد منكم مكلفا بالذود عنكم مأمورا بالقيام فيكم بأمر الحق والعدل ، فهلم نتوازر على انقاذ الوطن ونتعاون على اصلاح شؤونه واقامة أموره وسد خلله .
وما فاه به مشافها قناصل الدول الكرام حيث قال اني لا اجد مندوحة عن اتباع راي الامة فالراي ما ترى والقول ما تقول ، فان الامة لو اجتمعت كلمتها على عزل ملك او سلطان لعزلته ، وما صرح به في رقيمه المرسل الى حضرة دولتلو شريف باشا حيث قال ينبغي ان تسعى الوزارة في تقييم وسائل الاصلاح ، وان نتوازر على انقاذ الوطن ونتعاون على اصلاح شؤونه واقامة أموره وسد خلله .
يماثل القوانين المتعلقة بهذا الامر وما يعتقده في زعماء عصابة النواب ورؤساء تكون مسئولة لدى مجلس النواب ، لتقرر كيفية انتخابه وماهية حقوقه بقانون شيء من الحقوق ولا يتغاضون عن شيء من الواجبات وما يراه في سائر ابناء الوطن من انتباه الخواطر وارتفاع حجب الخوف والجهل عن البصائر بما تبديه طائفة الجند ونبهاء طائفة العلماء ونبلاء جماعة الوجهاء من انهم لا يتساهلون في الجرائد وتؤيده الحوادث ، فهو على يقين من حسن العاقبة ... آراء الآيسين وينكر أقوال الخائفين ويعد ... الآملين فينشد قول شاعر العراقيين :

اعطاني العزم المتين عطية دعت المطالب كلها ملغية
وباثر ما كنت... عشية اصبحت لا أملا ولا أمنية
ارجو ولا موعودة أترقب

كلا لقد تعجل وما كان من المتدبرين فان الامر خطير لا يحسن الحكم فيه قبل انجلاء مقدماته وظهور نتائجه في قانون انتخاب النواب وما يتعلق به من حرية الاجتماع والمطابع ، فان ذلك القانون هو عنوان المستقبل ونجم الطالع وطريق خط الرمل . ولا يخفى ان دون وضعه على قواعد الحرية وأصول الشورى مصاعب تلوها مصائب . فانّا لم نخرج عن الارض التي تقيدت أفكار اهلها بالرهبة ، وانطلقت في الانقياد لمن نتوهم فيهم الوجاهة او النباهة ، ولاسيما في جهات الريف التي ألف اهلها عسف مشائخهم وظلم مأموريهم فحسبوه حقا وعدلا ، بل عدّوه منة وفضلا فقريتهم بمنزلة الآلة بيد الشيخ ، وشيوخهم بمثابة الآلة بيد العمدة ، وعمدهم مستعبدون للمأمورين ، وهؤلاء أتباع المديرين . وهي سلسلة انقياد واستبداد لم يتخللها شيء من الحرية منذ وجدت . على انّا لا ننكر ما نراه في اهل مصر الان من تنبه الاذهان وتيقظ الخواطر ، مما تبسطه الاخبار وتؤيده الآثار . ولكن ليس من السهل اليسير ان ينقض في ايام ما أبرم في أعوام ، بل لا بد في الامر من ارشاد الحكماء ونصح النبهاء ، وهدي العلماء ، والدخول الى الحرية من ابوابها والاخذ بأسبابها .

وبناء عليه فان الامر لا يزال بين الفوز والفشل والنجاح والخيبة ، اي بين ان يتولانا رغبة في .. او رهبة من .. وهي سقطة لا يرجى النهوض منها ، ولا يقال لعاثرها لعا و(بين) ان يأخذ وزراؤنا بأسباب الحزم والاستقامة والعدل

والشهامة ، ويتشبث نوابنا بعروة الاتحاد والانتظام والثبات والاهتمام ، فلا نرى فيهم جميعا الا برا في استقامة وجزما في لين واعطاء في حق وحكما في يقين وهو نصر ظاهر وفوز مبين . على ان النجاح حلبة سبق فيها قوم ففازوا وتخلف آخرون فخابوا فلا كان الكسل المهمل الجبان في اليوم الذي يفوز فيه المجتهدون ويخسر المتغاضون .

***

الدول الاوروبية في المسألة المصرية (٤)

لقد مستنا الحادثات وألمت بنا النائبات فصار التخيل بعد الحس اختبالا يزيدنا نكالا ووبالا فبرع التصور للاندلسيين في حدائقهم الزاهية ولنذر الجبال لقدماء اليونان تحت سمائهم الصافية فان حدائقنا المزارع تنبت القطن فلا نتصور فيها الا الزراعة لحسن المنبت والصناعة لاتقان المنسج والتجارة لحصول العوض وهي من جوهريات الامور فلا نتلهى عنها بالعرض وان سماءنا دائمة الكدورة بما يتصاعد اليها من نفثات المصدورين وما ينعقد فيها من بخار أنفاس المظلومين فاذا نظرنا في شأن الدول في هذا القطر فلا ننظر اليه من وجه التخيل ولا نأخذ فيه بأسباب المجاز وانما ننظر الى الحقيقة مواجهة فان جاء في أمثال الافرنج ما كل ما يعلم يقال فقد جاء في أمثالنا ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ولا نلتمس النظر الى سبب تداخل الدول في أمورنا فان ذلك يفضي بنا الى الحدس والتخمين وانما ننظر الى هذا التداخل بعد ان صار واقعيا فذلك هو الامر اليقين .

ولقد علمنا بما رأت الاعين وما سمعت الآذان ان فرنسا وانكلترة تقدمتا سائر الدول في مجال هذا التداخل بما لاولاهما من المصالح التجارية والمالية في البحر المتوسط وفي سواحل افريقية وما اتصل بها من التقاليد الحاملة على توجيه النظر الى هذا القطر الذي دخله لويسها من دمياط ونابوليونها من أبي قير وبما للثانية من المصالح البحرية والمنافع التجارية وما تحرص عليه من حفظ طريقها الى الهند . وقد ابتدىء تداخلهما بالمأمورين تغريان الحكومة المصرية بطلبهم ثم ترسلانهم اليها فرادى وجموعا يتولون الخطط والمناصب رافعين عليها لواء دولتهم ناشرين فيها لغة أمتهم مستقدمين اليها ابناء جلدتهم الا ان انكلترة قد رجحت في ذلك رفيقتها بما لها من السبق في المراوغة ومن التقدم في الاحتيال ومن حسن الخبرة في التداخل كما تدل عليه آثارها في الهند اذ حل

---

٤ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ١٨ ، تاريخ ٣١ تشرين الاول سنة ١٨٧٩ .

بها جماعة من تجارها فاتخذتهم ذريعة للتداخل فسرى نفوذها في ذلك القطـــر العظيم سري النار في الفحم او السم في العروق وكما تشهد به أخبارها فـــي اميركا وجنوبي افريقية فصار لها القول الانفذ والدليل الاغلب بل قيدت القطر من مرفأ ثغره الى اقصى حدوده بسلسلة سطوتها مبتدئة من المرفأ والفنار الـــى الجمرك الى البريد الى التلغراف الى السكة الحديد الى حكمدارية السودان . فلما رات رفيقتها انها مغبونة في القسمة تشاطر في النقمة ولا تنال معشـــار النعمة اظهرت الانقباض والنفرة فتداركت انكلترة ذلك الامر بما تعودت من اللين والرقة ... مـــن اختلال الفرنسوية بأن نقترح على الحكومة المصرية تعيين وزير انكليزي وآخر فرنسوي في وزارتها وكان ذلك امرا مفعولا . ثم دارت المخابـرة بين الدولتين على حدود الوزارتين حتى اذا كادت الاقلام تمل المحابـر وأوشكت الطروس تهجر الدفاتر وكادت الخطباء تنفر من المنابر وقع بينهما الاتفاق على ان يكون الانكليزي للمالية يتبعها الجمرك والبريد والمرافىء والتلغراف والساحـــة والفرنسوي للاشغال العمومية ليس الا. فلم تنج دولة الفرنسيس من الغبن ولكن رضيت بالموجود متوقعة حصول المفقود .

وما كاد الوزيران تستقر لهما في هذه الارض قدم حتى بدت على الدول علائم المنافسة والحسد وحتى انقبضت أنفس ابناء الوطن خوفا على الاستقلال ان تلعب به أيدي سياتو على الحقوق الوطنية ان تصير كمنثور الهبا فباتت الحكومة بين نفرة داخلية ووسوسة خارجية ثم هبت عاصفة الهرج فذرت الرماد عن نـــار الاحقاد فكان من الامر ما شهدنا . حتى اذا ابدت الفتنة ضرامها ونالت الـــدول الحاسدة مرامها وجاءت العواقب على أيـــدي النوائب فتفرق النصراء وتخاذل الاولياء فلم تجد الحكومة لها وليا فاختل امرها بعد ان كان سويا وانقلبت كأن لم تغن بالامس ولم تك شيئا فحاقت بنا في خلال ذلك اسباب المصائب وتناوشتنا انياب النوائب وأتانا البلاء من كل فج عميق ولم نجد للسلامة من طريق فأتانا الله التوفيق فرجونا منه فوزا ونصرا وتلونا ان مع العسر يسرا .

ورأينا الصحف الاوروبوية تذكر من مزايا اميرنا الجديد ما يدل على الرغبة فيه والميل اليه والثقة به والاعتماد عليه فأيقنّا ان الدول ستتركه وشأنه يقيـم الامور ويصلح شؤون الجمهور بما يعلم من ظاهر الامر وخافيه وصاحب البيت ادرى بالذي فيه يستقدم الافرنج لاصلاح الامور الادارية لا لتحصيـــل الاغراض السياسية فيكون متوظفهم مصريا في منصبه وان كان اوروبويا في مشربه فاننّا لا ننكر افتقارنا الى انوار المعارف الاوروبوية على اننا نعلم ان صدور تلك الانـــوار عن طوي المآرب الذاتية يجعل نورها نارا وضياؤها ضراما فتحرق ولا تنير وتضير ولا تضيء .

غير ان الزمان لم يعودنا الاجابة وان عودناه الانابة . وهذه الدول المتمتعـــة بصفائه الفائزة بوفائه لا تبرح سالكة في امرنا مسالك المداخلة تعنتنـــا بالمحاورة والمخابرة والمخابلة فترمينا طورا بالمراقبة وحينا بالتصفية ومرة بالتفتيش فنحن

بين لجان تحار في امرها الاذهان وجدت في عالم القوة بمعدات العزائم وصدّت عن عالم الفعل بموانع المنافسة فبينما نحن ننتظر قدوم المراقبين لاخراجنا من مهواة التردد وورود أرباب النصفية لانقاذنا من مهالك الاختلال ووصول ساسة الاوروبويين لتأييد ما نقضته سابقات الحوادث متمنين ذلك من قبيل قولهم الوقوع في البلاء خير من انتظاره اذ رأينا من اختلاف الدول ما يزيد الافكار حيرة والقلوب ايجاسا والانفس انقباضا والاختلال انتشارا والديون اثقالا والحكومة ارتباكا .

وواقع الامر انا بين تيارين كالريشة بين عاصفتين تروم انكلترة وفرنسا ان تنفردا في السلطة والسطوة والادارة والمراقبة وان تكون لهما الحجة الغالبة والقوة الراجحة فمن التعرف (.........) (٥) تكون المراقبة عمومية والتسوية دولية . ولو فوض الينا الخيار لرأينا في التعميم أصفر الشرّين فانه لا يتفق ان تتمالأ الدول جميعا على الاجحاف بالحقوق والعبث بالاستقلال وانما يمكن ذلك بين دولتين والله نسأل النجاة في الحالين انه ولي التدبير وهو نعم المولى ونعم النصير.

***

الحزب الوطني في مصر (٦)

لقد رأينا الامم والملل ،في كل زمان ومكان فرقا واحزابا تختلف آراؤهم في الاحكام المدنية والدينية من حيث التقييد ، والاطلاق ، والتطرف ، والاعتدال ، والملك ، والجمهرة وهلم جرا .

يختلفون في هاته المسائل على انهم متفقون في الوحدة الوطنية ، فالانكليزي يكون من اهل المحافظة ، او من حزب الحرية ، او من رأي الاطلاق التجاري ، او على مشرب الحماية ؛ الا انه انكليزي على كل حال ، والفرنساوي يكون امبرطوريا ، او ملكيا ، او من اهل الجمهورية ، او اباحيا ، على انه قبل ذلك فرنسوي لا محال .

رأينا ذلك وسمعناه ولم نر في الناس من امة تختلف آراؤها على نفس وجودها الاجتماعي بحيث يكون التعريف بالوطنية مخصوصا ببعضها دون بعض.

ولكن مصر ارض المعجزات .. فلا بدع ان تكون مظهرا لخوارق العادات .

---

٥ ــ غير واضح في الاصل .

٦ ــ نشرت في مصر القاهرة ، العدد ١٦ ، تاريخ ٦ ايار ١٨٨٠ ، وأعيد نشرها في المدرر ص ١٦٨ .

نعم ان الامة المصرية فريقان يعرف احدهما بالوطني والآخر .. بما لا نجد لتعريفه حدا فانه ليس بالغريب فيوصف بالاجنبي ، ولا بالفاتح الدخيل فيعرف بذلك وانما هو مصري وليس بمصري ووطني وليس بوطني .

فوا حيرتاه في تعريفه ..

بل القول فيه ما جاء في (مصر الفتاة) على حين صدورها مفوضا تحرير جانبها العربي الى هذا العاجز وهو تعريف الحزب الوطني بالاستقلاليين والآخر بالتدخليين . فالتدخليون هم الافراد المتهالكون على تدخل الاجنبي في امور بلادهم يتوسلون بذلك للرئاسة والولاية ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون منه ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام ، وزائل الحطام .

وهم الان اصحاب الامر ، لهم الملك ، وللاجنبي الحكم ، ولهم القشور ، وللدخيل اللباب ، فهو في محرم الخدور ، وهم الحجاب على الابواب .

والاستقلاليون هم الفئة المجتمعة والجمع الكثير ، يرومون حفظ الحقوق الوطنية ، وكف يد الاجنبي عن استقلالهم بأن يعطى ما استحق فلا يطمع فيما وراء الحق — وبعبارة اجمالية — يريدون ان تكون مصر للمصريين .

وهم الان حلفاء الصبر ، يبعد نبهاؤهم ويعنت وجهاؤهم ويقيمهم اللوماء هدفا لسهام الانتقام .

وقد عني التدخليون بتشويه محاسن الفرقة الوطنية بما ينشرون في صحفهم وما يستكتبون في صحف الاجنبي من الكلام المفتري متغلبين في ذلك تغلب الافعى ، متلونين تلون الحرباء ، فتارة يسمونهم بحزب الترك القدماء ، وطورا بحزب التعصب الديني ، وآونة يرمونهم بالنفرة عن كل نجاح وصلاح ، ومرة يتهمونهم بعداوة الاجنبي عن دينهم على اي مشرب كان .

وقد آن ان نضع لهذه الاراجيف حدا ، وأن نرد كيد اللؤماء في نحورهم .

فالحزب الوطني غير متعصب .. الا في وطنيته . والحزب الوطني غير معاد .. الا للخائنين .

يروم إحياء مصر لاهل مصر ، وترومون اماتتهم جميعا يا ايها اللؤماء .

ويريد ان يكون المصري في مقام الانسان مستقلا بوجوده ، متمتعا باستقلاله، فائزا بحقوقه ، ناهضا بواجباته ، وتريدونه في منزلة الحيوان يساق للحرث ، فان عجز فللسلخ ، ثم تجعلون من جلده ربقا لاخوانه وسياطا للمقاومين .

ويطلب ان يكون الوطني مساويا لجاره ، غير معارض في داره ، يحصد مما يزرع للعيال ، لا لاهل الاغتيال ، ويجني مما يغرس للاولاد ، لا لاهل الفساد ، وتلتمسون ان يكون غريبا في آله ، مصادرا بماله ، يطعم من يجيعه ، ويؤمن من يروعه ، ويحفظ من يضيعه ، ويصون من يبيعه .

ويقول الحرية حياة الافراد ، والاستقلال حياة الجمع ، فلا بد لافرادنا ان يكونوا احرارا ، ولا بد لجمعنا من الاستقلال .

وتقولون الحرية تبطل آمالنا ، والاستقلال يفسد اعمالنا ، فلا بد للافراد ان يكون على رقابهم يد من حديد ، ولا بد للجمع من التفريق والتشريد .

وينظر الى مصلحة الوطن وأهله ، وتنظرون الى المنصة والدينار ، ويخدم الامة حبا بالامة ، وتخدمون الاجنبي حبا بالمال .

فهذا شأن الحزب الوطني وهذا شأنكم يا ايها المنافقون ، فهو الفوز المستقبل، وانتم البهرجة الحاضرة .

وهو مصر بما بها من فضل وذكاء ، ونباهة وعزم ، وان كره الخائنون .

وهو ما تعلمون وما تنكرون .

ولسوف تعترفون .. يوم تكمد الوجود ، وتضيق الانفاس يوم ترفع الامة اصواتها ، وتنشر راياتها ، يوم ينادي منادي الوطن ، يا اهل مصر انقذوا مصركم .

ان ذلك اليوم ليوم شديد .

ان هذا اليوم ليوم عتيد .

***

النداء المسموع (٧)

اي سادتي واخواني لقد ظهر لكم من قول الصحف الاجنبية ان الدول الاوروبية لا تكره ان تراكم ساعين في التماس حقوقكم ، متداعين الى القيام بواجباتكم ، ناهضين بادارة اعمالكم ، ذائدين عن حريتكم واستقلالكم . فما هي تلك الحقوق وما هي تلك الواجبات ؟

قد حق للانسان ان يكون حرا فيما يقول وفيما يفعل مما لا يخالف قانون العدل والحق المنصوص عليه في : ولا تفعلوا بالناس ما لا تريدون ان يكونوا بكم فاعلين.

فهل من حرية القول ان تلغى جرائدكم الداعية للحق ، وان يبعد منكم كل ناطق بالصدق ، ام من حرية الفعل ان يكون زارعكم عبدا للشيخ لا يصدر الا عن أمره ، ولا يتحرك الا بارادته ، وشيخكم عبدا للعمدة ، والعمدة للمأمور ، والمأمور للمدير ، والمدير للوزير ، والوزير والامير للمستر الاجنبي يقودكم جميعا بسلسلة مما صنع في بلاد الانكليز ، ليلقي بكم الى التهلكة وانتم تبصرون .

وحق له ان يكون حرا في ماله لا ينهبه الناهب ، ولا يسلبه السالب وحرا في رايه ، يقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يتعقل ، وحرا في امره يوليه من يشاء .

فهل من حرية المال ان يؤخذ منكم تارة بالضرائب تفرض من غير علة ومرة ، بالامانات تؤكل بلا عوض ، وحينا بالرشي تهضم بدون اثر ، وتجمع منكم درهما بعد درهم ليدفع دنانير مؤلفة للهر الرقاص ، والسنئور المغني ، والموسيو الكاتب.

٧ـ من مقالاته ، أعيد نشره في الدرر ص ١٦٦ .

وهل من حرية الراي ان ينزل فيكم قول المنافقين منزلة الوحي والالهام ، يعاقب من يخالفه ويكفر من يأخذ به ، وان تكرهوا على اظهار الطرب والسرور بما تضربون من الطبول ، وما توقدون من الشموع على حين يغنيكم عن ذلك الضرب ، ضربان القلب ، وعن تلك الشموع نار الضلوع ، ام من حرية الامر ان يتولاه فيكم من لا تعترفون كفاءته، او من تعتقدون خيانته ، او الاجنبي لا يميز بين راسه والذنب ، او من يرميكم به المنافق ليرهقكم بيده الحمالة الحطب ، كل هذه الحقوق المقدسة الطبيعية قد حرمت عليكم وهي أحل من عقاب خائنكم ، فأصبحتم في عالم الانسان بمنزلة المجرم الساقط الحق ، على انكم لم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الاليم بل أستغفر الله فقد اتيتم منكرا لا يغفر ، في صبركم على المنكر ، ومن اغضى عن النكر على علم به ، ومقدرة على ازالته ، فقد شارك اصحابه ، واستحق عقابه ، واهملتم ما حق عليكم ، فلا غرو ان تحرموا ما حق لكم .

اجل . فقد وجب على الانسان ان يصون شأنه ، ويحمي مكانه ، ويخدم أوطانه ، ناهضا في خلال ذلك بما تقضي به الحرية ، وما يستلزمه العدل ، وما يوجبه الشرف الذاتي من تأييد حق وتفنيد باطل ، وحفظ كرامة .

فهل من صيانة الشأن ان تخفضوا جناح الذل وتحنوا رقاب الطاعة لمن لا شأن له الا فيما يشين ، ولا دأب الا في اضاعة الشرف الثمين .

وهل من حماية المكان ان ينهبه اللص وأنتم مستيقظون ، ويهدمه العدو وأنتم مطرقون ، ويلغ الكلاب في مائه وأنتم واردون ، ويهتك الفاسقون خدوره وأنتم مبصرون .

وهل من خدمة الاوطان ان تروها على شفا الهاوية ولا تراكم منجدين ، وتبصروها في مجالس الظلمة ولا تجدكم مفتدين ، تموت ولا تموتون أسفا عليها، اذن لقد ادعيتم الحب وما انتم في الدعوى بصادقين ، بل رحم الله شاعركم حيث قال :

فيا خجلي اذا قالوا محب ... ولم انفعك في خطب دهاكا
تموت ولا اموت عليك حزنا ... وحق هواك خنتك في هواكا

فلا تعتبوا الزمان فيما ابتلاكم فأنتم أعوانه على انفسكم بما تهملون من الواجبات ، اذ كيف يحصد البر من لم يكن زارعه ، وكيف يدرك الغاية من لم يكن طالبا ، وكيف يطمع بالراحة من لا يسعى اليها ، وكيف تدوم النعمة لمن لا يحرص عليها ، ام كيف لا ينخفض شأنكم ، ولا تؤخذ أوطانكم ، وأنتم صابرون على حكم المنافقين :

ومن طلب المنى من غير جد ... اضاع العمر في طلب المحال

***

المضحك المبكي (٨)

زجّــاج

اجهده السعي والنداء فلجأ عند الهجيرة الى ظل رواق ، على مصطبة زقاق، فهوّم ثم نام ، فرأى في عالم الاحلام ، ان قد باع طبق الزجاج بعشرة دراهـم واشترى بها طبقين ، فباعهما بعشرين فاشترى اربعة ، فباعها بأربعين ، ثـــم ثمانية بثمانين ، حتى كثرت الطباق ، ووفرت الدراهم ، فاستأجر حانوتا كبيرا، فأصاب فيه مالا كثيرا ، فابتنى دارا ، ما سكن مثلها دارا ، واتخذ هيفاء كريمة، من بيت كريم ، فولدت له غلاما ، يشبه قمرا تماما ، فربّاه على الطاعــة له ، والرهبة منه ، والبر به ثم رام حجبه عن ألفاء الزقاق ، واخوان النفاق ، فعقّ وعصى ، فبادره بالعصا ، فتصدت امه للمدافعة عنه فنخسهـــا بعصاه نخسا ، ورفسها برجله رفسا فناداه الطبق (رك رك) فانتبه من غفلة الرقاد ، يمســح رجله من دم الخدوش ، فكان من تفسير حلمه انكسار الزجاج .

وعامــل

خان وطنه فأهمله ، وغدر بأمته فخذلوه ، وتبصبص لبعض الاجانب فناواه سائرهم ، فلجأ الى ظل انفراد ، على عتبة استبداد ، فأدركتـــه سنة الغفلة ، فرأى في عالم الاوهام ، ان قد سلب من مال الفقراء ما جعلوه في خزينة الدولة قرضا ، واغتصب من ذوي المزارع مائة وخمسين الف ذهب خراجا ، وانتهب من دين الامراء الوفا مؤلفة ، فاتخذ الديوان قصرا ، ما سكن مثلـــه كسرى ، وجعل المالية أهلا ، لا يخاف لها هجرا ، ولا يمل لها وصلا ، فولدت له غلاما من الثروة وابنة من الشهرة ، فربّاهما على حفظ وصيته ، ورعايــــة سلطته ، واعزاز سطوته ، ثم رام حجبهما عن ذوي البصائر والابصار ، فتصدت له صحف الاخبار ، فطعنها بالنذر فجرّح ، وسافها بالتعطيل فبرّح ، ورماهـــــا ببنادق الالفاء فأدمى ، فنادته معارضة الدول (سأسأ) فانتبه من رقاد الغفلة يمسح وجهه من ... عرق الخجل ، فكان تفسير الحلم ضياع الزمن ، وذهاب حقوق الوطن ، (طاق طاق) .

فان كنت في ريب مما نقول تحسبه من خرافات العجائز او حكايات الاطفال فأضع لمحة بصر في اعمال الادارة في مصر ، تعلم صدق الحكاية ، وصحـــة الرواية ، ثم جد بدمعك تذرفه معي ، او تضيفه الى ماء مدمعي ، فقد آليت ان

---

٨ ــ نشرت في مصر القاهرة واعيد نشرها في الدرر ص ١٦١ .

ابكي الحق في مصر حتى يعود مخضر العود ، فان عاد فلا اسف على البقاء ، وان لم يعد فعلى الدنيا العفاء .

***

اقامة الحجة (٩)

يا للاقدام وللجراءة

لقد اتى النبهاء في مصر شيئا ادّا ، يكاد يزلزل ربى الحيف ويهد حصون الظلم هدّا .

اقاموا الحجة على الظالمين مبدية من أمورهم ما خفي فأوبق ، وما ظهر فأوثق . لم يخافوا عاملهم في ذلك الحق ولم يرهبوا من بث في القطر من أعوانه الطواغيت ، يطمسون على الافكار ، ويضربون الستور على الابصار ، وينصرون الليل على النهار ، ثم يجوسون خلال الديار ، سارقين منتهبين ، لا يتسترون ولا يتهامسون ، كأنما غرّهم سكوت الناس فخالوهم نياما .

ووسعوا الالسنة بما ضاقت به الصدور ، من موبقات الجور ، ومنكرات الفجور ، لم يأخذهم وعيد الظالم ، ولم يرهبوا من اصطنع من اللؤماء اخوانا ، ومن جعل من الادنياء غلمانا ، ومن اتخذ من الاخساء عبدانا ، ينشرهم في البلاد ، كما انتشر الجراد ، يذلون الوجهاء ، ويعنتون النبهاء ، ويصادرون الاغنياء ، ويستعبدون الفقراء ، معاقبين من خالفهم جلدا بالسياط ، وغلاّ بالقيود ، وطعنا بالنصال ، كأنما أغواهم الصبر صبر الكرام ، فقالوا أموات رفات وما رأينا لجرح بميت ايلاما . فما حيلة العامل في هؤلاء القوم .

يصرف الملك ــ ملكهم ــ الى الاجنبي هبة ، وبيعا ، واقطاعا ، ويجمع المال ــ مالهم ــ في خزائن الامناء . لا يفعل ذلك لغرض في النفس ــ تنزيه نفسه عن اعراض الاعراض ــ وانما يلتمس الراحة للمصريين ، فيبعدهم عن متاعب الحياة الدنيا من تدبير الملك ، واقامة المال ، فمن كان منهم بالامس غنيا واسع الملك يقلب راسه على الوسادة أرقا وتفكيرا فيما فعل الزارع ، وما رعت الانعام ، وما شاد المعمار ، فهو اليوم اخف من الريشة ، وانقى من الراحة ، يتوسد الحجر ثابت الرأس عليه .

يفعل بهم كل ذلك وفوق ذلك ولا يراهم شاكرين فيقضي عليهم بما وضع من

---

٩ ــ نشرت في جريدة الشرق ، العدد ١٩ ، الجمعة ٤ حزيران سنة ١٨٨٠ ، أعيد نشرها في الدرر ص ١٧٥ .

الحد تأديبا وزجرا لعلهم يهتدون . فمثله معهم ــ وهو أرفع من ذلك قدرا ــ عجوزا اصابت بالشرك بازيا فقصت جناحيه ، وأظفاره الطويلة تخفيفا عنه وتنظيفا ، ثم اتته بالطعام طبيخا جيدا ، فلم يأكل فأدبته ضربا بالملعقة وهي تقول يا عدوّ نفسه ذق مما كسبت يداك .

فقد انبأنا مراسلنا المصري أيده الله ان جماعة من نبهاء الوطن قد بعثوا الى ديوان التصفية بتقرير وطني النزعة ينكرون به على الحكومة هضم المقابلة انتزاء عليهم وافتئاتا ، وتمييزا بينهم وبين الاجنبي ، ويذكرون في عرض ذلك ما اشتهر من فساد أعمالها ، وما ظهر من اختلال أحوالها مصرحين بنفرة الانفس منذرين بسوء العاقبة فكبر ذلك على الظالمين ، ولا بدع ان يبتئس اللصوص من ظهور النور ثم جاء بالتلغراف ان الادارة المختلة قد انشبت مخلب ظلمها في زعماء تلك العصبة ، فأودعتهم السجن بدعوى ان شكواهم موجبة لفساد القلوب واختلال الاحوال .

فأما اقامة الحجة فهي ما دعونا اليه ، وحثثنا عليه ، غير مرة ، ولكن كان بودّنا لو رفع ذلك التقرير الى الدول الاوروبية معربا عن مقاصد الوطنيين ، هاتكا سجوف الرياء عن أعمال الخونة الظالمين ، معينا ما سلبوا من الحقوق ، وما انتهكوا من الحرم ، وما اهملوا من الواجبات ، مفصلا ما ارتكبوا من الفظائع والموبقات ، مشعرا بوجود الحياة في القطر المصري .

على اننا نحسب اقامة الحجة في ديوان التصفية خطوة واسعة في هذا السبيل .. وأول الغيث القطر .

وأما انتزاء الادارة على ذوي الحجة فهو من لوازم وجودها الاستبدادي .. ولا شك انه لو رفع التقرير الى الدول مبينة فيه تواقيع اصحابه ، لقصرت أيدي الظالمين عن ان تمد اليهم بما يضر . على انهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وانما العاقبة على من رام اخفات اصواتهم بالعقاب فزادها شدة وظهورا . كذلك يمكر الحق بأعدائه مكرا نبيلا ، يحجب عنهم أنواره فيسلكون سبل الوبال ، متعثرين بأذيال الجهل ، لا ينتعشون من عثرة حتى يصابوا بأخرى من مثلها او اشد ، ولا يبرحون خابطين في ظلمات الغواية حتى تقوم عليهم قيامة الافكار ، تسير معهم حيث ساروا ، وتصبح معهم حيث اصبحوا ، وتمسي معهم حيث امسوا ، ويقال سحقا وبعدا للقوم الظالمين .

ولسوف يرى سادتنا النبهاء صحة ما نقول اذ ترد اليهم الصحف الاجنبية متفقة الآراء على تسفيه الخونة ، وتسوئة الظالمين ، واذ تسمعهم ــ ولا نعد وعدا بعيدا ــ ان نواب الامة في مملكة الانكليز وجمهورية الفرنسيس يسألون دولتهم عما تراه في شأن مصر وينكرون سياستها السابقة ويذكرون في عرض ذلك ما بسطناه غير مرة من مفاسد الادارة .

فحنانيك يا مولاي .. لا تؤاخذ محبا للانسانية لم يبعها منك بخمسة وعشرين او بمائتين وخمسين اشتراكا في صحيفته .

وبعد فما حاجتك يا مولاي بهذا الصوت الضعيف وقد نفخت الجوائب بين

يديك بوقها ، وضربت جرائد مصر في ناديك طبولها وهي – ومن جعلك وليّ نعمتها – اعرف من هذا العاجز باستعطاف الخاطر ، واجتذاب الدرهم ، وتمويه الباطل ، وتشويه الحق .

بل ما حاجتك بالطبول والضاربين ، والبوقات والنافخين ، والازجال والمادحين ، والعربية والمستركة تراها في جريدة التملق ، والقبطية المستعربة تقراها لصاحب التشدّق . الست القائل : لا اخاف المصريين انهم قطيع من الغنم أهش عليهم بعصا الراعي سوقا الى حيث أشاء . أولست الزاعم انهم لا يفهمون خطابا ، ولا يحسنون جوابا ، ولا يعقلون . فان عقلوا ، فلا يقولون وان قالوا ، فلا يفعلون .

ام رايتهم يعقلون فخفت منهم القول ثم سمعتهم قائلين فداخلك الوهن .

أجل .. ولسوف تراهم فاعلين .. فلا تحسبن امهالهم اهمالا . انهم ينظرونك الى غد وان غدا لناظره قريب ...

***

خواطر سياسية (١٠)

اي : مصر : لا بد من الكلام في السياسة وان كانت حقيقتها وراء حجاب الغيب فهي دندنة تنفتح لها الاسماع ، وشنشنة تألفها الطباع ، فاقترحي بابا للمحاورة ، ومطلبا للمذاكرة ، ووجها للبيان ، فانما نحن في موضوع كيفما انقلب صح فيه القياس .

أوما ترين كيف اختلفت الجرائد في أوجه المسائل بين السلب والايجاب ، والنفي والاثبات ، وهي جميعا فيما يراه كل فريق ، وما يوهمه كل دليل ، على حق فيما تقول ، وعلى هدي فيما ترى ..

فان كان رأيها الحرب فلا أيسر من ايجابها ، ببيان اسبابها ، أوليس ان الدول مدججة بالسلاح ، قائمة على قدم الكفاح ، أعدّت العساكر ، وجمعت الذخائر ، ومرنت الجند على حب القتال فظمئوا لدم الابطال ، وقدموا لحم الرجال ، حتى لو أمرهم القائد بالسير تعليما وتعويدا ثم اشتغل عن امرهم بالوقوف لاستمروا على سيرهم حتى يبلغوا اقرب العواصم الى بلادهم ، ويلاقوا أبعد الناس عن ودادهم . او ما شكت الخزائن من أثقال النفقات ، واحتاجت

١٠ – نشرت في مصر القاهرة ، العدد التاسع ، ١٧ مارث (آذار) ١٨٨٠ . أعيد نشرها في الدرر ص ١٨٥ .

المزارع الى أيدي الجند ، وطال على الناس توقع المكروه ، وانتشبت الفتنة في جميع الممالك ما بني منها على الشورى وما بقي على الاستبداد ، فالعدمية في بلاد الروس والاجتماعية في ديار الالمان ، والاباحية في قطر الفرنسيس ، والناشدون للضالة في مملكة الايطاليين ، وأحزاب ارلندة في جزائر الانكليز ، والكارلية في اسبانيا وهلم جرا . أفلا يدل ذلك على وشك وقوع الحرب شفاء لمطامع الرؤساء ، وتوسلا لاطلاق الجند ، واهمادا لفتن العامة ..

وان كان ما تراه السلم فهو الظاهر للعيان ، الغني عن البرهان ، أوليس ان ملك الايطاليين ، وملكة الانجليز ، وقائد الالمان ، ووزير النمسويين ، وسائر زعماء الدول يصرحون على المنابر بين الاملاء بحرصهم على السلم ، ونفرتهم من الحرب . وان الامم قد رات مساوىء القتال فأنكرته ، ومحاسن السلم فآثرته، فاذا رات من رجال الدولة ميلا الى الحرب تصدت لمعارضتهم فكان الصواب ما تقول . فانما نحن في زمن لا قوة فيه الا بالامة ، ولا حكم الا لها . اما الفتن في الممالك ، والمنافسات في بلاد الشرقيين، فما هي الا سحابة صيف عن قليل تقشع:

صدق السلميون وما كذب الحربيون

فالامر بيد الامم ــ في البلاد التي تبينت بها الحقوق ، وتعينت الواجبات ــ والامم كارهة للحرب ، راغبة في السلم . ولكن للامم زعماء يأخذون بالملاينة ، ان لم تنفع المخاشنة ، ولا يعارضون سيل الآراء . غير انهم يقتادونه من جانبيه فيتبع فان رام هؤلاء الزعماء حربا فلا يعجزهم طلابها ، ولا تمتنع عليهم ابوابها ، ولكن اكثر الناس من ذكر الحرب حتى قلّ خوفنا من قرب وقوعها . فانها اقرب ما تكون الى القول وأبعد ما نراها عن الفعل . ولا يرد علينا بأن ألسنة الخلق ، أقلام الحق ، فلكل عصر حكمة ، ولكل مجال مقال .

***

مجلس النواب المصري (١١)

لو ملكت من الوقت فرصة أصرفها في اختراع الكنايات ، ووضع الاسماء لغريب المسميات ، لما رضيت لهذا المجلس بلفظ يقصر عن معناه ، واسم لا ينطبق على حقيقة مسماه .

فقد كان في اول الامر الى الحركة يجمع لما يجهل اعضاؤه ويفض لما لا يعلمون.

---

١١ ــ نشرت في مصر القاهرة ، العدد الرابع ٦ شباط ١٨٨٠ ، أعيد نشرها في الدرر ص١٥١ .

فاذا صدرت اليهم الاوامر بالالتئام تبادروا الى العاصمة افواجا وفرادى ليقفوا صفوفا مرتبة في حضرة الامير او نائب الامير فيخطب فيهم بما يظهر له الفضل، ويثبت الاحسان ، فتنطق اوتار أفواههم بما يضع لها الرئيس من تواقيع المآرب، والحان المطامع ، ليثبت ما يعربون عنه باللحن المقصود في سفينة أنغام الرياء المعروفة بالوقائع المصرية فيتغنى به الناس في مجالس الراح وينظمون له القدود من امثال :

«يا مصر دمت بالافراح»

ثم يأتيهم الامر بالانفضاض مشفوفا بخطاب لا يفهم لفظه ، ولا يدرك معناه . ويعين عشرة منهم للفوز بشرف المقابلة ، والقيام بواجب الشكر ، اي لمقابلة الامير وشكره – ثم يؤمر احد العشرة بحفظ الخطاب عن ظهر الخاطر فيجهد الحافظة في استظهار تلك الرموز ثم يسير على رأس رفاقه – اي في مقدمتهم لاعلى رؤوسهم – ليقفوا بأعتاب الامير متصاغرين متحاقرين . فاذا فرغ زعيمهم من تلاوة درسه المبدوء باظهار الطاعة ، والمختوم باثبات العبودية خرجوا من الحضرة متنافسين في سبق الخدمة ، متناظرين في قدم الرق مفتخرين بكون الامير لحظهم بعينيه ، وحرّك لمخاطبتهم شفتيه ، واشار عند انصرافهم باحدى يديه .

ثم تنبهت الخواطر في مصر بما مر بها من حوادث الايام ، وما اظهرته الجرائد من احوال الامم في خلال الحرب العثمانية ، وبعد انقضائها ، فعلم النبهاء من النواب ان مجلسهم لم يكن محلا لوكلاء الامة ، بل مجمعا لغلمان الوهم ، ومحفلا لخدام الجزع ، ومنتدى لاتباع الوهن ، ومحشدا لعباد التملق، وادركوا ان لا خير في حالتهم ، ولا معنى لنيابتهم ، وانهم اما ان يكونوا احرارا فيثبت لهم ما لامثالهم في البلاد الشوروية ، وإما ان يكونوا أرقاء فينصرفوا الى الباب يحفظونه ، والقطيع يرعونه ، والزرع يحصدونه ، وما برحوا يترقبون الفرصة لقطع سلاسل العبودية حتى تسنت لهم بما وقع من الخلاف بين اميرهم السابق والوزارة الانكليزية فخرجوا من الوهن الى الجراة ، ومن ذل التقييد الى عزِ الحرية ، ورهفوا الوزارة الانكليزية بسلاح المؤاخذة فانقلبت غير مأسوف عليها . ثم راوا ان هذا التبدل وان كان مهما الا انه لا يثبت لهم النيابة ، لعدم الاستنابة ، ولا يضمن لمجلسهم البقاء والنماء ، لانحصار الاقدام في نفر من الاعضاء ، فراموا ان يضعوا للانتخاب نظاما ، ويعينوا للنيابة حدودا وتقدموا في ذلك الى رئيس الوزارة يومئذ فأجاب داعيهم حرصا على ما رآه من المصلحة فيما يطلبون ، ووضع لمجلس النواب قانونا جديـدا فعارضته السطوة الانكليزية وحالت بينه وبين تقرير القانون .

فاتضح من ذلك ان مجلس النواب المصري كان هيكلا لا روح له فلما انبعثت فيه الحياة أماته الظالم مخافة ان يكون عقبة في سبيله المصروف او ان يرى فيه

من يكشف الحجاب عن حقيقة امره ، فيظهر للامة سوء مقصده كما ظهرت خيانة كاتلينا في مجلس شيوخ الرومان بل اخذه انتقاما من اعضائه ، واعتقادا بترتب الضرر عليه .

فأما الانتقام فهو متعلق بما وقع له في مجلس النواب اذ دخله على عهد الوزارة ... ليأمر اعضاءه بالتفرق فانبرى له احدهم معترضا مؤاخذا وقال على اي وجه ننصرف ، وبأي اثر نعود الى الامة ، وماذا نجيب . ومن يسألنا اي مصلحة جلبتم ، واي مفسدة رفعتم ، واي حكم أصدرتم ، واي قانون وضعتم، انجيبهم بما قلت لاصحاب الجرائد من اننا بهم لا نفقه وهمل لا نعقل ؟ ام نقول لهم على لسانك انهم جهلاء متوحشون ليس فيهم من يفهم الخطاب ، او يحسن الجواب ؟ فعلت وجه الوزير صفرة الخجل ، مشوبة بزرقة الكمد ، وخرج على وجهه مذعورا لا يلوي على احد .

واما اعتقاده بترتب الضرر على النيابة في حال كونها مصدر النفع فلا يلام فيه وانما اللوم على الكبر الذي تمكن منه فأراه سائر الناس من دونه فلم يجد بين قومه من يصلح للنيابة ، وعلى الجهل الذي غشي بصيرته فأضلَّه عن الغرض المقصود من مجلس النواب في مصر .

فقد سمعته غير مرة يلغو بضعف المدارك المصرية عن معاني السياسة ، ومنافاة هيئتهم المدنية للنظام الشوروي ، واتفق لي ان زرته على عهد الوزارة الاجنبية في ديوان الداخلية فقابلته خارجا من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب، ثم اخذنا بأطراف الحديث فقال كيف ترون الحال ، قلت راي الوزير اوسع ، قال وما الذي يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت ان الناس قد املوا كثيرا ، ولم ينالوا شيئا ، فأوشكوا ان يعودوا الى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم ان النكسة شر من الداء ، فقال بازورار فليرجعوا الى حالة الخسف ، ويعانوا عذاب الظلم ، قلت انهم لا يرومون ذلك ، وانما يرجون نيل الحرية وتأييد الكلمة الوطنية ، فقال متهكما الا يرجون ذلك من مجلس النواب ؟ قلت لا بدع ان يطلب الشيء من معدنه، فقال اي معدن في مثل هذا المجلس وكيف يرجى له البقاء ، ويلتمس منه النفع ، وليس في مصر من يعلم شيئا من احوال السياسة الدولية ليصلح ان يكون نائبا. قلت ان صح هذا الراي فلا يقضي بحرمان البلاد من نعمة الشورى ، فان النواب المصريين غير مكلفين بالنظر في الامور السياسية لضعف حكومتهم عن ان تؤثر شيئا في الموازنة الدولية وانما شأنهم النظر في أمورهم الداخلية ، وأحوالهم الزراعية وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه، وهم بذلك أحق من غيرهم وأحرى ، فان صاحب البيت بالذي فيه أدرى . فهمهم بكلام لا يفهم وانصرفت من مجلسه متوقعا منه التحامل على مجلس النواب وما مر على ذلك غير ايام معدودة حتى وقع له في ذلك ما لا تزول عنه آثاره ولا يمحى عاره.

***

ما تكرر ذكر بلد من الشرق في مجالس نواب الغرب ، وما كثر تحـــــدث الجرائد الاوروبية في امره ، الا داخلني من الخوف عليه ما لا أعلم له سرا ، ولا استطيع فيه بيانا ، كأنما انا آخذ في ذلك بقول القائل :

وخمول ذكرك في الحياة سلامة　　　ودهاك من امسى لذكرك ناشرا

بل سر هذا الخوف اني ما سمعت رجال سياسة الغرب يلهجون بذكر مملكة شرقية سؤالا عن احوالها ، او بيانا لشؤونها ، او اهتماما بأمورهــا ، الا رأيت فيها تلو كلامهم نوازل تحرج الصدور ، ومشاكل تذهل الافكار ، وامورا لا اكاد احصرها ، أولها مزعج وآخرها .

ولقد رأيت مصر في هذه الايام موضوع نظر في مجلس نواب الانكليز يسألون عن أحوال عسكرها موجسين خيفة من قصد الزيادة فيه ، وتجيبهم الدولة بما تعود اهل السياسة من الابهام والايهام ، ثم رأيتها مكان بحث وموضوع اهتمام في جرائدهم تروي حكاية ما وقع من جندها مما أوجب ابــــدال ناظر الجهادية ، وتشفع بما يلائم المشارب على اختلافها من الشرح والتأويل . ومصر ــ ولا حياء في الحب ــ بلد تركت فيه زهرة ايام الشباب ، وخلفت باكورة غرس الآداب ، وهززت غصن الاماني رطيبا ، ولبست ثوب الآمال قشيبا ، فما عدلت بي عن حبها النكبة ، ولا أنستني عهدها الغربة ، ولست اول محب زاده البعد وجدا ، ولم ينكث على الصد عهدا . فيا

رعى الله مصرا والسلام على مصر　　　ويا حبذا مصر على الصد والهجر

فحذار اهل مصر ان العدو لكم بالمرصاد ، وانكم لمحفوفون بالعيون والارصاد. وفيكم اهل الثروة والجاه ، والكرم والسطوة ، الذين يقدرون على المساعـــدة والاسعاد ، وتغيير هيئة البلاد . وفيكم من وجه آخر فتيان ملء قلوبهم الغيرة الوطنية وملء نفوسهم حب الانسانية ، وكهول ملء اذهانهم الحكمة وملء أفكارهم الاختبار . فأنتم لا عدمتم موضع آمال سورية . وانتم حجة قابليتها للنجاح في كل حال ، واذا حصلت القابلية لم يبق الا الارارة وهـــي حاصلة لا محال . وكيف لا توجد الارادة في مثل قلوبكم المضطرمة بنار الغيرة ، وفي مثل نفوسكم الملتهبة بضرام الحمية .. (الى ان قال خطابا لراس الحضرة) فبأذنك يا مــولاي وبارادتكم سادتي ابشر سورية باصلاح قريب ، وفوز مبين تخرج به من الضعف

---

١٢ ــ نشرت في التقدم واعيد نشرها في الدرر ص ٣٤١ .

الى القوة ، وتنتقل من الهرم الى الفتوة ، وتعيد ماضي بهائها وترد بهاء مائها .. وعلى اعتقاد ما بشرت ، ويقين ما املت ، ارفع الكأس على سر آمال الوطن ــ على سر من تنتهي اليه تلك الآمال انتهاء الخطوط الى المركز ــ على سر مولاي حمدي باشا .

قال :

فتفضل أيده الله باظهار الرضى والامتنان بألفاظ كريمة تدخل الآذان بلا استئذان . ثم انفضت المأدبة وخرج والي الولاية اعزه الله بعد الاستراحة شاكرا لصاحب المنزل الوجيه ما لقي فيه مما لا يختلف في كماله اثنان ، ومما اثبته التواتر في ثغرنا حتى صار في حد العيان .

***

مطلب بيع الاوطان بابخس الاثمان (١٣)

مصر ــ القاهرة — العدد ١٩ ، ٤ حزيران ١٨٨٠

بأمر مولانا العلي الشأن رياض الوزان اعطي امتياز الري في ارض البحيرة من ترعة الخطاطبة والعطف والمحمودية لجناب المستر استون الانكليزي فصار الماء حياة القطر بيد السادة الانكليز في الاسكندرية والرمل والبحيرة فمتى موعدهم بالجهات الباقية . وعلمت ان مولانا المشار اليه سيهب المستر المذكور مائة وعشرين الف فدان من الارض البور في البحيرة يزرعها فيملكها بحق إحياء الممات.

ويعطيه او قد اعطاه على سبيل الالتزام خمسة وأربعين الف فدان من أجود مزارع الدائرة السنية المقدمة على سائر الارضين في مصر بعوض يكون جنيها واحدا عن كل فدان . فيا لله من هذا التهتيك . وانبئت ان ان ستعاد المخابرة بين استون ورياضستون على التزام سكة الحديد ووابورات النيل .. فماذا عساه يبقى في مصر لاهل مصر ... حماية الثغور ام ادارة الفنارات ، ام مصلحة الجمرك ام البريد ام التلغراف ام سكة الحديد ، ام الاملاك ام المياه ام المالية ام الوزارة وهي جميعا بيد الانكليز وما بال من يبيع منهم القطر جزءا جزءا لا يبيعه جملة بمن فيه ..

***

---

١ ــ نشرت في التقدم ، واعيد نشرها في الدرر ص ٣٦٣ .

مصر (١٤)

خلاصة أخبار ورسائل

اذا سرت نار الغيرة في القلوب ، وارتفع منار الحمية في النفوس ، واتقدت انوار العرفان في الاذهان ، وطلعت أقمار الحرية في آفاق الالباب، فبشر الاوطان بحصول الاوطار .

ولقد سرت هاتيك النار ، وارتفع ذاك المنار ، واتقدت تلك الانوار ، في قلوب تقلبت من قبل على جمر الاصطبار ، فلو رأيتها والسماك دون ما تروم ارتفاعا ، وجبهة الليث أقل ما تلتمس امتناعا ، وأعالي المعالي اقرب ما تسعى اليه ، ونجد المجد ادنى ما تحوم عليه ، لما اسفت على زمان انفقته في إحياء الهمم، ومساع بذلتها في اعلاء القيم ، بصحبة غر ميامين :

من كل ذي حكمة ومحمدة بيضاء يجلو ضياؤها الغسقا
وكل ذي همة تهم بها يدني الإمان ويبعد الفرقا
وكل ساع الى العلى عنقا غير طريق الصلاح ما طرقا
وكل داع للفضل حجته فعل يعز الذي به نطقا

فمرحبا بالغيرة من عائد عادت به صلة الحمد ، وأهلا بالهمة من خاتمة خير فتحت بها فاتحة الحمد ، ولا سقى الله اياما ، كان بها نور القلوب ظلاما ، ولا رعى الله عهودا ، كانت بها حركة الافكار ربودا ، فقل ما اردت انك لا تعدم الان مجيبا، واسأل الله وإيانا عونا كريما ونصرا قريبا .

***

مصر (١٥)

لم تزد أخبار البريد الاخير على ان اثبتت قبول صاحب الدولة شريف باشا لرئاسة الوزارة المصرية ، كما جاءنا بالتلغراف من قبل . على انها كشفت لنا طرف الحجاب عن اسباب تردده في ذلك الى ظهر يوم الثلثاء الماضي ، فعلمنا انه كان يشترط على قبول الرئاسة أمورا لا ندحة عنها ، ولا بد منها لوزير لا يروم المنصب الا لخدمة الوطن ، ولا يرضى بالامر الا صريحا قويما بريئا من الدهان

---

١٤ ـ نشرت في التقدم وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٦٣ .

١٥ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٧٢ ، تاريخ ١٩ ايلول ١٨٨١ .

والموارية .

ولم نر في جرائد مصر بيان شيء من تلك الشروط ، ولكن قرائن الاحوال وسابق العلم بالمقاصد الشريفية الشريفة ، وسالف العهد في اماني الجند ، وما اتصل بنا في هذه الايام من آراء المراسلين المحققين ، كل ذلك يفتح لنا باب الحدس والظن القريب فيما لا يزال خافيا عن بعض ذوي النقد ، على انه رأي عارض نبديه غير قاطعين به ولا جازمين .

فقد كان من مقاصد صاحب الدولة شريف باشا ، أيده الله ، اعزاز الحكومة الخديوية والوطن المصري بمجلسي نيابة وشورى يكون احدهما مؤلفا من النبهاء الوجهاء الذين يقع اختيار الامة عليهم للنظر في أمور الزراعة ومنافع الوطن من غير تعرض لما عقدت عليه المواثيق الدولية من قضايا المالية . ويؤلف الآخر من عدد معلوم من ذوي الآثار السابقة والخدم القديمة الصادقة من كبراء الوطنيين وذوي المعارف الحقة والعلوم الواسعة من فضلاء الاجنبيين لاعادة النظر في كليات الامور الادارية والقضائية . ويكون مجموع المجلسين دار ندوة وشورى على وجه الاطلاق . وبين ذهننا والخاطران هذا الرأي الصواب قد عرض للحضرة الخديوية على عهد الامير السابق ، وصدر الامر باخراجه الى عالم الفعل في الجريدة الرسمية ، ثم عرض الانقلاب المشهور فألقي الامر في زوايا الاهمال ، فاعتزل شريف باشا الوزارة اباء نفس لا ترضى الخسف ولا تقبل الخيبة وان موهها بالذهب او بماء الحياة .

فليس عجيبا ان يكون صاحب الدولة المشار اليه قد اشترط على العود الى الرئاسة اعادة هذا المأخذ الوطني الحق الى مقام النظر والاهتمام .

وكذلك نعلم من مقاصد جنابه الكريم ان تكون ادارة التفتيش والمراقبة واقفة عند الحد المعين لها من أمور المالية لا تتعداه الى غيره ، ولا يكون لها من مدخل في أحوال الادارة والقضاء بمعنى انه لا يروم نقض المبرم بالمواثيق الدولية والعهود المرعية ولكنه لا يرضى بأي شيء يخرج عن حدود تلك المواثيق والعهود ، حرصا منه على شان الوطن ، وحفظا لمقام الجناب الخديوي ، وترفيعا لمنصب الوزارة عن ان يكون كالآلة الصماء يدار بقوة الاغراض والاهواء .

وليس غريبا ان يكون الجناب الشريفي قد اشترط وقوف المراقبين الاجنبيين عند حدهما المعين المعروف ، وهو شرط لا ريب في حقيته ولا خفاء لصحة الوطنية فيه .

اما أماني الجهادية فهي فيما نعهد زيادة عدد الجند الى القدر المعين بالفرمان السلطاني الكريم ، واعادة مجلس النواب وتبديل الوزارة (السالفة) . وبين ذلك نزعات وطنية تدخل في المقاصد الشريفية . وقد بدلت الوزارة ونابت شروط صاحب الدولة شريف باشا عن الطلب المتعلق بالمجلس ، ولكن زيادة عدد الجند مما يقتضي التأمل والاستبصار ومراجعة الباب العالي ، ومذاكرة الدول العظام، ولاسيما دولة الفرنسيس والانكليز ، بما لهما من المصالح المالية في مصر .

فمن تأمل هذه الشروط والاماني على اختلافها علم ان لا بد فيها من المفاوضة والمذاكرة الطويلة بين الجناب الخديوي ووزيره المختار وقناصل الدول ورؤساء الجهادية . ولم يأخذ على صاحب الدولة شريف باشا تردده في قبول الرئاسة الى ان وضحت النيات وعلمت المآرب وحصل الاتفاق على وجهة معلومة . بل لو نهض جنابه الكريم بأعباء الوزارة على هذه الحال بلا تردد ولا تأمل ، لكان ذلك منه ضربا من العجلة لا يأمن فيه الزلل .

حسب المغلوب الساقط ما ناله من الحسرة وما نابه من الغيظ فما نزيده الما بالملام ولا نكسر فيه السهام على السهام .

فيا ايها الذين كانوا يردون في مصر موارد النعمة من طريق المداجاة ، والذين كانوا يدخلون قصور الثروة من باب المداهنة ، والذين كانوا ينيطون الآمال بأهداب الرياء ، والذين كانوا يشترون بحقوق الوطن ثمنا قليلا . انكم لن تجدوا في أحباء مصر الصابرين الكاظمين الغيظ من يعاملكم بما كنتم تعملون ، بل هم يغضون من طرفهم عفة ونزاهة ، ويعفون وهم قادرون . والكريم اذا قدر عفا واذا أصيب صبر . ولكنكم عصبة سوء اشربت منكم القلوب كراهية الحق فما تستطيعون عليه صبرا ، والا فما بالكم ترمون الجند النبهاء والوطني الشريف بما تبرئهم منه قرائن الاحوال فضلا عن صادق المقال .

تقولون الجهادية يرومون نفض ذمة الاجانب وحل عقود عهودهم واخراجهم من مصر بقوة واعناتهم بكل ما يستطيعون ، فيا أعداء الصدق الم يأتكم ان رؤساء الجهادية لم يخرجوا من القلعة الى سراي عابدين للتوسل الى الجناب الخديوي في تبديل الوزارة ، الا بعد ان أرسلوا الى قناصل الدول منشورا يؤيدون فيه تلك العهود ، وانهم لا يريدون بهم ولا بأحد من رعيتهم ولا بغيرهم من سائر الناس شرا . أولم تروا فعلهم بعد ذلك شاهدا بصدق هذا المقال فيا ويلكم انَّى ترجفون .

وتزعمون ان الوزير الشريف يروم الغاء المراقبة واخراج الغرباء جميعا من المناصب واعادة الخلل السالف واقامة امر الاستبداد ، فيا خصوم الحق ألم تروه من قبل في منصب الوزارة مقربا اهل الفضل مبعدا ذوي الاغراض الذاتية ، لا يميز في ذلك بين البعيد والغريب ولا يعبأ الا بالفضل والمزية . أولم تعلموا انه الرجل الفرد الذي ولي المناصب الخطيرة أعواما كثيرة ، ولم يكن بين قومه من ينيط به سوأ او يقول فيه كلمة لا تقال في اهل العفة والنزاهة وكرم الاخلاق . ام عددتم الرغبة في الشورى دليلا على حب الاستبداد . .

ولكن كل ذلك لا يفيدكم خيرا ولا يدرأ عنكم صبرا ، فلقد ظهر امر الحق وزهق الباطل ، ولسوف تعلمون كيف كانت عاقبة المرجفين . فيا اهل مصر نداء خادم عرفتم صدقه في القرب والبعد ، وحفظتم عهده على السراء والضراء ان المنافقين يريدون تفريركم بما يرجفون ، فقابلوهم بأذن لا تسمع البذاء وعين لا ترى الفحشاء وقلب لا مكان لغير حب الوطن فيه ورأي لا نصيب لغير الحكمة منه ، وكونوا على اعداء الوطن أعوانا ، وفي الذود عنه اخوانا . والله ولي

توفيقكم وهو مولاكم ونصيركم ونعم المولى ونعم النصير .

***

تذكرة اجمالية (١٦)

نحن في زمن الكهرباء والبخار ، زمن السرعة التي تحار فيها الافكار ، فربما عرض في يومه من حوادث الايام ، ما لم يكن يعرض من قبله في الشهر والعام، وقد اتى على التقدم خمسة اشهر لم يرتفع عنه حجاب الخفاء ، ولم ينطلق منه لسان البيان ، فما نطمع في تضمين هذا العدد منه اخبار تلك الايام تفصيلا ، ولكنها تذكرة اجمالية نمر بها على الافكار خلاصة من مهمات وقائـــــع الامس ، تمهيدا وايضاحا لما سيجيء به الغد .

واهم الحوادث التي مرت بعالم السياسة في هذه الايام نازلة مصر ، وما احد من القراء يجهل ما افضت اليه نازلة مصر منذ وقعت فتنة الاسكندرية ، الى يوم تهدمت قلاعها بمدافع الانكليز ، واحترقت منازلها بنيران الاغبياء ، ومنذ أقيـم معسكر كفر الدوار الى يوم تساقطت حصون التل الكبير بضرب الطبول ونفــخ الابواق ، كما تساقطت أسوار اريحا بمثل ذلك في العهد القديم ، ومنذ قويت شوكة العصبة العسكرية في ديار مصر الى يوم افاقت من رقدة الغفلة ، فلم تر من تلك القوة شيئا :

كما قبض الدينار في الليل حالم ‏ ‏ ‏ ‏ وأصبح لم يلق الذي كان قابضا

غير ان العلم بنتائج تلك النازلة غير العلم بأسبابها ومقدماتها ، وأسرارهـا ، ومعداتها ، من قبل ظهورها الاخير . بل ذلك مجال أقوال علقت بأطرافهـــا الاوهام ، فسترت حقائقها عن الافهام الا مظاهر آثار تغر الافكار ، وظواهر احوال تخدع الابصار . فالنازلة المصرية قديمة الاصل ، بعيدة السبب ، متعلقة مـــن رطفها الاول بتدخل الطامعين ، ومن الاخير بجهل الفاتنين ، وبين الطرفين حركة فكرية تقارن فيها الطمع والحسد ، فأولدا ما رأينا من الخصام والشقاق واللدد، وبئس الولدان وبئس الولد . فأما تدخل الطامعين فقد ابتدأ منذ انتشر الاجانب في الديار المصرية ، وتضاربت فيه مصالحهم السياسية والتجارية ، ثم امتـد بديون اسماعيل باشا واشتد بالمجالس المختلطة عام ١٨٧١ وزاد على الحد بتوحيد الديون عام ١٨٧٦ ثم أعلاه ديوان التفتيش فظهر ، ووسعت له لجنة التصفيـــة

---

١٦ ـ مقالة نشرها في التقدم ، وأعيد نشرها في الدرر ، ص ٣٧٣ .

فانتشر ، وحفظته المراقبة المالية فاستقر واستمر . وأما الحركة الفكرية فقد سرت ابتداء من جانب الغرب على السنة الذين أرسلوا الى البلاد الاوروبية من اهل مصر ، والذين هبطوا مصر من الاوروبيين ، لم يقصدوها بالذات ولكنها نشأت عما ظهر من أحوالهم ، واشتهر من أقوالهم ، ثم ذاعت بالخطابة في الجمعيات ، وشاعت بالكتابة في صحف الاخبار ، حتى انتشرت في أذهان العوام كغيرها من الثورات ، فانتهت فيها الرئاسة لنفر من القوم لم يسلموا من الجهل ، ولم يتنزهوا عن الطمع الدنيء ، فقصرت افهامهم عن ادراك أحكام الزمان وعواقب الامور ، فنفذت فيهم حيل الخادعين ، وضاقت صدورهم عن الجلد فراموا في الشهر ما لا ينال في الاعوام . ثم رأوا تهيب الامة من عواقب التهور فأضرموا في القلوب نار البغضاء للاجنبي ، وهاجوا في الصدور عواصف التعصب للدين ، وأماتوا صحف الاعتدال فقامت على مدافنها جرائد الطيش والغلو ، وباتت جمعيات الخير ، ومحافل الخطباء ، مجامع للاهواء ومظاهر للبغضاء . فانحصرت الكتابة في الحث على معاداة الغرباء ، وانحبست الخطابة على الدعوة الي مناواة أرباب الحقوق ، وصارت الجمعيات آلات لنيل اغراض النفوس ، حتى صح من هذا الوجه اعتبار الفتنة محصورة في عصابة من الطامعين ، لم تتجاوزهم الى سائر الناس الا كما فاض الحوض فبل ما يليه ، ولم تتبعهم العامة فيها الا كما تبع الجياع حملة القصاع وما هم بمدعوين .

ولا يسع المقام ، ولا يتسع اللسان ، بتفصيل هذا الاجمال وان كان من ورائه أمور تضيق بها الصدور ، فغاية الامكان في القول ان النازلة المصرية قد مرت الى الان بخمسة أدوار معلومة الحدود : الاول من التدخل الاجنبي الى الحركة الفكرية الى وقوع تلك الحركة بأيدي الجهلاء والطامعين، وهو دور الرجاء: والثاني من الحركة العسكرية التي افضت الى استعفاء عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية المصرية — يومئذ — الى ظهور هذه الحركة بساحة عابدين في طلب تبديل الوزارة ، وتقرير قانون العسكرية ، وانشاء مجلس النواب ، وهو دور الظهور بعد الخفاء . والثالث من وزارة شريف باشا الى يوم تظاهر العسكرية بالانحراف عنه ، وهو دور التقدم والنماء :والرابع من استعفاء الوزارة الشريفية، الى انقضاء الوزارة البارودية العرابية ، وهو دور تهيج الداء : والخامس من حصول السلطة الفعلية ، بيد القوة العسكرية ، يوم فتنة الاسكندرية ، وما تلاه من انهدام حصونها بمدافع الانكليز ، وهو دور امتناع الدواء .

وبعد هذه الادوار الخمسة دور التلاشي والفناء الذي كان من مشاكل احواله وغوامض اسراره وعجائب آثاره ، ان بضعة عشر الفا من الانكليز دكوا حصون التل الكبير وانتصروا فيه على ثلاثين الفا من الجند في عشرين دقائق معدودة ، ثم طارت فرسانهم الى الزقازيق ، الى مصر ، فاستولوا على العاصمة ، وأسروا زعماء العصابة العسكرية ، ثم تفرق عسكر كفر الدوار ، وتمزق جيش المكس ، وانتشرت سطوة الانكليز في سائر انحاء القطر ، وكل ذلك في يومين . فيا مصر

يا ارض المعجزات ، حتام تجتمع فيك خوارق العادات .

والنازلة الان في دور جديد ، جدير بأن يسمى دور التجديد ، وهو من وراء حجب السياسة الانكليزية . وما يجهل احد ان هذه السياسة لا تشف عما وراءها حتى تتم لها معدات الظهور ، وتأمن فيه غير الاحوال فعسى ان يظهر على الوجه الملائم لمنفعة الديار المصرية ، وان لا يداخله شيء مما يخالف مصلحة الدولة العلية.

ومن الحوادث المهمة التي مرت بالتقدم في عطلته المذكورة ، وفاة محمد الصادق باي تونس رحمه الله ، ورسوخ قدم الفرنسيس في هذه الولاية ، وسعيهم في اطلاقها من قيود العهود القاضية باستقلال وكلاء الدول فيما يتعلق برعاياها من الاحكام ، ليكون المرجع في ذلك الى المحاكم الوطنية ، المأخوذ في تنظيمها تحت نظارة الحكومة الفرنسوية .

ومن تلك الحوادث مسألة تنكين المراد بها تقرير حماية الفرنسيس في تلك البلاد ، وقد انتهت بحلول فريق من عسكرهم بها على ما جاء بالتلفراف منذ بضعة ايام . ومسألة مداغسكر والمراد بها ادخال هذه المملكة في تلك الحماية ، ولسوف تنتهي بما يقرب من هذا القصد ولكن ليس بتنكين ولا بمدغسكر عوض من وادي النيل .

واقرب تلك الحوادث الينا ، واحقها بالتقدم لدينا ، استقامة أمور المالية العثمانية ، وانحسام الكثير من مشاكل دولتنا العلية ، وانصراف الهمة للاصلاح الذي ما برح في النية ، واجازة كثير من مشروعات المنافع العمومية ، وقد كان نصيبنا من هذه المنافع انشاء سكة حديد من عكا الى الناصرة ، وطريق عربات من طرابلس الى حمص ، وسيليه ان شاء الله انشاء مرفأ بيروت وهي حسنات ناطقة بالدعاء للحضرة السلطانية داعية الى الثناء على حضرة صاحب الابهة والدولة والي الولاية السورية شكر الله سعيه واجتهاده وأناله من الاصلاح مراده .

* * *

احوال الحكومة المصرية (١٧)

بكيت من البين مستضحكا   وشر الشدائد ما يضحك

اتتنا صحيفة (اجسيان غازيت) الانكليزية المطبوعة في مصر ، واجدة على نظار الحكومة الخديوية ، لا تكتم الكدر ولا تكظم الفيظ ، ولا تأخذ بمعاريض الكلام في التحامل عليهم ، بل تسلقهم بلسان جاوز حده الحد ، غير مبالية بما

---

١٧ ــ نشرت في التقدم ، العدد ٦٧ ، تاريخ ٣٠ آب ١٨٨٣ .

نالها وما عساه ان ينالها من العقاب والحد . فهي تقول ان رئيس النظار كان يغالب الوباء بتنشق حناجير الدواء في قصره الفاخر بمحمودية الاسكندرية ، وان ناظر الداخلية لم يكن يقوى على امضاء شيء من احكام المجالس الصحية واللجان الطبية ، وان سائر عمال الحكومة المصرية الحاضرة كانوا من عجائب الايام في العجز والجهالة والعقم عن الفائدة وبلادة الطباع ، حتى انهم اضطروا قائد الجيش الانكليزي لتوعد الحكومة بأن يتولى بنفسه امر البلاد ، وحتى اهتز لهم الجناب الخديوي الى القاهرة بغية تدبير الامور وحسم اسباب الفساد . فقد جاء يوم عزلهم اجمعين فلن يستأخروا عنه ساعة انهم كل على البلاد يضرون وما هم بنافعين الى غير ذلك من الذم والطعن الذي لا يماثله في الغرابة والشدة الا ما بذلته الغازيت لهؤلاء الرجال من المدح والثناء والحمد والاطراء ايام كانوا يمالئون الحكومة الانكليزية على ما تريد ، وكان عمال هذه الحكومة يثنون عليهم بكل لسان في كل مكان . ولست تجهل ان جريدة الغازيت انما هي مجلى الآراء الانكليزية في مصر ، فاذا تدبرت ما قدمناه من طعنها البالغ الشديد في هيأة النظارة المصرية علمت انها صائرة الى الزوال وقرأت عليها سبحان الدائم الباقي على كل حال .. فان قلت ما غرض الانكليز من تغيير هذه النظارة المشار اليها على كونها لم تخرج في معاملتهم عن حد المجاملة والموافقة ، ولم تجاهرهم بشيء من المخالفة والمعارضة ، قلت انهم يلتمسون رجالا اشد من رجال هذه النظارة عزما واعظم منهم اقداما على قضاء الحاجة التي في انفس الانكليز من مصر . ثم هذه عادة الامم الفاتحة ولاسيما هذا الجيل في استخدام الرجال للاغراض السياسية يستعملون الرجل المسوّد من اهل البلد الذي هم فيه حتى تخلق ديباجته وتبلى جدته وتنحرف عنه القلوب وينخفض شأنه بين ذويه ، ثم يستبدلونه بغيره ممن صانت العزلة شأنهم عن الانحطاط ، فيمتصون منه ما استطاعوا من النفع ، ثم ينبذونه نبذ النواة بل يطرحونه طرح القذاة صاغرا مذموما ناضب ماء الفائدة ، حتى يأتوا على آخر الرجال المشار اليهم في ذلك البلد السيىء البخت ، فتقول جرائدهم لقد بلونا هؤلاء القوم واحدا بعد واحد ، ولم نألهم صبرا عليهم وهداية الى سبل الرشاد ، فما رأينا منهم من يستطيع القيام بأمر بلاده على ما يقتضيه من الحكمة وما يلزمه من الحزم وحسن التدبير ، فنحن نتولى هذا الامر بأنفسنا خدمة للتمدن والانسانية وتخلصا مما يلزمنا من التبعة والمسئولية كارهين مضطرين .. وهو عين القول الذي تلهج به اليوم جرائد الانكليز الخطيرة وفي مقدمتهن التمس وستندر وديلي نيوز وغيرهن :

على اتفاق معان واختلاف رويّ _ كأنها خط ذاك السائح الهروي

وقد زعمت الغازيت «رواية عن مكاتبها في القاهرة» ان السنة الناس متفقة على الجزم بانقلاب النظارة المصرية عما قريب ، وان الجناب الخديوي سيدعو الى

رئاستها حضرة صاحب الدولة رياض باشا . ثم قالت والذي نعلمه ان حضرة رياض باشا لا يأبى خدمة وطنه على شروط ممكنة معلومة . انتهى . ونحن وان كان ما وقعمن النفرةبين حضرة المشار اليه والعاجز كاتبهذه الحروف، مما جرح وبرح وما كاد يبقي للصلح من مطرح ، الا انه يسوءنا ان يصح هذا الخبر ضنا بحضرة رياض باشا ان يبذل شأنه كما ابتذل ، واأسفاه شأن الوزير الشريف فهما في أفق السياسة المصرية قمران تستنير بهما كواكبه ، وان غاب منهما واحد قام صاحبه . وهما على اختلافهما في الراي والمشرب وأساليب التدبير اوسع رجال مصر معارف سياسية وأقدرهم على النهوض برئاسة الحكومة الاجرائية ، فان اخلق الابتذال ديباجتهما وضاع ما لهما من القدر العالي لم يبق في مصر من ذوي اللياقة بمنصب الوزارة الرفيع الا نفر من وراء حجاب خفاء يجذبهم الفضل الى عالم الظهور ويدفعهم عنه جهل القوم بأقدارهم فان سعوا فما هم بمدركين وان نادوا فما هم بمسمعين . فاذا استقال نظار الحكومة المصرية فما تكون نظارتها الجديدة اية كانت الا مظهرا آخر من مظاهر الضعف والخلل وضياع الامل . ثم لا تلبث الا بمقدار ما تعرض الفرصة لانقلابها فان لم يأتها وباء من الهند جاءها البلاء من السودان ، او نزلت بها نازلة حبشية أو بدا للشرطة فيها سر جمعية وهمية فترمى بالجهل وفساد الرأي وسوء التدبير وتذهب كأن لم تغن شيئا . ولا اسف على الرجال لولا ان ابتذالهم على هذه الكيفية حيلة يراد منها التهام وادي النيل فهو وان كان مرتع الاوغاد ومطلع سعود المنافقين ومظهر نجاح الاغبياء والمفسدين :

بلد له منا وفاء دائم ولنا عليه حرمة وذمام

فواأسفاه عليه لقد صار طعمة للآكلين ومضغة في أفواه الطامعين . وما هو اسير فيبذل له الفداء ، ولا طليق فيصرف أموره كما يشاء ، ولكنه بين اللجة والساحل يرجو السلامة ولا يأمن الغرق :

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

ولسنا مع ذلك نيأس من نجاته لعلمنا بأن بقاءه على هذه الحال من المحال ، والله ولي الامور وإليه المرجع والمآل .

***

راي عثماني
في احوال مصر (١٨)

لم تزل مسألة جلاء العساكر الانكليزية عن القطر المصري مجالا تتبارى فيه سوابق الآراء على اختلاف المشارب والاهواء . وما برح اهل الراي وارباب النقد فيها فريقين متعارضين . احدهما يعتقد او يرى من نفسه الاعتقاد بأن الدولة الانكليزية صادقة فيما ادعته من الارتياح لاخلاء مصر من عسكرها لا يعوقها عن ذلك مانع من التماس النفع ، ولا تنتظر فيه الا صفو الحال واستقامة الامر وحصول الحكومة الخديوية في مأمن من الفتنة والعصيان . والآخر يحسب هذه الدعوى وما تلاها من الوعود المتعاقبة في الجرائد وعلى المنابر من قبيل التمويه السياسي والمداورة التي تدور عليها اقوال رجال السياسة واعمالهم في هذه الايام . وقد رضي كل فريق مشربهم وأيدوه بما سنح لهم من الادلة والبراهين فقال المصدقون ان حكومة الانكليز قد وعدت قومها والدول العظام باخراج عسكرها من مصر وعدا جليا صريحا لا يحتمل التوجيه والتأويل فلا بد لها من انجاز هذا الوعد حفظا لكرامتها عند امتها ومراعاة لما تقتضيه احكام (المناسبات) الدولية اي المعاملات السياسية . وقال المشككون بل الحكومة الانكليزية غير مقيدة بما وعدت من تخلية مصر ، فانها قد ارسلت ذلك الوعد مطلقا مبهما غير مقترن بزمان ، ثم اشترطت فيه من انتظام الامور واستقامة الاحوال وزوال الخوف من الفساد والخلل في الحال والمآل ما ليس لمرونته من حد يمدد ويوسع ما تشاء . وزعم اولئك ان غاية ما ترومه انكلترة في مصر انما هو الكلمة النافذة عند حكومتها ومنزلة الحب والوقار عند المصريين . وقد التمست هذا الفرض بأسبابه من بث عمالها في الادارات وضباطها في الجيش والتظاهر بشدة الارتياح الى اصلاح احوال البلاد وصدق الرغبة في حفظ حقوق القوم وهي أرشد من ان تحمل المصريين على كراهيتها باستبقاء شرذمة من الجند بين ظهرانيهم لا تغني عنها الا كما اغنت بقية عسكرها في بلاد الافغان . وقال اهل الشك بل المعروف من تاريخ الدولة الانكليزية في الشرق والغرب انها اذا دخلت بلدا لم تخرج منه الا بقوة غالبة ، لا تنفع فيها الحيلة ، ولا ينجع حسن التدبير ، كما جرى لها في بلاد الافغان والولايات المتحدة الاميركية من قبل . يدل على ذلك تاريخ تملكها للهند ومالطة وغيرهما من الاقطار والجزائر التي هي ابواب البحار .

وانّا لنترك الفريقين وما يقولان لا نصحح منه دعوى ولا نرجح رأيا ، فالامر من وراء حجاب المستقبل ولا يصح في مثله الرجم بالغيب ، ولكن نقول على تقدير الصحة فيما تدعيه انكلترة من الرغبة في تخلية مصر «للمصريين» ان هذه

---

١٨ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٨٩ ، بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٨٨٣ .

الحكومة لم تعد باخراج عسكرها من القطر المصري في زمن معين بلا شرط ولا احتراز ، وانما اشترطت في ذلك شروطا من نحو استتباب الامن واستقرار الراحة وانتظام الاحوال واستقامة الامور وتعزز الجناب الخديوي بقوة يخافهـا الجريء ، فتكون كافلة بنفوذ امره واستحكام الطاعة له في النفوس . فهذه الشروط اما ان يراد تحصيلها عنوة باعتبار ان المصريين كارهون لها فلا بد من الوصول اليها من بقاء القوة الاجنبية زمنا طويلا لا تعرف غايته ولا تدرك نهايته ، وهو مبطل لدعوى الحكومة الانكليزية راسا ، واما ان يرام ادراكها باللين والمجاملة وحسن المعاملة وتأليف القلوب على الرضى بالامر الواقع والسكون الى الطاعة والامتثال ، فلا بد فيه من تغيير ما بأنفس المصريين مما نطقت به جرائدهم ونالها من اجله عقاب الغرامة والتعطيل والالغاء . وقد علمت الحكومة الانكليزية انها لا تستطيع ذلك بما بينها وبين المصريين من اختلاف الجنس والدين الموجب لتنافر الطباع وتباعد الآراء . فان كانت صادقة فيما ادعته فقد لزمتها الاستعانة عليه بمن يستسهل ادراك ما لم تصل اليه .

وكأني بمن لحن هذا القول ممن غرتهم اراجيف المنافقين ولم يقفوا على اسرار الضمائر في البلاد الشرقية يقول معترضا ، لقد نطقت عن الهوى فالدولة الانكليزية أعز جانبا واشد بأسا وأحسن تدبيرا من ان تعجز عما تقوى عليه الدولة العلية في مصر . فأجيبه لك العذر فيما ذهبت اليه فقد خفي عنك ما بقلوب المصريين من الحب القديم والولاء الصادق للدولة التي يعترفون لها بالسيادة المطلقة ، ولا يمتثلون لغيرها امرا . ولم تدر ما فرض على المسلمين من الطاعة لامامهم وخليفة الله عليهم القائم فيهم بمصلحة الدنيا والدين . ولو عرفت هذا وذاك لايقنت ان الذي يستطيعه نفر من اهل السياسة والعلم يرسلهم سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الى المصريين ، ولا يقوى عليه دعاة رجال السياسة الانكليزية ، ولو تعززوا بألوف من الجند .

اقول قولي هذا ، وما لي من مأرب غير اني اروم الراحة والهناء لمصر ، وأشفق من ان يطول بقاؤها على حالها الحاضرة من القلق والاضطراب واختلال الامور وفساد القلوب ، فتكون بها فتنة ثانية يؤخذ بها البريء بما فعل وتعاودها علة الشقاق بعد وافدة الوباء والنكسة شر من الداء . فان رام الانكليز تحقيق ما يدعون من الرغبة في تقرير الراحة وتنظيم الامور وحفظ الحقوق وتأليف القلوب على الصفاء في مصر ، فما لهم غير السبيل الذي اشرنا اليه وايم الله ان تلاوة براءة شريفة سلطانية على منابر الجوامع لتفعل في أنفس المصريين ما لا يفعله صياح الجنود المجندة واصوات المدافع .

***

ديون الفلاحين
في مصر (١٩)

تنبهت الحكومة المصرية لأمر الديون الفادحة الملقاة على عواتق أرباب الفلاحة من قومها بما نالهم في الايام السالفة من شره العمال وظلم الجباة وكثرة المغارم وثقل الضرائب ، وما نابهم من قسوة قلوب المرابين وفساد أنفس الحكام وكثرة اللصوص الذين كانوا يتسمون زورا وبهتانا بسمة التجار ، فانتدبت لجنة من نبهاء رجالها للنظر في هذا الامر الخطير ، الذي اوشك ان يخرج ارض مصر من أيدي المصريين والتماس العلم بمقدار تلك الديون والبحث عما يمكن التوسل به لتدارك الفلاحين بما ينقذهم من مخالب المرابين في الحال والاستقبال . فلم يتيسر لتلك اللجنة تعيين مقدار الديون ولا الحدس به على التقريب لجهل اكثر الفلاحين بما عليهم من اموال التجار والصيارفة والبنوك . وكان من رأيها في جملة الامر ان تتولى الحكومة امور أرباب الفلاحة متصرفة في وفاء ديونهم ووقايتهم من آفة الرباء الفاحش كما يتصرف الوصي في امر القاصر . وهذا الراي وان كان منافيا لما التمسه المصريون لأنفسهم وما وعدوا به غير مرة من الحرية الذاتية ، الا انه غير عنيف وغير بعيد من الصواب والحكمة بالنظر الى المعروف من احوال الفلاحين من وجه انهم قوم سذج اغرار ، لا يحسنون تدبير امورهم ، ولا يتصرفون فيها على موجب الحكمة الواقية من الضرر ، ولا يعرفون من اساليب المعاملة التجارية ما يتقون به خديعة المحتالين . ولكن لا بد فيه من توفر شروط الرفق والامانة وحسن التدبير فيمن يقام لهم وليا ويكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وما يحتاج اليه في ذلك الرأي امهال الفلاحين في وفاء ديونهم الى ان يتسنى للحكومة تدارك امرهم بما تهتدي اليه من الوسائل . ولا ينفع هذا الامهال ما لم توافق الدول الاجنبية عليه فتكف المجالس المختلطة عن الحكم ببيع املاك الفلاحين واطيانهم المرهونة عند الاجانب من ارباب الديون . ثم يتعين على الحكومة أن تلتمس قرضا جديدا لا يكون فيما نظن أقل من قرض روشلد الذي رهنت له من املاك البيت الخديوي ما يقارب خمس المزروع من اراضي مصر . وهذا على ما فيه من الصعوبة غير بعيد من الامكان خصوصا اذا وضعت املاك المديونين رهنا على القرض ، ولكن لا بد في الوصول اليه من الزمن الطويل بما يلزم فيه من مفاوضة الصيارفة في البلاد الاوروبوية وتعيين مقادير الديون . وعسير على اهل التجارة وأرباب الديون احتمال اضرار العطلة زمنا طويلا ، ولاسيما بعد الذي نابهم من النوائب المتلونة في هذه الاعوام الاخيرة فالامر

١٩- نشرت في التقدم ، العدد ٩٠ ، تاريخ ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٨٣ .

مشكل من هذا الوجه ومن سائر الوجوه كما سنبينه في الكلام على رأي بعض الجرائد فيه .

وقد بحثت فيه الجرائد الانكليزية وبعض جرائد مصر ، وكان من رأي مرآة الشرق في وفاء الديون «ان تستعلم الحكومة عن مقدار الديون المطلوبة من الاهالي ، فمتى علمت ذلك تعين عليها ان تلتمس قرضا عموميا لوفاء الديون المذكورة ، وأن تجعل رهنا شرعيا لها جميع املاك الاهالي المديونين ، ثم تجعل هذا الرهن ضمانة للقرض العمومي الذي يصير مطلوبا من الحكومة . وينبغي عليها ان تعين استهلاك الدَين على سنين معدودة في آجال محدودة ، وأن تخصص على كل من الاهالي مبلغا معلوما يقوم بوفاه بحيث تتناسق الآجال وتتناسب قيمة ما دفع من الاموال مع الآجال وقيمة الاموال التي تقررها الحكومة السنية على نفسها في كل سنة بالنظر الى أرباب الرقض العمومي» .

وكان من رأيها اي المراة في وقاية الفلاحين من معاودة الوقوع في حبائل المرابين انشاء بنك زراعيٍ كبير يكون تحت ملاحظة الحكومة «منسوبا اليها وجاريا في تصرفها ، فاذا احتاج احد أرباب الزراعة الى نقود فلا يمكنه ان يحصل على قرض ما الا من ذلك البنك الذي يكون بمثابة خزينة الحكومة ، ثم يتقرر في لائحة ذلك البنكِ ان لا يقرض اي مبلغ لارباب الزراعة ما لم يظهر فيه وجه الحاجة الضرورية النافعة للزراعة» .

ونحن نقول اذا رهنت مزارع المديونين من اهل الفلاحة عند الحكومة ثم جعلت ضمانا للقرض الجديد ، فاما ان يتولاها أربابها فلاحة وزرعا واستغلالا ، وتفرض عليهم مقادير معينة من المال بحسب مبالغ الديون ، يدفعونها برسم الفائدة والاستهلاك في جملة ما يبذلون من الضرائب والرسوم ، وهذا لا يؤمن فيه ضياع كثير من المال بتأخر الفلاحين عن اداء المفروض عليهم منه ، كما يتأخرون عن دفع الضرائب في بعض الاعوام ، فتغرم الحكومة ما لا تحتمله خزينتها من الخسارة في هذا القرض الجديد ، فيكون مع الدائرة السنية وقرض روشلد ثالثة الاثافي وإما ان تقام لتلك المزارع ادارة من مثل ادارة الاملاك الاميرية المرهونة عند روشلد تراقب الفلاحين في ارضهم وتأخذ فريضة الدَين من غلتها ، وهذا الوجه يقتضي من سعة النفقة ما رات الحكومة المصرية مثاله في ادارة الدومين عيانا ولا حاجة للبيان بعد العيان . فمن تدبر صعوبة الامر من هذين الوجهين لم يعجب ان تعدل الحكومة المصرية عنه الى رأي آخر يكون وجه التسوية فيه ان تستميل الدول الاجنبية الى كف المجالس المختلطة عن بيع الاطيان المرهونة الى اجل طويل مسمى . ثم تجعل المديونين من اهل الفلاحة بمنزلة المفاليس من التجار ، على ان تلزمهم وفاء الديون أقساطا مرتبة على ازمنة تنتهي بأنقضاء ذلك الاجل . ثم تعلمهم على ألسنة الجرائد والعمال والعمد والمشايخ مرارا ان الذي يتوقف منهم في تأدية القسط المفروض عليه تباع أطيانه لا محال، ولا تغفل مع ذلك عما ينال أرباب الديون من ضرر عطلة المال ، فلا ترحمهم فائدته

النظامية في خلال مدة الاقساط فذلك ادنى الى العدل وأحفظ للمصلحة العمومية وأوقى للتجارة والكساد والبوار .

وأما البنك الزراعي على الوجه المبسوط في كلام المرآة فلنا فيه نظر من وجهين ، الاول قول المرآة ينبغي لهذا البنك «ان لا يقرض اي مبلغ لارباب الزراعة ما لم يظهر فيه وجه الحاجة الضرورية النافعة» فهذا القيد مستحيل الضبط لامتناع العلم بأحوال الافراد عموما وحقيقة ما تمسهم الحاجة اليه ، ولانه لا يعسر على اي كان من الفلاحين ان يظهر وجه الحاجة بل المنفعة الزراعية فيما يلتمس من القرض لتزويج فتاه او تجهيز فتاته او ختن اطفاله او غير ذلك من الحاجات الخصوصية . والثاني قول الجريدة المومأ اليها «واذا احتاج احد أرباب الزراعة الى نقود فلا يمكنه ان يحصل على قرض ما الا من ذلك البنك» . فهذا الحظر لا يستقيم ولا يمكن الا اذا ألغيت الصيرفة من القطر المصري ومنع تجاره من معاملة الفلاحين بالتسليف الذي هو ضرب من المبايعة بالوفاء او حكم بفساد ما يعقده اهل الفلاحة من الدَين باعتبار انهم قصَّر او معاتيه ، والاول مناف للمعروف من حقوق الامم ، مخالف للمرعي من المعاهدات الدولية ، وفي الثاني من تأخير المصريين عن المقام المعد لهم في عالم الانسان ما لا ينبغي لحكومتهم ان ترضاه . فأقرب ما يمكنها التوسل به لوقاية الفلاحين ممَّا تخاف عليهم من المرابين ، ان تجعل فائدة الدَين في البنك الجديد أقل من أدنى ما يمكن الصيارفة تعيينه لاموالهم رباء ، وان تمهد للفلاحين سبيل الوصول اليه والحصول على ما يطلبون منه ، فتنشيء له فروعا كثيرة في القطر وتجعل مأموريه وكتابه والذين يفاوضون الناس من عماله ممن يحسنون التكلم بلغة البلاد ليتقي اهل الفلاحة خديعة السمسار وتجني الترجمان ، ولا تضيع ايامهم سدى على ابواب البنك ينتظرون ترجمة الاوراق وصدور امر الناظر الى الرئيس وأمر الرئيس الى الكاتب واشارة الكاتب الى الحاسب وعلامة الحاسب لامين المال كما كانت حالهم مع البنك الزراعي في مصر ، حيث كنا نراهم وقوفا على الباب او جلوسا في الساحة على التراب جماهير يتقلبون على جمر الصبر ويحترقون بنار الانتظار . فان فعلت وتيسر للفلاح ان يأخذ المئة بخمسة او بستة في العام من البنك فلن يأخذها بعشرين وثلاثين واربعين وفوق ذلك من الصيرفي ، وان كان أباه او اخاه .

هذا رأينا ولسنا نحسبه فصل الخطاب ، ولا ندعي له تمام الصحة والصواب ، فان صادف محلا بين آراء المشتغلين بهذه المسألة الخطيرة في القطر المصري فتلك غاية ما قصدنا اليه .

***

مسالة السودان

اشرنا في العدد السابق الى ما تناقلته الالسن عندنا من خبر انتصار المتمهدي على عساكر الجنرال هكس في السودان . ولم نجزم بصحة هذا النبأ لعدم السند الصحيح في روايته ، ولكن قلنا ان هبوط سعر القراطيس المصرية الى ٦٧ ثم الى ٦٣ كما نبأنا التلغراف صادرا من لندرة مما يبعث على ترجيح وجه الصحة منه . ونحن الان نعيد ما أبديناه من سابق التردد في تصديق الخبر لنذكر غير مأخوذ علينا ما اتصل بنا وما بدا لنا مما يوضح شيئا من خفايا الامر فنقول : كان فيما نقلناه من تلغرافات جرائد الاستانة تلغراف صادر من عدن الى شركة هافاس في خامس عشر الشهر يعلم منه ان الجنرال هكس محفوف برجال المتمهدي (٢١) ، وقد انقطعت خطوط اتصاله بسواكن . فهذا الخبر يمكن ان يعد توطئة لتصحيح تلك الاشاعة ، فانه ليس من العجيب ان يغلب من احدقت به اعداؤه من كل جانب . وقد افادنا ثقة من تجار مصر المتخلفين عندنا ان خبر انتصار المتمهدي جاءه بالتلغراف من الخرطوم بوسيلة متفق عليها بينه وبين عميله في تلك المدينة وهي ان يكتب له العميل اذا انتصر المتمهدي (ان يمنع بيع الصمغ حالا واذا انكسر فيكون ما يكتبه اليه (ان يبيع الصمغ بلا تردد) فورد له في هذه الايام تلغراف بالمفاد الاول اي بمنع بيع الصمغ فصح عنده ذلك الخبر الذي شاع. وليس الامر ببيع الصمغ او النهي عنه في الحالتين السابق ذكرهما خارجا عن حدود المصلحة التجارية بل الوجه الظاهر من معناهما منطبق على مقتضيات الحال ، فان انتصار المتمهدي يعوق التجار عن اجتلاب الصمغ من السودان فيعلو سعره فيكون من مصلحة التاجر ان يتوقف في بيعه حتى يبلغ اعلى درجات الغلاء والعكس بالعكس. وجملة القول انّا لا نقطع بصحة ما شاع من حصول النصر التام للمتمهدي السوداني وان كان فيما بسطناه ما يمكن الاستدلال به عليها . ونسأل الله تعجيل حسم الفتنة واعادة الراحة والامن رحمة بالناس فان مسألة السودان وان كانت اجنبية عن المسائل السياسية العمومية الا ان تعلقها بالمسألة المصرية وما يترتب عليها من قلق النفوس واضطراب الخواطر والتواء النيات وضعف الامن والثقة التجارية في القطر المصري مع كثرة ما يلزم حكومته فيها من النفقات كل ذلك مما يبعثنا على تمني انحسامها من اقرب الطرق . واذا صح خبر انتصار المتمهدي فلا شك ان الحكومة الخديوية تشعر بضرورة التعجيل في استئصال

---

٢٠ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٩٣ ، تاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٨٣ .

٢١ ـ يبدو انه يسخر من المهدي .

اسباب الفتنة وان الدولة العلية ودولة انكلترة لا تتقاعدان عن مساعدتها على ذلك هذه بالعدول عما يوجب فساد القلوب عليها في مصر وتلك بما لها من السطوة ونفوذ الكلمة والسيادة الراهنة في الممالك الاسلامية .

هبوط سعر الورق

كان سعر القراطيس المصرية في بورس لندرة قبيل الاسبوع الماضي واحدا وسبعين وربعا ، ثم هبط فجأة الى سبعة وستين ثم الى اثنين وستين . وجاء امس التلغراف الى احد كبار التجار انه زاد هبوطا فصار واحدا وستين وربعا. ولم يعلم لهذا الهبوط السريع الهائل من سبب فاختلفت في امره الظنون والآراء فمن قائل ان السبب فيه توقف الحكومة المصرية في دفع التعويضات ، ومن زاعم ان سببه مشكلة ديون الفلاحين ، ومن قائل انه نشأ عن حادث السودان على تقدير الصحة فيه او عن عزم انكلترة على اخراج معظم عسكرها من مصر . ولا يخفى عن الناقد البصير ان مسألة التعويضات وديون الفلاحين لا تؤثران شيئا في اسعار القراطيس ، بل ربما كانت تسويتهما على الوجه الملائم لاهل الفلاحة وللحكومة المصرية مما يوجب ارتفاع تلك الاسعار بما يترتب عليه من ايسار الفلاحين واندفاع غوائل القروض الجديدة عن خزائن الحكومة وغير ذلك مما يتحقق به وفاء فائدة الديون في اوقاتها المعلومة . فلا بد والحالة هذه ان يكون لهبوط سعر الورق المصري سبب غير هاتين المسألتين . ولا عجب ان يكون عزم الحكومة الانكليزية على اخلاء مصر من عسكرها قد اثر في تجار القراطيس بما تقرر في أذهانهم من امتناع استقرار الامن والنظام في مصر بعد خلوها من جند الانكليز اعتقاد الضعف بحكومتها او ثورة النفوس في السكان فزهدوا في القراطيس المصرية فهبطت اسعارها كما علمنا . ولكن الهبوط كان اعظم واسرع من ان يترتب على خبر لم يخرج بعد من عالم القوة ولم تتفق الآراء على ترتب ذلك المحذور عليه ، فلا بد ان يكون له سبب آخر مقترن بهذا السبب ، فان لم يكن خبر انتصار المتمهدي صحيحا فليس عجيبا ان يكون في مصر خلاف جديد بين الحكومة الخديوية وعمال الانكليز او في اوروبا شقاق حديث متعلق بمسألة مصر.

تعطيل الجرائد

عطلت جريدة الزمان ثلاثة اشهر والغيت صحيفة البرهان رأسا وحكم على الوطن بعشر ليرات جزاء نقديا وأنذرت جريدة الكوريه اجبسيان وروت احدى جرائدنا عن بعض صحفهم ان مرآة الشرق عطلت ثلثة اشهر وكانت في مقدمة الجرائد الناطقة بالراي العمومي في مصر . ولم تكن هذه الجرائد منحرفة عن

الحكومة المصرية او غير مخالصة للجناب الخديوي ولكنها لم تجر مع الزمان كما جرى ، ولم ترض بالمصانعة والمداجاة فأخذها المقتدر أخذا عنيفا . نعم ان بعض هذه الجرائد ولا نعين قد مالت مع الحدة في بعض الاقوال فصرحت بما يمكن بيانه تعريضا وأوضحت ما لا تعز الكناية فيه واستعملت في جانب بعض الدول ألفاظا لا تألفها أذهان اهل الرئاسة ولكن كل ذلك لا يبرىء من استعمل ذاك العنف والبطش في معاقبتها من الخطأ السياسي فان تعطيل الجرائد او الغاءها لا يعطل ولا يلغي الآراء التي نشرتها مستفادة من فكر الجمهور بل ربما زاد تلك الآراء انتشارا بما يتبادر الى الاذهان من انها لولا ملائمتها لمنفعة الضعيف ومخالفتها لمقصد القوي لما اراد المقتدر اخفاءها بقوة .

في السياسة الدولية

قضايا السياسة الدولية (١)

من تأمل احوال الممالك تأمل بصير يقرأ ما بين اضعاف السطور ، ولا تشغله الظواهر عن حقائق الامور ، علم ان منافسات الدول ، ومحاورات اهل السياسة، ومناقشات صحف الاخبار ، وتجهيز العساكر ، وحصول المحالفات ، ووقوع المخالفات ، كل ذلك يدور على اربع مسائل مهمات ، ـ الاولى في اواسط آسيا وموضوعها عند الانكليز : حفظ الهند من طوارق حدود الهند : والثانية في السلطنة العثمانية والايالة المصرية وموضوعها عندهم : حفظ الهند من عوارض طريق الهند : والثالثة بين الالمان والفرنسيس وموضوعها : الالزاس واللورين : والرابعة بين اوستريا وايطاليا وموضوعها التيرول وغيره من البلاد الايطالية الباقية في ملكية النمسويين . وفوق هذه الامور مسألة الجنسية الكبرى الا انها لا تزال في عالم الخيال مع المدينة الفاضلة التي يتصورها الحكماء . ولذلك فانّا نترك النظر فيها لشعراء الالمان واللاتين والصقالبة ، ونورد من خبر المسائل الواقعية لمَعا يحتمله هذا المقام فنقول :

ما توجهت خواطر الانكليز الى أواسط آسيا ، ولا تهورت حكومتهم في قتال الافغان لاخضاع قوم صلاب القلوب ، كبار النفوس ، يرون العز في خلال الصفوف ، والمجد بقتال الالوف ، والجنة تحت ظلال السيوف ، ولكن رات

---

١ ـ من مقالاته ، أعيد نشره في الدرر بعنوان «في فصل سياسي» ص ١٩١ .

سطوة الروسية منتشرة فيما وراء تخومها الهندية ، تسري في تلك البلاد الفيحاء، سري النار في الحلفاء ، فرامت ان تجعلها أقساما يتولاهـــا الموازرون للانكليز ، المنافرون للروس ، فتكون عقبات وحصونا في طريق الروسية .

وما حرصت دولة الانكليز على الكلمة الغالبة ، والسطوة النافذة ، فـــي البلاد العثمانية ، والايالة المصرية الا لصيانة بحر الاستانة وخليـــج السويس . فشأنها في السلطنة التركية ان تهدم بقايا الاطلال ، وتشيد على آثارها حصونا انكليزية الاساس ، بريطانية القواعد ، تركية الصبغة تقيم عليها من الحمـــاة والمرابطين من تثق بهم وتعول عليهم ، ودأبها في الامارة الخديوية ان تفصم عروة الاستقلال ، وتطفيء نور الوطنية ، وتجعل الامر مطلقا بيد من يكون أطوع مـــن نعلها واتبع من ظلها ، بمعنى ان تجعل ولايات الدولة ، وفي جملتها مصر ، أقساما سياسية مماثلة للانكليز ، مناوئة للروس . ولهذا كان هم الروسية في المسألة الاولى ان تعارض سعي الانكليز فيما يحاولون من التقسيم او تجعله ملائمـــا لمصلحتها ، مؤيدا لسطوتها ، وشأنها في المسألة الثانية ان تجمع تحت لوائها ما انفصل وما سينفصل عن الدولة العثمانية من بلاد الصقالبة ، لتكون بذلك موازنة لدولة الانكليز غالبة على امرها في تلك الجهات . غير انها لا تؤمن في ذلـــك معارضة الدولة النمسوية لما تعلم من اتجاه سياستها الى الشرق ، يأسا مـــن السلطة الغربية فهي بين الاحجام والاقدام ، والرغبة والرهبة يحوّم نسرها على ذلك القصد ولا يستطيع الوقوع عليه :

كطوف الفريبة وسط الحياض تخاف الردى وتريد الجفارا

وهذا الذي أوضحناه من أحوال هاتين المسألتين ، انما هو الوجه الشرقي من السياسة العمومية ، وأما الوجه الغربي فهو في مسألـــة الالزاس (٢) بين الالمان والفرنساويين ، ومسألة التيرول بين الايطاليين والنمسويين . فأما المسألة الفرنسيس ، فانهم على اتفاق في وجوب ادراك الثأر وكشف العار واسترجـاع الالزاس واللورين من يد الالمان . وانما يختلفون على الوقت الملائم لحل هاتـه المسألة ، فهي من هذا الوجه كالبركان تختلف مظاهر النار فيه بين السكـــون والاضطراب ، والوميض والالتهاب ، والنار في جوفه مستمرة الضرام .

وأما مسألة التيرول فهي عند الايطاليين كمسألة الالزاس عند الفرنسيس لا ينتظرون لحلها الا القوة الكافية ، والفرصة الملائمة ، فالامتان متفقتان في القصد

٢ـ ألزاس ـ لورين : مقاطعة احتل الفرنسيون معظمها سنة ١٨٤٨ ، وضمها بسمارك سنـــة ١٨٧١ ، تحرك اهلها ضد الالمان . استعادتهـــا فرنسا سنة ١٩١٩ ، ضمها هتلـر سنة ١٩٤٠ ، واستعادتها فرنسا سنة ١٩٤٥ مرة اخرى . (المحرر)

مع اختلاف الموضوع فلا بدع ان يكون حصول المحالفة بين الالمان اعداء الامة الاولى والنمسويين اعداء الثانية موجبا للتقرب والتظاهر بين جمهورية الفرنسيس ودولة الايتاليين كما يشف عن ذلك مسير ولي العهد الالماني الى رومية لتأييد روابط الوداد ، توجسا من تقرب دولتها الى الفرنسويين . وكما يدل عليه ما تنشره الصحف المهمة من سعي الوزارة الفرنسوية في تمكين علائق الود بينها وبين الدولة الايطالية .

فاذا تقرر ما بسطناه من احوال هاته المسائل ، علمنا ان لا بد من حسمها على اي وجه كان ، فلم يبق الا ان نبين كيفية ذلك الحسم ، وهل نراه عما قريب، او يكون بعيد الوقوع ، مستمدين ما نبديه من آراء ذوي النقد ، مستدلين عليه من طبيعة تلك المسائل ، ومن أحوال الدول في هذه الايام .

فمسألة الحدود الهندية تبعث الروسية ودولة الانكليز على التوغل في أواسط آسيا ، بحيث يفضي بهما الامر الى التماس والتلاحم ، فيقدح الزندان نار القتال ، ومسألة الخليجين توجب استمرار المنافسة الدولية والمناظرة السياسية ، في سلطنة الترك ، وايالة مصر حتى يتمكن الضعف من تينك الحكومتين ، فتختل منهما الاعضاء على صورة تستلزم الفصل والتجزئة ، فتقع نسور المطامع ، وغربان الاهواء على تلك الاشلاء قطعا بالمناشر ، وتمزيقا بالمخالب، فتقوم بينها ثائرة الخلاف والمحاشدة ، فترفع الامر الى مجلس المدفع الاكبر فتقضي كراته بينها ويكون الحق ما تقول . واما مسألة الالزاس ومسألة التيرول فان لها في خواطر الفرنسيس والايتاليانيين مكان العبادة من قلوب اهل الدين ، تظهرها اقلامهم ، ولا يسترها كلامهم ، ولا تخلو منها أحلامهم ، فان ضعفت هذه العبادة بما يعظهم اهل الاعتدال ، وأحباه السلم ، فان الجرائد المتطرفة من احزابهم تضمن تهييج الحقد في صدورهم ، وتحريك الدم في عروقهم .

وأما حالة الدول فعلى السلم في ساحة النزال ، او الحرب من غير قتال ، فانها تزيد عدد العساكر ، ونفقات الذخائر ، ولا تألو الجند تجهيزا وتمرينا ، والحدود تمكينا وتحصينا ، فقد زادت الروسية مقادير عسكرها مع اختلال ماليتها ، بما انفقته في الحرب الاخيرة ، وما برحت اوستريا تطلب القرض بعد القرض لنفقات الجندية ، ولا تزال ايطاليا تنشىء الدوارع العظيمة ، والمدافع الجسيمة . اما فرنسا فقد بلغت نفقات عسكرها تسعمائة مليون من الفرنك ، ولم تكن من قبل سوى خمسمائة مليون . وأما المانيا فقد صارت بما استكثرت من الجند وآلات القتال ، كمدينة أحاط العدو بأسوارها واقام على حصارها .

فهل يصح في قياس العاقل ، بل في وهم الجاهل ، استمرار هذه الحال، وهل تصبر اوروبا على دوام الحرب من غير قتال ، وانقباض الوف الوف من الايدي عن الاعمال وهي مسألة لا تحتمل الجواب .

فاذا لاحت البداهة في الامر فان السؤال عنه جواب .

***

غرائب وعجائب في الحرب (٣)

ان الزمان وهو ابو العجب ، قد ارانا في حوادث هذه الحرب غرائب ، تلوها عجائب ، فمن انتصار اثر يأس ، وانكسار بعد أمل ، ومعاداة من لم تكن معاداته في حساب ، ومداجاة من اعتقد فيه الاخلاص ، ومحض الوداد ، فقد كان في اولها من سوء ادارة قوادنا وفساد تدبيرهم ان عبر الروس الطونة ، وتفلغلوا ودخلوا مضايق البلقان في البلفار ، فقلنا حلت صرام وبلغ الشر آخره ، ثم ما لبثنا ان رأينا تغير الحال ، وانتصار عساكرنا على العدو في جهتي القتال ، فاستبدلنا اليأس بالامل ، ورجونا ان تكون ادارتنا متيقظة ساهرة مخافة ان يغتالها العدو الساهر . وقلنا الخيل تجري على مساويها فكان من سوء التصرف ان تولى بعض القيادة رؤساء اختلفت أهواؤهم ، فوهن عزمهم ، وضعف رأيهم ، وكان من عاقبة ذلك ما نعى به التلغراف الينا في هذه المرة من اخذ قرص والله أعلم بأية طريقة ، وأخذ بليفنا مسببا عن الاهمال ، وتقدم العدو منتصرا ، ثم استيلائه على شبكا ، وعلى نيش ، الى غير ذلك من الاخبار التي نفت السرور ، وضيقت الصدور ، فلا بدع إن بسطنا من بعدها الملام ، وحرصنا بالشكوى فان من ضاق صدره ، اتسع لسانه .

وقد رأى المطالعون في صحيفتنا من اخلاصنا في حب الامة والوطن على رغم من عقّه من ابنائه ، ما يخلص هذه الشكوى من شوائب الشبه فما هي والله الا نفثة مصدور .

وليست على منقض ماض ليقال ندم على الفائت عبثا ، فان النازلة لا تزال عند شدتها ، وما هو آت ، اعظم مما فات . فهي المفاوضات السياسية بل المواضعات الخداعية التي ستجري في خلال الهدنة المطلوب عقدها لتعيين شروط الصلح ، وهي التي ستخرج السياسة من عالم الظلمة الى النور فتنجلي لنا ويحصحص الحق ويبين فنرى الصديق والعدو ونميز بين الموادة والمداجاة ، ولقائل ان المفاوضات ستكون بيننا وبين الروسية ، فأي مدخل للصديق او للمداجي فيها ، وجوابه انه من المتفق عليه ان هذه المفاوضات لا تنتهي برضى الفريقين ، فلزم ان تفضي الى احد امرين وهما العود الى القتال ، او توسط الدول . فأما كونها لا تنتهي بالرضى فلأن الروسية لا يرضيها الا تجزئة دولتنا ، وهضم حقوقها ، واستقلال وجودها لا قدّر الله وهو ما لا يمكن لها الرضى به. فبقي ان نعلم اذا كان يطيب للدول ان تصيب منا الروسية ما تشاء ، وتبلغ ما تريد فتخذلنا لنعود الى القتال ، فنذود عن حوضنا بما بقي لنا من القوة ، واذا كانت انكلترة تكتفي بالانذار والتحذير فتكون كما قيل :

---

٣ ـ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها في المحروسة سنة ١٨٧٧ ، اعيد نشرها في الدرر ص ١٣٥ .

القاه في اليمّ مكتوفا وقال له   اياك اياك ان تبتل بالماءِ

واذا كانت لا تستطيع قبول هذا ، او لا يلائم مصلحتها بلوغ الروسية جميع مطالبها ، فتتوسط بيننا بعزم اكيد ، لترجعها عن بعضها ، وتخفض البعض الآخر ، حفظا لموازنة اوروبا وصيانة لمصالحها من ان ينشب فيها نسر الشمال مخالبه . ولا ريب ان الروسية أضعف من ان تقاوي اوروبا ، واحزم من ان تزعم ذلك . فبناء على ما تقدم نرى قرب الصلح وهو أصلح ، ودنوّ السلم وهو أسلم ، عسى اننا اذا اندفعت عنا هذه النوازل والغوائل ، نتمكن من اصلاح حالنا ولمّ شعثنا ، وجمع كلمتنا ، لنسد كل ثغرة في بلادنا يمكن للعدو الدخول منها وننزه مناصبنا عن كل ذي منظر يسوء مخبره نراه قوّالا مكثرا وما يدرك ما الرجل فانه لا يجني من الشوك العنب لنستعيد ما فقدناه من قوتنا ومعلوم انه لا قوة ، الا بالرجال ، ولا رجال الا بالمال، ولا مال الا بالعمران، ولا عمران الا بالعدل.

***

الحرب والدول (٤)

الحرب جارية في ساحة صارت بحرا من الدم ، تتلاطم فيه أمواج العساكر وأشلاؤهم متبددة فيه كبقايا سفينة عصفت بها الانواء ، وعلى قنة جبل مشرف على تلك الساحة ثلاثة رجال احدهم مغلول اليدين مطلق النظر ، والثاني مغمض العينين ، مطلق اليدين ، والثالث معقول الرجلين ، فذاك يرى ويتمثل بقولهم العين بصيرة واليد قصيرة ، والثاني لا يرى او يتعامى وقد حيَّر العقول سر تعاميه ، والثالث يرى ولا يستطيع السعي ، فمن لنا بذي مروءة يحل رباط الاول وعقال الثالث خدمة للانسانية وضنا بدم ابنائها المهراق هدرا .

ان اوستريا ترى من خلال الحوادث سوء العاقبة ، ولكنها مغلولة الايدي باختلاف قومها رأيا وميلا ، فهي بين مجر ، يرون في مظاهرة العثمانيين مصلحة او يرغبون فيها تشفيا من الروس فان في قلوبهم منهم حزازات . وصقالبة ، يجذبهم مغناطيس الجنسية الى الروس فيؤثرون التشيع لهم على التشيع للعثمانيين ، وان كان ثمة مفسدة لامرهم ، ومضرة لبلادهم ، والمانيين ، ينظرون نظر المستخير الى ابناء جنسه ليتَبعوهم في اختيارهم .

وان المانيا تغضي عما تراه ، وان كان مما يغضى منه مع المقدرة على اصلاح

---

٤ ــ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة ، سنة ١٨٧٧ ، أعيد نشرها في الدرر ص ١٣٧ .

الحال . ولا جرم ان لاغضائها سرا حيَّر الالباب . فهل تروم بذلك اتخاذ الروسية حليفة لتأمن شر فرنسا ؟ ولكن هذه الحليفة اولى بالحذر من ذلك العدو، وبسمارك أرشد من ان يفوته هذا الامر . ولذا نرى ان لتغاضيها بل لتظاهرها بالميل الى سلطنة الشَمال سرا ذهلنا عنه ، وستنم به على رغم كاتِميه حوادث الغد ، وان غدا لناظره قريب .

وان انكلترة ترى الاخطار محدقة بمصالحها ، ولا تستطيع السعي لدفعها ، فمثلها كمثل مقعد يرى النار حول داره ، ولا يستطيع النهوض لاخمادها ، او مثل من دخل اللص داره فربط يديه ، وعقل رجليه ، ثم طلب متاعه فتأبط هذا، واحتمل ذاك ، وبعثر غيره ، وهو يرى ولا يستطيع النهوض لمنع السارق او للقبض عليه . ولطالما سمعنا وزرائها يتحاورون ، ويتجاءرون ، رجاء ان يخيفوا بضوضائهم من يرومهم بشر ، وأين اصواتهم من لعلعة الكروب ، فمنهم من يقول ان الحرب آفة وان مصالحنا في أمن فالسلم أسلم ، ومنهم من لا يستطيع ان يعلن غير ما يسرّ ، فيقول ان الحديد بالحديد يفلح ، فلا صلاح لنا بالسلم وانما الحرب أصلح ، وقصارى الامر ان هذه الدولة تروم التدخل لانقاذ مصالحها، وتخاف ان يفضي بها ذلك الى القتال ، ولا قبل لها به منفردة فهي تلتمس حليفا تشد به ازرها ، وظهيرا يضمن لها نصرها ، فان لم تجد رجعت بافوق ناصل ، وربما اقدمت على ضعف بها كما ضن الحريص بماله وهو على النار فرمى فيه بأوراقه وذلك ما جرى لها اخيرا اذ عرضت على الروسية الوساطة فلم ترض بها . ولقد كان في ذلك ما يكفي لاضرام الفتنة ، لولا ان الوقت شتاء ، وبلاد سلطانة البحار في جوار القطب . ولقد اختلفت ظنون الناس في عاقبة هذه الحال ، فزعم بعضهم ان امبراطوريات الشمال الثلاث متفقة على ابرام صلح مؤقت ارادة حجب الدماء وان هذا الصلح لا يكون بالنظر الى السياسة مقررا ، وقال آخرون ان هذه الحرب انما هي مقدمة حرب عمومية تتغير بها جغرافية اوروبا . وكيف كانت الحال فلا ينكر ان الامر عظيم ، وان الخطب جلل ، فان انكلترة لا تستطيع البقاء على حالها من الاضطراب والتردد ، ولا بد لها من اظهار دليل القوة مخافة ان تحسب عاجزة فتطرح في زوايا الاهمال .

* * *

الانكليز والافغان (٥)

فقد برح الخفاء وجلت انوار اليقين ظلمات الحدس والتخمين ، وكرهت نفوس

---

٥ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٢ ، تاريخ ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٧٨ .

الافغان ان يموتوا حتف انوفهم ، فآثروا الموت قطعاً بأطراف النصال . وكبرت نفس اميرهم عن الاعتذار الى الانكليز ، او خاف عاقبة الامر ، وان تفسد عليه قلوب رعيته ، فلم يحفل بانذارهم ، ولم يبعث اليهم بجواب ، فأمرت حكومتهم عسكرها بالحملة على بلاده ففعل ، ووقعت الحرب وناب الحسام عن الكلام .

وان النار بالعودين تذكى   وان الحرب أولها الكلام

ولم نعلم بعد من اخبار القتال ، غير ما اقتضته لنا التلغرافات واردة من لوندرة وباريس . فمن ذلك ان الانكليز دخلوا مضائق خيبر ، واستولوا على حصن علي مسجد ، وقصدوا خوروم فبلغوا منتصف طريقها ، واستولوا على (داكا) و(تيسين) . وان الافغانيين جلوا عن جلال اباد ، وهي مدينة كبيرة بينها وبين كابل قاعدة افغانستان ١٢٨ كيلومترا ، وبينها وبين قندهار اربعمائة . وهي اخبار تذهل من يعلم ان الجيش الافغاني ينيف على مائة الف عددا وان رجاله :

يستعذبون مناياهم كأنهم   لا يخرجون من الدنيا اذا قتلوا

وتجعله في ريب منها ، ولاسيما اذا علم ان رواتها من الانكليز ، او تبعثه على القنوط من ثبات الافغانيين والقطع بظهور الانكليز عليهم ، وهو خطأ يؤدي اليه مفاجأة الاخبار . فان الحرب خدعة والمكيدة فيها أبلغ من النجدة . فلا يبعد ان يكون للافغانيين او لنصائحهم من الروس مكيدة باطنة في هذا التأخر ، كأن يجعلوا العساكر الهندية في وسط البلاد الباردة بين الجبال الشاهقة والاودية الضيقة ، ثم يحملوا عليهم من كل اوب فيرجعوهم ناكصين على الاعقاب ، او يمسكوا عليهم طريق الرجوع ويجعلوهم بين نارين ، فيذيقوهم ما ذاق الانكليز من آبائهم عام ١٨٤١ . لانه لا يصح في القياس ولا الوهم ، ان امة تعلن بالحرب ، وتوطن الانفس عليها ، ثم تخلي مواقعها قبل القتال لغير علة او قصد باطن ، الا ان يقال انها رات من كثرة عدد الانكليز وحسن عددهم ما هالها فجبنت قبل اللقاء ، وعلمت بانحراف قبائل التخوم عنها ، وقيامهم بأمر العدو فكرهت ان تقاتلهم وهم بين أظهر تلك القبائل . وهي خواطر يتقلب فيها الذهن فيجد في كل منها ما يوجب الشك وما يبعث على الترجيح ، ثم يقيس راجحها على الحوادث الماضية ، فيقطع وجود المكيدة . وكفى بالدهر تغبرا بما مضى عما يأتي . الا ان الفكر لا يقتصر على استخراج حقيقة الحال ، بل تبعثه حركته المستمرة على استنباط نتائجها ، فيتوسل الى ذلك بما يعرض له من المقدمات ، كأن يستدل من التلغراف المنبىء بتأهب الجنرال كوفمان للقتال ، وقوله للامير لا ينبغي لحليف الروسية ان يخاف شيئا . ان الروسية لا تقعد عن مساعدة الافغان اذا ظهر الانكليز عليهم ، فان من مصلحتها ان يكون لها كلمة نافذة في بلادهم ، وان يقهروا الانكليز ليستخف بهم الهنود ، فيخرجوا عليهم ويخلو لها الجو في أواسط آسيا .

ولا ريب ان مظاهرة الروس للافغان في هذه الحرب ، تعود عليهم بالنفع . الا اننا نخاف ان يكون ذلك النفع سحابة صيف ، وأن يكونـــوا ، اي الافغان ، كالمستجير من الرمضاء بالنار . فقد صار من البديهيات والاوليات ان اعمال اي الدول وأقوالها المموهة بالقصد الحسن ، تدور على محوز المصلحة الخصوصية ، وان الحرص والطمع غريزتان تزيدها القوة والثروة نموا ورسوخا . وبديهي ان الروسية لا تأخذ بيد الافغانيين ولا تنتصر لهم الا لقصد تسره . وانها تروم ان تكون مطاعة الامر نافذة الحكم في بلاد متاخمة لسلطنة دولة تنافسها في الفتوح شرقا ، وفي اساليب السياسة غربا . بل تتصدى لمعارضتها في كل ما تفعل وما تقول حتى لو هبت العواصف على سفن الروسية في بحر ازوف ، لاعتقدت ان انكلترة قد حملت (نبتون) إله البحر عند اليونان على اثارتها . ولو قدم احـدى جزائر الاوقيانوس أكار من الروس لايقنت انكلترة انهجاسوس من قبل دولته الى تلك الجزيرة ليشرف من مرتفعاتها على سلطنتهم الهندية ، فيستكشف أسرارهم ويستطلع أخبارهم . فاذا اضطر الافغان لنجدة الروسية ، وظهروا بها علـــى الانكليز ، تعين عليهم ان يذعنوا لامرها ، ويعترفوا بسلطتها ، فيكون مثلهم كمثل غزال طارده الصياد وحصره على شفا جفير هاو ، فهـــو على الحالين مصاب ، ويستوي امرهم بأمر الخوقنديين والبخاريين وغيرهم من الذين توسلت الروسية الى الاستيلاء عليهم بتقرير سطوتها المعنوية في بلادهم . غير انه قد عرف مـــن بسالة هاته الامة وبقاء استقلالها مع توالي الحوادث وتواتر الكوارث ما يمنع من القطع بحصولها في هذه الحال الموجبة لفقد الاستقلال والمؤدية الى الاضمحلال . على انها وان نجت الان من مخالب الطامعين ، فلا مندوحة لها ولسائر المالـك الشرقية الآسيوية من المصير الى ما صارت اليه الهند وبخارى وخيوى وسمرقند والداغستان وخوقند ..... (٦) .

فيكون مثلهم بالنسبة اليه كمثل قطيع من البقر لا يعلقها صاحبها الا لتقوى على خدمته ، ولا يعالجها اذا مرضت الا لينتفع بها في حال صحتها ، ولا يزيدها علفا الا ليذبحها فيأكل لحمها ويربط صفارها بجلدها المسلوخ على محراثه .

ولا غرو في ذلك فان حركة الافكار التي اخذت في الظهور بعد الكمون فـــي مدارج الدهور ، وانبعثت منها جراثيم الضياء فبددت من بعض البلاد ظلمـــات الاستبداد ، ستسري كالنار في الحطب او البرء في اعضاء السقيم ، فتغير هيئة الكرة الارضية ونظام الانسانية ، فلا نرى بها غير جمهورية يتأيد بها أمر المساواة والحرية .

***

٦ ـ هنا مقطع غير واضح في المسودة .

جمهورية فرنسا (٧)

خير الاعمال أحسنها عاقبة .. لقد بذلت الدول جل اجتهادها ، وصرفت همتها في ارتيادها الى تحصيل منفعة ذاتية ونوال مصلحة خصوصية ، فرفعت الروسية لواءها على قبرص ، والبلغار والدبروجه ومرو ، ونشرت اجنحة نسرها على أواسط آسيا والروملي وبولونيا والقريم ، فحجبت عن سكانها اشعة شمس الاستقلال ، فذوت غصون الحرية ونضبت مياه الحمية فـــي رياض اذهانهم . وانشبت اوستريا (٨) مخالب مطامعها في هرسك والبشناق (٩) ، فأخذتهما غنيمة مخضبة بدم الرجال . ووقفت انكلترة في مضمار السياسة موقف عبد بني فزارة في مضمار داحس والغبراء ، فلطم المتقدم على وجهه ، فجهزت العساكـــــر واحتكرت الاقوات والذخائر ، وأرسلت الدوارع المواخر تشق عباب البحار جيئة وذهابا ، تهديدا لا يخرج عن حد القول ، ولا يجاوز جانب القوة ، حتى اذا بدت من الزمان فرصة ، ومن المنافسين غرة ، وأمنت منهم الغيلة والمضرة انشبت ظفر الاحتيال في قبرص ، فاستولت عليها مغنما باردا ، وظن الناس انها ستجتزىء بها فتلزم القناعة ان في القناعة لفوزا ولم يذكروا :

والنفس كالطفل ان تمهله شبَّ على ... حب الرضاع وان تفطمه يتفطم
فان ترم بالمعاصي كسر شهوتهـــا ... ان الطعام يقوّي شهـــوة النهم

فانها طمعت اثر ذلك في افريقية تقطع اسباب رجائها بأخذ رأس رجائها . وبادهت الافغان بحرب تهلك بها الاموال ، ويهدر دم الرجال ، وتداخلت في أمور الدولة العلية آمرة فيها بما تشاء ناهية عما لا تريد ، متجافية في مقام الرقة مداجية في موضع العداوة ، واعدة في مكان الوعيد . وانعطفت الى مصر فتولت اكبر أمورها ، فبلغت من السلطة قاصيتها ،وملكت من السطوة ناصيتها ، حتى اذا هبت ريح الحقيقة على نسج هاته السياسة العنكبوتية ، كشف الحجاب عـــن فتنة فيالروسية مضرمة النار طائرة الشرار، تسري في الخواطر كالنار في الحطب او السم في العروق ، فلم يغن عن الحكومة نصرها المبين وفتوحهـــــا العظيمة ، وأميط الستر عن الخلاف الاداري والعجز المالي في مملكة اوستريا والمجر ، فلم تكن بوسنـــة ولا هرسك لتدفع بلاءها وتحسم داءها ، بل زادتها بنفقاتها ارتباكا

---

٧ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٤٢ ، تاريخ ١٨ نيسان ١٨٧٩ .

٨ ــ النمسا .

٩ ــ البوسنة والهرسك : مساحتهما ٥١٫٠٢٨ كيلومترا مربعا . ألحقتا بالنمسا بموجب معاهدة برلين ، حتى تصلح شؤون السلطنة . عدد سكانهما ١٫٨٢٨٫٠٠٠ بينهم ستماية الف من المسلمين (الثمار الشهية في جغرافيا المملكة العثمانية) ١٩١٢ . (المحرر)

واضطرابا وقلقا وانزعاجا . ورفع الغطاء عن الخيبة الحربية والفشل السياسي في بلاد سلطانة البحار ، اذ رزئت في راس الرجاء بما يوجب اليأس من فقد الرجال وهلاك الاموال وتشتت الاحوال وتعاظم الاوجال ، ومنيت في بلاد الافغان بما يضعف العزيمة ويوهن القوة ، فوقفت بها عساكرها بين عدو يغالب وطبيعة تحارب ومغتال يفاجيء ومحتال يداجي . واصيبت في بلاد الدولة بفساد القلوب عليها ونفور النفوس منها ، ووقع لها في مصر ما نكلف بايضاحه لسان الحال فهو أدل من لسان المقال . فهذه بعض نتائج سياسة الاثرة المبنية على حب الذات والمنفعة الخصوصية . بل هذه ظواهر تلك العواقب . اما بواطنها فأقل ما بها نفور القلوب من ذويها ، واتفاق الكلمة على مخالفتهم عفوا ومعارضتهم مجانا ومناوأتهم تزلفا الى الانسانية بمقاومة اعدائها لانقاذ أوليائها .

وأما السياسة الحقة العادلة فان اربابها يغرسون شجر الاصلاح ليجنوا ثمرات النجاح ، وينتصرون للمظلوم على الظالم ويكفون يد المخدوم عن الخادم ، ولا يلتمسون لذلك قبلا ولا عِوَضا ، ولا يشترون بالجوهر عرضا . على انهم عالمون بفضل الجميل وحسن عاقبته فيما يزرعون ، ولو في غير موضعه ، فانه ان لم يُشكر ، فلا اقل من ان يذكر .

وقد انفردت جمهورية فرنسا المعززة الشأن المرفعة المكان في هذه السياسة المبنية على خدمة الانسانية والدائرة على محور المنفعة العمومية ، فقامت في مؤتمر برلين مقام المدافع عن حقوق الضعيف ، الآخذ بيد المظلوم ، القائم بأمر الحق ، الراعي ذمة الحرية ، الرافع لواء المساواة ، فحررت الاسرائيليين من الرق ، واعادت اليهم حقوقهم المنهوبة ، واكرهت حكومة رومانيا على المساواة بينهم وبين سائر مواطنيهم ، فانبسطت أكفهم بالدعاء لها ، وانطلقت ألسنتهم في الثناء عليها ، بل غنمت فوق ذلك غنيمة لا يراها اهل الظاهر من مذاهب السياسة ، بأن حلقت لودها اصحاب الثروة في مغرب الارض ومشرقها ، فاجتمعت على ولائها قلوب ذوي السعة ، وتوفر بذلك لها المال المترتب عليه نجاح الاعمال . ثم رات ان الدولة العثمانية قد صارت بين معادٍ يغتال ، ومداج يحتال فخافت ان يسلباها ما بقي من قوتها ، ويقتسما موارد ثروتها ، فيصير لهما في بلادها الراي الغالب والكلمة النافذة والامر والنهي والنقض والابرام ، فمدت الى اليونان يد المساعدة تروم تقوية شوكتهم وتوسيع ملكهم ، ليكون بمنزلة السد في طريق الظامئين ، فاجتمعت قلوبهم على حبها ، وصاروا من صنائعها القائمين بأمرها المذعنين لرايها المعترفين بفضلها . ونظرت الى سائر الممالك الصغيرة والامارات الجديدة نظر السياسي البصير بالعواقب ، فرات ان استقلالها مع سوء حالها يكون كالبناء على الرمل ، او كنسيج العنكبوت على سحوق من النخل . وكرهت ان يبتلعها اهل المطامع ، فأقبلت عليها اقبال الولي الحفي ، ومدت اليها أقوم مساعد لاقوى مساعد ، فرفعتها من وهدة الضعف الى مقام القوة ، وضمت اليها من البلاد ما جعل لها حدودا امينة وتخوما مكينة ، فصار الجبليون والصربيون والرومليون والرومانيون وغيرهم من الامم الجديدة الاستقلال أحباءها في الباطن

والظاهر والقول والفعل .

ولحظت بعين العناية والحكمة قوما أشرب قلوبهم حبها ، فأناطوا بها آمالهم، واتخذوها ملاذا في المهمات ومعاذا في الملمات ، نريد اهل جبل لبنان ، فأنقذتهم من ربقة عدو قوي العزم عظيم المكر حاول استعبادهم ، ونقض مباني حريتهم وانتهاك حرمة قانونهم ، واذلال نبهائهم ، واُعنات رؤسائهم ، فأيدت شأنهم بأن اعادت رئيسهم المنفي الى بلاده ، على بارجة يخفق عليها العلم المثلث الالوان ، مخاطبا اهل لبنان بقول رفاعة مصر رحمه الله :

ومثلثة الالوان بدت علما نصبت لحمايتكم

ثم اقتلعت من ارضهم الحاكم الذي تظلموا منه ، فاطمأنت على الرجاء خواطرهم ، وباتوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

واما سياستها في مصر فبيانها موكول الى ما تنطق به السنة اهلها من الشكر لها والثناء عليها والامل فيها والميل اليها ، وما تذيعه صحفها من مآثرها الجاذبة للقلوب ومحاسنها الباسطة للنفوس ومحامدها الشارحة للصدور .

وهذه بعض آثار السياسة الجيدة المنزع الحسنة الواسطة النبيلة الغاية ، فمن نظر اليها بعين الناقد البصير تبين له مقدار ما بينها وبين سياسة الاثرة من الفرق : وبضدها تتبين الاشياء . وعلم ان ارباب السياسة المبنية على حب الذات والموجهة الى المنفعة الذاتية آخذون بقول ابن سيناء لمن لامه على افراطه في الملاذ الجسمانية : اني احبها اي الحياة عريضة وقصيرة ، ولا اريدها ضيقة وطويلة ، بمعنى انه يختار قصر الحياة ومتعة ولهو وانبساط على طولها بحمية وعفاف وحاجة او كفاف . وان ذوي السياسة المحمولة على موضوع الانسانية والمصلحة العمومية عاملون بقول الحكيم ، ساقية تستمر خير من نهر ينقطع ، فتبينت له الاولوية وظهرت المزية .

ومن كان له اقل المام بالسياسة ، علم ان الدولة التي تستكثر بلادا لا رعية بل تجعل سكان البلاد اعداء لها يتربصون بها ريب المنون ، فتقيم عليهم العساكر ، وتبث في احيائهم العيون والارصاد ، فتكون نسبتها اليهم نسبة الحارس الى اهل الحبوس، يتوقعون منه غرة ليفتكوا به، ويتملصوا من قيود السجن لا(....) الدهر امنة ، ولا تجد فيه صنوا ولا راحة ، ولا تأمن سوء ما يأتي به الغد ، بل اذا رجع الى التاريخ علم ان غايتها الوبال والفناء والاضمحلال ، كما جرى لدولة الرومان على رفعة شأنها وعلو مكانها وهمة رجالها وبسالة ابطالها وحسن نظامها ونفوذ أحكامها. فقد أخنى عليها الدهر فمحا محاسنها واصارها الى الذل بعد العز، والضعف إثر القوة ، والهرم عقب الفتوة ، بل جعلها عدما في صورة الوجود ، وكأن لم تغن بالامس ، ولم تكن شيئا مذكورا . وكما جرى لدولة اليونان وغيرها من الدول المعززة الشأن ، وظهر له ان الدولة التي تصطنع الصنائع ، وتستكثر من الاولياء والاصدقاء تكسب المجد الثابت ، وتغنم الربح المستقر ، وتفوز

بالنفع المستمر ، كما حصل في هذه الايام لدولة فرنسا ، لا زالت مظهرا للحرية ومصدرا للانسانية ، وايقن ان خير الاعمال احسنها عاقبة .

***

حرب أقلام (١٠)

وان النار بالعودين تذكى وان الحرب أولها الكلام

صدقت ولكن ايام كان الرأي للحس ، والحجة للشهوة ، والحكم للهوى . اما زماننا ، ولا نزيدك به علما ، فلا راي فيه لغير الامكان ، ولا حجة لغير القوة، ولا حكم لغير المصلحة . فلا تثق بالقول خاليا عن هذه الاركان ، ولا تصدق كل ما يقال ، فما كل مقول حقيقة ولا كل حقيقة تقال .

ولد رأينا بين جرائد الاستانة وصحف اليونان حربا عوانا يهراق بها دم المحابر، وتغل سيوف الاقلام .

تقول الجرائد اليونانية حصل لنا الحق بما قضت الدول العظام ، ولا نعدم القوة اذا حكم الحسام ، فرجال السياسة متواطئون على شد أزرنا ، وتأييد حقنا ، ورجال الحرب على الحدود .

فتقول الصحف العثمانية ما لكم من حق ، ولا فيكم من قوة ، فدون ما تأملون خرط القتاد ، ودون ما توعدون به من القتال خوض الاهوال . وتهول تلك بحشد العساكر ، وجمع الذخائر ، تأهبا للحرب تظهر الشوق اليها ، والقدرة عليها ، فتقول هذه ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا . ان الحرب شعارنا ، والقتال دثارنا ، حببت الينا اطفالا ، ودعينا اليها رجالا ، فاتحدت منا بأنفس لا تعرف الوجل ، وامتزجت بقلوب لا ترهب الاجل . فان كان حشد العساكر مما يثبت لكم الحق ، فانّا لنجمع منها ألوفا مؤلفة تكون بالنسبة الى جندكم أضعافا مضعفة .

ولا نخاف شيئا من وعيد الفريقين ان راي الامكان ، وحكم المصلحة ، على خلاف ما يقولون . بل ربما زادنا الوعيد املا بالسلم . ان الحرب أبعد ما تكون من الفعل ، اقرب ما تكون الى القول .

وليس زماننا ما قيل فيه بأن الحرب اولها الكلام

***

---

١٠ ـ نشرها في التقدم ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٨٩ .

الاتحاد الثلاثي
والدولة العلية (١١)

تقدم لنا النظر في الاتحاد الثلاثي من وجه تأثيره في السياسة العمومية ، وما يمكن ان يحمل عليه من الخوف والامل ، فرجح فيما استخرجناه من ذلك البحث ، وما استفدناه من آراء الجرائد الاخيرة ، انه مبعد للخوف من الحرب مؤيد للامل في السلم بما يلزم عنه من وقوف كل دولة عند حدها تهيبا مما وراء تجاوزه من القوى المتحدة على مقاومتها . فبقي ان ننظر في المسألة من حيث تأثيرها في سياسة دولتنا العلية ومصالحها الكلية في الغرب والشرق ، فانما تهمنا المسائل الدولية ، باعتبار ما تؤثر في تلك السياسة وما تتعلق بهاته المصالح . ومعلوم ان الدولة العلية مشاركة لسائر دول اوروبا في مصلحة الموازنة السياسية ، مماثلة لهن في الميل الى بقاء السلم العمومية ، فذلك الاتحاد يؤثر فيها من هذا الوجه ، بمقدار ما يؤثر في مصلحة غيرها من الدول العظام . وان لها في شبه جزيرة البلقان وفي آسيا الصغرى مصالح معلومة ، وحقوقا معروفة، تناظرها بعض الدول الشمالية في الكثير منها مناظرة الحاسد الطامع المترقب للفرص فتأثير الاتحاد الثلاثي فيها من هذا الوجه تأثير خاص عظيم . وان شأنها فيما يسمى الان بالمسألة الافريقية مما يلزم في نجاحه تنافر الدول الغربية ، ووقوف بعضهن لبعض بالمرصاد . فاتحاد احداهن بدولتي اوستريا والمانيا مقرب لذلك الفرض ، ولاسيما بعد وقوع الخلاف بين الاثنتين الباقيتين في وادي النيل . فللاتحاد المذكور شأن عظيم عند دولتنا من هذا القبيل . ونحن نفصل المقال في هذه الاوجه الثلاثة ما شاء المقام فنقول .

سبقت الاشارة الى كون الاتحاد الثلاثي مؤيدا للسلم ، مبعدا لاخطار الحرب، حافظا للموازنة السياسية في اوروبا ، مانعا من اختلال الاحوال الحاضرة ، فصح بذلك انه ملائم لمشرب الدولة العلية ، موافق لمصالحها الكلية ، فانها عظيمة الرغبة في السلم ، شديدة التجافي عن الحرب . الا ان تحمل عليها للذود عن الحوض شأن كل دولة ، ساعية الى اصلاح احوالها الداخلية . فذلك الاتحاد الذي يشبه ان يكون سدا في وجه من يميل الى الحرب ، كائنا من كان ، ينفع دولتنا العلية من ذلك الوجه نفعا تشاركها فيه اكثر الدول العظام ، بما بهن من الحاجة الى الراحة والصفو العام .

اما الوجه الثاني : اي وجه مصالحنا السياسية الكلية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان فمنفعة دولتنا العلية فيه من الاتحاد الثلاثي انه جعل بعض

---

١١ ــ نشرها في التقدم ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٨١ .

الدول الشمالية رقيبة على بعض في تلك البلاد ، فكان ضمانا راهنا لبقائها على الحالة الحاضرة ، لا تطمع فيها الروسية حذرا من اوستريا والمانيا المتحدتين ، ولا تميل فيها اوستريا مع هوى النفس خوفا من الروسية الواقفة لها بالمرصاد، فتسلم حدود البلقان مما يخاف عليها من الصقالبة ، وتصان تخوم هرسك والبشناق مما يطمع فيه النمسويون ، وتكون آسيا الصغرى في مأمن لا حاجة معه الى الاستعانة بالدولة الانكليزية على وقايتها من الطامعين . وهذه المنفعة العظيمة خاصة بالدولة العلية لا تشاركها فيها دولة من الدول ، الا باعتبار تأثيرها في الموازنة العمومية ، ولم تكن مقصودة بالذات في ذلك الاتحاد ــ حاشَ لارباب السياسة ان يقصدوا نفع غيرهم في شيء مما يعلمون ــ وانما حصلت عنه عفوا ، وترتبت عليه لزوما ، كما حصل النفع لايطاليا والروسية من حرب الفرنسيس والالمان .

وأما الوجه الثالث فمنفعة الدولة العلية فيه من الاتحاد السابق الذكر انه يشد أزر ايطاليا، فتقوى على كف الدولة الفرنسوية والانكليزية، عما تطمعان فيه من السلطة والسيادة على بعض الممالك الافريقية . نعم ان الظاهر من سياسة الدولة الايطالية ان لها في بعض بلاد افريقيا مطمعا من مثل ما لفرنسا وانكلترة، ولكن وقوفها موقف المنافس لهما في تلك البلاد ، يمنعها بالضرورة مما تريد منعهما عنه ، فتحصل من ذلك منفعة خالصة للدولة العلية ، بما يتيسر لها من حفظ حقوقها المعلومة الراهنة في السواحل الافريقية من جميع الجهات .

وقد روت بعض جرائدهم ان الدول الثلاث المتحدات قد سعين في استجلات الدولة العلية الى ميثاقهن ، ولم نستغرب هذا الخبر لانه من مصلحة تلك الدول ان تكون دولتنا مظاهرة لهن فينصرف نفوذها في الممالك الاسلامية، وقوتها بين الدول الاوروبية ، الى ما يلائم أغراضهن ، ويوافق مقاصدهن ، ولكنا لا نجزم بقبول الدولة العلية لتلك الدعوة ، لان دخولها في الميثاق الثلاثي لا يزيدها منه نفعا ، كما ان خروجها عنه لا ينقص شيئا مما تستفيده منه ، فبقاؤها على الحياد أبقى لحريتها الذاتية ، وأوقى لصلاتها السياسية ، ولا شك ان ذلك لا يخفى على رجال سياستنا العظماء .

* * *

حيرة التأمل (١٢)

يعلم الناقد ان الدول الاوروبية حريصة على السلم ، بما رات من عاقبة

---

١٢ ــ نشرها في التقدم ، العدد ٤ ، تاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٨٨١ .

الحروب وغائلة الفتن وطائلة العداوات ، مضطرة اليهبما يفيدها من حكم المشاورة وارادة النواب وراي الامة ، راغبة فيه بما تروم من الاصلاح الداخلي والتنظيم الوطني .

وان الدولة العلية لا تجنح الى الحرب عمدا ، ولا تألو في تأييد السلم جهدا، بما ترغب فيه من تسديد الامور ، وما تنزع اليه من اصـــــلاح الاحوال ، وما يقتضيه ذلك التسديد والاصلاح من الهدوء والراحة وصفاء البال .

وان دولة اليونان توعد بالحرب وتوهم الرغبة في القتال ، وهي الى السلم أحوج والى الراحة أميل ، بما نعلم فيها من ضيق ذات اليد ، وقلة العـــــدد وضعف المدد . وبما ترى في عدوها منشدة الحول وقوة النجدة وعدم الرهبة ، وبما تظهر لها الدول من ايثار الموادعة والتزام الحيادة .

يعلم كل ذلك ، ولكنه يرى للدول حكما متفقا عليه ، ورأيا مقطوعا به وقصدا منزوعا اليه . فاذا خشيت من القتال أضراره خافت من التطامن عاره . واذا منعها النواب من التداخل منعهم الشرف الوطني من التثاقل ، واذا دفعهم عنه اصلاح الاوطان جذبهم اليه حفظ الشأن .

وان الدولة العلية مقبلة على شأنها غير مبالية بأعدائها ، جمعت لهم العساكر واعدت الذخائر ، وحمت التخوم واستجمعت الاموال ، كأنما هي تقول بلسان الحال نحن للسلم ان اردتم سلما وللحرب ان رمتم القتال .

وان اليونان صارفة همتها الى جمع الرجال واعداد آلة القتال والتمـــاس الاموال ، تثير في قلوب الامة عواطف الحرب ، وتذهب عنهم موجبات الخوف ، بما تدعي من حق ، وما تبين من الواجب وما تظهر من القدرة .

فبأي العلمين يأخذ الناقد البصير في ترجيح العاقبة وتقدير النتيجة ..

ايميل مع دلائل السلم مغضيا عن مظاهر الفتنة على كونه يرى الحرب متوفرة الاسباب مفتوحة الابواب ، ام يجنح مع علائم الحرب متناسيا موجبات السلم .

وهي حيرة تزيدها الصحف اشتدادا ، بما يجد فيها من اختلاف الآراء وتلون الاخبار ، على كونها جميعا حكما ، ولا تقطع رأيا ، ولا تورد قولا فصلا ، وانمـا تذكر من أدلة الحرب تفصيل ما أوردناه ، ثم تنقض ذلك بمثل مـا بسطنا مـن موجبات السلم ، آملة في الدولة العلية واليونان ان تسير كل واحدة منهما خطوة في وجهة المسالمة ، فتلتقيا على نقطة الوفاق .

***

تحوّل الاحوال (١٣)

ولا أتمنى الشر والشر تاركي ‏ ‏ ‏ ‏ ولكن متى احمل على الشر أركب

قاله الوزير العثماني بأسلوب اهل السياسة في منشوره الاخير ـ وكنا على علم بتلك العزيمة من قبل هذا المنشور ـ يدلنا عليها من جانب الدولة العلية انها تخاف عاقبة التسليم المطلق بما يروم اليونان ، ولا تخاف من عاقبة المنع شرا كبيرا . ويشير اليها من جانب الدول العظيمة انها غير موقنة باتحاد وجهتها السياسية في هذا الامر ، فهي تسلك سبيله صفا آحادا كالذئاب على الثلوج يتقي بعضها بعضا خوف الاغتيال ، فاذا علقت سيف ذامقليس (١٤) على باب الاستانة وعيدا ، فلا شك ولا ريب انها لا تخرج في حب اليونان عن مذهب افلاطون .

واذا كان ذلك مقررا معلوما ، فلاغرابة فيما نراه من المنعة وقوة الاستمساك وشده التمالك في جانب الباب العالي ، وما نشهده من السهولة والتسامح ولين الجانب في جهة الدول ، وما نجد من سرعة التقلب وكثرة التردد وتواتر التحول في اقوال الصحف المنسوبة الى الحكومات .

فقد كنا نخاف من الدول ان تصر على ما حكمت في مؤتمر برلين ، حتى رضيت بعقد مؤتمر آخر في تلك العاصمة ، فخفنا استمساكها بما يتقرر فيه ، فتساهلت في المذاكرة السياسية الى حد الاعراض عنه ، ثم رامت التحكم في النازلة بين الخصمين ، فلما أباه احدهما واستنفر الآخر منه ، عدلت عنه الى الاخذ بما رأته الدولة من تجديد المفاوضة في الاستانة بين الباب العالي والسفراء.

وكانت الجرائد المنسوبة للوزارات في جميع الدول المتعاهدة تجهر بالميل الى اليونان ، وتبالغ في تسوئة الدولة العلية ، ولا تألو في الوعيد جهدا ، متواطئة على الحكم باتحاد آراء الدول واجتماع كلمة السياسيين ، على انفاذ حكم المؤتمر في المسألة اليونانية ، متوامرة على تجسيم الامور وتعظيم المخاوف ارهابا للحكومة العثمانية . فلما رات من الدول تلك المجاراة التي ذكرناها صار ميلها لليونان اشفاقا ، وتسوئتها للباب العالي نصحا ، وحكمها باتحاد الآراء ظنا وتجسيمها للامور خيالا . بل ادعت السآمة من ادلال اليونان على الدول الاوروبوية ، كأن لم يكن ذلك مما يملأ صفحاتها حروفا . فلولا بقية الحرص على ظواهر الشأن والحياء من الاجيال الآتية ، لأنكرت هاتيك الجرائد انها اثبتت

---

١٣ ـ نشرت في التقدم ، العدد ١٠ ، تاريخ ١٠ شباط ١٨٨١ .

١٤ ـ ذامقليس مدّاح كان يتملق الظلاّم دنيس ويهنئه بكمال السعادة ، فأراد ذلك الامير ان يظهر له ماهية سعادة الظالمين ، فأدّب له ، وجعل فوق راسه سيفا مجردا معلقا بشعرة فرس ، يشير بذلك الى قلقه الدائم في جنب الهناء . فسار هذا الفعل مثلا في الانزعاج والوعيد .

لليونان حقا ، وايدت لهم رأيا ، في كل ما نشر اصحابها ، وما كتب المراسلون .

فمن رأي جريدة التيمس منذ بضعة اشهر او اسابيع داعية الى الاخذ بناصر اليونان ، ناهية عن التساهل مع الدولة العلية ، مؤيدة راي التهويل البحري ، كيفما كانت عواقبه ، يَعجب لا شك اذ يراها في هذه الايام على نقيض تلك الحال . تقول لقد ابرمتنا دولة اليونان بما تريد وما لا تريد ، حتى كأنها تحسب الدول العلية وقفا على هذا السبيل ، ولا تعلم انها في جسم الممالك الاوروبوية أصغر الاعضاء شأنا ، وأقلها مقدارا ، وان لدى كل من سائر الدول ما يشغلها عن مثل نازلة التخوم .

ومن رأى الصحف الفرنسوية ذات الصلات الرسمية منتصرة لليونان ، مخطئة للدولة العلية ، تنكر على دولة المانيا دخول بعض رعيتها في خدمة الباب العالي، ولا تنكر على دولتها عزم بعض رؤسائها على انجاد اليونان بستة من القادة لتعليم الجنود ، يستغرب لا ريب قولها الان ان اليونان مستمسكون بما لا يفيدهم خيرا ليقولون وعدتنا الدول فلا بد لها من الوفاء ، ولا ينجع فيهم نصح الناصحين ، ولو اهتدوا سبيل الصواب ، لاقتدوا بالدولة العثمانية ، فيما تظهر من دقة السياسة ولين الجانب .

ولكن لا عجب ولا غرابة في هذا الانقلاب فهو في السياسات عادي مألوف، ولو لم يكن فيها لكان ذلك هو العجب العجاب :

تعجبين من سقمي   صحتي هي العجب

وقد انبأنا التلغراف أواخر الاسبوع الاخير ان الموسيو كومندوروس وزير اليونان أنكر لائحة الباب العالي في مجلس نواب أمته . وقال ان دولته لا ترضى بتلك اللائحة ، ولا تعدل عن شيء مما تقرر في المؤتمر ، وما وعدت به الدول. ثم جاء في صحيفة دريتو الايطالية الشبيهة بالرسمية معناه : ان سفير اليونان في رومية بعث الى الحكومة الايطالية في ٢٢ الشهر الماضي بصورة منشور تلغرافي للوزير كومندوروس يرد فيه على لائحة الباب العالي ، ويبسط للدول احوال أمته ، وينيط بها اماني دولته ، ثم يسألها ان تتم عليهم النعمة التي بدأت، وتنجز الامر الذي وعدت ، وتكمل سعيها المشكور باجراء أحكامها المقررة ووقاية السلم في بلاد الشرق .

ولكن جاءنا بعد ذلك بالتلغراف ايضا ان وزير الخارجية الفرنسوية قد اثبت في مجلس النواب مفاد منشوره الذي اوردناه معربا فيما سلف ، ولم ينس بعد قراؤنا الكرام ان ذلك المنشور ناطق بأن مساعدة الدول للحكومة اليونانية في مسألة التخوم لا تتجاوز حد المخابرة السياسية والوساطة الودادية ، بمعنى انها لا تخرج عن دائرة الكلام .

فاذا علمنا ذلك فلا نستغرب ما روته صحيفة القرن التاسع عشر الفرنسوية،

من ان في اليونان فئة كثيرة يخالفون راي الوزير كومندوروس ، ويرومون السلم من وجه التساهل ، والملاينة على قدر الامكان ومقتضى الحال .

نعم ان ما نراه في الدولتين المتحالفتين من السعي في تجهيز العساكر ، واعداد آلة القتال من موجبات الخوف ومظاهر الفتنة ، ولكن هذا موضع تكرار ما قلناه غير مرة ، من ان الحرب ابعد ما تكون من الحقيقة ، اقرب ما تكون الى الظاهر ، وان الاستعداد لها قد يكون الموجب الاول للسلم . والله أعلم .

***

عيد ١٤ تموز (١٥)

لقد وجدتَ مجال القول ذا سعةٍ   فان وجدتَ لسانا قائلا فقُلِ

فهو المعجب لا يوم هناء النعمان . وهو المدهش لا النوروز ولا المرجان ، وهو مجلى النفوس الذكية وهو مظهر الوحدة الوطنية وليس الخبر كالعيان. ولقد رايتهم فيه ألوفا صنوفا ، متدفقين في المسالك والساحات ، فما البحر هائجا رهيبا بأعظم مما رايت . وسمعتهم فيه ينادون باسم الوطن والحرية ، متفانين صياحا فما الرعد محلول النطاق بأشد مما سمعت . وشهدت فيه باريس ملوّاة المنازل محلاة الابواب والجدران ، فما الروض بدت شقائقه الحمراء بين غصون آسه الخضراء ، تلي زهور ياسمينه البيضاء بأبهى مما شهدت . وعاينت ثم أقواس الانتصار وسهام النار معقودة الاطراف بعقود الانوار ، فما الافق تبددت عنه الغيوم ، وتجلت فيه النجوم دائرة بدارة البدر الا مثال ما عاينت .

ولا ترميني بالغلو فان ما اقول الا كما رسم المصورون الروض ، ووصف الفلكيون الافق ، وكما مثل الماء النجوم ، وتخيل ان كنت في ريب مما اقول عشرين مائة الف من ازكى الخلق نفوسا ، واحب الناس لاوطانهم ، أحدّ من خلق الله أفكارا ، في فسطاط من اعظم المدن فناء ، واحكم البلدان بناء ، واكثر ما بنى الانسان آثارا ، يوم عيد يُعيد اليهم النجاة من الذل ، والوصول الى العز والسلامة من البلاء تذكارا . وتصور لتلك المدينة شوارع مفروسة الجانبين اشجارا منسوقة الرصفين أنوارا . وساحات رفع فيها الجد لكل ذي فضل لواء ، وأعلى الفضل لكل ذي جد منارا . وتمثل في تلك الشوارع والساحات مئات الف كبارا وصغارا . يتسابقون فيها الى مجالي الهناء ، ويتواردون على مظاهر السرور قطارا . وقدر لكل منزل صحبة الوية ، ولكل

---

١٥ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٥٥ ، تاريخ ١٩ تموز ١٨٨١ .

نافذة وباب عقد اضواء ، ولكل ناطق لسانا يهنىء فيه بالعيد جهارا .

ثم تأمل جملة ما تصورت ترَ الحقيقة من فوق ما ذكرت ، ولا تمرر على المخيلة من بعد هذه الغرائب ما يتخللها من مظاهر الحسن وتجليات الأنس ومطامع الجمال والكمال ، فاني اخاف عليك اثر الفتنة مما ترى من فاترات الاجفان ودهشة الطرب مما تسمع من مطربات الالحان فثم الوف من كل من :

بدت بدرا ومالت غصن بان ... وفاحت عنبرا ورنت غزالا

يتبارين الى اللهو كما تبارت غزلان يبرين في المراتع ، ويتجلين في الصفو ، كما تجلت بدور الافق في المطالع وصفوف من كل من :

اذا ما هزه ذكر المعالي ... تدفق كالجواد رأى مجالا

يسيرون على نسق تشق حرابهم فؤاد الفسق ، وبين أيديهم أرباب الالحان ينشدون على الآلات اغاني الاوطان . وهناك ما لا رأت العيون ولا سمعت الآذان .

* * *

ضيف قليل الحياء (١٦)

اذا انت اكرمت الكريم ملكته ... وان انت اكرمت اللئيم تمردا

موسيو شارم غبريال ، او موسيو غبريال شارم كما شئت وكما يقلبك الهوى . اليك يساق هذا الحديث .. جئتنا العام السالف زائرا ، او مستشفيا ومستمنحا من جبالنا بعض ما اصبت في وادي النيل ، فلقيت منا وجوها صباحا تعد البشاشة للضيف فرضا ، ونفوسا كبارا تحسب الكرامة للغريب دينا ، وقوما يبدون الفضل ويعيدون ، اكارم تحسد بهم الارض السماء ، وما تمثيل صفاتهم للناس الا كما مثل النجوم الماء . فحسبت البشاشة صغارا ، وعددت الكرامة استعطافا ، ورأيت الفضل بمرآة ما فيك من النقص ، فالتوى معناه عليك ، فعدت يا مؤاجر القلم ترمينا بدائك وتنسل . تقابل صفو ما وردت من مائنا بكدورة اغتيابك ، وسلامة ما تنسمت من هوائنا باعتلال روايتك،

---

١٦ ــ مقالة نشرها في التقدم ، العدد ٥٧ ، بتاريخ ٢٥ تموز ١٨٨١ ، واعيد نشرها في الدرر ص ٣٢٨ .

تقول ، وانت أكذب القائلين ، ان السوريين أرباب كذب ونفاق ، ودناءة اخلاق لا مروءة لهم ولا حياء ، ولا همة فيهم ولا خلاق ، وتولاهم الخمول والكسل ، فمن استطاع منهم للسؤال سبيلا لم يلوِ على عمل .. كذبت ورب المروءة . وما هي اول فرية منك . فقد رميت من قبل نزالة اليونان في مصر بمثل هذا القول، فجاءك النذر من الصديق (جوسيو) رد ما كذبت او تكون من الخاسرين ، فأبيت فدعاك للنزال ، يحسب ان في عروقك دم الرجال . فتسترت بأذيال فواجر العذر ، فعلم ان مثلك لا يعامل معاملة الشرفاء ، فصفعك يا ضوطار السياسة كما يصفع الانذال .

وتقول ما رايت أشد من السوريين تعلقا بالخرافات والاباطيل ، فقد شهدت منهم في القدس حلقة رجال من حول بائع صور وتماثيل يسومونه احدى الصور، فلما أعياهم الثمن المطلوب ، قطع الصورة أجزاء ، وباعها منهم بأثمان مختلفة ، فآب هذا برأس وذاك بساعد ، وذلك بيد ، وذياك برجل مسرورين جميعا متبركين ... فهل استهزأ بك الترجمان يا موسيو شارم ام استهزأت انت بقومك، ام رمت توفير الصنيعة ، فضربت بهذا الطبل علما منك بتهافت ذويك على الغريب.

وتزعم ان رؤساء الدين منا أطمع الناس في الاموال ، واشدهم حرصا عليها ، وافسدهم اخلاقا ، واميلهم الى الشهوات ، واكثرهم تهتكا في المحارم ، على خلاف ما يرى في رؤساء قومك . فهل بعينيك عمى ام تحسب الناس عميانا ، ام لم يخبرك من صحبت من ساقة الحمير وأدلاء الموا .. انه ما وجد فينا من يظن بأهل الرئاسة شرا ، ومن يميل الى رأي اهل الشكوك الا بعد اذ وبثت بلادنا بمفاسد الاجنبي ، وبعد ان رأينا من الذين تمدح ، وسمعنا من اخبارهم ما يعمي ويصم ، حتى خيل لنا ان الفساد فيهم عميم ، على كوننا أشد الخلق استمساكا بما يدعون اليه .

وتذكر بعض مخدّراتنا بالسوء ابتهارا ، وتورد في ذلك حكاية حال من سفر بحر ، وصحبة فتى ، وتزلف والد ، وغناء ولهان ، وضرب الحان ، وسائر ما يهذو به اصحاب الحكايات ، وتعين بعد ذلك وتسمي اعتلاننا بقلة الحياء .. فهلا ذكرت يا ابن الطاهرة مكارم الكرائم حيث دببت وحيث شببت ، وحيث تأدبت .. فلا تحرجنا فتخرجنا من الذود الى الاقدام ، ومن الجواب الى الخطاب ، انّا نعرف منكم ما لا تنكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثم طبعت كل هذا القول الهراء يا سقيم الطبع فأين تركت ماء الحياء ، ومن اين جلبت لوجهك جلد خنزير ..

عفوا سادتي عما ترون بي من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن ، والعرض ، والقوم ، ومن ذا الذي لا يغضب لوطنه ان يهان ، ولعرضه ان ينهتك ، ولقومه ان ينالهم لسان مبتذل ساقط لئيم . فقد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضيفا نزيلا واكرمتموه فجعل اعراضكم مناديل . عرفته متلمسا على ضفاف النيل . ورايت من واجب الذمة الوطنية ان أعرفكم ما عرفت لكيلا تضيعوا الفضل في غير ذويه :

فوضع الندى في موضع السيف في الوغى
مضرّ كوضع السيف في موضع الندى (١٧)

وان اخذتني الحدة فيما ابنت من لؤمه ودناءة نفسه ، وسقم طباعه ، فهي نار الغضب للوطن تثير بخارا يدير القلم على هذا القرطاس . فقد رأيت ذلك المطبوع المعكوس في صحيفة (ريفو دو مند) وصحيفة (الجبت) المطبوعة في مصر نتفا من كتاب سيرد الي فأذكر لكم فحواه .

ويا موسيو غبريال شارم هذه اول رسائلي اليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك . فطب نفسا انك التمست الشهرة بين قومك ، بما افتريت على السوريين والمصريين من قبلهم ، واني لاجعل لك بين قومي ذكرا ، يجدده المستقبحون عصرا فعصرا .

***

فرنسا وايطاليا في تونس (١٨)

قال في صحيفة (بوبولو رومانو) الوزارية الايطالية ما ترجمته :

لا نريد ولا ينبغي لنا تكدير علائقنا الودادية بالدولة الفرنسوية . وان الحوادث الجأت هاته الدولة الى مجاوزة الحدود المعينة باعلاناتها الصادقة . اجل يمكن لنا في مثل هذه الحال الموهومة ان نستدرك عليها الخطأ ، بكونها لم ترع مصالحنا حق الرعاية ، ولم تعن بتأييد شأننا في تونس ، في جنب سطوتها على كوننا نعترف ان ذلك الشأن ضعيف بالنسبة الى شأنها ، وانه من كل الوجوه موجب لنماء مصالحها الكثيرة في ذلك القطر . ولكنا لا نقدم مثل هذه المسألة الثانوية على المصالح الكلية العظيمة التي تصل بين الامتين .

ثم انه لضرب من الجنون ان نضعف صلات الوداد بفرنسا ، ونتهور في سياسة لا تكون مبنية على استقلالنا وحريتنا الفعلية ، من اجل نقص يسير يطرأ على سطوتنا المعنوية في تونس ، على علم بأن لنا في مرسيلية نزالة مستقرة من نحو لخمسين الف ايطالي يشتغلون ويقدرهم الفرنسيس حق قدرهم .

ولكن كل ما ذكرناه مبني على تقدير موهوم، فان فرنسا أمة صادقة مستقيمة، ما برحت تظهر لايطاليا مودة اكيدة وانعطافا ، فلا موجب والحالة هذه للريب في

---

١٧ ـ الاصل العلى ، وليس الوغى (المحقق) انظر المتنبي : الديوان .
١٨ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٣٧ ، تاريخ ١٦ ايار ١٨٨١ .

صفاء مقاصدها .

ولذلك يجب على الحكومة (الايطالية) في رعاية مصالح المملكة ان تعلن بما نعهد في الموسيو كيرولي من صدق اللهجة . ان ايطاليا تروم صيانة العلائق الودادية التي تصل بينها وبين فرنسا منذ أعوام كثيرة ، وانها على يقين من ان استقامة حكومة الجمهورية وعدالتها تفضي بها الى فض المسألة التونسية بوسيلة مرضية .

واين هذا القول مما كنا نراه في صحيفة المستقل وغيرها من الجرائد الناطقة بلسان ذوي الاهواء الطائشة من رجال الدولة الايطالية . فليكن فيه عبرة وتذكرة لاولي الالباب في تونس ، وفي سائر الممالك الشرقية ، فلا يغرهم رونق الوعود ، وبهرج العهود ، ولا يعولوا على احد من غير انفسهم .

فانما رجل الدنيا وواحدها　　　من لا يعول في الدنيا على رجل

***

خلاصة سياسية (١٩)

لم ينس قراء هذه الصحيفة ان بعض الجرائد الانكليزية قد بالغت منذ حين في التهويل ، بما أشاعته من ان الروسية اقامت على تخومها من جهة بلاد الارمن عسكرا جديدا ، وانشأت هناك حواجز ومستحكمات حربية ، وقوفا على قدم العدوان ، الى ان تمس الحاجة اليه او تمكن الفرصة منه . وقد أوردنا وقتئذ هذا الخبر على علاته ، ولم نعره ما يقتضيه ظاهره من الاهتمام ارتيابا بصحته وانتظارا لظهور دخلته . فلما عاد اللورد دوفرين الى الاستانة قادما من مصر ، وتناقلت الجرائد من أخباره فيها انه حث على تعجيل الاضلاح في بلاد الارمن ، على حين كان المتوقع منه ان يبسط في الحضرة العلية السلطانية ما فعل في مصر ، وما رأى من أحوالها ، وما يعلم من قصد دولته بها ، بدا لنا سر تلك الاشاعة وذاك التهويل ، فعلمنا ان الجرائد الانكليزية لم تدندن بخبر استعداد الروسية للحرب على تخوم بلاد الارمن ، الا لاخفاء مسألة مصر بحجاب المسألة الارمنية، وليكون ذلك الخبر كما في مثالهم ترابا في أعين الناس، يحجب عنها غرابة البدعة السياسية ، التي ابتدعتها دولة الانكليز ، بارسال سفيرها لدى احدى الدول بمهمة تتعلق بتلك الدولة ، الى قوم من رعيتها في بلد من بلادها بلا علم سابق ولا بيان لاحق . وقد اتفق الكثير من الجرائد الاوروبوية الخطيرة على الجزم

---

١٩ ــ نشرت في التقدم ، العدد ٤٧ ، تاريخ ٢١ حزيران ١٨٨٣ .

بأن سعي اللورد دوفرين في الاستانة لم يصادف عند رجال الدولة العلية قبولا، بل عده كثير منهم ذريعة للافلات من ميثاق رابع حزيران المشهور بميثاق قبرص، لا من جهة الحلول بهذه الجزيرة ، ولكن من جهة ما التزمته الدولة البريطانية من صيانة آسيا الصغرى ، عما عساه ان يطرأ عليها من العاديات . وزعمت تلك ان ذلك هو السبب في كون اللورد دوفرين لم يفز بوداع الحضرة السلطانية عند سفره من الاستانة الى بلاد الانكليز . وكيف كان الامر فلا شك ولا ريب ان عدول اللورد المحترم المشار اليه عن المسألة الواجبة البسط الى مسألة ليست منها في شيء مفاجأة واقتضابا مما يوجب الاستغراب والحيرة . ولا يمكن ان يجلب الرضى والقبول ، وذلك مما يحملنا على تصديق ما نبأنا التلغراف صادرا من بطرسبرج ، ثامن الشهر من ان حضرة سرور باشا الذي ارسلته الدولة العلية لحضور الاحتفال بتتويج القيصر ، قد فاوض رجال الحكومة الروسية في مسألة الارمن (ان صح ان للارمن مسألة) فحصل بينه وبينهم الاتفاق على وجه معين لا مدخل للانكليز فيه . وما جاءنا قبل ذلك من ان جفوة اللورد دوفرين فيما بدا منه في الاستانة قد احدثت بين الدولة العلية والروسية تقربا سياسيا . على اننا لا نحسب هذا التقرب ولا ذاك الاتفاق ضربا من المعاهدة السياسية ، فان دولتنا العلية تعلم ان وقوفها موقف المطلق المستقل بالرأي في هذا الامر وغيره من سائر أمورها الداخلية خير لها من التقيد بمواثقة دولة من الدول اية كانت. فمواثقها في مثل هذا الشأن لا يرضيه الا نيل ما يطمع فيه ، وكفى بمعاهدة قبرص وبموقف دولة الانكليز في خلال حرب الروس عبرة للتأمل البصير .

ومن حلقات سلسلة الاعاجيب التي فاجأنا بها اللورد دوفرين بعد خروجه من مصر ، ما جاءنا بالتلغراف (المنشور في هذه الصحيفة) من ان وفدا من الارمن اتوه في لندرة ، مخبرين انهم ابانوا لمولانا المعظم في حضرته السنية أوجه الخطر المترتب على ارجاء الاصلاح في بلاد الارمن . فهذا الخبر على ما في جملته من الغرابة مخالف للصحة ، بل هو عكس الواقع على خط مستقيم ، فانه ما سمع ان وفدا من الارمن تشرفوا بالمثول في الحضرة العلية لبيان الخطر المتعين على تأخير الاصلاح ، وانما علمان جناب اللورد دوفرين قد فعل ذلك عند تشرفه بمقابلة مولانا المعظم تحاميا من ايضاح ما يود اخفاءه من امر مصر . ولا شك ان للانكليز في نشر هذا الخبر على عكس الواقع سرا تظهره لنا الايام ، كما اظهرت سر تهويلهم بتجهيزات الروس الحربية على تخوم الارمن .

ولا حاجة الى القول ان الدولة العلية لا ترجيء الاصلاح في بلاد الارمن او غيرها من سائر الممالك المحروسة عمدا ، ولكنها تأخذ بأسبابه تدريجا ، متكلفة وسعها من النفقة فيه ، ثم انها لا تروم ان يكون للارمن او لغيرهم من سائر الطوائف العثمانية مسألة مخصوصة بهم ، واصلاح مقصور عليهم ، فذلك مما يلقي الإحن بين تلك الطوائف ، ويبعثهم على التحاسد الموجب لنفور النفوس وتفرق الكلمة . وانما تريد ان يكون الاصلاح شاملا يعم البلاد العثمانية شرقا

وغربا في آسيا وفي اوروبا بلا فرق ولا استثناء . وهذا هو القصد من المجالس العالية التي تعقد المرة بعد المرة في الباب السلطاني منذ شهر او اكثر ، ومن اللجنة الكبيرة التي شكلت للنظر في تقسيم الولايات على الوجه الملائم للاصلاح الاداري والمالي وان المسئول في حصول المأمول .

***

خلاصة سياسية (٢٠)

ما كادت الباخرة المصرية تستقر بحضرة صاحب العطوفة قدري بك في مرفأ الاستانة ، حتى جاءه الامر الكريم بالتوجه الى المابين الهمايوني ، فتشرف بالمثول في الحضرة السلطانية ، لبسط ما علمه وما رآه من احوال مصر في الايام الاخيرة . فكان ذلك من الادلة القاطعة على اهتمام سيدنا ومولانا المعظم بالمسألة المصرية ، وان تهاويل بعض الدول ومخابلات بعض رجال السياسة لم تكن لتشغل جنابه الكريم عن احوال بضعة ملايين من رعيته الامناء الصادقين . فهو يرعاهم بعين العناية ، ويأخذ في امرهم بأسباب الاحتياط والوقاية ، حتى تنقضي المعاذير ، وتساعد المقادير ، وما ذلك على الله بعسير .

ولقد رمت الصحف الانكليزية حضرة صاحب العطوفة المشار اليه باثارة العداوات والاحقاد على الانكليز في مصر ، بغية التخلص مما ظهر على يده من نفوذ الكلمة السلطانية وغلبة الحجة العثمانية في تلك البلاد ، كما لاذ اللورد دوفرين بمسألة الارمن والاصلاح العمومي ومعاهدة قبرص فرارا من المذاكرة في المسائل المصرية . ولكن برح الخفاء عن الامرين ووضح الحق لذي عينين ، فعلم ان حضرة قدري بك لم يدعُ الى الفتنة ، ولم يثر عداوات النفوس في مصر ، وانما سعى في شأنه من حفظ السلطة العثمانية ، واظهار حقوق الدولة العلية ، وقبول ما يبديه لها المصريون من علائم الحب والاخلاص والطاعة والاختصاص . وهو حق لا مراء فيه ، وشأن لا وصمة في ظاهره ولا عيب في خافيه . وستعلم تلك الصحف ان تغيب حضرته من مصر لا يمنع من استمساك اهلها بعروة التابعية العثمانية ، ولا يبعثهم على الميل الى ما ينكرون ويكرهون من السيادة البريطانية. اما مسألة الاصلاح التي تذرع بها اللورد دوفرين لاخفاء مقاصد دولته في مصر ، فاهتمام الدولة العلية بها في هذه الايام ، كافل بتسويتها على الوجه القاطع ، لاسباب الاعتراض المانع لاوجه الاعتذار في النازلة المصرية . ولقد روى مكاتب التان في لندرة أن التقرير الذي رفعته لجنة الاصلاح المؤلفة من عظماء رجال

---

٢٠ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٤٨ ، تاريخ ٢٥ حزيران ١٨٨٣ .

الدولة الى الحضرة العلية السلطانية يتضمن ثلاثة مطالب مهمة كليـــة : الاول توسيع حقوق الولاة ، بمعنى ان لا تنحصر كليات الامور وجزئياتها في العاصمة، ولا يرجع اليها الا في المهمات . وهو أسلوب من التدبير السياسي يعبرون عنه بما معناه عدم التمركز ، اي عدم انحصار الكل في المركز . والثاني تخصيـــص جزء من دخل الولاية بما يلزم فيها من المنشآت العمومية النافعة. والثالث تنظيم الشرط واصلاح أحوال الضبطية عموما لتأييد الامن وحفظ الحقوق وصيانـــة الراحة .

ولا شك ان اجراء هذه التدابير الثلاثة ،بما تقتضيه الاحوال الحاضرة مـــن الحكمة وصفاء النية وصدق العزيمة كاف في تمهيد سبيل الاصلاح ، كافـــل بتقريب غايات الفلاح والنجاح . فان التدبير الاول يقي مصالح الولايات عـــن مفاسد التأخير والتعويق ، المترتبة على انحصار الكليات والجزئيات في مركـــز تكثر فيه الاعمال ، وتتراكم القضايا ، ولا يتيسر لصاحب الشأن الوصول اليه في وقت الحاجة . والثاني يعين أولي الامر على اجراء ما تمس اليه الحاجة من التدابير النافعة ، وايجاد ما تقتضيه احوال البلاد ، صناعية كانت او زراعية ، من المنشئات العمومية ، من مثل تمهيد الطرق وانشاء المعابر والجسور وفتـح الخلجان والترع وتأسيس المعامل والمصانع وهلم جرا ، وأما التدبير الثالث فوجه المنفعة فيه ظاهر للعيان غني عن البيان .

ومن المعلوم ان اصلاح أحوال البلاد ، وان كملت معداته وتوفرت اسبابـــه وحصلت فيه الارادة والمقدرة لا يتيسر اجراؤه بما يلزم فيه من حسن الانتساق واستحكام الاصول الا تدريجا ، او يكون عرضة للفساد يبيت القائمون به على خطر الزلل ، ولا تأمن البلاد فيه اختلال الاحوال . فللتقاليد والعادات أحكام لا يردّها الا تعاقب الايام والاحوال . فمن اخذ الاصلاح بأسبابه ، ودخله من بابه، وتدرّج فيه ثابت العزم مستقره ، دائم السير مستمره ، فبشّره ببلوغ الامـل ونجاح العمل ، فكل من سار على الدرب وصل .

***

خلاصة سياسية (٢١)

سبحان من لا يشغله شأن عن شان . لقد شغلتنا حادثة الوباء في بعـــض البلاد المصرية ، عن مهمات السياسة في هذه الايام ، فلم نعطها في الصحـــف الاخيرة حقها من النظر والاهتمام . اما وقد اتتنا بعض الانباء مبشرة بانحصـــار

---

٢١ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٥٢ بتاريخ ٩ تموز سنة ١٨٨٣ .

العلة في اماكنها ، وسلامة سائر القطر المصري من بلائها ، باعثة على الرجـاء بنجاة هذه الديار المحروسة ، ان شاء الله منها ، فلا بأس باطلاق طرف الفكرة في مجال أحوال السياسة التماس الكشف والبيان بقدر الوسع والامكان .

فمن اهم تلك المهمات السياسية لدينا ما نراه من مظاهر الصفو والمودة بين الاستانة وبطرسبرج وباريس ، وما تلحن به جرائد الروس والفرنسيس مما يشعر بحصول التقرب والائتلاف بين دولتيهما والدولة العلية ، ناشئين عن تقارب مصالحهن السياسية ، وتشابه منافعهن الاقتصادية في آسيا الصغرى ومصر . وهذا النبأ ممكن الترجيح بما اظهرت الروسيـة من علائمه في اختصاصها المعتمد الفرنسوي في بطرسبرج بضروب من الاكرام والالتفات ، لم يفز غيره من المعتمدين الا بصور ظاهرية منها ، وبما توالى من المذاكرات السياسية والمفاوضات الودادية بين المعتمد العثماني ووزراء دولة القيصر . وبما ابـدت الدولة العلية من دلائله في معاملة السفير الفرنسوي ، واكرام وفادة الاميـرال كرنتز الى الاستانة العلية . فان صح النبأ ـ ولا مانع من صحته ـ فلا شك ، في انه يسوء اصحاب معاهدة قبرص وحوادث مصر من بعدها . ولعله يبعثهم على تذكر ما افرطوا في الاستخفاف به من حقوق الدول والامم في بعض المسائل السياسية الحاضرة ، فاما ان يزدادوا اصرارا على آرائهم ، وميلا مع أهوائهم، فيكون ذلك موجبا لاستحكام ذلك الائتلاف ، وحصول الثمرة النافعة منه ، وإما ان يلتزموا جانب العدل والاعتدال ، فيحصل الغرض المطلوب من اتحاد الـدول الثلاث المشار اليها فهو على الحالين خير لا ضير فيه .

ثم ان الدولة العلية متى اطمأنت نفسها على الامن والراحة من جهة السياسة العمومية ، وكان لها من الدول أعوان يشتد بهم الازر فيما يحل من النوازل ، وما يقع من المسائل الخلافية ، لم يتعذر عليها التفرغ للشؤون الداخلية والاهتمام بالاصلاح الموعود . بل تتوفر لديها اسباب هذا الاصلاح ، بما يتيسر لها نيله من الحقوق المالية التي لم تسلم فيها من المعارضة حتى الان ، من مثل تعديل رسوم الجمارك وتقرير ضريبة التمتعات ، وغير ذلك مما يتسع به دخل الدولة على قدر ما يتسع الخرج في سبيل الاصلاح المطلوب .

وبعد فالانفراد في الوجود الانساني عموما والحياة السياسية خصوصا من موجبات الضعف والخذلان ، فلا بد للدولة اية كانت من حلفاء مخلصين أمنـاء ، تستعين بهم على ما تحتاج اليه ، وتعينهم بما تقوى عليه سنة الاجتماع الانساني في الافراد والجموع . فاذا تيسرت لاحدى الدول محالفة بعضهن على قواعـد معلومة مرعية من اتحاد المصلحة ووحدة الراي والمآرب ، كان الواجب عليهـا بمقتضى أحكام السياسة ان تسعى اليها وتحرص عليها غير مقيدة مع ذلك بشيء مما يضعف حريتها الذاتية . ولذلك لا ننكر خبر الائتلاف العثماني ـ الروسي ـ الفرنسوي ، ولا نستغرب ان يكون واقعيا ، فالمصلحة ظاهرة فيه من عـدة أوجه . ولا وجه للخوف منه ، خصوصا مع العلم بما في رجال دولتنا العلية من حسن النظر والدقة والتحرر ومراعاة الاحوال والبصر بعواقب الامور ، وانهم لا

يجهلون ان أحزم اهل السياسة من ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية .

***

ظلمات سياسية (٢٢)

نشرت جريدة (غازيت دوللمان دونور ـ ومعناه صحيفة المانيا الشمالية ـ) ما يأتي معرّبا بمعناه قالت :

قلّ ما يطلع الناس في المانيا على ما تنشره الجرائد الفرنسوية على اختلاف مشاربها من الطعن العنيف والوقيعة الشديدة في جيرانها الالمان ، وانها تتلون في ذلك الشأن ، وتسلك اليه كل سبيل ، متبارية متنافسة في العنف والشدة . فان الالماني حسي النظر ـ تعني انه ينظر الى المحسوسات ويهتم بالواقعات ـ منحط الرتبة من جهة الافراط في الغيرة على شأنه الوطني ، فهو لا يدرك حقيقة الشهوات المتلاطمة في لجة هاتيك المكاشرات التي لا تخلو عنها جريدة من جرائد الفرنسيس في وقت من الاوقات .

وعندنا ان ارتياحنا للسلم يوجب علينا بيان الاثر الذي يترتب على ذلك التحامل المستمر ، على ازدياد واشتداد ، فنقول ان ذوي البصيرة والحزم حتى من عساه ان يوجد منهم (كذا) في فرنسا كل ما تدبروا حدّة الداعين من الفرنسيس الى ادراك الثأر ، وما تصادف دعوتهم من رجع الصدى عند أمتهم، ومن كان على مشربهم من ارباب الثورة في الالزاس واللورين ، ايقنوا بأن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي يخاف منها على حالة السلم (وفي الاصل الدولة الوحيدة التي تتهدد سلم اوروبا) ، فاذا تقرر هذا حصل اليقين بأن هذه الحالة مستحيلة الدوام ، او يكون ما يتمناه عقلاء رجال السياسة من السلم على خطر عظيم ، لانه كلما ارتفع طغيان الشهوات الذي يفاض بلا تدبر لمقاصد شتى زادت صعوبة العلم بمقدار ما ينبغي لحصره في مكانه من حواجز السلم فهنا لا شك محل التمثل بقول العامة : من اكثر من دعاء الشيطان خفنا عليه ان يلبيه . انتهى .

فهذا الفصل من حيث هو هو ، اي من حيث ما تضمنه من التنديد بالفرنسيس وجرائدهم ، ومن التهويل عليهم بالحرب ، ومن حيث انه مثبت في الجريدة المشهورة بكونها تنطق بلسان البرنس بسمارك ، قد كبر على الامة الفرنسوية ، وشق على جرائدها ، بل اهتمت به سائر الجرائد الاوروبية ،

---

٢٢ ـ نشرتها التقدم ، العدد ٧١ ، بتاريخ ١٣ ايلول ١٨٨٣ .

فتناقلته مشفوعا بالرد او الملاحظة او القبول . وكان اكثرها ، وفي المقدمة التمس ، على القول بأن ما ادعته الصحيفة الالمانية على جرائد الفرنسيس ، غير مصادف محلا من الصحة والحق ، وانما هي حيلة من يلتمس الشر ولا يجد اليه سبيلا ، وان ما ابدته من الفلظة في المؤاخذة والتهويل ، مخالف للادب السياسي على خط مستقيم فهي حرية بأن تسفه فيه حتى لا يتجرأ على مثله غيرها من ارباب الصحف الشبيهة بالرسمية . ثم على تقدير ان يكون ما قالته على الجرائد الفرنسوية صحيحا ، فما محل مخاطبتها للامة بهذا اللسان ، وهلاّ سلك الوزير الالماني في هذا الشأن مسلك المخابرة السياسية المتبع .. الا ان الصحف المعادية لفرنسا قد اتخذت ذلك الفصل ذريعة لبث ما تضمر لها من البغضاء ، فنفثت بتقاريرها عليه سموم العداوة للفرنسيس ، مموهة بالعتب او النصيحة حتى بدت سياسة الغد للناقد البصير بل حجبت حقيقتها عنه بظلمات بعضها فوق بعض .

اما الجرائد الفرنسوية — ومرادنا الخطيرة منها — فقد ردت سهم الصحيفة الالمانية بدرع منيعة من الحكمة والدرية ، فنقضت كلامها حتى كأن لم يكن مسطورا ، وتجلدت لحر ضرامه حتى كأن لم يكن شيئا مذكورا ، ثم حولته عن قصده وما يقبل فيه صيرفي الكلام تحويلا، واستخفت به مغالبة طبع الخفة وكان في ميزان الحقيقة قولا ثقيلا .

وعندنا ان وقيعة الجرائد الفرنسوية في الالمان على تقدير صحتها ، لم تكن هي السبب فيما انبعثت به عليهم جريدة البرنس بسمارك (٢٣) ، وانما دعاها الى ذلك ما نبأتنا به جرائدهم من تجوّل الجنرال تيبودين وزير الحرب الفرنسوي في اطراف فرنسا من جهة الشرق ، اي من جهة التخوم الالمانية ، وانه تعهد فيها الحصون والقلاع ، وتفقد المتارس والمستحكمات ، وما شاع من ان دولة الجمهورية عازمة على نظم جيش جديد للمستعمرات تقيمه فيها بدلا من العسكر النظامي ، فيكون جيشها الكثيف كاملا مقيما بجملته في الارض الفرنسوية ، فلا يبقى في الدول من دولة تفاضلها في عدد الجند وقوتهم ، بل لا يكاد يبقى فيهن من تماثلها من هذا القبيل ، فلا يكون بعد ذلك لالمانيا المقام الاول بين الدول العسكرية.

نقول قولنا هذا ولا نحسبه عذرا لجريدة المانيا الشمالية في تحاملها على

---

٢٣ — بسمارك اوتوفون Bismark Ottovon (١٨١٥ — ١٨٩٨) . من عائلة اقطاعية، عمل دبلوماسيا . عين سنة ١٨٦٢ رئيس وزراء بروسيا ، ادخل اصلاحات على الجيش ، وخاض ثلاث حروب : ١ — مع الدانمارك سنة ١٨٦٤ لاستعادة شليزفيج — هولاشتين ٢ — مع النمسا والولايات الالمانية الاخرى سنة ١٨٦٤ ٣ — ومع فرنسا سنة ١٨٧٠ ، وبانتصاره في هذه الحروب حقق وحدة المانيا ، وجعلها قوة اساسية في اوروبة . (المحرر)

الفرنسيس . فقد كان تجول المارشال مولتك (٢٤) في بلاد ايطاليا من جهة التخوم الفرنسوية أولى بأن يزعج الفرنسيس ، ويحمل جرائدهم على مثل ما اندفعت به تلك الصحيفة ، لو كان لهم في ذلك أرب سهل المنال ، وانما اشرنا الى رحلة الوزير الفرنسوي ، وعزم دولته على نظم جيش للمستعمرات ، بيانا لاوضح الوجوه فيما حمل الجريدة البسماركية على نشر ذلك الكلام العنيف .

ولسنا ممن يقول ان هذه الصحيفة انما تحككت بالفرنسيس فتحا لباب الشر كما يقولون :

فكانت كذاك الذئب اذ قال مرة   لعمروسة والذئب غرثان مرمل
انت التي في غير ذئب (...)   فقالت متىذا قال ذا عام اول
فقالت ولدت العام بل رمت غدرة   فدونك كلني لا هنا لك مأكل

فدون اكل الفرنسيس خرط القتاد بل دونه عرين الاساد . وكذلك لسنا ممن يسترسل للخوف من غير ظهور موجبه . فاذا رأى غير شيء ظنه رجلا ، كما وقع لبعض أرباب الجرائد عند الوقوف على كلام الجريدة الالمانية ، اذ عدّوه دليلا على اختلال احوال السياسة ، بل حسبوه نذيرا بالحرب وصدّقوه فبحر السياسة ، ولاسيما في هذه الايام اوسع من ان يتكدر بقطرة من مثل ذلك الكلام والدول والامم المشاركة لحكامها في تصريف الامور أهدى من ان يداخلهم الطيش من حدة بعض الصحف ــ وان كانت خطيرة ــ فيذهلوا عن مصالحهم العظيمة المنوطة ببقاء السلم . ولاسيما انهم يعلمون ان الممالك قد صارت بما وفر فيها من اسباب القتال ، بمنزلة قنابل من البارود متلاصقة متلاحمة . فاذا مست النار احداها فلن تنطفىء ، حتى تملأ الدنيا ضراما والعياذ بالله . ولهذا كان اقرب الظن الى الصواب ــ فيما نراه ــ ان الجريدة الالمانية لم ترد بذلك الفصل العنيف ايقاد نار الفتنة استخفافا بفرنسا او خوفا منها ، وانما ارادت بيان الايجاس من تنقل الجنرال تيبودين على تخوم بلاده من جهة الشرق بغية ان تنكفىء فرنسا عن الاهتمام بشأن تلك التخوم ، او تعدل عن تنظيم جيش المستعمرات ، ولعلها قصدت من وراء ذلك غرضا داخليا للبرنس بسمارك ، من مثل حمل النواب على الترخيص للحكومة في انفاق ما يحتاج اليه من المال على شيء مما يريده من التدابير ، فقد جرت بذلك عادته في كثير من الاحوال والله أعلم .

***

---

٢٤ ــ مولتكه : هيلموت فون Moltke, Helmut Von قائد عسكري الماني ، دخل الجيش سنة ١٨٢٢ . كان رئيس أركان حرب بسمارك في حروبه . اصبح اول رئيس أركان لالمانية الموحدة من ١٨٧٠ الى ١٨٨٨ . (المحرر)

عام ١٨٨٣ (٢٥)

لقد كان هذا العام شديد الوطأة على بعض الاقطار الشرقية ، ولاسيما مصر. فقد جر عليها كلاكله بتداخل الاجنبي ، ثم بالوباء فاتكا بالارواح فتكا ذريعا ، ثم بالفتنة والحرب حاصدة رؤوس الرجال مبددة كنوز الاموال ، ثم بالمواربات والمخاتلات السياسية ، ثم باختلال امور المالية ، حتى غدت وهي جنة الشرق محفوفة بالمكاره ، تجري من تحتها ومن فوق سيول المصائب والاهوال . وما يدفع هذا الخطب عنها ، ولا ينقذها من البلاء العتيد الا الراية العثمانية تخفق على تخومها من جهة البر والبحر ، فتخفق لها قلوب العتاة والطاغين خوفا وهلعا، وان تصفو بها السرائر، وتحسن النيات ، وتصدق العزائم ، وتجتنب الشبهات، وترد السعايات ، ويعامل الناس بالرفق والاحسان وتكون خدمة الوطن هي المقصودة بالذات في كل المساعي والاعمال . فان تأتي ذلك ، فما هي اول مرة نهضت بها مصر من سقطتها وانتعشت من عثرتها وعاودتها القوة بعد الضعف والعزة بعد الخسف .

ولم نر في هذا العام تغيرا كليا في الظاهر من احوال السياسة العمومية ، فقد استمرت فيه السلم ، وجرت المعاملات الدولية مجراها المعتاد ، حتى بعد الخوف من الحرب ، واطمأنت الانفس على الامن وصفا أفق السياسة الاوروبوية، فلا خوف من تكدره ، الا بما عساه ان يتصل به من آثار المسألة المصرية ومسألة الصين .

أما الحادث الذي حدث لملك اسبانيا في باريس ، فقد تداركته الحكومة الفرنسوية بالحكمة وحسن التدبير ، فلم تفسد به العلائق الودادية التي كانت بينها وبين الدولة الاسبانية ، وانما اتخذه بسمارك وسيلة لاستنفار القلوب عن فرنسا ، واستمالتها الى دولته ، فأغرى الامبراطور بارسال ولي العهد الى مدريد ثم الى ايطاليا ليزور الملك الفونس والملك هامبرت والحضرة البابوية ، فتستحكم بينهم وبين دولته روابط المودة ، فلا يبقى لفرنسا من حليفة بين الدول الا الدولة الروسية .

الا ان سعي الوزير الالماني لم ينجح تمام النجاح، فان زيارة البرنس فريدريك لملك اسبانيا لم تغير ما كان بأنفس الاسبانيين من الحب لفرنسا ، والكراهية لكل من يروم التداخل في امورهم الداخلية ، بل زاد اهل الحرية واحزاب الجمهورية منهم استمساكا بمودة الفرنسيس . وجاء في بعض الصحف الايطالية ان زيارة البرنس المشار اليه للحضرة البابوية قد نفرت عن دولة المانيا قلوب احزاب الحرية والجمهورية من الايطاليين .

وقد صارت المسألة الصينية بعد استيلاء الفرنسويين على باك نينه عند حد

---

٢٥ ــ نشرت في التقدم ، العدد ١٠٣ بتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٨٨٤ .

النهاية ، فاما ان تحسم بالحرب او بوسيلة من وساطة بعض الدول والثاني اقرب . فان الصين تخاف الحرب ، وفرنسا لا تطلبها ، وسائر الدول التجارية تود السلم ، ولا تأبى التوسط بين الفريقين .

وكانت الدول والامارات البلقانية في هذا العام كالريشة في مهب الريح ، لا تستقر على حال من القلق . فقد اضطربت فيه رومانيا بما تقرر من امر السفر في الطونة، واختلت أمور البلغار ، بما وقع بين اميرها ونظار حكومته من الروس، ومن تشيع لاولئك النظار ، واتقدت نار الفتنة في الصرب ، وارتفع بها لواء العصيان . ثم مرت هذه العواصف ، وسكنت من بعدها الرياح ، فرضيت رومانيا بما قضت الدول العظام ، وعادت البلغار الى ما كانت عليه من الراحة والانتظام ، واخمدت نار الفتنة الصربية قبل انتشار الضرام .

ولم تتغاض الدولة العلية في هذا العام عن شيء من تلك الحوادث السياسية ، ولم تفرط في شيء مما يحق لها التداخل فيه ، او التنبيه اليه ، على انها التزمت جانب الحيادة المطلقة في المحالفات السياسية والمنافسات الدولية ، وبذلت جهد المستطيع في اصلاح امورها وتنسيق شؤونها الداخلية ، فتيسر لها من ذلك في هذه السنة مع اشتغال الخاطر وكثرة المشاكل ما لم يكن مأمول الحصول مع صبر البال وقلة الشواغل في بضعة اعوام . فانها نسقت أمور المالية في نظام مستحسن من توحيد الديون واختصاصها ، بمواد معلومة من الدخل ، حتى عادت ثقة ذوي الاموال بالخزينة العامرة . واقبلوا على المآخذ العظيمة والمشروعات الجسيمة في البلاد العثمانية، بعد انقباض ايديهم عنها فكان من انفع الآثار التي ترتبت على ذلك «حصر التبغ» بالتزام شركة منهم تدفع للخزينة بدلا معينا عظيم المقدار. ثم عنيت باصلاح احوال الادارة والقضاء وتعميم العلوم والمعارف وتعزيز القوة العسكرية وانشاء المنافع العمومية في العاصمة والولايات ، فبنيت في ممالكها المدارس ، ومهدت الطرق للعربات ، وأقيمت الجسور على الانهار ، فاتسعت الزراعة والتجارة وازدادت البلاد عمارة وحسن حال ، وكان لولايتنا السورية من هذه المنافع نصيب موفور يشهد بعلو الهمة وصدق العزيمة وشرف القصد لحضرة صاحب الدولة والابهة احمد حمدي باشا والي ولايتنا العلي المقام . ثم توجهت همة دولتنا العلية الى توسيع موارد الدخل من وجه الحق والقانون والمساواة بين الساكنين في ممالكها ، المنتفعين بخيرات ارضها ، فوضعت قانون التمتعات المعروفة (بالباتنتا) فدافعتها الدول في اقراره حينا من الزمن ، ثم علا الحق وغلب العدل ، فقبل ذلك القانون ، وسيؤخذ من الاجانب الرسم المقرر فيه ولا يكون فيما نظن اقل من ٨٠٠ الف ليرة الى مليون ليرة في العام .

وليس هذا الذي ذكرناه غير جزء مما وفقت له الدولة العلية من الاصلاح واسباب النجاح في هذا العام . وما كان توفيقها ، اتفاقا ولكنها ادركته بهمة سلطانية تقرب البعيد وعزيمة حميدية تلين الحديد ، فهو من آثار المآثر المشهورة

ونتائج المساعي المشكورة التي لم يزل سيدنا ومولانا الاعظم يبذلها في سبيـــل اعزاز دولته واسعاد أمته ، مجتهدا غير مبال بالمشقة ، مجدا غير مكترث بطول الشقة . اجمعت على ذلك ألسنة الخلق وهي اقلام الحق .

حول الانتخابات النيابية والبلدية

مجلس النواب (١)

لما تجرد الحكيم من جلباب الحيوانية ، وترفع الى المرتبة الكمالية ، نظر الى عالم الحس نظرة متبرىء من النسبة الى شيء منه ، فرأى ان الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والنفع والضرّ صفات نسبية لا تقصد بها الاشياء بذاتها ، بل بنسبة بعضها الى بعض . فلا يكون الخير خيرا الا بالنسبة الى من توجه اليه ، ولا الشر شرا الا بالنظر الى من وقع عليه . ومثلهما سائر الصفات التعريفية ، بل ربما كان الشيء نافعا لزيد ضارا لعمرو ، فهو عند الاول خير وعند الثاني شر .

بذا قضت الايام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد (٢)

الا ما عمّت به المنفعة او شملت المضرة ، وذلك لا يكون الا طبيعيا لقصد متعلق بسلسلة المقاصد اللانهائية المنوطة أطرافها بالحكمة المحتجبة عن الافهام وبناء على ذلك نقول :

ان احسن التدابير وأكمل القوانين وأنفع النظامات ما كان ملائما لاحوال

---

١ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٢٦ ، تاريخ ٢٦ كانون الاول سنة ١٨٧٨ .

٢ ـ البيت للمتنبي : ديوان المتنبي ، دار احياء التراث ص ٩٢ .

البلاد التي وضع فيها ، ملاحما لآثار عاداتها وتقاليدها . وبعبارة ثانية ما كان بينه وبين حالها العمومية نسبة يكون بالنظـــر اليها خيرا نافعــا . ولمــا كانت العادات والاخلاق والتقاليد متباينة في أقسام الارض ، لزم من ذلك ان تكون القوانين التي هي بمنزلة أزمّة الهيئة الاجتماعية مختلفة على حسب اختــــلاف مواضعها . فنتج عن ذلك وجود المشارب المتنوعة والمذاهب المتلونة ، المعبر عنها الان بالجمهورية (الاصولية والمعتدلة) والملكيــة (الدستوريـــــة والاستبدادية) ، والانطلاق المسمى تارة بالاجتماعية ومرة بالاشتراكية ، الى غير ذلك مما أوجبه الاعتدال في الامور او الافراط في الاقدام او التفريط فيه . ولكل من هــــذه المذاهب مقام لا تثمر الا في ارضه ، ولا تحيا الا تحت سمائه . فمن حاول وضع الجمهورية الاصولية في ارض الصين ، كان كمن رام ارجاع الملكية الاستبداديــة الى فرنسا وانكلترة .

الا ان الاجتماع الانساني هو بمنزلة جسم حيوي ، يحصل فيه السكون ، ولا تبطل حركة النمو ما دام حيا . فما كان يصلح له في حال لا يصلح بعــــد انتقاله منها ، فمثله كمثل الانسان ينتقل من صورة الى صورة ، ومن قماط الى قماط ، متحولا من كمية الى كمية ، ومن كيفية الى كيفية ، فيغذى وهو طفل بما لا يكفيه اذا يفع ، وهو يافع بما لا يرضيه اذا شاخ . وبناء عليه فان أحكم الحكام وأرشد ذوي الرئاسة من تبع بأعماله حركة قومه ، فجعــــــل القوانين مناسبة لهم في كل حال . ومن انعم النظر في حركة الاجتماعات الانسانية يجد ان الشارعين والوازعين جميعا قد وضعوا من القوانين ما كان ملائما لاحــــوال عصورهم . فلما تبدلت تلك الاشكال ، وتحولت تلك الاحوال ، رأى النبهاء من تابعيهم ان لا بد من تغيير تلك القوانين بحيث تكون ملاحمة لما صارت اليه الامة ، فصرفوا الى ذلك عنهم ، وأبدلوا صور القضايا وأشكالها ، وجلوها مموهــــــة بالتأويل ، فحصل ما نراه من واجب التساهل فــي اكثر الشرائع ومعظـــــم القوانين . ولا غرو في ذلك فانها بمثابة الدواء المعد لادواء الاجماع ، وليس كل دواء بصالح لكل داء ، بل ربما كان العلاج الواحد نافعا للداء في اوله ضارا في آخــره .

فاذا تقرر ذلك علمنا ان تبدل الاحوال يقضي على صاحب النظام بتغيــــيره حينا بعد حين ، فلا فضل له في ذلك ان اجراه مختارا . وان لم يجره فانــــــه يكره عليه عاجلا او آجلا ، لانه من الوهم بل من الجهل المخجل ان يقال في عصر الاجتماعيين والديمقراطيين ، ان نسبة الامة الى الحكومة نسبة الارجل الـــى الرأس ، والروح في حال كونها علة القوام وروح النظام الاجتماعي المماثلة فـــي عالم الاجتماع للعقل الكلي في عالم الوجود . ولا ينكر انه لا بد للحكومة من رئيس يكون واسطة عقدها ومركز دائرتها ، وان الامة مندوبة لاجراء ما يطلب ، الا انه قد فرض عليه ان لا يكلفها بما لا فائدة فيه، بل حكم عليه ان كان ذا رشاد ان لا يشتهي ذلك لانه يستحيل بحكم قانون العقل وقوع امر من غير علة كما يستحيل بحكم الطبيعة حدوث الشيء اتفاقا .

ولما كان الانفراد في الرأي موجبا للزيغ في اكثر الاحوال ، والعجز عن النهوض بكثير من الامور ، اتخذ المرأس في الهيئة الاجتماعية أعوانا ومشيرين يخلصون له النصح ويقيمون أود آرائه ، غير قاصد بذلك الا تمكين السطوة وتعظيم امر الاستبداد . فلما انتبهت بعض الامم من رقدتها ، وعلمت ان علة الارتباط في الاجتماع انما هي تبادل الحقوق والواجبات بين الرئيس والمرؤوس، رسمت لمن ولته الرئاسة ان يجعل في مجلسه من تختارهم للنيابة عنها ، فكانت الحكومة الشورورية . وانشئت مجالس الوكلاء او النواب والمبعوثين المعروفة الان عند الاوروبويين باسم بارلمنتو .

والذي يلوح لنا ان اسم الوكلاء ، او النواب غير مصادف محله ، فان ما يكلفون به منوط بالارادة العمومية ، والارادة لا تقبل الوكالة ، فهي هي او هي غيرها وليس بين الطرفين وسط . فهم والحالة هذه رسل الامة ، فأحسن ما يطلق عليهم من الاسماء ما دعتهم به الدولة العثمانية اي جماعة المبعوثين .

وقد علم ان وكالة هؤلاء الرسل عن الامة حديثة عهد لم تكن قبل انتقال حكومة الانكليز من الاستبداد الى الشورى ، ولم تعرف في جمهوريات اليونان والرومان بل كان منتخبو الامة فيها بمنزلة المأمورين يراقبون اعمال الحكومة ليبسطوها في المحافل العمومية ، ملتمسين بذلك راي قومهم في ما ينبغي لهم اجراؤه . علما بأن الوكالة عنهم في الامور القضائية لا تصح لصدور قضاياها عن مطلق الارادة العمومية ، وانما تصح النيابة عنهم في القوة الاجرائية ، لتعلقها بانفاذ ما وضعوا من القوانين .

اما الان فان افراط الامم في الحرية قد افضى بها الى الاستنابة عنها ، وهي من انواع الرق ، فتلاقى بذلك الطرفان ، وصارت محافل الشورى والندوات مجالس نواب يتصرفون في أمور الامة نقضا وابراما ، فيضعون مع وكلاء الدولة ما شاؤا من القوانين ، ويعدلون منها ما يريدون ، بل ربما قضوا على موكليهم بحرب تنحي على أموالهم بالنهاب وأرواحهم بالذهاب ، او انقادوا لاصحاب القوة الاجرائية ودانوا لهم مستعبدين الامة معهم كما جرى في خلال المسألة الشرقية في كثير من الممالك الشورورية على ان مجالسهم على علاتها كثيرة الفوائد ، جميلة المقاصد . ولشد ما نزعت النفوس شوقا الى أمثالها في البلاد الشرقية التي لم تشرق شمس الحرية في سمائها منذ ابدع برهما إله الهنود ادما وحيوا واسكنهما جزيرة سرنديب ، اذ حرّم عليهما الخروج منها فتقيدا اثر الانطلاق في ساحة الوجود ، على رغم القائل الجاهل ان تلك الشمس كانت مشرقة في سمائنا ، ثم اغربت عنها حينا من الدهر ، فان مجلس المبعوثين العثمانيين كان اول المجالس النيابية في الارض الشرقية ، وضع نظامه صاحب القانون الاساسي ، فأفرط في مراعاة احوال الدولة حتى جعله معدوما بصورة موجود ، فلم يثبت الا كما ثبتت الريشة في مهب الريح .

اما المجلس المصري فانه لم يكن مستحقا للاسم الذي اطلق عليه ، وما كان الا كالآلة «يحركها» صاحبها كيف شاء بل كان خطباؤه كالفونوغراف ينطقون بما يملى

عليهم ، وما يستظهرون وفيهم من يكلف النطق بألفاظ يمجها ذوقه ، مشتملة على معاني ينكرها طبعه ، ولا يستطيع المخالفة . ومن وقف على قانونه ومجمل اعماله وأقواله يعلم انه كان اسما لغير مسمى ، فلا بدع ان يصح ما انبأنا به مراسلونا في المحروسة من عزم الجناب الخديوي على اصلاح شأنه ، وان ينفخ فيه من روح الحرية ما يوليه الحياة، فان ذاك قد صار ضربا من الوجوب بعد ما حصل من الانقلاب في ادارة حكومته وبعد تقرر مسئولية الوزراء .

فان وقع ذلك فعلا ، ورخص لرسل الرأي العمومي، اي الجرائد ، ان يحضر وكلاؤها في ذلك المجلس ، كان لنا ان نبشر القطر المصري بعصر جديد يمحو به مجده الطارف آثار ذله التليد .

ولكن دون ذلك مصاعب جمة أخصها اثنتان ، وهما رهبة النواب وخلل الانتخاب . فأما الاول فمنه ما اذا مالأ النائب النظار على امر لا يراه ملائما لمصلحة قومه رهبة منهم او رغبة فيهم . وما اذا اذعن للامر من دون تثبت وروِيَّة فان ذلك يجعل المجلس طباق ما مثلت به احدى الجرائد الهزلية بعض المجالس النيابية ، حيث رسمت اعضاءه جميعا ، وصورت الرئيس خاطبا فيهم قائلا من ينحاز منكم لليسار ومن يؤثر اليمين فقالوا وما القصد من ذلك ؟ قال ان اهل اليسار هم المخالفون لرأي الحكومة ومشربها ، فقالوا نعوذ برب الناس من شر هذا الوسواس ، انَّا عبدان الامير ، لا نعصي له امرا ، ولا نخالف رأيا . فقال اجلسوا كيف شئتم . فما هي الا صورة نجلو بها أمرنا المشوه بظاهر مموّه . ولا عجب ان نرى ما يماثل هذه الحال في مجلسنا لما نعلم من رسوخ الرهبة في قلوبنا ، فان وجد في نوابنا من لا يداخل الخوف نفوسهم الابية فهم القليل فيهم وللغالبية حجة غالبة . فلزم من ذلك ان تكون العامة مطلقة الحرية في الانتخاب، تختار من مواطنيها أيهم اعظم على المهمات اقداما وهي ثانية الصعوبتين المنوه بهما ، وذلك لما نعهد بعامتنا من تقيد أفكارها بالرهبة وتعودها الانقياد لمن تتوهم فيه الوجاهة او النباهة . وحسبنا ان القرية بمنزلة الآلة بيد الشيخ ، وشيوخ القرى كالآلة بيد العمدة ، وعمد النواحي مستعبَدون للمأمورين ، وهؤلاء أتباع المديرين . وهي سلسلة استبداد لم يتخللها منذ وجدت شيء من الحرية . ولا ينقض في ساعة ما أبرم في أعوام وأعصار . فما الظن بمن يحاول نقضه وابرامه على صورة جديدة في أقل من الساعة ، ثم لا يدخل الى ذلك من ابوابه ولا يعتصم بأسبابه ، فان جرى الانتخاب على الصورة التي تقتضيها احوال العامة كان المجلس مماثلا للرسم المنوه به آنفا ، او كان موافقا للقول المضحك الوارد في احدى جرائدنا المعتبرة . وهو ان انقسام النواب ألى اهل يمين وأهل يسار انما هو اصطلاح ظاهري يقصد به اظهار الحقيقة بالمناقضات . ومفهوم ذلك ان انحياز النائب الى اليسار لا يكون عن مخالفة رأيه لرأي أصحاب القوة الاجرائية ، ولكنه يوهم ذلك قصد اظهار الحقيقة ، وهي نزعة جديدة لم تخطر على قلب احد من ساسة الاوروبويين ، ولو عثروا عليها لاستنسخوها وحفظوها في خزائنهم اثرا هيروغرافيا جديدا ، وذلك لان انقسام الاعضاء في مجالس نوابهم ناشيء عن

اختلاف مبادئهم . فهو في الظاهر ، كما هو في الباطن وواقع الامر ، الا ترى ان منهم من يؤيد الجمهورية ، ومنهم من يطعن فيها على رؤوس الاشهاد ، ويدعو الى الملكية . ومنهم من ينكر الامرين ، ويحلف الناس للامبراطورية او للاجتماعية او لغيرهما من المشارب ، وان اهل اليسار يستمرون على مخالفة الحكومة ما دابت مخالفة لمشربهم . فاذا انتقلت اليهم مالأوها بما يصل اليه الامكان ، ودونك من ذلك مثلا ، وهو ان اهل اليسار في المجلس الفرنسوي يوالون الان حكومتهم الجمهورية . وان اهل اليمين يخالفونها ، ويسعون في نقضها فما أجدر من لا يعلم بالصمت .

على اننا لا نقنط من الرحمة ولا نيأس من الاصلاح . بل حسبنا ان نرى طلائع صبحه ،وان يمنح للفلاح والماهن حرية الانتخاب ، فيعلم ان له في ذلك حقا ، ان سلبه اليوم يسترده في غده . فان الحرية كالنور للعقل ترشده الى المسالك في ظلمات المشاكل الاجتماعية . ولا ريب ان اهل فرنسا وسويسرا وانكلترة وغيرها من الممالك الشوروية لم يبلغوا ما هم عليه من الحرية وحصول الحقوق دفعة ، بل لا يزال منهم من ينقاد للرئيس والوجيه ، جريا على حكم العادة السابقة ، فما الظن بمن لم تدخل الحرية ارضهم منذ انبتت انسانا ؟ لاجرم انهم لا يدركونها الا بعد العناء والجهد . وانهم حقيقون بأن تأخذ حكومتهم بيدهم ، فترشدهم الى ما يوجب لهم السعادة والراحة ، ولها القوة والثبات . وان يكون نوابهم كبعض من نعرف منهم لا يخافون في الحق احدا بل قد رسموا على صحائف قلوبهم : بئس الراي ان كان للرغبية عبدا ، وبئس القول ان كان للحقيقة ضدا .

***

قانون النواب (٣)

وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

نزلت بنا نازلة الوزارة المنحسمة فكانت لاعين الوطنيين رمدا ، ولانفسهم كمدا ، بل عدّوها بلية ونقمة تزيل عنهم حجاب النعمة ، وتجعلهم بيد الاجانب آلة يستعملونها في جلب منافعهم وتحصيل مطامعهم . فلما انقشع غيمها عن سماء الوطن علمنا ان مع العسر يسرا ، وان من الشر لخيرا . فان المصيبة ارتنا من حقوقنا ما كنا جاهلين، ومن واجباتنا ما كنا مهملين ، وهدت حكومتنا الى الصواب ، قالت ان لا قوة لها الا بالامة ، ولا ثبات الا بالشورى ، ولا سطوة

---

٣ ـ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٥٠ ، تاريخ ١٣ حزيران سنة ١٨٧٩ .

الا بالحرية ، ولا سلطة الا بالمساواة ، فبثت فينا من روح الغيرة ما اعاد الينا الحياة بعد وشك الوفاة . والحمد لله على السراء بعد الضراء ، واليقظة بعد الغفلة ، والهدي بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة .

ثم رات حكومتنا ان تجعل لحياتنا الجديدة نظاما نأمن به التفريط ونتقي الافراط ، علما بأن طرفي النقيضين متلاقيان ، وكراهة ان تكون الشورى بغير نظام مدرجة للفوضى وضياع الاحكام فسنت للنواب قانونا حسن الاحكام ووضعته في مجلسهم موضع البحث فاختاروا من انفسهم اجنة للنظر فيه وجعلوا رئاستها للوطني الهمام الابي المقدام السيد عبد السلام بك المويلحي (٤) ، فأجالت اللجنة فيه أنظارها ، فعدلته على الصورة المثبتة في هاته الصحيفة ، فجاء موافقا للاحوال محققا للآمال بالغا درجة الكمال (ان امكن الكمال في عمل الانسان) .

ولا شك ان الحكومة تثبت تعديل اللجنة ، لانها لم تضع لائحة القانون في المجلس موضع النظر ، الا لاعتقادها بأن ذلك من حقوقه . وبناء عليه فقد ثبت في الاذهان ان هذا القانون صار من الاحكام النافذة المرعية ، ولم يبقَ الا ان تصرف الهمة ، وتبذل العناية في تسليمه الى من يحسن انفاذه ، ويعلم مقداره ويفقه أحكامه ويرعاه حق الرعاية ويعنى به واجب العناية . وذلك موقوف على الانتخاب ، فان اطلقت فيه الحرية ، وقيدَت الشهوات والآراب الذاتية ، وقع على الذين تثق بهم الامة في المهمات وتعتمدهم في الملمات ، وهم الذين لا يمارون ولا يشارون ولا يشترون بحقوق الامة ثمنا قليلا وان حصلت فيه المداخلة وحدثت المخاتلة والمخابلة كان وقوعه على من تستميلهم الرهبة وتستعبدهم الرغبة فهم كالآلة (...) (٥) بها آلة اخرى يديرهما من شاء كما شاء .

فيا بني الوطن المصري ، لقد فتحت لكم ابواب النجاة وأعدت اسباب الحياة ، فلا تكونوا من المفرطين . ولسوف تندبون للانتخاب ، فلا تقيدوا خواطركم بسلاسل الاهواء ، ولا تميلوا مع جاذبة التعصب ، ولا تختاروا الا من تعلمون انه يحسب الدين والمشرب والجنسية الفاظا منحصرا معناها في الحق والامانة ، فانكم بين ان تكونوا اقوياء القلوب اذكياء النفوس تختارون من يذود عن حوضكم ، ويدرأ عنكم المضرة ، ويجلب لكم المسرة ، فتنالون منه خيرا كثيرا ، و(بين) ان يجذبكم الهوى ويقوى عليكم الخوف ويتولاكم الطمع فتستنيبوا من يقطع اسباب ثروتكم بسيف قوتكم ، فتصيروا الى هاوية الذل والفاقة وساءت مصيرا .

ثم اعلموا ان الاجانب لكم بالمرصاد لا يحسبونكم أهلا للحرية ، ولا يرون فيكم قابلية للحكومة الشوروية ، بل يعتقدون انكم من القصَّر ، فلا بد لكم من

---

٤ ـ المويلحي (باشا) ، عبد السلام : نائب في القاهرة كان من تلامذة الافغاني ... وعرف بحصافة رأيه ، وقوة منطقه . (المحرر)

٥ ـ كلمة ساقطة .

الاوصياء ، ومن العاجزين فلا غنى لكم عن الاولياء ، فابطلوا ايدكم الله زعمهم بالعزمة والهمة الصادقة ليروا انكم بلغتم في اشهر ما لم يبلغوا في أعوام ، ونلتم بالراحة والسلم ما لم ينالوا الا بعد تدمير البلاد واهراق دم العباد .

ولقد علمتم ، ولا نزيدكم علما ، ان حصول الشيء بمفتقر الى القوة الموجدة ، وان بقاءه محتاج الى القوة المبقية. وقد حصلت لكم الاولى ، فوجد قانونكم مبنيا على أحكام الحرية ، مماثلا لقوانين البلاد المتقدمة في المراتب المدنية ، صائنا لمصالحكم ، حافظا لحقوقكم ، معينا لواجباتكم ، فاحرصوا على الثانية واعلموا ان القوة المبقية لهذا القانون ، انما هي الهمة العالية والثبات الذي لا يتولاه الوهن والاقدام الذي لا يشوبه الخوف والعلم ، بأن الموت في حفظ الحقوق خلود ، والفناء في قضاء الواجبات وجود ، والنعيم مع الذل شقاء والهناء مع الخسف عناء وان :

كأس الحياة بذلة كجهنم   وجهنم بالعز أفخر منزل (٦)

ولا تكونوا مصدقين للقائلين لا يحرص على النعمة الا من لقي في طلبها عناء وبيلا .

ومن اخذ البلاد بغير حرب   يهون عليه تسليم البلاد

***

الشورى ومجلس النواب (٧)

لقد علمت الامم التي بلغت من الحرية ما لا نطمع فيه لحفدتنا ، وأصابت من الاستقلال الذاتي ما لم تره بلادنا منذ نبت على سطحها الانسان ، ان مجلس الشيوخ المسمى بلسانهم (سناتو) من لوازم كمال الشورى لسببين : احدهما ان الاختبار الذي هو منشأ العلم والمعرفة يكون على الغالب في نبهاء الشيوخ اوفر منه في نبهاء الفتيان ، والآخر ان الشيخوخة تضعف الحدة وتذهب بالطيش وتدعو الى التأني والتبصر والنظر في العواقب .

ولا نريد بهذا القول ان الشيوخ مطلقا اوسع علما وأصح رأيا واحسن نظرا من الفتيان . فان ذلك لا يدّعى لهم في البلاد التي تكاملت بها وسائل العلم ، وتوفرت اسباب تحصيله من قبل ان أميط عنهم حجاب الكمون ، فكيف يصح اثباته لهم

---

٦ ــ البيت لعنترة بن شداد العبسي .

٧ ــ نشرت في جريدة مصر ، العدد ٧ ، تاريخ ١٤ آب ١٨٧٩ .

في بلادنا مع قرب العهد برجوع العلوم وعودة المعارف وبعثة الرغبة في تحصيلها، وكون صون السر الجديد لم ينشهر في بلادنا الا بعد ان تأصلت في شيوخنا الآراء القديمة ورسخت في أذهانهم التقاليد الازلية .. لا جرم اننّا لا نثبت لهم هذه المزية . وانما نريد بما قدمنا ان تقلبهم في الاعمال الادارية ، يريهم من دقائقها ، ويبين لهم من حقائقها الخصوصية ، ما لم يظهره للفتيان علمهم الشامل للامور العمومية . فوجود مجلس لهم تنبعث منه الآراء مبنية على الاختبار السابق ، يكون بمنزلة فن التاريخ للسياسة يرجع اليه في كثير من أحوالها ، ويزيل الكثير من اشكالها .

وان كان مجلس الشيوخ من لوازم انتظام الشورى في الممالك التي تبنت التقاليد ظهريا ، وعدّت الاعتصام بها شيئا فريا ، ووضعت من القوانين ما لا يطمع في نقضه الطامع ، وشرعت من النظام بما ينفذ حكمه الاول على الوازع او الشارع ، وجعلت للحقوق حدودا تأمن بها عواقب الطيش والحدة ، ورتبت للامور مراتب جديدة تغنيها عن مراجعة القديم ، ، فما الظن به في بلاد لا تزال مقيدة بسلاسل التقليد مولعة بالقديم ، مستخفة بالجديد ، لم يتقرر بها من القوانين الجديدة ما يصح الاستغناء به عن قديم القوانين ، ولم يحصل لفتيانها من الاختبار الاداري والسياسي ما يجتزأ به عن مراجعة الشيوخ ، ولم يزل عن خواطر عامتها مثلهم الدائر على الالسنة : اكبر منك بيوم أعرف منك بسنة : لا مراء ان وجود مجلس شيوخ في تلك البلاد يكون أحوط للمصلحة ، واحوى للمنفعة ، واوفى للاحكام ، وابقى للنظام .

ولذلك فلا عجب ان سرّنا ما علمناه من صدور الامر الخديوي الكريم بعقد مجلس للشيوخ ، يجتمع فيه نبهاؤهم ووجهاؤهم للمشاورة والائتمار ، فيكون بمنزلة الصلة بين القوة الاجرائية ، اي الحكومة والقوة النظامية ، اي مجلس النواب ، ولاسيما ان ذلك قد جاء محققا لاول اماني فتانا الوطني المثبتة في اعداد التجارة السالفة حيث قال : لو تشرفت مشورتي بالقبول ، لرفعت صوتي الضعيف الى المسامع الخديوية المنيفة وقلت : مولاي ، لقد وضع للبلاد مجلس نواب ، فأضف اليه مجلس شيوخ ، تجمع فيه الذوات المتقدمون في السن انتفاعا ، بما لهم من المعرفة بأحوالها ، والتقلب في امورها ، فانه لا بد من مراجعة الماضي قبل الدخول في المستقبل .

وكان في عزم الحكومة على عهد الجناب الخديوي السابق ان تشكل مجلس شيوخ يكون من مجلس النواب بمنزلة مجلس الاعيان من مجلس المبعوثان في الاستانة ثم صدر الامر العالي : ان يكون ذلك المجلس مؤلفا من رئيس وطني ونائبي رئيس اجنبيين وثمانية مستشارين : اربعة من الوطنيين واربعة من الاجانب ، وأن يستشار عن كل لائحة قانون ، يروم الوزراء عرضها على مجلس النواب ، وأن ينظم من اللوائح ما تطلب الحكومة منه ويبدي رايه في ما يعرض عليه مجلس النظار مما يتعلق بالقوانين والمصالح العمومية ، ويتوسط لحل ما يختلف فيه

الوزراء مما يختص بحقوقهم ، وما يتعلق باجراء احكام القوانين ، ويقرر برنامج الادارة تقريرا نهائيا . الا ان هذا الامر لم يخرج من عالم القوة لعدم تكامل المعدات ولتوالي الموانع والعقبات .

اما المجلس الذي يروم اميرنا الجديد انشاءه، فلم نقف بعد على قانونه ، ولكن يقال انه سيكون مماثلا للمجلس الاول . و(....) لا يكون كذلك فان المجلس السابق لا يفي بالحاجة بل ليس فيه من السناتو غير اسمه ، كما يتبين ذلك لمن وقف على قوانين مجالس الشيوخ في الدول القديمة والجديدة .

فأما الدول القديمة فلم تخل البتة من هذه المجالس على اختلاف الهيئات والكيفيات ، بل لم تخل منها اي الاجتماعات البشرية ، كما هو ظاهر في اهل البادية ، وغيرهم من الذين لم تخرجهم الحالة المدنية عن خطة السذاجة الطبيعية ، اذ يجتمع شيوخ قبائلهم في المنتديات للائتمار في الامور العمومية والمفاوضة في المصالح الجمهورية ، فيصدر الامير عن رأيهم وتأخذ القبيلة بحكمهم . الا ان احوال تلك المجالس قد اختلفت نظاما واحكاما ، على حسب اختلاف الامم والدول فكانت درجات بعضها فوق بعض . وكان اعظمها شهرة وأحسنها نظاما مجلس الاسرائيليين والاسبرطيين والاثينيين والرومانيين . فأما الاول فكان مؤلفا من سبعين شيخا لهم ثلاثة رؤساء وهم الامير ونائب الامير والحاكم الشرعي يجتمعون كافة في الهيكل ، فترفع اليهم مهمات الامور الادارية والقضايا المذهبية والمشاكل السياسية . وقد زعم بعضهم ان هذا المجلس كان على عهد موسى عليه السلام . وقال غيرهم انه لم يكن (......) . وأما مجلس اسبرطة فقد كان مؤلفا من ثمانية وعشرين شيخا ، ممن بلغوا الستين او نحوها من السنين ، تنتخبهم الامة لمراقبة الملوك في أعمالهم . وأما المجلس الاثيني فكان عدد اعضائه اولا اربعمائة ، ولذلك سمي بمجلس الاربعمائة ، ثم جعلهم كلمثينوس خمسمائة عام ٥١٠ قبل الميلاد . وكانوا يعينون بالاقتراع ، وأما مجلس رومية ، فهو اهم تلك المجالس شأنا ، وضعه رومولوس ، وكان يقاسم الملوك سطوتهم ، ويقرر أمور السلم والحرب ، ويضع القوانين ، ويعين الضرائب، ويولي الولاة ، وينظر في الاحكام القضائية . ثم ضعفت قوته بعد تنظيم المحاكم وانطلاق الهلبيين من مجالس العبودية ، ونزع منه حق النظر في أحكام القضاء . ولما عادت الدولة القيصرية زاد انحطاطا وضعفا ، بل صار كآلة بيد الامبراطوريين ، يستعملونها فيما يرومون لما يرومون . وكان السناتو الروماني اولا مؤلفا من مائة شيخ ينعتون بالآباء ، ثم جعلهم تولوس استيلوس مائتين ، وصاروا على عهد الجمهورية ستمائة . ولما مات قيصر كان عدد الشيوخ الرومانيين الفا ثم اعاده اوغسطوس الى ستمائة .

وأما الدول فتعتبر مجلس الشيوخ بمثابة واسطة الصلة بين النواب والحكومة او بمنزلة المراقب عليهما جميعا ، يرفع اليه مجلس النواب ما يقرر من القوانين والاحكام ، فيثبت منها ما شاء ، وينبذ ما شاء ، فان وقع بينهما الخلاف اجتمعا في ندوة واحدة ، وكان الحكم لمن تجتمع له اكثرية الآراء .

وقد كان السناتو الفرنسوي على عهد الامبراطورية مؤلفا من الكرادلة ومشيري العساكر وأمراء البحر والامراء النبلاء من كل بالغ من العمر ثماني عشرة سنة ، ومن الشيوخ الذين يختارهم الامبراطور ، ولا يكون عددهم جميعا اكثر من مائة وخمسين ، ولهم رواتب سنوية معينة للعضو ٣٠ الف فرنك ، وللرئيس مائة وعشرون الفا . وكان من حقوقهم ان يحفظوا القوانين ، ويتلقوا الشكايات ، ويشرحوا احكام الدستور . فلما انثل عرش الامبراطورية ، وتأيد امر الجمهورية ، تغير نظام هذا المجلس ، وصار للنواب في انتخاب اعضائه يد طائلة، وحق غالب . وأما مجلس الشيوخ الانكليزي ، فلا يزال مؤلفا من رؤساء الدين، وهم الاساقفة والمطارنة ، ومن النبلاء وهم الامراء او صنائع الملك ، ولا يدخله من لم يكن من هاتين الفئتين. وأما في سائر الدول فيختلف نظام مجلس الشيوخ على حسب بعد الحكومة وقربها من الجمهورية والآراء الحرة الجديدة .

وأما مجلس الاعيان العثماني فان عدد اعضائه لا يتجاوز ثلث عدد النواب ، ولا ينتخب له الا من بلغ من الاربعين ، وما فوقها . وكان من الوجهاء الذين عظمت آثارهم ، وحسنت سيرتهم ، وخدموا الدولة خدمة صادقة . وأكثر ما يكون هؤلاء من معزولي الوكلاء والولاة ومشيري المعسكرات وقضاة العسكر والسفراء ورؤساء الملل وفرقاء البر والبحر . ومن وظائف هذا المجلس ان ينظر في ما يرفع اليه مجلس النواب من لوائح القوانين والموازنة . فاذا راى فيه ما يمس القوانين الاساسية او الحرية الذاتية ، فله ان يرفضه او يعيده الى مجلس النواب ، مشفوعا بالملاحظة ، ليصلح او يعدّل . واذا لم يكن في شيء من ذلك اقره وأرسله مثبتا الى الباب العالي . ولا يعقد مجلس الاعيان او الشيوخ العثماني الا عند انعقاد مجلس النواب ، ولا يصح ان يكون الرجل الواحد عضوا في المجلسين .

هذه خلاصة من قوانين مجالس الشيوخ ، عند المتقدمين والمتأخرين، نضيفها الى محصل القانون الذي صدر به الامر الكريم على عهد الخديوية السالفة ، مع العلم بأن الحكومة السنية ستؤلف من هذه القوانين المختلفة نظاما يلائم حالة هذه البلاد ، اذ ليس كل قانون بصالح لكل امة ، وانما اختلفت القوانين والاحكام لاختلاف الاخلاق والمشارب والعادات، سنة الدهر في الناس من قبلنا ومن بعدنا.

وفق الله حكومتنا السنية الى ما تصلح به الحال ويحسن المآل .

* * *

مجلس النواب (٨)

هذه عروسنا في الحي تنجلي بحبر الحرية لا بديباج خويّ خطبناها من

---

٨ ــ نشرت في الدرر ص ٤٧٤ .

الدهر ، فأغلى لها المهر ، ومانع ما استطاع ، ودافع ما امكن الدفاع ، فبذلنا في سبيلها الهمة ، وجعلنا صداقها ارادة الامير والامة ، حتى زفت الينا فما نسيم الصبا في الصباح ، ولا لقاء الوجوه الصباح ، ولا الراحة بعد العناء، ولا الورود بعد شدة الظمأء ، بأرق منها على الروح ، وأبهج منها في العين ، وأوقع منها في النفس واعذب منها على القلب .

وقد مرت بنا ساعات الفرح بانجلائها ، واويقات السرور بظهور بهائها ، وقرأنا التهاني بها مرارا ، وتلقينا التبريك تكرارا ، وانشرحت صدورنا بابتسامات المحبين ، واشتفت انفسنا بتلهفات الاعداء ، وحمدنا الله حمد المعترف بالنعماء، الشاعر بالسراء .

فهي الان في الحمى يا حماة الله فتحت لها الصدور بدل الخدور ، وأسكنت العيون تحت حجاب الجفون ، ولا غرو ان ضربنا عليها الستور ، فهي فتانة والمحب غيور .

وما حسنها حسن الدمى والتماثيل لنرضى لها بالظهور شأنا ، وبالصورة جمالا ، وبالنظر امتاعا .

فالحسن في الوجه قريب الزوال ... فلتعلم الحسناء ذات الدلال

ولكنها ربة البيت الذي وفدت عليه ، وشريكة البعيد الذي زفت اليه ، ولسوف تتولى تدبيره ، وتقيم اموره ، وتصلح اختلاله ، وتداوي اعتلاله ، وتحفظ ماءه ، وتعيد بهاءه ، وتزيد ان شاء الله نماءه بولد من المنافع بررة صالحين ، اخيار مصلحين ، يكونون لهذا الوطن الذي سميناه سعيدا أعوانا على الزمان ، ونصراء على الحدثان .

ولكن كما ان البيت لا يصلح ، والاسرة لا تفلح ، الا اذا توثق الحب ، واستحكم الود وصفت النيات ، وخلصت المقاصد ، وحسنت المساعي بين الزوجين لتصح تربية الولد ، ويسلموا من آثار الحقد واللدد — كذلك لا بد في صلاحنا ونجاحنا ، واستقامة أمورنا ، وانتظام احوالنا ، وزوال مشاكلنا ، واندفاع نوازلنا ، من التلاؤم والتوافق على المنافع الحقة الوطنية ، ومساعي الهيئة النيابية .

وهذا التوافق وان ظهر باديء بدء عيانا بديهيا لا حاجة فيه للبحث ، ولا مكان به للاختلاف ، الا انه اخفى مكانا ، وادق رسما ، واصعب تحقيقا ، مما يتوهم الناظر المسرع فرب امر ظاهر النفع ، بادي اللزوم ، واضح الوجوب ، تتبينه قريب المنال ، سهل النوال ، فاذا دانيته رأيت غير ما ارتأيت ، وعاينت غير ما ظننت ، ورب بعيد يقربه الامل ، ورب قريب يبعده الريب ، فما يجلو الامور الا اختبارها ، وما تأتي الامور الا بأوقاتها .

وقد عرف سادتنا النواب هذه الحقيقة ، ولم تخف عنهم من تفصيلها دقيقة،

فهم الان ينظرون في الامور نظر الناقد البصير، العارف الخبير ، المتنبه للعواقب، المجانب للمصاعب ، الذي يخطو مع الدهر اذا ما خطا ، ولا يذهل عن تبطن بعض الصواب خطأ . يعلمون ان للوطن عليهم حقا واجب الاداء ، ولا يجهلون ان للاحوال أحكاما مرعية الاجراء ، ويميلون مع الغيرة الوطنية ، ولا يتغافلون عن الحكمة السياسية ، ففيهم شدة بغير عنف ، وثبات بغير عناد ، ولين بغير ضعف، وتساهل بغير ارتداد ، وهي الحكمة بما فيها من دقة وفطنة واصابة ، وهي السياسة بما فيها من دهاء وتدبير وخلابة .

***

مجلس المبعوثين (٩)

ولا اقول المبعوثان وان كرهت مستعربة الترك او مستتركة العرب . مجلس لم تنشئه ثورة الخواطر ، ولم تؤيده ارادة الامة ، ولم يؤلفه الرأي العام وانما كان منشأه القصد الذاتي ، وعماده الارادة المفردة ، ومصدره آراء الزعماء ، فما ظهر حتى اختفى ، وما بني حتى عفا .

تألف من قوم مختلفة أجناسهم ، متنوعة لغاتهم ، متباينة آراؤهم ، متغايرة اهواؤهم ، فمثل البرج القديم في بابل العثمانيين ، وتلا فيه هاتف وحي الاستبداد ، لا نطق الا باللسان المستعار الحروف الملفق الالفاظ ، فامتثلوا وقالوا لا قيد في البيان ، ولا حجر على الافكار ، فاستبشروا حتى اذا عدل نبهاؤهم عن طريق المداجاة ، ولم يسجدوا لصنم الخضوع ، اتاهم النذر بالعذاب انهم كانوا غير مخلصين ، ثم اهبطوا من العاصمة مبعدين . ولا يجحد ذكاء النبهاء من اهل تلك الندوة خصوصا ابناء اللغة العربية ، ولا تمحي من الاذهان مقالات المبعوثين من حلب وسوريا والحجاز ، وانما يلام اولئك الاذكياء على ان رضوا بالبعثة غير صادرة عن الرأي العام ، وغير مؤيدة بمن يغضب لردها على صورة تنفر منها النفوس . اذ لو كانت المبعوثية العثمانية صادرة عن آراء الامة ، لما نقضتها الدولة جزافا ، مخافة ان يغضب الناس لنوابهم ، فتقع الفتنة في البلاد، تزيد أحوالها فسادا ، واعمالها كسادا ، ولكنها صدرت عن رأي واحد ، او غير واحد من رجال الدولة . او كما يقول احدهم : عن محض القريحة السلطانية الجليلة : فكانت من قبيل الصدقة والاحسان وما على المحسن من سبيل . وما استرداد الهبة ، واستعادة الاحسان ، بأعجب من الحاح السائل المردود ، وابرام

---

٩ ـ نشرت في مصر القاهرة ـ العدد ٣ ، تاريخ ٣٠ـ١ـ١٨٨٠ ، واعيد نشرها في الدرر ص ١٤٩ .

الملتمس المطرود ، فقد رأينا في احدى الصحف مقالة ضافية الذيول يسأل صاحبها سؤال مقرر ماذا جرى على مجلس المبعوثان ثم يبسط تاريخه وما حصل له من الوقع والشأن عند الاجانب فضلا عن العثمانيين . ويعترف اعتقادا ، او استرضاء ، بأن الدولة تبرعت بانشاء ذلك المجلس رحمة ومنة واحسانا ، ثم يلتمس اعادته محتملا ذل الكدية في جنب المصلحة العامة ، مباريا في النشد والسؤال قراء سورة يوسف وان جل عن ذلك مقاما .

فما لاخواننا السوريين يرتضون السؤال مبرمين فيه والعهد بهم ان يأنفوا من الصدقة غير مسؤولة ، وما بالهم ـ انعم الله بالهم ـ يعالجون داء عقاما ، ويستمطرون سحابا جهاما ، ويعودون الى التجربة بعد سبق الاختبار ووفرة اسباب الاعتبار .

أيأملون النفع من مجلس تتصل اسباب حياته بارادة واحد من الناس متعرض كسائر ابناء النوع للصفو والكدر ، والرضا والغضب ، ام يرجون البقاء لهيئة لا تثبت الا بمقدار ما تنحصر اعمالها في دائرة الخداع ، وتدور اقوالها على محور المداجاة ، فان تجاوزت ذلك الحد ، وجب عليها الزجر والحد ، وكان الفض خاتمة اعمالها ، والنفي جزاء رجالها ، أفليس الاجدر بشأنهم ان يعدلوا عن ذلك السعي الى تقوية مجالسهم البلدية ، بتوفير الحقوق ، وتنظيم الانتخاب ، لتكون مفارس للنواب ، ثم يسعوا الى واليهم الصادق العزم بأن يجعل مجلس ولايتهم العالي مجلسا نيابيا ينتخب اعضاؤه بالراي العام للنظر في شؤون الولاية تدبيرا واصلاحا .

ولا خوف عليهم من الاخفاق في هذا السعي ، فقد اظهر مدحت باشا (١٠) من مقاصده الشوروية ما يوجب عليه قبول ذلك الطلب الحق ، وأبدى من الرغبة في الاصلاح ، ما يمنعه من رفض وسيلة النجاح ، ونال من اطلاق التصرف ما لا يجد من بعده مجالا للاعتذار .

ذلك راي وطني يضرب في الارض التماس الحرية ، يبديه لاخوانه ومواطنيه، فان صادف القبول فتلك رمية من غير رام ، والا فهي مظنة ذي غيرة فلا تثريب ولا ملام .

***

---

١٠ ـ مدحت باشا : (١٨٢٢ ـ ١٨٨٣) مصلح تركي اصبح الصدر الاعظم وكان يدعى ابو الدستور، نفي واغتيل .

القضاء والاجراء (١١)

ان انفصال القوة الحاكمة عن القوة الفاعلة ، واستقلال الذين يتولون الاحكام فيما يرون وما يحكمون ، وحصولهم في مأمن من كل ما يفعل في النفوس ترغيبا او ترهيبا ، كل ذلك ليس من مستحدثات الامور في البلاد الغربية ، ولكنه قد وجد من قبل في كل زمان اضاءه العدل ، وكل مكان اناره العلم والحرية ، فاستقامت به الامور ، وتأيد الحق ، وضعف الاستبداد ، وظهرت قيم النفوس ، وعلمت أقدار الافكار .

وقد كان اهل القضاء في بلادنا على خلاف ما تقدم بيانه من الاستقلال ، والانفراد ، وأسباب النزاهة ، يصدرون الاحكام كما يرسم ، لا كما يعلم وكما يجيء ، لا كما يجب . ويدورون على محور الرهبة والرغبة كما تدور الآلة الصماء ، غير مبالين بضياع الحقوق ، وفساد الامور ، وانعكاس الاحكام حتى ضعفت منهم النفوس ، وفسدت القلوب ، وساءت الاخلاق ، فصار الرياء من شروط وجودهم ، والدهان من لوازم بقائهم ، والنفاق من أسباب تقدمهم . فرامت الدولة العلية استنقاذنا من هذه المفسدة رحمة بنا وحنانا . فرسمت باستقلال المحاكم والمجالس ، على امل ان تعلو همم اعضائها بما يحصل لهم من حرية الراي ، فلا تأخذهم في الحق رهبة ، ولا تستميلهم عنه شهوة دنيئة ، فصارت محاكمنا على ما نرى من الاستقلال .

ولكن لا بد في اهل القضاء من ثلاثة امور متلازمة لا يغني بعضها عن بعض . علم يعصم عن الخطأ ، (ما امكنت العصمة لانسان) وادب يرد النفس عن الهوى، وكفاف يوجب النزاهة . فان حصلت في الحاكم هذه الخصال كان استقلاله قواما لكل ميل ، وقصدا لكل جور ، وصلاحا لكل فساد ، ونصفة لكل ظلم ، وقوة لكل ضعف ، وحدا لكل استبداد . والا فهو عين الفساد ، والجور ، والضعف ، والظلم ، والاستبداد ، والميل .

ففي اي الحالين يرى البصير اعضاء المحاكم والمجالس في هذه الديار ؟

انّا لا نلم بهم ، ولا نطعن فيهم ، ولا نبيط بأنفسهم سوءا . ففيهم لا شك اهل علم وفضل ، وارباب ادب ونزاهة يعتقدون بما يحكمون ، ويحكمون بما يعلمون ، ويعلمون الحق ولا يغالطون .

ولكنهم لا يعدمون من يكون على ضد هذه الاحوال ، ومن يحكم بما لا يعلم ، ومن يعلم بما لا يحكم . فهؤلاء وان اساءوا الى انفسهم بما وضعوا من أقدارها واخطأوا الى هيئة الاجتماع بما اضاعوا من حقوقها ، فلا نوجه الملام اليهم ، ولا نلقي التبعة عليهم ، وانما اللوم والتبعة على المنتخبين .

---

١١ ــ نشرت في التقدم ، العدد ١٨ ، بتاريخ العاشر من آذار ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في الدرر ، ص ٣٠٨ . وكان انتخاب مجالس بيروت قد حان .

. ان الدولة العلية قد ساوت بيننا وبين الامم المتمدنة ، فيما لهم من الحقوق، وما عليهم من الواجبات ، ولكنها لا تستطيع ان تعيدنا خلقا جديدا . ان الله هو المبدي وهو المعيد . فمن أساء التصرف في تلك الحقوق فعلى نفسه اساء ، ومن احسن فإليها .

وقد حان وقت الانتخاب لبعض مجالس هذه المدينة ، فان كان ثم موضع انتقاد ومحل اعتراض ، ومظنة فساد ، فليتنبه المنتخبون ، ولتنشىء الطوائف لجانا من ذوي النقد والنزاهة ، يبحثون عن تلك الخصال الكريمة ، ويعرضون من تجتمع فيه لارباب الانتخاب لا يراعون في ذلك غير المصلحة العمومية ، ولا يأخذهم فيه غير الحق .

ان انتخاب المعسر ليصيب الرزق مما يحكم بين الناس لهو الحيف والظلم واقعا على الوف من الخلق .

ان انتخاب الجاهل ليكون كالآلة الصماء لهو الوبال العظيم ، والبلاء العميم .

ان انتخاب الغني لمجرد كونه غنيا لهو المصاب الاليم نازلا بالاغنياء والفقراء .

فلا يذهلنّ المنتخبون عن كل ذلك فان ذهلوا فلا عتب على غيرهم ولا ملامة .

***

الانتخاب للمحاكم (١٢)

يقال دع الامور منقادة بأعنة العادات ، انك لن تغير سنة الزمان فينا حتى يشاء الله ، بل وجب القول على امثالي ما استطاعوا اليه سبيلا . وحاش لله ان اقصد احدا بالذات فيما اقول فلا ينظرنّ اليّ شزرا ، ولا يأخذني الناقد بما يصور له الوهم ، فما هي الا نصيحة الوطني تولته الغيره على شأن الاوطان ان يلم به العابثون ، فان رأى احد من نفسه ما ينصرف به كلامي الى غير هذه الوجهة العمومية ، فليصرفه حتى ينصرف معه . فقد حان ابان الانتخاب لمحكمة البداءة ببيروت ، ولا نجد من انفسنا اهتماما بهذا الشأن الخطير ، كأنما نحن لا نعلم ان ذلك هو المحور الذي تدور عليه أمور الجمهور . بل نعلم ذلك ولكنا مصابون بداء الإثرة على غير قياس . ولعلي لا ازيد احدا علما بهذا الداء ، ان اعراضه فيما ظهر لاطباء الانسانية قسوة في الجلد ، لا يشعر معها المريض بحرارة حتى تمسه النار ، وخمول في المعدة لا يحس معه بالجوع حتى يأكله الطوى ، وحبسة في اللسان لا ينطق معها حتى يعدم سبيل الكلام ، وضعف في المشاعر الخمسة لا

---

١٢ ــ نشرها في التقدم ، العدد ٤٣ بتاريخ ٦ حزيران ١٨٨١ ، واعيد نشرها في الــدرر ص ٣٥٥ .

يرى معه ولا يسمع ولا يشم ولا يذوق ولا يحس الا اذا مس المرئـــي عينه ، والمسموع أذنه ، والمشموم انفه ، وهلم جرا ، وآيته كلمة نضر الدين فيما كان من حول داره ....

فهذا الداء العياء ملمّ بكثير منا ، ولا نحاشي معظم الوجهاء والكبراء ، ان ناره لا تمس الجلد ، وريحه لا تبلغ الانف ، وصوتـــه لا يضرب الاذن مبادهة ، ولكنه متعلق في كل ذلك بالغد ، ومن ذا الذي يعنى بالغد قبل وصوله ويهتـــم بالامر قبل حصوله ..

وهذا شأن الانتخاب يعرض فيقول نفر منا لا نبالي به انّا عصبة قوية لا نخاف على حقوقنا الضياع ، ويقول جماعة غيرهم نحن اوساط من الناس لا نعبث بحق ولا نعرض للعبث حقا فليتولّ الامر من شاء ، فلا ناقة لنا فيه ولا جمل . ويقول سائرنا نحن للسابقين تبع كأطراف خرج لا تعدل ولا تميل ، فهذا الامر يعنينا ولا يعنينا ، فيكون كل احد متوكلا على الآخر ، ولا يكون احد قائما بما توكل فيه عليه ، كصحب قصدوا الصبوح متكلا بعضهم على بعض في الشراب والطعام ، فلما اتوا الروض لم يجدوا لديهم صبابة كأس ، ولا كسرة خبز ، فآبوا جياعـــا عطاشا مجهودين . ولو عوّل كل مصطبح منهم على نفسه لشربوا هنيئا ، وأكلوا مريئا ، وعادوا بالهناء والسرور .

أجل ان الانتخاب مخصوص بفئة معلومة منا ، ولكنه من حق كل احد ان يسأل عنه ويعنى به ، ويجتس اخباره ، ويعلم منه الوجهة والمصير . أوليس ان الجالس على منصة الحكم يقضي في أمور الضعيف كما يقضي في امور القوي ، ويحكم في دعوى الفقير ، كما يحكم في دعوى الغني ؟

ولقد رغبنا الى الطوائف ــ ويا حبذا لو امكن الجمع ولو تيسر منع هـــذا التفريق بحيث تكون رغبتنا الى ذوي الانتخاب جميعا على اختلاف العقائد ، ولكن الواقع لا يعارض ــ قلنا رغبنا الى الطوائف ان تشكل من نبهائها لجانا للنظر في امر الانتخاب ، وانتقاء من يصلح للحكم ، ونزيد هذا العرض ايضاحا ، وان عده بعض الناس رجاء من دونه السحاب ، وأملا كما لمع السراب ، فنقول ينبغـــي لهذه اللجان ان تنظر في امر المعدّ للانتخاب من كل وجه ، لتعلم ماضيه ودخيلة حاله ، وما لديه من علم ، وما فيه من حزم ، وما به من عادة وخلق ، ومـــا يملك من اسباب المعاش . وليس هذا الوجه الاخير بأقل من تلك شأنا ، فانه لا كفاء ولا سداد في ثلاثمائة وخمسين قرشا لمن لا يستطيع لبس العباءة فـــي منصة الحكم .. فان قيل لا يشترط في كل نبيه نزيه صالح للقضاء في المحاكم ان يكون من ذوي الثروة ، قلت : صدقتم ، بل لو وسد القول في ذلك اليّ لما رضيت بما تذكرون استدراكا . فما ضر لو بذلتم يا أولي الثروة ، ويا اهـــل المكانات ، ويا سائر الناس بضعة آلاف غرش في العام راتبا للعضو الذي تنتخبون ممن أسعده الادب ، ولم يسعده المال ، تقيه آفة الرشوة ، وتصونـــه عن ذل المداراة ، وتكون بيده سيف كفاف ينتصر به للحق ، ويضرب فـــي وجوه نصراء الباطل ، وتحفظ للمتكم ماءها ، ولمرؤسيكم حقوقهم ، وللوطن بجملته بهاءه ..

ولكني مسست بما اقول عضوا مؤوفا وكأني بروؤس تهتز ، من فوق حواجب تتقطب ، من فوق أعناق تتحول ، من فوق أيد تمد ، مفتوحة الاكف للرد ، من فوق أرجل تسعى الى المنزل يطرق بابه ، فيقول الخادم سيدي يقول لكم انه ليس هنا ....

***

الانتخاب للمحاكم ايضا (١٣)

لا يعدم المعيد في هذا الموضوع جديدا فهو مكان الحق ، ومقام الجزاء ، ومحل الروح ، ومرجع المآل ، ومحور الاماني والآمال ، فكيفما قلبته رايت شأنا خطيرا ، وايان وجهته رأيت امرا ذا بال ، فيه للناقد نظر ، وللناظر نقد ، وللرأي متسع ، وللمقال مجال .

فمهد الحق والمصلحة على الحاكم في أمور الناس ان يصدع بما يأمر العدل ، والعدل غاية لا يدركها الا من عرف الحقيقة ، وألف الفضيلة ، وانف الدنيئة ، فالشرط فيمن يتولاه علم يخرج به عن حد النقص ، وفضل يدخل به في جانب الكمال ، وعزة نفس تسلك به طريقة النزاهة ، الى حقيقة التجرد عن سفاسف الامور . فما يصلح له الإمّعة وان كان اوفر من (روشلد) (١٤) مالا ، ولا يجدر به دنيء النفس وان كان أفصح من (لاشو) مقالا .

ولنا فيه لنا نحن الذين قضى نكد الطالع باختلاف مشاربنا، وتباين مذاهبنا، شرط لا يلزمه في غيرنا من الاقوام ، الا وهو التجرد من خشونة التعصب في امر الدين ، بحيث لا يكون في مقام الحكم وكيل فئة ، ونائب عصبة ، وحامي نحلة يدرأ عن ذويها ما يكرهون ، ويجلب اليهم ما يرومون ، غير مبال بطريقة ذلك الدرء ، ووسيلة هذا الجلب ، كما نراه في كثير من أرباب الحكم ، والعيان يغني عن البرهان .

ثم اذا توفرت هذه الشروط فيه لم يسقط عنه واجب التيسير والتعجيل ، بما يمنع من التدقيق والتحقيق ، فمن اضاع الوقت فقد اضاع مالا ، وافسد حالا ، وشوه مآلا . ولا نختص بهذا القول هيئة الحكم في بيروت فهي من هذا القبيل على نحو ما يرام . وانما نشير به الى هيئة الاتهام في مركز الولاية ، ولا ننسى من مثله دائرة التمييز في الاستانة ، فقد ترسل اوراق الدعوى الى تلك

---

١٣ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٤٤ بتاريخ ٩ حزيران ١٨٨١ ، وأعيد نشرها في المصدر ص ٣٥٧ .

١٤ ـ روشيلد : بيت ثري فرنسي ، من ابرز العائلات اليهودية في اوروبة .

الهيئة فتطرح الشهر والشهرين ، وما فوق ذلك الى العام في زوايا الاهمال ، ويرفع الحكم الى هذه الدائرة ، فيلقي به العام والعامين ، واكثر من ذلك في بحار النسيان ، حتى انه ليحجر على المظنون به ولا ترد التهمة حتى ينقضي اجل الحد ، بل ربما قضي الايام الكثيرة في السجن ثم برّيء من التهمة راسا . وانه ليحكم على المجرم بالسجن ، وتنتهي مدة الحكم ، ولا يرد الاثبات او النفي او الابدال من دائرة التمييز .

هذه عريضتنا لمقام العدلية الجليلة ، وتلك تذكرتنا لاصحاب الانتخاب ، فليقصدوا فيما يرومون حراصا على مصلحة الكل مترفعين عن الآراب الذاتية ، ذاكرين تبعة الخلاف وان الراي العام لهم بالمرصاد .

***

انتخاب النواب في فرنسا (١٥)

حدس التقدم فيما تقدم ان سيكون الانتخاب الجديد لمجلس نواب الفرنسيس دليلا على قوة الجمهورية فيهم . وضعف ما دونها من الفرق ، يحصل به الغلب لاوليائها ، وتكون غالبيتهم فوق ما يأملون . وما كان التقدم في ذلك مكاشفا بالغيب ولا متكهنا . ولكنه اخذ بالدليل والقياس فيما شهد به الظاهر ، واشارت اليه الحال ، ودل عليه الماضي ، فصحت نتيجته ، وكفى بالزمان مخبرا بماضيه عن آتيه .

وليس يفيد في الافهام شيء اذا احتاج النهار الى دليل (١٦)

فقد أنبأنا التلغراف بحصول النصر المبين في هاته الحرب السياسية للجمهوريين المعتدلين ، الا في مدينة باريس حيث أعيد الانتخاب للغلاة ، واوشك خطيب الامة العظيم الا يصيب منه نصيبا في الحي الذي استنابه على عهد الامبراطورية ومن بعد الى هذه الايام ، في حي بلفيل .

أجل ان غامبتا وكفى بالتسمية وصفا وتعريفا لم ينتخب للنيابة عن ذلك الحي الا بزيادة ٤٩ رأيا في احد شطريه وزيادة لا تذكر في الشطر الآخر . بل اصابه قبل ذلك ما هو شر من هذا الخذلان ، اذ دعي لبيان ما فعل في الحقبة السالفة ، وما يروم فعله في الآتية ، لدى أرباب الانتخاب في ربع (شارون) ،

---

١٥ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٦٧ ، تاريخ ٢٩ آب ١٨٨١ .

١٦ ـ ابو الطيب المتنبي : الديوان ، شرح الواحدي ، طبعة برلين ١٨٦١ ، ص ٤٩٧ .

فبث اعداؤه في الحشد بضع مئين من أنصارهم ، مأمورين بسوء الاستماع ، وان يأخذوا عليه الكلام باللفط والضوضاء والصهصهة ، فلما طلع غامبتا عليهم تلقوه بالضجة والجلبة ، فلم تغن عنه تحية مريديه ، وان كانوا عددا كثيرا . ثم جمعت الآراء لاختيار رئيس ووكلاء وكتاب للحفلة فاجتمعت على غير من يروم اللاغطون فصاحوا نريد (ريتي) وهو فتى من خطباء اهل الغلو ، فأعرض الرئيس عنهم ، ودعا غامبتا الى المنبر فوقف فيه وقال : يا ابناء الوطن .. فلعلعت حينئذ رعود الاصوات باللفط والصهصهة (حكاية قولهم صه صه اي اصمت اصمت) نريد ريتي . ريتي . ريتي . فحاول الرئيس اسكان الهياج بالقول اللين ، ثم بالزجر ، فما ازداد اللاجبون الا صياحا، فليهبط الظالم فليهبط المستبد فاسترجع غامبتا وأعاد : يا ابناء الوطن لا يمكن .. فعلت من حوله اصوات المجلبين تكرارا فما اغنى عنه الصياح ولا القرع بالعصي على المنبر، ولا الوقف فأمسك حينا ثم اندفق بصوته الجهوري يقول :

اي ابناء وطني . أانتم شعب باريس . كيف هذا . وفي بلفيل في باريس تحتفل الديمقراطية الجمهورية وتكون على هذه الحال . ثم تدعون انكم اهل للحرية .. اني ادعوكم لاحترام ابناء الوطن . اني ادعوكم لاحترام انفسكم ..

فتلاقت حينئذ اصوات النصراء والاعداء : اولئك يقولون احسنت احسنت ، وهؤلاء يصيحون صه صه ، حتى أيقن الخطيب بامتناع الكلام عليه فغلبته حدة الاستنكار فقال :

كيف وانتم عشرة آلاف تعجزون عن اسكان قبضة من المسفسفين . أيمثل هذا تكون آداب الديمقراطية الحقة .

فصفر بالقرب منه احد الحضور ، فقال الصافر نذل مهان ، فصاحوا به تكلم تكلم . فقال : لا اريد الا الكلام ، لا اريد الا تقرير الحقيقة في الافهام .. ولكن عادت الضجة ، وزاد اللغط ، فصاح فيهم بصوته الرعد :

صمتا صمتا للمجلبين صمتا للنابحين الذين لا مروءة لهم ولا ذمة .. يا قوم كيف تعجزون عن حفظ حرية المنبر ..

ستقرأ باريس حكاية هذه الحال ، وتحكم فرنسا في هذا الامر، فهل ترومون ان يقال ان ليس فيكم ادب الحرية ، ولكن عادة الاستعباد بالقوة .. اسمعوا ما اقول ، وان فعلتم فأنتم تعلمون اني ممن يثبتون للمعارضة ..

فقال عدد منهم لا . لا تثبت . فأجاب :

ما اهون قول لا خصوصا لمن لا يعلم ماذا يقول لمن اكل الرشوة ليقول لا .. ولكن لا بد ان تعلموا ان قبضة من اللاغطين لا يقوون على اطفاء الحقيقة . وان المستشيطين الذين اغروهم بذلك لا يستطيعون اخفاء الحق والعدالة خصوصا هاهنا . في هذا الحي الذي ان استطعتم تكديره فلن يمكن لكم افساده وتحقيره.. اما انا فلا تجهلون اني قد عرفتكم قديما ، وهتكت عنكم السجوف ، وحكمت في امركم بما يجب ، فهذه الجلبة السخيفة منكم لا تقطع كلامي ولا تمنع مرامي..

وفي خلال هذا الكلام تعالى صوت الخطيب البليغ حتى وصل أطراف

الحشد . وكاد يخفت اصوات اعدائه فأمل المحبون منهم صمتا ، ولكنهم جددوا عزائمهم وانبعثوا بالصديد المتواتر ، فأيقن غامبتا ان لا سبيل الى الكلام فصاح قائـلا :

تريدون قطع كلامي . ولا ضير . فقد تكلمت فيما مضى من ايامي كفاء ، وفي الذي عرف من عواطفي وسياستي ما يغني عن البيان وهذا اجمال المقال . انتم ايها الذين تصيحون انتم ايها الذين تنبحون . لن تلابسوا عندي الشعب . لن تلابسوا الشعب الحقيقي . تتهمون الرجل الواقف بين أيديكم انه يروم ولاية فهل تعلمون ما شأنكم . انتم سكارى مستعبَدون فلا حرج عليكم .. وما ازيد غير كلمة : ان انتخاب الوطنيون ، الوطنيين حقا واعتدالا في الحادي والعشرين من الشهر سيدرك منكم ثأر هذ النقيصة .

قال هذا وانصرف غير مسلم ، فوقع الهدوء والسكينة بعد خروجه ، كأنما افرغ على الحشد ماء الجليد ، وكأنما ندم الكثير منهم على كونهم لم يسكتوا المجلبين بالقوة . ولكن انتخاب الوطنيين في الحادي والعشرين من هذا الشهر لم يدرك ثأر غامبتا الا قليلا . وسر هذا الامر ان خطيب فرنسا آخذ براي المعتدلين وان منتخبيه من اهل (بلفيل) قد عرفوه من قبل غاليا فأنكروه مذ راوه من اهل الفتور .

ولا شك ان اجهار اهل باريس بالميل الى الاصوليين وسائر الفرنسيس بالحرص على الجمهورية ، يوجب خروج النواب عن حد التردد فيما تروم الامة من الاصلاح الداخلي مبينا مبادىء الديمقراطية ، فيكون بذلك مغيرا للسياسة الداخلية من طريق الزيادة في تقرير المساواة وتأييد الحرية وقطع اسباب الامتياز والسلطة الشخصية . ولكن لن يغير في السياسة الخارجية شيئا بل يزيدنا يقينا في السلم من جهة دولة الفرنسيس ولنا على ذلك برهان لا يرد .

فالحرب لا تقع الا بارادة الامة او باغراء الدولة او باتفاقهما عليها . والامة لا تترك فلاحها زرعه ، وفاعلها صنعه ، وتاجرها ماله ، وملاكها ريعه ، ليلقوا بأنفسهم الى الوبال ، الا اذا ساءت الحال وعجف المال وضاعت الآمال . وأين ذلك من امة الفرنسيس ، وهي احسن الناس حالا ، واوفرهم مالا ، واقربهم آمالا ، شملتهم النعمة وعمهم الهناء ، واتسعت لهم الدنيا بما فيها من الراحة والسعادة ، فما تجد فيهم ذليلا حقيرا ، ولا تكاد ترى بينهم فقيرا .

والدولة لا تقبل على الحرب تهلك فيها مدخر المال ، وتبذل دم الرجال ، وتبيت على خطر الزوال ، الا اذا رات من الامة فسادا وتغيرا عليها ، كما كان يقع لملوك الرومان وكبار قادتهم وزعماء جمهورهم ، وكما فعل امبراطور فرنسا الاخير في هذا العهد ، فان اولئك الزعماء كانوا اذا احسوا من الشعب او الجند انحرافا عنهم ، او ملالا منهم ، لجأوا الى الغزو افتئاتا يلهون به الرعية ، ويسترضون الجند ، ويأملون في النصر تأييدا لانفسهم املا ظنه نابوليون الثالث ماء فكان سرابا . وأين الجمهورية الفرنسوية من ذلك ، وقد مالت اليها النفوس، وصفت لها القلوب ، واجتمعت عليها الكلمة كما ثبت بالانتخاب الجديد .

وتواطؤ الامة والدولة على الحرب لا يكون الا لرد غارة او كف اعتداء او وقاية شأن على خطر الضياع . وكل ذلك لا خوف منه على الفرنسيس فقد صانتهم القوة من ان يعدو عليهم عاد او يلم بشأنهم احد من الناس .
فانتصار الجمهورية فيهم موجب لسرورنا من اهم وجهيه بالنسبة الينا . وجه تأيد السلم العمومي . فهو منية من يلتمس لقومه صلاحا وبغية من يتمنى لسائر الناس نجاحا .

***

انتخاب النواب في انكلترا عام ١٨٨٢ (١٧)

لا تلمه فالانسان مظنة الخطأ ، وموضوع النسيان ، لا عصمة له في المحصور من اعماله ، والمشهور من اموره ، فما الظن به متوليا من امور الناس ما لا تحصى دقائقه ، ولا تدرك حقائقه .
ولكن وجه اللوم على الراضين بالاستبداد ذهولا عن مزايا الحكم الشوروي. فقد رايت الخطأ في هذا الحكم مشفوعا بالاصلاح ، متصلا بطرف الاصابة ، يقع من الوزير ، او الامير ، عن سهو او فساد راي ، فيصلحه الحكم العمومي بما يتضح له من أوجه السداد . ورأيته في الحكم الاستبدادي راسخا مستحكما كالقضاء المرسل ، فان الآمر المستبد يقضي بما يشاء ، مستأثرا برايه ، معرضا عن النصحاء ، يصرّ على الخطأ ذهولا عن الصواب، او يظهر له وجه الحق فتأخذه فيه عزة النفس ، فيقول تزول الارض والسماء وكلامي لا يزول ...
أوليس ان خطأ ملومك الوزير بكونسفلد ، قد اتصل بطرف الاصلاح ، اذ رفع لمحكمة الرأي العمومي ، فدفعته بحكم الانتخاب ليوسد الامر الى من يسلك طريق الاصابة . فلو كان ذلك — وهو كائن لا محالة — في اي البلاد المستبدة الحكام ، لما استطاعت الامة محو خطأ الرئيس الا بدم الرجال يهراق على رجاء الصلاح ويكاد الا ...
بلى فقد ظهر للانكليز تيه اسرائيليهم في مفاوز السياسة فكرهوا عبادة عجل العناء ، واهتدوا بنور الحكمة والرشاد فقاموا بأمر اهل الحرية في انتخاب النواب، فكان ذلك بمنزلة الحكم القاطع بضلال راي بكونسفلد، وفساد سياسته.
وقد بشرتنا جرائد الانكليز ، وجرائد الفرنسيس ، بحصول الغلب لحزب الحرية في مجال الانتخاب ، اذ كان مبلغ المنتخبين عند كتابة هذه السطور نحوا من اربعمائة ، ثلثاهم من الاحرار او يزيدون عن ذلك . وافادتنا تلك الجرائد

---

١٧ — من مقالاته ، أعيد نشره في الدرر ص ٢١١ .

والرسائل ان الباقيات من لوائح الانتخاب ستزيد الاكثرية نوابا ، وتؤيد حزب الحرية على صورة تفوق الرجاء لكون الكثير منها لاهل ارلندا ، المعروفين بالنفرة عن رجال المحافظة ، بما وجدوا فيهم من العنف والفلظة فبتنا على يقين من انقلاب الوزارة الانكليزية .

غير ان سرورنا بهذا الانقلاب لا يتجاوز حد الامل لتعلقه بأمنية نرجو الحصول عليها ، ولا نضمن الوصول اليها ، فانًا لا نكره وزارة بكونسفلد لشيء في النفس من رجالها ، وانما حملنا على ذلك فساد اعمالها ، ولا نتمنى الوزارة لغلادستون، او لهرتنتون ، او لدربي (١٨) ، او غيرهم من زعماء حزب الحرية الا على رجاء عدولهم عن سنن الوزارة السالفة فيما يتعلق بالسياسة الشرقية .

---

١٨ ـ دربي ١٧٩٩ ـ ١٨٨٩ : اسمه ادوارد جورج ستانلي : شغل عدد من المناصب الوزارية في الحكومة البريطانية بما في ذلك رئيس الوزراء ، وكان عضوا في مجلس العموم ، كان من دعاة الحماية الجمركية ، ومن العاملين للاصلاح . انضم لحزب الاحرار سنة ١٨٨٠ .

شخصيات سياسية

محاورة حول نابليون (١)

لقد سبق لساني الخاطر وخاطري الفكر في الرضى بهاته المباحثة . تذكرني بالرجل الذي ما رأيت فيه كبيرا غير ذنبه ، ولا عظيما غير استبداده ، ولا مميزا غير شره وقسوته . فتقوى بها علة على طرف الضعف ، وتضعف صحة على طرف القوة . فانه يمتنع على اي قلب لم يصف من دم الرحمة ، ويتعذر على اي نفس لم تخل من روح الانسانية ، ويستحيل على اي فكر لم يصف من معنى الرشاد ، ان يذكر ما اجترم الظلاّم ، وما ارتكب المفسد ، وما افتأت العادي ، ثم لا يناله عذاب التأثر ، ولا يمسه ألم الانفعال .

واي اجترام اعظم مما سأبسط ، واي ارتكاب افظع مما سأروي ، واي افتئات أضر مما سأبين في اعمال الآفة الحاصدة للارواح ، والبلية النازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان ، وصفت نابليون الاول وهذا الوصف لا يصل الى معناه . وسميته وأين من الاسم مسماه .

ولست في موقف الخطيب لأمثل سيئات هذا الرجل ، ومنكرات اعماله ، انذارا للناس من التهالك على أمثاله من التهلكات ، واغراء لهم بمجانبة الوهم

---

١ ـ من محاورة له حول نابليون ، ألقاها في جمعية زهرة الآداب ببيروت . وقد نشرت في كتاب الدرر ، حيث اشير الى انها أخذت من مجموعة بخط يده . ويشير جرجس نحاس في المحروسة الى ان المحاورة جرت سنة ١٨٨٠ ، بينما لا يشير الى ذلك في الكتاب المشار اليه في المقدمة .

الباعث على تأييد الظالمين ، واجتناب سبق الحكم الداعي لتقوية الظالمين، واطراح الغرة الحاملة على رفع اقدارهم السافلة ، ونبذ الفتنة الحادية لاجلال نفوسهم البائلة .

ولست في مقام المؤرخ لاجيء بتفصيل اعماله ، ومحصل اقواله ، خصوصا بعد انتهاء الملك اليه ، فأعرضها في مجلس الحق ، فيصدر حكم الانسانية عليه، ان يهبط من جنة التعظيم الى جحيم الخزي والتحقير .

وانما انا مناظر في موضوعه ، التزمت ان انفي عنه ما لم يكن فيه البتة من الخير . وأثبت له ما كان راسخا فيه من الشر . وما التزمت الا بيان البين ، وتحصيل الحاصل . بل لا ارى للقول في الوجه الاول مجالا . فقد كان ممتنعا على فطرة هذا الرجل ان يصدر منه شيء من الخير ، بالارادة والاختيار ، فان نتج من أفعاله شيء مفيد ، فوجه النفع غير مقصود فيه ، وانما حصل عنه كما ينفع القاتل ورثة المقتول ، والهادم عطل الفعلة ، والكاسر معمل الزجاج ، لا يقصدون النفع فيما يعملون ، وانما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الاعمال ، وقد يكون في بعض الشر خير من بعض الوجوه .

وأما وجه شرية هذا الرجل فهو ظاهر في اعماله ، واضح في اقواله ، نطقت به أفواه المؤرخين الصادقين ، ورسمته على صفحات القلوب دموع النساء والاطفال ، ودماء خمسة مليونات من الرجال ، فلم يخفه بهرج انتصاراته في ساحات القتال . واني ناظر فيه من ثلاثة وجوه: الاول حالته الادارية . والثاني حالته السياسية . والثالث حالته الذاتية الخصوصية . مبينا ما ألحق بالناس عموما ، وبالبلاد التي وليها خصوصا من جسيم الاضرار في كل حالة من تلك الحالات ، معينا في الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق ، وسفالة الفطرة ، وخسة النفس ، ليعلم انه لا يعقل صدور شيء من الخير المقصود عمن تجمعت فيه تلك النقائص :

لا ترتجِ الاصلاح من فاسد فالشهد لا يجنى من الحنظل

«ثم ابنت شرية نابوليون في الحالتين الاوليين بذكر استبداده وغدره بالجمهورية التي كان من رؤسائها ، وتحامله على اعدائه من ذويه ، وميله مع الهوى في حروبه التي انتزفت اموال الفرنسيس ودماءهم عبثا وهدرا ، وسعيه في استئصال جراثيم الحرية التي تظاهر من قبل بنصرتها خداعا ، وايدت ذلك بالامثلة الواقعة والادلة القاطعة من التاريخ» ثم قلت :

وقد كنت في غنى عن بيان تينك الحالتين ، بما أذكر من الحالة الثالثة الدالة على لؤم طبع الرجل ، وبعد نفسه عن النفع والخير . فما يصدر الخير العظيم ، الا عن الطبع القويم ، وكل من خلا عن الفضائل ، فهو دنيء سافل . قال (شاتوبريان) في وصف نابلوليون الاول ما معناه :

ولد بونابرت ليفسد في الارض فهو يحمل الشر بين يديه كما تحمل المرضع

طفلها بفرح وافتخار ، ويكره سعادة الناس كراهة الأرمد للنور ، فقد قال ذات يوم «لا يزال في فرانسا اناس سعداء من بعض ذوي البيوتات المقيمين بالضواحي والارباض ، فهؤلاء يعيشون من دخل لهم يكون بين ثلاثين الفا وأربعين الفا فرنكا ، ولا يعرفونني ولكنني سألم بهم لا محال» . وكان ينفر من كل مزية لغيره ، ومن كل شهرة لسواه ، ويحسد اهل الذكاء والفضل والنباهة بل ربما كره شهرة الجريمة ان لم تكن صادرة عنه» .

فان قيل كان شاتوبريان على فضله وثبوت صدقه من اعداء نابوليون ، ولا عبرة بشهادة العدو ، أوردنا لتأييد كلامه قول مدام (دي رموزا) . فهي عالمة بأحوال نابوليون ، واقفة على حركاته وسكناته . وقد كانت من نساء قصره المقربات ، وتوفيت عام ١٨٢١ قالت : لم ار أسفل والأم من نفس هذا الرجل ، فانها خالية من آثار الكرم والشرف ، ولم أره البتة مستحسنا شيئا حسنا ، بل كان يخفي اندهاشه بحجاب الاستخفاف ، ولا يعتقد الصفو في احد من الناس ، حتى انه كان يقول ان الذي يميز بعض الناس عن بعض انما هو الدقة في اختلاق الكذب . ومما أنقل من لفظه قوله : ان مترنيخ (الوزير الالماني المشهور) (٢) يقرب ان يكون رجلا سياسيا ، فانه مليح الكذب .

وقالت هاته الخاتون ايضا : كانت خدمة هذا الرجل من أعسر الامور . فقد كان يعامل خدامه بالعنف ، ولا يريهم سوى الغلظة . حتى انه قال وهو على حالة من الحالات التي يغلب فيها اليقين على اللبس ، فينطلق اللسان بما في النفس . لا شك ان الرجل السعيد من اختبأ مني في طرف احدى الولايات ، ولا ريب ان العالم يتنفسون الصعداء يوم اموت .

قال احد الشارحين لهذه الكلمات : ما اكتفى العالم بتنفس الصعداء يوم مات ذلك الظلام ، ولكنه بكى فرحا ، واشتكى تذكارا ، ثم ضمد الجروح ورمم الخراب وما كان ذلك مما يتم في مدة ايام ، ولا في عدة أعوام .

وقالت مدام دي ستايل وكانت من مشاهير نسائهم : كان نابوليون الاول يعد الانسان الحي بمنزلة الجماد ، ولم يكن يحب ولم يكن يكره بل كان لا يرى بذاته غير ذاته ، ولا يعد سائر الناس غير أرقام أعداد . وكانت قوة ارادته ، قائمة بمقصد أثرته ، كأنما هو شطرنجي بارع يحسب الارض رقعة والناس بيادقها فلا الشفقة ، ولا الذمة ، ولا الشرف ، ولا التعلق بشيء ما يحوله عن الوجهة المقصودة . فهو بالنظر الى مطمعه كالعادل بالنظر الى الفضيلة .

---

٢ – ميترنيخ ، كلمنس ١٧٧٣ – ١٨٥٩ Metternich, Klemens : اصبح وزيرا في درسدن (١٨٠٣ – ١٨٠٦) ... وفي برلين ١٨٠٦ – ١٨٠٩ ثم وزير خارجية ١٨٠٩ ومستشارا ١٨٢١ ؛ وظل كذلك الى ان اقصته ثورة سنة ١٨٤٨ . عاد سنة ١٨٤٩ ، وعمل مستشارا لبسمارك. كان رجعيا ، ولعب دورا في محاربة الروح الثورية في اوروبة . (المحرر)

وختام المقال فيه ما أورده المسيو دي بمبري من تقرير له على خواطر الخاتون دي رموزا في جريدة الفلسفة الوضعية قال : لقد ترينا الطبيعة فيأحوال الخلقة البدنية عجائب من ذوي العاهات كالصم والبكم والبلد وأمثالهم ، وفي أحوال الطبائع الخلقية غرائب من ذوي العاهات النفسية من مثل «ترويمان» و«ابادي» و«المركيز دي ساد» و«لسانير» ـ اشرار معروفون فيهم ـ وغيرهم من انواع المجانين الذين خلوا عن كل ما يجعل الانسان اليفا ، او كان ذلك فيهم شديد الضعف . ولا ريب انه لو كان اكثر الناس على هذا الخلق ، لكان الاجتماع الانساني محالا . فانه من لوازمه ان يكون في كل واحد من الناس شيء من عواطف الانسانية والعدل المعبر عنهما بحب الغير .

ولقد كان بونابرت خاليا عن ذلك رأسا كما يشهد ملازموه والمتقربون اليه ، والذين استطاعوا هتك سجوف الكذب عن حقيقة احواله . فحد هذا الرجل انه لا يحب غير ذاته ، ويزدري بسائر الناس فيستخدمهم لمقاصده ، وينتزف منافعهم لمطامعه ، ويضحي بهم غير راحم على مذابح ذاتيته سالكا لمقصده مسلك الكذب والشدة والخداع .

* * *

مهلك بلانكي (٣)

وهو الزعيم الاجتماعي الاباحي الهائج الفاتن المشهور . قبض عشية اول الشهر في منزل رجل من مريديه ، فعظم الخطب فيه على رجال الثورة والغلاة في امر الحرية ، فاحتفلوا لجنازته رجالا ونساء وأطفالا ، وبالغ نبهاؤهم في تأبينه واظهار الاسف عليه . وكان اعداء الجمهورية من حزب اليمين يرجون ان يصدر عن ذلك الحشد ما يكدر صفو الراحة ، فيكون من ذلك للجمهورية هنة يذكرونها ، وشائبة ينشرونها ، فلم يبد من الغلاة ما يحقق ذلك الرجاء ، وانما ساروا بفقيدهم آسفين صامتين .

وقد ولد هذا الرجل الغريب الشأن في مدينة نيس عام١٨٠٥ . وجاء باريس فتى غض الشباب ، فجهر بمقاومة حكومة الرجعة المسماة (رستوراسيون) ، فجرح في واقعة سين دنيس عام ١٨٢٧ ، ثم قاتل مع الثائرين في ايام تموز المشهورة ، وصار بعد ذلك من جمعية أحباء الشعب ، فجرت محاكمته مع غيره من اهل الفتنة ، فدافع عن نفسه لدى القضاة ببلاغة وجراءة تقرب من حد الاعجاز ، فبرأه القضاء ، ولكن حكمت الشرطة عليه بالسجن عاما كاملا ، بما اظهر

---

٣ ـ نشرها في التقدم ، العدد ٤ ، تاريخ ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٨١ .

من الازدراء بالمحاكمة . ومذ حينئذ توالت عليه الاحكام بالحـــدود القانونية ، فحكم عليه سنة ١٨٣٦ بالحبس خمسة أعوام ، ثم قضي عليه بالنفي الدائم عام ١٨٣٩ . ونجا من هذا الحكم بالثورة التي ظهرت بعد ذلك العهد (٤) ، فلما انقضت هذه الثورة اخذته الدولة بما فعل ، وقضت عليه بالسجن عشرة أعوام ، فحاول الفرار من المحبس ، وتسنى له الخروج منه بعد اقتحام الاهـــوال والاخطار ، فسار تائها في تلك الارض لا يهتدي سبيلا ، حتى رأى كوخ صياد فلجأ اليه . فطلبه الخفراء من كل ناحية ، فأخفر الصياد ذمته ، وسلمه اليهم فحمل الـــى كورسيكا ، وارسل من ثم الى افريقية منفيا ، فأقام بها الى ان صدر العفـــو المطلق عام ١٨٥٠ . ثم عاد الى وطنه وأقام به على ما تعود من اثارة الفتـــن وتهييج النفوس ، فحكم عليه عام ١٨٦١ بالسجن اربعة اعوام . ثم أطلق سبيله وأعيد الى السجن اثر فتنة الاباحية (٥) في باريس ، ولكن لم يستبق فيه غـــير سنة واحدة .

وقد اشتدت فيه عواطف الثورة والغلو في أمور الحرية اثر العفو المطلق عن المحجور عليهم والمبعدين من الاباحية ، فصار لواءهم الذي يجتمعون من حولـــه في كل انتخاب . ولكنه لم يكن جديرا بوقوع الانتخاب عليه لضياع حقوقـــه المدنية ، بما وقع عليه من أحكام الجنايات .

وكان في هذه الايام الاخيرة شديد الانفعال بما يقول ، وما يفعل في مظاهر آرائه الثورية . بلغ ذلك منه انه خرج من احد محافلهم قبل وفاته ببضعة أيام ، متأثرا بما قال وما سمع ، فأصيب على الطريق باضطراب واختلال مزاج عنيف ، ثم اغمي عليه ، فحمل الى دار صديق له على مقربة من محل الحادثة ، فلم يخرج من تلك الدار الا على الآلة الحدباء .

هذه خلاصة من ترجمة حال هذا الرجل الذي فعل كثيرا وقال كثيرا . ولا شك ان المحب للانسانية ، الناظر الى الاعمال بعين الناقد المنصف ، ليؤثر عليه بالتأبين والذكر الجميل طبيبا مجهولا يموت في خدمة المصابين بالوباء ، وجنديا خاملا يهلك في الذود عن الوطن ، ولا اقول يؤثر عليه عالما يموت في سبيـــل الوقوف على الحقيقة . ان ذلك لهو المقام الاسنى والمكان الاعلى .

***

---

٤ ـ المقصود ثورة عام ١٨٤٨ في فرنسا ـ المحرر .
٥ ـ المقصود «كومونة باريس» عام ١٨٧١ .

في جمال الدين الافغاني (٦)

هو الحكيم ، الخطيب ، البالغ الحجة النبيه المتوقد الذكاء ، الجريء الذي لا يعرف الخوف ، النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني . ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الان نحو ٤٥ عاما . وطلب العلم بالفارسية والعربية على ما جرت به عادة الامراء ، والعلماء في بلاده ، فتبحر في المنقول والمعقول ، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء ، فداخله في ذلك بداءة بدء شيء من التصوف ، فانقطع حينا بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة ، وادراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الاتباع والمريدين . كل ذلك وهو دون العشرين سنا . ثم خرج من خلوته مستقر الراي على حكم العقل ، واصول الفلسفة القياسية ـ ومات عامئذ امير الافغان عن ولدين ، وهما شير علي خان ومحمد أعظم خان فاقتتلا على الولاية ، فانتصر جمال الدين للثاني ، فقربه وجعله من رؤساء جنده ، فشهد الحروب وحضر الوقائع ، فازداد جراءة واستخفافا بالموت، واقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان ، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان ، فانصرف الاولياء عنه الا جمال الدين ونفر غيره من الامناء. فسار بهم الى الهند ، فلم يلبثوا ان اوجست حكومة الانكليز خيفة من صاحب الترجمة ، فعاد الى افغانستان ، ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة ، فلم يلائمه ثم الهواء ، فقصد الاستانة وأقام بها مجهول المكان ، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء ، فعرف قدره وفضله فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي. ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب ، وكانت خطبته في الصناعات . فأنكر مشايخ العلم اشياء منها ، واتصل الامر بشيخ الاسلام ، وكان متغيرا على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه ، فالتمس من الدولة ابعاده فأرسلته الى الحجاز . فأقام فيه مضطرا ، وكان قد عرف بالاستانة رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه بأسباب مودة . فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فأجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافيا ، على ان يكون من المدرسين ، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة ، افضت الى المنافرة ، فانقطع الى منزله ، وصار له فيه حلقة تدريس ، يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين. ثم صارت حلقته ملتقى للنبهاء ، من رجال الحكومة والوجهاء . فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ، ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل ، على انه بقي مجهول الشأن عند العامة حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه في جريدة مصر ، فأظهرت شأنه وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ، ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل مظهر بن وضّاح ، فطار صيته ، وعظم نفوذه .

---

٦ ـ من مقالاته ، أعيد نشره في الدرر ص ٢٢٠ .

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع الى السياسة ، شديد الميل الى الحرية، قوي الرغبة في انقاذ المصريين من الذل . فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر ، واختلت أمورها المالية ، علم ان لا بد من تغير احوالها . فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية ، فدخل الماسونية ، وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء . ثم انشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسوي ، ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليه ، فصار اعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عدا ، وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه ، وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ، ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقةبه، خصوصا بعد اعتداء الانكليز علىابناء ابيه، فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة، واهتموا بها كثيرا ، حتى ان المستر غلادستون (٧) تولى بنفسه امر الجدال في موضوعها . فلما عظم شأن محفله داخل الخوف منه قنصل انكلترة، فوشى به الى الحكومة ، وبث الرقباء في المحفل ، فسعوا فيه فسادا . وفي خلال ذلك بلغت احوال مصر نهاية الارتباك ، والاختلال ، فظهر للسيد جمالالدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لا محال ، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية ، وأخذ يسعى في انفاذ اغراضه فلقي الموسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التمس وكلمهما بلسان حزب كبير ، فهال امره بعض أمراء المصريين فقويت بذلك حجة وشاته ، ونفذت سعاية اعدائه ، فأمر الخديوي الجديد بنفيه أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، فأخذ غلسا وقبض على من كان في حلقته وأرسل هو وخادمه الامين «ابو تراب» مخفورين الى السويس ، ومنها الى ابوشهر «فرضة في العجم» وهو الان بحيدر اباد مرفوع المكان ، عالي المقام . وبقيت كتبه وأوراقه في مصر، وقيل ان روجرس بك اخذها ثم أعيدت لصاحبها .

عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ، وخاصة محبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية ، فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختبار ، على انني ملتزم فيه جانب الصدق بريء من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين والله على ما اقول وكيل .

والعهد بهذا الحكيم انه اسمر اللون ، ربعة ، ممتلىء ، قوي البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة . وانه عزيب عفيف النفس ، قانت كثير القيام ، لا ينام الا الفلس الى الضحى ، ولا

---

٧ - جلادستون : ولیم (١٨٠٩ - ١٨٩٨) Gladstone, William ابن تاجر . دخل مجلس العموم ١٨٣٢ ، اصبح زعيم حزب الاحرار ١٨٦٦ ، ورئيس وزراء ١٨٦٨ . ادخل اصلاحات في الجيش والتعليم والقضاء . رأس الوزارة اربع مرات ١٨٦٨ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨٦ ، ١٨٩٢ . (المحرر)

يأكل غير مرة واحدة في اليوم . على انه يكثر من شرب الشاي والتدخين . وهو قوي العارضة ميال الى المعارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السرائر ، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج . ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسوية او بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ، ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها يومين . ومن غرائب فضله انه كان يتبع حركة المعارف الاوروبية ، والمكتشفات العصرية ، ويلم بما وضع اهل العلم وما اخترعوه جديدا ، حتى كأنه قرأ العلوم في بعض مدارس اوروبا العالية . ومن مدهشات احواله الدالة على ثبات جأشه ، وعفة نفسه ، انه قبض عليه لما لا نعلم من الشر ، فكان سائرا الى الخطر سير الشجاع الى الظفر . وانه انزل الى البحر في السويس منفيا خالي الجيب ، فأتاه فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ، ومعه نفر من تجار العجم ، وقدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية او القرض الحسن فرده وقال لهم : احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب .

* * *

داهية دهماء (٨)

مـــا خلت ان عماد الدهر ينهـــدم
حتى قضى السيد العالي الذرى العلم
القاصد المجـــد ما زلت بـــه قدم
الصاعد العـــزم ما انحطت له همـــم
الباذل الخير مـــا غاضت مكارمه
الحافظ العهـــد مـــا ضاعت له ذمم
الموقد النار يـــوم الـــروع يضرمها
حينا ويطفئها والنـــار تضطـــرم
فالخيل والليـــل والبيداء تندبــــه
والسيف والرمـــح والقرطاس والقلم
والحزم والعزم والمجد الذي بسقت
فروعـــه والعلى والفضــــل والكرم

---

٨ ـ كتبها في وفاة الامير عبد القادر الجزائري ، ونشرها في التقدم ، العدد ٤٠ ، بتاريخ ٢٨ ايار ١٨٨٣ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٤٢٧ .

كيف لا وهو السيد السند ، الامير الكبير ، الحسيب النسيب ، العالـــم العامل ، الحبر البحر ، التقي النقي ، الهمام المقدام العربي الابي سيـــدي عبد القادر ابن سيدي محيي الدين الحسيني الجزائري سقى الله بغيث الرحمة ثراه ورضي عنه وأرضاه .

مفرد مجد مـا لنا بعـــده   وللعلى غير الاسى والعويـل
والصبر ان امكن في خطبه   والمستعان الله صبر جميل

وقد توفاه مولاه غلس يوم السبت الماضي في قصره بدمر من ارياض دمشق بعد تجلده لداء عياء ، فنيت فيه حيلة الاطباء ، شهرا ونصف شهر . فكان الرزء فيه جسيما ، والمصاب اليما ، والخطب عظيما ، والحزن عميما :

فيا لك وقعة جللا اعارت   اسى وصبابة جلد الجليد
ويا لك ساعة اهدت غليلا   الى اكبادنـــا ابد الابيد

وسرى نعيه في المدينة صباحا ، فملأ القوم نواحيها نواحا ، وطاروا الـــى القصر هائمين حيارى ، تحسبهم سكارى وما هم بسكارى . فداروا به صفوفا ، واجتمعوا من حوله الوفا ، نادبين مسترسلين للبكاء ، ناحبين متجافين عن العزاء :

وكلهم أعدّ اليأس وقفا   عليه ونص راحلة القعود

ثم ساروا بنعشه الى منزله في المدينة حيث أقيمت مناحته الى الساعــــة الثالثة من النهار ، وكانت الطرق من ابواب المنزل الى الجامع الاموي غاصـــة بالناس على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم ، حتى لو القي عليهـــا التراب لما مس الارض . ثم خرجوا به الى الجامع يتقدمه مئات من المشايخ والقراء ، وأصحاب الطرائق والاشائر ، مهللين مكبرين ، ورجال الشرطة ، وعدد كثير من العساكر النظامية ، ويليه جمع لا يحصى من العلماء الاعلام ، والامراء العظام ، والوجهاء الكرام ، فصلي عليه رحمه الله وكانت الآراء مجتمعة على دفنه بجـــوار القطب الرباني الشيخ الاكبر محيي الدين العربي رضي الله عنه ، فاجتمع مجلس ادارة الولاية للمذاكرة في هذا الامر فقرّ عليه . فساروا في الجنازة على طريـــق الصالحية حتى بلغوا دار الحكومة ، فاستقبل النعش هناك قناصل الدول جميعا بالالبسة الرسمية ، وفريق آخر من العساكر السلطانية ، وجميع أمراء العسكرية والملكية ، وساروا به اجمعين لا يلوي سابقهم على لاحقهم ، ولا يبصر أولهـــم آخرهم . فقد انبأنا المكاتبون الثقات انهم كانوا زهاء ثلاثين الفا عدا غير الواقفين بالطرق وعلى الابواب والنوافذ عجزا عن اختراق الصفوف .

وما نحاول استيعاب مناقب هذا الامير العلي المكان ، ولا نزاول استيفـــاء

مآثره التي سارت بذكرها الركبان ، فذلك مما تضيق دونه الاسفار ، فضلا عن صحف الاخبار . وانما نقول فيما نحدث عنه ولا حرج ، انّا رايناه بحرا ينظم لفظه درا ، وعرفه الناس برا تنثر كفه تبرا ، وكان في السلم غيثا ، وفي الحرب ليثا ، وفي المهمات منارا ، وفي الملمات نارا ، وللعافين ملاذا ، وللخائفين معاذا، ولطلاب العلوم أستاذا . وجملة القول انه بضعة الشرف العربي وبقية المجد الشرقي ، وصورة من صور السؤدد والفضل ، ومظهر من مظاهر الاقدام والنبل، وتجلّ من تجليات الكرم في الفرع والاصل . وهذا طرف من ترجمة حاله نؤثره من معجم فرنسوي في تراجم العظماء :

هو السيد الحاج الامير سيدي عبد القادر بن محيي الدين احد حماة الامة العربية . ولد نحو عام ١٨٠٧ (للميلاد) في ضواحي مسقرا . وكان سيدي محيي الدين مرابطا رفيع القدر في عمالة اوران ، متصل النسب بآل البيت النبوي الكريم . فربي صاحب الترجمة في حجره ، وأخذ العلم عنه ، واقتدى بالادب فيه ، وكان متوقد الذكاء يفسر على صفره آي القرآن العظيم . ثم اشتهر بالفصاحة وسعة العلم بتاريخ قومه ، وبالتقوى والصلاح . ولم يكن غافلا عن واجب الرياضة للبدن . بل فاق عشيرته في الفروسة وضرب السيف ، حتى خافه عامل الجزائر يومئذ فأضمر له شرا ، فسار الامير الى مصر بصحبة والده، ثم أدى فريضة الحج فزاده ذلك رفعة عند ذويه . ولما آب من سفره كانت مدينة الجزائر بيد الفرنسيس وعرب اوران على قدم الحرب ، فولوا سيدي محيي الدين زعامتهم ، فأغار بهم على مسقرا ودخلها عنوة ، ثم تنازل عن الامارة لابنه صاحب الترجمة ومذ حينئذ دخل تاريخ الامير عبد القادر في تاريخ حملة الفرنسيس على الجزائر ، بل صار هو اياه . فانه لما اشتد ازره ببوادر النصر، نادى في قومه بالجهاد ، واغار في عشرة آلاف فارس منهم على مدينة اوران عام ١٨٣٢ ، وكانت بيد الفرنسيس ، وقائد حاميتهم فيها الجنرال بوير ، فخرجوا لقتاله فثبت لهم ، وأبلى بلاء حسنا ثلاثة ايام متوالية ، ثم عاد عن المدينة . وفي السنة التالية ولي الجنرال دميشيل قيادة الفرنسيس في الجزائر ، وظهر على الامير في بعض المناوشات ، واقام رابطتين من الجند في موقعين من الساحل ، ومع ذلك لم تفتر همة صاحب الترجمة ، ولم ينخفض مكانه بين قومه ، بل صار رئيسهم الفرد المشار اليه وتيسر له الهجوم على تلمسان . ثم توفي والده عام ١٨٣٤ فهادن الجنرال دميشيل على ان يكون الشليف هو الحد الفاصل بينه وبين الفرنسيس ، فصار له بذلك امارة واسعة بين مراكش ، واوران ، وتيتري، والجزائر ، وصرف الهمة الى اقامة الامور ، وترتيب الشؤون ، واصلاح الاحوال ، وتنظيم الجند في تلك الامارة استعدادا لمعاودة القتال عند الحاجة . وفي خلال ذلك تنافر الجنرال فوارل والجنرال دميشيل ، وولي الجنرال تريزل قيادة الفرنسيس عام ١٨٣٥ وكان الامير قد اجتاز الشليف ، واستولى على بلد مدية ، فخرج اليه القائد المذكور في جيش كثيف ، ونازله على ضفاف مقطا ، فتلقاه الامير بعشرين الفا من الخيل فتجلد الفرنسيس لقتالهم ما استطاعوا ،

واظهروا فيه عجائب من البأس والاقدام ، ولكن ظهر العرب عليهم فارتدّوا مدافعين عن انفسهم ، تاركين لفرسان الامير متاعهم وذخائرهم ومستشفياتهم مغنما فاشتدت بهذا النصر عزائم العربان ، وضعفت همم الفرنسيس . ثم عين المارشال كلازيل عاملا على الجزائر ، فداب في القاء الفتنة بين مشائخ العرب حينا من الدهر ، ثم حمل على مسقرا بثمانية آلاف من الجند ، فرآها خالية من الحامية ، فأمر بهدمها . ثم حل بتلمسان وكانت بينه وبين الامير وقائع ليست بذات بال .

وما ظهر الفرنسيس على صاحب الترجمة ظهورا حقيقيا الا على عهد الجنرال بوجو الذي ازال العربان عن حصار القائد ازلنج . على انه جنح الى موادعة الامير تمهيدا لسبيل الغارة على قسطنطينة ، وواثقه على ذلك في الثالث من شهر ايار عام ١٨٣٧ . فصرف الامير ايام الهدنة في لمّ الشعث ، وجمع كلمة العربان ، واقامة الارصاد في البلاد التي بيد الفرنسيس ، وتوفير الذخيرة ، واستكمال آلات القتال . ثم وقع الخلاف بينه وبين القائد الفرنسوي على بنود غامضة من ميثاق الهدنة ، فعاد الى الحرب عام ١٨٣٩ . وحينئذ خرج الدوك دورليان والمرشال فاله لقتال العربان ، وابتدات الحملة المعروفة بحملة عام ١٨٤٠ ، وحصل الظهور للفرنسيس ، فاستولوا على مدية وميليانة ، وانتصروا على جند الامير في موزايا . ثم توالت الوقائع تباعا ، واتصل مدد كثير بعسكر الفرنسيس، وغيَّر قادتهم طريقة الحرب ، فاستولوا على مسقرا عام ١٨٤١ ، ودانت لهم بعض القبائل . فما خاف صاحب الترجمة ولا وهن بل زاد تجلدا وعزما ، وجمع الامناء وأهل النجدة من عشيرته ، واقام يدافع بهم الفرنسيس حتى استولى الدوك دومال على سمالا عام ١٨٤٢ ، فلاذ الامير ببلاد مراكش ، واستنجد سلطانها عبد الرحمن فأنجده ببعض الجند ، ولكن ظهر الفرنسيس عليهم واطلقوا مدافعهم على موغادور وطنجر ، فخاف سلطان مراكش وقعد عن نصرة الامير ، فاستجاش الامير اهل مراكش على الحرب ، فأقبلوا على نصرته بالرجال والمال ، فعاد الى القتال صابرا جليدا وأوشك ان يسترد البلاد عام١٨٤٥ فجدد الفرنسيس عزائمهم ، وقاتلوه قتالا مستمرا عامين آخرين . وكان صاحب مراكش قد اظهر النفرة منه فضلا عن التثاقل عن انجاده ، فاضطر الامير لمقاتلته ، وظهر على جنده ظهورا مبينا . ثم احاطت به الاعداء من كل جانب ، وحفت به الاخطار من كل صوب فكره ان يعرض قومه للهلاك بلا فائدة ، فرضي بالتسليم للقائد لاموريسيار على شرط ان يرسل الى الاسكندرية او عكا. فحمل اولا الى فرنسا، واقيم حينا في قلعة لاملغ ، ثم في طولون ثم في قصر «بو» . وفي عام ١٨٥٢ أطلق نابوليون الثالث حريته ، وبالغ في اكرامه ، فسار الى بروسة (بورسة) واقام بها الى ان زلزلت عام ١٨٥٥ فسار الى الآستانة ، ومن ثم الى دمشق . وكان له في هذه المدينة عام ١٨٦٠ اثر من الكرم ، والاقدام ، والتقوى ، وحماية الجار ، تشكره له الانسانية ، ويذكره له التاريخ ابد الدهر . وفي سنة ١٨٦٣

سار الى مصر للتفرج على خليج السويس ، وأتى فرنسا فتلقته دولتها باحتفاء لا يليق الا بعظماء الامراء ، وكبار الملوك ، وأهدت اليه نيشان اللجيون دونور الاكبر . ثم عاد الى دمشق فأقام بها كريما عزيزا رفيع المكان ، مقصودا في الحاجات ، محببا الى الناس ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، يجتمع في مجلسه العلماء والوجهاء والأشراف ، ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات، فلا يصد ملتمس فائدة من العلم ، ولا يرد طالب عون من الجاه ، ولا يمنع سائل صدقة من المال . تشرفت بلقائه منذ ثلاثة أعوام فرأيت مجلسه العالي كما وصفت ، وبابه المقصود كما عرفت :

وادهشني منه التواضع والتقى … قرينين للعلم الذي ما له حد

وللامير الفقيد انجال نجباء ، اشراف أمراء ، سادة كرماء ، قادة فضلاء ، منهم السيد الامير محمد باشا ، والسيد الامير محيي الدين باشا ، وغيرهما من أشبال ذلك الاسد فهم يحفظون ان شاء الله اثره الكريم ، ويجرون على سننه القويم .

فانهم القوم الذين هم هم … اذا غاب منهم سيد قام سيد

* * *

السيد الامير عبد القادر (٩)

لقد وجدت لسان القول ذا سعةٍ … فان وجدتَ لسانا قائلا فَقُلِ

وما يبلغ القول في مثل الامير الكبير الفقيد حد الاسهاب ، ولو مدت فيه اطناب الاطناب ، فكيف ونحن لم نؤد من ندبه فرضه . ولم نقض من تأبينه واجبه ولا بعضه . ولقد اوردنا خلاصته مما قالته في تأبينه اهم جرائد الفرنسيس. وهذا طرف من مقال صحيفة التمس (١٠) التي هي اعظم جرائد الانكليز . فقد نشرت هذه الصحيفة الخطيرة ترجمة الامير الفقيد على نحو ما تطيبت سائر الجرائد بنشره، ثم قالت فيه ما تعريبه: كان الامير عبد القادر يذهل من يلقاه ويفتن من يخاطبه من الفرنسيس، فكانوا على اتفاق في القول بأنه من آحاد الرجال، ذوي العقل الخارق للعادات البعيد من المعهودات . ومن غريب ما يحكى عنه مما يدل على

---

٩ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٤٧ ، تاريخ ٢١ حزيران ١٨٨٣ .

١٠ ـ المقصود جريدة التايمس اللندنية .

كرم سليقته ، وطيب عنصره ، ان أباه وهبه ، وهو فتى في السابعة عشرة من سنيه ، فرسا كريما من جياد الخيل . وكان لرجل من مشايخهم يقال له يوسف مطمع في ذلك الفرس ، فرام ابتياعه من الامير ، وبذل له فيه المال الكثير ، فأبى ان يبيعه منه . فأضمر الشيخ يوسف اخذ الفرس بالحيلة . ففي ذات يوم كان الامير عبد القادر سائرا على الجواد المذكور في طريق اوران ، فسمع انين رجل على الطريق ، فالتفت اليه ، فرآه مقعدا فقيرا يتألم فرقّ له ، وسأله عن حاله ومراده . فقال : اني قد اعياني التعب ، واضواني السير ، وأنا اقصد المدينة ، فهل لك ان تحملني اليها على هذا الفرس احسانا لوجه الله ؟ فترجل الامير من فوره ، واحتمل الرجل واقعده على السرج . فلما استوى عليه نهز الفرس قائلا للامير أنا الشيخ يوسف ، اردت شراء الفرس منك فلم تبعه ، فأخذته بالحيلة . فناداه الامير يا هذا قف ولا تخف سوءاً ، اني اعطيك الفرس حلالا ، على شرط ان لا تخبر احدا بخبرك ، لكيلا يكره الناس صنع الجميل ، فأثر هذا الكلام في الشيخ يوسف أيما تأثير ، فعاد بالفرس الى الامير نادما مستغفرا ، ولزمه بعد ذلك ، وكان من مريديه الامناء .

وقد روى كتّاب الفرنسيس ان المارشال سنت ارنو ، ذكر الامير ذات مرة في حضرة نابوليون الثالث ، فقال وهو يريد مدح الامبراطور: لو كان الامير عبد القادر فرنسويا لكان عندنا نابوليون آخر . فقال له الامبراطور : اذن اشكر الله على ان اوجده عربيا . انتهى كلام التمس .

وهو لعمر الحق كلام تنبسط له منا النفوس ، وترتفع به الرؤوس ، ويحيي عندنا ذكر السلف الكرام ، الذين لا يمحو آثارهم مرور الايام والاعوام .

* * *

اميل ليتره (١١)

التعريف

هو اللغوي الفرنسوي المدقق الفيلسوف الوضعي المحقق ، آية قومه في علم اللسان ، غاية ذويه في صناعة البيان ، معجزة عصره في معرفة أحوال الانسان. ولد في باريس اول شهر شباط من عام ١٨٠١ في بيت نباهة ، وشهامة ، وهمة واجتهاد . كان والده من أبطال البحر خاض عبابه ، وذلل صعابه ، وانتصر فيه

١١ ـ مقالة كتبها في التقدم عن اميل ليتره احد مشاهير كتاب فرنسا الذي توفي سنة ١٨٨١ ، نشرها في العدد ٤٥ ، تاريخ ١٣ حزيران ١٨٨١ . أعيد نشرها في الدرر ص ٣١٧ .

بارجة ذات ٤٤ مدفعا على الانكليز في سفينة ذات خمسين ، فأهدى اليه ديوان المستعمرات سيفا ، وعاد من بعد ذلك الى فرنسا . فأدخل في جمعية الحقوق المتحدة . وإليه (١٢) اهدى برتلمي سنتيلر وزير الخارجية الفرنسوية في هذه الايام (١٣) كتابه في السياسة عام ١٨٣٧ . وكانت امه واسمها صوفيا من بيت جوهانودانوناي المعروفين بالنباهة والنبالة . جهر والدها بالميل الى الثورة وولي الحكومة في (سنت اتيان) ، ثم أودع السجن في (ليون) ، بما حدث ايامئذ من الفتن والمفاسد ، فجاءته في محبسه ، وأقامت على مقربة منه تواسيه وتسليه . فلما زحفت جيوش المواثقة الى تلك المدينة ، خرجت الى الفلاحين والفعلة تدعوهم الى حمل السلاح ، وسارت بفريق منهم متجندين مددا لتلك الجيوش . ثم اطلق والدها بعد استيلائهم على ليون . ولكنه أعيد الى السجن هنيهة رد فعل ، واخرج منه بحجة النقل ، فقتل طعنا بالخناجر ، فألقت بنفسها عليه صارخة منتدبة اهل المدينة ولادراك ثأره ، حتى خشي ارباب الحكم بأسها فحجروا عليها . ومن هذه الشهامة وذلك الاقدام اشرب قلب اميل ليتره عزة واجتهادا . فطلب العلم الى عام ١٨١٩ ، وأبان في ذلك قوة ذهن واتقاد ذكاء . ثم قرأ الرياضيات عاما كاملا ، وانقطع من ثم الى دراسة الطب ثمانية أعوام حتى اتى على ما في النية منه . ولكنه تعفف عن طلب الاجازة ، ودخل المستشفيات معاون طبيب ، يعالج المرضى اوقات العيادة ، ويصرف سائر الزمن في علم اللسان . حتى تبحر في الفرنسوية ادبا ، وبيانا ، ولغة ، وتضلع من اليونانية واللاتينية وطلب السنسكريت ـ لغة الهنود المقدسة ـ والعربية التماس مراجع الكلم . وتعلم الالمانية والايطالية والانكليزية حتى جمع منها الشوارد وقيد الاوابد . وتوفي والده عام ١٨٢٧ ، فأخذ في تدريس اليونانية ، وبعض سائر الالسنة التي تعلم توسعا في طلب الرزق لآل بيته . وأقام على ذلك الى ان كانت ثورة تموز عام ١٨٣١ فاستبدل القلم بالبندقة ، وقلنسوة الطبيب بقبعة الجندي، وسار بين الجموع بزي الحرس الوطني يقاتل اعداء الحرية ، قتال من لا يخاف المنية . ثم ادخل عامئذ ادارة جريدة (نسيونال) مترجما من الصحف الاجنبية . وبقي هناك خافي المكان ، مجهول القدر ، خامل الذكر ، حتى دل على نفسه بفصل من الادبيات ، فعرف رئيس المحررين مقامه من الفضل ، فأدناه ورفع شأنه واتخذه لنفسه رفيقا صديقا . فالتزم الكتابة في الصحيفة مياومة بقدر معلوم . وكان مع ذلك ينشر الفصول والرسائل المطولة في خلال الفرص بترجمة تآليف ابقراط . ثم اصدر من تلك الترجمة نموذجا عديم المثال بما يدل عليه من دقة النظر ، وصحة العلم باللسان المنقول اليه ، فدخل بذلك في جمعية علماء الآثار . وقرأ عام ١٨٤٠ راي (اغست قنت) الفيلسوف الوضعي فمال اليه ورغب

---

١٢ ـ اي اميل .

١٣ ـ ايام كتبت هذه القطعة .

فيه ، ولزم الفيلسوف حتى صار من اقرب مريديه . وكان الى الوفاة خليفته في الفلسفة الوضعية كما سنبينه في المطلب الذي افردناه لترجمة حال ليتره فيلسوفا .

ولما عادت الثورة عام ١٨٤٨ انتخب عضوا في بلدية باريس ، ولكنه اعتزل هذه المنصة أواخر العام ، وعاد الى شأنه الاول يملأ الصحف الخطيرة بالفصول العلمية ، والرسائل الادبية ، ومباحث النقد . ثم انشأ عام ١٨٥٧ جريدة الفلسفة الوضعية وكان مديرها الى حين الوفاة . فطار بذلك صيته واشتدت وطأة الاعداء عليه ، كما اشتد ميل الاحباء اليه . وكان من قبل ذلك ينفق الوقت سواد ليله وبياض النهار في وضع كتاب للغة الفرنسيس يجمعها فيه أصولا ، وفروعا ، ويجلوها حقيقة ، واصطلاحا على أسلوب لم يسبق اليه ، ونسق لا يماثل فيه كما سنبينه في المطلب الذي أفردناه لترجمة حاله مؤلفا . ثم اصدر الجزء الاول عام ١٨٦٣ فارتفع به مكانه ، وعظم شأنه ، وسارت بذكره الركبان فعرض على الاكاديمية ، اي جمعية العلماء ، فطعن الاسقف دوبنلو عليه انه كافر زنديق ، لا يدين بدين ، ولا يؤمن بالله . فلم ينتخب فرجع الى شأنه العظيم يتم ذلك الاثر الذي جعله برأسه بمنزلة جمعية العلماء . وأقيم بعد هدنة الحرب عام ١٨٧١ نائبا عن احد أحياء باريس ، فجلس على مقعد اهل الشمال جمهوريا لا ضعف فيه ولا غلو . ثم انتخب عامئذ عضوا في مجلس ولاية السين ، وولي الرئاسة فيه ، وأدخل بعد ذلك في جمعية العلماء . فعظم هذا الامر على الاسقف السابق الذكر فاعتزل الجمعية وجدا عليها . ثم صار ليتره عضوا دائما في مجلس الشيوخ الكبير ، وأقام فيه الى ان اغتالته المنية ثاني الشهر الحال (١٤) كما جاءنا بالتلغراف ، فذهب فقيدا مذكورا ، رفيع الشأن ، موسعا له في تاريخ العصر أيما مكان ، ونحن مترجمون عن حاله فيما يجيء من حيث هو ، ومن جهة كونه فيلسوفا مؤلفا .

الرجل

أسمر شديد السمرة بالنسبة الى قومه ، غليظ الشفة السفلى ، عظيم الانف عريض الحاجبين ، ضعيف البصر لا تفارق النظارة عينيه ، كبير الجثة غير مليح الجملة . وكان في عهد صباه قويا شديد الاعصاب يجلس الرجل الضخم على الكرسي فيرفعه بيمناه من احدى قوائمه ، ويمسك بالرجلين يمينا وشمالا فلا يستطيعان حراكا ، حتى استغرق في الطلب ، واستفنى في البحث ، واستمات

---

١٤ ـ حزيران (جونيو) سنة ١٨٨١ .

في حياة الذكر ، فوهن عزمه وذهبت قوته . بل لم تذهب ولكنها انحصرت في الذهن فتحول فيه معجز قوة اليد الى الفكر ، فصار يكتب في الاسبوع عفوا ما لا يستطاع مع الروية في الشهر ، حتى تكاد تآليفه تعجز المرء في مثل حياته نسخا . وكان ساذج المعيشة ، ظاهر القناعة ، دائم السعي والاجتهاد ، لا تغلبه شهوة ولا يستخفه مجد باطل ، ولا يشغله عن العلم شاغل . يصرف نهاره بين جمعية الطب والآثار والعلماء ومجلس الشيوخ وعيادة الفقراء ، ويأكل قبيل الغروب لونا من الطعام خفيفا ، ثم يأخذ في الكتابة تأليفا او ترجمة او انشاء الى الساعة الثالثة من بعد نصف الليل لا يلتمس لذلك عزلة ، ولا يحتجب عن آل بيته ، بل ربما استقبل المكتب للانشاء وهم في غرفته الصغيرة من حوله يتسامرون همسا ، فلا يشرد بذلك خاطره ، ولا يشتغل فكره ، ولا يتململ كأنما هو في غيبوبة التجرد عن الحس المطلق . وكان على استمساكه بالحرية ، وشدة ميله الى الجمهورية ، وضعف عقيدته الى حد الانحلال ، معتدلا متمالكا يحترم آراء الناس ، ولا يطعن فيما يعتقدون ، ولا يخرج في المناظرة عن حد الملاينة . تجند لثورة عام ١٨٣١ وحسب من رجال تموز المعدودين ولكنه لم يمل بعد ذلك مع هوى النفس ، بل سلك فيما كتب مسلك الاعتدال ، وابان لقومه وبال الغلو والافراط ، لم يعمه الحب عن قلوب ذويه ، ولم ينسه الميل واجب النقد . ولزم أغست آخذا برأيه في الفلسفة الوضعية ، واردا مشربه من الحكمة ، ولكنه لم يسلم اليه تسليم الاعمى لقائده بل انفرد عنه لما صار الى العمر الذي لا يعلم فيه بعد علم شيئا ، ولما رام ان يجعل مذهبه الفلسفي دينا . ولم يره احد من الناس متعصبا فيما يعتقد ، بل كان يرى زوجته وابنته تصليان ، فلا يعارض ولا يعترض ولا يظهر اعراضا . وكان مع كل هذه الحسنات مرفوع الحجاب ، موطأ الجناب ، سهل المقابلة ، لين الجانب ، يسكن في باريس دارا صغيرة على الضفة اليسرى من السين في الطبقة الثانية ، ويتلقى الزائرين بطلاقة وجه توهم انه من اهل الفراغ ، مع نزاهة يترفع بها عن سفساف القول والفعل ، وشهامة تقول المنية خير من الدنية ، وعفة تقطع ألسنة القادحين ، وهمة لا يبقى معها للنقد مجال . وجملة القول انه رجل ليس كالرجال ، وسنرى منه فيلسوفا مؤلفا مما تنبسط به هذه الخلاصة ، ويتفصل هذا الاجمال .

الفيلسوف (١٥)

شأننا في ما نذكر من فلسفة صاحب الترجمة ، بيانها كما وجدت لا كما نعتقد . فهي كسائر الآراء الفلسفية لا تعدم مريدا يمدح ، ولا تفقد مخالفا يذم.

---

١٥ ــ تتمة المقال السابق ، التقدم ، العدد ٤٧ ، ٢٠ حزيران ١٨٨١ .

وقد مر بنا ان اميل ليتره قرأ عام ١٨٤٠ فلسفة اغست قنت المسماة بالوضعية فمال اليها وتبوأت من نفسه مكانا . فأقبل على صاحبها طالبا مريدا ولزم مجلسه يتلقى عنه ، ويتخرج به حتى صار منه بمنزلة الولد من الوالد ، لا يعصى له امرا ، ولا يخالف رأيا ، ثم انقلبت حكمة (قنت) جربذة بما اثرت فيه السنون ، فرام ان يجعل فلسفته دينا فاعتزله صاحب الترجمة مع بقائه على المودة له ، والسكون اليه ، حتى استأثرت به المنية فكان ليتره خليفته في الفلسفة الوضعية ابان مكنونها ، وكشف غامضها وأظهر أحكامها ، ووضع فيها الكتب ، وأنشأ لها الصحف ، حتى صار هو ابن بجدتها ، وسابق حلبتها ، وحتى عرفت به ونسبت اليه .

وليست الفلسفة الوضعية مما يحد ويعرف في مثل هذا المقام ، لندعي استيعابها فيما نقول ، وانما هو تلخيص الخلاصة نبديه لمن شاء الوقوف عليه ، فيحصل منه في المخيلة صورة اجمالية من تلك الفلسفة . فهي مذهب من لا يسلم الا بالمادة وخواص المادة مطرحا كل قضية لم تبن على حقيقة بينة ، وكل رأي يتعلق بمنشأ الوجود ، ومصير الانسان . وهي مؤلفة من ستة علوم «الرياضيات . والفلك . والكيمياء اي فن التحليل والتركيب . والطبيعة . وعلم الاجسام الحية . وعلم أحوال الهيئة الاجتماعية» . فهذه العلوم على هذا الترتيب شاملة لكل ما وصلت اليه المدارك الانسانية على راي الوضعيين تقف عند الإلهيات غير مشرئبة اليها . وهي عندهم مصيبة في هذا الوقف بحجة انه ليس من الضروري التماس علة المرئي فيما وراء الادراك على كونها ممكنة الوجود في غيره . فان سلسلة التعليل في مجمل الحوادث غير منتهية الى علة من فوق كل حس واختبار ، وانما هي متعلقة بحادث أرفع منها جميعا ، يسوقها متوالية فيعلم كل حادث منها بالسابق المتقدم عليه ، حتى تنتهي الى النواميس المبدعة . وهذه النواميس ممكنة الحصر في الحركة اللانهائية التي هي القوة المتحدة بالمادة الابدية .

وجملة القول ان اصحاب الفلسفة الوضعية ينبذون كل ما خرج عن المادة وخاصة المادة . وسنتهم في ذلك انهم لا يسلمون الا بما يتبين لهم من وجه طبيعي ، ولا يرفعون الى القوة الحاكمة العقلية الا ما يظهر للفكر ظهورا لا موضع للريب فيه . فهم في ذلك على ضد موجب الايمان ولذلك لا نورد رأيهم الا مجرد نقل وما على الناقل من سبيل .

وأما حال صاحب الترجمة من حيث العقيدة فقد ابانها لقراء جريدة الفلسفة الوضعية منذ عام حيث قال من مطلب سماه (لآخر مرة) كناية عن شعوره بقرب الوفاة «لست ممن ينكرون شرية الالم ، ولقد لزمني هذا الشر منذ شهور كثيرة ، حتى بلغت به اليأس ، ولي من الناس أنفس تقية يهمهم شأني الداخلي رأوا اني لا اقاوم الدين اطلاقا ، ولا أنكر ما فيه من الحسنات ، فأيقنوا ان له في قلبي مكانا . فانه من بداءة الايمان الا يكون في القلب عداوة او استخفاف

بالايمان الذي تولى الافكار أحقابا كثيرة ولا يزال الى الان بمنزلة التعزية لقلوب المؤمنين . وحيث اني لم أشعر ولم أجهر بالنفور من هذه المساعي التي ذكرت وقد أنذرني الداء والشيخوخة بقرب الاجل ، لم يقنط اصحابها من رحمة الله ان تهديني السبيل الذي يرومون . ولست بمنكر عليهم هذا السعي ، ولكني لا اؤمن بل لا اجد من نفسي حاجة الى الايمان . ولقد رجعت اليها غير مرة سائلا مستكنها فلم أشعر بشيء مما يشعرون ، ولم أستطع قبول الراي الذي يعتقدون . على انني غير آسف على الخروج عن ايمانهم ، وغير جانح الى الرجوع اليه ، فقد اختفت فيما ارى سماء علم اللاهوت وبدت سماء المعارف الانسانية مختلفتين اختلاف الليل والنهار ، فأثر ذلك في الخواطر أيما تأثير ..» .

ثم قال : وكان في ذوي معرفتي من نحو خمسين عاما خاتون لا تزال الى الان في قيد الحياة ، ولكنها مصابة مثلي بداء أليم . وقد جاءني من خبرها على لسان من يرانا جميعا ان الآلام تغلب عليها الى حد ان تفيض بكاء وصياحا، فهي بما بها من تقوى الله تفوض امرها اليه ، وترضى بما ابتلاها ، اما أنا فأخضع للاحكام الطبيعية التي لا ترد ونحن في النتيجة سواء فلا تسليمها يدفع الالم ، ولا خضوعي يزيل الوصب ، بل كلما حملت الى الفراش مساء شكوت وتململت مرددا في خاطري قول (مالرب الفرنسوي) : .

ضعيف تولاه المصاب فما له سوى عمر يوم لا يطيق اكتماله

على ان الفلسفة الوضعية التي هي عوني وملاذي منذ ثلاثين عاما ، والتي اشربت قلبي حب الاحسان ، وارادة الاستطلاع ، وايثار الانسانية ، تمنعني ان اكون انكاريا محضا وتصحبني في هذه الاوقات العسيرة .

هذه خلاصة من فلسفة ليتره ولمع مما كان يعتقد نوردها آسفين عليه انه كان من اعظم الناس عقلا ، وأوسعهم علما ، وأظهرهم اجتهادا ، وأحسنهم سيرة، واكرمهم خلقا ، وأحرصهم على الانسانية ، وأنهضهم بالخدمة النافعة العمومية، وأبقاهم آثارا ، وأعلاهم منارا ، ولكنه لم يكن لسوء حظه من اهل الدين . والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو غفور رحيم .

يذكر صاحب هذه الترجمة بثلاثة مؤلفات ، ومذهب فلسفي . فاما تلك المؤلفات فهي ترجمة تصانيف ابقراط ، وتصحيح قاموس الطب والجراحة ، وانشاء كتاب اللغة المشهور . وأما المذهب فهو الفلسفة الوضعية . ولنا في كل واحد من هذه الآثار الخالدة كلام لا نخرج فيه عن بيان شأن الرجل ومكانه من الحكمة والعلم .

فترجمة ابقراط كانت عنوان مزيته في حسن البيان ، ودقة النظر ، والعلم بمواضع الكلم ، والوقوف على مراجع الالفاظ . أصلح بها خطأ من تقدمه من المترجمين ، وأوضح ما أغلق على سواهُ من مقاصد طبيب اليونان ، وأجاد الى الغاية في اختيار الالفاظ ، وأحسن الى النهاية في شرح المغازي ، حتى لقب

من بعد هذه الترجمة بزعيم اهل البيان الفرنسوي الجديد .
إما قاموس الطب والجراحة فالاصل فيه (لنستن) تولى صاحب الترجمة اصلاحه بقدر الحاجة على نية استبقاء الوضع الاصلي ، فلما سلك هذا السبيل توسعت خطاه فأوغل فيه تنقيحا ، وتهذيبا ، واضافة ، وحذفا ، واتماما ، وشرحا ، وايضاحا ، وتغييرا ، حتى صار وجه التأليف والانشاء فيه أظهر من وجه الاصلاح ، وحتى صح ان ينسب اليه والى الموسيو (روبين) معينه عليه . وهذا الكتاب العظيم الحجم والنفع ، ناطق بفضل (ليتره) في المعارف الطبية نطق ترجمة ابقراط بمزيته في علم البيان . وقد قال العلامة النقادة (شرر) ان جميع الذين يراجعون هذا الكتاب يعجبون بما فيه من الوضوح والبلاغة والدقة ، ولا عجب فهو نموذج الاحسان في بابه .
وفي هذا القاموس حد للنفس نورده تمثيلا على علاته وهو :
النفس في علم تركيب الاجسام مجموع القوى العاقلة الادبية ، منظورا اليها من وجه اتحادها ومن حيث تنقسم الى التصور سواء كان من المواضيع الخارجية او المحسوسة . وجملة الحاجات والعواطف المستعان بها على حفظ الذات والنوع والعلائق مع سائر الانواع والخواص التي ينشأ عنها التصور والنطق والاشارة ، والقوى التي يتألف منها الفهم والارادة مقترنة بالقدرة على تحريك الجهاز العصبي والتأثير به في العالم الخارجي . وجملة هذه القوى انما هي ناتجة من حركة العصب الدماغي على مذهب اصحاب العلم الجديد الذين لا يسلمون بوجود خاصة او قوة بلا مادة ، ولا وجود مادة بلا خاصة او قوة مع اعترافهم بأنهم يجهلون على الاطلاق ماهية الخاصة والقوة من حيث هي هي ، ولا يدرون السبب في كون الحس والفكر يظهران في المادة العصبية .
ولم نأت بترجمة هذا الحد ذهابا اليه ولكن ليعلم منه رأي صاحب الترجمة من حيث انه طبيب .
وأما كتاب اللغة فهو آية (ليتره) في علوم الالسنة قيد فيه أوابد الفرنسوية ، ونظم منها الفرائد .

في نظام من البلاغة ما شك امرء انه نظام فريد

معينا مصادر الالفاظ ، مبينا مخارج الكلم ، جاليا حدود المعاني ، راجعا الى الاصول في الدخيل ، والاشتقاق في الاصيل ، مشيرا الى طرق الاستعارة، وأساليب الكناية ، مستوعبا حد اللغة وتعريف الاصطلاح ، مستوفيا صور المعاني باختلاف المباني ، موردا في كل ذلك أمثالا معينة السند مما جرت به اقلام البلغاء من امته . فجاء كتابا يقال فيه :

ما كان احوج ذا الكمال الى عيب يوقيه من العين

عرف اهل اللسان الفرنسوي قدره ، واعترف أرباب الكتابة منهم مزيته وان

لا غنى للكاتب عنه ولا بد للمحرر منه ، فتداعوا الى اقتنائه من كل صوب على كون ثمنه عاليا يعز على قصير باع المال . فهو كبير الحجم في اربعة أسفار هائلة الضخامة ، دقيقة الحرف ، لو كتبت بمثل حرفنا العربي لجاءت اربعين سفرا او تزيد . ثم اختصر الموسيو بوجان هذا الكتاب في مجلد واحد كبير ، ولخص لهذا المختصر في سفر آخر صغير ، فصار التأليف ثلاثة انواع صغيرا ووسطا وكبيرا.

ولصاحب الترجمة كثير غير ما ذكر مما لا يكاد يعد ولا يوصف كثرة وحسنا. فمن ذلك فصول نقد في الجرائد العلمية لو جمعت لكانت اسفارا ، ومطالعات ادب وبيان لو نظمت لحصلت عقودا وأشعارا ، وفكاهات تأخذ بالالباب رقة ، وتذهل الافكار احكاما . فان ما ذكرناه من آثاره الا نقطة من بحر ، وقطعة من سفر ، ونموذج يدل عليه دلالة الجزء على الكل ، ومثال يشير اليه اشارة الاثر الى العين .

* * *

غمبتا (١٦)

هو المقدام السياسي ، الخطيب الفرنساوي الذائع الصيت ليون غمبتا (١٧) . ولد بكاهور آخر تشرين الاول عام ١٨٣٨ في بيت جنوي (ايطالي) وقرأ علم القوانين فبلغ فيه المقام الاعلى ، وكان له في الامتحان القدح المعلى ، فقبل في مجمع المحامين بباريس عام ١٨٥٩ فظهرت هناك نجابته ، وعرفت في الخطابة فصاحته ، واشتهر بالجرأة في المحاماة عن أرباب القضايا السياسية بالعاصمة والولايات . خصوصا في دعوى دولة الامبراطور على الذين لم يخشوه في دعوة الناس الى اقامة تمثال للنائب بردن عام ١٨٦٨ ، وفي دعوى تلك الدولة على جريدة (إمنسيباسيون) وفي غيرهما من الدعاوي السياسية ، فطارت بذلك شهرته ، وعظمت في القلوب منزلته ، واشتهر بكونه عدو الامبراطورية الالد ، فترشح للنيابة في باريس ومرسيلية عام ١٨٦٩ ، وكان منافسوه فيهما من عظماء الرجال ، ومع ذلك اجتمعت له الاكثرية في المدينتين ، فظهر في باريس

---

١٦ ــ كتبها عند وفاة غمبتا ، على الارجح في الاسبوع الثاني من كانون الثاني ١٨٨٣ ، ونشرها في التقدم ، ثم أعيد نشرها في الدرر ص ٣٩٨ .

١ ــ ليون جامبتا : ١٨٣٨ ــ ١٨٨٢ ، محام من الجنوب ، دعا الى اسقاط الامبراطورية الفرنسية ، خطيب جمهوري ، هرب عندما حاصر الالمان باريس سنة ١٨٧٠ بمنطاد ، وأعد جيشا من مائة وثمانين الفا خلال ستة اسابيع ، وأوقع هزيمة بالالمان قرب اورليان . اصبح احد رؤساء الحزب الجمهوري ، مات فجأة سنة ١٨٨٢ . (المحرر)

على الموسيو كارنو ، وفي مرسيلية على تيارس ودلسبس والماركيز دي برتلماي. ولكن اعتل جسمه في تلك الايام فانقطع عن مجلس النواب حينا . ثم عاودته العافية فعاد اليه والتزم معارضة الدولة في اقواله وآرائه بلا اكتتام ولا حذر ، واشتهر بخطبه العنيفة في تلك المعارضة ولاسيما خطبته التي أنكر فيها الحجز على هنري رشفور في سابع شباط عام ٧٠ (وكان رشفور عامئذ من النواب) وخطبته التي اعترض فيها على جنوح الامبراطور الى جمع آراء الامة على الحرب في خامس نيسان من ذلك العام . ثم وقعت الحرب ولم يكن صاحب الترجمة من الراضين بها ، فالتزم العزلة ، ولم يشترك في الثورة التي نشأت وقتئذ عن اختلال الاحوال ، الى ان كان يوم سيدان المشهور الذي انثل فيه عرش الامبراطورية ، فعرف محل غمبتا في الهيئة الجمهورية ، فانتخب في رابع ايلول عضوا من اعضاء الجمعية الموقتة التي سميت بحكومة الدفاع الوطني ، ومن الغد عين وزيرا للداخلية . ثم توغل الالمان في بلاد الفرنسيس حتى صارت باريس على خطر الحصار ، وتبين ان الرسل الذين بعثتهم الحكومة الى (تور) لتوفير اسباب الدفاع لم يكونوا كفوءاً لذلك ، فعنّ لغمبتا ان يسير بنفسه اليهم وكانت الطرق مأخوذة فطار في قبة الهواء ، من فوق بنادق الاعداء ، حتى وقع في (تور) فأخذ في إحياء الهمم ، وبث روحه في تلك البلاد ، متهالكا متفانيا على السعي والاجتهاد ، ناهضا وحده بالمهمات ، غير متهيب من التبعات ، ضابطا بيده القوية ، زمام الداخلية والعسكرية والمالية، مشاركا في كل نوع من الاحكام والتدابير ، غير ذاهل عن سوق العساكر ، وحركات القتال ، متنقلا في البلاد والقرى ، ساهرا لا يأخذه نوم ، ملتهبا بالغيرة لا يعتريه فتور اربعة أعوام . وقد صدر عنه في خلال هذه المدة منشورات غراء تذكر ، واعمال عظيمة لا تنكر ، من ذلك منشوره الذي يخبر قومه فيه بتسليم قلعة متس ، وخيانة القائد بازين ، وهو من آيات البلاغة في رثاء الوطن ، والحث على ادراك الثأر . ومنشوره الذي يطلب فيه اجتماع الحرس الوطني على نفقة الولايات لانقاذ البلاد من مخالب الفاتحين . ومن تلك الاعمال العظيمة انه اقترض من تجار الانكليز (وبلاده في أوحال تلك الاحوال) مائتين وخمسين مليونا فرنكا . وفض مجالس الولايات مع كثرة مخالفيه في هذا الشأن ، ولمّ شعث العساكر وجيش من بقاياها جيوشا. ولما قضى الجوع بتسليم باريس أصدر مرسوما بحرمان بعض الامبراطوريين من حق الانتخاب ، فعارضته حكومة الدفاع في ذلك ، وأمرت بالغاء المرسوم ، فبقي على المخالفة حتى اتاه الموسيو جول سيمون وكان من اعضاء تلك الحكومة مأمورا بانفاذ الامر ، فاعتزل صاحب الترجمة مناصبه ترفعا عن قبول ما يخالف رأيه المذكور . وحينئذ هاجت عليه الاحقاد والضغائن ، واتسعت ألسن الطاعنين فيه، فأخذته العزة في التبرؤ مما كانوا يتهمونه به ، فأعرض عنهم انفة واستخفافا، فنطقت آراء الامة ببراءته في دوائر الانتخاب ، وكانت له الاكثرية الغالبة في كثير البلدان ، ولاسيما التي خيف عليها من الوقوع في يد الالمان فانتخب للنيابة عن

ولاية (بارين) بأكثر من ٥٦ الف راي ، وعن ولاية (هورين) بنحو ٥٣ الفا ، وعن (موزيل) بنحو ٥٧ الفا ، وعن (مورت) بأكثر من ٤٧ الفا ، وعن (بوش دورون) بنحو ٦٣ الفا . (وانتخب ايضا في ولاية سين اسيز) وفي الجزائر واوران فاختار النيابة عن (بارين) على علم بأن دخولها في حوزة الالمان يخرجه من مجلس النواب. فلما وقع هذا المحذور جدد له الانتخاب في ولاية السين ، وولاية وار ، وولاية بوش دورون .

وكانت الجمهورية وقتئذ في حالة الضعف بما كان محدقا بها من المشاكل الخارجية ، والنوازل الداخلية ، تلحظها دولة الالمان بعين العداوة ، وتنظر اليها سائر الدول الملكية نظرة الخوف ، ويكيد لها اعداؤها من الامبراطوريين كيدا عظيما . وكان رئيسها من الذين لم يقبلوا الحكم الجمهوري الا اضطرارا ، فتألفت دولته من بقايا الاورليانيين ، ومن ذوي التردد الذين لا يرومون استبقاء الجمهورية الا بمقدار ما يتعذر الرجوع الى الملكية ، فاشتد بذلك هياج الغلاة ، وكثرت وقود الفتنة ، فكره صاحب الترجمة اضرام نارها في النفوس ، فالتزم التجلد والاعتدال في مقاومة الدولة ، وانشأ بهذا القصد جريدته المعروفة المسماة (لاربوبليك فرنسيز) فصدرت على أحسن وجه من الشدة في غير عنف ، والرقة في غير ضعف ، وكان صدورها في الخامس من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧١ .

ثم وسدت رئاسة الجمهورية الى المارشال مكماهون ، وكان أخصاؤه ورجال بطانته ، وأهل مشورته من أولياء الامبراطورية ، فنشطوا لاحيائها من كل صوب ، وسلكوا الى ذلك القصد كل سبيل ، حتى اوشكت الجمهورية ان تصير على خطر منهم ، فخرج غمبتا عن حد الاعتدال في المقال ، وبذل الجهد في معارضة ذلك المحال ، وصاح بمكماهون ــ للأمة الامر فلا بد من الامتثال او الاعتزال ــ فهاجت بأقواله خواطر الجمهوريين ، واتقدت في قلوبهم نار الغضب، وكبر الامر على المرشال ، فجعل صاحب الترجمة تحت المحاكمة ، ورسم بفض مجلس النواب على امل ان يكون الانتخاب الجديد ، محققا لما يريد ، فسار غمبتا من العاصمة يضرب في البلاد ، ويطوف بمجامع المنتخبين ، ويحيي الهمم في النفوس ، خاطبا داعيا لتأييد الجمهورية في كل مكان لا يكل له لسان ، ولا يضعف له بيان ، حتى اتحدت كلمة الجمهوريين فحصلت لها اكثرية الثلاثمائة والخمسة والستين ، فاعتزل مكماهون الرئاسة ووليها الموسيو غريفي في ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٧٩ وانتخب غمبتا لرئاسة مجلس النواب ، وولاه حزب الاتحاد الجمهوري زعاماتهم ، وكان في الواقع هو المنقذ للجمهورية ، من مكائد الاحزاب الامبراطورية .

ولما صار غمبتا رئيس النواب علت مكانته علوا كبيرا ، وبات هو المشار اليه بالبنان ، فكثر حاسدوه والخائفون من استبداده بالامر لما يعهد به من علو الهمة ، وكبر النفس ، فأخذته السنة الناقدين ، وقصدته أقلام الطاعنين انه مستأثر بالامر سرا وان كان الحكم في الظاهر بيد الوزراء ، وانه يتصرف في

البلاد بما تقتضيه ارادته ويدير سياسة الدولة على محور هواه . وعاداه الغلاة من اهل الحرية كما كانت تعاديه احزاب الملكية ، ونصراء الكهنوت ، ثم اتحد اعداؤه من جميع الاحزاب على الجائه للقيام بالامر جهارا علما منهم بأن الاحكام تختلق ديباجة الرجال ، فدافعهم عن نفسه دفاعا طويلاً ، وبقي على رئاسة النواب عزيز الجانب ، قابضا على زمام الاكثرية الحاكمة ، حتى عظمت مؤاخذة الناس له على تخوفه من القيام بالامر، وتوالى انقلاب الوزارات الفرنسوية لامتناع حصولها على الاكثرية في مجلس النواب ، فاضطر غمبتا لقبول رئاسة الوزراء فتألفت وزارته اوائل تشرين الثاني ـ عام ١٨٨١ وسميت بالوزارة الكبيرة .

وكان من اعماله المذكورة وهو على رئاسة مجلس النواب خطبته في شربور يوم استعراض البوارج الفرنسوية ، فانه عرّض في تلك الخطبة بقوة الجيش الفرنسوي ، وما عليه من الواجبات ، حتى رمي باظهار الرغبة في استجاشة النفوس لادراك الثأر من الالمان ، فتناقلت جرائدهم تلك الخطبة ، وهامت من تأويلها في كل واد ، فاشتغلت بها الافكار وقتا طويلا . ومن تلك الاعمال خطبته التي استمال بها آراء النواب الى العفو المطلق عن المحكوم عليهم بالجنايات السياسية من الاباحية وغيرهم من الغلاة بعد ان كان الكثير منهم على ضد ذلك الراي . ومنها سعيه في تقرير التعليم الالزامي المجاني ، واهتمامه بتعديل القانون العسكري ، وغير ذلك من الامور الخطيرة . ويقال انه كان شديد الرغبة في الحملة التونسية ، وانه كان قوي الميل الى مشاركة الانكليز في الحملة على مصر .

ولما انتهت الوزارة اليه ، انفجرت براكين العداوات عليه ، واتسعت السنة اعدائه وحساده بما ضاقت به صدورهم من الضغائن والإحن ، ورأى من مجلس النواب فتورا عن الاخذ بناصره ، وترددا في قبول آرائه السياسية كما وجدت، فأراد ان يبلوهم ليكون على بينة من الامر ، فيحكم قويا ، او يعتدل سويا ، فذاكرهم في فض المجلس لتغيير كيفية الانتخاب ، فاجتمعت اكثريتهم على ضد هذا الرأي إيثارا للبقاء في النيابة ، فاستقال صاحب الترجمة من الوزارة قبل مضي شهرين على انتهائها اليه ، فلم يبد من آثار سياسته في تلك المدة القصيرة غير القليل الذي لا يذكر في جنب كثرة المنوي ، على انه اجتهد في اتمام الحملة التونسية ، واعداد قانون جديد للمحاكم والجندية ، ولو اتى عليه في الوزارة شهر آخر لما انفردت انكلترة في الحملة المصرية .

ثم عاد الى مقامه بين نواب الشمال اواخر كانون الثاني عام ١٨٨٢ ملتزما فيه التأني والاعتدال ساعيا في التأليف بين الاحزاب الجمهورية لتأييد آرائهم بالاتحاد ، مراقبا اعمال الدولة بعين الناقد البصير ، مدافعا عن نفسه ، متبرئا من مؤاخذات اعدائه بما اشتهر به من حسن البيان ، حتى أصيب منذ شهر تقريبا برصاصة مسدس (رفولفير) في احدى يديه . قيل كان يصلح الغدّارة محشوة فانطلقت عليه اتفاقا ، وقيل أطلقتها يد خليلة سامها هجرا وفراقا ، فآلمه

ذلك الجرح اياما ، وما كاد يشفى منه حتى ظهرت فيه علة التقرح في الامعاء فكانت هي القاضية .

وكان الرجل اسمر اللون ، ربعة ، ديجوري الشعر الا ما داخله من خيوط صبح الشيب ، مكتنزا ، عظيم الامتلاء ، قريبا من تمام السمن (في أعوامه الاخيرة) ، مصابا باحدى عينيه يجعل مكانها عينا زجاجا فلا تكاد تفرق عن العين الصحيحة ، على انه كان في مقلته الواحدة كهرباء مئات من العيون ولاسيما في مواقف الخطابة حيث يتكلم فتنبعث روحه من فيه ومن عينيه ، وباشارات يديه . وكان فيما يقال نهما يحب الطعام والمدام ، وما وراءهما من أسرار الليل، على ان النهمة لم تشغله البتة عن الواجبات الوطنية بل كان فيها على ما قال. من استعمل وقته كله قدر على كل ما يريد . فهو في ذلك مشابه لابن سينا الذي كان مع رغبته في ـ الحياة العريضة القصيرة ـ من آيات الوجود في سعة الاطلاع ، وكثرة الآثار . ووجه الشبه بينه وبين ميرابو خطيب الثورة اقرب . فقد كان ميرابو يصل النهار بالليل سعيا في الامور الجسام ، ثم يصل الليل بالنهار انهماكا في الصبابة والمدام ، وكان غمبتا فيما يزعمون يصرف نهاره بالجد والاهتمام ، ويميل مع هوى النفس تحت جنح الظلام . وكان ذاك حريصا على قضاء الشهوات ، مع الحرص على قضاء الواجبات ، ولم يكن هذا ممن تلهيهم النهمة ، عن اداء حق الخدمة ، والاول هو المظهر للثورة الفرنسوية بثبات جنانه ، وطلاقة لسانه ، والثاني هو المؤيد للجمهورية بحسن بيانه ، وقوة برهانه . وقد كان ميرابو خطيبا قوي العارضة في المعارضة ، جهوري الصوت جهيرا ، تلتهب روحه بالكلام ، كما تذوب الشمعة في الضياء ، وكان غمبتا خطيبا شديد البادرة في المناظرة ، هائل الصوت ، عظيم الخلق ، تتجسم روحه في المقال ، كما يتجسم التصور في الخيال . ومات ذاك وقد أيد الثورة ، ووفى حقها عليه ، فلم يبق بها من حاجة اليه ، بل كانت من قوة شوكته على خطر ، ومات هذا وقد رفع منار الجمهورية ، وقام لها بواجب الخدمة ، فلم يعد بقاؤها متعلقا بوجوده بل صار أولياؤها منه على حذر . والرجلان من آيات الله في الخلق بلاغة وعزما ، واقداما وحزما ، فتبارك الخالق العظيم .

ولا نتوسع الان في الكشف عن آراء صاحب الترجمة ، وبيان طريقته السياسية في الامور الداخلية والخارجية ، وما تم له من ذلك وما تعذر عليه ، وما يعز من بعده وما يمكن الوصول اليه ، فذلك مما يفرد له فصل براسه بل فصول . ولا نزيد في وصفه خطيبا مقداما على ما أورده التقدم من قبل حيث قال : هو القائل للامبراطور انت العدو اللدود لم يخش نسره منشبا اظفاره في القلوب ، حاجبا بجناحيه أشعة الانوار ، عن البصائر والابصار . الراقي بمركبة الهواء رسولا الى حامية القلاع لم يحذر بنادق العدو وهي موجهة اليه ، مطلقة عليه . الصائح بالمارشال مكماهون وقد اراد بالدولة شرا لا بد من الامتثال او الاعتزال . الصادع بما أمرته الوطنية ابان الانتخاب . الجامع لكلمة اهل الجمهورية على اختلاف الشيع والاحزاب ، القائل غير تارك لأحد مقالا ، الفاعل

غير مبق لناقد مجالا . الخطيب الذي تهتز له المنابر ، وتنقاد اليه كلمات السحر متسابقة آخذا بعضها برقاب بعض . يقف وقد أحدقت به الإبصار ، وحومت عليه الافكار ، تلتمس منه مطعنا ومحل اعتراض ، فيجيل عينه (الكريمة) فيهم ، ويلقي على المنبر يسراه ، ويرفع اليهم يمناه ، وقد سكن المتحركون ، وسكت المتكلمون ، وانصت المتفمفمون ، فيتدفق بالكلام تدفق السيل ما بين الجبلين وقد صار المعترض مريدا ، والنافر اليفا ، والعدو صديقا ، فما سمعنا قبله الرعد ناطقا ، ولا رأينا الليث متكلما ، ولا شهدنا الجبل متحركا ، ولا انحصر البحر في منبر تسمع منه حركة هياجه ، وتبصر فيه تلاطم أمواجه . ولله في الخلق آيات .

وقد توفي صاحب الترجمة اول العام الجديد ، وكان الاحتفال بجنازته على نفقة الدولة في السادس من الشهر وذهب مأسوفا عليه في قومه ، مذكورا عند سائر الاقوام ، فانه كان في عنفوان العمر وقوة الحياة .

وكنت لو طال فيها عمره سنة ... اقول للدهر ارخ مات غمبتا

* * *

مظاهر الرجال (١٨)

ان رزء فرنسا بغمبتا لرزء عظيم . فقد كان الرجل مقداما نافذ الكلمة ، قوي الحزب ، واسع الاطلاع على الاحوال الاوروبية ، بصيرا بأمور السياسة الداخلية ، شديد الحب لوطنه ، يجرأ على الاعمال العظيمة، ولا يتهيب التبعات، وهي من الصفات اللازمة الضرورية في الذين يتولون أمور السياسة ، فمن وجدت فيه كان هو الفعال ، ومن تجرد عنها لم يكن الا قوالا وان جمع سائر ما ذكرنا لغمبتا من الصفات .

ولكن الرزء بالرجل الواحد وان كان عظيما ، لا يؤثر في البلاد الحرة التي لا تقيد فيها الافكار ، ولا تحجب مظاهر النفوس ، ولا يتوقف ظهور القدر على اقبال بعض الناس كما تؤثر في البلاد المقيدة التي تنحصر فيها قوى المجموع بالافراد ، وتجتمع ارادات الكل بالآحاد ، فان العظماء من الرجال لا يظهرون في مثل هذه البلاد الا مع طول الاختبار الموجب لحصول الثقة التامة من جانب صاحب الامر ، فلا يكون للرجل منهم ظهورا ، الا اذا انعطف الآمر اليه . ولا يحصل هذا الانعطاف الا في الانحراف عن الرجل السابق الا في النادر الذي

---

١٨ ـ مقالة اخرى عن غمبتا ، نشرها في التقدم ، ثم اعيد نشرها في الدرر ص ٤٠٦ .

لا يقاس عليه ، فظهور احد الرجال في تلك البلاد لا يكون الا بخفاء من تقدمه على حد قولهم ما نبغ احد من قبيلة مجيد الا ذهب من كان قبله وانشدوا :

اذا مقرم منا ذرا حد نابه تخمط منا ناب آخر مقرم

وليس الامر كذلك في البلاد الحرة ، فان الحوادث هي التي تظهر الرجال في تلك البلاد . وقد اتت الثورة على بلاد الفرنسيس وليس بها احد من الرجال المعروفين ، فظهر فيهم السياسيون الذين حيروا الافكار ، والخطباء الذين سحروا الالباب ، والقادة الذين ردوا ممالك اوروبا المتحالفة بالدهشة والخذلان. ولولا تلك الثورة لما ظهر ميرابو (١٩) ، ولا دانتون (٢٠) ، ولا روبسبيار (٢١) . ولولاها لما عرف كلبر ، ولا بونابارت .

نعم ان الاختبار ومعاناة الاعمال في رجال السياسة ، الزم منه في رجال الخطابة والقتال ، ولكن اشتراك الامم في سياسات الممالك قد وسع لافرادهم مجال الافكار ، ويسر لهم اسباب الاختبار ، فكثر فيهم العارفون بالامور ،

---

١٩ ـ ميرابو ، الكونت دي هونريه ، جابرييل ركيني (١٧٤٩ ـ ١٧٩١) Mirabeau (H.G.R.) سياسي فرنسي ، لمع اسمه في الثورة الفرنسية ، صاحب الجملة الشهيرة في الجمعية الوطنية : «لقد جئنا هنا على أسنة الرماح ، ولن نخرج الا على أسنة الرماح» . توفي سنة ١٧٩١ بسبب الارهاق (الملذات والعمل) ودفن في مقبرة العظماء ، ثم سحب جثمانه سنة ١٧٩٢ بعد ان اكتشفت مذكرات سرية أرسلها للملك . (المحرر)

٢٠ ـ دانتون ، جورج جاك : Danton, Georges Jaques (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤) سياسي فرنسي ، درس القانون ، وتعاطى المحاماة ، اشترك في الثورة الفرنسية . انتخب عام ١٧٧٩ رئيسا لاحد الاحياء . أسس عام ١٧٨٥ النادي الديمقراطي ، ثم اصبح وكيل النائب العام في تشرين الثاني ١٧٩١ . اصبح الرئيس الفعلي للحكومة الثورية من اغسطس الى آخر سنة ١٧٩٢ . ترافع من اجل اعدام الملك . هاجمه أنصار روبسبير ، وأعدم مع اربعة عشر من أنصاره . (المحرر)

٢١ ـ روبسبير ، ماكسيميليان : (١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) :

احدى الشخصيات الكبرى في الثورة الفرنسية . درس القانون وتعاطى المحاماة . انتخب عضوا عن العامة في مجلس طبقات الامة (١٧٨٩) . صار زعيما لنادي اليعاقبة . انتخب عضوا في المؤتمر الوطني سنة ١٧٩٢ . ولمع اسمه . شارك بمشاركة فعالة في سحق الجيروندين ، واختير عضوا بلجنة الامن العام (يوليو ١٧٩٣) ، فأصبح من اهم قادة الثورة ، بدأ حملة ارهاب كبيرة (١٠ يونيو ١٧٩٤) ، وأقام «عبادة العقل» ، قضى على كثير من خصومه .

ثار ضده معظم اعضاء المؤتمر الوطني ، وحوكم وأعدم (٢٨ يوليو ١٧٩٤) . (المحرر)

القادرون على النهوض بأعباء السياسة ، المبصرون لما وراء حجب المواربة . وناهيك بما في اصحاب جرائدهم المهمة من اصالة الرأي ، وحسن النقد ، وسعة العلم بأحوال الدول . فليست معاناة الامور لازمة في ظهور رجال السياسة منهم ولزومها في ظهورهم بين الذين كانت السياسة فيهم طريقة لا يصل الى الحقيقة منها الا من تقرب من حضرة الآمر ، وتم له الكشف عن غوامض اسرارها ، وحصل في مرتبة الفناء بوجودها ، فان لم يكن كذلك رده مقتضى الحال ، بمثل قول من قال :

اتيت بيوتا لم تنل من ظهورها   وأبوابها عن قرع مثلك سدّت

فموت غمبتا والحالة هذه في امة الفرنسيس لا يضعف قوة الجمهورية ، ولا يفسد تدابيرها السياسية ، ولا ينقص من عسكريتها جنديا ، ولا يضيع من برنامجها سنتيما ، ولا يمنع من ان تكون في مقدمة الدول الاوروبية غنى في الرجال والمال .

نعم ان وفاة هذا الرجل تؤثر على الغالب في طريقة السياسة الفرنسوية بالنظر الى الشرق ، فتصير ان شاء الله الى مودة الدولة العلية اقرب، ولمصالحها العمومية أحفظ ، وعن ترك محالفتها أبعد ، ولكن هذا يجلب لنا السرور ولا يوجب الكدر بشيء للامة الفرنسوية .

ولقد سرّنا ما رأيناه من انصاف جريدة (الوقت) التركية الغراء في تأبين غمبتا ، وذكر مناقبه السياسية بعد الاشارة الى ما سبق له من المخالفة للسياسة العثمانية . وهذا دليل على حصول حرية النقد لجرائدنا الخطيرة من مكارم سيدنا ومولانا المعظم ، وحرية النقد مؤدية الى العدل والانصاف .

* * *

سياسة غمبتا (٢٢)

السياسة عند أربابها قسمان كليان احدهما يتعلق بالامور الداخلية وهو مختص بأحوال المملكة وأحكامها وتدابيرها المالية ، والعسكرية ، وما يلحق بكل ذلك من توزيع الاعمال ، وتأييد العدل ، وحفظ الثروة ، وصيانة القوة . والآخر يتعلق بالامور الخارجية وهو مبني على سياسات الدول ، وتدابيرها العمومية ، وما يتبع ذلك من المحالفة ، والمخالفة ، والموالاة ، والمعاداة ،

٢٢ ـ نشرها في التقدم ، ثم أعيد نشرها في الدرر ،ص ٤٠٨ .

والمسالمة ، والمحاربة .

ولا يسع المقام ايضاح سياسة غمبتا في القسمين جميعا بما فيهما من الابواب والفصول: فنحن لذلك نقتصر في هذا المطلب على بيان سياسته الخارجية من بعض الوجوه ، وموعدنا في ايضاح القسم الاول سنوح الفرصة واتساع المجال .

وقد كانت الغاية المقصودة بالذات في سياسة غمبتا الخارجية ، اعادة فرنسا الى مقامها السابق في عالم السياسة من طريق محالفة الدول الغربية ولاسيما دولة انكلترا .

وقد اتى على فرنسا بعد الحرب الالمانية حين من الدهر لم يكن لها في الدول الاوروبية نصير يستعان ، ولا خليل يؤمن في غير الزمان ، بل كانت الروسية ، والمانيا ، وأوستريا ، على وفاق واتحاد . وكانت ايطاليا منحرفة عن فرنسا — كما ينحرف المستقوي بعد الضعف عمن كان سببا في قوته فرارا من ثقل الامتنان — وكانت انكلترا معتصمة بحبال منافعها ، مستوثقة بعرى مصالحها ، محافظة على الاثرة في كل شأن . ففدت فرنسا منفردة تحالف فيها الناس والزمان ، فكانوا حيث كان ، والانفراد في السياسة ضرب من الخذلان . فلما سقطت وزارة بيكنسفيلد (٢٣) في انكلترا وقامت مكانها وزارة اهل الحرية (٢٤) ، واعرضت دول الشمال عن دولة ايطاليا فلم يدخلنها في المحالفة الثلاثية ، فتح لفرنسا باب الامل في محالفة هاتين الدولتين ، فانصرفت همة غمبتا الى هذا القصد ، فواثق انكلترا على موافقتها في السياسة المصرية ، متوسلا بذلك لمحالفتها في سائر المهمات السياسية ، واظهر لايطاليا رغبته في اتحاد دول الغرب ، فصار كثير من رجالها على هذا الراي . ثم رزئت الروسية بالاسكندر الثاني فانتهى الامر الى القيصر المالك الآن (وهو ذو ضلع معروف مع الامة الفرنسوية) فانفتح لغمبتا باب الرجاء بنقض المعاهدة الثلاثية ، وجاءت الحوادث وفاق مأموله فصارت المعاهدة المذكورة مثنوية بين المانيا وأوستريا ، وغدت الروسية منفردة عنهما ، محاذرة منهما ، فاستمالها غمبتا الى دولته ما استطاع، فكان لفرنسا في اوروبا ثلاثة حلفاء اقوياء : حليف تعتقد مودته ، وآخر ترجو موازرته ، وثالث تأمن معارضته ، فخرجت بذلك من هاوية الخذلان .

ولا ريب ان غمبتا كان من اشد قومه رغبة في استرجاع الالزاس واللورين،

---

٢٣ — بيكنسفيلد : (١٨٠٤ — ١٨٩١) Earl of Beaconsfield, Disraeli, Benjamin دسرائيلي ، بنجامين ابن مؤلف يهودي تنصر . انتخب للبرلمان سنة ١٨٣٧ . قاد دعاة الحماية الاقتصادية . اصبح رئيس الوزراء . المؤسس الثاني لحزب المحافظين ، وبفضل مبادراته اشترت بريطانيا اربعين بالمائة من قناة السويس . له مؤلفات . (المحرر)

٢٤ — اي حزب الاحرار الانكليزي . (المحرر)

ومن اضعفهم صبرا عن ادراك الثأر من الالمان ، ولكن قد وهم الذين رموه بالميل الى مجاهرتهم بالحرب ابتداء ، فانه كان محبا عاقلا لا يذهل عن عواقب الامور، ولا يخفى عنه ان قوة فرنسا العسكرية وان كانت كافية في رد هجمات العدو ، الا انها غير وافية بالهجوم عليه ، ولذلك لم يخطر ببال غمبتا مهاجمة الدولة الالمانية ، وانما كان همه اضعاف قوتها ، بتبديد ثروتها ، لتعجز عن تكاليف الجنود فتنقص قوتها العسكرية او تكون هي البادئة بالحرب . فكان يجد في تكثير الجنود الفرنسوية، وتوفير آلات القتال معتمدا في القيام بتكاليفها على ثروة الامة ، وغنى الدولة ليتحتم على المانيا مجاراته في هذا السبيل على ما بها من عجف المال ، وسوء الحال ، فتضعف من حيث تلتمس القوة ، ولا تقوى على الصبر فما يمر غير زمن قليل حتى يمتنع بقاؤها على تلك الحال ، فتلتمس منه مخرجا فيكون ذلك مدخلا للدولة الفرنسوية فيما تريد .

وكان غمبتا مناصرا لليونان فيما اقترحوه على الدولة العلية بعد حرب الروس ومؤتمر برلين ، حتى قيل انه ارسل اليهم نفرا من قادة الفرنسيس لتعليم عساكرهم اساليب الحرب ، وانه اعانهم على شراء كثير من البنادق من معامل الدولة الفرنسوية (وكان ذلك موضوع جدال عنيف للغاية في مجلس نواب الفرنسيس) وقد بدا منه غير ذلك مما يشعر بمخالفة الدولة العلية ولاسيما في مسألة مصر ، ولكن لم تعلم حقيقة قصده بهذه المخالفة التي هي على ضد موجب التقليد القديم ، والمصلحة الظاهرة في السياسة الفرنسوية ، الا ان يقال انه اراد بها احياء الفتنة في مسألة الشرق لتلهو بها الدول الشمالية وفيهن دولة المانيا فتتوسل فرنسا بذلك لما تضمر من الانتقام .

وهنا يرد علينا ان رأي استرجاع الالزاس واللورين ، وادراك الثأر من المانيا، غير مخصوص بغمبتا من دون سائر الفرنسيس فلا تصح نسبته اليه ، ولكن هذا الاعتراض غير مصادف محلا مما نحن فيه ، فاننا لم نقل بسلامة الاختراع في سياسة غمبتا الخارجية ليؤخذ علينا هذا القول ، ولم نجهل عموم رأي الانتقام في أمة الفرنسيس ليرد على قولنا ذلك الاعتراض ، وانما ذكرناه في الكلام على سياسة غمبتا اختصاصا لثلاثة وجوه تميزه فيه عما سواه . الاول ان غمبتا كان في مقدمة المجاهرين بهذا الرأي كما تدل على ذلك اقواله ولاسيما خطبته في شربور . والثاني انه كان يسلك اليه سبيلا مخصوصا به معلوما . والثالث انه كان على يقين من امكان اخراجه الى عالم الفعل في وقت قريب على خلاف ما يظنه كثير من رجال السياسة الفرنسوية . وفضلا عن كل ذلك فانه كان جريئا ، مقداما ، لا يبالي بظواهر الاخطار واهل الجراة والاقدام الحقيقي في الناس غير كثير .

وما يجهل احد من الناظرين في المسألة المصرية ان غمبتا كان من نصراء التدخل الاجنبي ، ومن اعداء الحزب الوطني في مصر ، بل كان لا يعتقد بوجود هذا الحزب فيها يدل على ذلك تأييده للمسيو دبلنيار وغيره من انصار التدخل، كما يثبته سعيه في عزل البارون دي رنك قنصل دولته الاسبق في مصر ،

ويظهره كلام احزابه في مجلس نواب فرنسا كما توضحه اقوال جريدته المعروفة (لاربوبليك فرنسيز) ومن اجل ذلك بقي على موافقة انكلترا في سياستها المصرية من يوم تأليف الوزارة المختلطة ، الى يوم اطلاق المدافع على ثغر الاسكندرية ، فلم يتردد في امضاء البلاغ الذي اصدرته انكلترة وفرنسا الى النظارة العرابية، والعصبة العسكرية على صورة تشبه ان تكون انذارا بالحرب . قيل انه كان هو المنشيء لذلك البلاغ ثم أعد فريقا من الجيش لمشاركة الانكليز في الحلول بمصر، ولكن خالفته في ذلك آراء نواب الامة ، فانتقض الامر عليه وبقيت العساكر الفرنسوية في مواقفها ، وانفردت انكلترا في الحملة المصرية ، وعسى ان يكون كره شيئا وهو خير لفرنسا ومصر معا .

***

مقتل القيصر (٢٥)

قتل الاسكندر الثاني قيصر الروسية . أخذه العدميون اغتيالا على غرة من الخفراء ، بعد ان خفيت نارهم واحتجبت آثارهم، حتى خيل للناس ان قد انصدع امرهم واندفع شرهم بما نالهم من أليم العقاب . وما انصدع الامر ولا اندفع الشر ولكن قد يلتئم الجرح على دغل :

وقد تنبت الخضراء في دمن الثرى　　　وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وبيان هذا الحادث الخطير على ما ورد بالتلغراف الى قنصلية الروس في مدينتنا ، ان القيصر كان عائدا من معرض الجيش يوم الاحد الاخير في الساعة الثانية من بعد الظهر ، فألقيت في عربته قنبلة فنزل منها ولم تصبه بسوء فرمي بقنبلة اخرى بين رجليه فكان لها اثر تقشعر منه الابدان . ثم حمل الى القصر فاقد الرشد مسحوق الساقين ، ثم لم يع على احد حتى توفاه الله في الساعة الثالثة ونصف . انتهى مفاد التلغراف الرسمي .

ولم تأت بعد تفاصيل الخبر وما ترتب عليه في الروسية ، فنحن لذلك نقتصر الان على ترجمة حال القيصر القتيل .

فهو الاسكندر ابن القيصر نقولا من آل رومانوف . ولد في التاسع والعشرين من شهر حزيران عام ١٨١٨ . ولم يكن والده وقتئذ ملكا ، وانما كان الملك لاخيه قسطنطين . وقد عنيت والدته الاسكندرة بتربيته . وكانت شقيقة فردريك

---

٢٥ ــ نشرت في التقدم ، العدد ٢٠ ، تاريخ ١٧ آذار سنة ١٨٨١ .

غليوم الرابع ملك بروسية ، فوسدت امر تهذيبه الى الجنرال مردر الالماني والشاعر جوكفسكي الروسي . ولكن والده تولى كبر ذلك الامر بنفسه فسار به على سننه المختار للملك ، وألبسه لباس الجند ، وعوده متاعب الحياة الدنيا . ولما بلغ السادسة عشر من العمر عد في البالغين ، وولي قيادة الرامحين من الحرس ، وزعامة القزف ورئاسة ياورية القيصر فضعف بدنه عن احتمال هذه المتاعب جملة فرسم له بالسفر الى المانيا تنزها واستشفاء ، فتجول في تلك البلاد ، وأقام حينا بامارة (هس درمساد) فعلق الاميرة ماري كريمة الفرندوق لويس الثاني فخطبها وعاد من ثم الى وطنه .

وكان له اسم الرئاسة في مدرسة فنلند العالية من حادي عشر كانون الثاني عام ١٨٢٦ ولكنه لم يتول امرها قبل البلوغ . ولما تزوج صار من همه استمالة اهل فنلند الى الروسية ، فأنشأ لذلك منبرا للغتهم وأدبها ، وتولى شفاعة جمعية علمائهم ، وبذل من ماله نفقات علمائهم الرحالين . وفي خلال ذلك تولى ادارة المدارس العسكرية فحسن فيها سعيه وظهر منه الاثر النافع فأثنى عليه القيصر ثناء جميلا .

وفي سنة ١٨٥٠ تجول في الروسية الجنوبية وقاتل القوقاس . ويقال انه لم يكن على رأي والده في مجافاته للدول الاوروبوية وفي حرب القرم . ثم توفي والده القيصر في الثاني من شهر آذار عام ١٨٥٥ فصارت اليه الدولة ، بما كان بها وقتئذ من المشاكل والنوازل ، فأكمل الحرب اضطرارا ، ولم يأل في التماس السلم جهدا ، حتى اذا تم له فتح القرم بعد فقد سباستبول ، أرسل بعض وكلائه الى باريس مصرحا بميله الى السلم تفرغا للامور الداخلية .

وكان قد رأى في اسفاره السابقة ما ينشأ من البلاء والخسف عن فساد العمال والمأمورين ، فلما صار اليه الملك توجهت عنايته الى اصلاح الاحوال وازالة الفساد ومعاقبة الجائرين والخائنين من العمال ، ثم صرف همته الى المعارف فرفع منارها ووسع نطاقها وجعل المدارس تحت حمايته .

وفي سنة ١٨٥٦ عفا عن جالية البولونيين ، وأخذ في اصلاح احوالهم بانشاء المدارس واقامة المجالس مصرحا في عرض ذلك بأنه شديد الحرص على الوحدة الروسية ، يحسن الى البولونيين ما داموا على الطاعة ، فان حاولوا الشقاق انزل بهم البلاء . ثم كانت الثورة البولونية عام ١٨٦٢ وانتهت بالغاء مملكة بولونيا عام ١٨٦٨ .

ومن اهم ما يذكر للقيصر الاسكندر عنايته بتحرير الارقاء في بلاده الوسيعة من ثالث شهر آذار عام ١٨٦١ اصدر امره بذلك على رغم المخالفين ، وجعل الرقيق فلاحا معروف الحقوق ، وهي مأثرة تثبت له في التاريخ ذكرا جميلا .

اما آثار سياسته الخارجية فمنها انه أتم حرب القرم التي جناها والده عليه، واعلى شأن الروسية في اواسط آسيا ، ونسخ معاهدة باريس فيما يتعلق بمنع سفن الروس من سلوك البحر الاسود عام ١٨٧٣ ، وشهر الحرب على الدولة

العلية في ٢٤ نيسان عام ١٨٧٧ ، وعقد في سين ستيفانو المعاهدة التي نعلم ، ثم رضي بما تقرر في مؤتمر برلين ورسم في هذه الايام بالحملة على التركمان .

وكان يوصف بالدقة والثبات في سياسته ، ويعرف بالميل الى الدولة الالمانية بما بينه وبين الامبراطور غليوم من صلة الوداد والنسب .

وما نذكر له في ايامه الاخيرة ابطال الحجر على الملح في البلاد الروسية والرغبة في اصلاح شأن البولونيين والمساواة بينهم وبين سائر الرعية .

وقد حاول احد الناس قتله عام ١٨٦٦ وحاوله رجل آخر عام ١٨٦٧ ، وطلبه العدمية في هذه الاعوام الاخيرة يرومون اغتياله فأخفقوا غير مرة الى ان اصيب يوم الاحد الماضي على ما تقدم بيانه .

واتصل خبر مقتله ببيروت مساء الاثنين وجاء بالطريقة الرسمية صباح الثلاثاء فنكست له ألوية الحكومة واعلام القنصليات ، ثم أقيمت الصلاة صباح هذا اليوم في بيعة الارثوذكسيين على ذكر القيصر الفقيد فكانت البيعة حافلة بالناس يتقدمهم القنصل الجنرال بلباس الحداد .

ثم جاء التلغراف من بعد ذلك منبئا بارتقاء الامير ولي العهد الى سدة ابيه باسم الامبراطور الاسكندر الثالث .

نتساءل اي اثر يكون لوفاة القيصر في الروسية خصوصا وفي عالم السياسة عموما . ثم تمر بنا مسائل الاصلاح والشورى ونوازل العدمية والبولونيين من الجانب الاول ومشاكل السياسة الشرقية ومصاعب الحروب الآسيوية من الجانب الثاني ، فنعلم ان الاسكندر الثالث قد ولي الملك والشوك محيط بورده والنحل دائر بشهده .

ونذكر بعد ذلك ما اشتهر من رغبة الامير الجديد في الاصلاح وميله الى الحرية فنأمل من ذلك حصول الامنية للروس وظهور بلادهم بمظهر جديد من المدنية .

ثم نستجلي ما عرف به من الميل الى الراحة والسكون الى السلم والحرص على التفرغ لاقامة امور الداخلية فنرجو ان يكون من اعداء الحروب ونصراء السكينة.

ويبدو لنا من خلال ذلك خوف الالمان من انحرافه عنهم وطمع الفرنسيس في ميله اليهم ومن ورائهم أحباء السلم بين المخافة والرجاء .

والرجاء خير ما تتغذى به الارواح وتتروح به النفوس فلا غرو ان نكون من ذويه .

بل واقع الامر وظاهر الحال ملزمان بالرجاء فقد علم القيصر الجديد ان العنف لا يصلح ثائرة القلوب فلا غرو ان يأخذ بأسباب الرفق ويعالج داء الفتنة بدواء الاصلاح . ولم يذهل عما يلم بالمحارب وان فاز بالنصر ، فلا بدع ان يسلك الحكمة سبيلا ويتخذ السلم دليلا .

وفق الله أولي الحل والعقد في كل مكان ، لما تعلو به كلمة العدل ويتأيد امر الانسانية .

حول التعليم

التعليم الالزامي (١)

«وهو سفر غير تام شرع الفقيد في طبعه ببيروت عام ١٨٨١ ردا على منهب الآباء اليسوعيين في التعليم الالزامي وكان اذ ذاك محرر جريدة التقدم للمرة الثانية . فوقعت بينه وبين اهل صحيفة البشير مناظرة في هذا الموضوع فأفرد لها هذا السفر . ثم جاء مصر على اثر انقلاب الوزارة في ذلك العام فغادره غير تام» (٢) .

قال :

«لا تكون السجون فارغة الا اذا امتلأت المدارس ولا تمتلىء المدارس الا اذا حصل التعليم الزاميا» .

تمهيـــد

من رام الحقيقة لم ينصرف عن وجهة الحق ، ولم ينحرف عن مسلك العدل

---

١ ـ من مقالاته ، اعيد نشره في الدرر ص ٢٤٤ ـ ٢٦٨ .

٢ ـ تقديم المقال في الدرر .

ولم ينطق عن هواه ، ولم يمل مع ضعف النفس . ان الحقيقة حقيقة لا يمسها الا المطهرون من كل دنيئة .

ونحن نلتمس الحقيقة فيما نقول لا نشوبها بسفسفة القول ، ولا نطلي بها على الناس محالا ، وانما نظهرها كما خلقت نورا ونارا تضيء أبصارا ، وتبهر ابصارا .

وموضوع بحثنا في هذا الجزء الزامية التعليم من الوجه الذي قرت عليه الاكثرية الغالبة في مجلس نواب الفرنسيس ، رابع وعشرين شهر كانون الاول عام ۱۸۸۰ باتفاق ۳٥۱ رأيا يخالفها ١٥٢ .

وهو : ان يكون التعليم الابتدائي واجبا على الآباء لولدهم من الذكور والاناث من السادسة الى الثالثة عشرة من سنيهم يلقى اليهم في المدارس الابتدائية او الانتصافية سواء كانت هاته المدارس ميرية عمومية او حرة خصوصية وفي نفس بيوت الآباء يلقيه الوالد نفسه او من يختاره لذلك الشأن (البند الثالث من قانون التعليم الالزامي) .

وان يكون هذا التعليم شاملا للتهذيب الادبي والمدني. والقراءة والكتابة واللغة ومبادىء البيان الفرنسوي ، والجغرافية خصوصا جغرافية فرنسا . والتاريخ ولاسيما تاريخ فرنسا الى هذه الايام . وبعض الاصول الضرورية من علم القوانين وفن تدبير المنزل . ومبادىء العلوم الطبيعية والرياضية ، وكيفية استعمال هذه المبادىء في الزراعة ، وحفظ الصحة ، والمهن والاشغال اليدوية ، وادارة الآلات في اهم الصناعات . واصول الرسم والتخطيط والموسيقى . والتمرين البدني. والتمرين العسكري للذكور واشغال الابرة للاناث . (البند الاول من القانون المذكور) .

فقد رأينا ذلك في جرائدهم فطاب لنا نشره فأذعناه مستحسنين راجين ان يكون الفرنسيس قدوة لسائر الناس في مأثرة التعليم الالزامي فكبر ذلك على صحيفة البشير لامر يعلمه الله — والراسخون في العلم بأحوال صحيفة البشير — فشدت علينا النكير وسوأتنا وخطأتنا كثيرا ان التعليم من وجه الالزام ظلم وكفر وفحش وجهالة لا يحق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الامة ولا فائدة فيه لاحد من الناس ، بل هو البلاء العميم يذهب بحرية الوالدين ويفسد الباب الاولاد وينقص من عدد العارفين ، ويزيد في عدد الجهلاء . (العدد ٥٤٤ من البشير) . فتعين علينا بيان حقية الالزام في التعليم ، وايضاح مزيته . فأقبلنا على ذلك في الصحيفة نجلوه من اوضح أوجه البيان ، ونثبته بالدليل والبرهان من النص الصادق والرقم الذي يكاد ينطق بغير لسان . فامتنع الرد على البشير من هذا الوجه فلاذت بجانب التحريف والتأويل ، وصرفت بحثنا العلمي الى وجهة العقيدة والدين حصرا لا يخفى عن البصير ، وعيا ما كنا له من قبل متوقعين . ثم انبعثت علينا بما يأباه الادب فالتوى الامر ، وانقلب الموضوع ، وصارت المناظرة منافرة ، والجدال نزالا فراينا ان نفرد لهذا المبحث الادبي جزءا براسه نبث به رأينا فيه مستوعبين آراء ذوي النقد ، وتقاويم اهل الاحصاء

على سبيل التقرير العلمي مجردين كل ذلك من سفاسف المجارزة ، واعراض المناقشة ، ضنا بجوهر الحقيقة ان يكون عرضة للقول الهراء ، ومضغة في أفواه الجهلاء .

وهذا أوان الشروع في البحث بحول الله .

حقية الزام التعليم

الوالد مأمور من قبل طبيعة الوجود ، بحفظ المولود . والانسان من حيث انه حيوان ذو وجود بدني حسي ، ومن حيث انه ناطق ذو وجود عقلي معنوي فمن دعاه من حيز القوة الى جانب الفعل فقد لزمه حفظه في الحالين .

فكما انه يجب على الوالد ان يطعم الولد ويكسوه ويقيه شر العوارض الطبيعية الى ان يشتد منه الساعد ، ويستغني عن المساعد . كذلك يجب عليه ان يغذي عقله بالعلم والادب ، ويصون لبه عن مفاسد الجهل ، الى ان تنمو مداركه ويبلغ حد العرفان .

فالعلم من حق الولد والتعليم من واجبات الوالد .

والحكومة هي الهيئة المختارة لنصر الضعيف ، وانصاف المظلوم ، وحماية العاجز ، وحفظ الحقوق ، والدعوة الى الواجبات . وهي مأمورة من قبل وجودها الطبيعي بصيانة الوطن ، واعلاء شأنه ، وتسديد أمور الامة وتنظيم احوالها بتوفير اسباب الراحة وتمهيد طرق السعادة ، وغير ذلك مما لا يتم ولا يحصل الا بانتشار انوار العلم ، واضمحلال ظلمات الجهل . فاذا وجد من لا ينهض بما وجب عليه ، ومن يهمل الشأن الذي لا تكون المدنية ولا تحصل الراحة الا به ، فمن حق الحكومة ان تدعوه اليه ، ومن حقها ان تجبره عليه .

قال الحكيم فرنك الفيلسوف الفرنسوي المشهور في قاموسه الفلسفي ما معناه ليست واجبات الحكومة بمقصورة على حصر الشر في مكانه ، وعقاب مرتكب الشر . بل يجب على الحكومة ان تسعى في سبيل الخير فتنشيء المنافع الوطنية ، وتعنى بكل ما يوجب نماء قوة الانسان ، ويضمن له السعادة وعلو الشأن ، وكل ما يؤول الى اعلاء كلمة الانسانية .

فالزام الوالدين بتعليم ولدهم من حق الحكومة . وقد تبين ذلك للحكومات المستنيرة فسكنت اليه ، وحرصت عليه . فتقرر في بروسية عام ١٧٩٥ . وفي فرنسا على عهد حكومة المواثقة عام ١٧٩٢ . وفي سويسرة وبلجيكا وأكثر الولايات الاميركية واسوج ونروج وايطاليا والدولة العلية وامارة باد وانكلترة وأوستريا والبرتغال والدنيمرك واليونان وباواريا وسكسونيا وورتمبرج . واعيد تقريره أواخر العام السالف في بلاد الفرنسيس وكان له حيثما وجد آثار تذكر وتشكر كما سنبينه فيما يجيء .

الا ان اعداء الاصلاح لا ينظرون اليه من وجه الحق والمنفعة العمومية ولكنهم يكرهون النور من حيث يجيء ، ويخافون العدل والحق من حيث كان ، ولذلك وجد للتعليم الالزامي اعداء الداء يستنكرون منه ،ويستنفرون القلـــوب عنه . يزعمون انه مخالف للحق الطبيعي ومغاير للحرية الشخصية بدعوى ان الوالد حر في امر ولده يتصرف فيه كيف شاء انعلمه كان له الفضل والمنة، وانأبقاه في ليل الجهالة فما عليه من سبيل. وما يعلمونبل يعلمونويتجاهلون انالحرية تنتهي عند بداءة الحق العمومي ، وانها عبارة عن حق القيام بالواجبات ليس الا . فكلمـــا تعدى ذلك منها فهو عسف واستبداد . فانه ليس من الحرية الشخصية سرقة مال الجار ، واغتصاب ملك الضعيف ، ونقض ميثاق العاجز ، فمن فعل ذلك فقد اعتدى ، وجار ، وخان ، وانتزأ .

قال المسيو جول سيمون في كتابه المسمى بالمدرسة : الحرية نبتت فـــي المدارس ونمت . وبالمدارس تتأيد الحرية وتعم . والحرية والمدنية متلازمتـــان متضامنتان .

وبين الوالد ومولوده ميثاق طبيعي عقد يوم الزواج ، وسجل يوم النتاج . ان الوالد يحفظ الولد في وجوده الحسي والمعنوي فيطعمه ويكسوه ويؤدبه بالعلم والمعارف ويقيه من العوارض في الحالين حتى يحصل له من القوة ما يغنيه عنه وعن سائر الناس . وان الولد يطيع الوالد صغيرا ، ويحبه كبيرا ، ويعوله ان كان عاجزا فقيرا . فاذا نقض احدهما ذلك الميثاق على ضد حق الآخر ، فقد ظلمـــه واعتدى عليه لم يأخذ بحقه منه ، ولم يكن مستعملا حريته فيه .

والحكومة منتدبة لمنع كل اعتداء وحفظ كل حق .

والصغير قاصر عاجز لا يستطيع المطالبة بحقه فضلا عن ان يناله بالقوة فاذا هضم والده حق وجوده الحسي او المعنوي فلا بد له من شفيع اليه ، ومعين ناصر عليه . والهيئة الحاكمة التي هي خلاصة وجود الامة وليـــة كل ضعيف ، ووصية كل قاصر ، فهي مأمورة من قبل تلك الولاية ، وهاته الوصاية بالذود عن الصغير ، وحفظ حقه من كل منتزىء عليه . فكما انها تعاقب من يعـــذب الولد ، ومن ينبذه ، ومن يقتله ، ومن يسقطه جنينا كذلك يجب عليها عقاب من يدفنه حيا بما يمهل من تعليمه المفروض عليه ، ومن يقتل عقله بما يغفل مـــن هديه سبيل العرفان . بل قتل العقل اشنع ، وأفظع ، واضر بالهيئة الاجتماعية، من قتل البدن . ولأن يهلك الرجل ولده خير له من ان يميت عقله بالجهـــل والخشونة فيكون من المفسدين في الارض .

فالزام التعليم واجب على الحكومة .

وبعد فقد وجد الولد في الهيئة المدنية ليكون وطنيا في امته ، وجنديا فـــي وطنه ، يذود عنهما جميعا ويفتديهما بما يستطيع من كل حسي ومعنوي ويجلب اليهما النفع ويدرأ عنهما الضر لاتحاده بهما في الوجود المدني ، ولقيام الكـــل بالواحد والواحد بالكل حيثما وجدت امة وحيثما كان وطن صحيح . فينبغي من هذا الوجه اعداده لمراتب الانسانية واشرابه الفضائل المدنية ليكون عضوا نافعا في

جسم الهيئة الاجتماعية ، فلا يمحى وجدانه المدني فيحصل كاليد الشلاّء كلا على عاتق اخوانه ، ولا يظهر بما يلحق بهم الضرر او العار . فربما وزرت الامة وزر واحد منها وعيرت به مدى الاعصار . فالحكومة الجامعة للكلمة الوطنية ، المنتدبة لحفظ الهيئة المدنية ، مأمورة بالاشراف على أفراد تلك الهيئة . تصون لضعيفهم حقه كما تصونه للقوي ، وتلزم عظيمهم بما يجب عليه كما تلزم به الحقير . فان دعت الوالدين الى وفاء اولادهم حقهم من التعليم لم تكن الا آخذة بحق لها بل قائمة بواجب عليها . وما أحسن ما قال في ذلك النائب الفرنسوي الموسيو بول برت وهو «متى وجد الامر متعلقا بمعاملة الاحداث في زوايا المدارس بكلام يثبت في اذهانهم اللينة صورا وآراء ، فللهيئة الحاكمة المندوبة لجلب المصالح ودرء المفاسد حق التدخل فيه ، والزام ما تقتضيه» .

فالامة الفرنسوية امة انتخاب عمومي يشارك افرادها في الحكم الكلي ، فكل واحد منهم ينتخب النواب وكل احد يصلح ان يكون نائبا الا الذين اضاعوا حقهم المدني بما كانوا مجترمين . والنواب هم الذين ينتخبون رئيس الدولة ، ومنهم تتألف الوزارة ، وبارادتهم يتعين مقدار الدخل والخرج ، وبحكمهم توضع الضرائب ، وتفرض الوزائع ، وهم هم اهل النهي ، والامر ، والنقض ، والابرام . فالامة هي الحاكمة في بلاد الفرنسيس فان لم يكن كل فرد منها عارفا بما يحق له ، وما يجب عليه لم يصلح ان يكون رقيبا ناظرا على الحق والواجب العمومي . قال احد ادبائهم في هذا الباب : لا بد من حصول المساواة في الممالك على ما ترى في الجمهوريات بحيث تكون في الروسية كما في سويسرة فيزداد بذلك عدد الذين يشاركون في أحكام بلادهم بواسطة الانتخاب — ان لم يكن انتخاب نواب فأعضاء مجالس للادارة، والجزاء ، والحقوق والبلدية ، وهلم جرا — وقد حصل الانتخاب عموميا في كثير من البلاد وهو على قدم الحصول في سائرها وحيث انه لا يمكن رد هذه الحركة ولا وقفها فلا بد من جرها الى جانب الخير والعرفان بحيث لا يدير اعمال الهيئة الا من كان قادرا على ادارة اعماله الذاتية ، ولا يتولى مصالح الناس الا من كان على علم بمصلحته الحقيقية . فان الغبي الجاهل لا يصلح ولا يجدر به ان يتولى أمور الكل . ومن أعطي حق الانتخاب فكأنما ولي هذا الامر فلا يصح ان يكون جاهلا . ان حق الانتخاب مع الجهل يجعل الامة فوضى ويعيدها الى الاستبداد ، ومع العلم يؤيد شأنها ، ويتم عليها نعمة الحرية . فلا سلامة ولا كرامة لأمة عمومية الانتخاب الا اذا دخل العلم آخر كوخ في آخر مزرعة من بلادها .

وقال الفيلسوف الفرنسوي الموسيو كورنين في مجلس نبلاء الفرنسيس في ٢١ آذار سنة ١٨٣٣ : «ينبغي ان تكون الامة الراغبة في الحرية مستنيرة بالعلم والا التوت عليها الاماني وانقلبت اضرارا لا مكان ان تزيد حقوقها على معارفها فتسيء التصرف في احقاق تلك الحقوق» .

فمن تأمل هذا الذي قدمناه تبين له وجه الحق في الزامية التعليم في بلاد الفرنسيس . وبعد فمن ذا الذي يبلغ منه عمى القلب الى حد ان لا يرى ان تقدم

الامم يكون على قدر انتشار المعارف العمومية فيها بعد اذ قام على ذلك من العقل والاخبار الف شاهد ودليل . قال احد علمائهم «حسبنا في بيان لزوم التعليم قول باكون الذاهب مثلا «العلم هو القوة» وما أصحه من مبدأ ولاسيما من وجه الاقتصاد فان معرفة القوانين الطبيعية هي التي تجعل العمل كثير الثمر فالانسان الفطري على كونه أصح من المدني حسا ، واقوى بدنا ، واصبر على المتاعب يحيا شقيا ، ويموت في الغالب من العوز . تغلب عليه القوى الطبيعية فتقتله بجهله اما الانسان المدني فقد كشف كثيرا من هاته القوى فاستخدمها فيما يحتاج اليه فملك عالم المادة وعاش رغدا ناعم البال» . وما برح تأثير العلم في تحصيل الثروة على نماء واتساع يزداد يوما فيوما الى ان يقال هاته الامة اعم معارف واقل جهلا من غيرها . فيعلم من ذلك انها اغنى واقوى وكما ان المعارف لازمة لتحصيل الثروة ، كذلك لا بد منها لحفظها وحسن استعمالها من وجه ما ينبغي . وانّا لنرى الفاعل والماهن حيث ما كان لا يصيب من الاجرة ما يفي بالضروري من حاجاته ، ونجده مع ذلك ينفق منها فيما لا يلزم وفيما يضر . وما ذلك الا لان عقله محدود بالحاضر من أموره لا ينظر في العواقب ، ولا يدرك منافع الادخار، فتنمو فيه وتغلب عليه الشهوات الحسية فلا يجد على الغالب من لذة الا في غيبوبة السكر ، فان زاد كسبه فما يزداد الا انعكافا عليه . فمن رام ان تكون زيادة الاجرة منجاة للفاعل والماهن من الحاجة وسوء الحال ، فليفتح له باب العلم لتحصل فيه قوة التبصر وملكة اللذة الفكرية . فالمرء لا ينتج مما يعمل كثيرا ، ولا يحسن استعمال ما ينتج الا ان يكون متعلما . قال المؤرخ مركولاي «كان الايكوسي (ساكن ايكوسة) فقيرا جاهلا فما تقدم في القرن الثامن عشر على الانكليزي في جميع الاعمال والخطط الا لان اهل الندوة بادنبرج وضعوا لايكوسة قانون تعليم وطني عمومي» ويقول اصحاب المعامل في الولايات المتحدة الاميركية ما نقوى على مناظرة البلاد الاوروبوية بمصنوعاتنا على كوننا نؤدي من الضرائب ضعفي ما يؤخذ من الاوروبويين الا لان فعلتنا اوسع من فعلتهم علما ، وأكثر معارف فهم لذلك أسرع منهم عملا ، وأحسن صنعا ، وأقدر على اجتناء النفع من الآلات .

وقال الموسيو فرستر السياسي الانكليزي في عرض بيانه لمزية التعليم الالزامي ووجوبه في انكلترا ما تعريبه «نعلم ان العلم غير الفضيلة وان التعليم وحده لا يوجد القوة الكافية لمقاومة الشهوات الفاسدة ولكن اذا كانت المعرفة غير الفضيلة فلا شك ان الجهل ضعف ، والضعف في هذه الحياة الدنيا هو الشقاء، والشقاء مؤد الى الرذيلة . ومن ذا الذي لا يرى في المدن والقرى صغارا يشبون سالكين على الغالب مسالك الجريمة ، وعلى الاغلب مسالك الشقاء لرداءة تعليمهم او لعدم التعليم فكيف نرى ذلك ونصبر عليه» .

فصل

تبين بأدلة من العقل حقية الزام التعلم في الهيآت الاجتماعية عموما ، وفي

البلاد الفرنسوية خصوصا ، فبقي ان نؤيد ذلك بشواهد من النقل الصادق ، وبراهين من الرقم الناطق ، افحاما للمغالطين وافهاما .

ففي عام ١٨٦٢ أقيم في لندرة عاصمة انكلترة معرض عمومي وأفرد فيه مكان فسيح لمواد المدارس ، وآثار المعارف ، وتقارير التعليم لمعرفة نتائجه في جميع الاقطار . وألفت للنظر في ذلك لجنة من عظماء اهل النقد تحت رئاسة المركيز دي كافور فاجتمع اولئك النقدة في الثالث عشر من شهر حزيران من العام المذكور للمذاكرة فيما راوه من تلك الآثار والتقارير ثم اصدروا الحكم الآتي معربه :

«لقد ظهر اليوم لجميع الامم المتمدنة انهم اذا راموا وقاية المستقبل» «وتأييد ونشر المبادىء التي هي اساس الهيئة الجديدة وموضع افتخارهم بها» «فلا بد لهم ان يعدوا تعليم الاحداث بمنزلة مصلحة اجتماعية من الدرجة الاولى» .

«وتبين لنا ان بروسية وغيرها من الممالك الزلفرينية التي حصل فيها التعليم واجبا قانونيا وكذلك الممالك السكندناوية وجمهورية سويسرة هي في المقام الاول بين البلاد الاوروبوية بالنظر الى المعارف العمومية» .

وفي عام ١٨٦٧ أقيم معرض عمومي آخر في باريس على عهد الموسيو دوروي المؤرخ المشهور في نظارة المعارف الفرنسوية وكان القسم العاشر منه معينا لآثار العلوم ، وتقارير التعليم ، وله لجنة نقد وحكم مؤلفة من رؤساء العلماء فكان مما ورد في تقرير تلك اللجنة ما تعريبه :

«اول ما يتوجه الخاطر اليه عند رؤية هاته الآثار وتصفح تقارير التعليم في هذا القسم من المعرض انه ينبغي تعليم كل ساكن بلد يدعي له المدنية مبادىء القراءة والكتابة والحساب في مدارس النهار والليل . وان هاته المزية السنية قد حصلت على وجه العموم في البلاد التي تقرر فيها الزام التعليم اما في سائر البلاد الا النادر الذي لا يقاس عليه فنتائج التعليم لا تعادل مقادير النفقات» . — عن لائحة اللجنة المذكورة في الصفحة العاشرة من الجزء الثالث عشر — .

وفي غرض ذلك المعرض انتدب الموسيو مفراس كاتب السر في بعض السفارات للنظر في أحوال المكاتب وبيانها من وجه الواقع فكان مما كتب في ذلك ما تعريبه:

«لا بد لنا في هذا المسلك ان نعترف وان ساءنا هذا الاعتراف أن فرنسا متأخرة في المعارف عن المانيا واميركا وانكلترة وغيرها وان نجاح هاته الدول وان كان بعضه ناشئا عن هم الافراد وعواطف الانفس الا ان موجبه الاول في البلاد الالمانية انما هو القانون الذي يجعل التعليم اجباريا» .

— عن اللائحة المذكورة في الصحيفة ٧٤٥ من الجزء ١٣ ايضا —

وفي سنة ١٨٧٣ أقيم معرض ويَّانا العمومي فاجتمع فيه وجوه جمعيات الفعلة على اختلاف الانساب والاوطان ، وقدموا لديوانه تقريرا يقولون فيه ما ترجمته «لا كفاء ولا غناء في كون المدارس مفتوحة الابواب لكل طالب بل لا بد من ان يكون دخولها لازما واجبا على الكل ثم ينبغي ان تكون عالمية محضا وقاية لحرية العقائد » .

ولما ولّي الموسيو دوروي السابق الذكر وزارة المعارف الفرنسوية عام ١٨٦٣ صرف اجتهاده في بيان احوالها ورفع الى الامبراطور تقريرا اجماليا يقول فيه ان الاميين من البالغين عمر الدراسة ينيفون على ٦٠٠ ٠٠٠ عددا فكان هذا التقرير مناقضا لما كان يطليه وكلاء الدولة من محالهم على مجلس النواب والشيوخ على كونه دون الحقيقة بمراحل كما يتبين من التقرير المرفوع الى الامبراطور المنشور في صحيفة المونيتور الرسمية (وقتئذ) سادس شهر آذار عام ١٨٦٥ . فقد ورد فيه ان مائتي الف ممن جاوزوا الحادية عشرة عراة عن كل معرفة وان ثمانمائةالف ممن هم بين الثامنة والحادية عشرة لا يأتون المدارس ولذلك قال الموسيو جـول سيمون من خطبته في الهيئة المشترعة سادس عشر آذار عام ١٨٦٤ ان عـدد الاميين من البالغين عمر الدراسة في البلاد الفرنسوية ٣٠٣ ٢٣٠ ١ لا ٠٠٠ ٦٠٠ كما ورد في تقرير دوروي .

بل لا نحسب كثرة عدد الجهلاء هي الموجب الفرد لالزام التعليم فلو لم يكن في الامة غير معشار المعشار من الجاهلين للزم الهيئة الحاكمة تعليمهم . قـال الموسيو بردو وزير المعارف الفرنسوية الاسبق من خطبة فاه بها في مجلس نواب الفرنسيس في السادس عشر من شهر كانون الاول الماضي ما تعريبه «لئن لم يكن في فرنسا غير عشرة آلاف او الفين او الف ممن لا يأتون المدارس فمن الواجب اقتيادهم اليها . وعندي ان الدول التي قضت بالزام التعليم لم تمس عقيـدة الولد ولا حرية الوالد ولا ارى الذين يتقاعدون عن المدارس الا ثلاثة خاملا سائلا ، وفاسدا سارقا ، وفقيرا عاملا . فالفريقان الاولان ليس في الزامية تعليمهمـا موضع الخلاف واما الفريق الثالث فيمكن في امره التوفيق بين الشغل والدرس كما نص عليه في تقرير لجنة الالزام . ولا ريب ان لفرنسا على كل احد منا ديناره ودمه ورأيه وان لنا على فرنسا التعليم» .

الا ان المداجين المداهنين الذين كانوا يضربون مندون الحقائق حجبا مستورة، ويموهون مشوهات الاحوال تزلفا الى الامبراطورية ومخافة ان تبدو معائبهم للامة فنقول بعدا لكم وسحقا ان هؤلاء المنافقين قد اعترضوا على تقرير دوروي، وزوقوا الامر الممزق بالاباطيل ، وانكروا الزام التعليم من وجه مخالفته للحرية على كونهم اعداءها الألداء مستهزئينبالالمان منهذا الوجه، ضاحكينمنه كثيرا الىان جاءوا بهم الى عاصمة بلادهم فاتحين فأبكوا الفرنسيس بكاء غزيرا وتبين حينئذ لهم جميعا صدق الوزير بسمارك حيث قال : ما بلغت بروسية هذه المنزلة العلية الا بشيئين الزام الجندية والزام التعليم — عن مقالة للمسيو اوجين رندو مفتش التعليـم الابتدائي نشرت في جريدة كنستيتوسيونل في شهر حزيران عام ١٨٧٠ — .

وكان اهل ستراسبرج قد شرعوا قبيل تهور الامبراطورية في حرب الالمـان بجمع الآراء على تقرير يطلبون فيه التعليم الالزامي فاجتمع لهم ٣٥٠٠٠٠ توقيع، ثم كانت الحرب فانفصلوا عن الوطن الذي افتدوه بأرواحهم فنشطت عصبة التعليم الباريسية لاكمال مشروعهم فتلقته الامة بالقبول والاقبال حتى اجتمع في ذلـك التقرير ١٢٦٧٢٢٧ توقيعا ، وعرض لدار الندوة فأعرضت عنه بما كان في رجالها

من كراهية الحرية ، وخوف انوار العلوم . ولكن علم الالباء ان لا بد بعد ذلك من حصول التعليم الزاميا في بلاد الفرنسيس فان صوت الامة صوت الحق والامة اذا قدرت ان تقول ، قدرت ان تفعل .

مجانية التعليم

ثبتَ للحكومة حق الزام التعليم من وجه ان الهيئة الحاكمة المشرفة على امر الجمهور منتدبة لجلب المصلحة كما هي مأمورة بدفع المفسدة فكما انه يجب عليها ازالة الضر ، ونفي الاذى ، ورد الشقاء ، وكف العدوان ، ومنع الظلم . كذلك من واجباتها تحصيل النفع ، واثبات السلامة ، واعادة الهناء ، وتأييد السلم ، ورفع منار العدل والانسانية ـ بالفضيلة التي لا تماثلها فضيلة ، والمزية التي لا تعادلها مزية ، فضيلة المعرفة ، ومزية العلم :

والعلم يحيي قلـــوب الميتين كمـــا تحيا البلاد اذا ما مسَّها المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر

ولكن ليس في الوجود الطبيعي ولا المدني من واجب الا بحق يماثله . وليس فيه من حق الا بواجب يقابله ، فاذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفاء . واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه ، فقد لزمها توفير اسبابه ، وتمهيد سبيله على قدر الامكان . فان كـــان الوالد من الذين اصابهم النظام المدني باختلاله ، او الذين الم بهم مـــن عوارض الوجود ما لا يستطيعون له دفعا ، فهو فقير معدم ، او ضعيف عاجز لا يقوى على تعليم ولده بقدر ما يحتاج اليه ، وما توجبه احوال الزمان عليه . فالهيئة الحاكمة مأمورة من قبل حقية الالزام بأن تيسر له ما لا يستطيع فتجعل التعليم بلا قبل . قال ساي الاقتصادي الشهير : ان مركز المحترف العامل يدني مقدار دخله الى حد انه لا يكاد يفي بحاجته الا بشق النفس فاذا استطاع تربية الولد وتعليمهم حرفته فهو لا شك عاجز عن ان ينيلهم من العلم القدر الذي يقتضيـــه حسن الحال في الهيئة المدنية . فان رامت هذه الهيئة التمتع بنفائع هذا القدر من العلم في الفئة المحترفة العاملة وجب عليها ان تبثه فيهم على نفقتها بانشـــاء المدارس المجانية (الاقتصاد الكتاب ٣ الفصل ٦) .

فالمجانية في التعليم واجبٌ مترتب على حقية الالزام .

الا ان لزوم المجانية مستلزم للعسر ، او الضعف ، او العجـــز في جانب الوالد . فاذا سقط الملزم بطل اللازم قياسا . بمعنى ان المجانية غير متعينة على الالزام الا لمن ثبت عجزه عن التعليم فان كان قويا عليه فقد لزمه لزوما لا ريب

فيه كما تبين في ابواب الحقية ولم تكن المجانية واجبة له على الهيئة الحاكمة .
فالمجانية المطلقة غير ملازمة لالزام التعليم .

الا ان الكثير من علماء تدبير المنزل ، وحلفاء الحرية والعدل ، ونصراء المساواة والاخاء ، والذين لا يميزون بين ابناء الانسان الا بمزية العقل وفضيلة النفس ، كل هؤلاء قد كرهوا حصر مجانية التعليم في اولاد الفقراء ولم يرضوا بوجود الامتياز بهذه الحيثية على مقاعد المدارس علما منهم بما ينشأ عن ذلك من الإحن والعداوات ، وما يترتب عليه من فساد النفوس ، وتنافر القلوب ، اذ ينقسم الصغار فرقا ودرجات متفاصلة متباعدة فاذا شبوا كان بعضهم عدوا لبعض ، يتربصون بهم ريب المنون كما كانت الحال في أعصر الظلمات المسماة بالمتوسطة. وما احد يجهل تلك الحال وما احد لا يعلم ما أدت اليه . قال الموسيو غلتز نائب بريغ في مجمع فرنكفرت «من الواجب الضروري اجتناب كل ما يحمل الصغير المعوز على الاعتقاد بوجود حد فاصل بين الغني والفقير ولا يكون ذلك الا اذا جلس المعوز منذ الحداثة على مقعد المدرسة بمثل الحق وفي نفس الدرجة التي لابن الغني» . اهـ (الصفحة ١٦ من مفاوضات مجمع فرنكفرت) .

وقال الفيلسوف جول سيمون في كتاب المدرسة ما معناه : يحسن ان يعيش ابن الغني وابن الفقير على مقعد واحد ويجب ان يعلما انهما شرع بأن ينزع اولا من مخيلة الفقير وهم الفقر لا كما هي الحال في كثير من مدارس الاناث حيث لا تعلم المدرسة الا بنات الاغنياء واما الفقيرات فيقران على عريفة منهن .

فمن عجائب ما ينشأ عن الاهواء ، ومن غرائب ما ينتج من الآراب النفسانية، ان يرى للمجانية اعداء ينكرونها اصلا وفرعا ، ويحسبونها البدعة الشنعاء ، وأن يكون اولئك الاعداء هم الذين اوجبوا على انفسهم فتح المدارس ، لكل دارس . والذين كانت مدارسهم الخارجية مجانية محضا . فهل نسوا ام هم يتناسون ما ورد في تاريخ فرنسا القديم عن منع المدرسين غير مرة من اخذ رواتب الدراسة من الطالبين (تومانين المجلد ٢ الصفحة ٦٢٢) ام لا يذكرون ان المجانية ما برحت ناموسا مقدسا عند اخوة المدارس المسيحية .

ولكنا نضرب عن المقابلة بين ما يفعلون وما يقولون ، والموازنة بين ما يعتقدون وما يوهمون ، فلسنا في مقام الحكم عليهم وليس من قوة الحجة وحسن الدليل ان يقال فعلت من قبل غير ما تقول الان فأنت انت حجتنا عليك . وانما الحجة الدامغة ان يجرد القول من علاقة مصدره ، ومن الحامل عليه ، فيرد بالنظر اليه من حيث هو هو ردا متعلقا بأهداب النزاهة ، آخذا بأطراف الوضوح . فنحن لذلك نمر على الانظار اعتراضاتهم على مجانية التعليم واحدا بعد واحد ثم نكشف عنها الحجاب ، ليتبين الخطأ من الصواب ، ان شاء الله .

وقد انحصر اعتراضهم على المجانية في اربعة لا برّ قسمنا بالحق ان كنا ندري ايها اخفى حقيقة ، وأظهر فسادا ، وادنى من الخطأ ، وابعد عن الصواب من البقية وهي : اولا ان المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة فهي من هذا الوجه ضريبة فادحة تزيد تكاليف الامة اثقالا . وثانيا انها بدعة مستحدثة لم تفد خيرا

ولم يأخذ بها الا القليل من الدول. وثالثا انها من آثار الاباحية من حيث انها تتعلق بالاشتراك في الاموال . ورابعا انها انما وضعت لاعانة الفقير وهي حيف عليه فقد كان يحصل العلم من قبل مجانا فاذا اطلقت المجانية لزمته الوزيعة فيلتوي الامر عليه . وانّا لنرد بحول الله وقوة الحق كل اعتراض من هذه الاغاليط فتزهق جميعا كأن لم يكن بها عهد ولم تكن شيئا مذكورا .

بـاب

يقولون المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة فهي ضريبة فادحة للامة ومثلهم في هذا القول كمثل من يأبى الدواء الشافي ، وينكر اسباب الراحة ، ويهمل وسائل الوقاية بما تقتضيه من النفقة . ومثل من يترك الارض بورا فرارا من كلفة الزرع ومن كان ذلك حد ما تصل اليه مداركه فهو بالشفقة والرحمة أجدر منه بالملام .

قال جول سيمون : يجب ان ينفق على التعليم الابتدائي كل الملاوين التي يقتضيها غير مأسوف عليها . ثم فصل (في كتاب المدرسة) ما يترتب من النفقة على تقرير الالزامية والمجانية من كل الوجوه مائلا في كل ذلك الى جانب الزيادة فقال : ان ثمانية عشر مليونا فرنكا تكون كافية للمجانية فاذا أردنا انشاء مدارس جديدة وزيادة أجور المدرسين فنضعف بذلك هذا المخرج فغاية ما يكون مع نفقة المدارس الاصولية المعدة للترشيح للاستاذية خمسين مليونا فرنكا .

فاذا علم ان ولاية نيويورك بأميركا تنفق على التعليم ٢٢ مليونا ريالا في حالة كون سكانها لا يزيدون على ٣٨٥١٥٦٣ نفسا عدا وان ولاية ماساشوتس وعدد سكانها ١٢٣١٠٦٦ تنفق خمسة عشر مليونا وخمسمائة الف تبين ان فرنسا وان انفقت مائة مليون فرنكا بل مائتين لا تكون في الدرجة الاولى بين الممالك ولا في الثانية .

فعلى تقدير ان تكون النفقة المتعينة على مجانية التعليم اربعة أمثال ما حسب الفيلسوف المدقق جول سيمون فكيف يأسف الفرنسيس على انفاق مائتي مليون في سبيل التعليم الابتدائي على كونهم ينفقون نحو الف مليون في سبيل الجندية، وكيف يضنون بالمال فيما يضيء الالباب وما ليس للعقول من لذة الا به وهم هم الذين انشأوا ملهى غنائهم بستة وعشرين مليونا ، والذين نرى في برنامج دولتهم في كل عام مليونا ونصف مليون للتياتر ، واربعة وعشرين مليونا للسجون وهلم جرا . قال سيمون : كيف لا نموت خجلا ونسبة برنامج التعليم عندنا الى برنامج الحرب نسبة ١١ الى ٢٩٥ .

فان قيل ان الامة تنفق الالوف المؤلفة في سبيل الجندية لوقاية شأنها ، واعلاء مكانها ، ورد العدو ، وصيانة ماء الوطن . وليس في التعليم شيء من

ذلك فالذي يلزم في الجندية لا يلزم فيه. قلنا اي شأن أجدر من الفضل بالوقاية، واي ماء أولى من الذهن بالصيانة ، واي مكان أحق من العلم بالاعلاء ، واي عدو أعدى من الجهل ..

اليس هو المضعف للقوة ، الذاهب بالراحة ، المنحي على السعادة ، الداعي الى المفسدة ، المدني من البلاء ، المبعد عن الكمال ، المساوي بين انسية الانسان ، ووحشية الحيوان .

أوليس هو الذي ينسف معاقل المجد ، ويدك أطواد العز ، ويقلع قلاع السطوة ، ويمحق آثار الفخار ، ويجعل البلاد عرضة لكل طامع ، او غرضا لكل هادف ، وعرضا لكل سائم .

بلى . فكيف تنفق الامة أموالها ، وتبذل الارواح لرد طارق خارجي ، ثم ينكر عليها صرف معشار تلك الاموال لدرء هذا العدو الداخلي المقيم . لا جرم ان الذين يحاولون صرف خواطر الامة عن هذا الواجب المدني انما هم نصراء العدو عليها . لا يرومون رفع الواجب رحمة بها ان تحمل انفسها ما لا تسع ولكن ليستأثروا بالحق المتعين عليه . او هم احباؤها ولكنهم يجهلون حقيقة المنفعة ، والعدو العاقل أيسر ضرا واصغر شرا من الصديق الجاهل . فنفقة التعليم واجبة على الامة وجوب نفقة الجندية ونفقة الضبط والخفارة عليهم . بل هي اوجب من حيث انها اساس قوة الجندية ، وعماد عدل القضاء ، ودعامة حسن الضبط . قال تاليران في تقريره على مجانية التعليم الابتدائي في بلاد الفرنسيس عام ١٧٩١ ــ يجب على الامة ان تقوم بادىء بدء بما يلزم للدفاع والحكم فان واجبها الاول انما هو العناية بحفظ وجودها الذاتي من كل عارض ، ثم النهوض بما تصون به الحرية والملك لتدرأ عن مجموعها النوازل التي لا يمكن اتقاءها في حالة الانفراد فتحصل لهم المنافع الوطنية الناشئة عن حسن الاجتماع . بل ما وجدت الامة الا لهذه الغاية فان لم تدركها فقد اهملت حكمة الوجود . ولما كان التعليم بلا ريب خير تلك المنافع اثرا ، وجب على الامة أيما وجوب بذل كل ما ينبغي لتيسيره لاعضائها كلهم اجمعين .

***

المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيرا ولم يأخذ بها الا قليل من الناس . ــ وهو من بداهة الفساد ، وظهور الضعف بحيث يقف القلم عن رده استخفافا وازدراء. ولكن سائر ما يدعيه اعداء الالزامية والمجانية والعالمية في التعليم لا يخرج عن هذا الحد . فلو صح الاقتصار على رد القوي منه لما وجد المناظر منا للمقال مقاما فنحن لذلك نتنازل معهم الى تبيين البين ، وتحصيل الحاصل ، ليزول اللبس عن افهام العوام .

فليست المجانية من البدع وانما هي سنة الفضلاء والرؤساء ، وأرباب السياسة ، وخدمة الدين ، وأهل التدريس النزهاء في هذه الايام ومن قبل . التزمها في فرنسا اخوان المدارس المسيحية ، وكانت الى هذا العهد مفخر الآباء اليسوعيين في مدارسهم الخارجية ، وطلبت في بلاد الفرنسيس منذ القديم كما رويناه عن تومانين فيما تقدم ، وتقررت في تلك البلاد عام ١٧٩١ مبنية على تقرير تاليران السابق الذكر ، وفرضت من بعد ذلك في البند ٢٤ من القانون المسنون خامس عشر آذار عام ١٨٥٠ ومفاد ذلك البند «التعليم الابتدائي مجاني لكل الاولاد الذين لا يسع آباؤهم اداء نفقته» . ولم يسمع ان احدا من علماء الاسلام تقاضى القارئين عليه والآخذين عنه اجرة . وهذه آثار مدارسهم في العراق والشام والحجاز ومصر والاندلس وسائر المغرب ناطقة بذلك . بل هذه مدرسة الازهر بالقاهرة والزيتونة بتونس وغيرهما بسائر البلاد الاسلامية تثبته بلسان الوف من طلبة العلم .

وليس أولياء المجانية عددا قليلا فهي مقررة فيجميع الولايات المتحدة الاميركية ولا ازيد البصير بهذه الولايات علما انها احسن البلاد حالا ، وأسرعها نماء ، واشدها حرصا على الحرية ، وحفظا لحقوق الانسان .

وهي مأثورة في هولندة والدنيمرك وايطاليا وشيلي والبرتغال . وقد ظهر ارتياح سائر الامم اليها في هذه الاعوام الاخيرة حتى اتصلت باسبانيا والمانيا على ما بهما من عجف المال فأبطلتا رواتب التعليم في المدارس الابتدائية . ـ تلك بحكم قانونها المسنون عام ١٨٦٩ وهذه بمقتضى البند الرابع والعشرين من دستورها الحاضر . ـ وما كانت هذه الدول والامم على ضلال ، ولكنها فتحت قلوبها للحق فصدقت (لاف) حيث قال : ان البلاد التي يبطىء فيها امتداد المعارف والتي تكون الالزامية فيها حديثة عهد لا بد لاهلها من جمع المجانية الى الالزام . وخفضت رؤوسها للحقيقة فأخذت بما حكم به جلة العلماء ، وأعاظم الفضلاء ، وأكابر الاساتذة في مجمع فرنكفرت عام ١٨٤٨ حيث قالوا في المطلب الرابع من تقرير المجمع الشهير ما ترجمته «يمنع اخذ اي راتب في المدارس الابتدائية وما دونها من المدارس المعدة للحرف والصناعات وتكون المدارس المخصوصة بالفقراء ملغاة رأسا » .

وقد عمت المجانية المطلقة في الولايات الاميركية كما قدمناه فارتقت بها ذروة الكمال المدني ، وصارت آية العصر بالقوة والثروة ، ومعجزة الايام بانتظام الاحكام ، وأعجوبة الدنيا بنماء السكان . لم يكن سكانها عام ١٨٦٢ سوى ٢٩٩٠٢٠٠٠ نفس وهم الان خمسون مليونا او يزيدون . وهذا برنامج التعليم الابتدائي فيها لعام ١٨٧٥ .

دخل التعليم من خزينة الدولة وأوقاف المدارس وأموال المجالس البلدية بحساب الدولار الذي هو عبارة عن ٥ فرنكات و٣٠ سانتيما = ٨٢١٥٨٩٠٥ دولار.

للارضين الموقوفة والابنية والاثاث	١٥٠٤٥٩٠٨
رواتب المفتشين	٠٠٩٢٤٧٧٣
رواتب المدرسين	٤٦٧٠٢٢٩٥
نفقات شتى	١١٧٠٣٠٩٥
	٧٤٣٧٦٠٧١

فجملة ما ينفق على التعليم الابتدائي في اميركا اربعة وسبعون مليونا وثلاثمائة الف دولار وكسور اي نحو ثلاثمائة مليون وثلاثة وتسعين مليونا فرنكا فلو بذلت فرنسا فيه ما تطلبه الدولة مضعفا عشرين مثلا لما فضلت به ولايات العالم الجديد.

ولا نجد بنا بعد هذا البيان من حاجة الى الاستدلال على رفعة شأن المعارف العمومية في الولايات المتحدة وسائر الاقطار المتمدنة . وان الدول والامم البصيرة بعواقب الامور لا تبالي بالالوف المؤلفة تبذلها في سبيل اضاءة البصائر بأنوار العلوم . على اننا نورد الجلاء الآتي قطعا للحجة وحسما لاسباب المغالطة فهو بيان واضح يتضمن المقابلة بين نفقات المعارف وسائر المصارف العمومية في سبع من الولايات المتحدة نموذجا نأخذه عن تقرير الناظر الرئيس (جون ليتون) على عام ١٨٧٠ وهو :

الولاية	نفقة المدارس	النفقات العمومية
مين	٠٨٠٥٣٦٩	٠٤٠٣٦٠١
بنسلفانيا	٥١٦٠٧٥٠	٣٨٥٣٣٣٦
أهيو	٤٨١٦٤٩٥	٢٩٧٨٩٩٥
كليفورنيا	١١٧٨٣٤٨	٠٤٧٥٩٧٨
نيوجرسي	١٣١٣٣٥٨	٠٤٧٢٨١٥
وسكنسين	١٧٧٤٤٧٣	٠٩٤٦٥١٩
النوا	٦٤٣٠٨٨١	١٠٦٣٥٢٥

ثم ان ولاية نيويورك التي كان سكانها عامئذ ٦٤٨٢٧٥٩ عدا كانت نفقة المعارف الاولية فيها ١٠٨٧٤٩١ من الدولار اي ثلاثة أضعاف ما تحتاج اليه الدولة الفرنسوية لتقرير المجانية المطلقة في التعليم الابتدائي . اهـ (عن الاصلاح الاقتصادي Réforme économique المجلد ٨ الصفحة ٢٥٦) .

***

وصلنا موقع دندنة اللفظ الذي يصيب الآذان ولا يمس القلوب ، وطنطنة الكلام الذي يخرج من الشفاه ولا اثر له في النفوس . وصلنا موضع ذكر الاباحية ونفي الملكية ، وشيوع الاموال دليلا على فساد المجانية . يقوم ولكن عند الذين يبيحون ارتكاب الخطأ على قصد صواب يتوهمون ، ويصح ولكن عند الذين ينفون العدل فيما يثبتون. فما مجانية التعليم الابتدائي في شيء من الاباحية الا ان تعد وزائع انارة المدن ، وضرائب طرق العربات ، ومغارم توزيع المياه ، وعوائد انشاء المرافىء ، وجبايات سائر المنافع العمومية من هذا القبيل . أليس ان بعض الناس يستفيدون من المصابيح اكثر من بعض ، أوليس ان العجلات لبعضهم دون بعض ، وهل تتساوى حاجة الناس الى الماء ، ام يستوي صاحب السفينة ومن لا يملك راس سارية فيما يحصل من نفع المرافىء . فما بال النفقة تكون واجبة مشروعة ممدوحة الموضوع ، مشكورة المحمول في كل ذلك وتعد اباحية منكرة ذميمة الوضع والحمل ، فيما هو أعم من ذلك نفعا ، وأوجب عرفا وشرعا . في استنفاذ الالباب من محابس الجهالة . في اخراجها من ظلمات الضلالة . في اعلاء شأن الاوطان ، في إحياء قلوب السكان ، في التعليم الابتدائي العمومي . ارايت لو قال احد من الناس لا ادفع مغرم الاثارة فاني ابيت مع الدجاج ، وأسري مع النعاج فمالي باضاءة الشوارع من حاجة . الا يحسب ذلك القول سرساما او لا يقال لصاحبه ان لم يكن بك من حاجة للنور تأمن به عثرة المدلج فهو يقيك شر السارق يأخذ ما تضن به على منفعة العموم ، فان أصر على جهله أما يقال له اعتزل الناس ان رمت مخالفة جميع الناس .

يقول المخالفون ان الغني وان حصلت له المجانية فلا يعلم ولده الا بدينار يجذب اليهم بمغناطيسه عناية الاستاذ فالمجانية لا تفيده خيرا ، ولا تكفيه نفقة ، فان ضربت عليه وزيعتها فذلك ظلم من وجه انه يلزمه النفقة فيما لا غرض فيه. واباحة من حيث انه يشرك سائر الناس فيما ملك . ونقول لا يحظر على الغني تعليم ولده في المدارس المجانية ابتداء فان أباه صلفا وتكبرا فليكن ما ينفق من المال مزيدا ثمن الكبرياء . وليس في ذلك شيء من الاباحة فان الذي تستفيده عامة الناس من المجانية يعود على سائر الامة بالنفع العظيم بما ينشأ عنه من حصول المصلحة الكلية ، وزوال المفاسد ، واستقرار الراحة والامن ، ونماء الثروة العمومية . فالامة كالاسرة الواحدة يسعى كل نسمة منها وسعه ويكون مرجع الكل اليها . بل الغني أحوج الناس الى انتشار المعارف ، واضمحلال الجهل . فتلك تلين القلوب ، وتطهر النفوس ، وتدمث الاخلاق ، وتوسع موارد الرزق ، فيقل معها الطامعون في أموال الاغنياء . ويندر المعتدون على ابناء العرض ، فتصان بذلك الحقوق ، وتحفظ الملكيات ، وتطمئن نفوس المتمولين ، وهذا يجعل القلوب فظة ، والنفوس دنيئة ، والاخلاق جافية ، والارزاق ناضبة الموارد فتكثر به الاطماع ، وتحمل الفاقة على الكبائر ، فلا يأمن المالك على الملك اغتصابا ، ولا المتمول على المال استلابا وانتهابا . وكما ان الغني يبذل المال لنفقة الشرطة ، والبدل العسكري للجند ، او يتجند بنفسه حيث لا يقبل منه البدل

لوقاية ما يملك من العدو الخارجي كذلك يلزمه من وجه مصلحته الذاتية فضلا عن الواجب المدني ان يبذل ما يفرض عليه من نفقة التعليم الابتدائي لصيانة ذاته وملكه من العدو الداخلي المسمى جهلا . بل هذه النفقة اوجب عليه وانفع له من وزيعة الشرطة ، وضريبة الجندية . فان قوة الحامية لا تزيد على ان تـــدرأ الشر عنه .

(تنبيه)

«الى هنا انتهى قلم الفقيد في تحرير هذا السفر الناطق بصحة مذهبه فـــي التعليم الالزامي ولا حاجة للقول ان المعترضين عليه لم يكن لهم في هذا المجـال نزال وانه لو لم يقض عليه في ذلك العهد بالامساك عن العمل مضطرا اليـــه بالارتحال والانتقال وبما كان يحول دون مشاغله من موانع الاعتلال لما ترك هــذا المقال خلوا من البقية» .

في الكتابة والصحافة

صناعة الكتابة (١)

حد الكتابة وأقسامها

الدرس (١)

الكتابة صناعة موضوعها التعبير عن الخاطر برسوم معلومة . وفي اللغة الجمع وهي مصدر قولهم كتب يكتب كتابا ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يمر بباله من المعاني ، وما يشعر به من الانفعالات .

وقد جعلها المتقدمون اقساما شتى بقدر مواضيعها ، والخطط الدائرة عليها في ايامهم . فقالوا كتابة الحسبة ، وكتابة المال ، وكتابة الانشاء ، وهلم جرا . وجعلوا تحت كل من هذه الاقسام فروعا كثيرة يتيه الذهن في حدودها . على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام ، فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق .

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئه اذا ابتداه واخترعه . فلعل السبب في اطلاق لفظه على الكتابة ، ان اختراع المعاني هو الشرط الاول

---

١ ــ من مقالاته ، أعيد نشرها في الدرر ص ٢٢٣ .

في اتقان هذه الصناعة كما سيجيء في بابه . وهو اي الانشاء عند كتاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان ، وهما النثر والسجع ، ولكل منهما أصــول معلومة ، وقواعد محدودة ، وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلا .

الدرس (٢)
النثر والسجع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة وصنعة الا ما يكون مــن وضع الكلام في مواضعه ، وايثار ما يألفه السمع والطبع منه فهو من هــــذا الوجه مقدم على سائر انواع الكلام ، بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرع منه فانه طبيعي اصيل ، وما دونه صناعي حادث. والاصل في الطبيعة لا محالة. يدل على ذلك ان هذا الكلام المقفى الذي يسمونه سجعا ، لا يكاد يوجد في غــير اللسان العربي . فلو كان طبيعيا لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها أصولا لا أقل .

اما السجع فهو الكلام المقفى على حد الارجوزة من الشعر ، الا انه غــــير موزون . ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام اذا هدر ، وسجعت الناقة اذا مدت حنينها على جهة واحدة . وهو وان حسن في بعض الاماكـــن كصدور الخطب ، ومقاطع الكلام ، بما فيه من تناسب الالفاظ ، وتماثـــل الفواصل ، التي يحسن وقعها في الاسماع ، الا انه في الجملة دون المرسل البليغ بهجة وصفاء وموافقة لمقتضى الحال لتقيد الكاتب فيه بلفظ لا بد منه او مـــن اخيه فلا ينبغي استعماله في بيان الحقائق العلمية ، ولا في ايضاح الاصـــول الادبية ، ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد ، الا اذا جاء عفوا غــــير مقصود بالذات .

الدرس (٣)

لابن خلدون فيما نحن بصدده كلام جدير بالنظر والتأمل والاعتبار ، وهـــو قوله : السجع هو الكلام الذي يؤتى به قطعا ، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ، والمرسل هو الذي يطلق الكلام فيه اطلاقا ، ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدي الاغراض ، وصار هذا المنثور اذا تأملته ، من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا الا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في

المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ، وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا اهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه ، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب . وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر ، فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تنافيها اللوذعية ، وخلط الجد بالهزل ، والاطناب في الاوصاف ، وضرب الامثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات ، حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب . والتزام التقفية ايضا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ، ينافي ذلك ويباين ، والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر ، وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ، اما اجراؤها على هذا النحو الذي هو من اساليب الشعر ، فمذموم . وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم ، وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل ، وأولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نفعهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب حتى انهم يخلون بالاعراب والتصريف في الكلمات اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان مع صحتها .

الدرس (٤)

هذه نموذجات من الكلام المرسل والسجع نوردها تذكرة وبيانا . فمن اطائب ذلك قول ابن خلدون : ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها ، اسرع اليها الفناء . والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها ، وصارت بالاستعباد آلة لسواها ، وعالة عليهم ، فيقصر الامل ، ويضعف التناسل ، والاعتمار انما هو عن جدة الامل ، وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية . فاذا ذهب الامل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الاحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالقلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل .

وجل كلام ابن خلدون ولاسيما في مقدمة تأريخه على هذا النحو من السلاسة ومناعة التركيب . ومن بليغ الكلام المرسل قول علي ابن الرماني في وصف البلاغة (البلاغة ما حط التكلف عنه ، وبني على التبيين ، وكانت الفائدة اغلب عليه من القافية ، وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول ، وعذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى) .

ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن علي رضي الله عنهما وقد سأله عن الناس في العراق عند المسير اليه فقال : القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء .

ومن جيد السجع مقامات الامام الحريري ، ورسائل بديع الزمان الهمذاني وقطع كثيرة للقاضي الفاضل ، وجملة غير يسيرة لكتّاب مصر من بعدهم الى انقراض الدولة الفاطمية .

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الا ما كان منه عفو القريحة فواصل غير مقفاة او ما يعزى الى الكهان والمشعوذين مما يراد به الايهام والإبهام، فلما استولت العجمة على الالسن، وضعفت قوة الاختراع في الاذهان، سرى داءه في المكاتبة الى هذا العهد فعدل الكتّاب عن الكلام الفحل ، واللفظ الساذج والاسلوب الطبيعي ، الى هذه الاسجاع الملفقة البالية يتناقلونها خلفا عن سلف ، ويطلبون بها الكلام بلا طائل ، سترا لقصورهم في ابتداء المعالي ، وايضاح واقع الحال من طريق البلاغة والايجاز ، حتى صارت من العادات ، وحصلت بين الملكات ، فدخلت في المراسلات الاخوانية ، والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظائم الامور ، وسقط من ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة ، فصار ما يكتب منه رطانة يفهمها بعض الجهلاء وتغمض عن الراسخين في العلم .

قال ابن الاصبع لا تجعل كلامك كله مبنيا على السجع فتظهر عليه الكلفة ، ويتبين فيه اثر المشقة ، وتتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة في السجع ، فجاءت نافرة من اخواتها ، قلقة في مكانها ، بل اصرف كل النظر الى تجويد الالفاظ ، وصحة المعاني ، واجهد في تقويم المباني ، فان جاء الكلام مسجوعا عفوا من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وان عز ذلك فأتركه وان اختلفت اسجاعه، وتباينت في التقفية مقاطعه ، فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بسجع جملة ولا يتقصدونه الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة ، والفاظهم متساوية ، ومعانيهم لاصقة ، وعباراتهم رائقة ، وفصولهم متقابلة ، وجمل كلامهم متماثلة .

صفات الكاتب وما يحتاج اليه

الدرس (٥)

قد اشترط بعض المتقدمين في الكاتب شروطا كثيرة منها ما يلزم في كل انسان على الاطلاق ، وفي كل ذي خدمة عمومية بالجملة . ومنها ما يختص

بالكاتب ولكن على ذلك العهد . فالضرب الاول خارج عن موضوعنا لدخوله في علم الاخلاق ، والثاني من مطالب التأريخ . اما شرطنا على الكاتب فهو من جهة الادب الاجتهاد ، والثبات ، والاستقامة ، ورعاية الحقوق ، وحفظ الواجبات ، ومؤدي قول الحكيم الفرنسوي الموجه الى كل اناسي :

ذاتك احفظ وتفقه واعتدل   واحي للناس ليحيى الناس لك

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم أصول اللغة ليعصم لسانه عن الخطأ ما امكنت العصمة لانسان ، ويحفظ قطعة كافية من العلوم والآداب ، خصوصا ما يتعلق توا بخطة الكتابة ، ليكون على بينة من الامر فيما يقول . اما الكتابة العالية البالغة حد العالمية فلا تقف عند حد ولا يحصرها شرط فانها هي العلم الذي يعرف أوله ولا يعرف آخره . وليست في شيء مما نحن بصدده وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يشترط فيها من ادخال المعاني في الافهام ، من اقرب وأصح وجوه الكلام . وهذا أوان الشروع في ذلك بعون الله .

الدرس (٦)

الكتابة كما تقدم في التعريف صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات ، بوضع صحيح وأسلوب صريح ، فهي ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد ايضاحه وهو الانشاء ، والوضع الذي يبدو به ذلك الايضاح وهو البيان ، والكيفية التي يحصل بها ذلك الوضع وهي الاسلوب .

فالانشاء او الاختراع هو الخاطر الذي يجده الكاتب ، ويقف فكره عليه فيجعله موضوع كتابته فهو من هذا الوجه قوة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع. والفصاحة هي الحكاية ، او التأثير ، او الاقناع ، ولا بد في كل مكتوب من احدى هذه الثلاث وقد يجتمعن به والحكاية تحصل ببيان الواقعيات والتأثير بالصور المؤثرة والاقناع بالبراهين .

والوضع هو تنسيق أقسام الموضوع فانه لا يكفي ان يكون هناك خاطر بل لا بد من ملاحظة النظام في كيفية ايضاحه ، فانه لا جلاء بلا تنسيق ، او يفقد الغرض . وعوضا من الافادة والاعجاب والتأثير والاقناع يتعب القارىء عبثا ، وقبل الكتابة لا بد من وضع رسم ولو رؤوس أقلام فانه اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكي ولا يعرف كيف يبتدىء . وكذلك يدخل في تفاصيل مملة ويضيع المسألة المهمة المقصودة بالذات ، ويصير مظلما كلما اجتهد في الايضاح ، ومن اين له ان قارئيه يصبرون الى ان يعود ليهتدي سبيله . وفي الكتابة القصيرة لا يستغنى البتة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعله مصدرا في الذهن على الفور ، بحيث ان الكاتب يسلك سبيله

المعلوم ، بلا دليل ، وكيف كان ففي التنسيق ثلاثة أمور ضرورية. وحدة الموضوع، وتلاحم الاجزاء واستقلالها التدريجي .

والاسلوب هو العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكل انسان أسلوب وهي تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفية سرده قال فولتير : الاشياء التي تقال تؤثر أقل من كيفية ادائها فان جميع الناس يتقاربون في الافكار التي هي بمدرك كل انسان ، والفرق في كيفية التعبير . فانها تجعل الاشياء معتادة غريبة ، وتقوي الضعيفة ، وتجسم البسيط ، وبغير حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتاب جيد في اي موضوع .

ويقول غيره : حسن الكتابة فيه حسن الفكر ، وحسن الشعور ، وحسن التعبير ، فيقتضي الذكاء والذوق . والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقلية جميعا ولا يبقى من الكتب الا ما كتب جيدا فان الاختراعات والاكتشافات لا يخلد بها الكتاب ما لم يكن حسن العبارة ، مكتوبا بذوق ونبالة .

والاسلوب وهو النفس هو الدال بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انه مظهر الكاتب لتعلقه بقوى العقل والنفس ، وحيث ان لكل انسان صفات تميزه عن غيره فلذلك اختلفت الاساليب والانفاس .

مباحث في الجرائد

المبحث الاول
في الجريدة من حيث هي (1)

(حد وتاريخ)

الجريدة لفظ أطلق اصحلاحا على الصحيفة المفردة او الصحائف المصحفة تطبع في اوقات معينة مشتملة على أنباء وآراء ومباحث من السياسة ، او الادب، او العلم ، أو منهن جمعاء . وليس لهذا اللفظ في أصول اللغة من معنى يتناول ذلك المفاد او يناسبه من وجه تصح به استعارته له ، ولكن صقلته الالسن بهذا فدل عليه ، واشتهر به ، حتى صار العدول عنه الى سواه خروجا عن المشهور، ومخالفة للجمهور . فما الجريدة في اللغة الا الطائفة من الخيل جرّدت عنها لوجه او لم يكن بها رجالة ، او السعفة الطويلة رطبة ويابسة ، ولم تأت بمعنى الدرج المكتوب ، او صحيفة الحساب ، الا في اقوال بعض المولدين . فاشتهارها بالمفاد الذي تقدم ايضاحه من بعض ما بينه وبين معانيها الاصلية ، يدل على ان الاصطلاح غلاب ، وان وضع الاسماء للمسميات الجديدة على نحو ما اشار اليه صاحبنا الاديب الفاضل سعيد افندي الشرتوني في البشير مطلب غير بعيد على

---

1 ـ نشرها في التقدم ، العدد ٩٧ ، بتاريخ ١٤ كانون الاول سنة ١٨٨٣ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٤١٢ .

اهل هذه اللغة طلبوه بأسبابه ودخلوه من ابوابه .

واسم الجريدة عند الافرنج «غزتا» او «جرنال» وهما كاسمهما العربي من حيث عدم المناسبة بين معناهما في اللغة وفي الاصطلاح ، فالغزتا ضرب من الدراهم كانت تباع به الجريدة في البندقية فسميت باسمه ، والجرنال معناه «اليومي» اي المنسوب الى اليوم ، ولا مناسبة بينه وبين مفاد الجريدة الا ان يقال انه اطلق اولا على الصحائف اليومية من قبيل تسمية الشيء بما هو عليه ، ثم عممه الاصطلاح فعرفت به الجرائد يومية كانت او غير يومية . وقد سمى الافرنج هذه الصحائف المصحفة التي تصدر على شكل الكراسة مرة في الاسبوع، او الاسبوعين، او الشهر، باسم يتضمن معنى «المراجعة» ولمنضع اسما مخصوصا بها وانما قلنا جريدة الجنان نقول جريدة الجوانب الا ان اخواننا كتاب اللغة التركية اصطلحوا على تسميتها «مجموعة» او «مجلة» ولا بأس من اتباعهم في هذا الاصطلاح .

ولم تعرف الجرائد الا في صدر المئة السابعة عشرة الميلاد ، ومن قال بوجودها منذ القديم في الصين او غيرها من الممالك العهيدة فقد حكم بلا ثبت . واول الجرائد المعروفة صحيفة «غزتا» وقد صدرت من البندقية بايطاليا اوائل المئة المذكورة ، وكانت النسخة تباع بدرهم يقال له غزتا ، فسميت به . وكان هذا الدرهم يساوي سنتيمين ونصف سنتيم اي نحو خمس بارات . ثم ظهرت في فرنسا لعهد لويس الثالث عشر جريدة كان الطبيب «رينودو» ينشر فيها الاخبار والاحاديث اليومية لتسلية مرضاه وأصحابه ، وصدرت من بعدها عام ١٦٦٣ جريدة علمية سميت «جرنال العلماء» فعظم اقبال الناس عليها ، فتلتها في فرنسا جرائد كثيرة من مثلها كجريدة «مركور» و«فيزه» و«تريفو» وغيرها . وكانت هذه الجرائد الفرنسوية — او اكثرها — خالية عن الاخبار والآراء السياسية ، مقصورة على مباحث من العلم والادب لا يزاد فيها على استحسان كتاب ، وانتقاد آخر ، ويراد شيء من الشعر واللطائف على سبيل المفاكهة ، فلم يكن بها لعامة الناس فائدة تذكر . وانما كانت الفائدة لذلك العهد في جرائد الانكليز ، فانها كانت تنشر اخبار السياسة ، وتعلن آراء العلماء ، وتلم بكل مبحث مهم ، لا تخاف دركا ، ولا تبالي بأحد فيما لا يخالف أحكام القوانين . وكانت قوانين الانكليز من ذلك الحين عادلة .

واستمرت الجرائد الفرنسوية على ما اوضحناه من حالها ، تنطق بسفساف القول ، وتطلب مظان الزلفى الى ذوي المقامات العالية ، واذا ارادت نشر نبأ من السياسة ، ورأي في تدبير الامور — على تقدير ان تكون مأذونا لها في ذلك — تعين عليها عرض ذلك النبأ ، او هذا الرأي لديوان المراقبة مكتوبا قبل الطبع ، ومطبوعا قبل النشر ، فان اجاز لها اذاعته فعلت ، والا رمت به من حالق ، الى حيث كانت ترمي الحقائق ، فكانت بذلك آلة صماء ، يديرها القوي كيف شاء ، حتى انتقضت هاتيك الاحكام ، وتحولت تلك الاحوال ، ووضعت للدول اوائل

هذه المئة قوانين ادنى الى العدل والحرية ، فنشطت الجرائد من عقالها ، وانطلقت متبارية في مجالها ، فكثر عددها ، وعظم نفعها ، وتدرجت في مراتب الخطر وعلو الشأن ، حتى بلغت المقام الذي نراها فيه الان ، وصار منها في بلادنا المحروسة صحائف غير قليلة تكتب بالعربية والتركية وسائر اللغات . وكانت اول الجرائد العربية جريدة الوقائع المصرية . واكثر بلداننا صحائف اخبار دار السعادة العلية ، ثم بيروت ، ثم الاسكندرية والقاهرة ، ثم ازمير .

«المبحث الثاني»
في أحوال الجرائد وآثارها (٢)

تبين مما تقدم ان الجرائد كانت عند نشأتها اضاحيك هازل يلهو بها امراء الناس واغنياؤهم في مفامس نعيمهم ، ثم صارت اماديح واهاجي للمؤلفين ، وتواشيح وأغاني للامراء ، واجيز لبعضها نشر ما يتيسر من أخبار البلد ، وأنباء السياسة ولكن على شريطة ان تعرض لديوان المراقبة ، فيحذف من انبائها ما شاء غير معارض ولا معترض عليه ، فكانت الجرائد على هذه الحالة آلة لكسب المال ، او ذريعة لنيل الآمال ، لا يلتمس بها النفع الا لكاتبها ، ولا تقصد منها الفائدة الا لصاحبها ، ولا يعبأ فيها بالحقيقة ما لم توافق «مقتضى الحال» .

ثم طلع نور العلم والعدالة على ظلمات الظلم والجهالة فبددها ، واغار جيش الحقائق والنباهة على عساكر الاباطيل والبلاغة فشردها ، فجرت روائد الافكار ، وانطلقت جرائد الاخبار ، تطلب مستودعات السرائر ، وتكشف اسرار الضمائر ، وتجلو آراء ذوي النقد ، وتظهر آراب اهل الحل والعقد ، حتى عظم شأنها وعلا ، وصارت هي الدليل على منزلة القوم من التمدن والعرفان ، بين ابناء الزمان . ورأينا منها صحائف تنطق بلسان الجمهور في الدعوة الى اقامة الامور ، وتعين أوجه الفلاح ، وتنهج مسالك الرباح ، وتبين خفايا الفساد ، وترشد الى طرق السداد ، فيخافها المعتدون واهل الخيانة ، وتطيب بها أنفس الصادقين وذوي الصيانة .

وما تستوي الجرائد في هذا الحد ولكنها مختلفة الشؤون والاحوال باختلاف الاحكام والعادات والحالات المدنية فيممالك الارض ، فهي كالناس درجات بعضها فوق بعض . على انها تتبع القوم في مسالك الترقي (على القول بأنها ترجمان الآراء) او ترشدهم الى سبل التقدم (على القول بأنها دليل الخواطر) فتكون مماثلة لسوادهم الاعظم فيما هم عليه من صلاح او فساد ، وعلم او جهل ، وكرامة او

---

٢ ــ التقدم ، العدد ١٠٠ ، ٢٤ كانون الاول ١٨٨٣ ، أعيد نشرها في الدرر ، ص ٤١٤ .

هوان ، فأما رأيت الجرائد تعلو بما يظهر من فضلها ، وتجل بما يبدو من صدقها ، وتثمر الخير لاصحابها بما يترتب عليها من النفع العميم ، فثم قوم عرفوا الحقيقة ، وسلكوا في شؤونهم أقوم طريقة ، واما رأيتها تعلو وهي بالسفالة أحق ، وتسفل وهي بالنبالة اولى ، ولا ينظر في شأنها الى وجه الحق والفضل ، فهناك قوم باعوا الهدي بالضلال ، وانطلى عليهم المحال .

على ان الجرائد في الجملة نافعة الاثر ، عظيمة الفائدة ، تظهر الحقائق او تكون دليلها ، وتقرب المعارف او تمهد سبيلها ، وتروي أخبار الاقطار قريبها والبعيد ، وتحكي آراء الناس طائشها والسديد ، فتقرب مسافة ما بين البلدان، وتصل بين الخواطر والاذهان ، فان لم تكن من اللاتي حصلت لهن الحرية ، او كملت فيهن المزية ، فلم تقل كل ما تعلم ، او لم تعلم كل ما تقول ، فأقل ما فيها من النفع انها تجمع شتات الاخبار ، وتعلن آثار الافكار ، فتكفي المطالع مؤنة البحث والاستخبار .

فان قيل ما فائدة الجرائد الناضبة المائية ، المقصورة على حكاية حال ، او رواية خبر من غير نقد ولا بيان لاوجه النفع والضر ، وكيف لا يترتب الضرر على الصحائف التي تهيج الانفس ، وتبث الشحناء في القلوب ، وتوقظ الفتن والحروب ، قلت اما هذه فهي فاسدة لا محالة . على ان الضرر غير مترتب عليها بالحصر وانما هي اللسان الناطق بالمشارب الكامنة في بعض الصدور ، فوجودها ينفع من هذه الحيثية اي من حيث انها تظهر تلك الموبقات الخافية ، فيسهل التحرز منها ولا يضر من وجه آخر لان الكلمة لا تؤثر في النفس الا بمقدار استعدادها للانفعال ، ومن كان سليم الذهن راشدا لا يستوي عنده الهدى والضلال . بل ربما كان تشفي ذوي الاحقاد والضغائن بأقوال تلك الجرائد، مانعا لهم من ارتكاب الشر فعلا ، حائلا بينهم وبين التستر في نصب المكائد والاشراك يدل على ذلك ما نراه من الفرق بين اعمال الفنائية في الروسية ، والاباحية في فرنسا . فأولئك يقاتلون الملوك ، ويفتكون بالامراء ، ويملأون قلوب سائر الناس خوفا ، وليس لهم جريدة منشورة . وهؤلاء على كثرة جرائدهم نسمع منهم جعجعة ولا نرى طحنا . اما الجرائد القليلة المادة المقصورة على حكاية بعض الوقائع ، ورواية شيء من الانباء ، فلا تخلو من الفائدة التي ذكرنا ترتبها على جمع شتات الاخبار ، وهي اما ان تكون في قوم من الذين ترقوا في مراتب التمدن ، والمعارف ، والحرية فغايتها النماء ، او الخفاء ، واما ان يكون قومها من الذين يستخفون بآثار العلم ، وحاجات العقل ، ولا يقدرون الجرائد حق قدرها ، فلا تثريب عليها في القصور انها تغزل مما ينسجون ، او تنسج مما يغزلون . ولو رأت منهم ما ينبغي لها من الاقبال ، وحسن الاشتمال ، لتزينت لهم زينة العيد ، وبدت كل يوم بثوب من الحسن الجديد .

***

«المبحث الثالث»

«في حرية الجرائد» (٣)

تنوعت آراء الناس في حرية الفكر الشاملة لحرية اللسان والقلم ، واختلفت أحكام الدول فيما أجازته وما حظرته من مظاهر تلك الحرية ، فلم تكن الجرائد من هذه الحيثية سواء في جميع البلاد ، وانما هي في بعضها مطلقة لا حد لها الا القانون العام ، وفي البعض مقيدة بأحكام مخصوصة بها تكون قريبة من الرفق، او بعيدة عنه بمقدار بعد القوم عن الحرية المدنية والسياسية وقربهم منها .

وقد كان الانكليز أسبق الناس الى الحرية على اختلاف مظاهرها وأنواعها ، ففازت بها جرائدهم تامة مطلقة من غير حد الا قانونهم المتبع في جميع المعاملات ، على حين لم تكن الجرائد في سائر الاقطار الا بوقات مدح ومزامير حمد للوجهاء والاقوياء ، ثم تلتها جرائد فرنسا بعد الثورة فانطلقت في مجال الاهواء ذات اليمين وذات الشمال ، وأساء بعض اربابها استعمال الحرية ، فدعوا الى القتل والنهب وانتهاك المحارم ، فكانوا كالمجنون تقلد سيفا ماضيا . ثم قامت الامبراطورية في فرنسا على جثث حماة الجمهورية ، وانصار الحرية ، فقيدت الجرائد بنظام بين الرفق والشدة ، وتعاقبت من بعدها الدول تارة ملكية ، وطوراً جمهورية وحينا امبراطورية ، فكانت الجرائد تنتقل من طور الى طور حتى اتت عليها هذه الجمهورية الاخيرة وهي غير مطلقة الحرية ، بل كانت الى سنة ١٨٨٠ لا تصدر الا باذن من الدولة ، وضمان مالي مقداره ٥٠ الف فرنك يستودع لوفاء ما عساه ان يحكم به على الجريدة من المغارم ، ولا تأمن مع ذلك ان تحظرالحكومة بيعها جهارا من غير محاكمة ، ثم ابطل هذا القانون ، وألغي حكم الاذن والضمان، وحظر البيع ، ومع ذلك بقي للجرائد في فرنسا قانون مخصوص بها فلولا ان حكومتها لا تعمل بشيء من أحكام هذا القانون ، لكانت أضيق حرية من جرائد الانكليز .

والجرائد في الولايات الاميركية وسويسرة ، مطلقة الحرية ، غير مقيدة الا بالاحكام والقوانين المرعية في محاكم المعاملات كجرائد انكلترة . وليست كذلك في ايطاليا وأوستريا واسبانيا وغيرهن من الممالك الدستورية ، ولكنها بالجرائد الفرنسوية اشبه من حيث انها مقيدة بنظام تهمل الحكومة أحكامه في اكثر الاحيان ، كراهة اغضاب الجمهور .

وما ننكر ان صحائف الاخبار لم تبلغ بعد في بلادنا المحروسة ما بلغته من الحرية التامة في بعض الاقطار الغربية ، ولكن من نظر الى أحوالها بعين الانصاف

---

٣ ـ التقدم العدد ١٠٩ ، ٢٨ كانون الثاني ١٨٨٤ ، اعيد نشرها في الدرر ، ص ٤١٧ .

ذاكرا قرب عهدنا من الحرية المدنية ، والمعارف السياسية ، غير ذاهل عن وجوب التدرج واستحالة الطفرة في كل الامور رأى قانونها بعيدا من الجور ، قريبا من الرفق ، يماثل قوانين الجرائد في كثير من البلاد الاوروبوية ، ويفضل بعضها بسعة الحرية في كثير من الاحوال، فهو يجيز لها اي للجرائد ان تنتقد الادارات، وتبدي رأيها في المهمات الوطنية ، وتظهر سيئات العمال والمأمورين صغارا وكبارا ، مرؤوسين ورؤساء ، من اقل الخدم الى الوزراء ، لا تخاف في ذلك دركا ، ولا تخشى احدا ، ولا يلزمها الا مراعاة أحكام القانون من حيث المقدرة على اثبات ما تقوله في المحاكم النظامية ، وهو عين ما يلزم الجرائد في اكثر الاقطار العريقة في الحرية . وليس في قانوننا من استثناء في القاعدة التي تجيز للجرائد ما ذكرناه الا ان ذات الحضرة السنية السلطانية مقدسة لا ينبغي ان تذكر الا بما يجب لمقامها الكريم العالي من الاجلال والاحترام ، وان لوكلاء الدول حرمة واجبة الرعاية ، فلا يسوغ القدح في ذواتهم وان جاز انتقاد ما يقولون وما يفعلون مما يتعلق بالسياسات . وهذا الاستثناء اي ايجاب الاحترام لذات رئيس الدولة ووكلاء سائر الدول المقيمين لديه ، مرعي معمول به لا اقول في الروسية والمانيا فقط ، بل في اوستريا وايطاليا وجمهورية فرنسا بل فيانكلترة وجمهورية سويسرة .

فمن ظن جرائدنا معقولة مقيدة ، محظورا عليها ما يجوز للجرائد في سائر الاقطار من النقد والتخطئة ، والمؤاخذة والتسوئة في مكان الغلط والخطأ والسوء ، ومن ابداء رأيها وما تقف عليه من آراء الناس في مسائل الادارة ، ومشاكل السياسة ، وفي كل مبحث له في صحائف الاخبار مقام ، فقد ناله الوهم ، وفاته الصواب ، انّا نستطيع جل ما تقوى الجرائد عليه في معظم البلاد الغربية كما يعلم ذلك من وقف على بعض جرائد الآستانة العلية ، فان كانت بعض صحائفنا خالية عن الآثار الدالة على الحرية او سالكة من «مدارة الخواطر» مسلك اهل الرق والعبودية . فالقصور منا والذنب لنا ، وليس العيب في القانون . وفقنا الله لحفظ نظامه ، والعمل بأحكامه ، ويسر لنا القيام ببعض الواجب من خدمة الدولة والامة ، فتلك أشرف خدمة ، بل أسبغ نعمة ، ولاسيما في عهد من كتب لرعيته من الحدثان أمانا ، وملأ أرجاء بلاده عدلا واحسانا ، سيدنا السلطان الاعظم ، ومولانا الخليفة الاشرف ، أيد الله بالعز مقامه ونصر ألويته وأعلامه ، ولا زال السعد خادمه والزمان غلامه .

***

سنة «مصر» الاولى (٤)

تنطلق الايام تباعا ، وتسير الاعوام قطارا ، ونحن بين وداع ولقاء ، وكدر وصفاء . وهذه جريدتنا بين عامها الاول تودعه ، وهي تقول (يا راحلا عني رحلت مكرما) وعامها الثاني تلقاه وهي تنشد (يا نازلا عندي نزلت معظما) وفي صفحتها مما رسم الاول «العدل لا يكون للحقيقة ضدا» ومما نقش الثاني «الفكر لا يكون للرغيبة عبدا» .

وقد كان لها في عامها الاول حركة سير بينة ، لغاية معينة ، أدت بها حق الخدمة وفرضها ، وقضت الواجبات او بعضها ، فانتقلت الى ثغر الاسكندرية تنشد بها ضالة الرجاء ، وتنتجع سحابة النجاح ، فشبت على صغز ، وانجلت بأبهى من الحلي وابهج من الحبر ، وعارضها اول العين من المعاذير ، ما دفعته عنها المقادير ، وسلكت من القصد منهجا ، لا تخاف فيه من لام ومن هجا ، فأقبل عليها من كان معرضا، وصدفت ما كان معترضا ، فبلغت من النجاح مكانة يحسدها القاصر عنها ، ومنزلة يمقتها الطامع فيها ، وارتسم عليها بحروف من الضياء ، ومنتخب الشكر ومنتقى الثناء ، لمن اكتسبت منهم جمالا ، وأصابت احسانا ، وكانوا لكسرها جبرانا ، (فضاءت وجوه وسيئت وجوه) ومن جزموا بظهور فضلها ، وقطعوا بوجوب وصلها (ولا يعرف الفضل الا ذووه) .

غير ان تكامل الشيء لا يكون دفعة فان الطفرة اي الانتقال بغير قطع مسافة محال ، وأسباب الاعمال لا تتوفر الا تدريجا . وانّا لا نجهل ان من فروضنا ما لم نقضه، ومن واجباتنا ما لم نأت على بعضه، ولا ننكر والصدق منجاة، ان بضاعتنا من العلم مزجاة، ولكن غاية الفضل، جهد المقل، ومنتهى القصور، نقص القادر على التمام. ومن كان فاعله الارادة، وقابله حسن النية، حصل فعله كاملا ان امكن الكمال، وتم له صلاح الحال ، وحسن المآل . اما الارادة ، فلم تتجاوز بنا جانب الجهد، ولم تخرجنا عن السبيل القصد ، وهو استكمال اسباب التقدم لهاته الصحيفة والاهتمام بشأنها اصلاحا وتحسينا . وأما حسن النية ، فقد اوجب علينا شرب التحامل على كدورته ، ولبسه على خشونته ، والتزام امور لا تخرج عن حد الفائدة ، ولا تتجاوز خط الاعتدال .

فمنها حسن الاختيار في النقل ، وهو من اهم واجبات الجرائد ، ومنها تقديم الاهم على المهم ، وانتقاء الاخبار الموجبة لإحياء الهمم ، والتعاون والتوازر على استجلاب العزة ، ودفع المعرّة ، وانتخاب الاقوال المؤيدة للحقائق ، الناقضة للاوهام ، الداعية الى الائتلاف ، والمبعدة عن الشقاق والاختلاف ، رجاء تقوية

---

٤ ــ من مقالاته في جريدة مصر التي انشأها بالمحروسة سنة ١٨٧٧ ، وأعيد نشرها في الدرر ص ١٠٧ .

الروابط الانسانية بين اهل هاته اللغة على اختلاف مشاربهم ، وتنوع مذاهبهم ، مع العلم بأن سماء المشرق لا تصفو لمن يسير هذه السيرة ، وان ارضه لا تنبت خيرا لمن تكون له هذه السريرة ، ولكن للافكار حركة مستمرة تقطع بها عقبات الاوهام ، لتدرك غايتها ، وهي الحقيقة ، وللنفوس آمال ، منوطة بالاستقبال .

ومنها تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى في الافهام ، واطراح ما يتجافى من اللفظ عن مضاجع الرقة ، وما كان منه غريبا تنفر منه الخواطر ، وتشمئز النفوس . فانه لا عذر لمن يقول عقنقل ، وفي اللغة كثيب ، وقدموس ، وفيها قديم . والشهر المنصرم ، وفيها الماضي ، والسابق ، والغابر ، والمنسلخ ، والمنحسم ، وكثير غيرها . وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، واطراحنا فاسد التركيب وعاميه . فانه داء اذا سرى في عامة الناس أمات اللغة ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم . ولا أزيد بها القارىء علما انها كنوز لا توصف نفاسة ولا تعد كثرة .

على اننا لا ننكر ان لحركة العصر حكما قاطعا ، ولاصطلاح اهله قضاء نافذا ، وان كاتبنا في هذا الزمان لا يستطيع ان يتلو تلو السابقين من المولدين والمتقدمين ، فان علمهم كان زائدا عن حاجات عصرهم ، اما هو فحاجات عصره تزيد عن علمه . وذلك فضلا عن الترجمة وتشعب مذاهبها ، فانها الغاية التي يتبارى اليها كتّاب هذا العصر ويتسابقون ، ولكن قليلا ما يدركون .

ومنها السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات ، وقيود القوانين ، والاعتلاق بأهداب الصدق ، والتشبث بأذيال الاعتدال ، والتنزه عن الغرض الموجب للانحراف ، والميل الباعث على الارجاف مع التثبت في القول المنقول ، والتدبر للراي المعقول ، كراهة ان ننقل من الروايات ما هو مجروح ، ومن الآراء ما هو مرجوح ، ملتزمين في جميع ذلك ان لا نتكلم ، بما لا نعلم ، ولا نماري في ما علمنا . مجتنبين ما كان من الالفاظ موجبا لنفور النفوس ، وانكسار الخواطر . وجملة الامر انّا لم نأل الجريدة خدمة ، والمشتركين امانة، والاعتدال انقيادا . والصدق طاعة . فان لم يكن في جميع ذلك قضاء للواجب ، واداء للفرض ، فلا أقل من امتزاجه بحسن النية ، وسلامة الطوية . وان لم يكن فيه فائدة كاملة ، ومزية ظاهرة . فان اول الغيث القطر ، وما لا يستطاع كله لا يحتقر جله ، على اننا لولا الحذر من الغرور ، لما رضينا للجريدة بما نرضاه لنا من القصور فانها قد بلغت وهي في سن الطفولية مقام الكهول ، وصار لها من الراغبين في مدة اشهر ما لم يجتمع لغيرها في مدة أعوام . فقوي بهم عضدها ، واشتد عزمها . ولم تنس انس اقبالهم عليها ، وانعطافهم اليها ، فهي تشكر لهم بما تحسن ، وتثني عليهم بما تعلم ، وأين ذلك من الولاء ، وواجب الثناء . وتذكر لوكلائها فضلا ممنونا ، وتشكر لهم سعيا محمودا .

اما نحن فغاية ما نبديه من شكرهم ، الاعتراف بالقصور عنه فانهم :

ما روضة وشع الوسمي بردتها   يوما احسن من آثار سعيهم

ومنتهى ما نجليه من وصفهم ، الاقرار بالعجز فيه . فانهم :

ما العود ان فاح نشرا او شدا طربا يوما بأطيب من تفريع وصفهم

وقصارى ما نتلوه من ثنائهم . انهم :

ما الدوح تفريعه بالزهر متسق نظما بأطيب من تفريع ذكرهم

ومسئولنا ان يتجاوزوا عما يرونه لنا من خطأ أدى اليه الوهم ، او قصر عنه الفهم . وان يقابلوا بالعفو ، ما يرون من السهو ، ويديموا ما عودونا من الفضل والمساعدة ، والنجدة والموازرة ، لننهض من الخدمة بما يزلفنا اليهم . فان لنا في قضاء واجباتها رغبة ، تدفع الرهبة من تخطئة العائبين . وانّا على حد ما قال (روسو) ننطق عن غيرة وان فاتنا العلم . او على حد ما نقوم نستخدم اللسان للقلب ولا نعكس . والله ولي التوفيق وهو الهادي الى سواء الطريق .

***

بيان (٦)

لا تقع في العالم حركة الا بمحرك ومتحرك ولا يكون تقارب ولا تباعد الا بجاذب ودافع ، ولا يحصل شيء الا بفاعل وقابل ، ولما كان الانسان جزءا من هذا العالم الكبير ، كان بالطبع ما ينشأ في عالمه اي في سيره وحركته تابعا لتلك الاصول الثابتة في عالم الكل وبناء على ذلك اقول :

قد كثر تحدث قومي بما أصابته مصر من رفعة الشأن ، وما بلغته من التقدم في التمدن والعمران ، فطمعت النفس الى قصد جانبها على رغم كل مانع ، حتى اذا ساعد الزمان على ذلك وجئتها نزيلا ، انست بها من جانب الطور أنوار فلاح ونجاح ، فأحمدت سراي ورأيت فيها من مآثر خديويها ما عاد به عهد عمرانها جديدا ، ورد عنها طرف الحسود كليلا ، وقد كان حديدا من محاسن آثار اعادت اليها الشباب بعد المشيب ، وكستها رداء الحسن وهو قشيب . وآثار محاسن يعيا بوصفها الواصفون كأنها نموذجات من الجنة التي وعد بها المتقون . فنشأ فيّ انفعال وتأثر ترتب عليهما عزم جديد ، وهمة طماحة ، مع انحطاط

---

٦ ــ كتبه عندما نقل جريدة مصر الى الاسكندرية ، وشارك سليم نقاش فيها ، وأعيد نشر المقال في الدرر ص ١٣٩ .

القوة ، وقصر الباع ، ونزارة المادة ، وقرب العهد من الرجولية ، وحدثتني النفس بالاقدام على امر خطير ذي بال لا يستطيع القيام به ألا كل من جادت رياض فكره سحاب الآداب والحكم ، وابتسمت فيها ثغور انوار المعالي والهمم ، وما زلت انظر الى ضعف قوتي ، وصعوبة المرتقى ، حتى كاد فرط التهيب مرة، وعظم الامر تارة ، يقفان بي عند اول فصوله ، ويحملانني على اليأس من حصوله ، وما برحت مكابدا فيه الم التردد تجذبني اليه جذبات من الامل ، وتدفعني عنه خشية الخيبة والفشل ، حتى انعكست أنوار هذا الخاطر الى صدور بعض ذوي الهمة والفضل ، فسارعوا الى الترغيب فيه ، والحث عليه ، والوعد بالمساعدة ، حتى ذللوا ليّ صعابه وفتحوا ابوابه ، فشرعت فيه مجبرا ، بصورة مختار . وانشأت هذه الجريدة على علمي بقلة اطلاعي ، ونزارة بضاعتي ، واوجبت على نفسي فيها أمورا ، وتجافيت عن الرغبة في أمور مراعيا على كل حال حقوق الانسانية ، والوطن ، واللغة ، معتنيا بجعل سيري موافقا لسير المعارف في هذه الاقطار ، ورأيت من الواجب عليّ :

اولا ان اصرف العناية والاجتهاد الى تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة لتقرير المعنى في الافهام ، من اقرب واعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنبا ما كان من الكلام غريبا وخشيا ، او مبتذلا سوقيا ، فان التهافت على الغريب عجز وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الانشاء داء اذا سرى في القراء والمطالعين أدى الى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل الى الفاظ العامة يقضي باماتة اللغة واضاعة محاسنها ، وان في لغة القوم لدليلا على حالهم .

وثانيا ان اسير في السياسة سيرة محب لوطنه ، لا تأخذه فيه لومة لائم وناقل عدل لا يتجاوز به الميل جانب الانصاف ، ولا يحمله الفرض على المماراة والارجاف ، وراو ثقة لا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري في ما علم ، واذا رضي لم يقل غير الصدق ، واذا سخط لم يتجاوز جانب الحق ، وصديق رفيق بأهل دياره ولغته ، يروي لهم الوقائع متجنبا الباسها اللفظ الموجب لنفور النفوس ، وكسر الخواطر ، متجافيا عن نشر الاباطيل والترهات مما يتهافت عليه المبطلون من اهل الاغراض ، ملتزما إحياء الهمم في اهل هذه اللغة ، داعيا الى التعاون والتوازر على خطب الشرف ، واستجلاب العزة ، ودفع المعرّة ، ملتمسا تقوية الروابط الوطنية ، مجتهدا في دفع العداوات المبنية على الاوهام ، الموجبة لزوال السعادة ، مقاوما كل عنيد يسعى في ايقاع الفتن ، وإحداث الشقاق ، متحملا من كل باغ اشرب في قلبه حب البخل تحاملا لو وافقني الطبع على مقابلته بمثله، لتمنى ان لا يكون شيئا موجودا ، صابرا على اذى كل جاهل غوي همه ابدال الحق بالباطل ، وادالة الحسن من القبيح ، وتغيير الصلاح بالفساد ، معرضا عن كل أحمق امعة ، لم يستضيء بنور العلم ولم يلجأ الى ركن وثيق ، فهو يتبع كل ناعق ، ويميل مع كل ريح ، دافعا بسلاح الحق عن الحق قوما جهلاء تمادوا في

غيهم ، وأسرفوا في تحاملهم ، حتى ملَّهم الباطل ، وسئمهم النفاق بعد ان نبذهم الحق ، ولفظهم الصدق ، ففاتهم هذا ولم يبلغوا ذاك فلم يرض بهم العالم ، ولا الجاهل ، ولا الظالم ، ولا العادل ، ولو رزقوا ساعة ادراك فنظـــروا ما قدمت أيديهم لقالوا يا ليتنا كنا ترابا .

وثالثا ان اقضي واجبات الجرائد بنشر المقالات العلمية ، والادبية ، تنبيهــا للخواطر ، وتدميثا للاخلاق ، وقد اختصصت هذا الباب بمعظم العناية لانه علم يستفيد منه العالم ، والجاهل ، والكبير ، والصغير وذلك لان العالم غير متناه فانه نتيجة حركة الفكر الناشئة عن الحركة الكلية التي يستحيل انعدامها لتعين انعدام الزمان عليه ، وهو بالبداهة مستحيل خلافا لكل مغرور يزعم ان من تعلم مسألة من العلم او مسألتين ، صار في غنى عن مطالعة المطالب العلمية . وايم الله لو بقي الانسان في سلسلته الكلية ألوف ألوف من السنين ، مستكشفا في كل يوم ألوف ألوف من المسائل ، وفاتحا في كل اسبوع بابا من ابواب العلم ، لما تجاوز الخطوة الاولى من سيره في هذا المجال الوسيع ، وكذلك الآداب فانها مما يفتقر اليه الناس على اختلاف مراتبهم ، لان استقامة الاخلاق غاية فـــي الصعوبة ، واصعب منها الفرق بين حسنها وقبيحها . اما ترى ان الانسان اذا نظر بمجهر عقل الكل لا يستطيع ان يميز بين الوقار والتكبر ، وبين التواضـــع والذلة ، وبين الشجاعة والتهور ، وبين الاقتصاد والبخل ، وبين التبذيـــر والسخاء ، وان عاش عمرا طويلا . وان الانسان ولوع بحب ذاته ، عزوف عن الحكم بقبح ما اتصف به ، كما ترى ذلك في من يعترض علينا في هذا المقـال وانه محل للغفلة وهو والحالة هذه محتاج ابدا الى منبه ، ومذكر ومبين للاخلاق.

ذلك بيان سيري في تحرير هذه الجريدة ، ولقد وقع هذا السير موقـــع القبول عند ذوي الطينة الطاهرة ، والعقل الكامل، والنفس النزيهة عن السفاسف ودنيئات الامور ، في مصر والشام وسائر الاقطار العربية وأذاعته ألسنة الجرائد المهمة على انه لا يخفى ان الحكمة قد اقتضت ان يكون في عالم الوجود الكلي ما هو شريف بالطبع وما هو خسيس بالطبع فكان لذلك في عالم الاجتماع الانساني أفراد متصفون بالادب والكمالات ، متنزهون عن النقائص والمعايب ، من كل نبيه حميد السعي ، جليل الاثر ، ووجيه طيب السريرة ، جيد السيرة ، وآخـرون متجردون عن الفضل والعلم ، منتصرون للجهل والفباوة ، مـــن كل غبي ، يجهل ويجهل انه يجهل ، وباغ ، خلق الهمة رثيت المقال ، فلا عجب ان يكون في هذا السير مناقضون ومعارضون ويكون لهم مؤيدون ومصدقون كما سأذكره في ذيل هذه المقالة .

ومعلوم انه لا يمكن تكامل الشيء دفعة ، وان الطفرة في عالم الوجود محال وان البداءة لا تخلو من النقص ، وان اسباب الاعمال لا تتوفر الا تدريجا ، ولهذا كان من همي السعي في استكمال اسباب التقدم لهذه الجريدة ، واصلاح شأنها وما برحت مهتما بذلك مشتغلا به ، الى ان فطن لما في خاطري صديقي الابـــر

الاديب الذكي النفس سليم افندي النقاش منشىء التياترو العربي ومديره حفظه الله فرام ان يجدد لي ما اعرف من مساعدته ، وبسط لي يد المودة فاستقبلتها بيد القبول ، وتعاقدنا شركة ودادية نكون بها يدا واحدة على النهوض بأمـــر الجريدة ، والاهتمام بشأنها تحسينا واصلاحا ، واخترنا المقام بالاسكندريـــة لاسباب لا تخرج عن دائرة مصلحة الجريدة ، وانشأنا ثم مطبعة جديدة حسنة الحروف والاشكال ، كاملة الآلات ، جيدة الادوات تبرز فيها الجريدة بأبهى من الحبر ، وابهج من الحلي ، مع تمام الانتظام ، وغزارة المواد ، وكثرة الفوائد، وحسن الترتيب والتبويب ان شاء الله ، واني وان ترحلت عن محروسة هـذه الديار لحافظ لسادتي وخلاني من اهلها ذكرا يبعث الوجد فأقله ، وشكرا لا أمله تدوم به نعمهم عليّ ، وانعطافهم لي .

واذا تقاربت القلوب فعهدنا ... لا ينقضي بتباعد الاجسام

ولا ريب عندي ان البعد عن نواظرهم ، لا يكون مبعدي عن خواطرهم فانه :

كلما ابعد الهلال عن الشمس ... حبته فيضا وزادته نورا

***

جريدة التقدم (٧)

تتعدد مظاهر الوجود ، في الكائن الموجود ، فيتدرج في مراتب الكمال بمـا له من معدات الكون والبقاء ، والحركة والنماء .

فلا تأسف على الحبة مدفونة في الارض شتاء انها ستنبت في الصيف نامية نتوجا ، ولا تبك الشجرة مجردة في الخريف انها ستبدو في الربيـــع خضراء ناضرة تسر الناظرين .

ولقد اتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت حبة قصدها وجرد غصن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الايام ، وعاديات الحدثان ، ثم انجلت بهذا المظهر لم تنشأ من العدم البحت ، ولم تبد بعد المحو المطلق ولكن تقمصت من الحياة ثوبا جديدا .

فهل الان رسول رجائنا الى الذين عرفنا والذين عرّفنـــا من أحباء الادب ،

---

٧ ـ افتتاحية العدد الاول من التقدم ، حين تسلم تحريرها للمرة الثانية في ١٠ كانون الثاني ١٨٨١ ، اعيد نشرها في الدرر ص ٢٧٢ .

تصدر اليهم يوم الاثنين ويوم الخُميس من كل اسبوع مشتملة على المهم من أخبار السياسة ، والراجح من آراء ذوي النقد ، والنافع من شذور الآداب ، والمأثور من خطرات الالباب .

نجمع فيها السياسيات تحصيلا ، ونبسط الادبيات تفصيلا ، لا نسود منها بالرياء وجها ، ولا نملأ لها بسفاسف القول وطابا ، ان سطرا مما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء ، وان كلمة مما تدعو اليه الحكمة ، لأنفع من كتاب مما تبعث عليه الاهواء .

وقد اخترنا لها ما يرى في هذا المثال من الترتيب ، والتبويب ، معولين فيه على عذوبة المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الايضاح ، لا تتكلف لجميع ذلك الا الافهام ، ولا نعتمد غير تقرير المعاني في الافهام ، من اقرب وجوه الكلام .

وما ندعي في هذا الاسلوب كمالا ، ولا احسانا ، ان هو الا جهد مقل ينطق عن غيرة وان فاته العلم — ولو فعل كل امرء ما يستطيع من منفعة لما راينا على سطح الارض شقيا .

فاذا بلغنا المأمول ، من القبول ، فتلك يد عندنا لذوي الفضل والحلم ، من اهل العدل والعلم ، والا فحسبنا من العذر بذل الجهد ، ومن التأساء حسن القصد — نرحم مقضيا علينا بالعجز ، ولا نرحم محكوما علينا بسوء النية . نعرف بالضعف في جملة كثير من الانام ، ولا نرمي بنقص القادرين على التمام .

على اننا في ايام ليست كالايام ، وموقف ضنك المقام . نعم ان دولتنا العلية حقق الله بها آمالنا ، وأصلح بعنايتها احوالنا ، قد وضعت للمطبوعات قانونا لينا في غير ضعف ، ووازعا في غير عنف يؤمن المستعصم بعروة الحق والصدق. ولكننا بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ، لا يغني في مباحثها حسن النية ، ولا تكفي سلامة القصد ، فربما انحبس عنا القول من حيث لا نعدم مقالا ، وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالا .

بل لا ينحبس القول ، ولا يضيق المجال ، ان للتقدم أنصارا من اهل الغيرة العلمية ، وأولياء من اهل النجدة الادبية ، لا يضنون عليه بما يجدون من فرائد فوائدهم ، وفواضل أفضالهم ، وليس ما يجدون من ذلك قليلا .

***

السعادة بعد الشهادة (٨)

الحمد لله وحده : هذه صحيفة مصر . طواها الاستبداد فماتت شهيدة ، ثم احيتها الحرية فعاشت سعيدة ، ترسل الى المريدين والاولياء ، ونبهاء القراء، منهية اليهم : ان قد اتاني الله نعمة الحرية ، ومن أوتي هذه النعمة فقد أوتي شيئا كثيرا، ولسوف ترون مني رواية الصادق ، في رأي الامل ، في عزم الآيس.

حاول احدهم في مصر اطفاء نوري وابى الله الا ان يتم نوره وان كره الظالمون . اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان اثيرها الى الفتنة ، بل خاف ان أكشف الحجاب عن حقيقة احواله فزعم اني ناصبته الشر نفرة منه ، وتشيعا لسواه ، وما انا في شيء من ذلك فاني أعز نفسا ، وانبل قصدا ، من ان تستميلني الاشخاص وانما أميل مع المقاصد ، فما كان منها ملائما للمشرب الذي أحسبه حقا :

فذلك من دون المشارب مشربي وذلك ما بين المذاهب مذهبي

وما كان مغائرا للمبدأ الذي اراه عدلا :

رميت به من حالق رمي حانق متى يرم لم يخطىء وان يبغ يداب

***

جريدة المستقل (٩)

تحولت حال هاته الجريدة بعد النازلة التونسية ، فهجرها احد الكتبين فيها الى حمى القنصل الفرنسوي بتونس ومال عنها محررها الاول الى صحيفة البصير، فاحتجبت عن الانظار استحياء ، كما اعتزلت نصف من الغيد ملها الاحباء . ولا عجب في الامر ولا عتب لولا ان بعض المحبين ابتهر وكان عهد الهوى كتم الهوى..

ولقد انحى الزمان على المستقل الذي لم يكن له من اسمه نصيب فصار من مواد تاريخ العصر ، ونحن موردون خبره اثرا تاريخيا كما جاء في الديبا وما من جريدة تعلم حقيقة حاله علم هذه الجريدة .

---

٨ ـ المقال الافتتاحي لصحيفة مصر التي اصدرها في باريس عام ١٨٨٠ ، اعيد نشره في الدرر ص ١٤٣ .

٩ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٣٩ ، تاريخ ٢٣ ايار ١٨٨١ .

قالت :

انشئت صحيفة المستقل منذ نحو عام ونصف عام في تشرين الاول عام ١٨٧٩ . وكان الموسيو مانشيو الذي ولي قنصلية ايطاليا ببيروت زمنا طويلا قد رغب قبيل ذلك الى سيادة اسقفها الماروني ان يرسل الى رومية كاتبا عربيا للترجمة في وزارة الاشفال الخارجية . فأرسل الكاتب المطلوب شهر آب من ذلك العام على نية ان يكون مترجما . وامتحن في نظارة الخارجية بضعة ايام ثم أرسله وزير المعارف (نائبا عن وزير الخارجية) الى كلياري بايهام انه يقيم بها لترجمة دعاوي متعلقة بين بعض الايطاليين والحكومة التونسية .

وبعد ذلك بنحو شهر قدم تونس الموسيو فرنسسكو مدير جريدة (افنيري دي سردينيا) المعروف ، مستصحبا معه المحرر العربي وقدمه الى الموسيو ماتشيو للمذاكرة في امر انشاء المستقل فكان العهد ان الصحيفة تكون اول الامر عربية السياسة محضا وكانت على وفاق هذا العهد الى العدد الثاني عشر منها .

ولما تمت هذه التوطئة التي عدت ضرورية للحصول على ثقة القراء العربيين، راى ملقن الصحيفة ان قد جاء الوقت الملائم للشروع في المقصود بطعن مستمر في قنصل الفرنسيس بتونس ، فأقبل على ذلك وثبت فيه بعزم لا يماثله عزم مستثيرا على فرنسا قلوب سكان افريقية . وأخص افريقية بالذكر لان تونس والجزائر ومراكش كانت أخص موارد هاته الجريدة بما تتضمن من الحث على الثورة الذي نشعر اليوم بنتائجه على طول تخومنا الاسلامية .

ومن لم يتتبع كما فعلت انا جميع أعداد هاته الصحيفة لا يتصور مقدار ما جمع فيها من القذف والطعن والافتراء على فرنسا ومقاصدها وسطوتها . ولكن اهم ما في الامر ان معظم فصول المستقل كانت ترد اليها من تونس او من رومية مكتوبة بالايطالية .

وأزيد في بياني انه قد بلغ المطبوع من هاته الجريدة في ايامها الاخيرة خمسة وعشرين الفا عددا وهو دليل على عظم عناية الايطاليين بها وكثرة المال المعد لها لانه لا يدخل في تصور عارف بأحوال العرب ان هاته الصحف كانت تباع ، فالعرب من حيث كانوا يحرصون على قراءة الاوراق المطبوعة ، ولكنهم لا يشترونها . ولا يخفى ان ٢٥ الف نسخة اذا وزعت بحكمة حصل لها ٥٠٠ الف قارىء وهو عدد لا يكاد يجتمع مقداره من العارفين بالقراءة في قبائل العرب بافريقية التي لا يقرأ فيها الا القليل . ولكن القارىء فيها مسموع الكلمة مرفوع المقام . اما قراء المستقل بالاشتراك اي بالثمن فلم يكونوا سوى مائتين .

***

البصير (١٠)

جريدة سياسية نشرت في باريس باللسان العربي وجاء في مقدمتهـــا ان القصد منها نفع اهل الوطن (كذا) وان يعلم منها العرب الكرام ما يحدث فـــي الغرب والشرق . الا ان صدورها بعيد النازلة التونسية ، وكون جل مطالبهـا دائرة على محور هاته النازلة من طريق اعلاء الكلمة الفرنسوية ودفع الشبهات عن دولة الفرنسيس ، يصرف الفكر في امرها الى غير الوجهة المشار اليها في المقدمة المذكورة ، ويحمل على الظن بأنها انما انشئت لموازنة جريدة المستقل المطبوعة في كلياري بايطاليا لتأييد شأن الدولة الايطالية في تونس . وكيف كان امرها فقد ورد في عددها الاول ان بعض الجرائد الفرنسوية وطأت لها جانب القبول ، وان جريدة منشستر كواردن (١١) قالت ان بعض ابناء العرب المقيمين بباريس انشأوا هاته الصحيفة لمقاومة بعض الجرائد العربية فيما تجهر به من العداوة للفرنسيس مجرد مودة لهاته الامة . وقد اوردت الصحيفة المذكورة هذا القول وشفعته بما نصه : اما قوله ان قوله ان مؤسسي الجريدة وموجديها هم ذوات من ابناء العرب المحبين للفرنسيس ، فهذا صحيح ، وفي طليعة هؤلاء الافاضل الشهم الكريـم الخصال الوجيه فضل الله أفندي دباس من أعيان بيروت حفظه الله .

***

مسلك التقدم (١٢)

من عادة ارباب الصحف من الاوروبيين انهم يبتدئون جرائدهم بتعيين مسلكهم في التحرير ليتضح فيأمن قراؤها التيه في مفاوز المجهول ، ويكون كتابها علـى علم يقين وبينة واضحة مما يقولون ، فلا اولئك يتلقون شيئا يجهلون غايته ، ولا هؤلاء يبتدئون قولا لا يعلمون نهايته ، وعلى هذا السنن جرينا في ايضاح مسلك التقدم كما سيجيء .

وقد كانت جرائد الاوروبيين (ايام كانوا في دور الطفولية مـن عمر النجاح) مختلفة المواضيع ، متنوعة المطالب ، غير مقصورة على فن ، وغير محصورة في باب ، فكانت الجريدة الواحدة علمية وسياسية ، وأدبية وصناعية ، وتجاريـــة ومالية معا ، يطلبها العالم ، ويقرأها المتعلم ، ويجد فيها كل اناس شيئا ممـا

---

١٠ ــ نشرت في التقدم ، العدد ٣٤ ، تاريخ ٦ ايار سنة ١٨٨١ .

١١ ــ المقصود جريدة «المانشستر غارديان» الانكليزية المعروفة . ــالمحررــ

١٢ ــ مقالة نشرها في التقدم ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٧٠ .

يرتاحون اليه . وهذا وان كان في ظاهر الامر مزية في الجريدة ، الا انه مانع من استيفاء المطالب فيها ، واعطائها حقها من البحث ، فما عول الافرنج عليه في صدر تمدنهم الا لضعف موارد الادب عما يقتضيه تكثير الجرائد من سعة النفقات. وهذه حالتنا الان الا في النادر الذي لا يقاس عليه . فان جرائدنا سياسية في باب السياسات ، ادبية في مطلب الادبيات ، صناعية تجارية زراعية مالية على اختلاف الحالات ، وهي ضرورة مبرمة فمن لنا بيد تقوى على رد الضرورات .

فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف احوالهم وما يعتقدون. ولنا على وجوب ذلك حجة بالغة ، وعلى منفعته دليل صريح .

فالوحدة العثمانية واجبة لانه لا بد للامة المختلفة الاصول من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة تؤلف بين القلوب ، ومركز تنتهي اليه خطوط القوى . وليس للامة الداخلة تحت النسبة العثمانية من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة ، فانها موجودة والموجود لا يترك للمفقود . ثم انها متصلة الحاضر المنظور بتاريخ قديم مذكور ، وهي صفة لا بد منها ولا غنى عنها في قيام الدول.

وهذه الوحدة نافعة لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال ، والاستقلال حياة الامم . ولانها اذا حصلت على الوجه الذي نتصوره من الصفاء والسواء كانت سببا قريبا في زوال الإحن والعداوات ، وتألف القلوب والافكار فيقوى بها جانب الامة كما يقوى جانب الدولة ، ولا قوة لهما من غير هذا الباب .

فمن تأمل ما قدمناه وعاد الى نفسه ناظرا في العواقب ، لم يذهل عن احترازنا في تصور الصفاء والسواء في الوحدة كما هو المعهود والمشهود بمقاصد الحضرة السلطانية ، ورجال دولتها العلية ، كان ولا شك على رأينا في هذا المقصد السياسي الوطني محضا .

واما مقصدنا الادبي فهو تعميم التعليم بتقريب المعاني الادبية ، والقضايا العلمية لافهام العوام ، وايصالها لاذهانهم من طريق الصراحة المطلقة في الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الادبية والعلمية قريبة المأخذ ، بعيدة من مواضع الاشكال ، مألوفة تصل الاذهان ، بمجرد دخولها في الآذان ، ظاهرة تكاد تلمس بالايدي وتنال بالابصار . وأكثر ما يرد في منشوراتنا من قضايا العلم وضروب الفنون والآداب ، يكون للعمل أقرب ، وفي الاحوال المعاشية ألزم ، وبالمبادىء الكلية اخص من نحو علم الاخلاق ، واصول التدبير ، وأساليب التعلم والتعليم ، وواجبات الافراد والجماعات . وغاية مجهودنا فيه ان يحصل نافعا للعامة ، مقبولا عند الخاصة يألفه الصغير ، ولا ينكره الكبير ، وينتفع منه المبتدي ، ولا يسأمه المنتهي . فيكون له في مكتب التاجر مكان ، ولا يعدم في قمطر الدارس محلا ، ويجد في غرفة المتنعم موضعا ولا يفقد في خدر الغانية زاوية . ثم انّا نجتنب في كل ذلك ما يمس العقائد ، وما يجلب الخلاف ، وما يمكن ان يؤخذ منه تعمد الطعن في جماعة معلومة من الناس . انّا نحترم الافكار بلا استثناء ، ولا نروم الا تأييد الحقيقة ، ورد الوهم من حيث جاء .

وأما مسلكنا في الرواية فهو نقل الاخبار من مظان الصحة ، ومواضع الرجوح ، والتثبت فيها قبل النشر ما أمكن ذلك في صحف الاخبار بحيث لا نخطىء الا معذورين . ثم انـّا نتخير منها ما كان بمصلحتنا أمس ، ولبلادنا أقرب، وباهتمامنا احق ، مبتدئين بأخبار بلادنا العثمانية ، ثم بأخبار سائر الممالك الشرقية ، ثم بأخبار البلاد الاوروبية ، أقربها قبل القريب ، واهمها قبل المهم معولين في كل ذلكعلى الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية واعتدال الراي.

وأما الاخبار التجارية والمالية وسائر ما يتعلق بالحوادث اليومية ، فانـّا نأخذها من أصح المصادر ، وأصدق الروايات عامدين فيها الى السرعة بقدر الامكان .

وكل ذلك وان كان فيه اجمال عمومي لمقصد الجريدة ومسلكنا في تحريرها ، الا انه لا يوجب ارتباط محرريها جميعا برأي واحد في المواضيع المتنوعة فربما اختلفوا في التفاصيل بل ربما اختلفت آراؤهم في الاصول وكل مأخوذ عليه فيما يقول . فذلك مما تقتضيه حرية الآراء وذلك هو المعول عليه في أقلام التحرير بأعظم جرائد الغرب .

فهذا مسلكنا أوضحناه ، وهذا مقصدنا اظهرناه ، فمن شاء مساهمتنا فعلى هذا نحن مواثقوه ، ومن رام موافقتنا فنحن ان شاء الله موافقوه ، ومن كره ذلك فنحن داعون له بالتوفيق ، لاحسن من هذا الطريق .

في التاريخ

اليونان والرومان (١)

لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائر الامم في جميع الازمنة لكان اوسع منها مجالا ، وأوفر مادة واكثر انتشارا . ولا بدع في ذلك فان هاتين الامتين معدودتان بمنزلة الاصل او الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم الى الغرب حتى ان العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الاوروبية ولا يزال كذلك في الكثير منها الان .

ومن اجل هذا اقبلت على جمع شيء من تأريخهما بقصد المقابلة بين ما نشأ عن كل منهما من الآثار النافعة . والموازنة بينهما في الفضل والمقام المدني . لا اقصد بذلك غرضا في النفس . ولا اخرج فيه عن قسطاس التأريخ . على ان المقام ضنك فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتدىء يعرضها لاخوانه ويسترها عن غيرهم من الناقدين .

ولا بد قبل الشروع في تأريخ الامتين من الاشارة الى جغرافية المملكتين لما بين التأريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الاحوال .

فمملكة اليونان لم يحددها القدماء تحديدا شافيا جليا . وانما قسموها ثلاثة اقسام . البلوبونيزة . جنوبا . واليونان . خاصة في الوسط . وتساليا . شمالا . ثم اضافوا اليها : ايليرية الجنوبية . ومكدونية . وثرافة . والجزائر

١ ـ اول خطبة القاها في جمعية زهرة الآداب ، أعيد نشرها في الدرر ، ص ٥٨ .

اليونانية . هذا حد ما بلغ تقسيمها الاصلي على انه كان لدولها أملاك كثيرة في سائر أقسام الارض بما فتحت من الامصار . وما اكتشف رجالها من الاقطار . وما استعمرت نزالاتها من الديار .

وقد اختلفت تقسيمها عن ذلك عقيب موت بلويس. وفي خلال حرب ترواده . وحرب البلوبونيزة . الى ان دخلت في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايالة او قنصلية رومانية وسميت اخائية . ثم صارت في زمن اغستس ولاية سناتية اي لاحقة بمجلس السنات .

ولما قسمت السلطنة الرومانية في زمن قسطنطين دخلت مملكة اليونان في سلطنة الشرق وما برح اسمها مع ذلك اخائية . ثم صارت مع مكدونية في النصف الثاني من القرن الرابع مملكة براسها الى ان استولى الصليبيون على القسطنطينية فجعلوها امارات متعددة لغير واحد من رؤساء جند البندقية وجنوى . ولما فتح العثمانيون القسطنطينية استولوا على معظم تلك البلاد . ثم تم لهم امتلاكها جملة فجعلوها ولايات اربعا. ولاية تسالونيكية. وولاية بانينا. وولاية ليوادية. وولاية المورة اوثريبو ليبزة. فبقيت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونان لطلب الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكة مستقلة تمتد من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو . ويحدها من الشمال بلاد الدولة العثمانية في اوروبا . ومن الشرق والشمال الشرقي الجزائر المعروفة بالارخبيل . ومن الجنوب البحر المتوسط . ومن الغرب بحر اليونان . وطولها ٢٥٠ كيلومترا وعرضها مئتان .

اما مملكة الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مقسومة ثلاثة أقسام : غالية . او غولة السسلبية في الشمال . وايطاليا خاصة في الوسط . واليونان الكبرى في الجنوب . فكان يحدها شمالا مسكرا وابنين واوتيس . وغربا البحر المعروف بالداخلي . وجنوبا سيرانوس وفرنتو . وشرقا بحر الادرياتيك . ثم قسمت في زمن الجمهورية سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثم غيّر ادريانوس هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولما مات قسطنطين وقسمت المملكة من بعده أطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطاليا ولم يكن كل ما فيهما من البلاد منها . وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستنيانوس الثاني امبراطور الشرق واللمبارديين .

هذا حد ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار التي آلت اليهم بالفتح والاستعمار فمما لا يكاد يدخل الحصر لتشعبه وكثرته وتعاقب انواع التقسم فيه .

ولنعد الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمي اليونان اولا انتسيين اي اهل تربة واحدة وهم في الاصل قبائل وبطون من البلاسجيين ولا يعرف اصلهم في ما وراء ذلك ولكن الاكثرين على انهم جالية من آسية الصغرى .

وقد كانوا قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في حالة البداوة والخشونة ولم يذكر التاريخ لهم من مدينة قبل (سيسيون) التي اختطها اجيالة في القرن التاسع عشر

قبل الميلاد ثم اتتهم أقوام من مصر وفينيقية بأسباب الحضارة والمدنية فاختط ايناكوس وابنه فوروني منهم مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرتة عام ١٨٨٠ ولم تتم على عهده وانما كمل بناؤها على يد ليلبكس عام ١٧٤٢ وبعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين يطلق اسمهم على أمة اليونان الى هذه الايام فاستولى رجل منهم يقال له سيرويس على اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال له دكايون على تسالينوكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس في ثيبة عام ١٥٨٠ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٢ . ومينوس في كريت عام ١٥٠٠ وهذه العصور معروفة فيهم بأيام الابطال لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد والسؤدد والفلاح في الزراعة والصناعات . وفيها ادخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين والفينيقيين . وسنت لاهلها القوانين والشرائع . وظهرت فيهم سطوة الهراقلة . فاستولوا على البلوبونيزة فأتاها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء الهراقلة الى ان امتلكوها على يد اولاد بلويس عام ١٣٠٧ . ثم كانت حروب تروادة التي بالغ شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزج في تأريخها الصدق بالخرافات . وانتهت عام ١١١٠ ثم حصل الوفاق بين الهراقلة والهيلانيين فاستولوا ثانية على البلوبونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف بالوسط وهو الذي وقفت فيه حركة نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة فبعثوا بملاحيهم الى سواحل آسية الصغرى وايطاليا والفولة وهسبانية وسارت ركبانهم بأشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان فاتسع فيهم نطاق الادب . وجدّ بهم الحرص على العلوم والعقائد . حتى صار لكل بلد من اقطارهم معبود مخصوص بذلك البلد . ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرتة عام ٨٩٨ . وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامة أمور العدل فألغي الملك في اثينا عام ١١٣٢ وفي اركوس عام ٨٢٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنتية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبق محفوظا الا في اسبرتة .

ثم ادخلت الى اثينا شريعة دراكونوس عام ٦٢٤ وشريعة صولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروب المادية عام ٤٩٠ فبلغ أبطال اليونان فيها مقاما تنخفض لمثله رؤوس الابطال .

وفي خلال ذلك نبغ فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فتح عليهم بما كان مغلقا على سائر الناس . فأخرجوا الاذهان من ظلمات الجهالة . ومهدوا سبل الخروج من دياجر الضلالة. فاشتهر اشيل وسفقليس واورديبس بفن التراجيدية البديع. وظهر ارستوفانوس بفن الكوميدية البهي. ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التأريخ . وبدأت آثار الحكمة والفلسفة من تاليس وذيموقريطس اللذين ينسب الديموقراطيون اليهما ومن فيثاغوروس وبرمنيدس وهرقليدس وانكساغورس فأنشئت على يدهم مدارس الحكمة الخالدة الآثار . وابدع ابقراط في الطب وهو واضع أصوله وأول كاتب فيه بلغ من العلم بهالى حد ان عدّ علمه وحيا . وبقي من بعده ستمائة عام لم يزد واحد عليه حرفا . الى ان ظهر

جالينوس فأخذ ما كتبه ابقراط وهذبه وزاد فيه .

وظهر سقراط وافلاطون وارسطاطاليس حكماء الارض غير معارضين واشتهر فيدياس مصلح الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عاما وغيرهم كثير من العلماء والحكماء الذين ابقوا لبلاد اليونان مجدا ثابتا على مرور الزمان .

ثم اختلت أمور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية فوقعت حرب البلوبونيزة ودامت فيهم سبعا وعشرين سنة . ثم اجلت عن حصول الامتياز لاسبرتة على سائر البلاد اليونانية . ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد لقدمونية وعظم شأن اثينا بأعمال كولون وافقراط ولكن انتالسيداس واثق الفرس ميثاقا دنيئا عائبا عام ٣٨٧ فكان ذلك سببا في قيام اليونان على اسبرتة .

ثم جرت الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل ذلفة عام ٣٥٥ فكانت وسيلة لتدخل فيليب صاحب مكدونيا في أمور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في طاعته فقاومه دموستين أشد المقاومة وذاده اليونان عن انفسهم ما استطاعوا . ثم دانوا له بعد يوم شيروني عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت قواهم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتهم الرومان على هذه الحال من الوهن واستولوا على ايليرية عام ٢٢٩ . ثم نازلوا مكدونية عام ١٢٨ وامتلكوها عام ١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦ ومذ حينئذ لم يبق لتأريخ اليونان شأن يذكر لما انه دخل في تاريخ الرومان .

ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد . ادخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق وأخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوسفوط والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم . ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلاهم البلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل ثم نازلها فادكسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثم قامت بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة أقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى ان تم الفتح الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام ١٤٥٦ ودافع اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوقعت بيد العثمانيين عام ١٤٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة ١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الا قليلا . وفي ولاية الاجنبي من قبلها خمسة عشر قرنا صابرين ذاكرين مجدهم السابق مترقبين الفرص لاعادة الاستقلال . حتى آن الوقت فنشطوا من العقال . وشقوا عصا الطاعة وأعانتهم بعض الدول الاوروبية فتم لهم الاستقلال وصار لهم مملكة معروفة بهم عام ١٨٣٠ .

اما سلطنة الرومان فخلاصة تأريخها ان ايطاليا كانت معروفة منذ القديم باسم ساترنية . ثم حل بها قوم من الاركاديين تحت لواء (انوتروس) قبل حرب تروادة

بأربعمائة سنة فسميت (انوترية) ثم استولت عليها قبيلة غير تلك من الاركاديين تحت قيادة (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطرودا .

وكان سكانها الاول من البلاسجيين والابوريجيين واللبرنيين . ثم اتاها الهيلانيون من اليونان وجاء بعدهم أقوام من الغاليين فكانت لهم مستقرا مكينا الى ان اتاها بلوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتهم الى الهبوط .

وكانت رومية عامرة منذ اختطها قوم (اني) عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امر الغاليين عدا اهلها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثم سار اهل رومية على الملك «تركين» الملقب بالكبير عام ٥٠٩ قبل المسيح فخلعوه وأقاموا لانفسهم حكما جمهوريا فكانت هذه الثورة سببا في تأخير ظهور آثارهم مائة وستين عاما على انهم جدّوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منه غاية لا تدرك .

وكان في تلك البلاد على ذلك العهد ثلاث قوى عظيمة الشأن قوة الغاليين في الشمال . وقوة السمنتيين في الجنوب . وقوة الرومان اي اهل رومية . فنمت هذه القوة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فأقامت الحرب على ساقها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد . فخضع لها السمنتيون واستولت على بلاد الوسط والجنوب من ايطاليا ثم انصرفت الى محاربة الغاليين على ارضهم المسماة بغالة السيسلبية . فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٣٧٣ ثم وهنت قواهم فاستولى الرومان على بلادهم الا نواحي قليلة منها . وصارت جمهوريتهم اعظم قوة في ذلك الاقليم بل اعظم قوة في الارض على الاطلاق بما حصل فيها من حب الشرف ، وحب الوطن ، وحفظ النظام العسكري . فداخلها الطمع في غير ما ملكت من البلاد فانصرفت قوتها الى الفتوح . واستولت على سردينيا وغولة اي بلاد الفوليين التي هي الان بلاد الفرنسيس . وعلى قرطجنة . وكانت بينها وبين انيبال قائد قرطجنة الكبير حرب ليست كالحروب اوشكت ان تكسر شوكتها ، وتبيد سطوتها ، وتجعلها على شفا الاضمحلال . ولكن ساعدتها التقارير فنجت من ذلك القائد وغلبت عليه . فبلغت معارفها الحربية وقتئذ نهاية الكمال .

ثم اخذت هذه المزية في الضعف بعد سنة ١٢٥ . وضعف معها سائر معارف الرومان . وشبت بينهم الفتن الداخلية فأدت الى تغيير الحكم فصار ملكيا ووسد بارادة مجلس الشيوخ الى اوكتاف فدعي اوغسطس ، ومعناه الامير . وامبراطور، ومعناه القائد الاعظم . فابتدأ اغسطس ملكه باعادة الراحة والامن فتم له ذلك . واجتنب الحرب الا فيما اقتضاه تأمين حدود الملك الى ان مات عنه كاملا محفوظا فتولاه خلفاؤه من بعده الى ان مات تيودوروس عام ٣٩٥ بعد الميلاد . فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب . فأما امبراطورية الغرب فكانت منقسمة خمسة أقسام : بريطانيا . وغاليا . واسبانيا . وايطاليا . وافريقيا . ثم قسمت هذه الاقسام أقساما واندفعت عليها قبائل البرابرة من كل صوب فتلاشت بعد وجودها بمائة عام .

واما امبراطورية الشرق فتاريخها يبتدىء بموت تيودوروس وينتهي باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٥٤٣ وفيه خمسة فصول . الاول من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٥ وفيه اخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب .

والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيه توالت عليها النوائب والمصائب . فتمكن اللمبرديون من ايطاليا . واستقر البلغار والصرب في جنــــوب الطونة . واستولت العرب على سوريا ومصر وافريقيا وقبرص .

والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيه ظهرت دولة ايزوريان ففقدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطاليا . وأدخل اليها اكرام الصور على يد سبعة من امراء تلك الدولة. وتم انقسام الكنيستين الشرقية والغربية عام ثمانمائة وثمانية وخمسين فكانت رومية مركز هذه، والقسطنطينية مركز تلك كما هو اليوم. وأخذت جزيرة كريد وصقلية وغيرهما ووقعت الحروب البلغارية التي أضرت بسلطنـــــة الشرق كثيرا .

والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيه ظهرت عليها علائم السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق . على انها استعادت بلاد البلغار والصرب وقبرص مرتين .

والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٢٦٠ وفيه استولى السلاجقة على ثلثي آسيا الصغرى . ومر الصليبيون بها وكانوا من الساعين في تدميرها . ووقعت حرب النورمنديين فاستولوا على صقلية . ثم مات كمنيتوس الاخـــــير فازدادت المملكة ضعفا فاستقل عنها الصرب والبلغار . وعادت الصليبية الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها . فصارت عاصمة مملكة لاتينية ثم نازلها الامبراطور ميخائيل باليلوغوس فاستردها لنفسه . وبذل المجهود في اعادة المجد لهذا الملك. وتلاه ولداه من بعده ولكن تعذر عليهم الامر اذ تأيد استقــــلال البلغار والصرب والبشناق . واستولى الترك على سائر بلاد المملكة. فأخذ امبراطور القسطنطينية في استنجاد ملوك الغرب ووعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوه . وعظم هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانــوا أعوانا للعثمانيين علـــــى الامبراطور . ثم فتح الترك بلاد البلغار وقاتلوا الصرب. وتم لهم فتح القسطنطينية «فروق» على يد السلطان محمد الثاني وهي الان عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة .

نظرات اجتماعية

فصل في الاخلاق (١)

الاخلاق مظاهر العواطف ، وتجليات السرائر ، وآثار الطبيعة والتربية. فهي مختلفة في الناس بحسب اختلاف العوامل المؤثرة في قلوبهم ، وعقولهم ، وابدانهم . وهذا بديهي لا حاجة فيه الى البيان .

وقد تنوعت آراء الناقدين في تلك العوامل الموجبة لاختلاف الاخلاق ، وانحطاط بعضها الى دركات السفالة ، والرذيلة ، وارتفاع البعض الآخر الى مقامات الشرف ، والفضيلة . فرأى بعضهم الخلق الواحد منتشرا في الجماعة الكثيرة ، فحسبوا ذلك ناشئا عن موقعها من الارض ، او عن الاحكام الجارية عليها . فعدوا شريعة القوم ، وهواء البلاد ، مصدرا للاخلاق . واستحكم هذا الرأي في إذهانهم ، حتى توهموا ان المقيم بهاته البقعة من الارض ، على خلق لا يحصل في المقيم بغيرها مما يخالفها هواء . وان الاخذ بهذا القانون على طبع لا يكون في الاخذ بسواه مما يغايره . وهو غلو واغراق ، فان المواقع وان صح تأثيرها في الانفس والابدان ، الا انها لا تغير الحقيقة الانسانية في الانسان. واذا لم تتغير هذه الحقيقة فحسن الاخلاق ممكن في كل مكان . اما الاحكام فانها أشد تأثيرا في الطباع من سائر العوامل ، ولاسيما اذا استحكمت ومرت عليها الايام. ولكثر ما اطفأت الاحكام القاسطة انوار فضائل كانت لولاها ساطعة تأخذ بالابصار،

---

١ ـ من مقالاته ، اعيد نشره في الذرر ص ٢٤٢ .

ولطالما أوقدت الاحكام العادلة مصابيح كمالات كانت لولاها مطفأة مجهولة المكان. ولكن الاحكام وان عظم تأثيرها في الاخلاق ، فهي كالرماد تستر الجمر ولا تطفئه، والغبار يخفي النصل ولا يغير جوهره . فكرم الخلق ممكن الوجود في كل هيكل انساني على الاطلاق .

ودليلنا على الاول انه اما ان يراد بالموقع المكان من حيث الارتفاع او الانخفاض . وإما ان يراد به الهواء من حيث الحرارة والبرودة فان كان الاول فليس اهل الجبال جميعا على خلق واحد . وليس اهل السهول كذلك وانما فيهم الاخيار ، والاشرار ، والسفلاء ، والفضلاء . وان كان الثاني وقيل البرودة مانعة من قبول العبودية قلت اما ترون صقالبة الشمال . وان قيل الحرارة مانعة من طلب الحرية قلت اما سمعتم ببادية العرب . ثم أترون ان الانكليزي السريع الحركة ، والالماني المتأني ، والصقلبي المتغافل ، على خلق واحد وهم في مواقع متشابهة . او ترون الفرنسوي المشتغل ، والاسباني الكسول ، والايطالي المتسكع على طبع واحد .

ودليلنا على الثاني ان الذين اوجدوا الاحكام العادلة ، كانوا من قبل تحت أحكام الظلم كأهل الثورة الفرنسوية الذين خرجوا من تحت أحكام الملكية المطلقة ، الى وضع الحكومة المقيدة . وان ذوي الاحكام الظالمة كانوا من قبل تحت أحكام عادلة كأصحاب خيانة عام ٥٦ تحت رئاسة نابوليون الثالث ، فانهم قتلوا الحرية، وداسوا رجالها ، وأرجعوا القطر الى ما كان عليه من قبل ستين عاما . فكما أمكن وجود ذوي الاخلاق الكريمة كالشجاعة ، والنزاهة ، وحب الوطن في الذين كانوا تحت الاحكام الظالمة ، كذلك أمكن وجود الرذيلة كالخيانة ، والغدر ، والاثرة في الذين كانوا تحت الاحكام العادلة .

وكل هذا من باب الامكان فلا يتوهمن انّا نريد القطع بعدم تأثير المواقع والاحكام في الاخلاق . وانما غايتنا بيان ان هذا التأثير أقل مما يبالغون ، وان التربية قادرة على تعويض كثير مما يفقد الانسان بهذين العاملين .

(والبقية مفقودة كما ألمعنا الى ذلك في التنبيه السابق) (٢) .

***

الذات والمنصب (٣)

صاحب الخطة الحكمية فيما يعبر عنه الاوروبيون رجل عمومي . والمراد

---

٢ ــ هكذا وردت .

٣ ــ نشرها في التقدم ، وأعيد نشرها في الدرر ص ٣٥٩ .

بذلك انه واقف نفسه للناس عموما ، بما يقول وما يفعل . فهو من هذا الوجه عرضة للنقد العمومي ، لا يملك من شأنه الذاتي ما يملك سائر الناس ، ولا يسامح فيما لا جناح به عليهم ، ولذلك نرى أرباب الامر وأهل العقد والحل حراصا على الحكمة والدقة بما يقولون جوابا او خطابا ، علما منهم انهم في مقام النيابة عن الكافة ، فلا بد لهم من اجتناب النطق بما يخالف رأي العموم ، فان عرض لهم في عرض أمور الخطة شأن ذاتي ، فهم يحترزون فيما يصدر عنهم فيه ، بكونه متعلقا بالارادة الذاتية ، منحصرا بالصفة الخصوصية ، بمعنى انهم يتجردون فيه عن شأن المنصب ، وصفة الوظيفة ، بل ربما استدرك عليهم في ذلك ايضا ، ولم يكن هذا الاحتراز مانعا من مؤاخذتهم فيه لصعوبة الفصل بين الذات والمنصب ، ولان العامة لا تدرك الا الظاهر من الامر ، ولا ترى من حقيقة المنصب الا الصورة التي هي عين الذات . فالآمر والعامل والمأمور وسائر ذوي الخطط العمومية ، لا يخرجون من مكان النقد بحال من الاحوال ، ما لم يتجردوا عن حقيقة المنصب فعلا .

وليست الاخلاق والخصال الذاتية بخارجة عن هذا الحد المطلق في ذوي المراتب ، بل هي من أركان الاختيار ، وقواعد الحكم في احوالهم للصلة التي بينها وبين شرف المنصب وآثاره . فقد اشترط في صاحب الخطة العمومية ان يكون عفيف الذيل ، طاهر اللسان ، متأنيا متبصرا لينا في غير ضعف ، متمالكا في غير كبر ، بعيدا من النزق والغضب ، شديد القلب ، قوي النفس في غير عنف ، لثبوت ان خلوه عن هذه الصفات او وجودها معكوسة فيه يضع من قدر المنصب ، ويفسد ما يترتب عليه من الاثر . ولا يصح القول باستواء الرجل العمومي وغيره من سائر الناس في هذا الامر ، فان الشراهة وان كانت ذميمة على الاطلاق ، فهي في اهل المراتب أشنع وأفظع آثارا بما فيهم من القدرة على نيل ما تدفعهم اليه . والتبذل وان كان مكروها في جميع الخلق ، الا انه في ذوي المناصب أقبح وأوضح اضرارا بما لهم من القوة على الاخذ بما يبعثهم عليه. والكبر وان كان منكرا في كل ذات ، فهو في اهل الخطط أظهر انكارا وأوفر شرا بما لديهم من اسباب التحامل به على كثير من سائر الناس وهلم جرا . فسطوة المنصب تعين الشره من ذويه على ارضاء الشهوة بما يغضب الناس ، وتسعف المتبذل في اصابة الاعراض بما تنفر منه النفوس ، وتزيد المتكبر ثقلا وتأثيرا وبيلا في القلوب ، وتصونه في كل ذلك عن ان يقابل بمثل ما يفعل وما يقول . فيكون من وراء حد العدل على كونه منتدبا لاقامة هذا الحد .

وجملة القول ان الاحوال والخصال المنكرة او المكروهة في صاحب المنصب، حاصلة في مقام المؤاخذة والنقد من وجهين — وجه الذات ووجه المنصب — فهي مزدوجة الكراهية مضاعفة الانكار من هذا القبيل . بل هي فوق الازدواج والمضاعفة بما يلزم عنها من عموم سوء الاثر . ومعلوم ان مغايرة القانون ينظر اليها اولا من حيث هي هي ، ثم من وجه ما يتعين عليها من الاثر ، ويكون

جزاؤها من اي نوع كان ، بقدر ما يحصل في ميزان الحكم من مجموع الوجهين.

***

التشبه (٤)

قال :

من تردى برداء ما رآه لأبيه
وابتغى ما قد تعالى عنه مما يشتهيه
سوف يأتيه زمان يتمنى الموت فيه

وقد ابت لي نفسي ومشرب يعرفه الناس منها ان اكون من القائلين بالامتياز من غير مزية . اني اؤمن بالله واقر له سبحانه وتعالى بالعدل الذي هو عين المساواة . واظن ببني نوعي خيرا معترفا لكل سوي منهم بقابلية الفلاح والارتقاء، فما اردت بما تمثلت به من ذلك الشعر ايجاب تشبه الانسان بأبيه وقوفا عند حد التقليد ، ورضاه بما وجدت يداه فعل الوكل البليد ، وانما قصدت الاشارة الى من يتمثل بمن لا يصل اليه ، فيما يعز ادراكه عليه ، فيكلف نفسه ما لا تسع، ويلقي على عاتقه ما لا يطيق ، فيفيء بالخيبة والذل صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف الطريق ، وفي مثل الضفدع اذ انتفخ تمثلا بالجاموس فانشقت مرارته عبرة لاولي الالباب .

ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والاوساط ، فضاعت بها الاموال ، وساءت الاحوال ، وفسدت الاخلاق ، وضاقت الارزاق ، وصار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر ، وليس في باطنها غير الدود .

فيا قريني الوسط المستور بالبركة علام نتحدى الغني فيما لا نخدع به الا انفسنا من الزخارف والاباطيل . أرايت لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكنس بأطرافه قمامة الشوارع فيغنين البلدية عن الكناسين ، ولو تختم اولادنا بالجوهر مستعارا ، وتقلدوا سلاسل الذهب مبتاعة بالدَين تشبها بأولاد الاغنياء ، ولو سكنا القصور مفروشة بالديباج يطالبنا الغرماء بثمنه قبل انقضاء العام ، او نبذل فيه جل راس المال – انسدل على حقيقة امرنا حجابا ، ونلقي في اعين الناس ترابا ، فلا يظهر من حالنا الا ما نريد ، ولا يرى منا الا ما نظهر ؟ بل نحن

---

٤ – نشرها في التقدم ، العدد ٩١ ، بتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٨٨٣ وأعيد نشرها في الدرر ص ٤٢٤ .

نسعى الى دمارنا بأرجلنا ، مخربين بيوتنا بأيدينا .

وانت يا خليلي الفاعل الآكل الخبز بعرق الجبين ، فيم تتشبه بالاوساط وما فوقهم من الدرجات ، ارايت لو خرجت زوجتك من بيتها الحقير ، بزي امرأة جارك صاحب القصر الكبير ، على راسها نقاب ثمين ، وفي يدها عالة او مظلة من الحرير ، ولو رضيت بالفول غذاء ، وبأذناب الفجل عشاء ، لتلبس زوجتك وأولادك ما يلبس الاغنياء ، وأنتم في مبيت لا يرضونه مربطا لخيلهم – ايغير ذلك شأنك ، ويرفع بين الناس مكانك ، فلا تحسب معه حمالا او حمارا، ولا تعد ماهنا او اكارا ؟ بل انت معرض نفسك للسخرية تحرمها مما تحتاج اليه، لتظهر بما يضحك الناس منه .

سلني اخبرك بأحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة ، والاجتهاد المستمر ، فأولئك لا يتحلون بالذهب ، ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معد فارغة تطلب المدد ، ولا تتزيا نساؤهم بأزياء نساء المتمولين ، وانما لباسهم الكتان صيفا ، والصوف شتاء ، ولنسائهم وأولادهم ملابس تليق بشأنهم ، وتلائم أحوالهم ، يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين بما وصلوا اليه ، فرحين بما هم عليه ، لا يمس قلوبهم الحسد ، ولا تعرف انفسهم الذل ، فاذا انقضى زمن العطلة او يوم العيد ، عادوا الى شأنهم يسعون فيه . تشتغل نساؤهم كما يشتغل الرجال ، ولا يرى اولادهم في الازقة متمرغين في الاوحال ، واذا مر بهم سادة القوم من الوجهاء والاغنياء ، لم يخفضوا بين ايديهم راسا ، ولم يخافوا لهم قوة وبأسا ، وأنت مع ترديك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير ، تقف على ابوابهم موقف الذليل الحقير ، فما ضرك لو تركت ذلك الزين ، ولم ترض هذا الشين ، وانت في غنى عن الحالين .

الا ساءت عاقبة من جهل حده فتعداه ، ونظر الى من فوقه فتحداه ، فزلت به القدم ، فندم حين لا ينفع الندم . اطمع نفسه فيما تقصر يده عنه ، وعود اهله ما لا يستطيع الاستمرار عليه ، فطالبوه به فلم يصبه حلالا ، فاحتال فلم تغن عنه الحيلة ، فسرق فامتنعت عليه السرقة فاغتال فان عز عليه بعد ذلك فحياته في اهله عناء دائم ، وبلاء مستمر .

ونعم الرجل من تشبه بذوي الفضل واهل الاجتهاد ، فيما ادركوا به الامنية، وبلغوا المراد ، فطلب فحصل ، وسعى فأدرك ، وجدّ فنال ، وتعب فاستراح، لم يقنع قناعة الوكل ، ولم يطمع طمع المغرور ، فذلك هو المعنى المراد من قول من قال فأجاد :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ... ان التشبه بالكرام فلاح

***

التردد (٥)

اذا كنت ذا راي فكن فيه مقدما فان فساد الراي ان تترددا

ووال الزمان اذا والاك ، وخذ منه ما اعطاك فهو ملول يألف الصد ، وبخيل لا يأنف الرد . وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال ، أقصر من ان يسع المطال.

واعتبر بالذين يقتلون الايام ، بين الاحجام والاقدام . ويؤجلون للغد ما امكن بالامس الى ان يمتنع الامكان ، بما يحول دونه من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم ، وساء مآلهم ، فصاروا الى الضعف بعد القوة ، والهرم بعد الفتوة ، والخمول بعد النباهة ، والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صفارا ، ومسخ فضلهم عارا .

وأنظر الى الذين ينيطون الاقوال ، بأطراف الاعمال ، ويستلبون الاوقات ، من مخالب الآفات وينتهزون الفرص كيف سنحت ويدخلون ابواب السعي متى فتحت . هل زلت بهم الاقدام ، ام ندموا على الاقدام ، ام اسفوا كما يأسف المهملون ، ام خسفوا كما خسف المترددون .

او ما تراهم في ذروة المجد ، وربوة النعمة ، وعقوة الحرية ، لا يبلغ شأوهم الساعون ، ولا يمسهم الشقاء ، ولا ينالهم الظالمون بسوء . فهم القادرون اذا رغبوا ، والمدركون اذا طلبوا ، والعالمون اذا نطقوا ، والسابقون اذا لحقوا . تبتسم الحياة لشيوخهم ، كما يبتسم الموت لفتياننا ويروق الوجود لفقرائهم ، كما يروق الغنى لاغنيائنا . حتى كأن الزمان عاهدهم على الراحة ، وواعدهم باستمرار الهناء ، كما واثقنا على الجهد واستقرار البلاء .

فبتنا نعاني صنوف العناء ولسنا نرى في الانام معينا
ودارت علينا رحى نكبة تظل الحجارة فيها طحينا

فيا قوم : لقد مرت بكم الايام بأسباب النعمة ، والنقمة ، والراحة ، والتعب ، واليأس ، والرجاء ، فلم تستوقفوا الرغائب ، ولم تجتنبوا النوائب . ولكن وقفتم بين الجزع والكسل ، والامل والملل ، ففر المرغوب ، وقر المرهوب ، فلم تخيبوا خيبة الساعي لتعذروا ، ولم تصيبوا اصابة المتثبت لتنكروا ، ولم تدركوا الارب اتفاقا لتذكروا .

وتلك حالكم شاهدة بما اقول . فقد بليتم بما يذيب الشحم ، ويقرض اللحم ، وينقي العظم ، وانتم صابرون. ومنيتم بما وفر النقم ، وغيَّر النعم وأهلك النعم ، وانتم صامتون . ورزقتم بما جلب المصاب ، وهتك الحجاب ، وابرز الكعاب ،

---

٥ ــ من مقالاته ، اعيد نشره في الدرر ص ١٨٢ .

وأنتم خاشعون . فما الذي تخافون .. بل اي عناء لم تعانوه ، وأي بلاء لم تقاسوه ، وأي فناء تحذرون بعد هذا الوجود ، ام اي وجود ترجون مع هذا الفناء .

لا جرم ان مثلكم في الصبر ، على هذا النكر . كمثل بخيل ينفق العمر في التماس المال ، ثم يحبسه عن نفسه وعن العيال ، راضيا بأسوأ حال .

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ، ولا نقوى على احتمال الذل . فقد صار تاجرنا عاملا ، ونبيهنا خاملا ، وعالمنا سائلا ، فلم يبق فينا غير الاجير والتابع ، والشحاذ والزارع ، والجندي ، منخفض الجانب ، والشرطي منقطع الراتب .

بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه ، ويسقي الغرس بماء جبينه ، نزيل في دار ابيه ، وغريب في ارض ذويه . يحصد مما زرع ولكن لسواه ، ويجني مما غرس ولا يذوق جناه .

وجملة الامر ان الشدة . قد بلغت في امرنا حد الحدة . فصار ومن دونه الخوف بعد الامن ، والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء ، والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا الدهر بلاء لما وجد الى ذلك من سبيل ، وحتى عذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل .

تقولون هذا وأنتم في مراتع الاهمال ، ومرابع الآمال . تحرصون على القناعة حرص البخيل على درهمه ، وتضنون بالاقدام ضن الجبان بدمه .

وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الا بالصقال الجواهر
وكيف ينال المجد والجسم وادع وكيف يحاز الحمد والعزم فاتر

بل ما أجدر القائلين من غير فعل . بأن يفعلوا من غير مقال . اجل ولسوف تفعلون .

وكأني بكم عصابة ، من اهل الهمة والاصابة ترفعون الاصوات في طلب الحق المسلوب ، وتمدون الاكف لالتماس المال المنهوب ، وتجعلون الابدان للوطن سورا، يرد عنه العدو مذعورا .

وانتم الكلمة المتحدة ، والقوة المتجمعة هي اقوى من العدد الكثير .

الا انكم تترددون .

يأخذكم فيما ترومون عذل الخائفين فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتيه ، فيومكم ابدا مستهلك في غده والغد فيما يليه .

فيا حليف الصبر ، ويا نضو العناء ، نداء مشارك في بلواك ، وسامع لنجواك ، دع التردد ان اردت النجاح والنجاة ، واقدم فرب حياة تكون في الموت ورب موت يجيء من طلب الحياة .

ولا تبع عاجلا منها بآجل ما ترجو فذلك امر شأنــه الطول
ولا يصدك عن أمـر هممت به من العواذل لا قال ولا قيـل
فخير يوميك يومٍ انت فيه اذا ميزت رالناس محمود ومعذول

***

حب الذات (٦)

هو علة الفوائد ، والمضار ، والمحاسن ، والقبائح ، والكمالات ، والنقائص ، والسعادة ، والشقاء ، تجتمع الفضائل في الاعتدال فيه اي الوقوف عند حـد الكمال ، والرذائل في الافراط فيه اي استعماله في تجاوز الحد مـن جانب الزيادة ، والتفريط ، اي استعماله في تجاوز الحد من جانب النقصان .

فمن أوجه محاسنه ، وأنواع فوائده ، انه علة الاجتماع الانساني ، وذلك ان الانسان قد وجد على سطح هذه الكرة محتاجا الى الغذاء والكسوة ، ضعيف المخلب والناب ، ورای من نفسه العجز عن اصابة الحاجات ، ومقاومة سائر الحيوان ، مع الحرص على الوجود ، والرغبة في البقاء ، فطلب الاجتمـاع والتألف لدفع المضار ، وجلب المنافع ، فحصلت الجمعية المعبر عنها بالاجتماع الانساني وكان علتها حب الذات .

ولما استفاد بنو الانسان من حوادث الطبيعـة ، او متاعب العيش معرفة ، ومن تبادل الافكار رشدا وحكما صحيحا ، ائتمروا المذاكرة في شأنهم فقالوا لم نصرف الايام في التماس الغذاء من الارض الضنينة ، وطلب الصيد في الغابات المخيفة ، فهلم بنا نجمع الحيوان الضعيف فنحميه من القوي ، ونستفيد مـن ألبانه غذاء شهيا ، ومن جلوده لباسا حسنا ، ونريح انفسنا مـن طلب رزق اليوم ، والاهتمام برزق غده . واتفقوا على ذلك فجمعوا الضائنـة والماعزة ، والنعم والماشية ، وشعروا بعد ذلك بالراحة وحصلت لهم المسرة وما علتها الا حب الذات .

ولما حصلت لهم الحاجات ، وتفرغوا من الشواغل ، اطلقوا لنظرهم العنـان فسرح في الارض ، وارتفع الى السماء مستكنها مستطلعا وصرفوا اهتمامهم الى توفير مواد المسرة ، وتكثير اسباب الراحة ، ورأوا في بعض الجهات نباتا خفيف المؤونة ، كثير الحمل ، فاختاروا له في الارض مزارع معينة وبذروه ومنه الارز والشعير والحنطة وغيرها . ثم ظهر لهم انه يحمل في مدة قصيرة ما يكفيهم زمنا طويلا ، فاختاروا الاقامة في مزارعه ، ونصبوا فيها الاكواخ ، وبنوا المساكن ،

---

٦ ـ من مقالاته ، اعيد نشره في الدرر ص ٢٣٧ .

فكانت المدن ، والجماعات ، والامم ، وحصل التمدن الانساني وما علة جميع ذلك الا حب الذات .

اما أوجه قبائحه ، وأنواع مضاره فمنها ان الانسان لم يلبث بعد وصوله الى تلك الرتبة الوجودية ان خدعته الحواس فانهمك في الشهوات ، ولم يكفه ما يحصل له من ارضه وصناعته ، وطلب المزيد فأعياه فحمله حب الذات على الطمع في نصيب غيره فنهض على الضعيف معتديا ، فاستعان الضعيف عليه بضعيف آخر فخاف القوي ان يغلبه الضعيفان فقال لقوي آخر لمَ نحن نتعب ونجهد للحصول على حاجاتنا وملاذنا وهي بين ايدي هؤلاء الضعفاء هلم بنا نسلبهم ما لديهم ونغنم ما يصيبون . وهكذا اجتمع الاقوياء للظلم والسلب ، والضعفاء للمدافعة عن انفسهم ، فحصل التحزب والتشيع ، ووقع الخلاف في الجماعة ، فتنافرت القلوب ، وتباعدت الخواطر ، فحصل البغض والحقد ، وتأيد بهما امر الجهل ، وما سبب ذلك الا حب الذات .

ولما عظم امر الجهل انتصرت به دولة الشرور ، وذهل الانسان عن واجباته وحقوقه فحصل الكبر والذل وجهل حقوق الجماعة فجار واعتدى وحمل بعضه على بعض تحاملا واعتداء ، فامتلأت الارض قبائح واكدارا ، وفظائع واضرارا وتفرقت الكلمة في الاوطان ، وانقسم الناس بين سادة وعبدان ، بعد ان كانوا سواسية احرارا ، وحصل الاستبداد بالحكم والاخذ بالقوة والظلم ، وما علة جميع ذلك الا حب الذات .

فواعجبا لهذا الانسان كيف تجتمع فيه المناقضات فهو هو العادل والجائر ، والمحسن والمسيء ، والنافع والمضر ، وما كان أجدره بحفظ ذلك القانون الذي رسمته يد القدرة على صفحات الافكار وهو ان يفعل لغيره ما يروم ان يفعل الغير له وما احراه ان يكون عاملا بما قاله احد الحكماء ، مما نظمه احد اصدقائنا الفضلاء بقوله :

ذاتك احفظ وتفقه واعتدل واحي للناس ليحيا الناس لك

***

التعصب والتساهل (٧)

لقد جرى لفظ التعصب على ألسنة اهل الانشاء العربي بمعنى الغلو في الدين والرأي الى حد التحامل على من خالفهما بشيء فيما يدين وما يرى .

---

٧ ـ خطبة القيت في جمعية زهرة الآداب ونشرت في الدرر ، ص ٥٠ .

واجريت هاهنا لفظ التساهل بمعنى الاعتدال في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلو متابعة للافرنج في لفظهم المعبر عن هذا القصد (توليرانس) .

ولا اجهل ان هذين الحرفين ـ لفظ التعصب ولفظ التساهل ـ غير وافيين بالمراد منهما اصطلاحا ، وان في ايلاء الاول معنى الغلو في الدين والراي توسعا عظيما . وفي اشراب الثاني ضد ذلك المعنى خروجا عن الحد اللغوي . ولكن للاصطلاح حكما نافذا يسوق الالفاظ الى المعنى الغريب فتنقاد . فاذا مرت عليها الايام . وصقلتها الالسنة والاقلام . جاءت منطبقة عليه بلا ابهام ولا ايهام .

وحد" التعصب عند اهل الحكمة العصرية غلو المرء في اعتقاد الصحة بما يراه . واغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك الراي حتى يحمله الاغراق والغلو على اقتياد الناس لرايه بقوة ، ومنعهم من اظهار ما يعتقدون ذهابا مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه واثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق .

وحد التساهل عندهم رضى المرء برايه اعتقاد الصحة فيه واحترامه لراي الغير كائنا ما كان رجوعا الى معاملة الناس بما يريد ان يعاملوه . فهو على اثباته الصواب لما يراه . لا يقطع بلزوم الخطأ في راي سواه . وعلى رغبته في تطرق رايه للاذهان . لا يمنع الناس من اظهار ما يعتقدون .

فمن تبين هذين الحدين بصيرا سليم العقل طليق الذهن من اسار الوهم حار لا شك في كثرة من يراه من اهل التعصب على قلة من يمر به من المتساهلين . وعجب وحق له العجب من بني نوعه كيف يداخلهم التعصب فيما يعتقدون وما يرون . وقد عجزت افهامهم عن ادراك الكثير من اسرار هذا الوجود ، وقام لهم في كل حركة وكل سكنة من افكارهم دليل على امتناع الكمال على الانسان. وكان لهم في تعصب الاولين عبرة لو كانوا يعتبرون .

الم يروا كيف تعاقبت المذاهب ، وتوالت الآراء ، وتتابعت قضايا العلوم الانسانية ، معدودة في عصورها من الحقائق . وفيما يلي تلك العصور من الاوهام . ولا أذكر العقائد الدينية متسلسلة من بوذا الى زرودشت الى كونفوشيوس الى سائر دعاة الدين كراهة ان يتوهم في" قصدها بالذات . بل حسبي الاشارة الى تعاقب الوهم والحقيقة والخطأ والصواب في قضايا العلم عبرة للمتعصبين .

الم يكن القول بسكون هاته الارض قضية مسلمة ، وبدوران الشمس من حولها حقيقة معلومة ، وبانقسام البسيطة سبعة اقاليم علما يقينا . أو لم يكن طب ابقراط الهاما ، وفلسفة ارسطوطاليس كشفا وتعبير ابن سيرين حقا ، فماذا تقول رمم الذين تعصبوا لهاته الاوهام على من كان في ريب منها فألزموه الصمت والخسف ، وعاملوه بالشدة والعنف ، حرصا على ما يتوهمون من الحق والحق بريء منهم لو يعلمون .

ولقد رجعت الى المحفوظ من اخبار الامم حتى بلغت الحد الذي يدخل التاريخ منه في ظلمات الريب والخفاء ، فما مر بي جيل من الناس ، ولا حقبة

من الزمان ، الا رأيت من آثار التعصب في الدين والراي ما ينقبض له الصدر استنكافا ، وتثور منه النفس استنكارا . ثم عدت الى الفطـــرة الانسانية ، لاستكشاف العواطف الطبيعية فرايت فيها من السذاجة والسلامة ما ينطبق على حكم التساهل من كل الوجوه . فعلمت ان التعصب على قدم وجـــوده حادث طارىء على الانسان . تولد عن مفاسد الرئاسة في الجماعات . وتأصل بالعادة والتقليد حتى صار في النفوس من الملكات . يظهر ذلك لمن تدبر قدم التعصب في جنب خروجه عن الطباع . ويعلمه من تأمل احوال الرئاسة في صـــدور هيئات الاجتماع .

ولعلّي اوجزت واجملت والامر محتاج الى الايضاح والتفصيل فأقول: قد اجتمعت آراء المتفكرين على ان الرئاسة قد حصلت بداءة بدء للمتمولين او الاقوياء . وفي الحالين لم يأمن الرؤساء على سطوتهم ان تزول بفقد الثروة او انحطاط القوة . فالتمس النبهاء منهم تأييدها بما لا تؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كرور الايام ، فوضعوا للجماعات أحكاما ، كل رئيس وما توهم فيه المصلحة ، او ما رأى ميل قومه اليه . فرضي كل اناس مشربهم وقالوا هذا هو الحق الذي لا ريب فيه . وقال غيرهم من الاقوام بل الحق ما نحن عليه فأنتم فـــي ضلال مبين ، فوقعت بينهم الإحن ، وشبت أعقابهم على العداوات ، حتى قويت روابـــط الاوهام ، فتقطعت صلات الارحام ، فصار من الفضيلة ان يقتل الانسان اخاه ان خالفه فيما يراه . وامتلأت رؤوس الخلق عنادا . فملاوا الارض فسادا . فعدت المظالم عدلا وسميت المذابح جهادا .

ولا أحاول استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الديـــن والراي . فذلك تأريخ الحروب والفتن والغارات والمهاجرات من صدر الاجتمـاع الانساني الى المائة السالفة في بلاد الغرب ، والى هذه الايام في بلاد الشرق . بل الغرب على انتشار العلوم فيه وحصول الحرية لاكثر ساكنيه ، لم يخل الى الان من آثار ذلك الداء العياء .

نعم لا نرى فيه الان أفرادا وجماعات من الناس يذوقون ألوان العذاب ، ثم يقتلون صبرا شهداء ما يعبدون ، كما وقع لاهل النصرانية في دولة الرومان . ولا نجد الوفا من السكان المستأمنين يخرجون من ارضهم بالقوة او تهدر دماؤهم لاستمساكهم بما كان يعبد آباؤهم كما جرى لليهود في اسبانيا . ولا نبصر ديوان عقاب ونقمة يحكم بالتشهير والحد والتعذيب والموت على من اتهم بالشك في رواية المجاذيب عن بعض النساء عن بعض الاطفال ، كما كان ديوان التفتيش في كثير من ممالك الافرنج . ولا نلفي مئات الوف من نبهاء الخلـــق الامناء الصادقين يبيتون في منازلهم ويؤخذون بالسيف تقتيلا لمجرد انهم يفهمون من آي الكتاب خلاف ما يفهم غيرهم من الناس كما حل بالبروتستنت عام ١٥٧٢ في بـــلاد الفرنسيس . ولا نجد ايضا جماعات من الخلق لا يستطيعون النطق بما يعتقدون ولا الظهور بما يعبدون . ولا أفرادا من الجماعة يعاقبون بالسجن او التبعيد لانهم يأكلون ألباب حيوانهم ، في زوايا أكواخهم ، يوم يأكل ساداتهم الوان الاسمـاك

الشهية ، ويشربون معتقة الخمور في غرف القصور .

نعم لا نرى كل ذلك في الغرب الان ولا نكاد نبصره في الكثير من أقطاره ، مأخوذا بما أوضح من رأيه وما اشاع من مذهبه ، وان خالف راي الاكثرين . ولكن هذا التساهل في الهيئات ، أرسخ منه في الافراد الا الذين تطهروا من أدران التقليد وسلموا من علل الاوهام ، وغالبوا الملكات الحاصلة عن العادات ، وترفعوا الى مقام السذاجة الاعلى وقليل ما هم .

والا فما هذا الذي نراه من التحامل على بقايا آل اسرائيل في بلاد الروس والالمان . وما ذلك الذي مر بنا من مظاهر الإحن بين الكاثوليك وغيرهم في تلك البلاد . وماذا الذي نسمع به الان من الخلاف والشقاق بين الشيع المتباينة في فرنسا وايطاليا وبلجيكا وغيرها من أعرق البلاد في التساهل والحرية .

الا اقص عليكم اخواني شيئا مما تبين من محاكمة المتهمين بالفتنة التي جرت منذ شهرين في بلد (منسوليمين) بوطن الفرنسيس :

تبين من تلك المحاكمة ان اصحاب المعدن في ذلك البلد (والبلد عبارة عن المعدن والعاملين فيه) كانوا اذا رأوا من احد الفعلة فتورا في العبادة . او ضعفا في العقيدة التي يعتقدون . ضربوا عليه الفرامة اجرة يوم ويومين وما فوق . واذا ظهر عليه انحلال العقيدة طردوه من المعمل رأسا اي حكموا عليه بالفاقة وعلى عياله بالجوع . واذا مات ذلك المنحل العقيدة فشيعه صاحب له من رفقاء أتعابه الى القبر ، عاقبوا المشيع بمثل ذلك العقاب وهم هم في البلد الذي افتدى اهله بدمائهم حرية السعي . وحرية الرأي وحرية القول . فما الظن بغيرهم من اهل سائر الاقطار وما الظن بنا نحن الذين كان من نعم الله علينا ان وجدت بلادنا المقدسة مهبطا للوحي ومقاما للعقائد الدينية من عهد موسى صلوات الله عليه الى هذه الايام .

بل ما الظن بنا ونحن أحرص الناس على تعاليم السلف الكرام ، فيما لا يمس جانب النفع الادبي ، ولا يتصل بطرف الفائدة الحسية حتى ان معارف علمائنا في هذه الحقبة لتشاكل بالحرف معارف آبائهم من ثلاثمائة عام ، وتنحط بالضعف عما كانت عليه معارفهم من الف عام . وما الظن بنا ومثلي متكلما بهذا الموضوع في مثل هاته الجمعية الزاهرة . يخاف معاذ الله ان لا يجد لديكم استحسانا . لاجرم انّا اسعد خلق الله في أسعد بلاد الله فالحمد لله ثم الحمد لله .

وقد سبق القول في حد التساهل انه رضي المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه مع احترامه لراي سواه . وهذا وان كان من الواجبات البديهية ، والقضايا المسلمة عند ذوي العرفان . الا انه لسوء الحظ كغيره من سائر الواجبات ترشد الحكمة اليه ، ولكن تغلب الشهوة عليه ، حتى لا يكاد يوجد في الانسان الا عند العجز عن مجاوزة حده ، لمجاورة ضده فهو كالحرية يشتاقها الانسان مرؤوسا وينكرها رئيسا . وكالزهادة يقبلها سقيما ، وينبذها معافى سليما . فلا يثبت على تغير الاحوال الا عند ذوي النفوس الكريمة والطباع القويمة وما هم بكثير .

فلكم رأينا من فئة مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون اليه بكل لسان ، ويثبتون له الوجوب من كل الوجوه . فلما ان قامت دولتهم ، وقويت شوكتهم، وصار اليهم الامر والقوة ، كانوا من الغلاة المتعصبين . وهذه تواريخ العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية والطرائق السياسية فيما تعاقب عليها من القوة والضعف والقبول والرفض شاهدة بصحة ما اقول . لا يقف النظر على صفحة منها الا رأى المتساهل في ضعفه ، متعصبا يوم قوته ، والمتلاين في حال خسفه، متشددا في دولته . ولذلك لم يرض الحكماء من التساهل بأن يكون صادرا من اللسان مراعاة لاحكام الضرورة او من عاطفة القلب ميلا الى المعاملة بالاحسان بل أوجبوا فيه الاعتقاد بتحتمه على الانسان علما منهم بأنه يكون في الحالة الاولى متعلق الوجود ببقاء تلك الضرورة والضرورات قابلة الزوال . وفي الحالة الثانية متوقف البقاء على وجود تلك العاطفة والعواطف لا تستقر على حال . ومثل هذا الواجب الادبي الحق لا ينبغي ان يناط بهاته الاسباب الواهية وتلك العرى القريبة الانحلال . وانما اللازم فيه تقييده بمبدأ متين من الحق . وتأييده بعماد مكين من اليقين . بحيث يعلم مع مخالفيه فيما يظهرون من آرائهم . وما يعلنون من مذاهبهم . انه لا يفعل ذلك رهبة منهم ان كانوا اقوياء . ولا شفقة عليهم ان كانوا ضعفاء . ولكن قياما بواجب من العدل والحق .

قال احد كتاب الفرنسيس في هذا الموضوع ما معناه :

«وجب التساهل على الانسان من ثلاث جهات من جهة نفسه ، ومن جهة ابناء جنسه ، ومن جهة الحقيقة ، والحقيقة هي الله» .

فأما من جهة النفس فلأنه من واجباته الادبية التماس العلم والحكمة في اي وعاء خرجا . واصلاح ما عسانا ان نكون عليه من الخطأ . وكيف يحصل لنا ذلك ان سددنا أفواه الناطقين ظلما واستبدادا . ولم نسمع ما يقولون لننظر في اقوالهم . فنتمم آراءنا بآرائهم .

قال فيكتور هيكو :

كل انسان كتاب يكتب الله سطوره

ويقول العاجز :

وكذا البحث زناد قادح للحق نوره

كيف لا وفي أقوال أحقر الناس وآراء أصغر الخلق عبرة وفائدة وعلم جديد للمتأملين .

وأما وجوب التساهل على الانسان من جهة حق الناس عليه فلأن العدل الموجب للتكافؤ يلزمه بقبول ما يريد ان يقبله الناس منه سواء . ولما كان اول واجباته الادبية التماس الحق والصواب . وثانيها ايضاح ذلك الحق بالاقوال

والاعمال . كان من الظلم القبيح ان يمنع غيره من ابداء ما يظنه ذلك الغير صحيحا . ومن العسف المنكر ان يشوش عليه ما يلتمس من الحق بالاغتصاب او الارهاب من التفكير .

وأما وجوب التساهل من الجهة الثالثة جهة الحقيقة الخالصة فقد اثبته العقل ولم تنفه نصوص الاديان بل أيدته في مواضع لا تعد . قال ترتليانوس الكلامي: ليس من البر ولا التقوى ان تسلب حرية الناس في أمور الدين فان الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يريد ان يعبد اضطرارا .

وقال يوستنيانوس القديس : اشد ما يخالف الدين نكرا ان يحمل الناس عليه قهرا . وفي : لكم دينكم ولي ديني . وفي : لا تجادلوهم الا بالتي هي أحسن بلاغ للمتبصرين .

فالذين يلتمسون الزلفى الى الله بالوعيد والتهويل . والذين لا يريدون ان يعبد الا كما يريدون . والذين يحاولون رسم آرائهم في القلوب والجباه بالحديد والنار. كل هؤلاء يغضبون الله ويكفرون بالحق ولا يشعرون. فان الحقيقة ليست بأجنبية ولا بعدوة لتلقي على كاهل المرء الزاما . وانما نحن ضيوفها بالطبع فهي تقبل علينا وتقف لدينا لنطلبها عن رضى راغبين .

وقال شيشرون خطيب الرومان : انما نكون عبيد القانون لنضير بالقانون احرارا .

وفي الحديث المأثور : كن للحق عبدا فعبد الحق حر . وقول ذلك الخطيب الروماني ينطبق مقلوبا على ما نحن بصدده . فيقال فيه :

يجب ان نكون احرارا لنخدم الحق كما يجب والحق هو الله .

وهذا دعاء المتساهلين نجعله للمقال ختاما : يا بديع الصفات . إله جميع الموجودات . ما عرفناك حق معرفتك . ولا اهتدينا بضيائك لحكمتك . الهمنا في أمورنا رشدا . واسلك بنا سبيل الهدى . لنتعاون على احتمال النوائب الكثيرة في هاته الحياة القصيرة . ونعلم ان الخلاف الذي بين وقاء أجسامنا الضعيفة . وبين لغاتنا القاصرة . وبين عاداتنا السخيفة . وبين أحكامنا الناقصة . وبين احوالنا المتباينة . فيما نراه على استوائها لديك . ان جميع هاته المميزات . بين هاته الذرات . لا تكون من اسباب الإحن والعداوات . فتستوي عبادتك برطانة من لسان قديم مهجور . وبغيرها من لسان جديد مشهور . ولا يميز بين من يوقد الشمع نهارا لدعائك . ومن يكتفي فيه بضياء سمائك . وبين من يلبس لذلك الذهب والحرير . ومن يستقبل سماءك باطمار الفقير . ويكون الذين ملكت ايمانهم قطعطا مدورة من بعض المعادن متمتعين بلا تيه بما يسمونه نعيما . والذين استولوا على نتفة حقيرة من بقعة صغيرة منتفعين بلا كبر بما يحسبونه ملكا مقيما . ويكون سائر الناس راضين بالموجود . غير حاسدين على المفقود . ويذكر ابناء الانسان انهم في الإنسانية اخوان فلا يمزق بعضهم بعضا عنادا . ولا يملأون الارض فسادا . تجليلا لك عما يقول الجاهلون.

وتنزيها لك عما يزعم المتعصبون . انك اعظم من ان تغضب . واعــــز من ان ترضى . واكرم من ان تعفو . واكبر من ان تسر . واجل من ان تساء . تماثلت لديك الذوات وتساوت عندك الاشياء . وأنت في الكل وللكل سواء . وقنّــــا العثرة مع المتعصبين واحشرنا في زمرة المتساهلين . آمين .

***

اهل الكهنوت في فرنسا (٨)

قضي الامر وجف القلم . فقد صدر الامر من رئاسة الجمهورية الفرنسوية بفض رهبانية الجزويت ، وبحظر التعليم على سائر الرهبان الا من كان مرخصا له في ذلك ، او من التمس الرخصة ونالها في خلال ثلاثة اشهر ، وما أدراك ما رهبانية الجزويت : طائفة من اهل الكهنوت على مذهب الكاثوليك يبلغ عددهــم ثمانية ألوف او يزيدون ، ومنهم نحو الف وتسعمائة راهب في البلاد الفرنسوية.

وهم — فيما يقول مريدوهم — اهل العلم ، والسياســـــة ، والذكـاء ، والاجتهاد ، والهمة ، والفضل ، والثبات ، والبأس، لا يعارضهم في ذلك معارض ولا يدرك شأوهم فيه .

ينشئون المدارس ، ويجلبون المنافع ، ويكتشفون الغوامض ، ويستخرجون اسرار العلوم منتشرين في اقطار الارض ، واصلين بياض النهار ، بسواد الليل سعيا في تعليم الجهلاء ، وتهذيب المتوحشين ، وتمدين الاقطار ، وجمــع آثار المعارف . فمن تدبر مزاياهم الظاهرة ، وآثارهم الباهرة ، لم يتمالك من استنكار ما تعاملهم به الدول من العنف ، والفلظة ، فقد نفتهم اسبانيا غير مرة ، وأبعدتهم المانيا ، وأقصتهم فرنسا ، على عهد ملوكها المعروفين بالتعصب فــــي المذهب الكاثوليكي وحظرت عليهم الروسية دخول بلادها ، وجافتهم الدولة العثمانية في صدر هذه المائة ، ولم يسلموا من مناواة البابا في بعض الاوقات على كونـــــه رئيس مذهبهم .

غير ان اعداءهم يحتجون على مقاومتهم بما نذكر بعضه على سبيل الحكايـــة متبرئين من تبعته ، وغير قاطعين بصحته . فمن ذلك ان هاته الفرقة تشبه ان تكون جيشا منظما بما ينذر رجالها من الطاعة العمياء لرئيسهم المسمى قائـــدا بحيث تجتمع قواهم المتفرقة في وحدته الرئاسية فهو في كلهم وكلهم فيه .

وان لهذا العسكر قصدا لا يتحولون عنه ، ولا يتوجهون لغيره ، وهو تأييد

---

٨ — من مقالاته ، اعيد نشره في الدرر ص ٢١٧ .

السطوة الكهنوتية عموما، والجزويتية خصوصا ، وتقييد الخواطر بآرائهم بحيث يكون مشربهم محجة الافكار ، ورؤساؤهم ايمة الناس .

وانهم لا يبالون في اي وعاء تخرج الواسطة التي يتخذونها لبلوغ ذلك القصد، بحيث يجيزون الكذب ، ويتسامحون في السرقة ، ويحللون القتل ، ويفسدون بين الوالد وولده ، والاخ واخيه ، والزوجة وحليلها ، وبالجملة انهم لا يعبأون بشيء من المنكرات ، على شرط ان يمكن توجيه غايته لما يلائم ذلك القصد .

وذلك بعض ما يدعيه اعداء الجزويت ــ وما أعداؤهم بقليل ــ . فان فرقة البروتستنت وهي الوف الوف ، وجماعة الماسون وأهل حرية الضمير اي الذين لا يدينون بدين ، كل هؤلاء لو تمثل لهم الجزويتي في الماء لما وردوه وان كانوا ظماء .

وإنّا لنبرأ من موافقتهم على جميع ذلك او على بعضه ، ولا تبعة علينا في الحكاية ، فانما نحن نقلة وليس على الناقل من سبيل .

وكيف كان الامر فقد صدر حكم الجمهورية بفض جمعية الجزويت ، وتعطيل مدارسهم وهو بمنزلة النفي لامتناع ان يقيموا بهاته البلاد أفرادا متفرقين مع فناء وجودهم الذاتي ، في الوجود الاجتماعي على ما تقدم بيانه الا ان تؤيدهم القوة القضائية فيما عزموا عليه من اقامة الحجة أو ان يقوم أرباب العقيدة بنصرتهم ناشرين لواء الثورة كما تنذر به جرائدهم .

غير ان نفوذ امر الدولة ادنى الى الامكان من ذينك الوجهين ، فان الوزراء لم يصدروا ذلك الحكم جزافا ، وانما بنوه على الاحكام السالفة، والقوانين السابقة، وغير ذلك من الاسانيد التي لا بد للقضاة من تأييدها . اما ثورة اهل العقيدة فلعلها لا تتجاوز حد الوعيد اذ الغالب على هؤلاء في البلاد الفرنسوية انهم من اهل النعمة وأبناء القصور من كل من :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

فاذا تبين ذلك علمنا ان لا بد للجزويت من الهجرة الى هذه البلاد . وعندنا ان الاقطار الشرقية عموما ، والولاية السورية خصوصا لا تحرم من وفودهم عليها.

الجاسوسية

ان للدناءة رجالا وللخسة واللؤم عمالا ، اتخذوا من أقفية النعال وجوهـا كالحة يلطمون بها الابواب ، ويمرغونها على تراب الاعتاب، سعيا وراء كلمة ساقطة من فم آمن امين ، وتشاوفا على حركة صادرة من صادق صديق ، يجعلونها راس مالهم في تجارة النفاق ، لدى اهل الامر والنهي لعقد ما حلته الحرية وحل

ما عقده الاستحقاق ، فهم آناء الليل ، وأطراف النهار ، في زوايا المنازل ، او حول جدران الديار ، يتلصصون متصاغرين متحاقرين ، تمثل وجوههم الخاسرة، وعيونهم الحائرة ، لعنة الله على المنافقين .

وان لله خلقا كراما ، أمناء مستأمنين ، أصفياء مصافين ، يرون الوجود بمرآة انفسهم فلا يداخلهم فيمن يعاملون شك ولا يأخذهم بهم ارتياب ، فهم على اختلاف الحالات ، وتنوع الاوقات ، يسعون في شؤونهم صادقين مخلصين في الحق والواجب . تغرهم ابتسامة الرائي المرائي ، ويخدعهم استحسان الموافق المنافق ، وتنفذ فيهم حيلة المداجي المفاجي ، فيبيتون راضين عن انفسهم بما كسبت من العرف للناس ، ويبيت المنافقون مفكرين فيما يفترون عليهم زورا وكذبا فيا لعنة الله على الكاذبين .

او ما رأيت فيمن رأيت دميما ، قمأة ، مسيخا ، ضائع نور الحياة ، ناضب ماء الوجه ، زائغ انسان العين ، محلول عقدة اللسان، سريع حركة القدم، حرباوي لون السحنة ، خلدي آلة السمع ، كلبي الطباع فيما عدا الامانة ، خنزيري النفس يرى في الساعة الواحدة على عشرة ابواب ، وينطق في اليوم الفرد بمائة لسان ، ساعيا الى زيد بما يقول عمر والى عمر بما يفعل زيد ، والى خالد بما يقول ويفعل الاثنان . متجسسا للكل في الكل على الكل كاذبا ، مداهنا ، مواربا ، محتالا ، مخالبا ، ختالا، منافقا ، مفتالا أعراض الكل كاسبا ، مستهزئا سالبا مستهترا ، غاصبا ، ضاحكا من الكل . فهذا المسيخ من تنزلات ابليس اخزاه الله بين عباد الله فان رأيته بين أقدامك فارفع أطراف الثوب عنه وان مسه فطهره من رجسه تطهيرا ، ثم ارمه بحجر الاحتقار انه الكلب الاجرب فلا تخشَ منه هريرا .

وقل لمن قربه وادناه ، وغره منه مسعاه ، من باعك ماء وجهه ، وشرف نفسه ، وحق انسانيته بمقدار ما تنفقه على كلب الصيد . يبيع ذلك من سواك بأقل مما ينفقه على كلب السوق عادة أرباب الجاسوسية ، ذوي النفوس السافلة الدنية ، في كل زمان ومكان . فلا يغررك لين ملمسه :

ان الافاعي وان لانت ملامسها   عند التقلب في أنيابها العطب

ولا تخدعك حلاوة لسانه فانه :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا تحسبنه نافعك بما يضر الناس فللذي ينقله عنك أضعاف أمثال ما ينقله اليك :

وان أبا الكرشاء ليس بسارق   ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

أولم تره صديق المتعادين ، وحليف المتحاربين جميعا ، لا ينالــه الخسران بحال ، ولا يفوته النصر بقتال . وما ينتصر عليك الا بك ، وما ينتفع بعــدوك الا منك .

لا تقبلن نميمــة بلغتهــا وتحفظن مــن الذي انباكهــا
لا تنقشن برجل غيرك شوكة فتقي برجلك رجل من قد شاكها
ان الذي أنباك عنــه نميمة سيذب عنك بمثلهــا قد حاكها

دخل رجل على الوليد ابن عبد الملك وهو والي دمشق لأبيه فقال : عنــدي للامير نصيحة فان لي جارا عصي وفر. قال الوليد اما انت فقد اخبرت انك جار سوء على انّا نرسل معك فان كنت صادقا أقصيناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك .
وكان المأمون اذا ذكر عنده السعاة قال ما ظنكم بقوم يلعنهم الله على الصدق .
فسحقا لاهل النفاق والمين ، وبعدا لذوي الوجهين ، (فلا تطع المكذبين ودّوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتــد اثيم . الآية) .

***

تذكرة للبلدية (٩)

خفت التواء الامر وانعكاس القصد فجعلت عريضتي للبلدية تذكرة وتنبيها .
وكنت أتصاغر مستشفعا ، وأتنازل مستمنحا ، وأقف موقف السائل اقول من مال الله ، من كرم الله ، احسان في سبيل الله ، فلا ينفعنــي هذا المجاز ولا يحصل فيه للحقيقة مجاز . فهئنذا اخاطب البلدية بلسان الحـق وبيان القوة ، لأبدي لها الرأي العمومي رأي الذين انتخبوا اعضاءها ، رأي الذين يستطيعـون ان لا ينتخبوهم ، رأي الذين اقاموهم لاصلاح أحوال المدينة ، رأي الذين يؤدون الرسوم ورأي الذين لا يريدون ان تكون مدينتهم هزأة للغرباء ، رأي الذيــن لا يكتفون بنقل التراب من ناحية من ساحة البرج الى ناحية .
فان لم تسمع البلدية هذا القول وجهته الى من لا تكون البلدية الا بارادتهم الى الذين هم البلدية والبلد الى اصحاب الانتخاب .
أليس من العار ان تكون الطرق على ما نراها بعد المطر. ان يكون مدخل بــاب السراي مجمع أوحال تجاوز الركبة وتبلغ الرقبة . ان تكون طريق العربات الكبيرة

---

٩ ــ نشرت في التقدم ، العدد ١٦ ، تاريخ ٣ اذار ١٨٨١ .

الوحيدة من قبيل تربة الانكليز الى ساحة البلد مزالج يسير فيها القهقرى من يريد السعي . ان يكون ما بين باب الدركة ودير العازريات نهرا لا يقطع الا على اعناق الرجال . ان تكون المعابر ولاسيما معبر حارة اليهود مجمع أدران وأقذار. ان تكون المضائق بلا استثناء غوائط ينبعث من رائحتها ما لا يقوم دونه سد الزكام.

ارأيت لو مر سائح ببلدنا فرأى منازل الوجهاء قصورا من دونها قصور الامراء ، ثم شهد من حولها القاذورات ، الا يقول ما أضيع هذه المساكن في هذه الاماكن .

ولو جاءنا رحالة يلتمس غرائب الآثار فحداه نكد طالعه وسوء بختنا الى المعبر الاول من طريق العربات الى اليمين من القادم من ساحة البلد ، فرأى فيه الرجيع تلالا ، الا يكتب لمواطنيه جئت بلدا له مرحاض عمومي كبيرا ، او نزلت بقوم لا تضرهم الروائح التي تنشر فينا الوباء ، او يحسبنا نتجر بهذه البضاعة الثمينة او يظن بنا ما يكون شرا من ذلك وانكى .

عفوا فقد الجأتني الضرورة الى تسمية الاشياء بأسمائها واني لأشم من هذه الاسماء رائحة لا تحتملها الانوف ، وان كانت جبالا فأعجب من احتمالنا لرائحة المسميات .

ان بيروت صارت لا محالة أوفر المدن السورية ثروة وأوسعها معارف وأكثرها تجارة وأعرقها في التمدن ، فلا يحسن بها ان تكون أقلها انتظاما وأوسعها خللا وأوفرها اقذارا .

ان بيروت اول مراحل القادمين من البلاد الاوروبوية والديار المصرية ، فلا يليق بها ان ينزلها الغريب نزول الساقط من قمة الجبل الى غور الوادي من تاج الثريا الى حضيض الثرى .

هذه تذكرتي للبلدية كتبتها باسم الحقيقة أودعتها باسم بيروت وأهل بيروت فلتقرأ في المجلس البلدي باسم الحقوق والواجبات .

***

صراخ تجار بيروت (١٠)

الى الله يشكو التاجر ما يلاقي من المشقة ، وما يعاني من العناء ، وما يقاسي من الخسارة في ادارة الجمارك . تخرج بضاعته من الباخرة سالمة تسر القلوب وتصدر من باب تلك الادارة على حالة تقبض الصدور اذ تتناولها اول الامر ايدي البحرية . وهناك بداءة البلاء ، فان صاحب القارب او الجرم يتصرف

١٠ ــ نشرت في التقدم ، العدد ٥٤ ، تاريخ ١٦ تموز ١٨٨١ .

فيها كيف شاء لا حرج عليه ولا هو بمسئول كما وقع اخيرا بأحد التجار حيث غرق له في نفس الحاووز صندوق وارد اليه . فاذا وصلت البضاعة الى رصيف الجمرك ـ وقلما تصله غير مبتلة بالماء او غير ممزقة الغلاف ـ واخذ عنها الرسم الاول ـ رسم البحرية ـ تناولتها أيدي الخطفة المعروفين بالمستفين ، وهم فئة اوجدوا انفسهم في الجمرك لزيادة الرسوم . فان سعد التاجر بالاتفاق معهم على ترتيب بضاعته فعلوا كما يرومون ومن سها عن ذلك ولم يدفع اليهم الرسم الذي فرضوه على التجار افتئاتا نزل ببضاعته الويل فانهم يضعونها مقلوبة الاوجه مستورة البطاقات بعيدة عن مكان الوزن والكشف بحيث يتعذر على التاجر معرفتها وتتأخر عن سائر البضائع فيضطر الى استرضاء المستفين بأضعاف ما رسموه من الضريبة ، ليكشفوا له عن البضاعة كرما منهم واحسانا . وهذا هو الرسم الثاني ـ وهناك رسم ثالث نسيناه ـ وهو نقل البضاعة من الجمرك القديم الى المكان الموقت بضعفي ما تدفعه ادارة الوابورات ما بلغنا .

فاذا ظهرت البضاعة بعد الاخراج والنقل والترتيب ، لزم التاجر تقديمها للوزن او المعاينة وهناك المصاب الاعظم . هناك نداء لا يسمع وتوسل لا ينفع ودعاء لا يستجاب. فان كانت البضاعة مما يكشف طرحت امام المستخدمين تفتح وتبعثر وتعفر بالتراب ، وربما كانت من اليمني ذي اللونين او الثلاثة فراموا تغيير تعريفتها كما ذكرنا من قبل . ثم اذا تمت المعاينة بعد قتل الزمان وافناء الصبر بقي على التاجر اداء الرسم واخذ السند وهو هناك أحوج الناس الى صبر ايوب بما يجد من المدافعة والمطال عند كتّاب السندات فانهم لا يدفعون اليه السند ما لم يستنفدوا الصبر ، بل قال لنا شقة من التجار ان السند لا يخرج من أيديهم الا بجاذب من القرش . وهذا هو الرسم الخامس . ثم يروم التاجر اخراج البضاعة من الجمرك وثم بلاء الحمالة يستأثرون بالامر ويضربون على البضاعة ما شاؤا من الرسم ولا يؤذن لغيرهم في حملها . وهو الرسم السادس . ثم لا تصل البالات المخازن الا ممزقة الاطواق والغلاف وهو سابع الرسوم .

واذا كانت البضاعة برسم القبان فهناك البكاء وصرير الاسنان فانه من المعلوم ان كل باخرة انكليزية ترد هذا الثغر تحمل اليه ٢٠٠ بالة لا أقل او ٤٠٠ لا اكثر. وان تراكم هذه البالات في الجمرك على صفره قد بعث الجرائد والتجار على الشكوى والتماس توسيع المكان تكرارا . وقد صدر الامر بذلك وشرع فيه ولكن المحل الجديد الموقت في منتهى الضيق تراكمت فيه البضائع التي برسم القبان حتى بلغت نحو ٥٠٠ بالة وتعسر على القباني تيسير العمل حتى انه لم يزن بالامس غير تسع بالات .. مع انه لو وزن تسعين لكان ذلك دون الكفاء . والقباني يشكو من ضيق المكان ولكنا وجدناه على الحالين كما نراه الان يزن المئة ولا يزن العشرة. يقتل الزمان فيما لا رادّ له متبذلا بالمنطق يفاغ في كل يوم من الشتائم كبانة ولا يضن بشيء من اللفظ الذي يصم الآذان . فعلى الضبطية والمجلس البلدي وادارة الجمرك ان تدارك امره كل خطة منها فيما يتعلق بها منه .. وله بعد قراءة هذه الملاحظة ان يقذف كاتبها والباعث عليها وجامعها وطابعها بما شاء .

وليس هذا منتهى مصاب التاجر في ادارة الجمرك بل عليه من بعده رسم آخر يكون الذنب فيه للمأمورين والقصاص عليه . نريد رسم الارضية . فانه قد يمر بالبضاعة ايام طوال على الصورة التي ذكرنا يطلبها التاجر ويروم ايصالها للمشتري على التسليم ويدافعه المستخدمون في ذلك . ثم يؤمر بدفع رسم الارضية ضغثا على ابالة ، فيكون ذلك تابع الرسوم .

كل هذا من موجبات العناية ومواضع النظر والاهتمام ، خصوصا ونحن في مدينة كثيرة الاجانب واسعة التجارة تحدق بها انظار الناقدين وتحوم عليها افكار المراقبين ، فلا يجمل بنا والحالة هذه ان تكون ادارة الجمرك فيها موضوع انتقاد ومظهر خلل وفساد تضيع بها مصالح اهل التجارة ولا تصان منافع الدولة العلية ويهمل بها جانب الواجب القانوني ولا يؤخذ بارادة ولي الامر والنعمة الصادرة الى العمال على لسان كل وال ومتصرف جديد بمثل هذا النص الكريم (ان اقصى مرادي وغاية مرامي اصلاح شأن بلادي فابذلوا الهمة في حفظ رفاهية وسعادة رعيتي) .

فهل يحسب عمال الجمرك ان حفظ السعادة والرفاهية يكون باضاعة الاموال وتعطيل الاعمال ، ام يخيل لهم ان التجار يصبرون على هذا العسف . كلا فليعلموا انهم جميعا على قدم الشكاية الى مراجع الامور العالية وان لهم في عناية ملجأ الولاية وفي همة امانة الرسومات املا اكيدا وامنية معقودة بأطراف الإصلاح. ولن يخاف جورا ولا اعتسافا من كان على الحق ، ومن لاذ بجانب العدالة وانما الخوف من سيف الحق والعدل على الجائرين .

★★★

الشرطة والبوليس (١١)

اذا اراد الله بقوم خيرا جعلهم على رشد من احوالهم وبينة من أمورهم وصفاء في نياتهم ونبالة في غاياتهم فتأتلف قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويعنى كل أحد منهم بما يكون فيه مصلحة للكل فتشملهم النعمة وتعمهم السعادة فينالون الحسنى وزيادة .

ولا نقول ذلك تعريضا بعكسه فيما رأيناه من اختلاف الكلمة وتفرق الراي وتنافر النفوس بين رجال الشرطة والبوليس في هذا الثغر ، فان القلوب لا تزال تحدثنا بأن الذي جعلنا في أخصب ارض تحت اصفى سماء على أعذب ماء تبارك وتعالى لم يرد بنا الا الخير ولكنها تذكرة لقوم يتبصرون .

١١ ــ التقدم ، العدد ٦٨ ، اول ايلول ١٨٨١ .

ولقد المعنا من قبل بما كان واقعا بين فريقي خفارتنا ووقايتنا وصيانة أرواحنا واموالنا من الشقاق والعداوة اذ اقتصر كل فريق منهم على معاكسة الآخرين فيما ينتدبون من الاعمال فوقفت بذلك أرجلهم جميعا الا عن السعي فيما تدعوهم العداوة اليه وانقبضت ايديهم الا عن التطاول الى ما تحملهم الشحناء عليه فاشتغلوا بأنفسهم عن كل شاغل لم يبالوا بضياع الحقوق ولم يعبأوا باهمال الواجبات . ولو كان ذلك منهم او من بعضهم مجرد حرص على المصلحة العمومية او رغبة في تأدية الواجب او نفور من التغاضي او استنفار من الخيانة لكان في الامر وجه توجيه الى الخير ولكنه ناشىء عن البغضاء والعداوة الذاتية محضا بل قال قوم انه مترتب على التعصب في امر العقيدة وهو البلاء الذي نعوذ بالله منه .

وكان في مأمولنا ان رئاسة الضبط في ولايتنا تضع هذا الامر الخطير موضع النظر والتحقيق لتكون على علم بالدخيلة فتعاقب اهل الفساد بما يستحقون ثم علمنا الان ان قد صدر الامر من جانب الاي الضبطية مبنيا على انهاء رئسها في بيروت بنقل رجال بوليسها جميعا الى دمشق واستبدالهم بمثل عددهم من بوليس دمشق غير اننا لم نعلم سر هذا الامر وهل نشأ عن ظهور قصور البوليس بالبحث والمحاكمة ام ترتب على كمال الاقتناع بقول جناب الرئيس فان كان الاول فلا اعتراض لنا ولا أمنية الا الوقوف على نتائج ذلك البحث ليكون في بيانها عبرة لقوم آخرين وان كان الثاني ففيه لا شك نظر .

وكيف كانت الحال فان ابدال رجال الدرك جملة في بلد من مثل بيروت حقيق بمزيد الاهتمام والدقة ان رجال البوليس القدماء عارفون بأحوال المدينة خبيرون بعادات اهلها قادرون على كشف الغوامض واقفون على اسرار الحوادث بخلاف من يجيء مكانهم جديدا غريبا لا يعرف شيئا من تلك الاحوال والعادات والغريب اعمى وان كان بصيرا .

ولسنا نروم بهذا القول دفاعا عن البوليس المستبدلين ولكن شأننا بيان وجه المصلحة من حيث كان لا نخاف فيه ملاما ولا نسأل عنه اجرا ومأمولنا في عناية ولي امر الولاية الهمام اصدار ارادته الكريمة بما يلائم الحال وما يؤمل منه حسن المآل .

***

الدائرة البلدية (١٢)

سنة الزمان في الناطقين بالحق اجهارا انهم لا يعدمون محبا ضعيف النفس

---

١٢ ـ التقدم ، عدد ٧٠ ، تاريخ ١٢ ايلول ١٨٨١ .

يقول كنتم في غنى عما يجلب عليكم العداوات وعدوا مموه الظاهر يملأ الكون مخاوف ومهالك فيما لا خوف منه ولا مهلك فيه ولكن النفس الابية البريئة من المآرب الذاتية تعلم انه لا يقرب من اجل ولا يبعد من رزق ان يقول المرء حقا فاذا أثر كلامها في سامعيه فذلك غاية ما تسعى اليه وقصارى ما تطمع فيه .

ولقد رأيت في العدد الاخير من لسان الحال رسالة لاحد اعضاء البلدية يرد بها على الذين (أكثروا من التنكيت على اعمال الدائرة البلدية) وعلى الجرائد التي (انحازت مرارا لاقتراحاتهم آخذة ببسيط الظاهر) والتي (اتخذت هذه المسائل كموضوع واف لتعبئة صحائفها بدون وقوف على الحقيقة) فعلمت ان تقدمنا داخل لا شك تحت احد هذين القسمين فلزمني تصفح الرد الى آخره التماس الحقيقة التي لم يقف التقدم عليها فرأيتها من ثلاثة أوجه . الاول ان دخل البلدية المحدود لا يفي بما تحتاج اليه المدينة من تمهيد الطرق والتطهير والرش والتنوير وهلم جرا والثاني ان البلدية ممنوعة من تنفيذ أحكامها بذاتها مأمورة بتفويض ذلك الى الضبطية فان كان هناك قصور فليست هي المسئولة عنه . والثالث ان اهل المدينة انفسهم لا يحترمون نظام بلديتهم (ابتداء من الذين يلمون بالمصلحة العمومية وانتهاء بالذين يطوفون الشوارع يمتصون قند السكر ويأكلون البطيخ ويلقون السواقط والقشور في الازقة) وفي عرض ذلك إلماع بكون دائرة بلديتنا احسن بلديات الولاية ادارة وانتظاما .

وليتنا نستطيع الاقتناع او الاكتفاء بهذا الايضاح الاجمالي فلا نجد من بعده الا الثناء على حضرة صاحبه (وان رمانا بالتهافت على مواخذة البلدية لتعبئة الصحيفة) ولكنه تاه فيه بين الغلط والمغالطة والخطأ والتخطئة والالباس والتبرئة والاعتراف يريد به انكارا والانكار يروم به اعترافا فما زادنا كلامه الا تحيرا في احوال البلدية وتأسفا عليها .

قال إن دخل البلدية محدود لا يفي بحاجات المدينة . فيا عجبا متى طلب الناس من تلك الدائرة تنشىء في مدينتهم شوارع ومخارف (المخرف الطريق بين الاشجار) وتوجد فيها مجامع ومنازه وتجلب اليهما منافع ومحاسن من مثل التي في بلاد الغرب .. ان غاية ما طلبوه وما وقفوا له موقف القائل من مال الله من كرم الله ولا يكثر على الله الا يمروا بالاسواق فينقش دم اللحوم أثوابهم وترقش الوحول أوجههم وتعلق الاقذار بأذيالهم . والا تكون زوايا الديار مبالات وساحات البلد غوائط ومجاري السيل مجامع للقاذورات تنبعث منها الروائح الوبيئة والحر في السادسة والثلاثين من درجات سنتفراد . والا يباع اللحم وما يتبعه في ايام سهولة الطرق بأسعار لا يكاد يبلغها في شدة الشتاء وهلم جرا مما لا حاجة فيه الى واردات بلدية باريس .. وما طلب احد من الناس اضاءة المدينة بالغاز (بل رامت البلدية ذلك واعترضت عليها الجرائد فيه) ولا اخذوا على البلدية رش طريق واحدة منها واهمال سائر الطرق . ولا تقدموا اليها في تجريد ساحة البرج من الاشجار لجعلها دوحة بلدية يوم يشيب الغراب . فانهم يعلمون مقدار دخلها المحدود من قبل هذه الرسالة ومن قبل ان ناب لسان الحال عن الدائرة البلدية

بنشر برنامجها وبيان اعمالها ..

اما رمي اهل المدينة (على الاطلاق) بكونهم لا يحترمون نظام البلدية ففيه نظر لا يخفى عن البصير وعلى تقدير صحته ألم يكن من واجبات البلدية حملهم على ذلك اضطرارا بما حق لها من وضع الجزاء النقدي .. فالاعتذار من القصور بما يلقيه الناس في الازقة من سواقط البطيخ يشبه ان يكون تبريدا للحمى بقشور البطيخ .

واما كون الضبطية متغاضية عن اجراء ما ترسم به الدائرة البلدية فلا نثبته ولا ننفيه وانما نلتمس من أولي الامر والنهي النظر فيه .

وجملة القول انّا براء من كل قصد ذاتي فيما نأخذ على الدائرة البلدية لا نريد به الا الاصلاح ولا نقصد الا القيام بواجب الخدمة العمومية . ولو رأينا للتحسين وجها لكنا في مقدمة الذاكرين الشاكرين .

ولقد سرّنا ان جناب عزتلو رئيس المجلس البلدي تبين وجه الخلل في خلو المجلس عمن يدير اعماله مدة غياب حضرته في مصيفه بلبنان فاستناب عنه جناب الهمام الوجيه المكرم رفعتلو محيي الدين افندي حماده كما سرّنا تنشط احد اعضاء البلدية لدفع الملام عنا وان كان رده ضعيفا فان ذلك يدل على انفعال الانفس بما لهجت به ألسنة الخلق ويحيي في القلوب املا قضى او كاد هدانا الله فيما نقول وما نفعل طريق السداد .

***

ذكرى لأولي الالباب (١٣)

الحمد لله الذي أذهب عنا الخوف والحزن . لقد صح ما ارتأيناه وأثبتناه غير مرة من سلامة الصحة العمومية في بيروت ، وخلوها عن وبالة الوباء على رغم الذين استحلوا تشويش الخواطر وازعاج النفوس من عامة المرجفين ومن الاطباء. واليوم يعطى للسفن الصادرة من مرفأنا جواز الصحة المعروف بالباتنتا ، خاليا عن آثار الداء مطهرا من شبهات الوباء ، فينقضي ما نالنا من القلق والاضطراب وما حل بتجارتنا من الخسار واختلال الاحوال ناشئين عن انقطاع الصلات وسكون الحركة وانقباض الايدي عن الاعمال . ولعلنا نستفيد بما أضعناه في ذلك من مال وما نابنا من ضنك وخوف حكمة تنفعنا في الحال والمآل فنعم الرجل من استفاد الحكمة مما يمر به من حادثات الايام فتأمل واعتبر وتعلم واختبر فلم تنته الفائدة بحال .

---

١٣ ـ نشرت في التقدم ، العدد ٦٩ ، تاريخ ٦ ايلول ١٨٨١ .

فما يجب ان يفيدنا ذلك الحادث الذي لفحنا حر الخوف منه ، ولم تمسنا والحمد لله ناره انه أبان لنا مفاسد المحتجر اي محل الكورنتينة (١٤) على حاله الحاضرة من الضيق وسوء الترتيب والقرب من العمران كما أوضحناه ، وابانته بعض سائر الجرائد الوطنية على اختلاف عبارات واتفاق معان . وان استبقاءه للغرض الذي انشيء له اي ليكون مستقرا للهاربين من البلاد المصابة بالوباء ، يكون مثله مثل حسام ذيمقليس معلقا فوق راسه بخيط ادق مما تنسج العنكبوت فصار المأمول بل المعتقد يقينا بعناية أولي الامر انهم يحولون عما وضع له في الاصل فيكون ما شاءوا ولا يكون البتة خنجرا صحيا .

ومن ذلك اي مما يليق بنا استفادته من حادث الوباء المندفع ان مجلس الصحة في الاستانة العلية جدير بأن يلحظ احوال وكلائه واطبائه ومأموريه وخدمته في هذه المدينة بعين الاهتمام ، حفظا لكرامته وضنا بشأنه ان تلم به الالسنة او الاقلام . فقد اثبت الامتحان ان من اولئك المأمورين والاطباء والخدمة من لا تليق بهم المناصب ، ومن لا تحل توليتهم الامور المتعلقة بصحة الابدان ومن لا يوفون الخدمة حقها من اللين والصيانة ورعاية الحقوق والواجبات ونطقت بذلك السنة الخلق وهي أقلام الحق فلم يبق فيه من مكان للريب ولا من وجه للعذر :

قد ما قيل ان صدقا وان كذبا   فما احتيالك في قول اذا قيلا

ومن ذلك ايضا ان الاخذ بأسباب الوقاية من الوباء من نحو النظافة والحمية وتطهير الهواء وازالة المفاسد الجالبة للوبالة والعمل بآراء مهرة الاطباء ، كل ذلك مما يعين بحول الله على دفع الاوبئة وحفظ الصحة فهو حقيق بأن يلتزم في كل حال جدير بأن يتبع في كل وقت لا يقال مضى زمن الحاجة اليه ولا يظن امكان الاستغناء عنه ، فليس الهواء الاصفر وحده مما يسمّى بالوباء ولكن الاوبئة كثيرة وتلك الوسائل الصحية نافعة ضرورية فيهن كلهن بلا استثناء .

ومنه ان ارباب الحكم والادارة منا قد بذلوا جهد المستطيع في مقاومة الداء ، لم ينلهم الملل ولم يداخلهم الضجر ولم يكن ما اصابهم من التعب الا كالصقال للسيوف زادهم رواء في العين ومضاء في الاعمال ، فهم جديرون بالشكر الطيب مستحقون للثناء الجميل ، جزاء بما احسنوا وما بذلوا من الخير بل كفاهم من حسن الجزاء ان سعيهم قد اقترن بالنجح وكان مشكورا وان فضلهم لن يبرح في كل مكان مذكورا :

ان الرجال صناديق مقفلة   وما مفاتيحها الا التجاريب

---

١٤ ـ اي : المحجر الصحي او الكرنتينا ـ المحرر ـ .

ومنه ان خلو المدينة عن المفاسد واستتباب الامن والراحة فيها وسلامتها من آفات اللصوصية ، مع كثرة الذين جلوا عنها الى جبال لبنان ، وكون الكثير منهم من ارباب الثروة الذين تكون ديارهم مطامح لأنظار اللصوص ، كل هذا يدل على نباهة عمال الشرطة ورجال البوليس ، ويثبت الذكاء وحسن الاجتهاد وعلو الهمة لجناب رئيسهم النبيه ، فهو واياهم حريون بالشكر خليقون بأن يقتدى بهم في سائر انحاء الولاية مستحقون لمزيد العناية وحسن الالتفات من أولي الامر الكرام.

ومن ذلك ان معظم الضرر المالي الذي نال تجارنا والمّ بأوساطنا وجعل الفقراء البائسين منا في اسوأ حال من العسر والضنك ، انما نشأ عن الاسترسال للخوف قبل ظهور الموجب الصريح والتصديق لأخبار المرجفين من ذوي الاغراض الذاتية ، وممن يكذبون ميلا مع الطبع مجانا من غير نقد ولا تجريح . فلو تواتر الاخبار عن عزم حكومة لبنان على اقامة الحجر الصحي فيه لامتنع العذر على اولئك الذين تعجلوا الفرار والقوا الرعب في قلوب الناس .

وعلى ذكر الحجر الصحي في لبنان نقول ان الحادث المندفع قد افاد حكومته من هذه الجهة فائدة لا تنكر اذ علمت ان اقامة الحجر فيه على ما يقتضيه نظامه من الدقة والاحكام والترتيب ضرب من المحال ، وان قرى الجبل غير محتاجة اليه لما ثبت بالاختبار من عدم قابليتها للوباء ، فتبين لها انه عبث من الوجهين فضلا عما ينال اهل لبنان به من الخسارة والضرر العظيم ، فلن تعود اليه هذه المرة على تقدير ان يقع لا قدّر الله ما يخطره على البال .

ولا ننسى مما افادنا ذلك الحادث انه كشف لنا سر الراي العمومي ، وارانا مقدار تأثيره في الاعمال وانه صاحب الحجة الغالبة في اكثر الاحوال ، اذ اتضح لنا بأجلى بيان ان جرائدنا على ما بها من الضعف والقصور لما استظهرت بحجة ذلك الراي وظهرت بما كان موافقا له منطبقا عليه ولم تزد على بيانه فيما نشرته وعلى مراعاته فيما قصدت اليه قد اثرت في الاعمال والاحوال العمومية خيرا فكانت من موانع الزيادة في جانب الفساد ومن موجبات الاستمرار والنماء في جهة الصلاح ، فحسنت خدمتها للامة والدولة وظهرت آثار سعيها المشكور لكل ذي عينين .

فأرباب هذه الصحف جديرون بأن يزيدوها فائدة ومراعاة للراي العمومي واختصاصا بخدمة الوطن ، لتزداد انتشارا وتبلغ المقام المعد للجرائد في البلاد العامرة بين القوم المتمدنين . وقراؤها اجدر بأن يقبلوا عليها وينظروا بعين الرضى اليها ، ويمهدوا لها سبل التقدم والنجاح فانها مرآة احوالهم ورسم حقيقتهم ومظهر منزلتهم من التمدن والعرفان . وقد قال احد كتّاب الغرب «جرائد القوم مثالهم فمثلما تكن يكونوا» ولاسيما ان أثمان الجرائد عندنا باعتبار نسبها الى غيرها من جهة الحجم واعداد الظهور ـ أقل منها في سائر الجهات ، مع ان وسائل الطبع والنقل وجمع الاخبار لجرائدنا أعسر وأوسع نفقة مما يتيسر لأرباب الصحف في جميع الانحاء . فاذا سعى كل من الفريقين في شأنه وقام بما يجب عليه فأصلحنا نحن الجرائد بحسب الامكان ، وجعلنا القصد الاول منها تأييد

الحق وخدمة الوطن العزيز ثم عرف المطالعون حقها واعترفوه وادركوا نسبتها اليهم فضنوا بأن يقول الناس فيهم غير ما يريدون ، فحينئذ تظهر لنا فوائد الجرائد وتعرف عندنا منزلة الرأي العام .

لا تقل عز فلا ندركه　　　كل من سار على الدرب وصل

الفهرست